مذكرات

تشرشل

Churchill



ترجمة
إبراهيم عبد الله

مذكرات
ونستون تشرشل

ترجمة

إبراهيم عبدالله

الدولية للنشر والتوزيع

رقم الإيداع
٢٢٧٠٥ / ٢٠٠٦ م

الدولية للنشر والتوزيع

٦ ب شارع جواد حسني ـ الدور التاسع ـ شقة ٣٠ ـ عابدين ـ القاهرة
ت: ٠١٠٥٠٩٨١٠٦ ـ ٠١٠٨٧٣١٦٨٨ ـ ٠١٠٦٦٩٥٢٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

أدولف هتلر

في سنة ١٩١٨ أصيب عريف ألماني بالعمى المؤقت في عينيه تحت تأثير إصابته بغاز الخردل، أثناء هجوم بريطاني على مقربة من كوبنز. وإذ هو طريح الفراش في بوميرانيا حلت الهزيمة بألمانيا، وانتشرت الثورة في جميع أنحاء البلاد وكان مولده لأب نمساوي مغمور من موظفي الجمارك. وكانت أحلامه في صباه تتطلع إلى الشهرة كفنان عظيم. وقد فشل الشاب في الالتحاق بأكاديمية الفنون في فيينا. فعاش فيها فقيرًا محرومًا ثم انتقل إلى ميونيخ حيث عاش عيشة مماثلة من البؤس وقد زاول فيها بعض الأعمال اليدوية كالدهان والطلاء. وقد نمت في هذا الشاب من جراء وحدته وقسوة العيش عليه نزعات قاسية تنطوي على الحقد والكراهية نحو هذا العالم بأسره، ذلك العالم الذي حرمه النجاح، لكن هذه النزعات لم تقذف به إلى أحضان الشيوعية، ولكنه انطوى عل نزعة من التقديس الفائق للعنصرية وإعجاب صوفي مشتعل بألمانيا والشعب الألماني.

وقد التحق عند نشوب الحرب العالمية الأولى متحمسًا بالجيش. وخدم أربع سنوات في إحدى الفرق البافارية بالجبهة الغربية.

هذه هي البوادر الأولى للطالع السعيد الذي ظفر به أدولف هتلر.

كان طريح الفراش فاقد البصر والأمل في مستشفاه في شتاء سنة ١٩١٨ فامتزج ما في نفسه من مرارة وبؤس بالكارثة التي حلت بالشعب الألماني بأسره.

وقد أدى أثر الهزيمة وتدهور القانون والنظام وانتصار الفرنسيين إلى شعور بالغ من الحزن سيطر على هذا العريف الناقه، فولد عنده قوى روحية لا

حد لها تلك التي قدر لها أن تلعب دورها في إنقاذ البشرية أو هلاكها، ولم يستطع أن يجد سببًا من الأسباب المألوفة لانهيار ألمانيا فلابد من أن تكون هناك خيانات وأسباب مخيفة أدت إلى ذلك، ومن ثم أخذ هذا الجندي الصغير يفكر في عزلة فيما عسى أن يكون من الأسباب التي أدت إلى الكارثة مستوحيًا إلهامه وتجاربه المحدودة. وكان قد تعارف إلى بعض القوميين من الألمان المتطرفين، واستمع إلى أحاديثهم عن النشاط الغادر الذي قام به شعب عدو للشعب النوردي مستغل له أفراده من اليهود، فاشتعلت في نفسه نيران البغض والكراهية لهذا الشعب، بالإضافة إلى كراهيته ونقمته على الأغنياء والناجحين في الحياة.

فلما غادر المستشفى أخيرًا بلباسه العسكري الذي يزهى به كصبيان المدارس، تفتحت عيناه اللتان عاد إليها النور ليرى ما خلفته الهزيمة من آثار مخيفة مرعبة ورأى ما عليه حالة من اليأس، وملامح الثورة الحمراء تشتعل نيرانها، وتندفع في شوارع ميونخ السيارات المصفحة تلقي المنشورات النارية على الأفاقين والعابرين من اللاجئين، وأبصر رفاقه وهم يحملون شرائطهم الحمراء على ملابسهم العسكرية يهتفون هتافات قوية ثائرة، تناقض ما كان يدور في أخلاده فصحا على الحقيقة المرة، وهي أن ألمانيا قد طعنت في ظهرها، وقد أنشب اليهود أظافرهم فيها ليرغموها على أن تستسلم للأحداث، وليس سواهم من مستغلين دساسين مفسدين يناصرهم البلاشفة الملعونون.

ورأى من واجبه أن ينقذ ألمانيا من هذه الأوبئة ويثأر لها.

ويقود شعبها الممتاز إلى الأمام نحو مصيره المجهول.

وسر ضباط فرقته حين رأوا بإزاء جنودهم المتشبعين بالروح الهدامة شخصًا تنطوي نفسه على جذور الموضوع من أعماقها، وأراده هتلر أن يظل عاملاً في الجندية، ثم انتقل إلى عمل آخر فأصبح ضابطًا للتعليم الأساسي. أو وكيلاً له وكان يعمل على جمع المعلومات عن المشروعات الثورية الهدامة،

وقد طلب إليه ضابط الأمن الذي يعمل معه أن يحضر اجتماعات سائر الأحزاب السياسية على اختلافها.

وذهب ذات مساء سبتمبر سنة ١٩١٩ إلى اجتماع لحزب العمال الألمان في أحد مصانع الجعة، وسمع هنالك للمرة الأولى أحاديث الناس التي كانت تجري على النحو الذي يؤمن به ضد اليهود والمضاربين الذين أطاحوا بألمانيا وألقوا بها إلى الهاوية. وانضم هتلر إلى هذا الحزب السادس عشر من شهر سبتمبر ثم سرعان ما تولى شئون دعايته، وعقد الحزب أول اجتماع سنة ١٩٢٠ في ميونخ وسيطر أدولف هتلر على كل شيء فيه، وقد وضع برنامجه في خمس وعشرين نقطة. ومن ثم أصبح من رجال السياسة وأخذ يضع الخطط والمشروعات لحملته التي وجهها للخلاص القومي. وترك الخدمة العسكرية، وقد صار كل همه الإشراف على الحزب وتوسيع نطاقه، ولم يدق منتصف العام التالي حتى كان قد أسقط زعماء الحزب الأصليين، وقد سحر رفاقه بعبقريته وعواطفه الفياضة وجاذبيته المنومة حتى قبلوا إشرافه الفعلي على الحزب. ومنذ ذلك الوقت أطلق عليه اسم "الفوهرر" وقد صدرت صحيفة باسم "الفولكشاير بيوباختر" لتكون لسان حزبه الناطق.

لم يغفل الشيوعيون عن عدوهم ولم يتوانوا عنه فحاولوا تفريق اجتماعات هتلر. ولكنه أسرع في أواخر سنة ٢١ بتنظيم الوحدات الأولى لقوات الصاعقة، وكان سائر نشاطه حتى هذه الآونة مقصورًا على بافاريا. إلا أن الكثيرين من الشعب في أنحاء الرايخ في غمار ما حل بهم من الكوارث التي مرت في السنوات الأولى التي تلت الحرب أخذوا يصغون إلى هذا الإنجيل الجديد وأدت موجة الغضب التي شملت ألمانيا من جراء احتلال الفرنسيين الروهر سنة ١٩٢٣ إلى طوفان بالغ من الانضمام للحزب الذي لقب بالحزب الاشتراكي الوطني.

وأدى انهيار المارك إلى الطبقة الوسطى التي انضم الكثيرون من أبنائها إلى الحزب الجديد بعامل اليأس ليجدوا فيه منفسًا للكراهية والثأر والحماسة البالغة.

وقد أعلن هتلر منذ البداية، أن طريق الحكم هو الطريق الذي يسير في تيار الثورة على جمهورية فيمار التي نشأت في عار الهزيمة، ولم يحل شهر نوفمبر سنة ١٩٢٣ حتى تكونت حول الفوهرر فئة مؤمنة به ثابتة على عقيدته وقد ضمت جورنج، هيس، روزنبرج وورهم.

وقد قرر هؤلاء الرجال المكافحون أن الوقت قد حان لتسلم السلطة في بافاريا، وقام الجنرال رودندلف رئيس أركان حرب الجيش الألماني معظم سنوات الحرب فأضفى بسمعته العسكرية على هذه الحركة الانقلابية قوة على قوة وقد سار على رأسها.

وكان الرأي السائد في ألمانيا "أنه لن تقوم في ألمانيا ثورات، لأن الثورات محظورة فيها" وقد أحيت سلطات ميونخ هذا القول فأطلقت الرصاص على الزاحفين، وقد تحروا أن لا يصيبوا الجنرال نفسه، فلما أسرع إليهم قوبل بالاحترام الزائد وقتل من المتظاهرين عشرون شخصًا، وانكفأ هتلر بجسمه على الأرض حتى لا يصاب بسوء، وفر مسرعًا هو وغيره من القادة من مقر الحادث.

وقد صدر عليه الحكم سنة ١٩٢٤ بالسجن أربع سنوات.

وعلى الرغم من قيام السلطات الألمانية بالمحافظة على النظام. وقرار المحكمة الألمانية بإنزال العقاب على المتظاهرين، إلا أن الشعور السائد الذي انتشر في أنحاء البلاد هو أن السلطات تضرب لحمها ودمها وأنها تتوب في ذلك عن الأجانب على حساب الغالبية من أبناء ألمانيا الأكثر إخلاصًا وثقة، وسرعان ما خفض الحكم على هتلر من أربع سنوات إلى ثلاثة عشر شهرًا.

وقد استطاع في هذه الفترة التي قضاها في قلعة لاندنبرج أن يتمم الخطوط العريضة "لكتاب كفاحي"، وهو رسالة عن فلسفته السياسية أهداها إلى أرواح ضحايا الحركة الانقلابية الأخيرة.

فلما وصل إلى الحكم أخيرًا، كان هذا الكتاب موضع اهتمام القادة من دول الحلفاء وزعمائها العسكريين والسياسيين، وقد تضمن كل شيء من برامجه لبعث ألمانيا، وأساليبه في الدعاية الحزبية والخطط التي وضعها لمحاربة الماركسية وآرائه في إقامة الدولة الاشتراكية الوطنية ومركز ألمانيا المشروع على رأس العالم المتحضر.

وهذا هو الكتاب المقدس الجديد للعقيدة والحرب مع ما فيه من التعظيم والحشو ولغة القول، فضلاً عن رسالته الروحية.

وكان الموضوع الرئيسي لكتاب كفاحي يتم ببساطة عن رجل لا يعدو أن يكون حيوانًا مقاتلاً، ولما كانت الأمة مجموعة من المقاتلين فيجب أن تكون وحدة مقاتلة. وكل رعيل حي من الناس يتوقف عن الكفاح في سبيل وجوده محكوم عليه حتمًا بالفناء. وكل دولة تتراخى عن الكفاح مقضي عليها بالفناء كذلك. وتتوقف قوة النضال على التصفية العنصرية ونقاء العنصر، ومن المحتم على الدولة أن تقوم بتطهيرها من الرجس الأجنبي.

والشعب اليهودي لانتشاره في العالم ميال إلى المهادنة والأممية والمهادنة هي الخطيئة القاتلة، لأنها تعني إخضاع الشعوب، ولذلك فإن الغرض الأول الذي تتحراه كل دولة هو وطنية جماهيرها، والغرض الجوهري من التعليم خلق إنسان ألماني يتحول بأقل ما يمكن من التدريب إلى جندي عامل.

لقد كانت الانفعالات العظمى في التاريخ ستؤدي حتمًا إلى نتائج عظيمة لولا دوافع الهوس والتعصب، وقد توقف تحقيق كل أمل عن طريق الفضائل البرجوازية في الأمن والسلام.

وأصبح على الشعب الألماني أن يتأكد من مقدرته على خوض غمار أعظم حرب وآخرها لتقرير مصيره على سطح هذه الأرض.

وليس من هم الدبلوماسية أن تحمل الشعب إلى أعماق البطولات، ولكن مهمتها أن ترى الشعب يحيا ويزدهر.

إن إنكلترا وإيطاليا هما الحليفتان الممكنتان لألمانيا ولكن إذا لم تستطع ألمانيا الدفاع عن نفسها فلا أحد يستطيع الدفاع عنها ولا تستطيع المقاطعات الألمانية المسلوبة منها عن طريق التضرعات والتوسلات أو تعليق الأمل على عصبة الأمم، وإنما تعود بفضل السلاح الألماني وحده، وعلى ألمانيا ألا تعود إلى خطئها السابق في محاربة سائر أعدائها في وقت معًا.

ولا شك أن الهجوم على فرنسا بعامل الهوى أمر فيه حماقة، وكل ما كانت تحتاجه ألمانيا هو اتساع ممتلكاتها في أوروبا، ولقد كانت سياسة ألمانيا الاستعمارية قبل الحرب خاطئة ويجب أن تتخلى عنها، وكان عليها أن تتطلع إلى التوسع شرقًا تجاه روسيا ونحو دول البلطيق بصفة خاصة. ولا يمكن التسامح بقيام تحالف مع روسيا، ومن الإجرام الاشتراك في حرب مع روسيا ضد الغرب. إذ أن السوفييت يهدفون إلى انتصار اليهودية العالمية. وهذه هي "الأعمدة الصخرية" لسياسته.

ولم يفطن المنتصرون إلى نضال أدولف هتلر الدائم وظهوره كشخصية قومية بارزة. لانشغالهم بمشاكلهم وخلافاتهم الحزبية.

وقد انتهت فترة طويلة حتى تمكنت الاشتراكية الوطنية أو الحزب النازي ـ كما سمي من بعد ـ من السيطرة على جماهير الشعب الألماني وقواته العسكرية وجهازه الدولي، وعلى رجال الصناعة الذين ترعبهم الشيوعية ولهم ما يبرر خوفهم.

وأصبحت قوة بارزة في الحياة الألمانية تلفت النظر في الخارج على نطاق كبير وقد أعلن هتلر عند خروجه من سجنه أن سنوات خمسًا ستنقضي على الأقل قبل أن يتم تنظيم حزبه.

وقد نصت البنود الديمقراطية لدستور ويمار على وجوب إجراء الانتخابات العامة للريشتساغ مرة كل أربع سنوات. وكان الغرض من ذلك أن يضمن الشعب الألماني السيطرة التامة الدائمة على برلمانها.

ولكن المعنى الحقيقي المقصود من ذلك هو أن يظل الشعب في جو دائم من حمى الهياج السياسي والمعارك الانتخابية التي لا تنتهي.

وهكذا يمكن تسجيل تطور هتلر وعقائده بصورة دقيقة منظمة ففي عام ١٩٢٨ لم يكن لحزبه في الريشتساغ سوى اثنى عشر مقعدًا وارتفع هذا الرقم سنة ١٩٣٠ إلى ١٠٧، وفي سنة ١٩٣٢ إلى ٢٣٠، وفي خلال ذلك كانت ألمانيا بأسرها قد أصبحت خاضعة لنفوذ الحزب الاشتراكي الألماني وأنظمته. بينما سارت عوامل الاضطهاد والإرهاب والإهانة تلحق باليهود.

ويصعب علينا أن نلاحق الأحداث سنة بعد سنة في خضم ذلك التطور الجبار المعقد، بكل ما فيه من أهواء وشرور وما يعتوره من مد وجزر. وقد ظلت شمس لوكارنو الباهتة تلقى بصيصًا من أشعتها على هذا المنظر فترة من الزمن. وقد أدت القروض الأمريكية السخية إلى شعور بالتفاؤل بعودة الرخاء.

كان المريشسال هندنبرج يرأس الدولة وكان يتولى وزارة خارجيتها ستريسمان، وقد ظلت الغالبية من الأشراف المعتدلين الذين يميلون إلى الاستقرار متعلقة بهندنبرج حتى بعد وفاته. في حين كان هناك عوامل فعالة للإثارة بين أوساط الشعب الحائر، لم يكن لجمهورية ويمار أن تأمن في ظلها السلامة وإرضاء الروح القومية.

وراء هذه القشرة من الحكومات الجمهورية والمؤسسات الديمقراطية التي فرضها المنتصرون كانت القوة السياسية الحقيقية في ألمانيا. وقد تمثل في حمية أركان الجيش الألماني أو ما يدعى الرايشوهرر. أساس القوى في رأي الشعب.

فقد كانت هذه الهيئة هي التي تضع الكيان السري لإعادة تسليح ألمانيا ، وهي التي تقيم الوزارات وتقيلها. وقد رأت في شخص الماريشال هندنبرج رمزًا لسلطتها وأداة لتحقيق إرادتها. ولكن هندنبرج في سنة ١٩٣٠ كان قد بلغ الثالثة والثمانين من عمره، وبدأت شخصيته وقواه الفكرية تتدهور، وأصبح كثير النزوات، مستبدًا مخرفًا. وكانت الحرب قد جعلت منه صورة البطل الأسطوري.

وكان الوطنيون المخلصون يبذلون غاية جهدهم لإبراز هذه الصورة فأصبح هندنبرج ذلك "المارد الخشبي" الذي وصفته الأساطير اليونانية. وظهر للقادة العسكريين منذ أمد أن عليهم أن يبحثوا عن خلف يرضاه الجميع بدلاً من الماريشال العجوز. ولكن أعياهم البحث بإزاء القوة الجديدة الطاغية قوة الحركة الاشتراكية الوطنية.

ولما فشل انقلاب ميونيخ سنة ١٩٢٣ وضع هتلر برنامجًا للعمل المشروع في نطاق جمهورية ويمار، ولكنه كان في نفس الوقت يضع الخطط تشكيلات عسكرية وشبه عسكرية في الحزب النازي. وهكذا بدأت تشكيلات الصاعقة والحرس النازي تزداد في عددها وعددها إلى حد أفزع بنشاطه ووسائله المتعددة الجيش الألماني.

وقد قام على رأس جيش الصاعقة جندي ألماني مغامر هو أرنست روهم. رفيق هتلر وصديقه في سنوات النضال. وكان روهم رجلاً يمتاز بكفايته وشجاعته. وإن كان واقعًا تحت تأثير أهوائه وشذوذه الجنسي، ولم تكن

مفاسده لتمنع هتلر من التعاون معه في طريقه الطويل المليء بالمصاعب للوصول إلى السلطة.

وإذ درست القيادة الألمانية العليا التيارات التي تسيطر على ألمانيا، وموقفها المعارض للحركة النازية: وجدت أنها لا تستطيع أن تستمر على الإشراف والسيطرة. وإن كان الفريقان يشتركان في وجوب النهوض بألمانيا والثأر لهزيمتها. وبينما كانت القيادة العليا للجيش تمثل الكيان المنظم لإمبراطورية ألمانيا القيصرية وتضم إليها الطبقات الأرستقراطية والإقطاعية الثرية كان جيش الصاعقة قد أصبح حركة ثورية كبيرة تضم الناقمين الساخطين من الهدامين الثائرين المدمرين اليائسين. وكان الفريقان يختلفان كل الاختلاف عن الشيوعيين الذين بينهما كما بين القطب الشمالي والجنوبي من الفروق.

على أن أي خلاف للقيادة العليا مع الحزب النازي لا يعني إلا تمزيق الشعب المنهزم وتفتيته. وشعر قادة الجيش في سنتي ١٩٣١ و ١٩٣٢ أن عليهم أن يأتلفوا مع من كانوا يختلفون معهم في المسائل الداخلية محافظة على مصالحهم ومصالح البلاد.

وكان هتلر قد وضع نصب عينيه الوصول إلى قيادة ألمانيا العظيمة التي ملأت نفسه إعجابًا وسيطرة على ميوله طوال سني شبابه، وهكذا كانت الأوضاع ملائمة لعقد اتفاق بينه وبين القيادة العليا. وكان هذا الاتفاق طبيعيًا بين الفريقين. وقد أخذ قادة الجيش يدركون شيئًا فشيئًا أن الحزب النازي قد بلغ حدًا كبيرًا من القوة. حتى أصبح من المؤكد أن هتلر هو الرجل الذي يخلف هندنبرج في رئاسة الشعب الألماني. وعرف هتلر أن تنفيذ برنامجه لبعث ألمانيا يحتاج إلى تحالف مع المسيطرين في القيادة العليا، وقد تم ذلك وأخذ قادة الجيش يقنعون هندنبرج بأن ينظر إلى هتلر كمستشار لابد منه للرايخ.

وقد وضع هتلر حدًا لنشاط ذوي القمصان البنية (جيش الصاعقة) فتمكن بذلك من كسب صداقة القوات المسيطرة على ألمانيا والتي بيدها القوة لكي يصبح المشرف على تنفيذ السياسة الألمانية والمرشح لرئاسة الدولة فيما بعد. وهكذا قطع العريف شوطًا بعيدًا للوصول إلى غايته.

وقد كانت هناك مع ذلك بعض الصعوبات، فقد كانت السيطرة التي في أيدي القيادة العليا للجيش على الشئون الداخلية سببًا في التسابق للحصول على هذه السيطرة.

وكان للجنرال كورت فون شليخر في هذا الوقت أثر حاسم في هذا الشأن. فقد كان المستشار السياسي الأمين للحلقة العسكرية المسيطرة المتحفظة. وكان الجميع ينظرون إليه بشيء من الشك وعدم الثقة. وتعتبره جميع الفئات والأحزاب عميلاً سياسيًا ذكيًا نافعًا. وله فوق معرفته العسكرية معارف لا تتفق للكثير من العسكريين.

وكان قد اقتنع منذ أمد بأهمية الحكومة النازية والحاجة إلى حصرها والسيطرة عليها، ولكنه رأى في شعبيتها وجيشها الخاص سلاحًا إذا استغله رفاقه في القيادة العامة قد يضمن استعادة مجد ألمانيا وعظمتها، وبناء عظمته الشخصية في ظلالها. ومن ثم أخذ شليخر يتآمر سرًا طوال عام ١٨٣٠ مع روهم.

وهكذا أصبحت هناك عملية مزدوجة لها عمل القيادة العامة تعد عدتها مع هتلر، وشليخر وسط هذه الترتيبات يقوم بمؤامراته مع مساعد هتلر الرئيسي ومنافسه المنتظر روهم. وظلت منذ ذلك الحين اتصالات شليخر بالعناصر الثورية في الحزب النازي وبروهم بصفة خاصة حتى قتل الرجلان بأمر من هتلر نفسه بعد ثلاث سنوات. وقد أدى هذا التطور إلى تبسيط الوضع السياسي، وعلى الأخص بالنسبة للباقين بعد التطهير.

وكانت الضربة القاصمة التي أصابت ألمانيا في شئونها الاقتصادية فقد رفضت المصارف الأمريكية إزاء التزاماتها الزائدة في الوطن أن تزيد قروضها الزائدة لألمانيا. وأدى هذا التطور إلى إغلاق عدد من المصانع، وإضاعة عدد من المشروعات التي كان بعث ألمانيا السلمي يرتكز عليها. ولم يحل شتاء سنة ١٩٣٠ حتى كان عدد العاطلين في ألمانيا مليونين وثلاثمائة ألف.

وعرض الحلفاء تخفيف التعويضات إلى حد بعيد، وقد أحرز ستريسمان وزير الخارجية، الذي كان على وشك الموت، انتصاره الأخير بتوسيع اتفاقية الجلاء الكامل عن منطقة الراين. قبل الموعد الذي حددته معاهدات الصلح بوقت طويل.

لكن جماهير الألمان لم تكن لتهتم بهذا التساهل الذي يقدمه المنتصرون، ولو حدثت هذه التطورات في غير هذه الظروف لكان لها أثرها البين، واعتبرت خطوة واسعة في سبيل الوئام والسلام الحقيقي.

وغدت البطالة الشبح المخيف الذي يزعج الألمان، وكانت الطبقة الوسطى قد انهارت من جراء تدهور المارك. وأدت المتاعب الاقتصادية العالمية والحملات الشديدة التي أثارها نازيو هتلر وبعض كبار الرأسماليين إلى انهيار مركز ستريسمان السياسي في الداخل ثم إلى إسقاطه.

وأصبح براوننج زعيم حزب الوسط الكاثوليكي مستشارًا، وكان براوننج وطنيًا كاثوليكيًا من ويستفاليا. ويحاول أن يعيد ألمانيا السابقة على نظام ديمقراطي جديد. وقد واصل خطته في إعداد المصانع للحرب. وكان يعمل جهده للوصول إلى استقرار مالي وسط خضم من الفوضى. ولكن برنامجه الذي أعده للتوفير وتخفيض عدد موظفي الخدمة المدنية ورواتبهم لم يلق تأييدًا من الشعب ومن ثم اشتدت رواج الكراهية.

وقام براوننج بعد أن نال تأييد هندنبرج سجل الريشتساغ الذي كان يعاديه وأجرى انتخابات عاجلة في سنة ١٩٣٠ جعلته متحكمًا في غالبية المجلس، ثم قام بآخر محاولة لحشد البقية من قوة ألمانيا القديمة. وأثارتها ضد الشغب القومي الحقير.

وكان عليه لتحقيق أغراضه أن يضمن إعادة انتخاب هندنبرج لرئاسة الجمهورية وعثر على حل واضح، وقد رأى أن سلام ألمانيا وإعادة مجدها لا يكون إلا بعودة إمبراطور إلى العرش فهل في وسعه أن يقنع الماريشال هندنبرج العجوز بعد انتخابه بأن يقوم بدور الوصي على ملكية تعاد إلى العرش بعد وفاته؟ لو تحققت هذه السياسة لملأت الفراغ الذي أخذ هتلر يشق طريقه نحوه بصفة واضحة.

لقد كان هذا هو الطريق السوي. ولكن أنى لبراوننج أن يقود ألمانيا إليه. ولا شك أن العنصر المحافظ الذي أخذ يتجه إلى تأييد هتلر يعود إلى هذا السبيل بعودة الإمبراطور غليوم إلى العرش ليكن الاشتراكيون الديمقراطيون والقوى النقابية لا يتسامحون بعودة الرجل العجوز أو لي عهده. ولم يكن براوننج يرمي إلى خلق الرايخ الثاني. ولكنه أراد ملكية دستورية على النظام المعمول به في إنجلترا وكان أمله أن أحد أبناء ولي العهد يكون المرشح لهذا الطور.

وأسر في نوفمبر ١٩٣١ بطلبه إلى هندنبرج الذي يتوقف كل شيء على موافقته الذي يتوقف على موافقته كل أمر. وقد كان وقع هذا شديدًا على الماريشال العجوز. فقد دهش لهذا الاقتراح واشتد في مناوأته وقال أنه يعد نفسه وصيًا يقوم بالوصاية على البلاد نيابة عن الإمبراطور. وأي حل سوى هذا يعد إهانة لشرفه العسكري.

ولا يرى في فهمه الملكي الذي يدين له بإخلاص أن يقبل اختيار أمير من هنا أو هناك. فالشرعية يجب أن لا تمس. وما دامت ألمانيا لا ترضى في هذه

الأحوال بعودة الإمبراطور فلا سبيل إلا بقاؤه هو، وهو راض بهذا. ولا يقبل أية مساومة في هذا الشأن وشعاره "أنا موجود وباق" وقد ناقشه براوننج نقاشًا حادًا في هذا الشأن، فقضيته لا تنجح إلا إذا وافق هندنبرج على هذا الحل الملكي على الرغم من عدم شرعيته. وإذا لم تنجح فستغدو البلاد على ديكتاتورية ثورية نازية، ولم يصل الرجلان إلى اتفاق وكان كل شيء يتوقف على إعادة انتخابه تفاديًا لوقوع انهيار سياسي سريع.

قد نجحت خطة براوننج في خطواتها الأولى بانتخاب هندنبرج عام ١٩٣٢ بالأغلبية على منافسيه هتلر وثيلمان الشيوعي. وكان على الحكومة أن تواجه الوضع الاقتصادي في ألمانيا وعلاقاتها بأوروبا. في الوقت الذي كان فيه هتلر يشن حملة من الزئير المزعج على إذلال ألمانيا في فرساي. ومؤتمر نزع السلاح يوالي عقد جلساته في جنيف.

وأعد براوننج بعد تفكير طويل خطو واسعة لتعديل المعاهدات. ثم سافر إلى جنيف فلقى استقبالاً وديًا لم يكن له في الحسبان. وقد تبين له بعد المحادثات التي أجراها مع المستر رامزي مكدونالد والمستر ستمسون والمستر نورمان ديفير الأمريكيين، أنه يستطيع أن يصل إلى اتفاق.

وكان الأساس يقوم على مبدأ "المساواة في التسلح" بين ألمانيا وفرنسا، وهو أساس غير معقول ومبدأ تعرض لكثير من التحفظات والتفسيرات. ومن العجيب حقًا أن يتصور إنسان متمتع بقواه العقلية أن أسس السلام يمكن أن تبنى على هذا النحو. فإذا وافق المنتصرون على هذه النقطة الأساسية الحيوية. فإن براوننج سيندفع إلى خطوة أخرى وهي خطوة إلغاء التعويضات، وبذلك يرتفع براوننج إلى مرتبة الفوز والانتصار.

وتحدث نورمان ديفيش السفير الأمريكي المتجول إلى تارديو رئيس وزراء فرنسا طالبًا إليه الحضور سريعًا من باريس إلى جنيف، ولكن تارديو كان قد تلقى لسوء حظ براوننج أخبارًا أخرى، فقد كان شابخر كثير النشاط في

برلين وقد حذر السفير الفرنسي من التفاوض مع براوننج فسقوطه أمر متوقع ما بين لحظة وأخرى.

وقد يكون هناك عامل آخر وهو أن تارديو كان شديد القلق على موقف فرنسا العسكري من النص الخاص "بالمساواة في التسلح" فلم يصل تارديو على أي حال إلى جنيف وعاد براوننج في اليوم الأول من مايو إلى برلين بغير شيء وكانت عودته على هذا النحو. في هذه الظروف أمرًا قاضيًا عليه. وأصبح من واجبه أن يتخذ إجراء صارمًا لمواجهة الأوضاع المهددة بالانهيار الاقتصادي في ألمانيا.

ولم تكن حكومة براوننج وهي لا تحظى بشيء من التأييد الشعبي تملك القوة الكافية للقيام بهذا الإجراء. وما زال يكافح ويكافح بينما كان تارديو قد سقط وخلفه مسيو هريو.

وأعلن رئيس وزراء فرنسا الجديد استعداده لبحث المشروع الذي تم الوصول إليه في محادثات جنيف. وتلقى السفير الأمريكي في برلين تعليمات حكومته بأن يحث المستشار الألماني على الذهاب فورًا إلى جنيف وتلقى براوننج هذه الرسالة في الثلاثين من مايو، لكن نفوذ شيلخر كان قد تغلب عليه فقد اقتنع هندنبرج بإقالة مستشاره.

وفي صباح ذلك اليوم الذي وصلت إليه فيه الدعوة الأمريكية بما فيها من آمال كان قد تقرر مصيره ولم يأت ظهر يومه حتى تقدم باستقالته قبل أن يقال، وهكذا انتهت آخر حكومة لألمانيا بعد الحرب.

وكان من المنظور أن تقود الشعب الألماني إلى دستور مستقر متحضر، وتفتح سبلاً سليمة للعلاقات الودية مع الدول المجاورة.

ولا شك أن العروض التي قدمها الحلفاء لبراوننج كانت كافية لولا دسائس شليخر وتردد تارديو، وقد أصبح من المحتم أن يعاد بحث هذه الأمور بنظام جديد مع رجل آخر.

سنوات عجاف ١٩٣١ ـ ١٩٣٣

كانت الحكومة البريطانية التي أقيمت على أثر الانتخابات العامة سنة ١٩٣١ من أقوى الحكومات في ظاهرا ولكنها من أضعفها في الواقع، فقد قضى مستر رمزي ماكدونالد رئيس الوزراء على علاقته بالحزب الاشتراكي الذي قضى حياته كلها في إنشائه وأخذ يسوس الأمر على رأس الحكومة في تكاسل وبطء وهي حكومة ائتلافية اسمًا ومحافظة في واقع الأمر من ناحية تركيبها والسيطرة عليها.

وكان مستر بلدوين لا يميل إلى مظاهر الحكم بقدر ما يميل إلى جوهره، لذلك ظل يحكم من الخلف بهدوء وثقة.

أما وزارة الخارجية فقد تقلدها السير جون سيمون، وهو أحد زعماء الأحرار، أما العمل الرئيسي في الحكم الداخلي فقد كان يقوم به المستر نوفيل تشمبرلين الذي سرعان ما اصبح وزيرًا للمالية.

أما حزب العمال الذي كثرت مآخذه وانهالت عليه الحملات نتيجة فشله في حل الأزمة الاقتصادية والذي هزم شر هزيمة في الاقتراع.

فقد كان تحت قيادة زعيم مهادن هو المستر جورج لانسبوري، وفي خلال أربع سنوات ونصف ١٩٣١ ـ ١٩٣٥ كان الوضع في القارة الأوروبية قد تبدل تمامًا.



كانت ألمانيا بأسرها في هياج وقد توالت الأحداث وحاول بابن الذي خلف براوننج في منصب المستشار، وكذلك شليخر الجنرال السياسي أن يحكما ألمانيا معًا بطريق الذكاء والدسائس لكن بعد فوات الوقت.

كان بابن يريد أن يحكم البلاد معتمدًا على الرئيس هندنبرج وتأييده ونصرة القوميين المتطرفين في الريشتساغ.

وقد وقعت خطوة حاسمة في العشرين من يوليو فقد أسقطت الحكومة الاشتراكية في روسيا بالقوة.

وكان منافس بابن يميل إلى السلطة. وكان شليخر يرى أن الطريق مفتوح في الظلام وراء القوى الخفية التي تشن هجومها الخاطف وراء اسم أدولف هتلر ونفوذه القوي. وقد جعل أمله أن يتخذ حركة هتلر لخدمة القيادة العليا للجيش فإذا أتيح له أن يحقق ذلك استطاع أن يطمئن إلى وضع السيطرة عليها لنفسه.

وقد اتسعت الاتصالات التي بدأت سنة ١٩٣١ بينه وبين روهم قائد جيش الصاعقة فأصبحت وشيجة الصلة بهتلر نفسه. ولكن العقبة الوحيدة في طريق وصول الرجلين إلى السلطة كانت تتركز في شخص بابن وثقة هندنبرج فيه.

ووصل هتلر في أغسطس سنة ١٩٣٢ إلى برلين بدعوة من الرئيس وقد ظهرت خطوة إلى الأمام لفوهرر الذي يقف وراءه ثلاثة عشر مليون من الناخبين وأصبح من حقه أن يطالب بنصيب في الحكم.

كان في الوضع الذي كان فيه موسوليني عندما زحف إلى روما. ولكن بابن لم يكن يحفل بتاريخ إيطاليا الحديث. فهو يتمتع بتأييد هندنبرج، ولم تكن لديه نية في الاستقالة.

واجتمع الماريشال العجوز بهتلر. فلم يتأثر بشخصيته وقال بعد مقابلته "أهذا الرجل يصبح مستشارًا؟ أنني أستطيع أن أعينه مديرًا للبريد ليلعق بلسانه

الطوابع التي تحمل صورتي" ولم يكن لهتلر في دوائر القصر ذلك النفوذ الذي يتمتع به منافسوه.

وجرت الانتخابات للمرة الخامسة في سنة واحدة هي سنة ١٩٣٢، وقد خسر النازيون بعض المقاعد ونزلت أغلبيتهم من ٢٣٠ مقعدًا إلى ١٩٦. ونال الفرق الشيوعيون. وهكذا ضعفت قوة الفوهرر على المساومة. وخيل للجنرال شليخر أنه يستطيع الاستغناء عنه. وقد بدأ يحظى بالرعاية في الدوائر المقربة لهندنبرج. واستقال بابن. وخلفه شليخر في منصب المستشار. وكان المستشار الجديد أقدر على جر الحبال وراء الكواليس منه في سياسة الحكم. ولم يلبث أن دب الخلاف بينه وبين الكثيرين. واتحد ضد هتلر وبابن القوميون وأخذ الشيوعيون يقاتلون النازيين في الشوارع ويعاكسون الحكومة بطريق الإضراب. فأوجدوا جوًا من عوامل القلق في سبيل حكمه. وقد فرض بابن نفوذه الشخصي على الرئيس هندنبرج. وعرض عليه إشراك هتلر في حمل مسئوليات الحكم فوافق هندنبرج أخيرًا وهو غير راض عن هذا الوضع، وتسلم هتلر في الثلاثين من يناير سنة ١٩٣٣ منصبه كمستشار لألمانيا.



سرعان ما شعر الذين كانوا يقاومون النظام الجديد بأن يد "السيد" تسيطر عليهم وقد أصدر هتلر أمرًا بمنع الحزب الشيوعي الألماني من الاجتماع أو التظاهر، وبدأت حملة شملت ألمانيا لمصادرة الأسلحة التي للشيوعيين ووصلت الأمور إلى أقصاها فاشتعلت النيران في دار الريشتساغ.

واستدعيت فرق القمصان البنية والقمصان السود للعمل عاجلاً، وتم في ليلة واحدة اعتقال ما يقرب من أربعة آلاف من الزعماء الشيوعيين، ومن بينهم جميع أعضاء اللجنة المركزية وقام جورج الذي أصبح وزيرًا لداخلية بروسيا بتنفيذ سائر هذه الإجراءات التي كانت من طلائع الانتخابات العامة المقبلة

التي ضمنت هزيمة الشيوعيين وهم أشد خصوم النظام الجديد، وعهد إلى جوبلز بتنظيم الحملة الانتخابية وهذا عمل لا يحتاج إلى الذكاء أو الحماس.

ومع ذلك فقد ظلت قوات كثيرة في ألمانيا بين التردد أو الإصرار أو النشاط في عدائها للهتلرية، فقد حاز الشيوعيون رغم حيرتهم والكارثة التي حلت بهم واحدًا وثمانين مقعدًا، وأحرز الاشتراكيون مائة مقعد وثمانية عشر وحزب الوسط ثلاثة وسبعين والوطنيون من حلفاء هتلر وأنصار بابن وهندنبرج ٥٢ وأحرزت أحزاب الوسط واليمين الصغيرة ثلاثة وثلاثين مقعدًا، أما النازيون فنالوا ٢٨٨ مقعدًا واقترع معهم ١٧,٣٠٠,٠٠٠ ناخب، وأسفرت هذه النتائج عن سيطرة هتلر وحلفائه على الريشتساغ، وهكذا تمكن هتلر بهذه الطريقة وحدها من البطش والخداع من الوصول إلى الغالبية.

ولا شك أن هذه الأقليات لها شأنها في ظل نظام برلماني متحضر، أما في ألمانيا النازية فقد تحتم على الأقليات أن تتعلم درسًا وهو أن لا حقوق لها على الإطلاق.

وافتتح هتلر أول مجلس للريشتساغ في الرايخ الثالث في ٢١ مارس ١٩٣٣ بكنيسة الحامية في بوتسدام على مقربة من ضريح فريدرك الكبير. وجلس في بهو الكنيسة ممثلو القيادة العليا الألمانية رمز قوة ألمانيا وعظمتها وكبار رجال الصاعقة والحرس النازي وهم يمثلون ألمانيا الثورية الجديدة، ووافقت غالبية الريشتساغ بعد الإرهاب على منح السلطات الاستثنائية للمستشار هتلر أربع سنوات بأغلبية ٤٤١ صوتًا على ٩٤ فلما أعلنت النتيجة التفت هتلر إلى فريق الاشتراكيين وقال لهم "الآن لم أعد في حاجة إليكم".

وفي هذا الحماس استعرضت صفوف الحزب الاشتراكي الألماني أمام زعيمهم في شوارع برلين على الطريقة التي كان يقيمها الوثنيون حاملو المشاعل.

لقد كان الكفاح طويلاً ومن الصعب على الغرباء والذين لم يذوقوا طعم الهزيمة أن يفهموا هذا الوضع

لقد وصل هتلر أخيرًا ولم يكن وحده، ولكنه أهاب من أعماق الهزيمة بكوامن الحقد والوحشية التي استقرت في أعماق شعب من أكثر شعوب أوروبا عددًا وأوفرها خدمة وأقساها طبعًا وأشدها تناقضًا، وأسوأها حظًا وعرض له صورة رهيبة لصنم مخيف هو كاهنه وراعيه.

وليس من دأبي أن أشرح الوحشية والغدر الذين انبعثا من وراء هذا النظام القائم على الكراهية والطغيان، إلا أنني تحقيقًا لأهداف هذا الكتاب سأعرض على القارئ الحقيقة التي ظهرت فجأة في ظل هتلر.

كانت هذه الانقلابات تحدث في ألمانيا وحكومة ماكدونالد بدلوين تجد نفسها مضطرة إلى تنفيذ برنامجها في تخفيض السلاح الذي دعت إليه الأزمة المالية وقد أغلقت عينه عن هذه النذر الخطيرة في أوروبا.

وقد بذل ماكدونالد وزملاؤه من المحافظين والأحرار محاولاتهم الشديدة لتأمين نزع سلاح المنتصرين بالمستوى الذي فرضته معاهدة فرساي على المنهزمين. فقدموا عدة اقتراحات لتنفيذ هذه الخطة إلى عصبة الأمم ليصلوا عن طريقها إلى هذه الغاية.

وأصر الفرنسيين على الرغم من أوضاعهم السياسية والتقلبات الدائمة في أحوالهم. على وجهة نظرهم في وجوب الجيش الفرنسي مركز حياتهم هم وحلفائهم.

وانهالت عليهم بريطانيا وأمريكا باللوم والتأنيب، وقد شجع سلوك بريطانيا هذا الحكومة الألمانية. وأخذ الألمان ووراءهم تلك الروح القوية التي أوحى بها هتلر يقفون موقف الزهو والكبرياء، وقد جمع الوفد الألماني في يوليه ١٩٣٣ في مؤتمر نزع السلاح أوراقه وانسحب من جلسة المؤتمر. وأصبح

على المنتصرين أن يحاولوا إقناعهم بالقوة بكل الوسائل واقترح الفرنسيون تحت ضغط الإنجليز المتواصل ما سمى "دون حق" مشروع هريو وكان أساسه إعادة تنظيم سائر القوات الدفاعية في أوروبا على أساس جيوش محدودة العدد. ذات خدمة قصيرة. وعلى أساس الاعتراف بالمساواة في المنزلة دون اشتراط القوة.

والاعتراف بالمساواة في المنزلة يفرض في الواقع قبول مبدأ المساواة في القوة. مما أدى بالحليفة إلى أن تعرض على ألمانيا مساواة في الحقوق على نظام يضمن السلامة لسائر الشعوب.

وقد أجبر الفرنسيون على قبول هذه المساواة التي لا معنى لها بعد الضمانات الخيالية التي تلقوها. وقد وافق الألمان على العودة إلى مؤتمر نزع السلاح. واعتبرت هذه العودة انتصارًا لقضية السلام.

وأصدرت حكومة جلالة الملك مدفوعة بهذه الروح الشعبية في السادس عشر من شهر مارس سنة ١٩٢٣ ما سماه صاحبه "مشروع ماكدونالد".

وقد وافق على تبني الفكرة الفرنسية عن الجيوش ذات الخدمة العسكرية القصيرة وجعل الخدمة ثمانية أشهر ثم مضى يحدد الأرقام الصحيحة لعدد قوات كل جيش. فيجب تخفيض الجيش الفرنسي وقت السلم من خمسمائة ألف إلى مائتي ألف ويرتفع الجيش الألماني إلى حد مساو وفي أثناء ذلك كانت قوات ألمانيا المسلحة على الرغم من قلة عدد الاحتياطيين المدربين قد وصلت إلى مليون من المتطوعين المتحمسين المجهزين تجهيزًا جزئيًا بالسلاح. والأنواع المختلفة من الأسلحة الحديثة التي تنتجها المصانع التي تم تحويلها جزئيًا لتسليحهم.

وظهرت نتيجة لم تكن في الحسبان. فإن هتلر الذي أصبح مستشارًا لألمانيا وسيدًا لها. كان قد أصدر أوامره عند تولية السلطة بالاندفاع إلى الأمام على نطاق شامل في معسكرات التدريب والمصانع، ولم يكن يفكر فيما

يعرض عليه من العروض الخيالية التي كانت تعرض عليه وأصدر أوامره إلى الحكومة الألمانية بإشارة ملؤها الزهو والامتهان بالانسحاب من سائر المؤتمرات كذلك من عصبة الأمم.

من العسير علينا أن نجد موقفاً خاليًا من الحكمة كالموقف الذي وقفه البريطانيون والضعف الذي أبدته الحكومات الفرنسية وهي ظل منعكس لآراء البرلمانيين. ولا تنجو حكومة الولايات المتحدة أيضًا في هذا الموقف من حكم التاريخ ولومه. فقد كانوا في شغل شاغل بمشاكلهم ومصالحهم التي لا حد لها، وكأن تلك الأحداث التي تمر بأوروبا لا تهمهم في كثير أو قليل.

وكان فريق كبير من كبار القادة العسكريين الأمريكيين الأكفاء المدربين قد كونوا لأنفسهم آراء في هذه الأمور، إلا أن هذه الآراء لم تؤثر على السياسة الأمريكية الخارجية المغالية في ترفعها وانفرادها.

ولو تدخلت الولايات المتحدة بنفوذها لدفعت الساسة البريطانيين والفرنسيين ولا شك إلى العمل. وكان في وسع عصبة الأمم على الرغم من تدهورها أن تكون أداة فعالة إزاء تهديد هتلر العسكري الجديد، بما لديها من عقوبات القانون الدولي.

وعلى الرغم من هذه الحال فقد كان الأمريكان لا يعبأون بها ويهزون أكتافهم في غير اكتراث ولم يلبثوا بعد بضع سنوات أن وجدوا أنفسهم مضطرين إلى سفك دمائهم والتضحية بكنوز العالم الجديد. حتى يتفادوا الخطر المميت.

لقد مرت بخاطري هذه الأفكار عندما رأيت آلام الفرنسيين بعد سبع سنوات في تور، فلما عرض موضوع الصلح المنفرد اكتفيت ببعض كلمات التوكيد والاطمئنان مما اغتبط له، إذ أن كلماتي ذلك الشأن قد أسفرت عن نتائج طيبة.

كنت في أوائل سنة ١٩٣١ قد أعددت عدتي للرحيل إلى الولايات المتحدة لإلقاء عدة محاضرات. وقد تعرضت هنالك لحادث كاد يقضي على حياتي. ففي ديسمبر كنت في طريقي لزيارة برنارد باروخ، وتركت سيارتي في الجانب المخالف وعبرت الشارع الخامس ولم أفطن إلى أنظمة السير المخالفة السائدة في أمريكا أو نظام الأضواء الحمراء التي لم يكن معمولاً بها في بريطانيا في ذلك الوقت. وعلى حين غرة وقع صدام شديد وظللت محطمًا في المستشفى شهرين. ثم استعدت صحتي شيئًا فشيئًا حتى أصبحت قادرًا على الزحف وقمت وأنا على هذه الحال بجولة ألقيت في أثنائها أربعين محاضرة في أنحاء الولايات المتحدة المختلفة.

أنام على ظهري طوال النهار في عربة من عربات السكك الحديدية وأتحدث في المساء إلى جموع حاشدة من الناس. وهذه الفترة أعدها من أشد الأيام التي مرت بحياتي قسوة. فقد كنت طوال ذلك العام في حالة صحية سيئة ولكنني استعدت صحتي مع مرور الزمن.

لقد كانت السنوات الواقعة بين سنة ١٩٣١ ـ ١٩٣٥ من أمتع السنين في حياتي، لولا ما كان ينتابني فيها من القلق.

وكنت أحصل على قوتي بمقالات أمليها كان لها رواج كبير لا في بريطانيا والولايات المتحدة فحسب، بل في ستة عشر بلدًا أوروبيًا كذلك. هذا قبل أن يلقي عليها هتلر ظلمه الكثيف.

كنت بالفعل أعيش عيشة الكفاف وواصلت نشر تاريخ حياة مارليرو تباعًا في سلسلة من الأجزاء. وكنت أفكر دائمًا في تسليح ألمانيا في الأوضاع التي وصلت إليها أوروبا وأقيم في شارتويل حيث أجد متعتي الشخصية. فقد بنيت بيدي كوخين ومطبخًا كبيرًا في الحديقة وأقمت مختلف أنواع النواويس ومجاري المياه وحوضًا للاستحمام ترشح مياهه ويمكن تدفئتها لسد نقص

أشعة الشمس الضئيلة وهكذا لم يتسرب إليّ الكسل منذ الصباح إلى منتصف الليل. وقد أقمت في منزلي أنا وأسرتي في سعادة وهناء.

وكنت أجتمع في ذلك الوقت كثيرًا بفردريك لندمان أستاذ الفلسفة التجريبية في جامعة أكسفورد وكان صديقًا لي، فقد تلاقيت به أول مرة في آخر الحرب العالمية الأولى. وكان قد ظهر بعدة تجارب جوية يقوم بها بعض الطيارين الجريئين للتغلب على المطبات الهوائية، وتوثقت علاقاتنا بعد سنة ١٩٣٢، وكنا نقضي الساعات الطوال معًا حتى الصباح ونحن نتحدث عن الأخطار التي تحدث من تجمع العواصف فوق رءوسنا.. ثم غدا ليندمان "البروفيسور" كما كان يدعوه أصدقاؤه مستشاري في النواحي العلمية الخاصة بالحرب وعلى الأخص الدفاع الجوي، وكذلك الإحصاءات بسائر أنواعها، وقد ظلت هذه الرابطة الممتعة النافعة تربطنا طوال سني الحرب.

وكان بين أصدقائي المقربين ديزموند مورتون الذي أصبح فيما بعد السير ديزموندمور تون، فلما أراد الفيلد مارشال هيج سنة ١٩١٧ ملء المناصب الشاغرة في أركان حربه من الشباب القادمين من خط النار رشحت له المدفعية ديزموند، وقد نال وسام "الصليب الحربي" وأصيب إصابة نارية ظلت في جسمه إلى آخر أيام حياته.

وكنت أشعر بالود والتقدير لهذا الضابط الباسل، فلما عينت وزيرًا للحربية والطيران سنة ١٩١٩ عينته في منصب رئيس في الاستخبارات ظل فيه عدة سنوات. وكان جارًا لي فلا يبعد مسكنه عن شارتويل أكثر من ميل واحد، وكان قد أذن له مستر مكدونالد رئيس الوزراء بأن يتحدث إليّ بصراحة تامة ولا يخفي عني سرًا، وقد أصبح من أقرب مستشاري طوال أيام الحرب حتى النصر.

وتوثقت علاقات الصداقة بيني وبين رالف ويجرام. وكان نجمًا بازغًا في وزارة الخارجية. بارزًا في سائر أعمالها ومشاكلها. وكان قد وصل إلى مركز يخوله إبداء رأي في وجهات النظر الرسمية وغير الرسمية.

كان رجلاً جذابًا لا يخشى شيئًا. وقد بنى معتقده على أسس عميقة من البحث والمعرفة. وأدرك مثلي ـ مع ما لديه من المعلومات المتوافرة ـ ما يحوطنا من المخاطر العظيمة. وقد قرب هذا التجاوب في الريا ما بين وبينه. وكثيرًا ما كنا نجتمع في بيته الصغير في "نورث ستريت" كما كان يزورنا مع السيدة ويجرام في شارتويل لقضاء بعض الوقت.

وكان كغيره من كبار الموظفين يفضي إلى ببعض المعلومات عن ثقة مما ساعدني على تكوين رأيي في حركة هتلر ووسائل تقويتها.

وقد توافرت لي في هذه السنوات كثير من المعلومات والمناقشات الاستطلاعية في هذه الدائرة الصغيرة من الناس إلى جانب المعلومات التي كنت أصل إليها من المصادر الأجنبية. مما كان له الأهمية الكبرى لي وللبلاد وكانت لي صلات وثيقة سرية ببعض الوزراء الفرنسيين ورؤساء الوزارة المتعاقبة. وكان المستر إيان كولفين مراسلاً للنيوز كرونيكل في برلين. وقد تعمق إلى حد بعيد في السياسة الألمانية. وأقام اتصالات سرية بعدد من أهم الجنرالات الألمان وعدد من الرجال المستقلين بشخصياتهم ممن كانوا يرون في حركة هتلر نذيرًا بالخراب والدمار الذين سيحلان ببلادهم، وكثيرًا ما كان يزور داري عدد من الشخصيات البارزة قادمين من ألمانيا ويفضون إليّ بما يسرون في قلوبهم من آلام. وقد أعدم هتلر أثناء الحرب أكثر هؤلاء، وكنت من ناحية أخرى أستطيع التأكد من سائر المعلومات حول دفاعنا الجوي.

وهكذا كنت ملمًا إلمامًا تامًا بمختلف المسائل كوزراء التاج. وأنقل من آن لآخر إلى رجال الحكومة ما يصل إلي من الحقائق وخصوصًا عن طريق الاتصالات الأجنبية. وكانت علاقاتي بالوزراء وكبار الموظفين وثيقة ميسورة.

وعلى الرغم من انتقادي لهم في كثير من الأحوال، فقد ظلت روح الثقة والزمالة تشمل علاقاتنا.

وقد أدت خدماتي الطويلة في المناصب الكبرى إلى معرفتي الوثيقة بأهم وأدق أسرار الدولة، مما جعلني ملمًا بجميع الحقائق وتقرير رأيي فيها، ولم أكن أعتمد على ما تنشره الصحف من أخبار، وإن كانت هذه الصحف تثير في بعض الأحايين بعض الموضوعات ذات الأهمية أمام العين الفاحصة.

وأستميحك أيها القارئ إذا خرجت عن الموضوع إلى بحث في قضية ذاتية. في صيف سنة ١٩٣٢ وأنا أخط تاريخ مارلبود رأيت أن أزور ميادين القتال التي حارب فيها بالأراضي الواطئة وألمانيا وقمت مع أفراد الأسرة ومعهم البروفيسور بالسير على خط الزحف الذي كان يسير فيه سنة ١٧٠٥ من هولندا إلى الدانوب عبر الراين. وبينما نشق طريقنا في هذه البقعة الجميلة من بلد أثري إلى آخر كنت أوجه الأسئلة من حركة هتلر فيتبين له أنها الموضوع الذي يسيطر على كل لسان في ألمانيا، وأحسست بما أستطيع أن أسميه جو هتلر. وبعد أن مضيت يومًا في ميدان بلنهايم انتقلت إلى ميونيخ فقضيت بها قرابة أسبوع.

وتقدم إلينا في فندق ريجيا رجل يدعى هانجستانجل. وكان كثير الحديث عن الفوهرر الذي كانت تجمعه به أشد العلاقات وأحسنها، كان هذا الرجل متحدثًا ذكيًا جذابًا وله إلمام تام باللغة الإنجليزية.

فدعوته إلى العشاء وشرح لي نشاط هتلر ونظرياته بطريقة جذابة وكان يبدو من كلامه أنه واقع تحت تأثير الساحر. ويخيل إلي أنه تلقى الأوامر بالاتصال بي. وقد رأيت أن يعمل جهده لإدخال السرور إلى نفسي ثم مضى بعد العشاء إلى البيانو وعزف بعض القطع الموسيقية. وغنى بعض الأغنيات البديعة. كان فيما يبدو يعرف سائر الأغنيات الإنجليزية التي أستحسنها. وإنه لرجل لطيف مؤنس في الحقيقة وقد اقترح علي أن ألتقي بالفوهرر ويؤكد لي سهولة

هذا اللقاء إذ أنه يحضر إلى الفندق قرابة الساعة الخامسة مساء وسيكون مسرورًا بلقائي.

لم أكن أحمل في نفسي ضنينة وطنية ضد هتلر في ذلك الوقت، وكانت معرفتي قليلة بنواياه وشخصيته. وطبيعتي الإعجاب بالذين يقودون بلادهم نحو السمو عند الهزيمة.. حتى ولو كنت في الجانب المعادي لهم، فمن حقه أن يكون ألمانيًا وطنيًا إذا أراد.

وكنت أميل إلى أن تكون بريطانيا وفرنسا وألمانيا دولاً صديقة. ولكني قلت أثناء حديثي مع هانجستانجل هذه العبارة "أنني لا أدري لماذا يقف زعيمك من اليهود هذا الموقف الشديد؟ يمكنني أن أفهم نقمته على اليهود إذا أساءوا أو أخطأوا أو يقاومهم إذ استولوا على السلطة واحتكروها لأنفسهم، ولكني لا أفهم أن يعادي إنسانًا لأنه ولد يهوديًا. فهل في وسع الإنسان أن يقرر مولده؟".

ولعله أبلغ هذا القول إلى هتلر. فقد جاء في ظهر اليوم التالي وعلى وجهه علامات الجد والاهتمام. وأبلغني إلغاء الموعد الذي كان قد حدده لمقابلة هتلر بدعوى أنه لا يحضر إلى الفندق هذا المساء.

وكانت هذه آخر مرة رأيته فيها. على الرغم من أننا قضينا بعد ذلك عدة أيام في الفندق. وهكذا أضاع هتلر فرصته الوحيدة لمقابلتي، فلما ارتقى سلم السلطة ووصل إلى قمة شهرته تلقيت منه عدة دعوات للمقابلة وكنت أعتذر عنها، إذ حدثت كثير من التغيرات والتقلبات في هذه الفترة من الزمن.

وقع كل هذا والولايات المتحدة في شغل شاغل بشئونها الداخلية ومشاكلها الاقتصادية. وكانت أوروبا واليابان البعيدة ترقبان بدهشة عظيمة ازدياد قوة ألمانيا الحربية.

وأخذ التعبير عن القلق يتزايد في بلاد اسكنديناوة ودول التحالف الصغير وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا ورومانيا وبعض دول البلقان.

وبدأ القلق يشمل فرنسا بما وصل إلى علمها من معلومات شتى عن نشاط هتلر واستعداد ألمانيا. وقد نقلت إلى قائمة طويلة بالمخالفات التي قامت بها ألمانيا ضد المعاهدات وهي مخالفات على جانب كبير من الخطر. فلما سألت أصدقائي الفرنسيين عما يمنعهم من إثارة هذا الموضوع أمام عصبة الأمم. واستدعاء ألمانيا لتشرح موقفها ومبررات أعمالها كانت إجابتهم بأن الحكومة البريطانية لا تنظر بعين الرضا إلى مثل هذه الخطوة المزعجة.

وهكذا بينما كان المستر ماكدونالد يبشر الفرنسيين بنزع سلاحهم ويطبق هذا العمل على البريطانيين كانت القوات الألمانية تنمو وتثب في حركات مذهلة. وكان الوقت قد آن لعمل واضح مكشوف.

وإنصافًا لحزب المحافظين أذكر أن القرارات التي كانت تصدرها المؤتمرات السنوية التي يقيمها اتحادهم الوطني منذ سنة ١٩٣٢ كانت تنص على ضرورة تقوية تسلحنا لمواجهة الأخطار المتزايدة في الخارج.

ولكن إشراف الحكومة على أعضائها البرلمانيين كان كبيرًا إلى حد بعيد، وكانت الأحزاب الثلاثة المشتركة في الحكم تغط في سبات عميق، حتى تجاهلت ما يلوح به أتباعها من النذر في سائر أنحاء البلاد. وتجاهلت ما تحمله الأيام من عوامل وأسرار، وما يقدمه إليها جهازها السري من المعلومات عن الأخطار.

وهذه حال تتكرر في فترات من تاريخنا حين يتنزل شعبنا النبيل من ذراء فيفقد كل عامل من عوامل التعقل ويترنح أمام الأخطار ويتمشدق بالتفاهات وخصومه يستعدون بالسلاح.

في هذه السنوات الحالكة، كانت النزعات الوضعية تلقى قبولاً أو تمر ولا تجد تحديًا من الزعماء المسئولين للأحزاب السياسية.

وفي سنة ١٩٣٣ أعلن طلاب "اتحاد أكسفورد" بإيعاز من المستر جود قرارًا معيبًا بأن "هذا المجتمع لن يحارب في سبيل الملك والبلاد في أي ظرف من الظروف" وكان من اليسير علينا في إنجلترا أن نهزأ بمثل هذه القصة. ولكن انتشارها في ألمانيا وروسيا وإيطاليا واليابان قد أوحى بانحلال بريطانيا. ووجدت هذه الفكرة جذورًا عميقة كان لها شأنها.

ولم يفطن هؤلاء الشباب الحمقى إلى أنهم سيواجهون قريبًا موقفًا يضعهم في حالة الخيار بين النصر أو الموت ميتة الفخار في الحرب التالية. وأن عليهم أن يبرهنوا على أنهم الجيل الذي تزدهي به بريطانيا في تاريخها.

وإذا التمسنا لهؤلاء الفتيان عذرًا فإننا لا نجد هذا العذر لمن هم أكبر سنًا. أولئك الذين لم يجدوا فرصة تتيح لهم التكفير عن أخطائهم.

وبينما كانت هذه الحال بين القوى العسكرية للمنتصرين والمغلوبين تقع في أوروبا بدأت في الشرق الأقصى حالة أخرى من الاختلاف بينهم وبين الدول المحبة للسلام. تلك قصة أساسها التحول المؤدي للكوارث في أحداث أوروبا. ومنبعها الشلل الفكري الذي سيطر على زعماء الحلفاء السابقين واللاحقين.

وقد كان للجائحة الاقتصادية التي هبت على اليابان سنة ١٩٢٩ و ١٩٣١ أثرها الذي لا يقل عن مثيلها في أرجاء العالم.

فمنذ سنة ١٩١٤ كان عدد سكانها قد ارتفع من خمسين إلى مائة وثمانية وأربعين، وارتفع مستوى المعيشة بصفة دائمة وظل إنتاج الأرز ثابتًا لا يتغير وكان استيراده يتكلف تكاليف باهظة.

واشتدت الحاجة إلى المواد الأولية وإلى الأسواق الخارجية، واضطرت بريطانيا وأربعون دولة أخرى إلى فرض القيود الجمركية المرتفعة على اليابان وبضائعها التي تصنع بتكاليف منخفضة لا تتفق مع المستوى الأوروبي والأمريكي.

وكانت الصين السوق الرئيسي لتصريف البضائع اليابانية، كما كانت المورد الوحيد لحاجاتها إلى الفحم والحديد، وقد أصبحت السياسة اليابانية تبعًا لهذه الحال قائمة على فرض سيطرتها وإشرافها على الصين.

واحتلت اليابان في سبتمبر سنة ١٩٣١ مكدن ومنطقة سكة حديد منشوريا بحجة وقوع اضطرابات محلية. وطالبت في يناير سنة ١٩٣٢ بحل سائر المنظمات الصينية التي تحمل طابع العداء لليابان.

فلما رفضت الحكومة الصينية قبول هذا الطلب نزلت القوات اليابانية في الثامن والعشرين من الشهر المذكور إلى البر شمال المنطقة الدولية في شنغهاي، وقاوم الصينيون ببسالة أكثر من شن على الرغم من افتقارهم إلى الطائرات والمدافع المضادة للدبابات، وغير ذلك من الأسلحة العصرية.

ولكنهم اضطروا في آخر شهر فبراير بعد أن لحقتهم خسائر فادحة إلى التراجع من حصونهم في خليج ودرسبخ واتخاذ مواقع دفاعية جديدة على بعد اثنى عشر ميلاً في الداخل.

وأقام اليابانيون في أوائل سنة ١٩٣٢ دولة منشوكو. وبعد سنة واحدة ضمت إلى رمتشوكو مقاطعة جيهول الصينية. وقد تمكنت اليابان من التوغل إلى تلك الأماكن البعيدة التي ليس لها حصون دفاعية حتى وصلوا إلى سور الصين العظيم. وقد تم لها ذلك العدوان في الوقت الذي كانت فيه قوتها الحربية تزداد يومًا بعد يوم، وقوتها البحرية تتسع ويعظم شأنها.

وقد ترتب على هذا العدوان على الصين أثر عظيم في الولايات المتحدة منذ الطلقة الأولى. ولكن سياسة العزلة سلاح ذو حدين.

فلو كانت الولايات المتحدة عضوًا في عصبة الأمم لأمكنها أن تقود حملة دولية ضد اليابان، واتخاذ عمل جماعي تحت إشرافها لمعالجة هذه الحال.

ولم تبد الحكومة البريطانية رغبة في العمل مع الولايات المتحدة على انفراد، ولم يكن في وسعها أن تتساق إلى عمل عدائي ضد اليابان يتجاوز الحدود التي فرضتها عليها عصبة الأمم.

وكان يشمل بريطانيا شعور من الأسف لزوال الحلف مع اليابان وما له من النتائج في علاقاتها الطويلة الأمد في الشرق الأقصى. وليس لنا أي لوم على حكومة جلالة الملك في مثل تلك الأوضاع المالية السيئة. والمشاكل المزايدة التي تعالجها أوروبا. على أنها لم تقم بدورها لمساعدة الولايات المتحدة التي لم تنهض لمساعدتها في المشاكل الأوروبية.

وقد كانت الصين عضوًا في عصبة الأمم، وهي وإن كانت لم تدفع اشتراكها في الهيئة، إلا أنها ناشدها العدالة في قضيتها. وطلبت العصبة من اليابان في سبتمبر سنة ١٩٣١ أن تسحب قواتها من منشوريا وعهدت في ديسمبر إلى لجنة بالقيام بتحقيق في هذه المنطقة، وقد كلفت بذلك اللورد ليتون سليل أسرة بريطانية كبيرة، وكانت له خدمة طويلة في الشرق كحاكم للبنجال ونائب للملك في الهند بالوكالة. وكان التقرير الذي قدمته لجنة التحقيق بالإجماع، وثيقة هامة ويصح أن يكون أساسًا لدراسة جديدة للصراع بين الصين واليابان. فعرضت جوهر القضية في منشوريا عرضًا دقيقًا. ووصلت إلى نتائج بينة بسيطة وهي أن منشوريا ليست إلا مولودًا مصطنعًا أوجدته القيادة العليا اليابانية ولم تنظر عند خلقه إلى رغبات السكان. ولم يكتف لورد ليتون وزملاؤه بشرح الوضع وتحليله، بل عرضوا اقتراحات بحل دولي يقوم على استقلال منشوريا. التي يجب أن تكون جزءًا لا يتجزأ من الصين تحت إشراف عصبة الأمم. وعقد معاهدة دائمة بين الصين واليابان تحدد مصالحهما في منشوريا وتنظمها.

ولا ينقص من قيمة هذه الاقتراحات عجز عصبة الأمم عن تنفيذها جميعًا. وقد أعلنت العصبة في فبراير ١٩٣٣ أن دولة منشوكو لا يمكن

الاعتراف بها.. وقد انسحبت اليابان من الصعبة على الرغم من أنه لم يوقع عليها عقوبات.

وإذا كانت ألمانيا واليابان في صفين مختلفين في الحرب العالمية الأولى، فقد تغير موقف كل منهما بالنسبة للأخرى. وقد ثبت أن قوة العصبة يعوزها التأييد العملي. في وقت كانت فيه الحاجة ماسة إلى إعطائها السلطة والقوة.

ومن الإنصاف للتاريخ ألا نكتفي بإلقاء اللوم على الحكومة البريطانية الائتلافية والحكومة المحافظة بصفة خاصة، بل يجب أن يشمل اللوم كذلك حزبي الأحرار والعمال. سواء أكانا داخل الحكم أم خارجه في هذه الفترة، ولا شك أن الاقتناع بتوافه الأمور وغض النظر عن الحقائق التي لا تسرنا والميل إلى اكتساب الجماهير والانتصارات الانتخابية دون الاهتمام بمصالح الدولة الحيوية، والجري وراء العواطف التي لم تنضج لحب السلام. وافتقار زعيمي حزب الحكومة الائتلافية البريطانية إلى الإدراك الحيوي السليم وسياسة المهادنة التي اتسم بها حزب العمال الاشتراكي. وجرى الأحرار وراء العواطف البعيدة من واقع الأمور. وفشل المستر لويد جورج زعيم الحزب القوي العظيم في إعلان رغبته في الاستمرار في العمل الكبير الذي أقام دعائمه. والغالبيات الساحقة التي أيدت ذلك في البرلمان كل هذه العوامل تعطينا صورة بارزة للغفلة التي سيطرت على السياسة البريطانية في ذلك الوقت. وعلى الرغم من خلوها من أي أثر للمخادعة فهي لا تخلي أصحابها من الإثم، وقد لعبت دورًا حاسمًا في بعث هذه المخاوف والمآسي الإنسانية بصورة لم يعهد مثلها في التاريخ.

المنظر الحالك ١٩٣٤

لم تتحمس رومه لسيطرة هتلر على الحكم في ألمانيا سنة ١٩٣٣ ولم تنظر إلى النازية إلا كصورة وحشية مشوهة للفكرة الفاشية. وكانت رومه على علم تام بمطامح العهد الجديد في قيام ألمانيا الكبرى التي تضم النمسا وأجزاء من أوروبا الجنوبية الشرقية.

وقد رأى موسوليني أن مصالح إيطاليا لا تتفق مع مطامع ألمانيا الجديدة في هذه المنطقة. ولم ينتظر الديكتاتور الإيطالي طويلاً حتى يرى نبوءته قد تحققت.

كان هتلر يطمع في احتلال النمسا منذ البداية وقد اشتملت الصفحة الأولى من كتاب "كفاحي" على هذه العبارة: يجب أن تعود النمسا الألمانية إلى الوطن الألماني العظيم. لذلك فإن الحكومة الألمانية النازية منذ اللحظة التي تسلمت فيها زمام الحكم في يناير ١٩٣٣ كان نظرها متجهًا نحو فينا. ولم يكن يستطيع هتلر أن يصطدم بموسوليني الذي كان يطالب بحقوقه في النمسا.

وكان على ألمانيا التي ما زالت في حالة من الضعف العسكري أن تتخذ شيئًا من الحرص والحذر حتى في أعمال التسلل والنشاط السري، ومع هذا فقد بدأ الضغط على النمسا منذ الشهور الأولى. وكانت الطلبات تتوالى عليها لإرغامها على قبول أعضاء من الحزب النمسوي النازي في الوزارة وفي المراكز الرئيسية في الحكومة.

وأخذ النازيون النمساويون يتدربون عسكريًا في معسكر أعد لهم في بافاريا. وتعددت حوادث إلقاء القنابل على مراكز السكك الحديدية والسياحة. وظلت الطائرات الألمانية تمطر سالزبورج داينزيروك بالمنشورات كل يوم، مما كن له أثره المزعج في حياة الجمهورية الهادئة، وكان المستشار النمساوي دلفوس يلقى معارضة شديدة من الاشتراكيين في الداخل، مع الضغط الذي يلاقيه من المشروعات الألمانية في الخارج. فيجد نفسه عاجزًا عن تنفيذ خططه التي ترمي إلى المحافظة على استقلال بلاده. ولم يكن هذا بالخطر الوحيد الذي يهدد النمسا. فقد احتذى النمساويون حذو ألمانيا فأقاموا جيشًا خاصًا لفرض آرائهم على قرارات صناديق الاقتراع. وقد تبين دلفوس كل

هذه الأخطاء سنة ١٩٣٣، وكان لا ينتظر العون إلا من إيطاليا الفاشية التي تلقى منها توكيدات وثيقة في هذا الشأن.

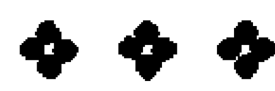
وقد اجتمع بموسوليني في ريسيوني في شهر أغسطس وتفاهما على وضع سياسي شخصي وثيق. فلما تأكد دلفوس من أنه يستطيع أن يعول على تأييد إيطاليا. اتجه إلى الفريق الأول من خصومه وهم الاشتراكيون النمساويون.

وقام سوفيش كبير مستشاري إيطاليا بزيارة فيينا في يناير سنة ١٩٣٤ فكانت هذه الزيارة تحمل معنى التحذير لألمانيا. وقد أعلن أن إيطاليا تستطيع أن تجاهر بتأييدها استقلال النمسا.

ولم تمض ثلاثة أسابيع حتى كانت حكومة دلفوس تتخذ تدابير صارمة ضد المنظمات الاشتراكية في فيينا، وقعد عهد إلى الميجر ني وهو من أنصار دلفوس أعضاء حزبه بنزع السلاح من المنظمات الشبيهة بالرسمية المنضوية تحت لواء الاشتراكيين النمسويين، وقد قاوموا مقاومة عنيفة.

وفي الثامن عشر من شهر فبراير قامت معارك شديدة في الشوارع ولكنها انهارت بعد بضع ساعات، وانتهت بضعف قوى الاشتراكيين وعجزهم عن المقاومة، وقد كان لهذه الحركة أثرها في التقريب بين دلفوس وإيطاليا، فضلاً عن تقوية مركزه لمواجهة التسلل والتآمر النازي.

ولكن عددًا كبيرًا من الاشتراكيين والشيوعيين الذين هزموا انضموا إلى صفوف المعسكر النازي ساخطين متبرمين. وهكذا فقد أدى النزاع الكاثوليكي الاشتراكي في النمسا لألمانيا إلى تقوية النازيين.



كان في وسع حكومة جلالة الملك في أواسط سنة ١٩٣٤ وهي لا تزال مسيطرة على الأحداث دون أن تقامر بالدخول في حرب، بتضامنها مع فرنسا، وعن طريق عصبة الأمم. أن تفرض سيطرتها على الحركة الهتلرية. التي

كانت ألمانيا نفسها لم تزل منقسمة في شأنها. ولم تكن في هذا الإجراء في حاجة إلى سفك الدماء لكنها فترة أخذت طريقها نحو الزوال. وظهرت على المسرح ألمانيا المسلحة تحت الحكم النازي. وظل مستر مكدونالد مؤيدًا بقوة المستر بولدوين وسياسته، يعمل على نزع سلاح فرنسا بطريقة يصعب تصديقها.

لاحت في الأفق بارقة من الوحدة ضد الخطر الألماني، ففي السابع عشر من فبراير سنة ١٩٣٤ أصدرت الحكومات البريطانية والفرنسية والإيطالية بيانًا مشتركًا أكدت فيه محافظتها على استقلال النمسا ولم يمض شهر حتى وقعت إيطاليا مع النمسا والمجر ما سمي "بروتوكول روما" وينص على التشاور بين الدول الثلاث إذا تعرضت إحداها للخطر.

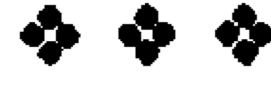
ولكن قوة هتلر كانت تزداد يومًا عن يوم، وقد اشتدت في شهري مايو ويونيه أعمال النشاط الهدام في سائر أنحاء النمسا، وأسرع دلفوس فأرسل إلى سوفيتش تقارير عن هذه الأعمال الإرهابية مشفوعة بمذكرة يبين فيها أثر هذه الحركات على تجارة النمسا وشئونها السياحية.

ورحل موسوليني إلى البندقية في الرابع عشر من شهر يونيه يحمل في يده هذا الملف لمقابلة هتلر لأول مرة. وخرج المستشار الألماني من طائرته مرتديًا القميص البني فاستقبله الدوتشي بعرض عسكري فاشي بلباسه العسكري، فلما وقع نظر موسوليني على ضيفه لأول مرة همس في أذن أحد مرافقيه قائلاً: "لا أحب منظر هذا الرجل".

وقد تبودلت وجهات النظر في هذا اللقاء العجيب مع محاضرات ألقاها الفريقان تبين محاسن الديكتاتورية القائمة في كل من ألمانيا وإيطاليا. وقد تأثر موسوليني بشخصية ضيفه وأذهلته طريقته في الحديث، وقد لخص رأيه النهائي فيه حين أطلق عليه "الراهب الثرثار".

ومع ذلك فقد أمكنه أن يأخذ تأكيدات من ضيفه بتخفيف الضغط الألماني عن دلفوس. وقال شيانو "صهر موسيليني للصحفيين بعد الاجتماع "أرأيتم؟ أنه لن يحدث شيء آخر".

ولم تكن الفترة التي وقف فيها نشاط ألمانيا نتيجة تدخل موسوليني ولكنها كانت نتيجة انشغال هتلر بالجبهة الداخلية.



لقد أدى وصول هتلر إلى الحكم إلى خلاف بينه وبين من ارتقى على كواهلهم وكان جيش الصاعقة تحت زعامة روهم يمثل العناصر ذات القوة الثورية المتطرفة في الحزب. وكان بعض الأعضاء القدامى في الحزب أمثال جريجور شتراسر من المتحمسين للثورة الاجتماعية يخشون بعد وصول هتلر إلى المركز الأول أن تجتذبه القوات الحاكمة والقيادة العليا للجيش وكبار أصحاب المصارف ورجال الصناعة، فليس أول زعيم سياسي طرح السلم الذي ارتقى إلى الحكم على أدراجه.

وكان انتصار يناير سنة ١٩٣٣ لا يعني عند فرق القمصان البنية سوى حرية السلب والنهب، لا من اليهود وحدهم بل من طبقات المجتمع المترفة الموطأة الأكتاف.

وفي يناير سنة ١٩٣٣ كان تعداد جيش الصاعقة أربعمائة ألف رجل، فلم يأت ربيع سنة ١٩٣٤ حتى ارتفع هذا الرقم إلى ثلاثة ملايين من المجندين والمدربين. وأخذ هتلر يشعر بالقلق لازدياد هذا الجهاز الذي بدأ يتلخص من إشرافه الشخصي على الرغم من إعلانه الولاء الذي لا حد له وتعلقه به تعلقاً شديداً.

كان لهتلر جيشه الخاص، أما الآن فتحت يده الجيش الوطني كذلك، ولم يفكر قط في أن يستبدل أحدهما بالآخر، ولكنه أراد أن يكون له الجيشان ليستخدم كلا منهما وفق ما تجري به الأمور.

ومن ثم فقد راى أنه لابد له أن يعالج مسألة روهم الذي كان يعلن قادة جيش الصاعقة قائلاً: "أنني قد أخذت على نفسي أن أخمد أية محاولة تبدو لقلب النظام الراهن، وسوف أقاوم بكل شدة أية موجة ثورية ثانية. إذ أنها ستفضي إلى فوضى لا مفر منها. وسأحطم كل من تحدثه نفسه بأن يرفع رأسه ضد سلطة الدولة القائمة وأعامله بكل قسوة مهما يكن مركزه".

وعلى الرغم من هذا فلم يكن من اليسير إقناع هتلر، بتنكر رفيقه في انقلاب ميونيخ. وهو الذي كان يرأس في السنوات السبع الماضية أركان جيشه من ذوي القمصان البنية.

فلما أعلنت في ديسمبر ١٩٣٣ الوحدة بين الدولة والحزب أصبح روهم عضوًا في مجلس وزراء ألمانيا، وتحتم إدماج القمصان البنية بالجيش النظامي.

وقد ترتب على الإسراع في التسلح القومي ضرورة البحث في وضع سائر القوات المسلحة والإشراف عليها، وقد أصبحت في مقدمة المشاكل السياسية.

ووصل مستر إيدن إلى برلين في فبراير سنة ١٩٣٤ وقد أخذ تعهدات وثيقة من هتلر عن جيش الصاعقة بأنه ليست له أية صفة عسكرية.

ودب الخلاف بين روهم والجنرال فون بلومبرج رئيس أركان القيادة العامة للجيش، وأخذ يتسرب الخوف إليه من التضحية بجيش الحزب الذي صرف السنوات في إنشائه وتوطيد أركانه. وأصدر في الثامن عشر من إبريل تحديه بهذه الكلمات على الرغم من تحذيره مغبة هذا المسلك.

"إن الثورة التي بدأناها ليست ثورة وطنية فحسب، بل هي ثورة وطنية اشتراكية، وعلينا بصفة خاصة أن نؤكد كلمة اشتراكية وليس لنا أمام

الرجعية إلا فرقنا الهجومية التي هي الصورة المجسدة للفكرة الثورية، وكل مجاهد في فرق القمصان البنية يتعهد منذ اليوم الأول لاندماجه فيها بأن يجعل حياته وقفاً على الثورة ولا ينحرف عنها قيد شعرة حتى نحقق هدفنا إلى النهاية".

وقد نسى أن يختتم كلمته بعبارة "هايل هتلر" التي كانت تختم بها بيانات ذوي القمصان البنية.

وكان بلومبرج دائب الشكوى إلى هتلر من أعمال ذوي القمصان البنية. وأصبح هتلر ولا مفر له بين أن يختار القادة العسكريين الذين يمقتونه أو قادة جيش الصاعقة الذين يدين لهم بالكثير، وأخيرًا اختار القادة.

واجتمع هتلر في أوائل شهر يونيه بروهم ودام اجتماعهما خمس ساعات حاول أثناءها أن يتفاهم معه، ولكن التفاهم مع هذا المتعصب الشاذ الطموح كان أمرًا مستحيلاً، وكان هناك هوة سحيقة بين ألمانيا العظمى التي تسيطر عليها سلسلة تصاعدية من القوات الكهنوتية المستترة التي يحلم بها هتلر وبين الجمهورية البروليتارية التي يسيطر عليها جيش الشعب والتي يديرها روهم.

وتألفت فرقة منتقاة داخل صفوف جيش الصاعقة يرتدي أفرادها القمصان السود، وقد أطلقت على نفسها اسم الحرس النازي، وكان المقصود بها أن تكون حرسًا خاصًا للزعيم ولها أعمال خاصة وسرية ويتولى قيادتها مزارع فاشل من الذين كانوا يقومون على تربية الدجاج هو هنريك هملر. وقد أصبح من المتوقع القريب أن يحل الصدام بين هتلر والجيش من ناحية وبين روهم وفرق الصاعقة من الناحية الأخرى: فاتخذت الطرق اللازمة لضم الحرس النازي إلى معسكر هتلر. وواجه روهم أنصارًا ذوي قوة ونفوذ من كبار رجال الحزب وفي مقدمتهم جريجور شتراسر. وقد رأوا مشروعاتهم القوية للثورة الاجتماعية قد ضرب بها عرض الحائط.

وكان في صفوف الجيش فريق من الثائرين فإن المستشار السابق فون شليخر لم ينس ما ناله من هوان في يناير سنة ١٩٣٣. وكيف فشل الجيش وقادته في اختيار خلف لهندنبرج. وكانت الفرصة سانحة لشليخر حيث وقع الخلاف بين هتلر وروهم.

وقد أفضى بحماقة إلى السفير الفرنسي في برلين بأن أيام هتلر في الحكم معدودات، وكان يكرر ما سبق أن قام به في عهد براوننج، ولكن الظروف كانت قد تغيرت وأصبحت أشد خطورة.

وقام هتلر والقادة العسكريون بحركة تصفية وتطهير، ولا يدري أحد في ألمانيا هل كان هتلر مرغمًا على أن يوجه ضربته خوفًا من مؤامرة يقوم بها روهم أم أنه هو والقادة العسكريون قرروا القيام بهذه الحركة خوفًا مما قد يأتي به الغد من أحداث. وكان اهتمام هتلر والفريق المناصر له بخلق قضية تؤكد وجود المؤامرة.

وليس من المعقول أن يكون روهم ورفاقه من ذوي القمصان البنية قد وصلوا إلى حد التآمر والنقطة الفاصلة بين التآمر والخطر يمكن اجتيازها في لحظة من اللحظات، ومما لا شك فيه أنهم كانوا يحشدون قواهم ويتثبتون في مراكزهم.

ثم توالت الأحداث وانتقلت إلى دورها المريع. وفي الخامس والعشرين من يونيه أمر رجال الجيش بالبقاء في ثكناتهم. ووزع العتاد والذخيرة على ذوي القمصان السود. وصدرت في نفس الوقت الأوامر إلى ذوي القمصان البنية أن تبقى على أهبة الاستعداد، وقد استدعى روهم بموافقة هتلر سائر كبار قادة جيش الصاعقة إلى اجتماع يعقد في الثلاثين م نشهر يونيه في وييسى في منطقة البحيرات البافارية. وتلقى هتلر في التاسع والعشرين إنذارًا على جانب كبير من الخطورة فطار إلى جودنبرج واجتمع بجوبلز الذي نقل إليه أخبار فتنة وشيكة الوقوع في برلين. وقال جوبلز أن الأمر قد صدر إلى كارل أرنست مساعد روهم

بأن يعد ثورة، ومن الواضح أن هذا النبأ لم يكن صحيحًا إذ أن أيرنست كان في بريمن في ذلك الوقت وعلى وشك الإبحار من الميناء لتمضية شهر العسل.

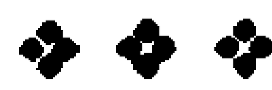
وأسرع هتلر باتخاذ قرارات عاجلة على ضوء هذه البيانات، سواء أكانت صحيحة أو كاذبة. فأصدر أمره إلى جورنج بأن يسيطر على برلين واستقل طائرته إلى ميونخ وقد صمم على اعتقال كبار خصومه.

وجلس هتلر في مقعد مساعد قائد الطائرة طوال رحلته، وقد غمرته أفكار سود، ونزلت به الطائرة في مطار قريب من ميونيخ في الساعة الرابعة من صباح ثلاثين يونيه، وكان يرافقه جوبلز واثنا عشر رجلاً من حرسه الخاص. واستقل سيارته إلى مقر قيادة جيش الصاعقة في ميونيخ واستدعى قادة الجيش المحليين لمقابلته ثم أمر باعتقالهم، وفي الساعة السادسة عاد بسيارته مع جوبلز والفريق الصغير الذي كان يصحبه من رجال حرسه متجهًا إلى ويبسى.

وكان روهم قد أصيب بمرض في صيف سنة ١٩٣٤ ومضى إلى ويبسى للاستشفاء، ووصلت سيارة الفوهرر إلى مدخل الدار التي يقيم فيها روهم في الساعة السابعة من الصباح، وصعد هتلر السلم وحده ودخل إلى الغرفة التي يرقد فيها روهم ولا يعرف أحد ما دار بين الرجلين في هذا اللقاء. ولكن روهم أصيب بذهول من هول المفاجأة واعتقل هو وأركان حربه الشخصيون دون أي حادث، ومن ثم عاد الركب الصغير ومعه الأسرى إلى ميونيخ.

والتقت سيارات هتلر في الطريق بسيارات أخرى تقل جنود الصاعقة في طريقهم إلى ويبسى للهتاف لروهم بمناسبة المؤتمر الذي كان مقررًا أن يعقد هنالك فخرج هتلر من سيارته وأمر الجنود أن يعودوا أدراجهم إلى منازلهم وأطاع الجنود هذا الأمر، ولو تأخر ساعة لتغيرت الأمور وجرت الأحداث مجرى مخالفًا.

وقد اعتقل روهم ورجاله عند وصولهم إلى ميونيخ في نفس السجن الذي كان هتلر معتقلاً فيه منذ عشر سنوات وبدئ في تنفيذ الإعدام فيهم ظهر ذلك اليوم، ودعى روهم من زنزانته فرفض تلبية الدعوة ففتح عليه الباب وألقى عليه وابل من النيران وظلت أعمال الإعدام طول اليوم. في فترات قصيرة متعاقبة. وقد استبدلت الفرق التي تطلق النيران عدة مرات من جراء ما كان يصيب الجنود من الذهول، ولكن صوت إطلاق النيران ظل يسمع كل عشر دقائق، ساعات عديدة.



وكان جورنج في أثناء ذلك قد تلقى الأوامر في برلين من هتلر فقام بعمل مماثل. واتسع نطاق التقتيل فتعدى قادة رجال جيش الصاعقة. إذ قتل شليخر وزوجه في عقر دارهما وقد قتلت الزوجة وهي تحاول الدفاع عن زوجها. واعتقل جريجور ستراشر وأعدم. وأعدم سكرتير بابن الشخصي وعدد من حوارييه ورجال حلقته الداخلية.

ولكن بابن نفسه لم يصب بسوء لسبب ما يزال مجهولاً. ولقى كارل أيرنست مصيره بعد أن أحضر إلى برلين.

وظل صوت النيران يدوي طوال النهار. وفي أربع وعشرين ساعة اختفى في ألمانيا عدد كبير من الرجال الذين لا علاقة لهم بمؤامرة روهم، وقد ذهبوا ضحية الانتقام الشخصي والحزازات القديمة. وقد قدر عدد الذين أعدموا في هذه المجزرة البشرية بما بين خمسة آلاف وسبعة آلاف نفس.

وعاد هتلر بعد ظهر ذلك اليوم الدموي إلى برلين عن طريق الجو. وكان قد آن الوقت لوقف هذه المذبحة التي كانت تتوالى ساعة بعد أخرى.

واقتيد عدد من رجال الحرس النازي الذين كان قد بلغ به الحماس مبلغه فقتلوا عددًا من المسجونين وتوقف صوت العبارات النارية في الساعة الواحدة صباحًا من يوم أول يوليه.

ووقف الفوهرر في ساعة متأخرة من ذلك النهار على شرفة دار المستشارية في برلين ليتلقى هتافات الجماهير، الذين كانوا يعتقدون أنه ضحية مؤامرة. ويقول بعضهم أنه ظهر وعلامات النصر تبدو على سيماه ويقول البعض أنه بدا منهكًا. وربما كان قد بدا على الحالين وقد استطاع بسرعته وقسوته أن ينقذ حياته وفكرته. وقد بقيت في هذه الليلة التي سميت "ليلة الأمراس الطويلة" وحدة ألمانيا الاشتراكية الوطنية. لتحمل لعنتها إلى العالم.

وقد أثبتت هذه المذبحة أن سيد ألمانيا الجديد لا يوقفه شيء عن تنفيذ ما يريد. وأن الأوضاع في ألمانيا لا تمت إلى الحضارة بصلة، واصبح العالم أمام ديكتاتورية طاغية تقوم على الإرهاب وسفك الدماء!

وأخذت الحركة المعادية للسامية تتخذ صورتها المزعجة. وقد شرعت معسكرات الاعتقال تؤدي مهمتها نحو الطبقات المكروهة لديها والمتهمة بالانشقاق، وقد تأثرت بفكرة إعادة تسليح ألمانيا التي أصبحت واضحة المعالم متألقة.



وأصبحت الحركة شديدة بين بافاريا وأرض النمسا جيئة وذهابًا طوال الشطر الأول من يوليه سنة ١٩٣٤ من بين الممرات الجبلية. وقد وقع في أواخر هذا الشهر مبعوث ألماني في أيدي السلطة النمساوية. وكان يحمل عددًا من الوثائق، منها مفاتيح الشفرة. ودلت هذه الوثائق على أن الخطة التي تعد في النمسا للثورة قد تم نضجها. وكان يقوم على تنظيم هذه الحركة الانقلابية أنطون فون رينتلين الوزير النمساوي في إيطاليا في ذلك الوقت. وقد تأخر

دلفوس ووزراؤه في الرد على نذر الأزمة المترقبة والدلائل التي أصبحت واضحة منذ صباح الخامس والعشرين من شهر يوليه، حيث عبأ أنصار النازية في فيينا قواتهم في ذلك الصباح.

وقبيل الساعة الواحدة بعد ظهر ذلك اليوم دخلت جماعة مسلحة من الثائرين دار المستشارية، وأطلقوا النيران على دلفوس، وقد أصابته رصاصتان وما زالت دماؤه تنزف حتى مات.

واستولت فصيلة أخرى من النازيين على محطة الإذاعة وأعلنت استقالة دلفوس وتولي رينتلين ناصية الحكم.

وسرعان ما قام بقية أعضاء حكومة دلفوس بالرد على هذا العمل بنشاط وشدة، وقد أصدر الدكتور ميكلاس رئيس الجمهورية أمرًا رسميًا بضرورة إعادة النظام مهما يكن الأمر.

وتولى دكتور شوشنيج الرئاسة وقد التفت الغالبية من رجال الجيش والشرطة حول حكومته، وطوقوا دار المستشارية حيث كان دلفوس يلفظ فيها أنفاسه الأخيرة وحوله لفيف من الثائرين.

كانت الثورة قد شبت في أرجاء أخرى من البلاد، واجتازت وحدة من الجيش النمساوي في بافاريا الحدود، فلما بلغت الأنباء موسوليني أبرق لساعته معلنًا تأييده استقلال النمسا.

وطار إلى البندقية خاصة حيث استقبل أرملة دلفوس بعطف شديد، وفي نفس الوقت أرسلت ثلاثة فرق إيطالية إلى ممر برنر، وهنا تراجع هتلر وهو على علم بقوته. واستدعى الوزير الألماني المفوض في فيينا وغيره من الموظفين الألمان الذين اشتركوا في الثورة وقد فصلوا من الخدمة. وهكذا لم تنجح المحاولة وعين بابن الذي نجا من حمام الدماء وزيرًا مفوضًا في فيينا. وزود بأوامر صريحة بأن يكون أكثر دهاء وممالأة.

في قيام تلك المآسي انتقل من هذه الدنيا الماريشال هندنبرج العجوز. بعد أن صار في الأشهر الأخيرة ولا فائدة فيه لشيخوخته. وأصبح آلة مسيرة في أيدي القيادة العليا للجيش الألماني.

ومن ثم أصبح هتلر رأس الدولة الألمانية، فضلاً عن احتفاظه بمنصب المستشارية وصار سيد ألمانيا وصاحب الكلمة المطلقة فيها، وكان قد تم التوقيع بمداد من الدم الذي أريق في حمام الدم المشهور.

وأرغم جيش الصاعقة على الطاعة والولاء للفوهرر، وأخرج من صفوف الجيش سائر الأعداء والمنافسين الذين يحتمل أن يكون لهم شأن ما. وفقد الجيش منذ ذلك التاريخ نفوذه وأصبح عبارة عن فريق من الشرطة يظهر في المناسبات والاحتفالات. أما ذوو القمصان السود فقد زاد عددهم وازدادت امتيازاتهم وحسن نظامهم، وأصبحوا تحت إمرة هتلر نموذجاً قوياً للحرس البريتوري لشخص هتلر. ويقومون بالتوازن مع قادة الجيش والرجال العسكريين، وتتألف منهم وحدة عسكرية سياسية لتقوية الجستابو أو الشرطة السرية، التي اتسعت أعمالها وتركزت فيها سلطات رسمية عن طريق استفتاء شعبي لتصبح ديكتاتورية هتلر مطلقة.

وقربت أحداث النمسا بين فرنسا وإيطاليا، وقد أدى مصرع دلفوس والهزة التي أحدثها إلى اجتماع بين رؤساء أركان الحرب وترتب على تهديد استقلال النمسا - إعادة النظر في العلاقات الفرنسية الإيطالية لتشمل في أبحاثها فضلاً عن موضوع توازن القوى في البحر الأبيض المتوسط وأفريقيا الشمالية - أوضاع فرنسا وإيطاليا بالنسبة إلى جنوب إيطاليا الشرقي.

ولكن موسوليني لم يكن يرغب في حماية مركز إيطاليا في أوروبا أمام التهديد الألماني فحسب. بل كان يعمد كذلك إلى توطيد مستقبل الاستعمار الإيطالي في إفريقيا.

وكان يستطيع أن ينتفع بتوثيق علاقاته بفرنسا وبريطانيا لتقوية مركزه ضد ألمانيا، ولكن الاصطدام مع هاتين الدولتين على مشاكل البحر المتوسط في إفريقيا كان أمرًا لا مفر منه.

ورأى الدوتشي أن المصالح المشتركة بين إيطاليا وفرنسا وبريطانيا العظمى ربما أقنعت الدولتين الأخيرتين الحليفتين السابقتين لإيطاليا بقبول البرنامج الاستعماري الذي أعدته في إفريقيا.

وكانت فرنسا ويتولى رئاسة وزرائها مسيو دومرج ووزارة الخارجية فيها مسيو بارتو.. تود الوصول إلى اتفاق رسمي لتوطيد الأمن والسلامة في الشرق.

ولكن تردد بريطانيا في الدخول في أية التزامات وراء نهر الراين ورفضها عقد أي اتفاقات ملزمة مع بولندا وتشيكوسلوفاكيا. ومخاوف دول التحالف الصغير من أطماع الروس، وشكوك روسيا في الغرب الرأسمالي، وقد تضافرت جميعًا على إحباط مثل هذا البرنامج.

ولكن لويس بارتو أصر في سبتمبر ١٩٣٤ على أن يمضي قدمًا في البرنامج الذي وضعه، وكان أساس خطته قائمًا على اقتراح عقد ميثاق شرقي يضم ألمانيا وروسيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا ودول البلطيق.. على أساس ضمانة فرنسا حدود روسيا في أوروبا وضمانة روسيا حدود ألمانيا الشرقية. وعارضت ألمانيا وبولندا فكرة الميثاق الشرقي، إلا أن بارتو نجح في إقناع روسيا بدخول عصبة الأمم في الثامن عشر من سبتمبر عام ١٩٣٤.

وكانت هذه خطوة ذات أهمية كبرى، فقد كان ليتفنوف ممثل الحكومة السوفيتية رجلاً له دراية والمعة بجميع الشئون الخارجية، وسرعان ما اندمج في أجواء عصبة الأمم، وأخذ يتحدث بلغتها الأدبية حتى أصبح في مدى قصير من أبرز رجالها.

وكان حقًا لفرنسا أن تلجأ إلى التحالف مع روسيا ضد ألمانيا التي سمح لها بالزيادة في القوة والنمو، وتسعى إلى بعث توازن القوى الذي كان قائمًا قبل الحرب العالمية الأولى.

ولكن وقعت مأساة في شهر أكتوبر فقد دعى الملك الكسندر اليوغوسلافي للقيام بزيارة رسمية إلى باريس، وكان المسيو بارتو في استقباله، واستقل سيارة معه ومع الجنرال جورج بين جماهير الشعب المصطفة في الشوارع لاستقباله معلنة أفراحها وحبها ومعها الأعلام والأزهار.

ولكن مؤامرة جديدة فتاكة برزت من أعماق الحركة السرية الغربية الكرواتية من هذه الشوارع المكتظة بالجماهير إلى المسرح الأوروبي لتمثل عليه دورًا كدور سيراجيفو سنة ١٩١٤، عن طريق فريق من السفاحين المضحين بحياتهم وكانت وسائل الشرطة الفرنسية ضعيفة، فقفز رجل من بين الجماهير الهاتفة إلى جناح السيارة وأفرغ مسدسه الآلي في صدر الملك ومن معه فأصابهم جميعًا، وسرعان ما أصابت سيوف الحرس جسم القاتل فمزقته، ولكن الملك وسط هذه الاضطرابات كان قد فارق الحياة.

وقد خرج الجنرال جورج والمسيو بارتو من السيارة والدماء تسيل منهما. وكان الجنرال خائر القوى حتى لم يستطع حراكًا. وسرعان ما أدركته العناية الطبية، وشق الوزير الجريح طريقه بين الجماهير. ومضت عشرون دقيقة قبل أن تصل إليه العناية الطبية فأخذت دماؤه تسيل وهو في الثانية والسبعين حتى مات بعد بضع ساعات. وكانت تلك ضربة شديدة للسياسة الفرنسية الخارجية التي كانت تعتمد عليه وخلفه بيير لافال في وزارة الخارجية ولا يمنعنا تاريخ لافال اللاحق ومصيره معنا من أن نعرب عن حقيقة قوته وقدراته، فقد كان له وجهة نظره القوية في تجنيب فرنسا الحرب، وركز آماله للوصول إلى هذه الغاية بالاتفاق مع ديكتاتوري ألمانيا وإيطاليا، ولم يكن يحمل أي عداء لنظام الحكم في بلديهما، ولم يكن يثق بحال من

الأحوال في الاتحاد السوفيتي، وعلى الرغم من مظاهر المودة التي كان يبديها من آن لآخر لبريطانيا فقد كان يكرهها، ويعتقد بأنها حليف لا فائدة منه، ولم تكن سمعة بريطانيا في ذلك الحين ذات تقدير في فرنسا.

وكان لافال يهدف قبل كل شيء إلى الوصول إلى تفاهم صريح مع إيطاليا، وأعتقد أن الفرصة سانحة لهذا التفاهم، فقد كانت فرنسا يخيم عليها الذعر من الخطر الألماني، ومن ثم كانت على استعداد للتنازل لكسب إيطاليا إلى ناحيتها.

وسافر لافال إلى روما في يناير سنة ١٩٣٥ حيث وقع سلسلة اتفاقات لإزالة العقبات التي تقوم بين البلدين في سبيل التفاهم، واتفقت الدولتان على عدم شرعية إعادة تسليح ألمانيا. كما اتفقنا على أن يتم التشاور بينهما إذا اعتدى على استقلال النمسا. وتعهدت فرنسا في مجال الاستعمار بإعطاء كثير من التساهل الإداري في وضع الإيطاليين في تونس وسلمت لإيطاليا أراضي شاسعة على حدود ليبيا والصومال مع إعطائها عشرين في المائة من دخل سكة حديد جيبوتي ـ أديس أبابا.

وكان من المفروض أن تضع هذه المحادثات الأسس لمحادثات رسمية أخرى أكثر اتساعًا تشمل إيطاليا وفرنسا وبريطانيا العظمى لإقامة جبهة مشتركة ضد الخطر الألماني الذي ازداد قوة، وسرعان ما برزت من ثنايا هذه المحادثات حقيقة اعتداء إيطاليا على الحبشة.

ففي ديسمبر سنة ١٩٣٤ اصطدم الجيشان الحبشي والإيطالي على الحدود بين الحبشة والصومال الإيطالي. وقد اتخذت إيطاليا من هذا الصدام ذريعة تتقدم بها أمام العالم للمطالبة بالحبشة. وقد أدى مصير الحبشة إلى تعقيد في أمر التضييق على ألمانيا وحصر المشكلة في أوروبا.

فقدان التوازن الجوي ١٩٣٤ - ١٩٣٥

لم يكن يخطر للقيادة الألمانية أنها تستطيع أن تعيد تنظيم جيشها وتعده إعدادًا يفوق في عظمته وقوته الجيش الفرنسي وتزويده بكل ما يلزمه من المعدات الحربية قبل سنة ١٩٤٣.

وإذا استثنينا الغواصات فإن الأسطول الألماني لا يمكن أن يعاد من جديد على ما كان عليه قبل اثنى عشر عامًا أو خمسة عشر. وسيكون بتقدم فن الطيران ظهور سلاح جديد يصلح للمنافسة القوية. ولعله يغير سريعًا القوة العسكرية النسبية بين الدول، فإذا أمكن لدولة من الدول أن تحقق أغراضًا كبيرة في ميدان العلم والمعرفة فإنها لا تحتاج لأكثر من أربع سنوات أو خمس تكرس فيها جهودها حتى تصبح ذات قوة جوية متفوقة.

وبالعمل والفكر يمكن التمهيد لتقصير هذه المدة بطبيعة الحال، وقد تم خلق القوة الجوية الألمانية بصفة سرية، كما كان الشأن بالنسبة للجيش. وتقرر منذ سنة ١٩٤٣ أن يكون السلاح الجوي الألماني جزءًا من سلاح الحرب الألمانية.

وقد اكتفت هيئة أركان الحرب بادئ ذي بدء بإيجاد سلاح جوي لا يتيسر لمن في الخارج أن يميزه أو يعرفه.

إن القوة الجوية من الأجهزة التي يصعب تحديدها، ومن المتعذر علينا أن نعرف المدى الذي تحولت فيه مصانع الطائرات المدنية وأماكن تدريبها إلى الناحية العسكرية في أي وقت، والفرص كثيرة للإخفاء والتهرب من المعاهدات.

وهكذا فقد أصبح الجو فرصة مواتية لهتلر لكي يقوم بعمل سريع مزيدًا بسلاح عسكري قوي بالنسبة لفرنسا وبريطانيا، ولكن ماذا كان في وسع بريطانيا وفرنسا أن تفعلا؟

ولقد ثبت في خريف سنة ١٩٢٣ أن مجهود بريطانيا لنزع السلاح لا ينجح بأي حال من الأحوال، ولن تتأثر سياسة حزبي العمال والأحرار القائمة على المهادنة حتى بانسحاب ألمانيا من عصبة الأمم وهو حدث كبير، ومن ثم فقد تماديا ـ باسم السلام ـ في دعوة بريطانيا إلى نزع السلاح وكل من يجرؤ على مخالفة هذا الرأي سرعان ما يتهم بأنه من "مثيري الحروب" و "الداعين إلى الفزع".

ولعل الشعب قد احتضن هذه الفكرة، لأنه لم يكن يعرف حقيقة الأمور، ففي انتخابات فرعية في الخامس والعشرين من أكتوبر في دائرة فولهام الشرقية، رفعت روح المسالمة عدد المقترعين إلى الجانب الاشتراكي بتسعة آلاف صوت بينما انخفض عدد المشتركين إلى جانب المحافظين عشرة آلاف صوت.

فلما أعلنت النتيجة قال المرشح الفائز: "إن الشعب البريطاني يريد من الحكومة أن تضرب المثال للعالم أجمع بأنها تتبنى سياسة نزع السلاح".

وأعلن مستر لانسبوري زعيم حزب العمال في ذلك الحين: "أن على سائر الدول أن تنزع سلاحها حتى تصبح في مستوى ألمانيا كخطوة مبدئية في سبيل نزع السلاح بصفة عامة".

وقد خلفت هذه الانتخابات الفرعية أثرها العميق في نفس المستتر بلدوين، مما جعله يشير إليها في خطاب هام ألقاه بعد ثلاث سنوات.

وأجريت انتخابات الريشتساغ في نوفمبر ولم يسمح بدخولها إلا للمرشحين الذين وافقع ليهم هتلر، ونال النازيون فيها خمسة وتسعين في المائة من الأصوات.

ولعل من الخطأ الحكم على سياسة الحكومة البريطانية، إذا ذكرنا الرغبة العاطفية الملحة في السلام، وقد اختلجت بنفوس أفراد الشعب البريطاني

ممن لا يعرفون الحقائق، أو عرفوها بطريقة معكوسة خاطئة، وهي رغبة تهدد أي سياسة بالاختفاء من المسرح السياسي إذا أقدمت على اتخاذ سياسة مغايرة لها.

إلا أن هذه الحقيقة لا تتخذ مبررًا للقادة السياسيين الذين ينساقون في هذا التيار ومن واجبهم أن يتركوا الحكم ولا يعرضوا حياة الشعب للخطر.

ولم يسبق في تاريخ حكومة بريطانية أن ضن عليها البرلمان بما تريد إذا أرادت اتخاذ الخطوات الضرورية للدفاع.

وقد كان على الذين بثوا الفزع في قلوب أفراد حكومة مكدونالد بلدوين المتسمة بالجبن ومنعوها من سلوك الطريق السوي، أن يحجموا عن الكلام، ويظلوا صامتين.

وتدل أرقام النفقات الجوية في مارس سنة ١٩٣٤ على أنها قدرت بعشرين مليونًا من الجنيهات فحسب، منها ما خصص لبناء أربع أسراب جديدة أو زيادة قوة طائراتنا في الخط الأمامي من ٨٥٠ إلى ٨٠٩ طائرة، وكانت التكاليف المقررة لها في السنة الأولى لا تزيد على المائة والثلاثين ألفًا من الجنيهات.

وقد قلت في تعليقي على ذلك بمجلس العموم:

"إن من المعلوم أننا الدولة الخامسة في الميدان الجوي وليس لدينا إلا خمس ما تملكه جارتنا فرنسا. وألمانيا تسير بسرعة في طريق التسلح وليس في الإمكان وقفها، وهذا أمر واضح لا شك فيه، فليس من المستطاع في رأي أي إنسان أن تقوم حرب رادعة لكف ألمانيا عن خرق معاهدة فرساي.

أنها تتسلح وستتسلح، وقد تسلحت بالفعل وما زال الوقت سانحًا لاتخاذ إجراء كاف في هذا الشأن. ولكننا يعوزنا هذا الإجراء. إننا نحتاج إلى إجراء للوصول إلى المساواة. فليس لشعب يمثل الدور الذي تمثله أو ترغب في تمثيله في العالم أن يقبل أن يكون في وضع يجعله عرضة للتشهير".

وقد ناشدت المستر بلدوين الذي لديه القوة أن يعمل، فالقوة مجتمعة لديه وعليه تقع المسئولية.

وقال المستر بلدوين في الرد على:

"إنه إذا أخفقت سائر الجهود التي نبذلها للوصول إلى اتفاق، وإذا لم يكن من الميسور الوصول إلى المساواة بالطرق التي بينتها. فإن أية حكومة في هذه البلاد والحكومة القائمة بالذات، ستضمن أن هذه البلاد من الناحية الجوية لن تكون في مركز يجعلها أقل من البلاد التي تقع على مرمى الضرب الجوي من شواطئنا".

وهذا تعهد واضح جلي قوي. وقد أعلن في وقت كاف لتنفيذه، ولكن عندما تقدمت الحكومة في العشرين من يوليه باقتراحات متأخرة ناقصة لتقوية السلاح الجوي الملكي بنسبة تقدر بواحد وأربعين سربًا أو ٨٢٠ طائرة في غضون خمس سنوات. هب حزب العمال يؤيده حزب الأحرار بتقديم اقتراح بلوم الحكومة في مجلس العموم.

وقال مستر أتلي الناطق بلسان الحكومة: "إننا ننكر الحاجة إلى زيادة في التسلح الجوي" ولا نعتقد أن زيادة التسلح تؤكد الرغبة في السلام العالمي. ولهذا فنحن نرفض ادعاء الرغبة في المساواة" وأيد حزب الأحرار اقتراح اللوم. وقال زعيم السير هربرت صمويل ما هي القضية المزعومة بالنسبة لألمانيا، إننا لم نر ولم نسمع أن سلاحنا الجوي الموجود الآن غير كاف لمواجهة أي خطر بحال من الأحوال.

وإذا عرفنا أن هذه العبارات قد أعلنت بعد المشاورات التامة بين زعماء الأحزاب المسئولين. عرفنا الخطر الذي كان يهدد بلادنا. ولقد كان هذا الوقت هو الوقت الصالح للعمل والابتداع بالجهود الجبارة لكي تكون لنا قوة جوية تكفل حريتنا في العمل. ولو راعت كل من بريطانيا وفرنسا حق المساواة

في العدد مع ألمانيا لكانت قوتهما معًا ضعف قوة ألمانيا. ولقضى على خطة ألمانيا المبنية على العنف وهي في مبدئها دون خسارة، ولكن الوقت قد فات وأصبح اللحاق بألمانيا أمرًا مستحيلاً.

إننا لا نستطيع أن نشكك في إخلاص قادة حزبي العمال والأحرار ولكننا نرى أنهم كانوا مخطئين كل الخطأ. وهم يتحملون المسئولية على السواء أمام التاريخ. ومن العجيب أن يحاول الحزب الاشتراكي فيما بعد أن يدعي لنفسه بُعد النظر ويقي بالمسئولية في فشل تأمين السلامة القومية على خصومه.

وكان لي شرف الانفراد بحث البلاد على التسلح، وأنا أتذرع بالدفاع عن الحكومة. ولهذا تلقيت ترحيبًا شديدًا غير مألوف من حزب المحافظين عندما قلت:

"لا أعتقد أصلاً أن حكومة ما كانت تتبنى فكرة المناداة بالمهادنة كهذه الحكومة. فهناك المستر رمزي ماكدونالد رئيس الوزراء الذي أثبت في الحرب بسلوكه وشجاعته الفائقة عقيدته وتضحياته للوصول إلى الطريق السوي للمهادنة.

وهناك المستر بلدوين نائب رئيس الوزراء الذي صار اسمه معروفًا عند الناس بدعائه المتكرر "متعنا يا إلهي بالسلام في أيامنا". وكان في استطاعة أي إنسان أن يعرف أنه إذا قام وزراء من هذا النوع وأعلنوا أن واجبهم يقتضيهم أن يدعو إلى زيادة طفيفة فيما لديهم من الوسائل لضمان السلام سيجدون آذانًا مصغية عند المعارضة. وستعده دليلاً على وجود الخطر الذي يريدون حمايتنا منه.

إن بلادنا غنية ونحن عرضة للعدوان. ونحن بعاصمتنا العظيمة كأعظم هدف في العالم أشبه بالبقرة العظيمة المكتنزة الموثقة التي تجتذب إليها

الحيوان المفترس. وقد أصبحنا في وضع لم يسبق أن مررنا بمثله. ولا تمر بمثله بلاد أخرى في هذا الأوان.

ومضيت بعد ذلك أثبت أن ألمانيا قاربت أن تكون في مركز المساواة الجوية مع بريطانيا فقلت:

"أريد أن أؤكد أن ألمانيا نقضت معاهدة فرساي وأصبح لديها سلاح جوي يعادل ثلثي سلاحنا الجوي الدفاعي، وهذه هي الحقيقة الأولى التي أضعها أمام الحكومة لدراستها.

والحقيقة الثانية أن ألمانيا لا تزيد في سرعة التسلح الجوي بالمبالغ الضخمة التي تخصص لهذا الشأن فحسب، بل إنها تقوم بتجنيد عام قد يصل إلى حد التجنيد الإجباري الذي كان ينفذ منذ زمن ولا يزال ينفذ في سائر أنحاء ألمانيا الآن.

ولن تنقضي نهاية سنة ١٩٣٥ حتى يكون سلاح ألمانيا الجوي معادلاً لسلاحنا الجوي الدفاعي في أرض الوطن حتى إذا قامت الحكومة بتنفيذ مقترحاتها الآن.

والحقيقة الثالثة هي أن ألمانيا إذا واصلت التقدم في سلاحها الجوي ستكون في وقت ما من سنة ١٩٣٦ أقوى من بريطانيا إلى حد كبير حتى لو واصلنا تنفيذ برنامجنا.

والحقيقة الرابعة، وهي التي تثير القلق حقًا، فهي أن ألمانيا إذا تقدمتنا فسوف يكون من المستحيل علينا اللحاق بها.

وإذا جاءت الحكومة في وقت ما في السنوات الخمس المقبلة واعترفت لنا بأن القوات الألمانية الجوية قد تفوقت على قواتنا فإنها ستعد مخففة في أول واجباتها ومن حقنا أن نعدها كذلك".

ولقد كان نصيب قرار حزب العمال يلوم الحكومة الإخفاق بطبيعة الحال بأغلبية ساحقة، ولا أشك في أن الحكومة لو طلبت تأييدًا شعبيًا في قضاياها لوجدت السبيل للوصول إلى تأمين السلامة للبلاد.



ويتعذر علينا أن نورد هذه القصة ولا نسجل العلامات الواضحة التي مررنا بها في مرحلتنا الطويلة من الأمان إلى أن وجدنا أنفسنا بين فكي الهلاك. فإذا التفت قليلاً إلى الوراء تأخذني الدهشة للتفريط في ذلك الوقت الذي أتيح لنا. فقد كان في مقدور بريطانيا في سنتي ١٩٣٣ و ١٩٣٤ أن تخلق القوة الجوية التي تكفي للقضاء على مطامع هتلر. أو مساعدة قادة ألمانيا للقضاء على أعماله العنيفة. ولكن أصبح مقدرًا علينا أن نمر بسنوات خمس طوال قبل أن نصطدم بالتجربة الكبرى.. ولو أننا سرنا على هدى الرأي السديد والحكمة المعقولة لما وقعت هذه التجربة. فقد كان في استطاعة بريطانيا وفرنسا المتفوقتين في جهازهما الجوي بمساعدة عصبة الأمم وتأييدها، أن تضما إليهما جميع دول أوروبا، وكان في استطاعة عصبة الأمم أن تكون جهازًا للسلطة التنفيذية للمرة الأولى في تاريخها.

ولما افتتحت الدورة البرلمانية الشتوية في الثامن والعشرين من نوفمبر ١٩٣٤ قدمت باسمي واسم بعض أصدقائي تعديلاً لخطاب العرش، أعلنت فيه أن قوتنا الدفاعية لا سيما القوة الجوية أصبحت غير كافية لضمان سلامة وحرية رعايا جلالة الملك المخلصين.

وكان المجلس محتشدًا ومستعدًا كل الاستعداد للإصغاء وبعد أن قدمت سائر الحجج التي تبين الأخطار العظيمة المحدقة بنا وبالعالم قدمت الحقائق الدقيقة الآتية فقلت:

أولاً: أريد أن أؤكد أن ألمانيا في هذه الآونة لديها سلاح جوي حربي، وأن هذا السلاح يتقدم تقدمًا مطردًا حتى يصل إلى حد المساواة لنا.

ثانيًا: أن هذا السلاح الجوي الألماني سيكون في مثل هذا الوقت من السنة المقبلة في قوة سلاحنا تمامًا، وقد يكون متفوقًا عليه.

ثالثًا: بعد سنة أي سنة ١٩٣٦ ستكون نسبة تفوق السلاح الألماني علينا خمسين في المائة. وستصل النسبة إلى الضعف في سنة ١٩٣٧.

وأسرع مستر بلدوين بالرد على ما قلته مستندًا إلى ما قدمه إليه مستشاروه في وزارة الطيران قال:

"إن ألمانيا مشغولة بالفعل في إنتاج طائرات للخدمة، ولكن قوتها الحقيقية لا تصل إلى خمسين في المائة من قوتنا في أوروبا اليوم. أما بالنسبة للموقف في مثل هذا الوقت من السنة القادمة فأرد على ما قيل من أن سلاح ألمانيا الجوي سيكون مساويًا أو ربما يكون أقوى من سلاحنا، قائلاً أن تقديرنا الحقيقي يثبت أننا سنكون في قوتنا العاملة في أوروبا وحدها أقوى بنسبة خمسين في المائة، ولا أستطيع أن أنظر إلى أبعد من عامين.

ويتكلم المستر تشرشل عما قد يقع في سنة ١٩٣٧. وأقول أن البيانات والأرقام التي ذكرها مبالغ فيها، وذلك حسب التحقيقات التي تبينتها.

وقد أدت هذه التوكيدات التي أعلنها رئيس الوزراء، التي يعتمد في آرائه على الافتراضات إلى تهدئة نفوس الخائفين والناقدين. وكان من دواعي السرور لدى كل إنسان أن يسمع سلطة عليا لا يشك في أقوالها تنفي ما بنيت من الحقائق الدقيقة ولم أقتنع بطبيعة الحال، وكنت على ثقة بأن مستشاري مستر بلدوين لم يطلعوه على حقائق الأمور التي كان يجهلها تمامًا.

وانقضت أشهر الشتاء ولم أجد فرصة لإثارة الموضوع مرة ثانية قبل حلول الربيع. وقد أطلعت المستر بلدوين على ما اعتزمه فلما عرضت في ١٩ من مارس سنة ١٩٣٥ أرقام ميزانية وزارة الطيران على مجلس العموم. عدت أؤكد ما سبق أن أعلنته في شهر نوفمبر الماضي وتحديت من جديد تأكيدات رئيس الوزراء التي أدلى بها في ذلك الوقت.

وقد أفضى وكيل وزارة الطيران ببيان يطمئن ويؤكد الثقة، وقام وزير الخارجية والمستر إيدن بزيارة لهتلر قبل نهاية شهر مارس، وقد اعترف لهما في حديث سجل بصورة رسمية بأن قوة الطيران الجوية في ألمانيا تبلغ حد المساواة مع سلاح الطيران البريطاني.

وأعلنت الحكومة هذه الحقائق في الثالث من إبريل وكتب رئيس الوزراء مقالاً في صحيفة نيوزلتر الناطقة باسمه مؤكدًا فيه صحة أخطار التسليح الألماني في أسلوب يشبه الأسلوب الذي كنت أستخدمه منذ سنة ١٩٣٥.

وقد استعمل كلمة "الكمين" وهي كلمة موحية تنبئ عما يخالج نفسه من القلق فقد كنا بلا شك قد سقطنا في الكمين.

وبدأ مستر مكدونالد الحديث. فأشار إلى ما أعلنته ألمانيا من تصميمها على بناء أسطول يزيد عن الحدود التي قررتها معاهدات الصلح وبناء غواصات خلافًا لما قررته تلك المعاهدات، ثم اعترف بأن هتلر يدعي أن ألمانيا وصلت إلى حد التعادل مع بريطانيا في القوة الجوية وعاد يقول: "مهما يكن من تفسير هذه الادعاءات فإنها تبين ولا شك مدى توسع القوة الجوية الألمانية. التي اتسعت إلى حد يفوق ما قدمناه في السنة الماضية من تقديرات. هذه حقيقة خطرة سرعان ما تنبهت إليها الحكومة ووزارة الطيران".

فلما أعطيت لي الكلمة قلت "إننا على الرغم من ذلك حتى هذه اللحظة لم نتخذ الخطوات التي تواجه بها الموقف، وقد اقترحت الحكومة الزيادات. وعليها أن تقابل العاصفة. من الطبيعي أنها سترى الاتهامات تكال لها. نعم ستوجه إليها شتى أنواع الهجوم من ألسنة قوية متعددة وكثيرة في هذه البلاد. أنها ستتعرض لهذه الحملات على كل حال من الأحوال، فلم لا تحارب الحكومة للحصول على ما يضمن لنا السلامة؟. ولم لا تصر على أن تكون مقررات القوة الجوية كافية؟ فتصل إلى نتيجة تصد عنها تلك الحملات والإهانات. وتصبح حكومة جلالة الملك في موقف يشعر بأنها قامت بمسئولياتها الأولى تجاه هذا الواجب.

وإذا كان المجلس قد أصغى إليّ باهتمام بالغ فإنني أحسست على الرغم من ذلك بشعور من اليأس يكتنف الأعضاء.

ومما يحز في النفس أن تكون واثقًا من قضية هي قضية الحياة أو الموت لبلادك، وتجدك عاجزًا عن إقناع البرلمان والشعب بالخضوع لرأيك والاقتناع بما تقدمه من أدلة وبراهين لاستثارتهم نحو العمل.

ولم يبد مستر بلدوين اعترافه إلا في الثاني والعشرين من مايو سنة ١٩٣٥. وأني أجد نفسي مضطرًا لاقتباسه فيما يلي قال:

"أولاً: فيما يتعلق بالرقم الذي قدمته في نوفمبر الماضي من الطائرات الألمانية فإنه لم تتوفر لدي ما يجعلني أعتقد أن هذه المعلومات كانت خاطئة.

وكنت أعتقد أن هذه المعلومات والأرقام صحيحة. أما الخطأ فكان في تقديري فيما يتعلق بالمستقبل نعم. لقد كنت جد مخطئ وقد ضللنا كثيرًا في هذا الموضوع.

وأؤكد أنه لا داعي للفزع فيما نعمله. وأود أن قول بحزم بأنني ما كنت أبقى لحظة واحدة في حكومة لا تتخذ الخطوات الحاسمة التي اتخذناها منذ اليوم.

لقد كان هناك نقد كثير في الصحافة وعلى الألسنة لأعمال وزارة الطيران. كأنها مسئولة عن عدم كفاية برامجها والسير بها إلى الأمام.

وأريد أن أؤكد أنه إذا كانت هناك مسئولية فليست تقع هذه المسئولية على وزير بمفرده، بل إنها تقع على الحكومة بمجموعها. فنحن مسئولون جميعًا ويقع اللوم علينا أجمعين".

وكنت أظن أن هذا الاعتراف المخيف سيكون حاسمًا وتؤلف على الأقل لجنة برلمانية تمثل سائر الأحزاب تنظر إلى الأمر وترفع تقريرها عن الحقائق التي يسفر عنها البحث مما يضمن سلامة البلاد وأمنها.

لكن الصدى الذي رأيته كان مخالفًا لما قدرت. فالمعارضة التي يمثلها حزبا العمل والأحرار ـ التي كانت قد قدمت منذ تسعة أشهر اقتراحها بلوم الحكومة على أمور أخف مما نحن فيه ـ كانت مترددة وغير حازمة.

فقد كانت تنظر إلى الانتخابات القادمة برامجها التي تستند إليها الحملة على دعاية المحافظين للتسلح.

ولم يكن الناطقان بلسان الأحرار والعمال متهيئين لسماع تلك الاعترافات التي أفضى بها بلدوين، وما كشف عنه من أسرار لذلك فإنهما لم يبذلا محاولة ما لوضع خطابيهما بحالة تتفق مع التطور البارز للحالة الجديدة.

ولم يكن ما أفضيا به يتفق وخطورة الحال التي أقرها بوقوعنا فيها والحقائق التي بدأنا ندرك أنها تقف من خلفنا، ويبدو أن صراحة مستر بلدوين قد استهوت الأغلبية المحافظة وأزالت أثر الخطأ الذي وقع فيه بالفعل، على الرغم من وجود جميع المصادر تحت يديه في أمر حيوي تتعلق به حياة البلاد.

فبدت موجة عجيبة من الحماسة لتأييد الوزير الذي يم يتردد لحظة في إعلان خطته، وقد اتضح لي أن بعض النواب المحافظين أخذوا ينقمون على إحراج زعيمهم الموثوق به بوضعه في وضع لم تتقذه منه إلا رجولته. وإن لم تتقذ بلاده مع الأسف.

لقد حلت بنا كارثة شديدة من نوع رهيب بوصول هتلر إلى التعادل مع بريطانيا العظمى. وكان عليه أن يأمر مصانعه ومدارس التدريب في بلاده بأن تسرع بالإنتاج لا ليرفع نسبة التفوق الجوي، بل ليحسن ويرفع من قيمته.

وقد أصبحت العوامل التي تهدد لندن من الجو أمرًا لا شك فيه، فضلاً عن أننا أصبحنا لا نستطيع اللحاق بألمانيا. أو على الأقل أصبحت الحكومة لا تستطيع ذلك على الإطلاق.

ولا شك أن الحكومة ووزارة الطيران لهم الفضل الآن في المهارة البالغة التي كان يتمتع بها الطيارون في السلاح الجوي الملكي. ولكن التعادل الجوي لم يكن من الميسور الوفاء بالتعهدات المتعلقة به.

ولا شك أن التوسع الجوي الذي وصلت إليه ألمانيا لم يكن على مستوى السرعة التي حققت به ألمانيا ذلك التعادل. ولا ريب أن الألمان قد بذلوا كل مجهود للوصول إلى ذلك التفوق لكي يكن عاملاً قويًا في نضالهم السياسي.

وقد وطد هتلر أساس العدوان الذي رسم خططه، وأصبح من المحتم القيام بها وبذلت الحكومة البريطانية في أثناء السنوات الأربع مجهودات بارزة في هذا الميدان. وبدأت تظهر النماذج الأولى من طائرات "الهاريكين" المشهورة والمقاتلات من نوع السبتفاير ـ نافثات اللهب ـ في سماء بريطانيا تباعًا في نوفمبر سنة ١٩٣٥ ومارس سنة ١٩٣٦.

وصدرت الأوامر بزيادة الإنتاج على نطاق كبير. ولكن أرقام الإنتاج لم تزد بسرعة كبيرة، ولا شك أننا تفوقنا في الجو من ناحية التكيف، ولم نتفوق من ناحية العدد. وكنا متأخرين بالنسبة لألمانيا.

فلما قامت الحرب العالمية الثانية لم يكن عدد الطائرات التي لدينا نصف ما لدى ألمانيا من الطائرات.

مقابلة التحدي ١٩٣٥

مضت سنوات العمل الخفي، والإعداد من وراء الحجب، وأصبح هتلر في حالة تسمح له بالتحدي الصريح. فقد أعلن في ٩ من مارس سنة ١٩٣٥ إنشاء السلاح الجوي الألماني ثم أعلن في السادس عشر منه فرصة التجنيد الإجباري لتموين الجيش الألماني بالجنود. وسرعان ما نشرت القوانين الرسمية المتعلقة بهذين القرارين.

وكان قد بدأ العمل الرسمي في توقع هذا الإجراء. وأعلنت الحكومة الفرنسية في ذلك اليوم الرهيب. قبل إلقاء البيان الألماني بدقائق معدودات وهي على علم سابق بما فيه مد الخدمة العسكرية في جيشها إلى سنتين.

كان هذا تحديًا واضحًا للمعاهدات التي قامت عليها عصبة الأمم، وإذا كانت هذه المخالفات تتخذ صورًا شتى غير الإعلان الصريح لخرق المعاهدات، وسميت بأسماء مختلفة. فقد كان يسيرًا على الدول المنتصرة المسئولة، التي تغلبت عليها الرغبة في المهادنة وشغلتها مشاغلها الداخلية. أن تتحمل مسئولية إعلان خرق الألمان لمعاهدات الصلح.

أما الآن.. فقد تحولت المسألة إلى تحد عنيف، وفي الوقت نفسه طالبت الحكومة الحبشية عصبة الأمم بأن تساعدها ضد تهديد إيطاليا ومطالبها.

ولما قام السير جون سيمون وزير الخارجية بموافقة المستر إيدن حامل أختام الملك بزيارة برلين في ٢٤ من شهر مارس بناء على دعوة من هتلر رأى الفرنسيون على ضوء هذه الحقائق أن الفرصة لم تكن صالحة لتلبية هذه الدعوة.

وكان على الفرنسيين أن يعدوا أنفسهم لا لتخفيض القوات المسلحة، كما كان يدعوهم ماكدونالد بإلحاح قبل أقل من سنة، ولكن لمد الخدمة العسكرية الإلزامية سنتين بدلاً من سنة وكانت هذه مهمة شاقة أمام غالبية الرأي العام.

فقد اقترع الاشتراكيون والشيوعيون ضد هذا المشروع، فلما قام المسيو ليون يقول: "إن عمال فرنسا سيقاومون العدوان الهتلري" رد توريز بين الهتافات المؤيدة من عملاء السوفييت قائلاً: "إننا لن نجر الطبقات العاملة إلى حرب يدعون أنها للدفاع عن الديمقراطية ضد الفاشية".

كانت الولايات المتحدة قد انصرفت عن سائر المشاكل الأوروبية، وأعربت عن تمنياتها للجميع. وأكدت عن ثقة بأنها لن تزعج نفسها مرة أخرى بهذه المشاكل.

وقد رأت فرنسا وبريطانيا العظمى وإيطاليا على الرغم ما بينها من خلافات أن عليها واجبًا إزاء هذا التحدي القائم على خرق المعاهدات، ووجهت الدعوة لعقد مؤتمر في ستريزا يضم الحلفاء الرئيسيين السابقين تحت إشراف عصبة الأمم؛ لبحث هذه القضايا جميعًا.

وكان هناك إجماع على أن خرق المعاهدات التي ضحى الملايين بأنفسهم من أجلها أمر لا يقبل بحال من الأحوال. وكان البريطانيون قد بينوا بادئ الأمر أنه لن يقبلوا النظر في احتمال توقيع عقوبات في حالة خرق المعاهدات. ومن ثم كانت أعمال المؤتمر منحصرة في حدود الكلمات.

وقرر المجتمعون بالإجماع عدم قبول أي خرق من جانب واحد للمعاهدات. ودعوة مجلس عصبة الأمم للاجتماع للنظر في هذا الشأن وإصدار قرار فيه. وقد أيد موسوليني في اليوم الثاني من أيام المؤتمر هذه الإجراءات. وكان متحمسًا في معارضته عدوان أية دولة على دولة أخرى. وكان القرار النهائي كما يلي:

"أن الدول الثلاث التي اتخذت هدفها المحافظة على السلام في نطاق عصبة الأمم تجد نفسها على تمام الاتفاق في معارضة أي خرق للمعاهدات من جانب واحد بسائر الوسائل العملية. لما في هذا من تهديد للسلام في أوروبا. وستعمل متعاونة في ود وثيق لتحقيق هذه الغاية".

كان الديكتاتور الإيطالي قد أكد في خطابه "سلام أوروبا" وتوقف بعد كلمة "أوروبا" بصورة واضحة. ولفت هذا التأكيد انتباه ممثلي وزارة الخارجية البريطانية. وقد فتحوا آذانهم وأدركوا أن موسوليني في الوقت الذي كان فيه يعد بالعمل مع فرنسا وبريطانيا لمنع ألمانيا من التسلح كان يبيح لنفسه حق القيام بأي إجراء في إفريقيا ضد الحبشة. وهو ما كان يصمم عليه.

وتشاور مندوبو بريطانيا في هذا الشأن وقد وجدوا أنه من المرغوب فيه الحصول على تأييد موسوليني في موضوع ألمانيا، ولا داعي لإزعاجه بالتحذير من العمل ضد الحبشة. وقد تقرر أن لا تثار هذه النقطة والتجاوز عنها باعتبارها خطأ. وشعر موسوليني بأن الحلفاء قد وافقوا على بيانه. وأنهم سيطلقون له الحرية في الحبشة ولزم الفرنسيون الصمت عن هذه المسألة. وقد انفرط المؤتمر على هذا الحد.

ودرس مجلس عصبة الأمم في الفترة ما بين الخامس عشر والسابع عشر من إبريل خرق ألمانيا معاهدة فرساي بإعلان الخدمة العسكرية الإجبارية. وكان المجلس مؤلفًا من مندوبي الدول الآتية:(الأرجنتين ـ استراليا ـ بريطانيا ـ

شيلي ـ تشيكوسلوفاكيا ـ الدانمارك ـ فرنسا ـ إيطاليا ـ المكسيك ـ بولندا ـ البرتغال ـ أسبانيا ـ تركيا ـ الاتحاد السوفيتي).

وقد قرر المجتمعون عدم السماح بخرق المعاهدات بعمل فردي، ثم أحيل الموضوع إلى الجمعية العامة للعصبة. وقد عقد وزراء خارجية الدول الاسكندنافية الثلاث: السويد والنرويج والدانمارك اجتماعًا لبحث موضوع التوازن البحري في البلطيق. ذلك الموضوع الذي يثير قلقهم إلى حد كبير، واتخذوا قرارات فيما بينهم.

وهكذا اجتمعت آراء تسع عشرة دولة على الاحتجاج على أعمال ألمانيا، ولكن ما الفائدة إذا لم تكن دولة منها أو عدة دول تفكر في استعمال القوة. ولو كان استعمالها وسيلة أخيرة.

لم يكن لافال يميل إلى التقرب من روسيا كسلفه بارتو. ولكن كانت لفرنسا حاجة ملحة إلى ذلك، وكان على الذين يهتمون بحياة فرنسا أن ينالوا إجماعًا قوميًا في مسألة الخدمة العسكرية الإجبارية ومدها سنتين، ذلك الموضوع الذي ووفق عليه في البرلمان بأغلبية ضئيلة في شهر مارس.

وكانت الحكومة السوفيتية وحدها هي التي تضمن انضمام الفئة المؤيدة لها من الفرنسيين إلى هذا الرأي. للولاء الذي يدينون به إليها. فضلاً عن الرغبة الملحة في بعث التحالف القديم الذي عقد سنة ١٨٩٥ أو ما يشاكله. وقد وقعت الحكومة الفرنسية في ٢ من مايو سنة ١٩٣٥ ميثاقًا فرنسيًا سوفياتيًا. يضمن تبادل المساعدة في وجه أي عدوان ومداه خمس سنوات ورحل لافال إلى موسكو في زيارة مدتها ثلاثة أيام. ليصل إلى نتائج في السياسة الفرنسية. فاستقبله ستالين هناك ودارت بينهما مناقشات نورد هنا جزءًا لم ينشر منها.

كان ستالين ومولوتوف يرغبان قبل كل شيء في الوقوف على ما يستطيع الجيش الفرنسي أن يعده للجبهة الغربية. وكم عدد الفرق التي لديه. ومدى تدريبه ومدة خدمته. فلما تم البحث في هذه الأمور قال لافال "هل في وسعكم أن تساعدوا على تشجيع الروح الكاثوليكية في روسيا؟ أن مثل هذا التشجيع يساعدني كثيرًا في محادثاتي مع البابا" فقال ستالين "البابا. وكم عدد الفرق التي لديه" ولا أدري رد لافال على ذلك. ومن المحتمل أن يكون قد ذكر له بعض الفرق التي تقوم على الاستعراضات العسكرية.

لم يكن لافال يرمي إلى أن يربط فرنسا بأي التزام من الالتزامات التي تطلبها روسيا عادة، ولكنه حصل على تأييد منها في سياسة الدفاع الوطني التي اختطتها فرنسا للمحافظة على المستوى العسكري الذي تريده، وسرعان ما تحول الشيوعيون الفرنسيون بعد أن تلقوا هذه التعليمات وأيدوا البرنامج الدفاعي تأييدًا حماسيًا، وكذلك مشروع إمداد الخدمة العسكرية الإجبارية سنتين.

ولم يترتب على الميثاق الفرنسي السوفياتي التزام ما على أحد الفريقين المتعاقدين إذا وقع عدوان ألماني، ولم يكن له غير أثر محدود في سلامة أوروبا وأمنها.

وفي طريق عودة وزير الخارجية الفرنسي من موسكو لبث قليلاً في كراكاو ليشترك في تشييع جنازة المارشال بلسودسكي حيث اجتمع هنالك بجيرنج اجتماعًا ساده الألفة والود. إلا أن أقواله التي أدلى بها عن كراهية للسوفييت وعدم ثقته بهم نقلت إلى موسكو عن طريق الألمان.

ضعفت صحة المستر ماكدونالد وانهارت قواه وأصبح غير قادر على تحمل أعباء الوزارة. ولم يكن حزب المحافظين يحمل له شيئًا من المودة والألفة لعقيدته الاشتراكية وصحيفته السياسية والحزبية، ولكن ما لبثت تلك العقيدة أن تحولت إلى إشفاق.

فلم يكن حزب العمال الاشتراكي يكره أحداً كما يكره زعيمه السابق الذي أوجده إذ كانوا يعزون إليه انهيار الحزب بانصرافه عنه سنة ١٩٣١ بصورة وصفوها بالخيانة.

ولم يكن له سوى سبعة أصوات في مجلس العموم من أعضاء حزبه بين الأغلبية العظيمة التي تؤيد حكومته.

وقد ثبت إخفاق سياسته القائمة على نزع السلاح. تلك السياسة التي كرس حياته السياسية لأجلها.

وحل موعد الانتخابات العامة وليس لديه من سند يقدمه للحكومة ولا عجب إذا أعلن في السابع من يونية تبادل المنصب بينه وبين المستر بلدوين، فأصبح هذا رئيساً للوزارة للمرة الثالثة، وحل السير صمويل هور في وزارة الخارجية. بعد النجاح الكبير الذي أحرزه وهو في وزارة الهند بموافقة المجلس على قانون الهند.

ونقل السير جون سيمون إلى وزارة الداخلية بعد أن تعرض لحملات عنيفة من بعض المحافظين.

ولجأ المستر بلدوين إلى وسيلة جديدة فعين المستر إيدن وزيراً لشئون عصبة الأمم. وكان قد وقف حياته في السنوات العشر الأخيرة على الشئون الخارجية.

وكان عند نشوب الحرب العالمية الأولى قد تخرج في كلية ايتون في الثامنة عشرة من عمره فألحق كتيبة المشاة من حملة البنادق الستين، حيث خدم في سنوات الحرب الأربع خدمة عظيمة. وساهم في أشد المعارك وأعنفها ثم ارتقى إلى منصب قائد اللواء، ومنح وسام الصليب الحربي وبحلوله هذا المنصب في وزارة الخارجية أصبح له مرتب الوزير الأصيل، وصار من حقه أن يطلع على كل الوثائق، ويملي تعليماته على سائر الموظفين.

وكان مستر بلدوين في هذا يرمي إلى تهدئة الرأي العام المتصل الوشائج بميثاق عصبة الأمم. بإظهار اهتمام الحكومة بعصبة الأمم وسير الأمور في جنيف.

فلما لاحت الفرصة بعد شهر واحد للتعليق على ما دعوته بالقصد الجديد من تعيين وزيرين للخارجية. متساويين في القدر والأهمية أظهرت ما في هذا المسلك من العيوب.

وقد أدت بعض العوامل إلى تدخل الأميرالية من رجال الجيش والبحرية، وعلى الرغم مما في ذلك من الخطأ فقد أدت الأوضاع الغريبة القائمة في ذلك الحين إلى ذلك.

وكانوا بطبيعة الحال يجرون راء ميول، بل توجيهات وزير البحرية، ومجلس الوزراء اللذين تقع عليهما سائر المسئوليات، وأن كانت هناك ميول قوية إلى تأييد الأميرالية.

وقد كانت ثمة محادثات بين الأميراليتين البريطانية والألمانية حول النسبة المحددة لكل من أسطولي البلدين، وقد قضت معاهدة فرساي على أن لا يسمح للألمان بأكثر من عشر بواخر لا تتعدى حمولة الواحدة منها عشرة آلاف طن وستة طرادات خفيفة حمولة كل منها ستة آلاف طن.

ورأت الأميرالية البريطانية أن بارجتي الجيب "شارنهورست"، و"جنيزناو" اللتين شيدتا كانتا أكبر كثيرًا مما اتفق عليه في المعاهدة مع ألمانيا ومن طراز مختلف كل الاختلاف. فقد انساقتا إلى عرض البحار على شكل بارجة أو طراد أو مدمرة تجارية من نوع رفيع، وكانت حمولة كل منهما عشرين ألف طن. وقد لعبا دورًا كبيرًا في الحرب العالمية الثانية.

إزاء هذا التحدي الماكر لمعاهدات الصلح. كان من الخير عقد اتفاق بحري بين بريطانيا وألمانيا. وقامت حكومة جلالة الملك بهذا العمل دون استشارة حليفتها فرنسا وعصبة الأمم.

وبينما كانت الحكومة تحتج في عصبة الأمم وتزج بأنصارها في هذا المضمار كانت وقع اتفاقاً بإزالة النصوص الخاصة بالقوات البحرية.

وكان أساس هذا الاتفاق أن لا يزيد عدد الأسطول الألماني عن ثلث عدد الأسطول البريطاني. وقد استهوت هذه الظاهرة الأميرالية التي استعادت ذكرى الأيام السابقة للحرب العالمية الأولى. حين قبلت بريطانيا أن تكون النسبة معادلة لستة عشر إلى عشرة، وعلى هذا الاعتبار صدقت وعود ألمانيا الظاهرة، فوافقت على أن يكون لها الحق في بناء غواصات، وكان هذا محظوراً عليها بحكم معاهدات الصلح.

وقد نص الاتفاق على أن يكون لألمانيا غواصات تبلغ قوتها ستين في المائة من قوة غواصات الأسطول البريطاني، ويرتفع هذا الرقم إلى مائة في المائة إذا كانت الظروف تتطلب ذلك. ومن الطبيعي أن يعطي الألمان تأكيداتهم بأن غواصاتهم لا تستخدم ضد السفن التجارية. فما هي الحاجة إلى هذه الغواصات إذن؟ ومن الواضح أن تنفيذ باقي النصوص تقضي بأن لا تؤثر هذه الغواصات على سلاح البوارج في نفس الأساطيل.

وقد أصبح لألمانيا بمقتضى الاتفاق بتحديد أسطولها إلى ثلث قوة الأسطول البريطاني الحق في إعداد مشروع جديد لبناء الوحدات البحرية يتيح لها بأن تجعل أحواضها تعمل إلى أقصى مدى تستطيعه مدة عشر سنوات على أقل تقدير. ومعنى هذا هو أن تعمل إلى مدى غير محدود دون أي قيد في التوسع الحربي.

وكانت النصيب الذي سمحت به بريطانيا لألمانيا أكثر مما كانت ألمانيا تنتظر، نظرًا للمنافسات الشديدة بين مطالب أحواض السفن ومصانع الدبابات.

ونحن نعلم أن هتلر كان قد أبلغ الأميرال ريدر أنه لن تنشب حرب مع إنجلترا قبل سنة ١٩٤٤ أو ١٩٤٥. ومن ثم وضعت الخطة لتقوية الأسطول الألماني على مدى طويل من الزمن. ولم يبادروا ببناء ما تم الاتفاق عليه إلا بالنسبة للغواصات التي استمروا في بنائها، حتى إذا بلغت الستين في المائة طلبوا زيادتها إلى مائة في المائة، وقد وصلت إلى خمسة وسبعين في المائة عندما بدأت الحرب.

وقد كانت للألمان فرصة أخرى في شأن بناء البوارج. فإنهم لم يكونوا طرفًا في نصوص اتفاق واشنطن البحري أو مؤتمر لندن. فأسرعوا ببناء (بسمارك) و (تيربيتز) في حين كانت بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا مقيدة بحد لا يزيد على الخمسة وثلاثين ألف طن بموجب الاتفاق السالف الذكر.

وقد عملوا على أن تكون حمولة هاتين البارجتين خمسة وأربعين ألف طن، حتى أصبحا بعد إقامتها أقوى بوارج العالم.

وهذا انتصار دبلوماسي حققه هتلر بانشقاق إحدى دول الحلفاء وسماحها به بخرق نصوص معاهدة فرساي. والاستفادة بالحرية المطلقة في التسلح بالاتفاق الذي حصل عليه من بريطانيا. وكان إعلان هذا الاتفاق ضربة جديدة لعصبة الأمم. وكان من حق فرنسا أن تضج بالشكوى من ضياع مصالحها الحيوية التي تأثرت من جراء هذا الاتفاق الذي تم بين بريطانيا وألمانيا ببناء الغواصات.

وقد أدرك موسوليني من هذه القصة أن بريطانيا ليست مخلصة في سياستها مع حليفاتها. وأنها إذا كانت تنظر إلى مصالحها البحرية الخاصة، فإنها ستمضي في التفاهم مع ألمانيا إلى أبعد الحدود، دون اكتراث بمصالح

الدول الأخرى الصديقة التي يهدد كيانها ازدياد قوى ألمانيا البرية. وقد شجعه هذا على التمادي في خططه الخاصة في الحبشة.

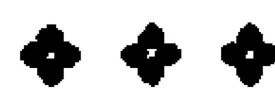
ورأت الدول الاسكندنافية التي كانت تحتج من قبل على إدخال هتلر نظام الخدمة الإجبارية في ألمانيا، أن بريطانيا بموافقتها على زيادة الأسطول الألماني إلى ثلث قوة الأسطول البريطاني ستتيح لها أن تكون سيدة بحر البلطيق المطلقة.

وقد كان استغلال الوزراء البريطانيين استغلالاً كبيرًا أثناء العرض الذي تقدمت به ألمانيا لإلغاء الغواصات كسلاح بحري.

وقد أرفق به مذكرة بوجوب موافقة جميع الدول عليه، وهي لا شك في أنها لا توافق عليه، وينطبق ذلك على ألمانيا، فمن يتصور أن الألمان وهم يملكون أسطولاً ضخمًا من الغواصات يستخدمونه وهم يرون الحصار البريطاني يهدد نساءهم وأطفالهم بالمجاعة؟ وقد وصفت هذا الرأي بأنه "منتهى الغفلة".

وكان الأسطول الفرنسي إذا استثنينا بعض الوحدات الحديثة يتطلب العمل على إعادة بنائه وكذلك الشأن في إيطاليا. وكان علينا أيضًا أن نعيد بناء الأسطول البريطاني على نطاق شامل حتى نستطيع أن نحافظ على النسبة التي حددناها بثلاثة إلى واحد في البوارج الحديثة، وربما كانت هذه النسبة التي حددتها الأميرالية مقصودًا بها إعادة بناء أسطولنا على هذا الأساس، ولكن أنى لنا بالساسة الذين ينفذون هذا؟

وفي الحادي والعشرين من شهر يونية سنة ١٩٣٥ أعلن وزير البحرية البريطانية هذا الاتفاق في مجلس العموم وحملت عليه حملة عنيفة لأنه سيخول لألمانيا أن تبني أسطولها إلى أقصى حد تستطيعه أحواضه في السنوات الخمس أو الست القادمة.



في خلال ذلك كانت الخدمة العسكرية الإجبارية قد أعلنت في ألمانيا في السادس عشر من شهر مارس سنة ١٩٣٥ وفيها التحدي الصريح لمعاهدة فرساي في الميدان العسكري.

وقد أخذت ألمانيا تعيد تنظيم جيشها على أسس عسكرية فنية جديدة. وأصبح الجيش تابعًا للفوهرر القائد الأعلى. وأصبح على كل جندي أن يقسم يمين الولاء للدستور بل لشخص هتلر. واتبعت وزارة التربية للفوهرر.

وقد تألفت سريعًا فرق مدرعة جديدة باسم فرق العاصفة واتخذت كل التدابير لتدريب الشباب الألماني، ومن ثم أصبح الشاب يبدأ عمله في شبيبة هتلر ثم سيحول في الثامنة عشرة من عمره إلى فرق الحرس النازي للعمل فيها سنتين. فإذا بلغ الشاب سن العشرين أصبح واجبًا عليه بحكم القانون أن يؤدي الخدمة العسكرية ستة شهور في شق الطرق وبناء الثكنات وتجفيف المستنقعات، ثم ينتقل بعد ذلك إلى مواطن صالح للعمل في القوات المسلحة.

وكان الشرط الجوهري في كتائب العمل إلغاء الطبقات وتأكيد وحدة المجتمع الألماني. أما في الجيش فوحدة الأمة وتوطيد النظام.

وأخذ العمل في تدريب الجيش الجديد والتوسع في إعداد فرقه وصفوفه يزداد إلى حد كبير. وقد افتتح هتلر في الخامس عشر من أكتوبر سنة ١٩٣٥ كلية أركان الحرب الألمانية متحديًا معاهدة فرساي مرة أخرى، وقد اصطحب معه في الاحتفال بهذا الافتتاح كل قادة القوات المسلحة وكانوا يؤلفون القمة التي تتألف قاعدتها من كتائب العمل، وقد دعيت الفئة الأولى من مواليد سنة ١٩١٤ للخدمة العسكرية وتقرر تدريب ٥٩٦ ألف شاب على أعمال الجندية. وهكذا بجرة قلم ارتفع عدد الجيش الألماني إلى سبعمائة ألف رجل.

وكان جليًا بعد عودة مواليد سنة ١٩١٤ أن تنخفض نسبة العدد في السنوات التالية لهبوط نسبة المواليد في أيام الحرب العالمية الأولى، ولهذا تقرر في أغسطس ١٩٣٦ رفع مدة الخدمة العسكرية في ألمانيا إلى سنتين.

وقد بلغ عدد مواليد سنة ١٩١٥، ٤٦٤ ألفًا. وبذلك أصبح عدد أفراد الجيش العامل بعد مد الخدمة في سنة ١٩٣٦ مليونًا وخمسمائة واحد عشر ألفًا من الجنود.

وكانت قوة الجيش الفرنسي الفعلية في نفس السنة إذا استثنينا الاحتياطي ستمائة وثلاثة وعشرين ألف جندي، والذين منهم في فرنسا أربعمائة وسبعة آلاف فحسب.

ويستدل من الأرقام الدقيقة التالية الفئات التي استدعيت بين عامي ١٩٣٤، ١٩٣٥، ١٩٣٦، ١٩٣٧، ١٩٣٨، ١٩٣٩، ١٩٤٠، للخدمة العسكرية

الفئة	ألمانيا	فرنسا
١٩١٤	٥٩٦,٠٠٠	٢٧٩,٠٠٠
١٩١٥	٤٦٤,٠٠٠	١٨٤,٠٠٠
١٩١٦	٣٥١,٠٠٠	١٦٥,٠٠٠
١٩١٧	٣١٤,٠٠٠	١٧١,٠٠٠
١٩١٨	٣٢٦,٠٠٠	١٩٧,٠٠٠
١٩١٩	٤٨٥,٠٠٠	٢١٨,٠٠٠
١٩٢٠	٦٣٦,٠٠٠	٣٦٠,٠٠٠
المجموع	٣,١٧٢,٠٠٠	١,٥٧٤,٠٠٠

فلما كانت هذه الأرقام حقائق واضحة كما تبين في السنوات القابلة، فقد كانت طلائع النذر. وكل ما كان حتى سنة ١٩٣٥ كان في الحقيقة أقل من قوى الجيش الفرنسي واحتياطه الهائل. بالإضافة إلى حلفائه الشديدي القوى. وكان في مقدور أي قرار صارم حاسم من عصبة الأمم أن يوقف هذه العمليات جميعًا. إذا كانت له صفة السلطة والتنفيذ.

وكان من اليسير أن تدعى ألمانيا إلى المحاكمة أمام الهيئة الدولية وتطالب بتقديم بيان واضح عن تسليحها وفرقها العسكرية التي خالفت فيها معاهدات الصلح. فإذا رفضت ألمانيا ولم تخضع لهذا الأمر قامت جيوش الحلفاء بإعادة احتلال الأراضي والمعابر القائمة على نهر الراين.

ويحتمل أن تقوم ألمانيا بمقاومة فعالة في هذا الشأن أو تسفك دماء. ومن ثم تتأجل الحرب العالمية الثانية إلى أجل غير مسمى.

وكانت القيادات البريطانية والفرنسية تعرف الكثير من هذه الحقائق، وكذلك كانت الحكومتان تعرفان ذلك إلى حد أقل من قيادتيهما.

ولكن الحكومة الفرنسية المشغولة في النضال الداخلي بين الأحزاب السياسية والحكومة البريطانية التي وصلت إلى الحالة نفسها بطريق عكسي من اتفاق الأحزاب لبقاء الأمور على حالها من الهدوء. عجزنا عن القيام بعمل حاسم مهما تكن له من المبررات، سواء في شأن المعاهدات أو الحرص على المصلحة العامة.

العقوبات ضد إيطاليا

أصبح السلام العالمي معرضًا للضربة العنيفة الثانية. وقد تلا مسألة التعادل الجوي لألمانيا، تحول إيطاليا إلى جانبها. ومع توفر الحالين استطاع هتلر أن يسير إلى الأمام في طريقه المقرر للقتال. وإذا كان موسوليني قد

تمكن من مساعدة النمسا على الاحتفاظ باستقلالها لما له من خطر في وسط أوروبا وجنوبها الشرقي، فقد قرر الآن أن يتحول إلى الجانب الآخر.

ولم تعد ألمانيا النازية تقف وحيدة الآن، فقد انضمت إليها دولة من دول الحلفاء الرئيسية في الحرب العالمية الأولى. ولا شك أن هذا الانحدار كان له على نفسي أسوأ الأثر، وآلمني كل الألم.

كان مسلك موسوليني تجاه الحبشة منافيًا للروح الخلقية التي اتسم بها القرن العشرون. وهو في بشاعته لا يمت إلا إلى العصور المظلمة التي كان الرجال البيض فيها يشعرون بحرية التحكم في الرجال الصفر أو السمر أو السود أو الحمر، وإخضاعهم لسلطان قواتهم المسلحة.

وقد وقعت في أيامنا المتحضرة جرائم يأنف متوحشو العصور الغابرة أن يقدموا عليها، بل يعجزوا عن تمثيلها. وهو مسلك يستحق اللوم والتعنيف.

ومن المفارقات العجيبة أن الحبشة كانت عضوًا في عصبة الأمم، وأن إيطاليا هي التي ألحت في سنة ١٩٢٣ في ضمها إلى العصبة وكانت بريطانيا تعارض في ذلك.

وكان رأي بريطانيا أن طبيعة الرق والاستعباد والحروب القبلية القائمة في تلك البلاد المتوحشة لا تتفق وعضوية العصبة.

ولكن الإيطاليين استطاعوا أن يفرضوا إرادتهم. وأصبحت الحبشة عضوًا في عصبة الأمم لها سائر الحقوق والضمانات التي يفرضها ميثاقها.

وأصبحت مسالة الحبشة اختبارًا لنفوذ هذه الهيئة التي تتعلق بها آمال من يطلبون خيرًا للإنسانية.

لم يكن الديكتاتور الإيطالي يرمي إلى التوسع الإقليمي في موقفه من الحبشة. ولكنه رأى أن حكمه الشخصي قائم على السمعة والمكانة التي

يزعمها لنفسه. وأن إيطاليا نالتها هزيمة منكرة على يد الأحباش في عدوة منذ أربعين سنة. وأصبح الجيش الإيطالي بسبب هذه الهزيمة عرضة لسخرية العالم. إذ قام الأحباش بتحطيم هذا الجيش وأسر رجاله وإذلالهم. وما زالت ذكريات الهزيمة قائمة في خيال الإيطاليين. ورأوا كيف ثأرت بريطانيا لنفسها من الخرطوم بعد سنوات.

وكان موقف الإيطاليين بالنسبة للثأر في معركة عدوة كموقف فرنسا بالنسبة للألزاس واللورين. ورأى موسوليني أن خير طريق وأيسره لتثبيت سلطانه ورفع شأن إيطاليا في أوروبا هو إزالة عار السنوات السالفة، وضم الحبشة إلى أملاك الإمبراطورية الإيطالية الحديثة.

وهذا رأي فاشل ينطوي على كثير من الشر.. وقد رأينا أن نسجله على سبيل معرفة وجهات نظر الدول الأخرى.

كنت قلقًا لموقف إيطاليا من الكفاح المخيف ضد تسليح ألمانيا، وأنا أراه يتقدم بخطوات كبيرة. وأراها تنحاز إلى الجانب الآخر. وكنت موقنًا بأن مهاجمة إحدى الدول الأعضاء في العصبة لدولة أخرى من أعضاء العصبة سيكون لها أثرها الهدام كجهاز يستطيع تجميع القوى لمقاومة سلطان ألمانيا الثائرة والتهديدات الهتلرية المفزعة.

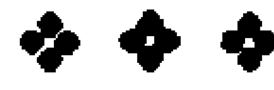
وكان لنا أن ننال عونًا من قيام العصبة أكبر مما ننتظر من إيطاليا، فإذا فكرت العصبة في استخدام سائر القوى التي لدى جميع أعضائها لصد نزوات موسوليني، فإن علينا أن نبادر في المساهمة في هذا الشأن وأن نقوم فيه بدور قوامه الإخلاص.

ولم يكن ثمة ما يدعو لاتخاذ موقف قيادي في هذا الموضوع. وكان على بريطانيا أن تنظر إلى ضعفها الذي آلت إليه من جراء التعادل الجوي، وكذلك وضع فرنسا العسكري بالنسبة لعودة ألمانيا إلى التسلح.

وكان هناك شيء واضح فإن أنصاف الحلول لا تجدي العصبة في هذا الشأن، ولها ضررها على بريطانيا إذا تولت القيادة.

وإذا كنا نعتقد أن الخلق والمصلحة العامة التي تقتضيها سعادة أوروبا تقضي علينا بتحطيم الديكتاتور الأصغر، فإن هذا العمل قد يدفع قوتنا التي لا يزال لها التفوق في ذلك الوقت إلى أن تحد من أطماع الديكتاتور الأكبر، وبذلك نحول دون وقوع الحرب العالمية الثانية.

ولا شك أن هذه الخواطر ليست إلا مقدمة للقصة التي سأرويها في هذا الفصل.



لقد ظهر جليًا استعداد موسوليني لاحتلال الحبشة بعد مؤتمر ستريزا. وكان من الواضح أن الرأي العام البريطاني سيعارض هذا العدوان الإيطالي. وكنا نخشى فضلاً عن وجود ألمانيا الهتلرية انتقال دولة من الدرجة الأولى كما كانت إيطاليا في ذلك الوقت من هذا الجانب إلى الجانب الآخر.

وأذكر أنني اجتمعت مع السير روبرت ناتسيتارت والمستر دوف كوبر الذي كان ما يزال وكيل وزارة في حفلة عشاء. وجرى الحديث بيننا عن هذا التبدل الذي حل بالميزان الأوروبي ضد مصالحنا فاقترح بعضنا أن يذهب فريق منا لمقابلة موسوليني. ويبين له النتائج التي لا شك فيها لحركته في بريطانيا العظمى، ولم يتم شيء من ذلك ولو تم لما كانت له نتيجة فعلية. إذ أن موسوليني شأنه تمامًا كشأن هتلر يعتقد أن بريطانيا عجوز خائرة لا تستطيع إلا أن تصيح وتشكو، ولا تجرؤ على الإقدام على الحرب.

وقد ذكر لورد لويد الذي كان صديقًا لموسوليني أنه تأثر كل التأثر حين سمع القرار الذي أعلنه طلبة أكسفورد سنة ١٩٣٢ بالامتناع عن القتال دفاعًا عن "الملك والبلاد".

وقد دعاني وزير الخارجية في شهر أغسطس ودعا كذلك زعماء المعارضة لزيارته فرادى. وأطلعني السير صمويل هور على ما يخالجه من القلق بشأن العدوان الإيطالي على الحبشة وطلب رأيي عما نستطيع أن نعمله ضد هذا العدوان.

ولما كانت لي رغبة في معرفة الأوضاع التي تجري في وزارة الخارجية في حكمها المزدوج. فقد طلبت من الوزير معرفة وجهة نظر إيدن قبل أن أبدأ في الرد على سؤاله. وقال هور سأدعوه إليك. وقد أقبل إيدن بعد دقائق وعلى وجهه ابتسامة وكان على أحسن حال. ودار بيننا حديث ممتع. أبنت فيه عن رأيي في وجهة نظر الوزير الذي أراه محقاً في دعوة عصبة الأمم إلى السير ضد إيطاليا. ثم أضفت تحذيري من الضغط على فرنسا لارتباطها بميثاق عسكري مع إيطاليا وانهماكها في المشكلة الألمانية. وأنا لا أتوقع من فرنسا أن تسير بعيداً في هذه المسألة.

ونصحت الوزيرين بأن لا يبرزا موقف بريطانيا أو يحاولا أن يكون لها موقف القيادة في هذا الشأن. وكنت في هذا متأثراً من عوامل الخوف التي شعرت بها من ألمانيا والأوضاع التي وصلت إليها قوتنا الدفاعية.

انصرم صيف سنة ١٩٣٥ وكانت إذ ذاك حركة البواخر الإيطالية التي تنقل الجنود من قناة السويس لا ينقطع سيلها. وتوالى حشد القوات الإيطالية على حدود الحبشة الشرقية.

وقد وقع حادث لم أكن أتوقعه. فقد أعلنت الحكومة في الرابع والعشرين من شهر أغسطس أن بريطانيا تتمسك بالتزاماتها بالنسبة للمعاهدات وميثاق عصبة الأمم.

وكان مستر إيدن وزير العصبة قد سافر إلى جنيف ليجمع تأييد الدول لفرض عقوبات على إيطاليا إذا هي أقدمت على غزو الحبشة.

وكان المنصب الغريب الذي وكل إليه دافعًا له إلى بذل كل جهوده للمشكلة الحبشية، بحيث انفردت منه باهتمام فاق اهتمامه بسائر المسائل الأخرى. وكانت العقوبات تعني قطع المساعدات المالية والاقتصادية عن إيطاليا ومد الحبشة بها. وإذ كانت إيطاليا تعتمد في مطالب الحرب على حرية الاستيراد من البلاد الواقعة وراء البحار، فإن هذا التحول يقف عائقًا قويًا في سبيلها. وقد سيطر المستر إيدن بحماسته وخطاباته وآرائه التي أعلنها في عصبة الأمم ووصل السير صمويل هور وزير الخارجية إلى جنيف في الحادي عشر من سبتمبر وألقى الخطاب التالي في الجمعية العامة للعصبة.

"أريد قبل كل شيء أن أعلن تأييد الحكومة التي أمثلها للعصبة. واهتمام الشعب البريطاني بمسألة الضمان الجماعي.

ولا شك أن الآراء التي يشتمل عليها ميثاق العصبة، ولا سيما تلك التي تفتح باب الأمل في إقامة حكم القانون في المشاكل الدولية قد أصبح لها مكانها في كياننا الوطني. وقد أبدى الشعب البريطاني تمسكه التام بمبادئ العصبة.

وأن أي اختلاف في هذا الموضوع نعده انتقاصًا لإيماننا وشكًا في إخلاصنا.

وقد وقفت العصبة بإزاء التزاماتها الدقيقة المتينة وتقف بلادي إلى جانبها في تأييد المحافظة على الميثاق كاملاً. ولا سيما في المقاومة الجماعية لسائر أنواع العدوان التي لا تنشأ عن استفزاز".

وأذكر أنني حينما قرأت هذا الخطاب وأنا على ساحل الريفيرا تظلني شمسه الساطعة تحمست له كثيرًا. على الرغم من القلق الذي ساورني تجاه ألمانيا. وقد بعث هذا الخطاب الحماسة في كل نفس. وترددت أصداؤه في سائر أنحاء الولايات المتحدة، وقد وحد في بريطانيا بين جميع القوى التي تدعو إلى

التآلف بين القوة والحق.. ولو تبين الخطيب القوى الهائلة التي أطلقها في تلك اللحظة، والتي كانت رهن مشيئته لكان في مقدوره أن يقود العالم.

هذه البيانات كانت تعتمد في قوتها على الأسطول البريطاني، الذي برهن في سائر الظروف على قيمته في سبيل تحقيق تقدم الإنسانية وحريتها، وقد أصبح واضحًا للمرة الأولى والأخيرة في تاريخ العصبة أن تحت يديها قوة حقيقية. فهنا تقوم القوة البوليسية الدولية، التي مكنتها أن تفرض جميع الإجراءات الدبلوماسية والاقتصادية ومختلف أنواع الضغط والإقناع.

فلما وصلت البارجتان البريطانيتان هود وريناون في اليوم التالي أي في الثاني عشر من سبتمبر إلى جبل طارق ومعهما السرب الثاني من الطرادات وأسطول من المدمرات عرف الجميع أن بريطانيا ستقرن القول بالعمل. وقد قوبلت هذه السياسة وهذا العمل بتأييد سريع شامل في الوطن. والمفروض أن هذا الخطاب وحركات البوارج لم يتما إلا بعد إمعان دقيق قام به خبراء البحرية للأساطيل التي تحتاج إليها في البحر المتوسط.

وكان عليّ أن ألقي خطابًا في آخر سبتمبر في نادي كارلتون وهو ناد محافظ له أثر كبير في العالم السياسي. وحاولت أن أوجه إنذارًا إلى موسوليني وأظنه قد قرأه، ومع ذلك فإن حركات الأساطيل البريطانية لم تحل بينه وبين الشروع في غزو الحبشة في شهر أكتوبر. فقررت العصبة في العاشر من الشهر نفسه اتخاذ إجراءات جماعية ضد إيطاليا بأغلبية خمسين صوتًا إلى صوت واحد. وقد تم اختيار لجنة من ثمانية عشر عضوًا لتقوم بمحاولات أخرى لحل سلمي.

فلما واجه موسوليني هذا الموقف أعلن بيانًا جافًا ينطوي على شيء من الدهاء والعمق.. فلم يقل أن إيطاليا ستقابل هذه العقوبات بالحرب قال "إن إيطاليا ستواجهها بالنظام والاقتصاد والتضحيات" وأضاف أنه لا يتسامح في فرض عقوبات تعرقل غزوه للحبشة. وإذا تعرض مشروعه للخطر فإنه يغامر بالحرب مع من يقف في سبيله. ثم استرسل يقول "خمسون دولة أجل وتقودها دولة واحدة".

وهكذا كان الوضع في الأسابيع التي سبقت حل البرلمان في بريطانيا وإجراء الانتخابات الجديد بنص الدستور.

وأثارت الهياج في حزب العمال البريطاني تلك الدماء المسفوحة في الحبشة وكراهية الفاشية. وتطبيق عصبة الأمم العقوبات. ولم يكن النقابيون يميلون إلى التساهل وفي مقدمتهم المستر أرنست بيفن بشخصيته البارزة. وثارت بين فئة العمال رغبة شديدة في محاربة الديكتاتور الإيطالي وتطبيق العقوبات تطبيقًا قويًا حازمًا، واستخدام الأسطول البريطاني إذا لزم الأمر.

وتوالى إلقاء العبارات العنيفة في الاجتماعات التي سادتها الحماسة. وأعلن المستر بيفن تذمره في أحد هذه الاجتماعات وقال "إنه قد ضجر بهزيمة ضمير جورج لانسبوري، من مؤتمر لآخر".

وكان عدد كبير من العماليين في مجلس العموم يشاركون النقابات رأيهم بإزاء هذا الموضوع.

وأحس سائر أعضاء اتحاد عصبة الأمم أن لديهم التزامًا أمام قضية العصبة ومبادئها، فهذه مبادئ طالما تفانى في الدفاع عنها عدد كبير من ذوي الإنسانية، وعرضوا أنفسهم للهلاك في سبيلها.

وقد استقال المستر لانسبوري في الثامن والعشرين من شهر أكتوبر من زعامة الكتلة البرلمانية لحزب العمال، وتم اختيار الميجور اتلي ذوي الصحيفة الناصعة في الحزب ليخلفه.

ولم تكن تلك النزعة الوطنية تتفق مع نظرة المستر بلدوين ومقاصده، وانصرمت عدة أشهر بعد إجراء الانتخابات ولم أستطع أن أفهم المبادئ التي قامت عليها العقوبات، فقد أعلن رئيس الوزراء أن العقوبات معناها الحرب أولاً وانه ثانيًا مصمم على أن لا تقوم الحرب، وثالثًا أنه مصمم كذلك على العقوبات.

ومن الواضح أنه لا يمكن التوفيق بين هذه الشروط الثلاثة، وقد تحاشت لجنة عصبة الأمم بإيعاز من بريطانيا وضغط من لافال فرض عقوبة ما قد تحفز إيطاليا إلى الحرب. ومنعت بعض السلع ومنها بعض المواد الحربية من دخول إيطاليا، أما الزيت الذي لا تستطيع إيطاليا بون أن تشن حربها على الحبشة. فقد ظل يصل إليها بحرية. لأن وقف وصوله إليها يعني الحرب لا محالة. وكان موقف الولايات المتحدة يعتوره الشك على الرغم من الخير الذي ينطوي عليه، خاصة وأنها الدولة الرئيسية لتصدير البترول، فضلاً عن أن وقف تصديره إلى إيطاليا يدعو إلى وقف تصديره إلى ألمانيا كذلك.

ومنعت اللجنة تصدير الألومنيوم كله إلى إيطاليا. ولكن الألومنيوم هو المعدن الوحيد الذي تنتج منه أكثر من حاجاتها ومنع كذلك تصدير الحديد الخام ومسحوق الحديد باسم العدالة العامة، ولكن إيطاليا لم تكن تحتاج صناعاتها إلا إلى القليل من هاتين المادتين.

ولما كان تصدير كرات الفولاذ وألواح الحديد لم يشمله المنع. فإن إيطاليا لم ترق نقصًا من هذه الناحية.

وهكذا فإن العقوبات التي فرضت وسط هذه المظاهر العاصفة لم تكن عقوبات بالمعنى الصحيح حتى توقف المعتدين. ولكنها كانت عقوبات بسيطة من النوع الذي يتسامح فيه المعتدي، وعلى الرغم من ذلك كانت تستفز روح الحرب عند الإيطاليين. وهكذا فقد كانت الإجراءات التي وضعتها عصبة الأمم لإنقاذ الحبشة لتقف عقبة في سبيل الجيوش الإيطالية، ولم تكن هذه الأمور معروفة عند الشعب البريطاني أثناء الانتخاب، فقد كان يؤيد سياسة العقوبات تأييدًا تامًا ويرى أنها الطريق الأمثل لوقف هجوم إيطاليا على الحبشة.

ولم تكن حكومة جلالة الملك تعتقد أنها ستستخدم الأسطول البريطاني وأخذت القصص تحاك بطرق مختلفة عن أسراب طائرات الانقضاض الإيطالية الانتحارية التي يقال أنها ستنقض على بوارجنا وتمزقها

كل ممزق. وكان الأسطول البريطاني في ميناء الإسكندرية قد وصلته إمدادات جديدة، ويستطيع بإشارة واحدة أن يمنع بواخر إيطاليا من المرور من قناة السويس، وأن يخوض المعركة مع الأسطول الإيطالي. وكنت قد أثرت هذا الموضوع من قبل، وتلقيت أقوالاً مطمئنة.

وقد ظهر أننا في حاجة إلى الغطاء الجوي وإلى سلاح المدافع المضادة للطائرات. وإن كان الأميرالاي الذي يقود أسطولنا هناك نفى ما كان يعزى إليه من التصريح بعجز أسطولنا عن خوض معركة بحرية.

وكان على الحكومة أن تقوم بدراسة دقيقة لسائر الاحتمالات قبل أن تتخذ قرارها الأول. وأن تكون قد وضعت قرارها على ضوء هذه الدراسة.

ولا شك أنه كان من المستطاع اتخاذ قرار جريء بقطع مواصلات إيطاليا مع الحبشة. وإننا كنا ننتصر حتمًا في أية معركة نخوضها بعد ذلك.

وإذا كنت لا أؤيد أي عمل فردي تقوم به بريطانيا فإنه يؤلمني أن نتراجع بعد أن مضينا بعيدًا في هذا الشأن.

ولا ريب أن موسوليني لم يكن ليجرؤ على الدخول في حرب مع حكومة بريطانيا جادة. فإن العالم لا بد أن يقف ضده في هذه الحال، وكان لابد أن يعرض نظامه وحكمه للخطر في حرب يقوم فيها الأسطول في البحر المتوسط بالمبادرة الحاسمة.

كيف تستطيع إيطاليا أن تدخل هذه الحرب وأسطولها إذا استثنينا بعض الطرادات الخفيفة لا يتجاوز ربع الأسطول البريطاني. أما جيشها الذي كثيرًا ما تتحدى به بأنه يبلغ الملايين فإنه لا يستطيع الإقدام على العمل وسلاحها الجوي لا يبلغ قوة سلاحنا المتواضع عددًا وعدة.

وكنا نستطيع أن نفرض عليها الحصار البحري في الحال ونعرض جيوشها في الحبشة للجوع ونقص العتاد والذخيرة. ولم يكن في طوق ألمانيا في ذلك الوقت أن تقدم لها العون بحال من الأحوال.

ولم تكن هناك فرصة لتوجيه ضربة قاصمة لتأييد قضية عادلة كهذه الفرصة في هذا الوقت. لكن الحقيقة الواضحة وهي أن أعصاب الحكومة البريطانية لم تكن في وضع يلائم هذه الظروف، حقيقة لا مبرر لها إلا تفانيها في حب السلام. ولكن هذا الحب قد دفع بالعالم إلى حرب أشد ضراوة وعنفاً، وقد نجحت لعبة موسوليني.

وقد استنتج بعض المطلعين على حقائق الأمور نتائج بارزة من هذه الحقيقة. فقد كان هتلر قد اعتزم منذ مدى بعيد أن يحارب في سبيل عظمة ألمانيا. وقد استحوذت عليه فكرة انهيار بريطانيا العظمى وضعفها. ولم تبارحه هذه الفكرة إلا بعد فوات الأوان. وضياع فرصة السلام بالنسبة له وللعالم. وكان هناك آخرون من المطلعين أطالوا التفكير وتمادوا في الأمل.

وظل الرأيان المتعارضان كل التعارض يسيران جنبًا إلى جنب أحدهما سبيله التضامن القومي لمواجهة قضية الساعة العاجلة، والآخر سبيله الصراع بين المصالح الحزبية التي لا مفر منها في سائر الانتخابات العامة. وكان هذا لمصلحة المستر بلدوين ومؤيديه إلى درجة بعيدة.

وقد جاء في بلاغ الحكومة الانتخابي "أن عصبة الأمم ستبقى كما كانت دائمًا الركن الركين لسياسة بريطانيا الخارجية" ثم مضى يقول "وأن منع الحرب وتثبيت دعائم السلام في العالم سيظلان على الدوام الهدف الأساسي للشعب البريطاني. وأن عصبة الأمم هي الدعامة التي تعتمد عليها في تحقيق ذلك. من أجل هذا سنواصل العمل ما استطعنا لرفع لواء الميثاق والمحافظة على قوة العصبة، أما من ناحية النزاع القائم بين إيطاليا والحبشة ذلك النزاع الذي يؤسف له فإننا لن نتراجع عن السياسة التي اتبعناها من قبل".

وكان حزب العمال من ناحيته منشقًا على نفسه، فقد كانت الغالبية فيه تميل إلى المهادنة، وإن كان حملة المستر بيفن الفعالة قد نالت تأييدًا كبيرًا بين الجماهير. لذلك حاول زعماء الحزب الرسميون الإشارة إلى وسائل متعارضة إرضاء لهؤلاء. فقد علت أصواتهم مطالبين بالعمل الحاسم ضد الديكتاتور الإيطالي من جهة بينما كانوا من جهة أخرى يستنكرون سياسة التسلح.

وقد أعلن المستر اتلي في الثاني والعشرين من نوفمبر البيان التالي "إننا نريد عقوبات فعالة تطبق بحزم. وإننا نؤيد العقوبات الاقتصادية ونؤيد نظام العصبة" ولكنه مضى يقول في نفس الخطاب "نحن لا نعتقد أن الطريق إلى السلام يقوم على تكديس الأسلحة، إننا لا نعتقد في أوقات كالتي نحن فيها بوجود ما يسمى "بالدفاع الوطني" "ونعتقد أنه من واجبنا أن نمضي إلى الأمام في طريقنا نحو نزع السلاح لا إلى تكديسه".

وليس هنا مجال لتزكية أحد الفريقين في أوقات الانتخابات العامة، ولا شك أن رئيس الوزراء كان يعلم حق العلم ازدياد القوة الكامنة وراء سياسة الحكومة الخارجية. وقد قرر أن لا يجر بلاده إلى الحرب مهما يكن الثمن. وأعتقد فيما يبدو لي أنه كان يعمل لبلوغ أكبر ما يمكن من التأييد في الخارج، واستغلاله للبدء في إعادة تسليح بريطانيا على نطاق كبير.

وتحدث المستر بلدوين في الانتخابات العامة بعبارات قوية عن ضرورة التسليح، وقد ركز خطابه الرئيسي على الكلام عن أوضاع الأسطول غير المرضية. ولكنه بعد أن نال بغيته لتأييد برنامج من العقوبات والتسلح، بدت رغبته الشديدة في إزالة ما كان يساور محبي السلام من العناصر المهنية، وتبديد مخاوفهم من أجل تصريحاته عن المطالب البحرية. وقد ألقى في اليوم الأول من أكتوبر أي قبل موعد الانتخاب بستة أسابيع خطابًا في جمعية محبي السلام قال فيه "أنني أعدكم بأنه لن يكون ثمة تسلح على نطاق واسع".

وهذا وعد على جانب كبير من الغرابة، لما تعلمه الحكومة عن استعداد ألمانيا المثابرة في هذا الشأن.

ومن ثم فقد فاز بأصوات الفريقين: الفريق الأول الذي ينادي بضرورة الاستعداد لمجابهة الأخطار المقبلة. والثاني الذي يرى أن السلام يمكن المحافظة عليه بطريق الإشادة بمزاياه: وكانت النتيجة انتصار بلدوين. وقد منحه الناخبون أغلبية وصلت إلى مائتين وسبعة أربعين على مجموع الأحزاب الأخرى، وقد وصل بعد خمس سنوات من الحكم إلى مركز يخوله من النفوذ الشخصي ما لم يصل إليه رئيس وزارة سابق منذ انتهت الحرب العالمية.. وقد تولت الدهشة جميع الذين عارضوا سياسته بالنسبة إلى الهند وإهمال وسائلنا الدفاعية من تجديد الثقة به. تلك الثقة التي استطاع الوصول إليها بوسائله الماهرة وحظوظه التي نالها في السياسة الداخلية والاحترام الزائد الذي أحرزه بالنظر إلى شخصيته، وهكذا رحب الشعب بحكومة كانت بأخطائها أشد الحكومات تخريبًا وتدميرًا وفشلاً في تاريخنا. وقد أصبح علينا أن ندفع كشف حساب استغرق تسديده عشر سنوات من تاريخ مجلس العموم الجديد.

وكثر اللغط باسمي عن وجوب اشتراكي في الحكم كوزير للبحرية. ولكن بعد الانتصار الباهر الذي أحرزه مستر بلدوين تبين أن النية لم تكن متجهة إلى إدخالي الحكومة.

وقد سخرت بعض الصحف لاستثنائي من الوزارة. ولكن أي إنسان يستطيع الآن أن يعرف أنني محظوظ لهذا الاستثناء. ولا شك أن أجنحة الحظ الخفية ظلت تخفق فوق رأسي لحمايتي.

وكان عزائي، أنني حملت لوحاتي وفرجوني وارتحلت إلى مكان يناسبني قبل اجتماع البرلمان.



وكانت هناك نتيجة عجيبة لانتصار المستر بلدوين، يجب أن نتسامح من أجلها بالتسلسل التاريخي. فقد سافر وزير خارجيته السير صمويل هور عن طريق باريس إلى سويسرا في إجازة للتزحلق على الجليد، وتحدث في العاصمة الفرنسية مع المسيو لافال الذي كان لا يزال وزيرًا للخارجية وانتهت المحادثات إلى ميثاق هور - لافال الذي عُقد في ديسمبر، وجدير بنا أن ندرس بعض الأسس التي قام عليها هذا الحديث التاريخي المعروف.

كانت قيادة بريطانيا الحملة في عصبة الأمم ضد غزو إيطاليا الفاشية للحبشة فكرة تبناها الشعب البريطاني. ولكن الوزراء بعد أن رأوا أن الانتخابات قد تمت وأصبحوا في مركز من له الغالبية التي يستطيع بوساطتها أن يحكم خمس سنوات ويوجه دفة الأمور. فقد بدا لهم أن الوقت قد حان لإعادة النظر في كثير من النتائج الشاقة، ووراء كل ذلك كان يقف الشعار الذي رفعه رئيس الوزراء وهو "لن تكون هنا حرب" "ولن يكون هناك تسلح على نطاق كبير". وهكذا تغير ذلك المدبر الحزبي البارز بعد أن فاز في المعركة الانتخابية على أساس القيادة ضد العدوان، فأصبح وقد اقتنع بأن واجبنا المحافظة على السلام بأي ثمن.

وقد انطلقت دفعة قوية من وزارة الخارجية فإن السير روبرت فانستيارت لم يحول أنظاره عن خطر هتلر لحظة واحدة وكنت متفقًا معه في هذا الرأي. وقد حولت سياسة بريطانيا موسوليني من الجانب الذي كان يقف فيه إلى الجانب الآخر. ولم تعد ألمانيا بعد وحيدة منعزلة. وأصبحت الدول الغربية الأربع وقد انقسمت إلى دولتين أمام دولتين. بدلاً من أن تكون ثلاث دول أمام دولة واحدة. وقد أثار هذا الانحدار البارز في أوضاعنا قلق فرنسا.

وكانت الحكومة الفرنسية قد وقعت اتفاقًا مع إيطاليا في شهر يناير تبعه ميثاق عسكري يقضي بتوافر ثماني عشرة فرقة فرنسية من المحاذية لإيطاليا وإرسالها إلى الجبهة المواجهة لألمانيا. ولا شك أن مسيو لافال أثناء عقد

هذا الاتفاق كان قد لمح لموسوليني بأن فرنسا لا تهتم بحال من الأحوال بمسألة الحبشة. وكانت للفرنسيين مشكلة قوية في مناقشاتهم مع الوزراء البريطانيين. فقد حاولنا كثيرًا ومنذ عدة سنوات إلزامهم بتخفيض جيشهم. وهو الكيان الذي تقوم عليه حياتهم. وثانيًا تولت بريطانيا القيادة في عصبة الأمم ضد موسوليني وكسبت الحكومة البريطانية المعركة الانتخابية على هذا الأساس. وأن المعارك الانتخابية لتلعب دورًا خطيرًا في الدول الديمقراطية، وثالثًا عقدنا اتفاقًا بحريًا روعي فيه أنه يخدم مصالحنا ويربحنا من متاعبنا في البحار باستثناء حرب الغواصات.

وفي ديسمبر سنة ١٩٣٥ ظهرت على المسرح أمور جديدة فقد أشيع أن موسوليني الذي ضايقته العقوبات، والتهديد بوقوف خمسين دولة تقودها دولة واحدة ضده أصبح يرحب بحل وسط لمسألة الحبشة. فهل كان في الإمكان عقد صلح مع إيطاليا يضمن لها ما وصلت إليه بالعدوان ويترك للحبشة أربعة أخماس الإمبراطورية؟ وكان فانسيتارت في باريس عندما مر بها وزير خارجيته فأشرك في القضية ونحن لا نسيء الظن به فقد كان دائم التفكير في الخطر الألماني. ويود أن يرى بريطانيا وفرنسا متعاونتين في جبهة قوية أمام الخطر الرئيسي. وتظل إيطاليا بعيدًا عن الميدان كدولة صديقة.

ولكن الشعب البريطاني تجتذبه من آن لآخر موجات من العواطف الملتهبة يختلف عن سائر شعوب العالم حتى يكون في بعض الأحيان على استعداد للقتال في سبيل قضية أو فكرة، يعتقد بكل جوارحه أنه ليست له مصلحة مادية في النضال من أجلها.

وكان بلدوين ووزراؤه قد رفعوا من شأن بريطانيا في عصبة الأمم بمقاومتهم أطماع موسوليني. وقد مضوا قدمًا في هذا السبيل حتى أصبح من الواجب عليهم أمام التاريخ أن لا يتراجعوا. وإذا لم يكونوا متأهبين لأن يقرنوا

الأقوال والإشارات بالعمل الصريح، فكان أولى لهم لو ظلوا بعيدًا عن المشكلة بحذافيرها ـ كما فعلت الولايات المتحدة ـ ولكنهم لم يسيروا في هذا الطريق.

وكانوا قد ناشدوا الملايين من غير المسلحين ممن لا يهمهم الأمر فاستجابوا حتى طغى صوتهم على سائر الأصوات منادين "سنمضي عاجلاً لقتال الشر امنحونا السلاح".

وكان مجلس العموم الجديد متسمًا بالحماسة. وهذه صفة ضرورية لمواجهة الطوارئ التي فرضت عليه في السنوات المقبلة، ومن ثم كان للأنباء التي شاعت بأن المستر هور قد توصل مع مسيو لافال إلى حل لمشكلة الحبشة أثرها السيء حتى كادت تقضي على حياة المستر بلدوين السياسية.

واهتز البرلمان والشعب لهذه الأنباء. ولم يمض أسبوعان حتى انحدر المستر بلدوين من قمة الزعامة القوية الاجتماعية إلى هاوية سحيقة من الامتهان، وأصبح مقامه في المجلس يدعو إلى الشفقة، ولم يكن ليدرك كيف اهتم الناس بهذه المشاكل الخارجية كل هذا الاهتمام!! فقد حقق المحافظون أغلبية لهم دون اللجوء إلى الحرب. وماذا يبغون بعد ذلك؟ إلا أن هذا الطيار الماهر أحس بقوة العاصفة فواجهها بقوة وجرأة.

وفي التاسع من شهر ديسمبر وافق مجلس الوزراء على اتفاق هور ـ لافال الذي يقضي بتقسيم الحبشة بين إيطاليا والإمبراطورية. وفي الثالث عشر منه عرضت نصوص الاتفاق جميعها في صورة اقتراحات على عصبة الأمم.

وفي الثامن عشر تخلى مجلس الوزراء عن هذه الاقتراحات وأوعز إلى السير صمويل هور بالاستقالة، وانتهت الأزمة.

واستدعى المستر إيدن من جنيف إلى دوننج ستريت لمقابلة رئيس الوزراء واستعرض الموقف بعد استقالة السير صمويل هور. واقترح المستر إيدن أن يدعى السير أوستن تشمبرلين ليتولى وزارة الخارجية وأبدى استعداده للعمل تحت

رئاسته على أي حال إذا دعا الأمر، وأجاب المستر بلدوين بأنه قد أمعن النظر في هذا الشأن ووجد أن السير أوستن لا يقبل وزارة الخارجية. وقد يكون هذا راجعًا إلى انحراف صحته. ومن ثم أصبح المستر إيدن وزيرًا للخارجية في الثاني والعشرين من ديسمبر.

وقضيت أنا وزوجتي هذا الأسبوع الثاني في برشلونة. وقد أشار عليّ بعض أصدقائي المخلصين بألا أعود. وقالوا: إنني سأسيء إلى نفسي إذا تدخلت في هذا النضال. وكان الفندق الذي نقيم فيه ببرشلونة ملتقى الجماعات اليسارية في إسبانيا. وفي المطعم الفاخر الذي كنا نتناول فيه الغذاء والعشاء كنا نرى طوائف عديدة من الشاب ذوي الدثار الأسود، وقد بدا على وجوههم الجد والاهتمام بشئون السياسة الإسبانية التي راح ضحيتها نحو مليون من الإسبانيين.

وإني لأستعرض أحداث الماضي فأجد أنه كان عليّ أن أعود إلى الوطن في ذلك الوقت. فقد تؤدي عودتي إلى شيء من الاستقرار وإيجاد نوع الائتلاف بين الجماعات المناضلة ضد الحكومة. وهو ائتلاف يؤدي ولا شك إلى سقوط حكومة بلدوين.

وقد يكون في مقدورنا أن نؤلف وزارة برئاسة السير أوستن تشمبرلين، ولكن أصدقائي كانوا يهيبون بي "أن من الخير لك أن تبقى بعيدًا. فإن عودتك قد تفسر بأنها تحد للحكومة". ولم يكن في نفسي ميل لقبول هذه النصيحة التي لا أجد في نفسي جاذبًا إليها. ولكنني رأيت أنني لا أفيد أحدًا بعودتي فخضعت وقررت أن أبقى في برشلونة أرسم لوحاتي تحت أشعة شمس إسبانيا المشرقة. وقد صحبني هنالك فريدريك لندمان وقمنا برحلة بحرية في سفينة بديعة حول شواطئ أسبانيا الشرقية. وانتهى بنا المطاف إلى طنجة حيث وجدت اللورد رودزمير مع فئة مسلية من الصحب. وقد أبلغني أن المستر لويد جورج يقيم في مراكش حيث الجو رائع بديع. وأسرعنا بالسيارات إلى مراكش. وقضيت

فترة من الزمن أرسم لوحاتي في هذا الجو المشرق البديع ولم أعد إلى الوطن إلا بعد وفاة الملك جورج الخامس فجأة في العشرين من يناير.



أدى انهيار المقاومة في الحبشة وضم البلاد جميعًا إلى إيطاليا إلى نتائج غير صالحة في الرأي العام الألماني. فقد أعجبت الجماهير حتى ما كان منها لا يوافق على سياسة موسوليني، إعجابًا بالغًا بالطريقة السريعة والعنيفة الناجحة التي قامت بها إيطاليا وأتمت حملتها.

وكان الرأي العام السائد أن بريطانيا خرجت من هذه الأزمة وقد ضعف سلطانها إلى حد بعيد. وباءت بالكراهية من إيطاليا التي لا تتلاشى ولا تضيع أبدًا. وانهارت جبهة ستريزا إلى الأبد.

وقد سارت خسارة بريطانيا لسمعتها جنبًا إلى جنب مع ازدياد ألمانيا الجديدة وارتفاع قدرها.

وكتب ممثل لنا في بافاريا يقول: "يحز في نفسي أن أرى علامات الاحتقار لبريطانيا العظمى ظاهرة في كثير من الأوساط، بينما أرى موقف ألمانيا يقوى ويشتد إلى حد ملحوظ في مفاوضاتها لإيجاد تسوية في أوروبا الغربية. وتسوية أوسع للشئون الأوروبية عامة، وكذلك الشئون العالمية".

وهذه ملاحظات لا شك في صحتها فقد تولت حكومة جلالة الملك مركز القيادة في الدفاع عن قضية مالية عالمية كبيرة، واستطاعت أن تنزعم خمسين دولة عن طريق الحديث باللغة التي تنم عن الشجاعة. فلما قابلت الحقائق القاسية تراجع المستر بلدوين. وكانت الحكومة في سياستها ترمي إلى إرضاء عناصر ذات أهمية في الرأي العام القائم في البلاد، بغض النظر عن حقائق الوضع في أوروبا.

وقد قلبت التوازن في أوروبا بوقوفها ضد إيطاليا دون أن تحقق أي ربح للحبشة. ومن ثم ألحقت بعصبة الأمم أبلغ الأضرار وقادتها إلى عوامل اليأس المميت.

هتلر ينقض ١٩٣٦

عندما عدت إلى إنجلترا في آخر شهر يناير سنة ١٩٣٦ أحسست جوًا غريبًا فقد كان احتلال موسوليني الحبشة والطرق الوحشية التي استعملها في هذا الاحتلال والصدمة الشديدة التي أحسها الشعب من اتفاق هور - لافال. والفشل الذي أصاب عصبة الأمم، وانهيار مشروع "السلامة الاجتماعية" من العوامل التي أثرت في حزبي العمال والأحرار وجزء كبير من الرأي العام الحسن النية، رغم ما اتسم به من التفاهة وعدم النفع.

وقد تجمعت هذه القوى على ما يبدو لتتأهب لفكرة نشوب حرب ضد الطغيان الفاشي والنازي.

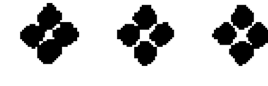
وأصبح استعمال القوة شيئًا فشيئًا أمرًا لا مفر منه في نظر الجماهير الكبيرة من محبي السلام، وأنصار المهادنة، إلا أنهم كانوا يرون أن هذه القوة يجب أن تستخدم تحت إشراف الأمم المتحدة وبدافع منها.

وعلى الرغم من أن حزبي المعارضة استمرا على معارضتهما كل إجراء يؤدي إلى إعادة التسلح.

ولكن مجال الاتفاق كان واسعًا، ولو نظرت حكومة جلالة الملك إلى الأحداث الجارية وارتفعت نحو مستواها لكان في مقدورها أن تتزعم جبهة شعبية متحدة، وتسير بها في سبيل التأهب للسيطرة ومواجهة الأمور.

ولكن الحكومة أصرت على سياستها في الاعتدال وأنصاف الحلول والتهدئة، وقد دهشت حين رأيتها لا تبحث عن توحيد قوى الشعب المتضامن

التي أخذت تنمو وتتزايد، ولو أنها فعلت لقوت مركزها إلى حد بعيد. ولأحرزت القوة اللازمة للبلاد. ولكن المستر بلدوين كان بعيدًا عن هذا الميل. وبدأت تدركه شيخوخة معجلة وكان يعتمد على الأغلبية الكبيرة التي أتاحتها له الانتخابات، وظل حزب المحافظين طوع يديه.



وقد أصبحت الحرب العالمية الثانية يقينًا لا شك فيه. بعد أن أتتاح هتلر لألمانيا التسلح بغير تدخل فعال من الحلفاء أو بالدول المرتبطة بها. وكلما تأخرت التجربة الفاصلة للقوة ساء الأمر وضاعت الفرص لعجزنا من البداية عن وقف هتلر عند حده بغير قتال.

فقد فرضت ألمانيا الخدمة العسكرية الإجبارية. وهي في ذلك تتحدى سائر المعاهدات المعقودة معها. وقد تسامحت معها بريطانيا في هذا التحدي وعقدت معها اتفاقًا فرديًا يتيح لها إعادة بناء أسطولها الذي يضم عددًا مساويًا من الغواصات لما تملكه. وكانت ألمانيا النازية قد كونت بطريقة سرية وغير مشروعة قوة جوية. أعلنت في ربيع سنة ١٩٣٥ أنها أصبحت مساوية لسلاح بريطانيا الجوي.

وها هي قد دخلت في السنة الثانية من العمل الجدي لإنتاج العتاد بعد أن استعدت له استعدادًا سريًا طويلاً. وقد أصبحت بريطانيا العظمى وأوروبا جميعها، وأمريكا التي كانت تعتقد أنها بعيدة عن الخطر لبعدها تواجه قوة منظمة متأهبة للحرب لسبعين مليونًا. ينتمون إلى أكثر الأجناس الأوروبية نشاطًا. ويتوقون إلى استعادة مجدهم القومي. وقد ضمهم نظام حزبي له النفوذ العسكري والاجتماعي لا يعرف التساهل ولا المهادنة.

وكان هناك أمل في فرض السلامة العامة باستعداد جميع الأعضاء لتنفيذ قرارات عصبة الأمم عن طريق القوة. وكانت الدول الديمقراطية وما

يتعبها من الدول ما زالت في واقعها ووسائلها أقوى كثيرًا من الدول الديكتاتورية.

ولكن موقفها بالنسبة لأعدائها أصبح أقل - بما يعادل النصف - مما كان عليه قبل اثنى عشر شهرًا. ولا شك أن النوازع الخيرة التي تتسم بالقصور الذاتي والجبن. تقف أمام قوة الإجرام المسلح المتسم بالعزم والتصميم.

إن الرغبة الصادقة في السلام لا تبرر الزج بالملايين من الناس المساكين في حرب شاملة. فسرعان ما تخف هتافات الاجتماعات القائمة على حسن النية ويتوقف صداها، ولا يبقى له حساب إذا قضى الأمر ووقعت النازلة.

كانت ألمانيا طول عام ١٩٣٥ قد حطمت كل محاولة للدول الغربية للتفاوض لعقد معاهدة كمعاهدة لوكارنو لشرق أوروبا.

وأعلن الرايخ الجديد أنه يقف كالحصن المنيع أمام البلشفية ولن يتعامل بحال من الأحوال مع الاتحاد السوفيتي. وصرح هتلر للسفير البولندي في الثامن عشر من ديسمبر بأنه "يعارض معارضة شديدة أي تعاون بين الغرب وروسيا" ومن ثم أقام العراقيل ضد محاولات فرنسا لعقد اتفاق مباشر مع روسيا.

وقد وقع الميثاق الفرنسي السوفياتي في شهر مايو ولم ينفذ. واصبح من هم الدبلوماسية الألمانية منع هذا الميثاق. وأبلغت برلين المسيو لافال بأنه لن يكون هناك أمل للتقارب بين فرنسا وألمانيا إذا تم ذلك، وكان تردد لافال في هذا الموقف واضحًا، ولكنه لم يؤثر على مجريات الأمور.

وقد وافق مجلس النواب الفرنسي في السابع والعشرين من فبراير على الميثاق، وفي اليوم التالي صدرت إلى السفير الفرنسي ببرلين تعليمات بأن يستفهم من الحكومة الألمانية عن الأسس التي تراها لإجراء مفاوضات فرنسية ألمانية للوصول إلى تفاهم، ورد هتلر طالبًا إمهاله بضعة أيام للتفكير في هذا الشأن. وفي الساعة العاشرة من صباح اليوم السابع من شهر مارس استدعى

الهرفون نوارات وزير خارجية ألمانيا سفراء بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وإيطاليا إلى الولهلم شتراسة، ليبلغهم اقتراحًا بعقد ميثاق لمدى خمسة وعشرين عامًا. وينص على محو الصبغة العسكرية من منطقة الحدود على نهر الراين من الجانبين وتحديد القوات الجوية. وعقد معاهدات بعدم الاعتداء مع سائر الجيران في الشرق والغرب.

وكانت المواد ٤٢، ٤٣، ٤٤ من معاهدة فرساي تنص على تحديد المنطقة المنزوعة السلاح في الراين وتقضي بعدم السماح لألمانيا بأن تقيم تحصينات دفاعية على نهر الراين من الجانب الأيسر وإلى مدى خمسين كيلو مترًا على الجانب الأيمن. وتضمنت منع أي قوات عسكرية ألمانية من الإقامة في هذه الجهة، أو عمل أية مناورات حربية بها أو اتخاذ تسهيلات للتعبئة العسكرية، فضلاً عن أن معاهدة لوكارنو التي تم التفاوض بشأنها بحرية من الجانبين تعهدت الدول الموقعة عليها ببقاء الحدود القائمة بين ألمانيا وبلجيكا وبين ألمانيا وفرنسا، ونصت المادة الثانية منها على ألا تقوم ألمانيا أو فرنسا أو بلجيكا بأي غزو أو هجوم على الحدود.

وإذا خرقت المادتان الثانية والأربعون والثالثة والأربعون من معاهدة فرساي فإن خرقها يعد "عملاً عدوانيًا بغير استفزاز" وعلى الدول التي أسيئت من جراء ذلك ومن حشد القوات المسلحة في المنطقة المنزوعة السلاح أن تقوم في الحال بإبلاغ عصبة الأمم، التي تقرر هذا الخرق وتنصح الدول الموقعة على المعاهدة بتقديم المساعدة العسكرية العاجلة للدولة التي أسيء إليها.

وفي ظهر ذلك اليوم أي في السابع من شهر مارس وبعد مرور ساعتين من تسليم هذا الاقتراح، الذي يدعو لعقد ميثاق يظل خمسة وعشرين عامًا أعلن هتلر في الريشتساغ عزمه على أن يعود لاحتلال الراين. وكان هتلر يلقي خطابه والقوافل الألمانية تزحف إلى الحدود وتحتل سائر المدن الألمانية الرئيسية

في المنطقة. وقد قوبلت هذه القوات بالسرور والابتهاج يقابلهما شيء من القلق لرد الفعل المنتظر من الحلفاء.

وأعلن هتلر في نفس الوقت على سبيل تهدئة الرأي العام في بريطانيا وأمريكا. أن هذا الاحتلال ليس إلا عملاً رمزيًا، وسلم السفير الألماني في لندن المستر إيدن في نفس اليوم اقتراحات تماثل الاقتراحات التي سلمها فون نوارات لسفراء دول لوكارنو في الصباح. وقد خففت هذه الاقتراحات من نشاط أولئك الذين يريدون أن يخدعوا أنفسهم على جانبي الأطلنطي.

وكان رد المستر إيدن على السفير شديدًا وحاسمًا. فقد اتضح أن هتلر ما كان ليقدم هذه الاقتراحات المسالمة إلا ليخفي العمل العنيف الذي ارتكبه، استعدادًا للخطوة القادمة في برنامجه مما تتوقف عليه سمعته.

وليس هذا العمل تنكرًا للالتزامات التي فرضتها قوة السلاح ولا تنكرًا لمعاهدة لوكارنو التي وقعت بحرية في أوقات السلم، ولكنها كانت كذلك استغلالاً للجلاء الودي الذي نفذته قوات الحلفاء في منطقة الراين قبل موعده بسنوات.

وقامت الحكومة الفرنسية التي يرأسها المسيو سارو ويتولى وزارة الخارجية فيها المسيو فلاندان تطلب المساعدة من حلفائها في حالة بالغة من الذعر والغضب وتستنجد بعصبة الأمم. وكان من حق فرنسا أن تتجه إلى بريطانيا العظمى قبل غيرها. لأنها هي التي قدمت لها الضمان بحماية حدودها من أي اعتداء ألماني وأجبرتها على الجلاء عن منطقة الراين. وها نحن أولاء أمام خرق واضح لمعاهدات الصلح ومعاهدة لوكارنو كذلك. وأصبح الالتزام محتمًا على جميع الدول التي يهمها الأمر للعمل.

وكان من رأي المسيو سارو والمسيو فلاندان الإسراع بالعمل وإعلان التعبئة العامة. ولو كان أهلاً لاحتمال المسئولية لأسرعا بالعمل وأرغما غيرهما

على السير في طريقهما. ولكن ظهر أنهما لم تكن لهما رغبة في الإقدام على أية خطوة إلا بموافقة بريطانيا. وهذا أمر لا مبرر له إذ كان من واجب أية حكومة فرنسية جديرة بهذا الاسم أن تجمع أمرها، وتستند إلى التزامات المعاهدات. ولكن الوزراء الفرنسيين في هذه السنوات المذبذبة، التي لا تستقر فيها الوزارات كانوا على الدوام قانعين بمهادنة بريطانيا، ويجدون فيها مبررًا لخنوعهم.

ولم يلق الفرنسيون أي تشجيع من جانب بريطانيا لمقاومة عدوان الألمان. وإذا كان الوزراء الفرنسيون قد تقاعدوا عن العمل فإن حلفاءهم البريطانيين لم يتقاعدوا عن حملهم على العدول عن أي مسلك يدعو إلى العنف.

ودارت محادثات تليفونية طابعها الحماسة بين لندن وباريس. وأثرت حكومة جلالة الملك على فرنسا وأقنعتها بالتريث حتى تقوم الدولتان بعمل مشترك. وبعد دراسة وافية للموضوع تبين أنهما وكأنما كانتا تطآن بساطًا وثيرًا من المخمل.

كان رد لندن غير الرسمي شديد البرودة وإن كان يبعث على الذعر، فسرعان ما أعلن المستر لويد جورج قوله "في رأيي أن جريمة هتلر الكبرى ليست في خرقه للمعاهدة فقد كان هناك استفزاز" وأضاف "أنه كان يأمل في أن نحافظ على اتزاننا" وكان الاستفزاز في ظاهره هو فشل الحلفاء في نزع السلاح. وكانت أقوال اللورد سنودن الاشتراكي منصبة على ميثاق عدم الاعتداء المقترح وقال: إننا تجاهلنا سائر العروض التي سبق أن عرضها هتلر للسلام، ولكن الشعوب لا ترضى هذه المرة تجاهل هذه العروض.

وربما كانت هذه الأقوال معبرة عن الرأي العام البريطاني الذي كان قد ضلل في ذلك الحين، ولكنها لن تكون موضع فخر لقائلها. وجريًا وراء أيسر الأمور وأسهلها رأت الوزارة البريطانية أن تضغط على فرنسا لتوجيه نداء جديد لعصبة الأمم.

وقد وقع انشقاق خطير في فرنسا نفسها. فقد كان الساسة هم الذين يريدون تعبئة الجيش وتوجيه إنذار نهائي إلى هتلر، أما القادة العسكريون فكان شأنهم شأن زملائهم الألمان ينشدون الهدوء والتريث والتسويف. ونحن ندرك الآن الصراع بين وجهات النظر بين هتلر وبين القيادة العليا الألمانية.

ولو قامت الحكومة الفرنسية بتعبئة جيشها إلى مائة فرقة، وبقوتها الجوية التي كان من المعتقد خطأ أنها تفوق أية قوة جوية في أوروبا، لأمكنها أن تحمل القادة الألمان على إرغام هتلر على أن يتراجع إلى الوراء ولاستطاعت أن تصده وتوقفه عند حده، وربما كان لذلك تأثير حاسم على حكمه وسلطانه.

إن فرنسا كانت في ذلك الحين من القوة بحيث يمكنها وحدها أن تطرد الألمان من حوض الراين. ولكن فرنسا بدلاً من أن تنفذ هذه الخطة الحازمة أخذت بنصيحة بريطانيا، التي أوحت إليها بأن تلقى العبء على عصبة الأمم. وكان قد أدركها الضعف والخور بعد مهزلة العقوبات. وموضوع الاتفاق البحري بين ألمانيا وبريطانيا في العام المنصرم.

ورحل المستر إيدن في التاسع من شهر مارس إلى باريس ومعه اللورد هليفاكس ورالف ويجرام. وكانت الخطة موضوعة قبل، على أن تدعى العصبة للاجتماع بباريس، ولكن سرعان ما أوفد إيدن المستر ويجرام إلى فلاندان يدعوه إلى لندن لعقد اجتماع للعصبة في العاصمة بريطانيا ليستطيع أن ينال تأييدًا أقوى وأوسع من بريطانيا.

ولم تكن هذه البعثة لترضى الموظف الأمين، فلما عادة إلى لندن في الحادي عشر من شهر مارس حضر لزيارتي وأطلعني على الموضوع بكل ما فيه. وفي تلك الليلة نفسها وصل إلى لندن المسيو فلاندان وفي الساعة الثامنة والنصف من صباح يوم الخميس جاء لزيارتي في شقتي في "موبيت مانجنيز" وأبلغني أنه قرر أن يطلب إلى الحكومة البريطانية أن تصدر قرارًا بتعبئة مماثلة في البر والبحر والجو، بحيث تخطو الدولتان معًا هذه الخطوة. وقد أكد أنه

تلقى من دول التحالف الصغير ما يطمئنه إلى عونها ومعاضدتها. ولا شك أن حلفاء الحرب الماضية كانوا لا يزالون على حالهم من التفوق. ولم يكن ينقصهم سوى العمل ليصلوا إلى الظفر. وعلى الرغم من أننا لم نكن على علم بما يدور بين هتلر وقواده، فقد كان من الواضح أن القوة إلى جانبنا.

وكان المستر نفيل تشمبرلين باعتباره وزير المالية في ذلك الوقت أكثر الأعضاء تأثيرًا في الحكومة. وقد اقتبس مؤرخ حياته القدير المستر كيس من يومياته الفقرة التالية: ١٢ مارس - تحدثت إلى فلاندان وأكدت له أن الرأي العام لا يوافقنا على فرض عقوبات من أي نوع.

وكان يرى أننا إذا ألفنا جبهة قوية متماسكة فإن ألمانيا بلا شك ستذعن دون اللجوء إلى الحرب، إلا أننا لا نستطيع أن نثق بهذا التقدير بإزاء ما قد يقوم به ديكتاتور مجنون.

ولما حث فلاندان بريطانيا على أن تفرض مقاطعة اقتصادية على ألمانيا على الأقل، أجاب تشمبرلين بأنه من الواجب تأمين قوة دولية أثناء المفاوضات. ثم وافق على عقد ميثاق لتبادل المساعدة. وأعلن أنه على استعداد للتنازل عن مستعمرة إذا كان ذلك سيؤدي للسلام.

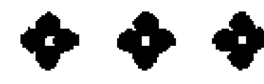
هذا بينما كانت الصحف البريطانية وفي مقدمتها "التايمس" و"الديلي هيرالد" تبدي اعتقادها في إخلاص هتلر في عرض ميثاق عدم الاعتداء.

أما أوستن تشمبرلين فقد أبدى وجهة نظر معاكسة في خطاب ألقاه في كمبردج، وقد رأى المستر ويجرام أن واجبه أن يصله بهم من رجال حي المال ومن الصحفيين ورجال الحكومة وكذلك اللورد لوثيان. وكان فلاندان يتحدث مع كل من يلتقي به في حفل ويجرام قائلاً: "إن جميع العالم يتجه الآن نحو إنجلترا. وإذا استطاعت بريطانيا أن تقوم بعمل فسوف تقود أوربا جميعها. وإذا قررتم سياسة فسوف يسير خلفكم العالم أجمع. وبهذا تحولون دون وقوع

الحرب، تلك فرصتكم الأخيرة، فإذا لم توقفوا ألمانيا الآن فسنفقد كل شيء، ولن يكون في استطاعتنا أن نتعهد بضمان تشيكوسلوفاكيا لأن هذا الضمان يكون مستحيلاً من الناحية الجغرافية. وإذا كنتم لا تحافظون على ميثاق لوكارنو، فليس علينا إلا أن ننتظر تسلح ألمانيا وهو تسلح لا قبل لألمانيا به. وإذا لم توقفوا ألمانيا عند حدها اليوم بالقوة فإن الحرب واقعة لا محالة حتى لو أقمتم صداقة موقوتة معها، أما أنا فلا أعتقد أن في الإمكان إقامة صداقة بين فرنسا وألمانيا. فالتوتر سيظل قائمًا بين الدولتين.

على أنكم إذا تخليتم عن معاهدة لوكارنو فسأكون مضطرًا إلى تبديل سياستي وهذا أمر لابد منه. والحق أنها لكلمات على جانب من الشجاعة، ولكن كان من الممكن أن يكون العمل أكثر تأثيرًا من هذه الكلمات.

أما اللورد لوثيان فقال "إنهم على أية حالة يعودون إلى حديقة دارهم الخلفية" وكان هذا الرأي يمثل وجهة النظر البريطانية.



وقد نصحتُ المسيو فلاندان بمقابلة المستر بلدوين عندما علمت أن الأمور تسير سيرًا سيئًا، وقد تمت المقابلة في دواننج ستريت رقم ١٠، وقد استقبل رئيس الوزراء المسيو فلاندان استقبالاً ينم عن اللطف والمودة، وأوضح المستر بلدوين أنه على الرغم من جهله بمشاكل السياسة الخارجية، فإنه يستطيع أن يوضح عواطف الشعب البريطاني الذي يريد السلام.

ويقول مسيو فلاندان أنه رد على رئيس الوزراء. بأن السبيل الوحيد لحفظ السلام هو وقف العدوان الهتلري. وهو ما زال في حيز الإمكان. وأضاف أن فرنسا لا تريد أن تدفع بريطانيا إلى الحرب ولا تطلب مساعدة فعلية. وتستطيع وحدها أن تقوم بالعملية التي لا تعدو الإجراءات البوليسية البسيطة.

فلدى فرنسا معلومات مؤكدة تدل على أن القوات الألمانية القائمة في الراين لديها أوامر تقضي بالانسحاب إذا هي وجدت مقاومة جدية شديدة.

ويقول المسيو فلاندان أنه قال للمستر بلدوين: أن كل ما تطلبه فرنسا من حليفتها هو أن تطلق يدها، وإن كان هذا القول لا نصيب له من الحقيقة.

فكيف تستطيع بريطانيا أن تمنع فرنسا من عمل تستطيعه قانونًا بحكم اتفاق لوكارنو. ذلك الاتفاق الذي ترتبط به بريطانيا شرعًا؟

وقد أصر رئيس وزراء بريطانيا على أن بلاده لا يمكن أن تجازف بدخول الحرب. وسأل زائره ماذا قررت الحكومة الفرنسية في هذا الشأن؟

ولكن فلاندان لم يجب على هذا السؤال بقول صريح. ويقول فلاندان في كتابه "السياسة الفرنسية" أن المستر بلدوين قال له "ربما تكون على حق ولكن إذا كان إجراؤك البوليسي سيجر إلى الحرب باحتمال واحد في المائة، فلا ألزم إنجلترا بدخول الحرب" وتوقف قليلاً ثم قال: "ليست بريطانيا في حال تسمح لها بدخول الحرب" وهذا قول لا يؤيده الواقع.

وعاد المسيو فلاندان إلى فرنسا وهو موقن أن بلاده المنقسمة على نفسها لا يمكن أن تتوحد إلا إذا رأت عزمًا قويًا من بريطانيا وهذا احتمال بعيد، فليس ثمة من حافز لبريطانيا نحو العمل. وقادته فكرة خاطئة إلى النتيجة المؤلمة وهي أن أمل فرنسا الوحيد هو تسوية الأمور مع ألمانيا التي تسير في طريقها إلى الاعتداء.

وقد رأيت من واجبي على ضوء ما ظهر لي، وعلى الرغم من المواقف القلقة التي يقفها فلاندان والنتائج الخاطئة التي وصل إليها أن أعجل إلى مساعدته بقدر ما أستطيع في السنوات التالية.

وقد استعملت نفوذي شتاء سنة ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤ لحمايته حين اعتقلته إدارة ديجول في الجزائر وطلبت تأييد الرئيس روزفلت، وتلقيت منه المساعدة اللازمة.

ولما قدم في نهاية الحرب للمحاكمة، دعى ولدي راندولف للشهادة في قضيته، فقد كان يعرف عنه الكثير أثناء الحملة الإفريقية. ومما يدعو إلى غبطتي أن دفاعه عنه والرسالة التي أرسلتها إليه ليستعين بها في الدفاع عن نفسه كان لهما أثرهما في براءته أمام المحكمة الفرنسية. فالضعف شيء آخر غير الخيانة. وإن كان يؤدي إلى الكوارث في بعض الأحيان.

ومع ذلك فليس ثمة ما يخلي فرنسا من المسئولية. ولو كان في الوزارة رجل يعمل مثل كليمنصو أو بوانكاريه، لما تركا للمستر بلدوين مجالاً للاختيار.

وكان خضوع بريطانيا وفرنسا لهتلر في خرق معاهدات الصلح واتفاق لوكارنو باحتلال منطقة الراين ضربة قاصمة لوينجرام. وقد كتبت زوجته إليّ تقول: "بعد أن عاد الوفد الفرنسي إلى بلاده، جاء راف إلى البيت. وانتحى ركنًا من الحجرة. ولم يكن قد جلس فيها من قبل ثم قال لي لقد أصبحت الحرب أمرًا لا مفر منه، وستكون أشد حرب عرفها بنو البشر إلى الآن، ولا أحسبني أعيش لأراها ولكنك سترينها، تنظرين سقوط القنابل على هذا المنزل الصغير. وقد جزعت لأقواله، ثم استرسل يقول لقد تبين أن جميع ما قمت به من أعمال طوال هذه السنوات لم يجد نفعًا. فأنا رجل فاشل. وقد عجزت عن أن أقنع الناس بأسباب الخطر وليس لي من الحول ما يجعلني أحملهم على فهم ما أريد. أما ونستن فقد فهم دائمًا وهو رجل قوي وسيسير قدمًا حتى النهاية".

ويلوح لي أن صديقي لم ينج من هذه الصدمة التي أصبته في أعماق نفسه. أن الإنسان ليستطيع أن يمضي فيما يعتقد أنه واجبه وأن يتعرض لأخطار أشد من التي طوحت به. ولكن إدراك وينجرام الشديد لما يعرض له من الأمور كان له تأثيره على طبيعته الحساسة. فمات قبل الأوان في ديسمبر سنة ١٩٣٦،

وكان موته خسارة فادحة لوزارة الخارجية، أحدثت أثرها السيئ في الدور المؤلم الذي أصاب طالعنا.



فلما استقبل هتلر قادته العسكريين بعد أن نال النجاح في منطقة الراين استطاع أن يواجههم بأن مخاوفهم كانت كاذبة. وأمكنه أن يبرهن لهم على أن آراءه وإلهاماته تفوقان أحكام الرجال العسكريين. وأحنى القادة هاماتهم. وقد سرهم كألمان مخلصين أن يجدوا بلادهم تسترد مكانتها في أوروبا بهذه السرعة المذهلة. وأن يروا أعداءهم السابقين على هذه الصورة من الانشقاق والضعف.

ولا شك أن مكانة هتلر وقوته في الدوائر العليا للقوة الألمانية قد ازدادت بهذا العمل مما شجعه على أن يسير في طريقه نحو تحقيق أهداف أعظم، وقد أعلن هتلر للعالم "أن ألمانيا قد حققت كل مطالبها الإقليمية".

وراحت فرنسا تتقلب في جو من الانشقاق والتفرق وقد استولى عليها الخوف من الحرب. والميل إلى الابتعاد عنها. أما الإنجليز البسطاء فقد أبلغتهم صحافتهم الساذجة على سبيل الترضية "أن الألمان على أي حال لابد أن يعودوا إلى بلادهم فكيف يكون شعورنا مثلاً إذا حيل بيننا وبين يوركشير عشر سنوات أو خمس عشرة سنة!!"

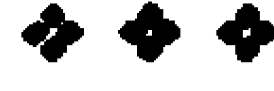
ولم يفكر أحد في أن النقط الأمامية التي تمكن الجيش الألماني من أن يغزو فرنسا قد تقدمت إلى الأمام مائة ميل. ولم ينزعج أحد حين يرى أن دول "التحالف الصغير" قد وجدت الحجة القاطعة على أن فرنسا لا تحارب من أجلها. وأن بريطانيا ستقف حائلاً بينها وبين الحرب إذا أرادت أن تخوض غمارها. وقد كان لهذا الموقف شأنه في سيطرة هتلر على الرايخ. وإظهار القادة العسكريين في مظهر العجز والجهل لمحاولتهم الحد من خرقه وصده عن محاولاته.

الأيام الحافلة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨

مضى عامان كاملان بين استيلاء هتلر على منطقة الراين في مارس سنة ١٩٣٦ واستيلائه على النمسا في مارس ١٩٣٨. وكانت هذه المدة أكثر مما أتوقع. ولم تضيع ألمانيا الوقت سدى فقد بدأ تحصين منطقة الراين أو "الجدار الغربي" - كما سمي - يسير قدمًا. وبدأت تظهر خطوط طويلة من الحصون الثابتة أو الشبيهة بها. وأخذ الجيش الألماني الذي أصبح يقوم على أساس الخدمة الإجبارية ومعه وحدات المتطوعين المتحمسين يزداد قوة شهرًا عن شهر. ومن جهة عدده وقوته وطريقة تشكيله. وقد حافظ السلاح الجوي الألماني على التفوق الذي ناله على السلاح الجوي البريطاني وأخذ يزداد اتساعًا. راحت مصانع العتاد في ألمانيا تشتغل ليلاً ونهارًا. فأجهزة العمل تدور على الدوام. والمطارق تعلو وتهبط في كل لحظة. وقد تحولت صناعات ألمانيا كلها إلى ترسانة مسلحة. وتحول الشعب الألماني جميعه إلى آلة حرب منظمة. وافتتح هتلر في خريف سنة ١٩٣٦ مشروع السنوات الخمس لتنظيم اقتصاد ألمانيا لحد الاكتفاء الذاتي في حالة الحرب. وحقق ذلك "التحالف القوي" في الخارج الذي أشار في كتاب كفاحي بضرورته لسياسة ألمانيا الخارجية. فاتفق مع موسوليني وتم تأليف محور برلين ـ روما.

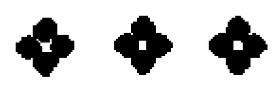
وكانت سياسة هتلر العدوانية وخرقه المعاهدات حتى منتصف سنة ١٩٣٦ لا يعتمدان على قوة ألمانيا العسكرية بل على ما بين فرنسا وبريطانيا من خلاف، وعلى ما تتسم به سياستهما من جبن وانعزال الولايات المتحدة. وكان يقامر في خطواته الأولى وهو يعرف كل المعرفة عجزه عن الاستمرار فيها إذا وجد من الحلفاء تحديًا حقيقيًا خالصًا. وكان احتلاله الراين وما تلاه من تحصين تلك المنطقة أعظم تلك المغامرات وقد بلغ في ذلك ذروة النجاح. وكان خصومه على حد كبير من الضعف والتخاذل بحيث لم يتبينوا لعبته. فلما تحرك بعد ذلك سنة ١٩٣٨ لم يكن تحركه خدعة من الخدع. فقد أصبح العدوان معززًا بالقوة التي قد تصل إلى حد التفوق. فلما أفاقت الحكومتان

الفرنسية والبريطانية وبدأتا تبصران التحرك الرهيب الذي حدث. كان قد فات الأوان.



وأدى انهيار النظام البرلماني في إسبانيا في يوليه ١٩٣٦ واتساع الحركة التي ترمي إلى نظام شيوعي أو فوضى إلى قيام ثورة عسكرية كان يعد لها منذ أمد بعيد. تدعو العقيدة الشيوعية وكتبها المدرسية التي وضعها لينين نفسه على وجوب مساعدة سائر الحركات التي تتجه إلى اليسار. والعمل على وصول الأنظمة الاشتراكية أو الراديكالية الدستورية الضعيفة إلى الحكم. حتى يتيسر للشيوعيين فيما بعد وضع الألغام تحتها وانتزاع السلطة من أيديها الضعيفة وإقامة الدولة الماركسية.

وكادت تجربة حكومة كيرنسكي في روسيا تقع في إسبانيا. في صورة جديدة ولكن قوة إسبانيا لم تكن قد تبددت وتفرقت تحت ضغط الحروب الأجنبية. وقد ظل الجيش محافظًا على تماسكه. ومع المؤامرة الشيوعية في إسبانيا كانت تسير جنبًا إلى جنب مؤامرة عسكرية سرية معارضة لها تمامًا. ولم يكن لأحد الفريقين أن يدعي الشرعية الحقيقية. ولذلك أصبح على الإسبانيين باختلاف طبقاتهم أن يمعنوا النظر في شئون بلادهم وما تتطلبه من سعادة ورغد.



كان تسلل الشيوعيين إلى الحكومة البرلمانية قد قضى على الكثير من الضمانات العادلة القائمة في كل مجتمع متمدن، ومن ثم أخذت أعمال القتل تنشر بين الفريقين وانتشر الوباء الشيوعي إلى حد بعيد حتى أصبح في الإمكان حمل الكثيرين من الخصوم، السياسيين من الطرق أو من منازلهم إلى حيث يلقون الموت بغير محاكمة.

وقد وقع الكثير من هذه الأعمال في مدريد نفسها وما حولها وبلغت هذه الأحداث حدها بمقتل السنيور سوتيلو الزعيم الأسباني المحافظ الذي كان إلى حد ما قريب الشبه بالسير إدوارد كارسون في بريطانيا قبل الحرب العالمية الأولى.

وكان الجنرال فرانكو قبل شهر قد بعث إلى وزير الحربية الأسباني يبين له. أنه إذا لم تستطع الحكومة الإسبانية أن تحافظ على الضمانات المعروفة فإن الجيش سيضطر إلى التدخل.

وكانت أسبانيا قد خبرت من قبل عددًا من الانقلابات العسكرية التي قام بها القادة العسكريون فلما رفع الجنرال فرانكو راية العصيان أيده الجيش جميعه ضباطًا وجنودًا، والتفت حوله الكنيسة عدا رهبنة الآباء الدومنيكان وسائر عناصر اليمين والوسط. ومن ثم أصبح السيد المسيطر على عدد من الولايات. أما البحارة الأسبان فقد قتلوا ضباطهم. وانضموا إلى الجانب الذي يمثل الشيوعيين.

واستطاع الشيوعيون أن يملكوا الزمام بعد تدهور الحكمة المحتضرة. وأخذوا يطبقون نظرياتهم ومبادئهم. ثم بدأت الحرب الأهلية المريرة وكانت مذابح الشيوعيين بالجملة. وقد قتلوا فيها خصومهم السياسيين والأغنياء. ولكن القوات القائمة تحت سلطة فرانكو قابلت العمل بمثله، وراح الكثيرون من الأسبان إلى الموت أفراد وجماعات.

وقد أعدم الكثيرون من أنصار الفريقين رميًا بالرصاص. ودافع طلبة الكلية العسكرية عن كليتهم في حي القصر بطليطله بقوة وشدة، وراحت قوات فرانكو تجتاز طريقها من الجنوب، مخلفة في كل قرية شيوعية تحتلها أثرًا من الانتقام حتى تمكنت من إنقاذهم. وهذه قصة لا شك تستحق عناية المؤرخين وتسجيلهم.

وكان موقفي حيال هذا النزاع موقف الحياة. ولكن لم أكن أعطف على الشيوعيين. وكيف أعطف عليهم وأنا لو كنت شيوعيًا لكان مصيري منهم القتل أنا وجميع أفراد عائلتي وأصدقائي! ألهذا كنت على ثقة من أن الحكومة البريطانية على كثرة أخطائها كانت محقة بالوقوف موقف المحايد من هذه المشكلة.

وقد اقترحت فرنسا مشروعًا يقضي بعدم التدخل. ووافقت عليه الحكومات البريطانية والألمانية والإيطالية والروسية. ولذلك وجدت الحكومة الإسبانية ـ التي أصبح يسيطر عليها أشد الثوريين تطرفًا ـ نفسها عاجزة عن شراء الأسلحة التي تريدها، والتي تدفع ثمنها من الذهب لديها.

وكان من الطبيعي أن يعترف بوضع المحارب للفريقين. كما حدث في الحرب الأهلية الأمريكية ما بين سنة ١٨٦١ ـ ١٨٦٥ ولكن جميع الدول الكبرى اتفقت على سياسة عدم التدخل بدلاً من تلك السياسة المعقولة، وقد حافظت بريطانيا على هذا الاتفاق.

ولكن ألمانيا وإيطاليا من جهة وروسيا السوفياتية من جهة أخرى. تعجلت بخرق هذا الاتفاق، وألقت بدلوها في المعركة.

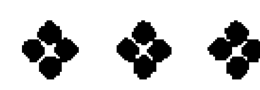
وقد استخدمت ألمانيا بطريقة خاصة قوتها الجوية للقيام بتجارب مفزعة عما تحدثه الغارات الجوية من دمار بغاراتها التي أحدثتها على المدن المكشوفة كمدينة جورنيكا.

تعرض الحكومة الفرنسية التي يرأسها المسيو ليون بلوم والتي جاءت بعد حكومة المسيو البير سارو في الرابع من شهر يونية لضغط شديد من مؤيديها الشيوعيين في مجلس النواب لمساعدة الحكومة الأسبانية وتزويدها بالأسلحة. وأخذ مسيو كوت وزير الطيران في ذلك الوقت يبعث سرًا بالطائرات الفرنسية والمعدات إلى الجيوش الجمهورية دون أن يمعن النظر في قوة السلاح الجوي

الفرنسي الآخذة في التدهور، وقد بعث في الواحد والثلاثين من شهر يوليه إلى السفير الفرنسي بالرسالة الآتية:

"من أشد المواقف التي أواجهها للتثبت عند موقفي القديم الذي تعرفونه، دعوى الألمان التي تدعو بها جميع الدول المعادية للشيوعية للوقوف صفًا واحدًا. وإني لعلى يقين من أن فرنسا إذا بعثت بالطائرات وغيرها إلى حكومة مدريد الحاضرة وبعث الألمان والإيطاليون كذلك بقوات مماثلة، فإن القوة المسيطرة هنا من عمل ألمانيا وإيطاليا وتشيح عن فرنسا، وأرجو ألا تغضبك رسالتي هذه التي أكتبها بدافع ذاتي. فأنا لا أريد أن أسمع الناس يتحدثون عن إنجلترا وألمانيا وإيطاليا بأنها تؤلف جبهة واحدة ضد الشيوعية الأوروبية. وليس أيسر على الإنسان من أن يكون طيبًا إلى أقصى حد.

وإني لعلى يقين من أن الحياد التام الصادق مع الاحتجاج الشديد ضد أي خرق له، هما دعامتا السياسة السلمية الصحيحة. وقد يجيء وقت ترى فيه عصبة الأمم أنها في حاجة إلى التدخل لوضع حد لهذه المخاوف على أن هذا الأمر ما زال مشكوكًا فيه".



قد نستطيع الوصول إلى مزايا في الحرب والسياسة الخارجية وما إلى ذلك باختيار النقط ذات السيطرة الهامة.

وقد استطاع التفكير العسكري الأمريكي أن يعض كلمة معبرة لهذا الغرض فاستعمل كلمة "الهدف الاستراتيجي الشامل" وعندما سمع ضباطنا هذا الاصطلاح ضحكوا سخرية منه، ولكن سرعان ما تبينت الحكمة من هذا الاصطلاح وأصبح سائغًا.

ويتضح أن هذه العبارة يجب أن تتخذ قاعدة وتكيف على ضوئها الأمور الأخرى. والفشل في هذا المبدأ يؤدي إلى الاضطراب والإخفاق، وإلى تطور الأمور غالبًا إلى السوء.

وأنا شخصيًا لم أجد صعوبة في الجري مع هذه القاعدة قبل أن تصل إلى علمي بزمن بعيد. فقد كان فكري يرزح تحت أثقال فكرة رهيبة هي صورة ألمانيا التي رأيتها وشعرت بها إبان الحرب العالمية الأولى.

وقد عادت من جديد تملك كل قواها الحربية. بينما تقف دول الحلفاء التي نجت من الهزيمة مكتوفة الأيدي.

لهذا فقد استخدمت كل الوسائل والظروف وكل ما لي من نفوذ في مجلس العموم ومع الوزراء للحض على إعدادنا العسكري. وتجنيد الحلفاء والشركاء في سبيل ما سيسمى (القضية المشتركة) عن قريب.

وذات يوم جاء إلى "شار تويل" صديق يتبوأ منصبًا كبيرًا في الحكومة ليستحم معي في حوض سباحتي. وكان الشمس مشرقة والماء دافئًا إلى حد ما. ولم يكن حديثنا يتناول شيئًا غير الحرب القابلة التي لم يكن مقتنعًا بوقوعها.

فلما خرجت لأودعه التفت إليّ فجأة وقال "إن الألمان ينفقون ألف مليون جنيه إسترليني في السنة على تسليحهم"، وقد رأيت أن من واجبي أن أطلع البرلمان والرأي العام البريطاني على هذه الحقائق، وبادرت بدراسة أحوال ألمانيا المالية، وكانت لا تزال تصدر موازناتها وتنشرها عامًا بعد عام.

ولكن كان من المتعذر الوصول إلى نتائج حقيقية توضح ما يدور لكثرة الأرقام. ومع ذلك اعتمدت في إبريل سنة ١٩٣٦ بصفة خاصة على طريقتين منفصلتين للتأكد.

وقد اعتمدت في الأولى على لاجئين ألمانيين من ذوي المقدرة والعزم الصارم، وكان لهما علم بالموازنات الألمانية وقيمة المارك وما إلى ذلك.

وطلبت من صديق السير هنري ستراكوش أن يفيدني بحقيقة ما هنالك. وكان ستراكوش رئيسًا لشركة كبيرة من شركات حي المال. فوكز كل جهودها وجهود موظفيها لدرس هذه المسألة، وأخيرًا قدموا إلي تقريرًا بأن نفقات ألمانيا الحربية حوالي ألف مليون من الجنيهات الإسترلينية في السنة بعملة سنة ١٩٣٦.

وهكذا أصبح لديّ صورتان للحقائق التي يمكن أن أستند إليها في إصدار توكيد رسمي. واقتربت من المستر نفيل تشمبرلين وكان ما زال وزيرًا للمالية إذ ذاك وقلت له: غدًا سأوجه إليك سؤالاً عما كانت ألمانيا تنفق ألف مليون من الجنيهات الإسترلينية في السنة على الاستعداد العسكري؟ فهل تستطيع أن تثبت هذه الحقيقة أو تنفيها.

فقال تشمبرلين "لست أستطيع أن أنفيها. وإذا أثرت هذه المسألة فسوف أؤكدها".

واستبدل بالألف مليون ثمانمائة مليون لأخفض مصدري السري ولكي أكون على ثقة تامة من الرقم. وقد اعترف المستر تشمبرلين في البرلمان بأن تقديري ليس فيه شيء من المبالغة.

وحاولت بمختلف الطرق أن أوازن بين وضع التسليح في ألمانيا وبريطانيا وأجعل منها مسألة واضحة. ثم طلبت مناقشة الموضوع في جلسة سرية. ولكن رفض طلبي بحجة "أن هذه المناسبة ستثير مخاوف لا مبرر لها". ولم أجد من التأييد إلا القليل فالصحافة تعارض دائمًا في الجلسات السرية وطلبت من رئيس الوزراء في العشرين من شهر يوليه أن يستقبل وفدًا من أعضاء مجلس الملك الخاص ليعرض عليه بعض ما يعرف من الحقائق. واقترح اللورد سالسبوري قيام وفد مماثل من مجلس اللوردات بمقابلة مماثلة وانتهى الاتفاق على ذلك، وقد طلبت من المستر اتلي والمستر أرشيبلد سنكلير أن يوفدا من يمثل حزبي العمال والأحرار في الوفد. ولكنهما رفضا ذلك.

وهكذا استقبلنا المستر بلدوين في الثامن والعشرين من شهر يوليه في مكتب رئيس الوزراء في مجلس العموم بحضور اللورد هماليفاكس والسير توماس اينسكب المحامي القدير والمجهول الشخصية. والذي مع جهله بمشاكل الدفاع قد اختاره الوزراء وزيرًا لتنسيق شئون الدفاع. وكان معي عدد من النواب المحافظين من الأعيان غير الحزبيين.

وقدمنا السير أوستن تشمبرلين. وكانت فرصة عظيمة لا أجد مثيلاً لها في تاريخ الحياة العامة في بريطانيا.

وكانت هذه المجموعة من الرجال البارزين البعيدين عن المطامع. والذين وهبوا حياتهم للمصالح العامة تمثل قوة لا يستهان بها في الرأي المحافظ. ولو انضم إلينا زعماء حزبي العمال والأحرار لبرز وضع سياسي دقيق يدعو إلى العلاج الحاسم.

وقد استغرقت الإجراءات ثلاث ساعات أو أربع في يومين متعاقبين وكنت أقول أن المستر بلدوين يصغي جيدًا. ولا شك أنه أصغى إلينا بعناية فائقة واهتمام بالغ. وكان معه عدد من أعضاء لجنة الدفاع الإمبراطوري، وبدأت كلامي في القضية في اليوم الأول بحديث استغرق ساعة وربع الساعة ولخصت منه إلى ما يأتي:

أولاً: إننا نواجه أكبر خطر طارئ في تاريخنا.

ثانيًا: لا أمل في حل قضايانا إلا بالاشتراك مع الجمهورية الفرنسية. فاتحاد الأسطول البريطاني والجيش الفرنسي مع قواتهما الجوية المشتركة التي تعمل بالتعاون من خلف الحدود الفرنسية والبلجيكية. مع الاستناد إلى جميع ما تمثله بريطانيا وفرنسا. كل هذه العوامل تتألف منها قوة فاصلة تتوقف عليها النجاة. ومع ذلك فهذا هو الأمل الصحيح الصادق. وإذا ما انتقلنا إلى التفاصيل فيجب أن ننأى عن كل ما يقف حائلاً بيننا وبين تجميع قوانا.

وعلينا أنْ نركز جهدنا في المسائل الحيوية بالنسبة لنا. وإذا أردنا أن نضع اقتراحات أكثر تحديدًا قلنا علينا أن نزيد تنمية قوتنا الجوية ونضعها فوق كل اعتبار. وعلينا أن نقدم زهرة شبابنا لنعلمهم قيادة الطائرات. ويجب ألا تستهوينا وسائل الإقناع أو الغواية. وأن نستمد قوتنا من سائر المصادر، وأن نزيد في إنتاج طائراتنا وأن نيسر هذا الإنتاج وندفع به إلى أقصى حد ممكن. وألا نتردد في عقد اتفاقيات مع الولايات المتحدة وغيرها للحصول على أكبر مقدار من مواد الطيران ومعداته من مختلف الأنواع والأشكال، فنحن الآن عرضة للخطر أكثر من أي وقت من الأوقات بل أكثر من أيام حملة الغواصات في أعلى قواها سنة ١٩١٧.

إن هذه الأفكار تستولي علي وتكاد وتقضي علي. والشهور تمر بسرعة. وإذا تريثنا في إصلاح وسائلنا الدفاعية. فقد تقف قوة متفوقة جانحة لتحول بيننا وبين إتمام هذه الأعمال.

ومما أضاع آمالنا أن وزير المالية لم يحضر هذه المقابلة. وكانت صحة المستر بلدوين قد أخذت تتدهور، واتضح أنه سيطلب في القريب إعفاءه من منصبه ولا شك في معرفة من يخلفه. ومن سوء الحظ أن المستر نفيل تشمبرلين كان غائبًا عن لندن في أجازة له. ولم تتح له الفرصة لحضور هذا الحديث الصريح الذي تتضح فيه الحقائق، وإن كان قد نقله إليه حزب المحافظين ومنهم أخوه ونفر من أصدقائه المقربين.

ولاقت وجهات نظرنا اهتمامًا بالغًا من الوزراء، ولكننا لم ندع لمقابلة المستر بلدوين إلا بعد عطلة المجلس في الثالث والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٣٦ لنستمع إلى بيان مدروس حول الموضوع.

وقد ألقى السير توماس اينسكب بيانًا صريحًا لم يخف عنا فيه خطورة الموقف الذي وصلنا إليه، ولم يختلف ما في هذا البيان عما وصلت إليه من الحقائق والتقديرات التي شرحتها في بياناتي المتعددة. التي كانت تلقي نظرة

متشائمة حالكة مع التأكيد بأن محاولات كبيرة تبذل لاستعادة الأرض المفقودة.

لكن الوضع على ما يظهر لم يصل إلى درجة من الخطورة تبرر قيام الحكومة بتبين الإجراءات الطارئة وخوفاً من إثارة الفزع، وقلب الأوضاع الصناعية في البلاد وإعلان ما لدينا من نقص.

وقد علق السير أوستن تشمبرلين على ذلك بأن حالنا تؤكد استمرا القلق. وأن قناعتنا لم تكتف بالحجج التي أوردتها الحكومة وهكذا انسحبنا من الاجتماع.

وظل الشعب والبرلمان في قلق زائد طول عام ١٩٣٦. وقد كان ذلك القلق منصبًا بصفة خاصة على أجهزتنا الدفاعية الجوية، وقد انحيت باللائمة على المستر بلدوين في المناقشة التي تلت خطاب العرش لفشله في الوفاء بالتزاماته. وقلت "أن أية حكومة في هذه البلاد ولا سيما إذا كانت قومية كهذه الحكومة يجب أن تضمن أن هذه البلاد لا تصل في ميدان القوة الجوية إلى وضع يجعلها متأخرة عن أية بلاد أخرى تقع على مرمى الغرب الجوي من سواحلنا" وقلت "يتضح لي أن الحكومة لا تستطيع أن تحكم أمرها أو لا تستطيع أن تحمل رئيس الوزراء على ذلك. وهكذا ترى الحكومة نفسها في خضم من المتناقضات بين العزم والتردد. والحزم والتراخي، والتصلب والليونة وكل هذه عوامل تؤدي إلى العجز والضعف، وهكذا نمضي نستعد أشهرًا وسنوات. وذلك وقت حيوي ثمين بالنسبة لبريطانيا وعظمتها. لندع كل شيء للجراد يأكله".

وقد رد علي المستر بلدوين بخطاب رائع قال فيه:

"أود أن أذكر المجلس بأنني قلت في أكثر من مناسبة في خطب ألقيتها في المجلس وخارجه، سواء في مجال الخطابة أو الدفاع عن الديمقراطية، أن الديمقراطية تكون دائمًا متأخرة عن الديكتاتوريات إلى سنين.

وما زلت أعتقد بصحة هذا الرأي. وقد كان صادقًا في هذه القضية نفسها. وأريد أن أعرض على المجلس آرائي جميعها بمنتهى الصراحة المفزعة، ولابد أنكم تذكرون أن مؤتمر نزع السلاح كان منعقدًا في جنيف. ولا شك أنكم تذكرون أنه في ذلك العام عام ١٩٣١ ـ ١٩٣٢ كان في هذه البلاد شعور شديد للمهادنة، أكثر من أي وقت آخر منذ الحرب العالمية. ولا ريب أنكم تذكرون كذلك الانتخابات التي جرت في فولهام سنة ١٩٣٣ حين خسرت الحكومة القومية المقعد الذي كانت تملكه بأغلبية سبعة آلاف صوت في قضية لا تخرج عن مسألة المهادنة. ولم يكن موقفي يدعو إلى الارتياح باعتباري رئيسًا لحزب عظيم. وساءلت نفسي: ما هي فرصتنا؟ إذا كان هذا الرأي الذي عبر عنه في فولهام تنعكس صورته في سائر أنحاء البلاد. وها هو موقفنا في السنة أو السنتين القادمتين إذا تبدل هذا الشعور، وتسير البلاد وراء فكرة إعادة التسليح؟ وإذا فرضنا أنني طفت بالبلاد وقلت أن ألمانيا تتسلح وأن علينا أن نتسلح. فهل تظنون أن هذه البلاد الديمقراطية المسالمة كانت تلتف حولي وتؤيد هذه الفكرة في تلك الآونة لا أرى سببًا أدعى لخسارتنا الانتخاب في ذلك الحين أكثر من هذا السبب".

وقد كانت هذه الصراحة مثار الفزع. فقد بينت الحقيقة عارية عن دوافعه الشائنة. فلم يسبق لتاريخنا البرلماني أن اعترف رئيس وزارة بتقصيره في القيام بواجبه نحو السلامة القومية لأنه يخشى الخسارة في المعركة الانتخابية، ولم يكن الحافز الذي أملى للمستر بلدوين هذه السياسة هو الرغبة المشينة في الحكم، فقد سبق أن كان في سنة ١٩٣٦ راغبًا في اعتزال الحكم، ولكنه كان يخشى أن يؤدي مجيء الاشتراكيين إلى الحكم إلى اختفاء ما تعتزم حكومة أن تقوم به في هذا الشأن هذا هو الذي أملى عليه هذه السياسة. فجميع بياناتهم واقتراعاتهم في مواضيع الدفاع مدونة في سجلات المجلس. لكن هذا الدفاع لا يعد كافيًا ويعد أقل من الأنصاف بالنسبة لروح الشعب البريطاني. ولم يتكرر النجاح الذي صاحب الاعتراف الساذج المقرون

بسوء التقدير في موضوع التعادل الجوي في العام الماضي وعم الاضطراب مجلس العموم. وكان الأثر الذي تركه هذا البيان نوعًا إلى حد هدد بالقضاء على المستر بلدوين - الذي كانت قد ساءت صحته - لو لم يحدث تدخل غير متوقع.

واشتد التقارب بين الناس رجالاً ونساء من جميع الأحزاب في إنجلترا بعد أن ظهرت مخاطر المستقبل. وأصبح الكل مصممين على وجوب اتخاذ الإجراءات العملية لضمان سلامتنا وسلامة قضية الحرية التي يهددها كذلك اندفاع الدول الجماعية وتراخي حكومتنا.

وكانت خطتنا تدور حول ضرورة الإسراع بتسليح شامل لبريطانيا. مع قبول سلطة عصبة الأمم قبولاً تامًا. وسميت هذه السياسة سياسة "السلاح والميثاق". وقد قابلنا جميعًا تمثيل المستر بلدوين في مجلس العموم بالزراية والامتهان. وتقرر أن تصل هذه الحملة إلى غايتها في اجتماع عام يعقد في قاعة "ألبرت" وقد حشدنا في هذا الاجتماع الذي عقد في الثلاث من شهر ديسمبر عددًا من الرجال البارزين في جميع الأحزاب بينهم عدد يمثلون الجناح اليميني في حزب المحافظين. الذين أيقنوا بتعرض الوطن للخطر وزعماء اتحاد عصبة الأمم، وممثلو عدد النقابات العمالية الرئيسية بينهم خصمي السابق في الإضراب العام، السير وولتر سترين وقادة حزب الأحرار في طليعتهم السير أرشيبلد سنكلير. وقد شملنا جميعًا شعور بأننا لا نقف عند حد حمل الحكومة على احترام آرائنا فحسب، بل نرغمها على ذلك. وفي هذه الآونة ثارت مسالة زواج الملك من المرأة التي أحبها فطغت على كل مسألة سواها. وقد غدا التنازل عن العرش أمرًا متوقعًا.

وقبل أن أرد على اقتراع الشكر. دوى هتاف عال في القاعة "يحفظ الله الملك" وقد أثار عاصفة من التصفيق لهذا قمت بإيضاح موقفي في هذا الشأن فقلت:

"الآن تسيطر على أفكارنا قصة أخرى هذا المساء، فبعد دقائق معدودات سننشد جميعًا يحفظ الله الملك وسأنشد أنا هذا النشيد بحماس هذه المرة أكثر من أي مرة سابقة في حياتي. أسأل الله ألا يتخذ قرار سريع لا يمكن إصلاحه. وأن نترك للزمن والرأي العام أن يفعلا فعلهما وأل تجعلنا الأهواء نفصل بين شخصية فذة محبوبة وبين الشعب الذي يحبه كل الحب، وأن يفسح الطريق للبرلمان لكي يؤدي واجبه كاملاً في مثل هذه الشئون الدستورية ذات الأهمية البالغة، ولا شك أن ملكنا سيصغى إلى الآراء التي يعرب عنها الشعب في إمبراطوريته لأول مرة. وأن العشب لا يعوزه خلق التسامح مع الشخصية التي تحتل عرش بلادنا".

وليس من حق هذا الكتاب أن يشرح الخلاف الحاد القصير الذي وقع بعد ذلك. فقد عرفت الملك إدوارد الثامن منذ كان طفلاً، وقرأت سنة ١٩١٠ كوزير للداخلية في اجتماع رائع البيان الملكي في قصر كانوفون، الذي أعلنه أميرا لوليه وشعرت بأن واجبي يقضي بأن أضع ولائي الشخصي له فوق كل اعتبار.

وعلى الرغم من أنني طوال الصيف قد أتيح لي أن أطلع اطلاعًا تامًا على كل ما يدور، فلم أحاول أن أتدخل أو أتصل به في أي وقت، ولكنه مع ذلك في خضم مأساته طلب إلى رئيس الوزراء أن يسمح لي باستشارتي وقد سمح له المستر بلدوين بذلك رسميًا.

ولما نقل إليّ هذا الإذن ذهبت لمقابلة الملك في قلعة بلفدير وظللت أتصل به إلى أن تنازل عن العرش. وبذلك كل ما أستطيع من جهد لديه ولدى الشعب. داعيًا إلى الصبر والأناة، ولم أندم على ما فعلت إذ لم أكن أستطيع غير ذلك.

وقد برهن رئيس الوزراء على أنه قاض أديب. يعرف مشاعر القومية البريطانية. ولا شك أنه أدرك إرادة الأمة كل الإدراك فعبر عنها بصدق. وقد ارتفعت به معالجته الحاذقة لمسألة التنازل في أسبوعين من الهاوية العميقة إلى

الذروة. وقد انقضت فترة من الزمن وجدت نفسي فيها وحيدًا أمام برلمان غاضب ثائر وأنا بالطبع لا أصم أذني حين أعمل عن تيارات المشاعر المعادية. ولكنني كنت في كثير من المناسبات أجد من المتعذر على أن أحمل الأعضاء على مجرد الاستماع إليّ. وهكذا تبعثرت القوى التي كنت قد حشدتها لتأييد مسألة التسليح والميثاق، في طرفة عين. وكنت أعد نفسي منبعها ومصدرها. فقد بعدت عني ونالتني ضربة قاصمة من الرأي العام. حتى خيل أن حياتي السياسية قد انقضت.

ومن عجب أن مجلس العموم الذي كان ينظر إلى في ذلك الوقت نظرة العداء هو نفسه الذي أسرع بالالتفاف حولي وإرشادي والسمو بي في سنى الحرب القاسية حتى تحقق لنا النصر على سائر أعدائنا. وهذا أكبر برهان على أن الطريقة المثلى في العمل هي أن يستمد الإنسان وحيه من ضميره على الدوام. وأن يعمل وفق ما يوحي به هذا الضمير.

وانتقلنا من موضوع التنازل عن العرش إلى تتويج خلف للملك، وهكذا سيطرت مظاهر الاحتفال التي ترافق عملاً قوميًا مقدسًا من الولاء والإخلاص، من شعب بريطانيا في الوطن وفي جميع أنحاء الإمبراطورية للعاهل الجديد، حتى نهاية شهر مايو سنة ١٩٣٧.

واختفت الشئون الخارجية ومسالة الدفاع من مجال التأثير على عقول الناس. وكان جزيرتنا تبعد عشرات الألوف من الأميال عن القارة الأوروبية، ومع ذلك فقد أتيح لي أن أسجل هنا أنني تلقيت في صباح الثامن عشر من مايو سنة ١٩٣٧ أي في صبيحة يوم التتويج من الملك الرسالة الآتية:

المقصورة الملكية - الحديقة الكبرى

قصر وندسور

عزيزي المستر تشرشل

أشكرك كثيرًا على كتابك الرقيق الذي بعثت به إلي، وإني لأعرف ما كنت تشعر به وما زلت تشعر به نحو أخي من إخلاص. وقد تأثرت كل التأثر لعطفك وفهمك للمسائل الشائكة التي نشأت حين تركتنا في شهر ديسمبر. وإني لأقدر كل التقدير المسئوليات الجسام والهموم التي ألقيت على كاهلي منذ تسلمت أعباء الملك. وإنه لما يشجعني كل التشجيع أن أتلقى أمانيك الطيبة كرجل من كبار رجالاتنا وسياسيًا خدم بلاده بمنتهى الإخلاص.

وإني لآمل بل وأراني واثقًا بأن الشعور الطيب والأمل الذين يسودان هذه البلاد والإمبراطورية اليوم، سيكونان مثلاً رائعًا تحتذيه سائر شعوب العالم"

المخلص لك تمامًا

الملك جورج

ولا شك أن هذه الالتفاتة من التمجيد لشخص كان نفوذه في ذلك الوقت قد تدهور إلى الحضيض ستظل تجربته أكبرها دائمًا كل الإكبار.

وفي الثامن والعشرين من شهر مايو اعتزل المستر بلدوين الحكم بعد تتويج الملك جورج السادس. وقد كوفئ على ما قام به من خدمات طويلة بلقب اللورد مع وسام ربطة الساق.

وقد تخلى عن السلطة الكبيرة التي أقامها لنفسه وحافظ عليها بعناية فائقة دون أن يحسن استعمالها. وترك كرسي الحكم بين تقدير الجماهير وتقديرهم. ولم يكن هناك شك في من يخلفه. فقد كان المستر نفيل تشمبرلين، يقوم بأعباء الحكم السياسية طوال السنوات الخمس الماضية وهو وزير للمالية. وكان أقدر الوزراء وأكثرهم تأثيرًا. وله كفايات معروفة واسم

تاريخي. وكنت قد وصفته قبل عام في برمنجهام مستخدمًا اصطلاحًا لشكسبير بأنه "جواد الأثقال" وقد وافق هو على هذا اللقب باعتباره من كلمات الثناء. ولم أكن أنتظر منه أن يرغب في التعاون معي. ولم أكن كذلك أتوقع أن أراه حكيمًا إلى الحد الذي رأيته في ذلك الحين.

كانت آراؤه تخالف آرائي اختلافًا كبيرًا في معالجة قضايا الساعة، ولكنني مع ذلك رحبت بتسليم الحكم إلى شخصية حية، منفذة ذات كفاية، وما زالت علاقاتنا سهلة لينة في الميدانين العام والخاص.

وأستطيع أن أضع موازنة بين الرئيسين بلدوين وتشمبرلين الذين عرفتهما زمنًا طويلاً، والذين عملت أو كان من المقدر لي أن أعمل معهما. كان ستانلي بلدوين ذا شخصية أكثر حكمة وشمولاً وفهمًا، ولكنها تعوزها القدرة التفصيلية على التنفيذ.

وكان في معزل إلى حد بعيد من الشئون الخارجية العسكرية. ولا يعرف إلا القليل من أحوال أوروبا ويكره ما يعرفه عنها. وإن كان ذا معرفة عجيبة دقيقة بالسياسات الحزبية البريطانية ويمثل إلى حد كبير القليل من نواحي القوة والكثير من نواحي الضعف في شعبنا البريطاني، وكان قد خاض خمس معارك انتخابية كزعيم لحزب المحافظين، وفاز في ثلاث منها. وكانت له قوة عجيبة في احتمال مشاق الأمور إلى رباطة الجأش والوقوف أمام ما يوجه إليه من أعدائه من انتقادات وكانت له مهارة عجيبة في حمل الأحداث على أن تجري لصالحه، قادرًا كل المقدرة على انتهاز الفرص.

وكان فيما يبدو لي صورة حية للانطباعات التاريخية التي استقرت عندي عن السير روبرت والبول مع بعده بطبيعة الحال عما ساد القرن الثامن عشر من فساد. وإن شابهه فيما يتعلق بالسيطرة على السياسة البريطانية فترة طويلة من الزمن.

وكان نفيل تشمبرلين من الناحية الثانية شديد اليقظة حريصًا على العمل، متمسكًا برأيه، يرى في نفسه مقدرة كبيرة على تعرف سائر القضايا المتعلقة بالميدان الأوروبي والعالمي، كذلك على نقيض بلدوين، وبدلاً من البديهة الغامضة مع تعمقها التي بدت في عهد بلدوين، رأينا في تشمبرلين كفاية حادة محدودة بحدود السياسة التي آمن بها.

وقد ظل طوال عمله في وزارة المالية ورئاسة الوزارة محافظًا على سياسته في التضييق على الإنفاق الحربي. وكان طوال هذا الزمن العدو اللدود والخصم الألد لسائر إجراءات الطوارئ.

وكانت له أحكام وضعها لنفسه على جميع الشخصيات السياسية المعاصرة سواء داخل الوطن وخارجه. وكان يحس في نفسه القدرة على مسايرة هذه الشخصيات وكان يكرس آماله على أن يعده التاريخ أعظم بطل من أبطال السلام، وكان استعداده كبيرًا لتحقيق هذه الغاية بالنضال المستمر على مواجهة الحقائق. معرضًا نفسه وبلاده لأعظم الأخطار. ومن سوء الحظ أنه وقع في لجج لم يستطع أن يقيس مداها وواجه عواصف لم يكن في وسعه أن ينأى عنها أو يقف أمامها.

وفي هذه السنوات الأخيرة التي سبقت الحرب كنت أفضل العمل مع بلدوين كما أعرفه عن العمل مع تشمبرلين. ولكن كلاهما لم يكن يرغب في العمل معي إلا عند الحاجة القصوى. وفي سنة ١٩٣٧ قابلت ذات يوم الهرفون ريبنتروب سفير ألمانيا في بريطانيا.

وكنت قد قلت في إحدى مقالاتي التي كنت أنشرها في ذلك الوقت مرة كل أسبوعين في ملاحظة لي: أنه قد أسيء تصويره على ضوء خطاب ألقاه وكنت قد لقيته أكثر من مرة في حفلات المجتمع.

فسألني هل أستطيع أن ألتقي به في دار السفارة للتحدث معي. وقد استقبلني في البهو الكبير في الطابق الأعلى بالسفارة. ودار بيننا حديث طويل استغرق أكثر من ساعتين. وكان ريبتروب دمثًا كل الدماثة، وكيسًا في مقابلتي، وقد استعرضنا في حديثنا سائر الشئون الأوربية فيما يتعلق بقضايا السياسة والتسلح.

وكانت خلاصة بياناته لي أن ألمانيا لا تريد إلا صداقة إنجلترا، فهي لا تزال تسمى في القارة الأوروبية بإنجلترا، وأنه كان في وسعه أن يكون وزيرًا لخارجية ألمانيا، ولكنه طلب إلى هتلر أن يوفده إلى لندن ليدافع دفاعًا صحيحًا عن عقد اتفاق أو حلف إنجليزي - ألماني.

وفي استطاعة ألمانيا أن تقف حارسًا للإمبراطورية البريطانية بكل ما لها من عظمة وامتداد. وقد تطلب ألمانيا إعادة مستعمراتها السابقة. ولكن هذه المسألة ليست جوهرية. وكل ما تطلبه ألمانيا من بريطانيا هو إطلاق يدها في أوروبا الشرقية، ومن حق ألمانيا أن تحصل على مجالها الحيوي لتضمن الحياة لشعبها الذي يتزايد عدده. ولهذا يجب أن تنال بولندا وممر دانزج.

ولا يمكن للرايخ الألماني الذي يشمل سبعين مليونًا أن يعيش في المستقبل دون أن يضم إليه روسيا البيضاء وأوكرانيا.

ولا تستطيع ألمانيا أن تقنع بما هو دون ذلك، وغاية ما يطلب من الشعوب البريطانية هو ألا تتدخل. وكانت هناك خريطة معلقة على الحائط وكان السفير يقودني إليها من حين إلى حين يشرح مشروعاته.

وبعد أن أصغيت إلى كل ما قاله أعلنت رأيي صريحًا بأنني لا أظن الحكومة البريطانية تستطيع أن توافق على إطلاق مد يد ألمانيا في أوروبا الشرقية. فنحن على الرغم من علاقتنا السيئة بروسيا السوفياتية. وعلى الرغم من أن كرهنا للشيوعية لا يقل عن كره هتلر لها، فإننا حتى لو ضمنا سلامة فرنسا فإن بريطانيا العظمى لا تتخلى عن الأوضاع القائمة في القارة الأوروبية

إلى الحد الذي يمكن ألمانيا من السيطرة على شرق أوروبا ووسطها. وقد أعلنت هذا الرأي ونحن نقف أمام الخريطة، فاتجه ريبنتروب بغتة إلى الناحية الأخرى وقال: "في مثل هذه الحالة إذن لابد من الحرب. ولا سبيل لتجنبها فإن الفوهرر مصمم تمامًا وليس ثمة ما يقف في طريقه، وما من شيء يحول بيننا وبين ما نريد".

ثم عدنا إلى مقعدينا، ولم أكن في ذلك الحين إلا عضوًا عاديًا من أعضاء البرلمان مع قليل من الظهور الشخصي. ورأيت من واجبي أن أقول للسفير الألماني ما نصه: "إذا تحدثت عن الحرب، وستكون حربًا عامة بطبيعة الحال، فيجب ألا تستهين بإنجلترا، إنها بلاد عجيبة، ولا يستطيع فهمها على حقيقتها من الأجانب إلا القليل. ولا تحكم عليها من موقف حكومتها الحالية. فإذا عرضت للشعب قضية عادلة من القضايا الكبرى سترى أن هذه الحكومة نفسها والشعب البريطاني يقومان بأعمال عظيمة لم تكن لك في الحسبان".

وعدت أكرر عليه قولي: "لا تستهن بإنجلترا فإن لها ذكاء خارقًا" وإذا دفعتم بنا إلى حرب عظمى ثانية فإنها ستؤلب ضدكم العالم بأسره كما حدث في الحرب الماضية".

وهنا اشتد غضب السفير وقام من مقعده وقال: "قد تكون إنجلترا على حد كبير من الذكاء ولكنها لا تستطيع هذه المرة إثارة العالم ضد ألمانيا".

ثم انتقلنا بالحديث إلى موضوعات أكثر بساطة، وظل هذا الحادث ماثلاً في ذاكرتي. ولما كنت قد نقلته في حينه إلى وزارة الخارجية فقد رأيت تسجيله هنا.

ولما كان ريبنتروب يحاكم بعد انتهاء الحرب أمام محكمة المنتصرين جرت على لسانه صورة مغلوطة لهذا الحديث. وأشار إلى ضرورة استدعائي لأداء الشهادة. ولو دعيت لأداء الشهادة لذكرت ما أوردته هنا دون نقص أو زيادة.

الانقضاض على النمسا فبراير ١٩٣٨

عندما تهزم الدول في الحروب تتسم بمقوماتها وسرية وثائقها، ولكننا بعد أن خضنا غمار الحرب حتى النهاية استطعنا أن نحصل على أسرار العدو كاملة. ونستطيع على ضوئها أن نوضح حقيقة ما قمنا به من أعمال.

كان هتلر في يوليه سنة ١٩٣٦ قد أمر القيادة العليا الألمانية بوضع الخطط العسكرية اللازمة لاحتلال النمسا في الوقت المناسب، وقد سميت هذه العملية عملية "أوتو".

وقد أبان في الخامس من نوفمبر سنة ١٩٣٧ عن مشروعاته المقبلة لقادة الجيش، وقال "أن على ألمانيا أن تؤمن لنفسها "مجالها الجوي" وهذا المجال يمكن تأمينه في أوروبا الشرقية أي في بولندا وروسيا البيضاء وأوكرانيا واحتلال هذه المناطق ينطوي على حرب رئيسية، ومن ثم إبادة الشعوب التي تعيش في هذه الأنحاء، وعلى ألمانيا أن تصفي حسابها مع عدويها اللدودين وهما إنجلترا وفرنسا اللتان لا يمكن أن تقبلا قيام دولة ألمانيا الهائلة العظيمة في أوروبا".

ولكي نستغل ما حققته ألمانيا من تفوق في إنتاج السلاح وما بعثه الحزب النازي من الحماس الوطني، فإن على ألمانيا أن تشن الحرب في أول فرصة ممكنة للقضاء على عدوتيها المعروفتين قبل أن تستعدا للقتال.

وقد أصيب نورات وفريتشة وبلومبرج الذين يتاثرون بآراء وزارة الخارجية وأركان الحرب والضباط بالفزع من هذه السياسة، وأيقنوا أن الأخطار التي ستتعرض لها البلاد ستكون شديدة. وكانوا يعرفون كذلك أن أقدام الفوهرر قد جعل لهم التفوق في السلاح بكافة أنواعه.

وكان الجيش يسير نحو التقدم شهرًا بعد شهر كما كان تدهور الجيش الفرنسي وتراخي بريطانيا وحاجتها إلى العزيمة من العوامل المواتية التي

تؤتي أحسن الثمرات مع مرور الزمن، وما قيمة سنة أو اثنتين ما دامت الأمور تسير سيرًا مرضيًا. وقد رأوا أن من الواجب توافر الوقت لاستكمال أهبة الحرب. ورأوا أن خطابًا يلقيه الفوهرر من آن لآخر للدعوة إلى التفاهم سيحمل الدول الديمقراطية المنحلة التي لا تصلح لشيء على المضي في الثرثرة والهذيان.

ولكن هتلر لم يكن واثقًا من صواب هذا الرأي فقد علمته عبقريته أن النصر لا يحقق عن طريق هذه العمليات، ومن الواجب أن يغامر الإنسان ويتوثب. وكانت الانتصارات التي حققها أولاً بالتسلح وثانيًا بالجندية الإلزامية وثالثًا باحتلال الراين ورابعًا بضم موسوليني إلى صفه قد ملكت عليه زمام نفسه. ورأى أن سياسة التريث حتى يتم الاستعداد قد تؤدي إلى ضياع الفرص.

ولعل المؤرخين وغيرهم من الناس يجدون من السهل عليهم أن يقولوا أنه كان في استطاعته أن يجمع كل ما في العالم من ثروات لو واصل تنمية قوته على التدريج سنتين أخريين أو ثلاثًا قبل أن يوجه ضربته. ليكن هذا الرأي قد لا يصح دائمًا. فليس ثمة من حقائق يمكن تأكيدها في حياة البشر أو في حياة الدول.

وقد وضع هتلر خطته على أساس السرعة وعلى خوض غمار الحرب في عنفوان قوته، وسرعان ما أزاح هتلر بلومبرج من طريقه، وخصوصًا وقد لطخت سمعته لزواج غير متكافئ. وفي الرابع من فبراير سنة ١٩٣٨ أخرج هتلر فريتشه من الخدمة وتولى هو القيادة العليا للقوات المسلحة.

وقد استطاع هتلر إلى حد لا يستطيعه أي فرد مهما كانت مواهبه، ومهما تكن فظاعة العقوبات التي يفرضها، أن يفرض إرادته على مدى واسع. فلم يكتف بمباشرة سياسة الدولة بنفسه بل أضاف إليها الأداة الحربية كذلك. وكان في هذا الوقت قد جمع في يده زمام القوة التي كان يجمعها نابليون بعد أوسترلتز وبينا، ولم يكن نظيره في كسب المعارك العظمى وهو على صهوة جواده ويشرف على إدارة المعارك بنفسه. ولكنه كان يحقق

انتصاراته في الميادين السياسي والدبلوماسي ويقنع سائر أتباعه وبطانته بأن النصر قد تم له بفضل جرأته وسداد تقديره.

وكان هناك سببان يدفعان هتلر إلى ابتلاع الجهورية النمساوية بالإضافة إلى تصميمه الذي يتضح في كتاب كفاحي على ضم سائر الشعوب التيوتونية في الرايخ، لأنها تفتح أمام ألمانيا أبواب تشيكوسلوفاكيا من ناحية، ومداخل شرق أوروبا الحيوية من ناحية أخرى، ولم تكن وسائل إخضاع الجمهورية النمساوية المستقلة لتتوقف بالمال والدسائس والقوة، منذ اغتيل دلفوس في يوليه سنة ١٩٣٤ على أيدي فريق نمساوي من الحزب النازي. وكان الحركة النازية تزداد نموًا في النمسا مع كل انتصار يحققه هتلر في مكان داخل ألمانيا أو خارجها على الحلفاء. وكان من الضروري أن تتم هذه الخطوات واحدة بعد أخرى، وقد صدرت الأوامر الرسمية إلى بابن بتحسين العلاقات مع الحكومة النمساوية والحصول على اعترافها الرسمي بالحزب النازي النمساوي باعتباره هيئة مشروعة. وكان موسوليني في ذلك الحين قد كبح جماحه إلى حد ما. وقد طار الديكتاتور الإيطالي بعد مصرع دلفوس إلى البندقية ليستقبل أرملته وينقل إليها عزاءه بعد التجائها إليه وأمر بحشد قوات إيطالية كبيرة على الحدود الجنوبية للنمسا.

أما الآن فقد حدثت تغيرات حاسمة في التكتلات الأوروبية، وفي القيم والأفهام. فخط ستجفريد يواجه فرنسا بحصن منيع من الفولاذ والأسمنت المسلح، ويحتاج اختراقه إلى تضحيات كبيرة من الجيش الفرنسي. ومن ثم أصبحت الطريق مغلقة من الغرب، وكانت العقوبات الفاشلة التي فرضت على موسوليني وقد أثارت غضبه ولم تضعف من قوته ألقت به في أحضان ألمانيا.

ولعل موسوليني قد آمن بفكرة مكيافلي المعروفة وهي "أن الرجال يثأرون للأضرار البسيطة، لا للإساءات البالغة" فضلاً عن أن الديمقراطيات الغربية قد أخذت تبرهن بأدلة متعاقبة على أنها تخضع للقوة، ما دامت لا

تهاجم بصفة مباشرة. وكان بابن يعمل بدهاء داخل الجهاز النمساوي السياسية، وقد خضع الكثيرون من وجوه النمسا لضغطه ودسائسه.

وكانت السياحة إلى فيينا وهي ذات أهمية في حياة البلاد الداخلية قد تأثرت بسبب حالة التوتر السياسي، بينما كانت أعمال الإرهاب تسير في المؤخرة وحوادث القنابل تهز حياة الجمهورية النمساوية المتهاوية.

وانتشر اعتقاد بأن الوقت قد حان للسيطرة على السياسة النمساوية بإدخال زعماء الحزب النازي النمساوي في الوزارة، بعد أن تم الاعتراف به.

وفي الثاني عشر من شهر فبراير ١٩٣٨ أي بعد ثمانية أيام من تسلم هتلر زمام القيادة العليا للقوات المسلحة، استدعى إلى مقره في برختسجادن المستشار النمساوي الهرفون شو شنج ولبى المستشار الدعوة وذهب إلى برختسجادن ومعه وزير خارجيته جيدو شميدت وبين أيدينا الآن الحوار الذي دار بينهما.

وكان هتلر قد عرض للتحصينات الدفاعية على الحدود النمساوية، ولم تكن تحتاج إلى أكثر من عملية عسكرية بسيطة للتغلب عليها، وذلك قبل أن يثير الموضوعات الرئيسية الخاصة بالحرب والسلام وفيما يلي ما دار بينهما:

هتلر: إن الأمر فيما يتعلق بالحدود الخيالية التي أتممتموها لا يتطلب مني إلا أمرًا بسيطًا أصدره حتى تكون قد اختفت في ليلة واحدة. ولا أظنكم تعتقدون أنكم تستطيعون الوقوف أمامي أكثر من نصف ساعة. ومن يدري فقد أكون بغتة في ليلة واحدة في فيينا. كعاصفة من عواصف الربيع، وعند ذلك ستجربون شيئًا جديدًا. وإني أريد أن أوفر على النمساويين هذه التجربة التي تكلفهم الضحايا العديدة، فبعد زحف الجيش يزحف جيش الصاعقة ثم الحرس النازي ولا يستطيع إنسان كائنًا ما كان أن يحول بينهم وبين الثأر. حتى أنا نفسي. فهل تريد أن تجعل من النمسا أسبانيا ثانية؟ إني أريد تجنب كل ذلك.

شوشينج: سأصل إلى المعلومات الكافية وأوقف بناء أية تحصينات دفاعية على الحدود الألمانية. وأنا أعرف بالطبع أنك تستطيع أن تزحف على النمسا. ولكن هذا الزحف يا سيدي المستشار سواء أردنا أو لم نرد سيؤدي إلى الدمار وسفك الدماء. ونحن لسنا وحيدين في العالم. وقد يكون زحفكم مؤديًا إلى الحرب العالمية.

هتلر: في مقدورك أن تقول هذا الكلام في هذه اللحظة ونحن نجلس هنا على المقاعد الوثيرة.

ولكن وراء هذا الكلام كثيرًا من الآلام والدماء. فهل أنت على استعداد يا شو شينج لتحمل مسئولية ذلك؟

لا تصدق أن في العالم من يستطيع أن يردي عما قررت.

إيطاليا؟ كلا لقد تفاهمت مع موسوليني وعلاقتي مع إيطاليا الآن على أحسن ما يرام. من؟ إنجلترا؟ إن إنجلترا لن ترفع إصبعًا واحدة لأجل النمسا. وفرنسا؟ لقد كنت أعد نفسي مغامرًا حين زحفنا على منطقة الراين بمجموعة من الكتائب، أما الآن فقد فات الأوان على فرنسا".

كانت هذه المقابلة الأولى في الساعة الحادية عشرة من الصباح، وقد استدعى النمساويون - بعد غذاء رسمي - إلى حجرة صغيرة كان فيها ريبنتروب وبابن ومعهما إنذار نهائي مخطوط غير قابل للمناقشة في شيء من محتوياته.

وتتضمن تعيين سايكس - انكوارت النازي وزيرًا للأمن في الحكومة النمساوية. وشمول جميع النازيين النمساويين المعتقلين بالعفو العام. وضم الحزب النمساوي النازي بصفة رسمية إلى الجبهة الوطنية التي تشرف عليها الحكومة.

وقد استقبل هتلر المستشار النمساوي وقال له "أكرر عليك قولي. إن هذه الفرصة الأخيرة. وانتظر أن توقع الشروط خلال ثلاثة أيام" وذكرت يوميات يودل عن ذلك التاريخ هذه العبارة:

"تعرض الفون شو شينج وحيدو شميدت مرة ثانية لأعنف ضغط سياسي ووقع شو شينج في الساعة الحادية عشرة مساء البروتوكول".

ولما ذهب بابن مع شو شينج في الزلاقة التي تقله مع رفيقه فوق الطريق المغطى بالثلوج إلى سالزبرج قال "أجل أن هذه هي طريقة الفوهرر. وقد لمستماها الآن. ولكن عندما تحضران في المرة القادة ستلقيان استقبالاً أكثر ودًا. فإن الفوهرر ولا شك ذو شخصية ساحرة".

وسارت المسرحية في طريقها فبعث موسوليني برسالة شفوية إلى شوشينج يقول فيها أنه يعد بموقف النمسا في برخستسجادن عدلاً وحقًا. وأكد له موقف إيطاليا الذي لا يتغير من المشكلة النمساوية وصداقته الشخصية.

وتحدث المستشار النمساوي في الرابع والعشرين من فبراير إلى البرلمان النمساوي مرحبًا بالاتفاق مع ألمانيا. وقد أكد في شيء من القوة أن النمسا لن تتجاوز الحدود المعينة التي ينص عليها الاتفاق. وبعث في الثالث من شهر مارس برسالة سرية إلى موسوليني عن طريق الملحق العسكري النمساوي في روما يبلغه فيها أنه اعتزم أن يدعم مركزه السياسي في النمسا بإجراء استفتاء، وبعد مضي أربع وعشرين ساعة جاءه رد الملحق العسكري يوضح فيه اجتماعه بالدوتش، وقد أعرب في هذا الاجتماع عن تفاؤله: وقد أكد أن الوضع سيتحسن، وأن التفاهم المنتظر بين روما ولندن سيؤدي إلى تخفيف حدة الضغط الحالي، وأشار إلى الاستفتاء فحذر منه وقال أنه خطيئة ومضى الدوتش يقول إذا كانت النتيجة مرضية فسيقول عنه الناس، انه لم يكن استفتاء بالمعنى الصحيح، وإذا كانت النتيجة سيئة فسيصبح وضع الحكومة حرجًا لا يحتمل. وإذا كانت النتيجة حاسمة فلن تكون مجدية، ولكن

شوشينج كان قد صمم وأعلن في التاسع من شهر مارس أنه سيجري استفتاء عامًا صبيحة يوم الأحد في الثالث عشر من شهر مارس.

ولم يحدث شيء في بادئ الأمر وقد قبل سايكس ـ انكورات الفكرة دون أي اعتراض. وفي الساعة الخامسة والنصف من صباح الحادي عشر، تلقى شوشينج إشارة تليفونية من مقر قيادة الشرطة في فيينا أيقظته من نومه "بأن الحدود الألمانية في سالزبرج قد أغلقت منذ ساعة، وأن موظفي الجمارك الألمان سحبوا من مراكزهم، وأن المواصلات الحديدية قد قطعت" وقالت الرسالة الثانية التي وصلت إلى المستشار النمساوي من قنصله العام في ميونخ "أن القوات الألمانية قد عبئت، والنمسا هي الهدف".

وجاء سايكس انكورات في ساعة متأخرة من الصباح ليعلن أن جورنج قد أسره له تليفونًا بأن من الواجب إلغاء الاستفتاء في خلال ساعة، وإذا هو لم يتلق ردًا في خلال ساعة. فسيفهم من ذلك أن سايكس انكورات قد حيل بينه وبين استخدام التليفون، وعلى ضوء ذلك سيكون عمله.

فلما تلقى شو شينج معلومات رسمية من كثير من الموظفين بأن الشرطة والجيش لا يعتمد عليهما. أبلغ شو شينج ـ سايكس انكورات أن الاستفتاء سيؤجل وعاد سايكس بعد ربع ساعة يحمل ردًا من جورنج يقول:

"أن الوضع لا يمكن إنقاذه إلا باستقالة المستشار عاجلاً، وإذا لم يعين الدكتور سايكس ـ انكورات مستشارًا خلال ساعتين. وإذا لم تنفذ هذه الشروط خلال ساعتين. فإن غزو ألمانيا للنمسا سيتبع ذلك في الحال".

وانتظر شوشينج حضور الرئيس ميكلاس ليقدم استقالته. وقد تلقى وهو في حجرة الرئيس رسالة بالشفرة تم حلها سريعًا من الحكومة الإيطالية تقول: ليس في وسعها أن تفعل شيئًا أو تقدم نصحًا. وكان الرئيس العجوز عنيدًا فقال: "وهكذا تركت وحدي في اللحظة الحاسمة" ورفض الرئيس بحزم

أن يعين مستشارًا نازيًا. وقرر أن يرغم الألمان على ارتكاب عمل عنيف معيب، ولكنهم كانوا على استعداد تام للقيام بهذا العمل.

وأصدر هتلر أوامره إلى القيادة العليا الألمانية باحتلال النمسا، وبدأت عملية "أوتو" التي درست منذ زمن وهيئ لها بعناية.

وقابل الرئيس ميكلاس زعماء الحزب النازي النمساوي في فيينا بصلابة وكان في مقدمتهم سايكس - انكورات في ذلك اليوم المحموم. وقد اتخذ الحديث التليفوني الذي دار بين هتلر والأمير فيلي هيسي مبعوثه الخاص إلى الدوتش وثيقة من الوثائق في محاكمات نورمبرج. ويجدر بنا أن ننقله هنا بنصه:

"هيس: حضرت منذ دقائق من قصر البندقية وقد قبل الدوتش الموضوع كاملاً وبروح ودية، وهو يبعث إليك بتحياته واحترامه، وقد تلقى المعلومات من النمسا، فقد أبلغه شو شينج الأخبار، وأعلن أن التدخل الإيطالي مستحيل، وأنه لن يكون إلا أكذوبة وأنه لا يستطيع أن يقوم بمثل هذا الأمر. وهكذا أبلغ شو شينج أن سوء الطابع قد أنهى الأمر على هذا النحو، وقد أعلن موسوليني أن أمر النمسا لا يهم".

هتلر: إذن أرجو أن تبلغ موسوليني أنني لن أنسى له هذا الجميل.

هيس: أجل.

هتلر: أبدًا، أبدًا مهما يحدث وما زلت مستعدًا لعقد معاهدة مختلفة معه.

هيس: نعم لقد أبلغته ذلك.

هتلر: بعد أن تتم تسوية القضية النمساوية سأكون مستعدًا لأن أسير معه بغير قيد أو شرط، ولا أحفل بشيء.

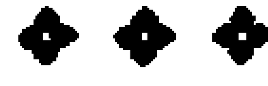
هيس: أجل يا زعيمي.

هتلر: سأعقد معه أي اتفاق، فلم أعد أحفل بالوضع المخيف الذي كان لابد أن يحدث من الوجهة العسكرية إذا اشتبكنا في نضال. أرجو أن تبلغه عميق شكري، وأنني لا أنسى له موقفه أبدًا.

هيس: أجل يا زعيمي.

هتلر: لن أنسى له ذلك مهما يكن الأمر، فإذا احتاج إلى مساعدة في أي وقت أو أحس بالخطر فيستطيع أن يثق بأنني سأكون إلى جانبه ولو تألب العالم عليه بأسره".

ولا شك أن هتلر قد وفى بعهده حين أنقذ موسوليني من أيدي الحكومة الإيطالية المؤقتة سنة ١٩٤٣.



كان العريف النمساوي يحلم بأن يدخل فيينا دخول الظافر وفي ليلة السبت الثاني عشر من شهر مارس. كان الحزب النازي قد هيأ موكبًا من حملة المشاعل لاستقبال البطل المظفر، ولكن لم يصل إلى العاصمة النمساوية. وقد وصل ثلاثة من البافاريين من فريق الخدمات العامة بالقطار ليعدوا العدة لاستقبال جيش الغزاة وإعداد وسائل الراحة لهم فحملوا في الشوارع على الأكتاف. وقد تبدلت الخطط وتسريت الأسباب في بطء. فقد وقف الجهاز الحربي الألماني مترددًا على الحدود، ثم توقف عند لينز وقد تحطمت الدبابات على الرغم من صلاحية الجو والمواصلات. وبرزت العيوب في فرق المدفعية الآلية الثقيلة. وسدت الطرق من لينز إلى فيينا بعشرات السيارات الثقيلة التي شلت حركتها. وقد اعتبر الجنرال فون ريخناو، المقرب إلى هتلر، وقائد الجيوش الرابعة مسئولاً عن هذا التدهور الذي كشف ضعف الجيش الألماني وعدم نضوجه في هذه المرحلة من مراحله الأولى.

وقد أبصر هتلر هذا الارتباك في حركة السيارات وهو يمر بسيارته بشوارع لينز فغضب غضبًا شديدًا. وفصل بين الدبابات الخفيفة وهذا الارتباط فدخلت فيينا في الساعات الأولى من صباح الأحد.

ونقلت السيارات المدرعة والمدفعية الثقيلة في عربات السكك الحديدية لتشترك في الاستعراض في الوقت المناسب وأننا لنذكر جميعًا صورة هتلر. وهو يعبر بسيارته شوارع فيينا بين جماهير حافلة من المتحمسين والخائفين، وكان لهذه الآونة من "المجد" أساس إلى جانب الزعزعة وعدم الاستقرار فقد أعمى الغضب الفوهرر لما رأى من الفشل الظاهر الذي منى به جهازه الحربي، وثار على قواده فردوا على ثورته وذكرنه برفضه الإصغاء إلى فريتشة وتحذيره من أن ألمانيا لم تصبح بعد في الموقف العسكري الذي يمكنها من المغامرة بالاشتراك في صراع رئيسي.

وقد ظل الجميع محتفظين بالمظاهر الرسمية. وجرت الاحتفالات والاستعراضات في الموعد المعين. وبعد أن مرت قوات كبيرة من الجيش الألماني والنازيين النمساويين في شوارع فيينا في ذلك اليوم أعلن هتلر حل الجمهورية النمساوية وضمها إلى الرايخ.



وكان الهرفون ريبنتروب يستعد في هذه اللحظة لمغادرة لندن ليتسلم مهام وظيفته الجديدة كوزير للخارجية. وكان المستر تشمبرلين قد أقام مأدبة غداء وداعية في داوننج ستريت رقم ١٠ وقد قبلت أنا وزوجي الدعوة التي حضرها ستة عشر مدعوًا. وكانت زوجتي تجلس إلى جوار السير ألكسندر كادوجان عند طرف المائدة وجاء رسول من وزارة الخارجية ونحن في المأدبة يحمل خطابًا مغلقًا فتحه السير ألكسندر واستغرق في قراءة الرسالة التي يحتويها. ثم قام لوقته وتقدم إلى المكان الذي يجلس فيه رئيس الوزراء وسلم الرسالة إليه. وعلى الرغم من أن مظهر السير ألكسندر لم يكن يدل على ما وراءه، إلا

أنني استطعت أن لاحظ استغراق رئسي الوزارة في القراءة. وسرعان ما عاد كادوجان إلى مكانه ومعه الرسالة. وقد نقل إلي فيما بعد ما تشتمل عليه هذه الرسالة، وقد ذكرت أن هتلر قد دخل النمسا وأن القوات الميكانيكية الألمانية تتقدم نحو فيينا. وظلت المأدبة وكأن شيئًا لم يحدث على الإطلاق. إلا أن مدام تشمبرلين قد تلقت إشارة من زوجها. فقالت هلموا نتناول القهوة في حجرة الجلوس. وانتقلنا هنالك جميعًا. وظهر لنا أن المستر تشمبرلين وزوجه يودان انتهاء المأدبة وقد شمل الجميع شعور بالقلق. ووقفنا متهيئين لوداع ضيوف الشرف.

ولكن فون ريبنتروب وزوجه فيما يبدو لم يشعرا بهذا الجو، فقد ظلا على الرغم من ذلك أكثر من نصف ساعة يواصلان التحدث مع مضيفيهما. واقتربت لحظة من السيدة فون ريبنتروب وقلت كمن يودع إنسانًا "إنني لأرجو أن تستطيع إنجلترا وألمانيا المحافظة على صداقتهما" وأجابتني بلهجة رقيقة "احرصوا على أن لا تضيع هذه الصداقة" وكنت على يقين بأنهما يعلمان كل شيء ولكنها آثرا أن يبقيا رئيس الوزراء بعيدًا عن عمله وعن جهاز التليفون. واضطر المستر تشمبرلين أخيرًا أن يقول للسفير "أنني آسف جدًا لأني في حاجة إلى النظر في أمر هام، ثم ترك الحجرة في هدوء وظل ريبنتروب وزوجه حتى اضطر أكثرنا إلى الاعتذار والرحيل، ولا شك أنها انصرفا أخيرًا، وكانت هذه آخر مرة أرى فيها الهرفون ريبنتروب قبل أن يشنق.

وكان الروس هم الذين صاحوا صيحة الخطر هذه المرة واقترحوا في الثامن عشر من شهر مارس دعوة مؤتمر إلى الاجتماع للنظر في الموقف. فقد أرادوا أن يبحثوا إجمالاً في الطرق التي تؤدي إلى تنفيذ الميثاق الفرنسي - السوفياتي داخل إطار عصبة الأمم إذا قامت ألمانيا بتهديد السلام. وقد استقبلت لندن وباريس هذه الدعوة بفتور بالغ. وكانت الحكومة الفرنسية في شغل بمسائل أخرى. فقد حدثت إضرابات خطيرة في مصانع الطائرات، وكانت جيوش فرانيكو تتوغل في المناطق الشيوعية الإسبانية، أما تشمبرلين

فقد كان متشائمًا منهارًا. ولم يكن ليتفق معي على الإطلاق في تفسيري للأخطار المنتظرة وكيف تعالج وتقاوم، فقد كنت أدعو إلى عقد تحالف فرنسي بريطاني روسي لوقف الاندفاع الألماني النازي.

ويقول المستر فيلينج في كتابه أن رئيس الوزراء أرسل رسالة إلى شقيقته أوضح فيها حالته النفسية في العشرين من شهر مارس هذا نصها:

"دارت بخاطري فكرة "الحلف الأكبر" كما يسميه ونستون منذ زمن وتحدثت فيها إلى هاليفاكس وتقدمنا بها إلى رؤساء أركان الحرب والخبراء في وزارة الخارجية، وأنها لفكرة خلابة ولا شك، وقد تكون الأمور تدعو إلى هذه الفكرة حتى ندرسها من ناحية عملية. وهنا يختفي ما فيها من جاذبية، ونظرة جلية إلى الخريطة تبين عجزنا وعجز فرنسا عن إجراء أي عمل لإنقاذ تشيكوسلوفاكيا من مخالب الألمان إذا أرادوا ذلك، فقد تخليت عن أي فكرة تدعو إلى التعهد بالدفاع عن تشيكوسلوفاكيا أو للتعهد لفرنسا بمساعدتها على تنفيذ التزاماتها لتلك البلاد".

وهذا قرار مبني على أسس واهية. ففي الحروب العصرية التي تقوم بين الدول الكبرى أو بين الأحلاف لا يكون الدفاع يشتمل على جبهة معينة مقصورًا على جهود موضوعية، ولكن الدفاع يشتمل على جبهة الحرب الواسعة وما لها من توازن. وهذا قول ينطبق على الشئون السياسية قبل الحرب وفي الفترة التي يمكن تجنبها فيها. ولم يتطلب قول رؤساء أركان الحرب وخبراء وزارة الخارجية لرئيس الوزراء باستحالة استخدام الأسطول البريطاني والجيش الفرنسي في الدفاع عن جبهة جبال بوهيميا التي تفصل بين تشكوسلوفاكيا وجيش هتلر النازي أي تفكير.

وهذا أمر واضح في الخريطة كل الوضوح. ولكن يقين هتلر من أن اجتيازه خط حدود بوهيميا سيؤدي إلى وقوع حرب أوروبية شاملة، ربما أدى إلى منع هجوم هتلر أو تأجيله على الأقل.. وكم تبدو رسالة المستر تشمبرلين

الشخصية خاطئة إذا نظرنا نظرة بعيدة إلى الضمان التي قدمها هو نفسه إلى بولندا بعد سنة من هذا التاريخ، وبعد أن ضاع كل ما كان لتشيكوسلوفاكيا من قيمة استراتيجية وبعد أن زادت قوة هتلر وسلطته.

وأود أن أنتقل الآن بالقارئ غربيًا إلى جزيرة الزمرد، فهذه رحلة قد تكون مغرية، فقد نزلت بنا في الآونة بين اغتصاب هتلر للنمسا ونكشف نواياه ضد تشيكوسلوفاكيا نازلة من نوع آخر يجب أن نوليها كل الاهتمام.

فقد بدأت المفاوضات بين الحكومة البريطانية وحكومة ديثماليرا في جنوب أيرلندا سنة ١٩٣٨، وتم التوقيع على اتفاق في الخامس والعشرين من شهر إبريل يقضي بالإضافة إلى مسائل أخرى بأن تخلى بريطانيا العظمى عن سائر حقوقها في احتلال ميناءين جنوبيين هما: كوينزتادن وبيريهافن لأغراض بحرية، وعن سيطرتها على قاعدة لوسويلي، وهذا الميناءان ضروريان كل الضرورة للدفاع البحري عن طريق تموين الجزر البريطانية.

وأذكر أنني حين كنت وزيرًا للمستعمرات والدومنيون وأنا أنظر في تسوية القضية الأيرلندية التي أقرها مجلس الوزراء في ذلك الوقت دعوت الأميرال بيتي إلى وزارة المستعمرات ليشرح لميشيل كولينز أهمية هذه الموانئ لتموين بريطانيا.

وقد اقتنع كولينز في الحال وقال "لابد أن تكون لكم هذه القواعد بطبيعة الحال. فإنها حيوية بالنسبة لكم، وهكذا كانت الأمور تسير سيرًا ناعمًا مترفقًا في هذه السنوات الست عشرة التالية يستطيع كل إنسان ببساطة أن يعرف أهمية هذه الموانئ لسلامتنا. فهي القواعد التي تعتمد عليها مدمراتنا للوقود في رحلاتها غربيًا في الأطلنطي لمطاردة الغواصات وحماية القوافل القادمة عند وصولها إلى البحار الشمالية. والتخلي عن هذه الموانئ معناه أن تضطر مدمرتنا إلى العودة إلى الموانئ البعيدة في الشمال والجنوب، مما يجعل عملها في الأطلنطي ينحط بمعدل أربعمائة ميل.

ولم يكن في وسعي أن أصدق أن رؤساء أركان حربنا وافقوا على التخلي عن هذا الضمان الأساسي. وكنت أعتقد أن الاتفاق الجديد لابد أن يكون قد ضمن لنا الحق في احتلال هذه الموانئ إذا نشبت الحرب. لكن المستر ديفاليرا سرعان ما أعلن في البرلمان الأيرلندي أنه لا توجد أية التزامات أو شروط من أي نوع، وقيل لي أن مستر ويفليرا قد دهش عندما علم باستعداد حكومتنا للتنازل عن هذه الحقوق. وكان قد جعلها ضمن اقتراحاته على سبيل المساومة التي يمكن التنازل عنها في سبيل الحصول على مطالب أخرى.

وقد أوضح المستر ساتفيلد في كتابه "تحدث ثانية" الموقف الذي اتخذه هو وزملاؤه من رؤساء أركان الحرب في هذا الشأن ويستطيع كل من يريد أن يتابع هذا الموضوع أن يقرأ الفصل الثامن عشر من ذلك الكتاب. أما أنا فسأظل مقتنعًا بصفة شخصية بأن التنازل عن هذه الموانئ الأيرلندية في حالة الحرب فيه إساءة شديدة لحياة بريطانيا وسلامتها. وما كنت أتصور عملاً أدعى للسخرية من هذا العمل ولا سيما في ذلك الحين.

وقد يقال أننا في النهاية قد تغلبنا على أزماتنا دون هذه الموانئ، وأننا لو لم نستطع الوصول إلى غايتنا بدونها لعدنا إلى احتلالها بالقوة تخلصًا من المجاعة. لكن هذا عذر غير مقبول فيما أرى. وقد ضاعت بواخر عديدة وأرواح كثيرة من جراء هذا الإهمال الذي قصد به الترضية.

تشيكوسلوفاكيا

لما كان احتلال النمسا يسير في طريقه العاجل قال هتلر للجنرال فون هولدر وهو في سيارته "لا شك أن هذه الخطة ستكون موضع قلق للتشيكيين" وقد فطن هولدر إلى هذه الملاحظة في الحال، واستبان منها طريق المستقبل وبدت له نوايا هتلر، وكذلك جهله العسكري.

وقد أبان هولدر "أنه كان من المستحيل عملاً أن يقوم الجيش الألماني بغزو تشيكوسلوفاكيا من الجنوب فالسكة الحديدية الوحيدة عن طريق لينز مكشوفة، ولم يكن من المستطاع إعداد هجوم مفاجئ" ولكن فكرة هتلر السياسة الاستراتيجية كانت صحيحة. فالجدار الغربي مستمر في الارتفاع.

وعلى الرغم من عدم إتمام تحصيناته العسكرية، فإنه يواجه الجيش الفرنسي بذكريات مخيفة عن معارك السوم والباشنديل، وكان هتلر مقتنعًا بأن فرنسا وبريطانيا لا تحاربان.

وقد سمعنا أن جورنج قد أكد يوم زحف الجيوش الألمانية على النمسا للوزير التشيكي المفوض في برلين كل التأكيد أن ليس لألمانيا أية نية سيئة ضد تشيكوسلوفاكيا".

وأعلن مسيو بلوم رئيس وزراء فرنسا في الرابع عشر من شهر مارس بكل جد في حديث مع الوزير التشيكي المفوض في باريس أن فرنسا ستفي بالتزاماتها لتشكوسلوفاكيا بغير قيد ولا شرط، ولم تكن هذه التأكيدات لتخفي الحقيقة المخيفة الماثلة، فقد تبدل الوضع الاستراتيجي في أوربا كل التبدل، وأصبح في مقدور ألمانيا وجيوشها أن تتركز بصفة مباشرة على حدود تشيكوسلوفاكيا الغربية، التي كانت مناطقها حاشدة بالألمان عنصريًا، وينتمون إلى حزب وطني ألماني كثير الحيوية له ميول عدوانية، وعلى استعداد لأن يؤدي دور الطابور الخامس عندما تتأزم الأمور.

وقد حاولت بريطانيا مع تصميم المستر تشمبرلين ورغبة في وقف ألمانيا عند حدها أن تصل إلى تسوية مع إيطاليا في البحر الأبيض المتوسط لتقوية مركز فرنسا، وتركيز العمل بين الحكومتين البريطانية والفرنسية على ما يدور في أواسط أوروبا من أحداث.

وأحس موسوليني بارتياح لسقوط إيدن ورأى نفسه قادرًا على اتخاذ مركز قوي للمساومة. فلم يقابل ثوبة بريطانيا بالرفض والجحود. وفي السادس عشر من شهر إبريل سنة ١٩٣٨ تم التوقيع على اتفاق إنجليزي - إيطالي يخول إيطاليا حرية العمل في الحبشة وأسبانيا مقابل حسن نيتها الذي لا قيمة له وسط أوروبا، وكانت وزارة الخارجية تشك كثيرًا في هذا الإجراء. وروى لنا فيلنيج نورخ حياة تشمبرلين أنه كتب في رسالة خارجية خاصة "لو اطلعت على المسودة التي قدمتها لنا وزارة الخارجية لآمنت أنها تكفي لتجميد دب قطبي"

وكنت أشارك وزارة الخارجية في مخاوفها من هذه الحال كان هتلر يرقب الموقف بيقظة وحذر. فهو يرى في تحالفه مع إيطاليا في النهاية أمرًا على جانب من الخطورة والحيوية، وكان في نهاية شهر إبريل ينظر هو وأركان حرب الخطط التي تقض بفرض رأيه. فموسوليني يريد حرية العمل في الحبشة، قد يكون في حاجة ماسة إلى عون ألمانيا، على الرغم من إذعان الحكومة البريطانية وموافقتها، وهذا يحتم عليه قبول ما ستقوم به ألمانيا في تشيكوسلوفاكيا. وهذه قضية لابد من التعجيل بالنظر فيها.

وعند تسوية المسالة التشيكية يجب أن تقف إيطاليا إلى جانب ألمانيا، وقد أخذت برلين في دراسة بيانات الساسة البريطانيين والفرنسيين وقابلت برلين بارتياح عزم الدولتين الغربيتين على إقناع التشيكيين بأن يقفوا موقفًا معقولاً لمصلحة السلام الأوروبي. وكان الحزب النازي السوديتي بقيادة هنلاين قد وضع مطالبه التي تتضمن الحصول على الحكم الذاتي في مناطق الحدود المحاذية لألمانيا، وسرعان ما قام الوزيران البريطاني والفرنسي في براج بزيارة وزير الخارجية التشيكية، لإبداء ما يأملان في الحكومة التشيكية من السير في تسوية الموقف إلى ذلك الحد.

وصدرت الأوامر إلى الألمان في تشيكوسلوفاكيا في شهر مايو بأن يزيدوا الاضطراب، وقد أخذت الحكومة الألمانية تشن حرب الأعصاب وفق

خطة حسبت حسابها. وذاعت شائعات قوية عن حركات تقوم بها ألمانيا متجهة نحو حدود تشيكوسلوفاكيا، ولم تكن البيانات التي تصدرها ألمانيا لتفي ذلك لتزيل من القلق الذي ساور التشيكيين الذين أعلنوا ليلة العشرية والحادي والعشرين من ذلك الشهر تعبئة قوتهم بصورة جزئية.

وكان هتلر قد اقتنع منذ حين بأن بريطانيا وفرنسا لن تدخلا الحرب من أجل تشيكوسلوفاكيا. وفي الثامن والعشرين من شهر مايو دعا مستشاريه الرئيسيين إلى اجتماع، وأصدر أمره بالتأهب لغزو تشيكوسلوفاكيا. ولم يستطع القواد الألمان أن يقتنعوا بأن فرنسا وبريطانيا ستخضعان لتحدي الفوهرر وهما ما زالتا تحتفظان بالتفوق العسكري في سائر الأسلحة عدا السلاح الجوي. على أن تحطيم الجيش التشيكي واختراق خطوط الدفاع الحصينة في بوهيميا يتطلب ما يقرب من خمس وثلاثين فرقة عسكرية تقريبًا. وعبر القادة العسكريون عن رأيهم لهتلر بأن الجيش التشيكي يُعد من أحدث الجيوش سلاحًا وعدة وكفاية، ولم تكن تحصينات خط سيجفريد قد تمت بعد، وما زالت تحت الإنشاء، وإذا هوجمت تشيكوسلوفاكيا لن يتوافر للقيادة أكثر من خمس فرق عاملة وثماني فرق احتياطية لحماية الجدار الغربي من الجيش الفرنسي الذي يستطيع تعبئة مائة فرقة عسكرية، وقد نال القادة خوف من القيام بهذه المجازفة وهم يرون أنهم إذا انتظروا بعض سنوات أخرى فإن الجيش الألماني سيعود إلى التفوق، وعلى الرغم من أ، ضعف الحلفاء وميلهم إلى المهادنة، قد برهنا على صحة أحكام هتلر السياسية في قضايا التجنيد الإجباري والراين والنمسا. فإن القيادة العليا الألمانية لم تصدق أن لعبة هتلر ستكلل بالنجاح للمرة الرابعة. فلم يكن من المقبول عقلاً أن الدول الكبرى المنتصرة التي لديها التفوق العسكري البارز ستتخلى ثانية عن طريق الواجب والشرف الذي هو في الوقت نفسه الطريق الذي يمليه العقل واللباقة، فضلاً عن أن روسيا بارتباطاتها السابقة مع تشيكوسلوفاكيا تقف موقفًا فيه الوعيد كل الوعيد لألمانيا في هذه الآونة، وكانت علاقات روسيا السوفيتية

بتشيكوسلوفاكيا كدولة، وبالرئيس بنسن شخصيًا مبنية على الصداقة الوطيدة. وتقوم أصول هذه العلاقات على مبادئ عنصرية معينة.

وقد حدثني الرئيس بنش عندما زارني في مراكش في يناير سنة ١٩٤٤ بالقصة التالية: لقد تلقى في سنة ١٩٣٥ عرضًا من هتلر باحترام سيادة تشيكوسلوفاكيا في سائر الظروف إذا تعهدت بالبقاء على الحياد في حالة نشوب حرب بين ألمانيا وفرنسا. وعندما أشار بنيش إلى المعاهدة التي تلزمه بأن يتعاون مع فرنسا في مثل هذه الحال. رد السفير الألماني بأن ليس هناك ما يدعو إلى إلغاء هذه المعاهدة، وحسب الحكومة التشيكية أن تخرقها في الوقت المناسب بالتأخر عن التعبئة أو الزحف، ولم يكن في مقدور الجمهورية الصغيرة أن تبدي سخطها على هذا الاقتراح، فقد كان خوف التشيكيين من ألمانيا في ذلك الوقت كبيرًا. لا سيما وألمانيا تستطيع أن تثير قضية السوديت الألمان في كل حين، الأمر الذي يعرض بلادهم للحيرة والقلق الزائدين، ولهذا فقد ترك التشيكيون المسألة تمر دون تفكير. لكن هذا الهدوء لم يطل أمده أكثر من سنة واحدة. ففي سنة ١٩٣٦ وصلت إلى الرئيس بنش رسالة من مصدر عسكري ألماني كبير تقول: إن في استطاعته أن يغتنم الفرصة التي هيأها الفوهرر سريعًا، فإن أحداثًا وشيكة الوقوع في روسيا تجعل أية معاونة يقدمها إلى ألمانيا لا تجدي نفعًا.

وبينما كان بنيش يمعن التفكير في هذه الرسالة وصل إلى علمه أن مراسلات تدور عن طريق السفارة السوفياتية في براج بين شخصيات ذات أهمية في روسيا وبين الحكومة الألمانية. وكانت هذه الاتصالات جزءًا من مؤامرة للحرس الشيوعي الأسود العسكري لإسقاط ستالين وإقامة عهد يهدف إلى التعاون مع ألمانيا.

ولم يلبث الدكتور بنيش أن أبلغ كل ما وصل إلى علمه إلى ستالين، تدل الدلائل على أن هذه المعلومات وصلت إلى بنيش عن طريق الجهاز السري

السوفياتي، الذي أراد أن تصل هذه المعلومات إلى ستالين من مصدر صديق أجنبي.

وعلى أثر ذلك قامت حركات التطهير التي لا رحمة فيها. والتي كانت ضرورية إلى حد ما في الأوساط العسكرية والسياسية في روسيا السوفيتية، وقد انتهت بسلسلة المحاكمات التي تمت في يناير سنة ١٩٣٧، ولعب فيها فيشنسكي كنائب عام دورًا كبيرًا.

ولم يكن من المعقول أن يتعاون القادة العسكريون ورجال الحرس الأسود. فقد كانوا يشعرون بالغيرة الشديدة من ستالين الذي انقلب ضدهم وانتزع منهم السلطة. ومن ثم تحتم الخلاص منهم.

وهكذا أعدم زينونييف وبوخارين وغيرهما من قادة الثورة الشيوعية الأقدمين، وكذلك المارشال توخاشيفنسيكي الذي مثل الاتحاد السوفيتي في حفلة تتويج الملك جورج السادس وغيره من كبار قادة الجيش وضباطه. وصفى ما لا يقل عن خمسة آلاف شخص من الموظفين وضباط الجيش ممن تزيد رتبهم على رتبة الرئيس، وتم تطهير الجيش الأحمر من جميع العناصر الموالية لألمانيا، مما ترتب عليه إضعاف كفاية الجيش من الناحية العسكرية.

وقد انصرفت كراهية الحكومة السوفياتية بصفة ظاهرة إلى ألمانيا. وكان ستالين يشعر دائمًا بأنه مدين شخصيًا للرئيس بنش. وقد استولت عليه رغبة ملحة في مساعدته ومساعدة بلاده المهددة بالخطر الألماني.

وكان هتلر يفهم ذلك تمام الفهم. ولكني لا أدري إذا كانت الحكومتان البريطانية والفرنسية قد أدركتا الموقف على هذا النحو. فهذه العمليات التطهيرية لم تكن تعني في نظر القيادتين البريطانية والفرنسية إلا تمزيق الجيش الأحمر. وانشار عوامل الكراهية والشدة والثأر داخل الاتحاد السوفياتي. وقد يكون في هذا الرأي مبالغة تتجاوز الحد. إذ أن الحكم القائم

على الإرهاب توطده دائمًا عمليات العنف والتأكيد. والذي يعنينا في هذا الكتاب هو ذلك الارتباط الشديد بين روسيا وتشيكوسلوفاكيا، وبين ستالين وبنش.

إلا أن العالم الخارجي لم يكن يدرك شيئًا عن الخلاف الداخلي في ألمانيا ولا عن الروابط الوثيقة بين بنيش وستالين، ومن ثم لم تعرف هذه الأمور للوزراء البريطانيين والفرنسيين. وكان خط سيجفريد على الرغم من عدم إتمامه يبدو لهم حاجزًا رهيبًا ولم يستطيعوا أن يقدروا قوة ألمانيا على حقيقتها، على الرغم من حداثتها، وكانت أفكارهم تميل إلى المبالغة في تقدير هذه القوة. فضلاً عن تصور الأخطار الهائلة من الغارات الجوية على المدن المكشوفة والكراهية الشديدة للحرب التي تأصلت في نفوس الدول الديمقراطية.

ومع كل هذا فقد جدد المسيو دلادييه رئيس وزراء فرنسا الجديد في الثاني عشر من شهر يونيه عهد سلفه الذي قطعه في الرابع عشر من شهر مارس وأعلن فيه أن التزامات فرنسا نحو تشيكوسلوفاكيا مقدسة ولا يمكن تجاهلها أو مخالفتها، وقد قاد هذا البيان في سياقه كل حديث عن معاهدة لوكارنو التي عقدت منذ ثلاث عشرة سنة، وتركت كل شيء في الشرق في غموض انتظارًا لتوقيع معاهدة لوكارنو جديدة. ولا شك أمام التاريخ أن المعاهدة بين فرنسا وتشيكوسلوفاكيا التي وقعت سنة ١٩٢٤ كانت ما زالت سارية لا من ناحيتها القانونية فحسب، بل من ناحية واقعية كذلك، وقد تم تأكيدها بسلسلة من البيانات التي أصدرها رؤساء وزارات فرنسا على التوالي سنة ١٩٣٨.

ولكن هتلر كان كثير الثقة في هذا الأمر من صحة تفكيره هو ولا أحد غيره، وأصدر في الثامن عشر من شهر يونيه بيانًا نهائيًا مما يتعلق بغزو تشيكوسلوفاكيا أراد فيه أن يطمئن قادته العسكريين الذين استولى عليهم القلق: وقال لكاتيل "سأقرر البدء بالعمل ضد تشيكوسلوفاكيا عندما

أتأكد كما تأكدت في موضوع المنطقة المنزوعة السلاح في الراين وموضوع الزحف على النمسا من أن فرنسا لا تزحف وإنجلترا لا تتدخل".

وأعلن تشمبرلين في السادس عشر من يوليو سنة ١٩٣٨ في البرلمان إيفاد بعثة برئاسة اللورد رانسمان إلى براج للعمل على إيجاد تسوية بين الحكومة التشيكية والهر هنلاين. وقد أصدرت الحكومة التشيكية في اليوم التالي مسودة قانون للأقليات العنصرية كأساس للمفاوضات.

وأعلن اللورد هاليفاكس في البرلمان في نفس اليوم هذا القول "لا أعتقد أن المسئولين في أية حكومة في أوروبا يريدون الحرب" ووصل اللورد رانسمان إلى براج في الثالث من شهر أغسطس. وتتابعت المحادثات المعقدة بين المتفاوضين العديدين وقد باءت بالفشل وسرعان ما تلاحقت الأحداث بعد ذلك.

وأعلن فون ريبنشروب وزير خارجية ألمانيا في ذلك الحين في السابع والعشرين من شهر أغسطس خبر الزيارة التي أبلغت إليه من السفير الإيطالي في برلين حاملاً رسالة جديدة تشتمل على تعليمات كتابية من موسوليني يطلب فيها من ألمانيا أن تبلغه في الوقت المناسب الموعد المنتظر للعمل العسكري ضد تشيكوسلوفاكيا" وقد طلب موسوليني إبلاغه الموعد ليتيسر له "أن يعد العدة في الوقت المناسب على الجبهة الفرنسية".

وقد تتابع القلق في شهر أغسطس وتلقيت بعد ظهر اليوم الثاني من شهر سبتمبر رسالة من السفير السوفياتي في لندن يبدي فيها رغبته في زيارتي في شارتويل. للتحدث إليّ في مسألة عاجلة بالغة حد الخطورة. وكانت لي علاقة طيبة بالمسيو مايسكي منذ زمن كما كان ولدي راندولف له اتصال كثير به، لذلك استقبلت السفير الذي تحدث إلى بتفصيل وإسهاب ودقة في القضية التي سأذكرها هنا.

وقد لاحظت أنه يفضي إلي بالمعلومات وأنا رجل عادي ليست لي صفة رسمية، على عادة الحكومة السوفياتية التي ترى اتباع هذا الطريق وتفضله على أن تتقدم بعرض على وزارة الخارجية بصفة مباشرة، وقد يقابل برد غير مرضي، وكان المراد بهذه المقابلة أن أنقل حديثه معي إلى حكومة جلالة الملك. وإذا كان السفير لم يذكر ذلك صراحة إلا أنني أدركت غايته لعدم الإشارة إلى التحفظ بسرية الحديث. ونظرًا لأهمية الحديث عندي فقد كنت لا أرى التسرع بإبداء الرأي من جانبي دون دراسة هاليفاكس وتشمبرلين له، وألخص ما قاله لي فيما يأتي:

"قام القائم بالأعمال الفرنسي في موسكو لغياب السفير بزيارة مسيو لنيفتوف في ذلك اليوم وسأله باسم الحكومة الفرنسية أخباره بما تستطيع روسيا أن تقدمه لتشيكوسلوفاكيا إذا تعرضت لغزو ألماني. مع النظر بعين الاعتبار إلى الصعاب التي قد تحدث بصفة خاصة من جراء حياد بولندا ورومانيا. وقد رد لتفينوف بأن الاتحاد السوفياتي يصمم على الوفاء بالتزاماته ويدرك الصعاب التي تترتب على موقف بولندا ورومانيا، ولكنه يعتقد أن هذه الصعاب بالنسبة إلى رومانيا من الممكن التغلب عليها. فإذا قررت عصبة الأمم ممثلاً أن تشيكوسلوفاكيا ستكون ضحية العدوان. وأن ألمانيا هي المعتدية. فإن مثل هذا القرار سيكون ضمانًا لإقناع رومانيا بالسماح للجيوش الروسية وقواتها الجوية بعبور أراضيها".

وإذا لم يجمع مجلس العصبة الرأي في هذا الموضوع فإن المسيو لتفينوف يرى أنه إذا اتخذ قرار بالغالبية فإنه يكفي للوصول إلى هذه الغاية. وإن رومانيا في الغالب لابد أن تأخذ به. ولهذا فإنه ينصح بدعوة مجلس العصبة إلى الانعقاد بموجب المادة الحادية عشرة من الميثاق على اعتبار وجود خطر بنشوب الحرب، الأمر الذي يدعو إلى التشاور بين دول العصبة، والخير في الإسراع، حتى تكون النتيجة خيرًا. قبل أن يضيق الوقت وتضيع الفرصة. ويتحتم الإسراع

بعقد اجتماعات بين رؤساء أركان حرب الروس، والفرنسيين، والتشيكوسلوفاكيين لدراسة الطرق والوسائل اللازمة للمعاونة.

واقترح التشاور بين الدول الراغبة في السلام للوصول إلى خير السبل للمحافظة عليه. ولإصدار بيان مشترك توقعه فرنسا وروسيا وبريطانيا العظمى. وقد أبدى اعتقاده بأن الولايات المتحدة ستؤيد مثل هذا البيان تأييدًا معنويًا".

وقلت لمسيو مايشلي أن الحكومة البريطانية ليست على استعداد في الغالب لدراسة أية خطوة جديدة قبل أن تظهر نتائج المباحثات بين بنش وهنلاين. وقبل أن تنقطع المحادثات بصورة يتضح منها أن الخطأ لم يكن من جانب تشيكوسلوفاكيا. فنحن لا نريد استفزاز هتلر إذا كان يجنح إلى حل سلمي.

وبعثت بتقرير مفصل من هذا الحديث كاملاً إلى اللورد هاليفاكس، وقد أجاب في الخامس من شهر سبتمبر بتحفظ. أنه لا يرى في الوقت الحاضر أنه من الميسور القيام بعمل ما وفقًا للمادة الحادية عشرة وإن كان سيضع هذه الحقيقة دائمًا نصب عينيه. ومضى يقول في رده "أما بالنسبة للوقت الحاضر فأنا أعتقد كما بينتم أن واجبنا يحتم علينا أن نستعرض الوضع على ضوء التقرير الذي عاد به هنلاين من "ابرختسجادن" وختم قوله بأن الوضع ما زال يدعو إلى القلق.

وكتبت التيمس اللندنية في مقالها الافتتاحي في السابع من سبتمبر ما يلي:

"إذا كان السوديت الآن يريدون مطالب أكثر مما أبدته الحكومة التشيكية في المجموعة الأخيرة من اقتراحاتها، فإن النتيجة التي يمكن أن نصل إليها هي أن الألمان ماضون إلى أقصى حد في إزالة مصادر التذمر التي يثرها أولئك الذين لا يجدون أنفسهم في وضع مريح داخل الجمهورية التشيكوسلوفاكية. وفي هذه الحال يجدر بالحكومة التشكيلة أن تنظر فيما إذا كان في استطاعتها أن لا تستثني نهائيًا ذلك المشروع الذي قوبل

باستحسان من بعض الدوائر. ويقضي بأن تصبح تشيكوسلوفاكيا دولة أكثر انسجامًا بقطع ذلك الجزء الضيق الذي يضم أناسًا غرباء عنها".

معنى هذا القول تسليم منطقة خط الحدود في بوهيميا جميها. وعلى الرغم من أن الحكومة البريطانية أسرعت ببيان تعلن فيه أن مقال التيمس لا يمثل وجهة نظرها، فإن الرأي العام الخارجي لا سيما في فرنسا قد أصيب ولم يسترح إلى ذلك.

وقد أعلن المسيو بونيه وزير خارجية فرنسا في ذلك الوقت في العاشر من سبتمبر سنة ١٩٣٨ أنه قدم إلى سفيرنا في باريس السير أيريك هذا السؤال أنه من المنتظر أن يهاجم هتلر تشيكوسلوفاكيا غدًا، وإذا هاجمها فإن فرناس ستعلن التعبئة العسكرية في الحال وستنظر إليكم لتقول أنا سنزحف، فهل ستزحفون معنا؟ فما هو رد بريطانيا العظمى.

وكان هذا هو الرد الذي وافق عليه مجلس الوزراء وبعث به لورد هاليفاكس إلى فرنسا في الثاني عشر من الشهر نفسه عن طريق السير إيريك فيبس، أنني أعرف ما تعلقه الحكومة الفرنسية من أهمية على الحصول على جواب واضح عن هذا السؤال. ولكنك كما أشرت لبونيه ترى أن السؤال رغم وضعه في هذه بصورته المبسطة لا ينفصل عن الظروف التي تقتضيه وهي ظروف لا تخرج من الوقت الحاضر عن الافتراضات، فضلاً عن أن حكومة جلالته لا تعني في هذا الموضوع موضعها وحدها، فعند اتخاذ أي قرار في هذا الشأن تكون قد فرضت على ممتلكاتها المستقلة التزامات لم تبد رأيًا فيها. وهذه الممتلكات المستقلة ليست على استعداد لقبول موقف يفرض عليها سابقًا قبل أن تحيط بظروفها التي تضع قراراتها على ضوئها.

ولهذا فإن كل ما في وسعي بالنظر إلى سؤال مسيو بونيه جوان أقول أن ردي لا يخرج عن أن حكومة جلالة الملك لا تسمح على الإطلاق بتهديد سلامة فرنسا.

وقد بعثت فرنسا تسأل المساعدة التي تستطيع أن تتوقعها في حالة وقوع هذا التهديد. وكان رد لندن حسب ما ورد في كتاب بونيه "من واشنطن إلى الكي دورسيه". إن بريطانيا ستبعث إلى فرناس بفرقتين عسكريتين غير مدرعتين ومائة وخمسين طائرة في خلال الستة الأشهر الأولى من الحرب، وإذا كان مسيو بونيه يريد مبررًا للتخلص من التعهدات التي أخذتها فرنسا على عاتقها لتشيكوسلوفاكيا وترك التشيكيين يلاقون مصيرهم، فليس ثمة أبلغ من رد لندن لتحقيق ذلك.

وقد ألقى هتلر في نفس اليوم - أي في الثاني عشر من سبتمبر - خطابًا في اجتماع شباب الحزب في نوربرج هاجم فيه حكومة تشيكوسلوفاكيا هجومًا شديدًا، فردت في اليوم التالي بأن فرضت الأحكام العرفية في مناطق معينة من جمهوريتنا، وقد انقطعت المحادثات في الرابع عشر من سبتمبر بصفة رسمية مه هنلاين. وفر الزعيم السوديتي إلى ألمانيا في الخامس عشر من الشهر نفسه. ووصلنا إلى ذروة الأزمة.

مأساة ميونيخ

كم من الأسفار العديدة التي كتبت وستكتب عن الأزمة التي انتهت في ميونيخ بالتضحية بتشيكوسلوفاكيا ولست أريد هنا إلا أن أثبت بعض الحقائق الأساسية وأبين الخطوط الأساسية للوقائع. لقد ألقى ليتفينوف في الجلسة التي عقدتها الجمعية العامة لعصبة الأمم في الحادي والعشرين من سبتمبر الإنذار الرسمي التالي:

"تتعرض تشيكوسلوفاكيا في الآونة الحاضرة لتدخل دولة مجاورة لها في شئونها الداخلية، وتتهددها علنًا بالهجوم عليها. وهكذا سيرى هذا الشعب الذي يعد من أقدم الشعوب الأوروبية وأكثرها حضارة وأشدها إقبالاً على العمل، والذي نال استقلاله بعد قرون من الذل والعبودية، سيرى نفسه اليوم أو غدًا مضطرًا إلى حمل السلاح دفاعًا عن استقلاله".

ولما تركت بلادي ورحلت إلى جنيف منذ بضعة أيام تلقيت لأول مرة سؤالاً عن موقفنا إذا تعرضت تشيكوسلوفاكيا للعدوان، فأرسلت باسم حكومتي الجواب الصريح الآتي:

"لقد عزمنا على أن نوفي بالتزاماتنا، ونقدم لتشيكوسلوفاكيا بالتضامن مع فرنسا كل عون بالطرق الميسورة لنا. وإن وزارة حربيتنا على استعداد للاشتراك حالاً في مؤتمر يجمع ممثلين عن وزارتي الحرب في فرنسا وتشيكوسلوفاكيا لدراسة الخطط المناسبة لمواجهة الظروف الحالية.

ومنذ يومين تلقت حكومتي استفسارًا رسميًا من الحكومة التشيكوسلوفاكية عما إذا كانت حكومة الاتحاد السوفياتي على استعداد - وفقًا للمعاهدة السوفياتية التشيكية - لأن تقدم لها المعونة العملية العاجلة، وأن فرنسا ستقدم لها هذه المعونة وفاء بالتزاماتها، فكان رد حكومتي صريحًا بالإيجاب".

ولم يؤثر هذا البيان الرسمي الواضح الذي أصدرته دولة من أعظم الدول على مفاوضات المستر تشمبرلين ولا على موقف الفرنسيين من الأزمة. وقد تجاهلت الدولتان هذا العرض بالفعل ولم يحسب لهذه الدولة العظمى حساب في ميزان الأوضاع ضد هتلر، وقد عوملت بطريقة تدل على التغاضي إن لم يكن على الاحتقار، مما كان له أثره على عقل ستالين وتفكيره، فقد ظلت الأمور تسير في طريقها، وكأن روسيا السوفياتية دولة لا وجود لها. وقد كان لهذا التجاهل أثره البالغ فيما بعد.

وألقى هتلر مساء السادس والعشرين خطابًا في برلين فأشار إلى إنجلترا وفرنسا، بعبارات مناسبة هادئة وقد حمل نفس الوقت حملة شعواء على بنش والتشيكيين. وقال بصورة حاسمة: إن على تشيكوسلوفاكيا أن تجلو في الحال عن بلاد السوديت، وقد أكد أنه إذا تمت تسوية هذه القضية، فلن يهمه ما يقع لتشيكوسلوفاكيا فيما بعد، وأن هذا آخر مطلب إقليمي له في أوروبا.

وفي الساعة الثامنة من تلك الليلة قدم المستر لبير رئيس إدارة الصحافة في وزارة الخارجية البريطانية إلى وزير الخارجية بلاغًا رسميًا للتوقيع عليه هذا نصه: "إذا حدث على الرغم من المحاولات التي يبذلها رئيس الوزراء البريطاني هجوم من ألمانيا على تشكيوسلوفاكيا فإن النتيجة العاجلة أن فرنسا ستهب لمساعدتها، ولا شك أن بريطانيا العظمى والاتحاد السوفياتي سيقفان إلى جانب فرنسا".

وقد وافق اللورد هاليفاكس على هذا وعجل بصدوره وبدا أن ساعة النضال قد أزفت. وأن القرى المتعادية قد اتخذت أماكنها. فقد كان للتشيكيين مليون ونصف مليون من الجنود المسلحين وراء أقوى خط دفاعي في أوروبا. تساندهم قوات ميكانيكية عظيمة في عتادها وتنظيمها. وقد تمت تعبئة الجيش الفرنسي جزئيًا. وكان الوزراء الفرنسيون على الرغم منهم أعلنوا رغبتهم في التمسك بالتزاماتهم لتشيكوسلوفاكيا.

وأصدرت الأميرالية البريطانية في الساعة الحادية عشرة والدقيقة العشرين من صباح الثامن والعشرين من شهر سبتمبر أوامرها بتعبئة الأسطول البريطاني.

وفي خلال ذلك بدأ صراع شديد مستمر بين الفوهرر وبين مستشاريه العسكريين. فقد تبين أن الأزمة قد هيأت سائر الظروف التي كان يخشاها القواد الألمان. فقد حشد من ثلاثين إلى أربعين فرقة تشيكوسلوفاكية على حدود ألمانيا الشرقية. وبدأت قوات الجيش الفرنسي التي تفوق قواتهم بنسبة ثمانية إلى واحد تصطف على الجدار الغربي، وتستطيع الجيوش السوفياتية أن تعبر إلى الأمام عن طريق بولندا ورومانيا. وقد قام بعض هؤلاء القواد بمؤامرة لاعتقال هتلر "وإنقاذ ألمانيا من هذا المجنون". وأعلن آخرون أن معنويات الشعب الألماني المتهافتة لا تستطيع الوقوف في حرب أوروبية كما أن القوات الألمانية المسلحة على غير استعداد لخوض غمار المعركة. ووجه الأميرال ريدر القائد

العام للبحرية الألمانية إنذارًا شديدًا إلى الفوهرر أسرعت بتأكيده الأنباء القائلة بتعبئة الأسطول البريطاني.

وأخذ هتلر في التردد، وفي الساعة الثانية من الصباح أذيع من محطة الإذاعة الألمانية بيان رسمي ينفي اعتزام ألمانيا إعلان التعبئة العامة في التاسع والعشرين، وقد أصدرت وكالة الأنباء الرسمية الألمانية في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين من نفس اليوم بيانًا مشابهًا سلمته إلى الصحافة البريطانية، ولا شك أن الضغط على ذلك الرجل الفرد وعلى عزيمته الجبارة كان شديدًا في هذه اللحظة.

وكان من الواضح أنه قد أصبح على شفا الحرب العامة. فهل له أن يخطو هذه الخطوة إزاء الرأي العام الجارف الذي يواجهه، وأمام هذه الإنذارات المتتالية من رؤساء أركان حربه الذين يمثلون الجيش والبحرية والطيران؟ ولكن هل يستطيع الآن أن يتراجع بعد أن عاش على سمعته المدوية ردحًا من الزمن.

ولكن المستر تشمبرلين كان ذلك يقوم بنشاط بالغ في هذه الآونة، وكان يشرف إشرافًا كليًا على سياسة بريطانيا الخارجية. وكان اللورد هاليفاكس على الرغم من الشكوك الكثيرة التي تنبعث من جو وزارته يتبع توجيهات رئيسه، وكان مجلس الوزراء يساوره القلق، ولكنه مطيع لأوامر رئيسه، وكان في مقدور مراقبي المجلس أن يحافظوا على الأغلبية التي تتمتع بها الحكومة.

كان هناك رجل واحد يوجه سياستنا ويقود شئوننا، ولم يكن ليتردد أمام المسئولية الكبيرة الملقاة على عاتقه، وأبرق في الرابع عشر من سبتمبر إلى هتلر دون أن يستشير أحدًا أن يقوم بزيارته. وطار رئيس وزراء بريطانيا إلى ألمانيا ثلاث مرات، وقد اقتنع هو ومستشاره اللورد رانسمان بأن السبيل الوحيد لإرضاء هتلر هو فصل السوديت عن تشيكوسلوفاكيا.

وكانت المرة الأخيرة زيارة ميونخ وقد انضم إليه المسيو ديلاديبه رئيس وزراء فرنسا وموسوليني. ولم توجه دعوة إلى روسيا كما لم يسمح للتشيكيين أنفسهم بحضور هذه الاجتماعات، وقد أبلغت حكومة تشيكوسلوفاكيا بعبارة جافة مساء اليوم الثامن والعشرين أن مؤتمرًا يضم ممثلي الدول الأوروبية سيعقد في اليوم التالي وتم الوصول إلى اتفاق بين الدول "الكبار الأربع" بسرعة هائلة.

فقد بدأت المحادثات في الظهر وظلت حتى الساعة الثانية من صباح اليوم التالي. وأعدت مذكرة عاجلة ووقع عليها في الساعة الثانية من صباح اليوم الثلاثين من سبتمبر. وكان جوهر المذكرة يشتمل على الموافقة على المطالب الألمانية.

فقد تقرر أن يتم الجلاء عن مناطق السوديت في خمس مراحل تبدأ في اليوم الأول من أكتوبر وتنتهي في العاشر منه. كما تقرر أن يعهد إلى لجنة دولية بتخطيط الحدود النهائية.

وقد وضعت الوثيقة أمام المندوبين التشيكيين. فأحنوا رءوسهم لهذه القرارات وقالوا أنهم يودون أن يعلنوا احتجاجهم أمام العالم على قرار لم يشتركوا في وضعه واستقال الرئيس بينش لأنه يرى أنه قد يكون عائقًا في سبيل التطورات التي يجب على الحكومة لجديدة أن تكيف نفسها وفقًا لها" وقد ترك تشيكوسلوفاكيا ليجد له ملجأ في إنجلترا. ومن ثم بدئ في تقطيع أوصال تشيكوسلوفاكيا، ولم يكن الألمان وحدهم الذين تكاثروا على الفريسة. فقد أرسلت الحكومة البولندية إنذارًا إلى التشيكيين تطلب إليهم أن يسلموا إليها عاجلاً منطقة تيشين الواقعة على الحدود بين البلدين في ظرف أربع وعشرين ساعة. ولم يكن هناك مفر من قبول ذلك الطلب القاسي، وجاء المجريون كذلك يحملون مطالبهم المزعومة.

وبينما كان الساسة الأربعة ينتظرون الانتهاء من إعداد الوثائق النهائية سأل رئيس الوزراء هتلر إذا كان يرى الحديث إليه حديثًا خاصًا. فتوثب هتلر لقبول الفكرة واجتمع الزعيمان في شقة هتلر الخاصة في ميونخ صباح الثلاثين من شهر سبتمبر. ولم يحضر معهما أحد إلا مترجم واحد. وأخرج تشمبرلين مسودة بيان كان قد أعده. يعلن فيه "أن مسألة العلاقات الإنجليزية ـ الألمانية هي أهم شيء بالنسبة للبلدين ولأوروبا جميعها، وأن الفريقين يعدان الاتفاق الذي وقع أمس والاتفاق البحري الإنجليزي ـ الألماني هما رمز على رغبة شعبيهما في ألا يحارب أحدهما الآخر". وقرأ هتلر الوثيقة ووقعها بغير تردد.

وعاد تشمبرلين إلى إنجلترا، وقد لوح بورقة البيان المشترك التي حمل هتلر على توقيعها مجرد هبوطه من الطائرة، وقرأها على مسمع من أعيان الشعب ووجوهه ممن حضروا إلى المطار لاستقباله، وبينما كان في طريقه إلى داوننج ستريت والسيارة تنهب الأرض وسط هتافات الهاتفين أسر إلى هاليفاكس الجالس إلى جواره بقوله: "سوف ينتهي كل هذا خلال ثلاثة أشهر. ولكنه عاد يلوح بقصاصة الورق التي في يديه من نوافذ داوننج ستريت وقال مخاطبًا الجماهير من النافذة "هذه هي المرة الثانية في تاريخنا التي عادة فيها السلام مع الشرف من ألمانيا إلى دوانِنج ستريت. وأعتقد أن هذا السلام سيظل طوال جيلنا".

وهكذا انتصر رأي هتلر وتقديره من جديد. وباءت القيادة الألمانية العليا بالخزي والخجل. فقد تبين ثانية أن الفوهرر كان على حق. إذ استطاع بعبقريته وإلهامه وحدهما أن يقدر سائر الظروف العسكرية والسياسية تقديرًا سليمًا. وانتصرت زعامة هتلر مرة أخرى على معارضة القادة العسكريين وكان كل هؤلاء القواد من الوطنيين الصادقين. وكان همهم أن يروا بلادهم تستعيد مكانتها الأولى بين أمم العالم، وكانوا يقضون أوقاتهم كلها ليل نهار في القيام بكل ما يؤدي إلى تقوية ألمانيا المسلحة، ولذا أحسوا من أعماقهم بغصة شديدة لظهورهم بمظهر الذين لا يقدرون الأحداث. وتحولت كراهيتهم لهتلر

وعدم ثقتهم به إلى نوع من الإعجاب بمواهبه الخارقة. وجده المزعوم وتأكدوا من بزوغ نجم يجب أن يسيروا على هداه. ومن ظهور دليل يجب أن يتبعوه، وهكذا أصبح هتلر أخيرًا السيد المطاع لألمانيا وقد أصبح الطريق واضحًا للمشروع العظيم واختفى المتآمرون وراء ستار من الخزي بعد أن امتنع زملاؤهم العسكريون عن إفشاء نواياهم في المؤامرة.

وليس من اليسير الآن بعد أن مرت بنا تلك السنوات في طيها الجهود الشاقة والتوتر الفكري والبدني أن تصدر للأجيال القادمة تلك العواطف التي كانت قد تضطرم في بريطانيا بسبب موضوع اتفاق ميونخ. وقد انقسم الرأي بين أفراد أسر المحافظين وأصدقائهم المخلصين إلى حد لم أر له مثيلاً في حياتي من قبل. وكان الرجال والنساء الذين تربطهم وشائج قوية من الصلات الحزبية والروابط الاجتماعية والعائلية ينظر بعضهم إلى البعض نظرات تحمل شيئًا من الازدراء والغضب. ولم يكن من الميسور تسوية هذه القضية بهتافات الجماهير التي احتشدت للترحيب بالمستر تشمبرلين التي يبذلها مراقبو المجلس وأنصار الحزب. ولم نكن نحفل نحن بالأقلية بما نقابل به من السخرية والهزء من أنصار الحكومة.

وقد اهتزت الحكومة من أسسها. ولكن كان كل ما فات قد انقضى. فتماسك أعضاء الحكومة حفظًا لكيانها. ولم يصمد في الميدان غير المستر داف كوبر وزير البحرية الذي استقال من منصبه الكبير الذي كان قد حافظ على كرامته بالأوامر التي أصدرها بتعبئة الأسطول. ففي الوقت الذي كان فيه المستر تشمبرلين يسيطر على الرأي العام سيطرة كلية. اندفع هذا الوزير الشجاع من بين الصفوف ليعلن مخالفته لموقف زعيمه ورئيسه.

وألقى المستر كوبر خطاب استقالته في أيام المناقشة الثلاثة التي قامت في مجلس العموم حول اتفاق ميونخ، وكان هذا الحادث من الحوادث البارزة

في حياتنا البرلمانية. فقد تحدث الوزير المستقيل بزلاقة مرتجلاً أربعين دقيقة، وقد سيطر على مشاعر الغالبية من خصومه من نواب الحزب.

وكان من السهل على نواب العمال والأحرار المعارضين كل المعارضة للحكومة القائمة أن يصفقوا له وأن يهتفوا. فقد كانت هذه الاستقالة فاتحة الانشقاق في حزب المحافظين.

ولم تكن المناقشة التي جرت في المجلس إلا خليقة بالمشاعر التي استثيرت في البلاد والقضايا المعرضة للخطر، وإني لأذكر تماماً أنني حين قلت مرة في المجلس: "إننا أصبنا بهزيمة كلية لا نظير لها ثارت ضدي عاصفة شديدة في المجلس توقفت معها عن الكلام لحظة قبل أن أستأنفه. فقد كان هناك شعور جارف من الإعجاب بالمحاولات التي يبذلها مستر تشمبرلين للمحافظة على السلام. ومحاولاته الشخصية في هذا السبيل. ومن المتعذر علي في هذا الكتاب أن أترك الإشارة إلى سلسلة الأخطاء الطويلة -التي جرت في التقدير. وسوء التقدير للرجال والحقائق التي استند إليها. وإن كنت لا أنكر الدوافع التي دفعته إلى هذا السبيل الذي سلكه واستدعى أقصى ما يمكن من الشجاعة الأدبية، وقد أثنيت على هذه الشجاعة بعد سنتين حين ألقيت خطابي بمناسبة وفاته.

وكان في استطاعة الحكومة أن تركن إلى حجة أخرى عملية، ولكنها بالغة حد الخطورة، على الرغم مما فيها من تعريض بها، فلا يستطيع أحد أن ينكر أننا لم نكن على استعداد لدخول الحرب، ولكن هل كان ثمة من هو أسرع مني ومن أصدقائي في إثبات هذه الحقيقة.

لقد سمحت بريطانيا العظمى للقوة الجوية الألمانية بأن تتفوق على قوتها إلى حد كبير. فسائر مراكزنا المعرضة للهجوم تحتاج إلى الحماية. ولم يكن في أكبر مدن العالم وأكثرها ازدحاماً بالسكان أكثر من مائة مدفع مضاد للطائرات. وهي في أيدي أناس غير مدربين على استخدامها، ولو أن هتلر كان

صادقًا وكان ما تم في اتفاق ميونخ سلامًا حقيقيًا. فإن تشمبرلين يكون على حق، أما إذا كان قد وقع في خدعة لسوء الحظ، فإن علينا أن ننتهز فرصة هذا التوقف العاجل لنصلح ما كان من إهمالنا وأغلاطنا، وكانت هذه الاعتبارات هي التي سيطرت على أفكار مؤيدي الحكومة.

وأقر المجلس سياسة حكومة جلالة الملك التي تجنبت الحرب في الأزمة الأخيرة، فأغلبية ٣٦٦ صوتًا إلى ١٤٤ ولم يستطع الثلاثون أو الأربعون نائبًا من المحافظين المنشقين أن يفعوا أكثر من تسجيل معارضتهم بالامتناع عن التصويت.

وانتخب رجل نكرة رئيسًا لما تبقى من حطام تشيكوسلوفاكيا هو الدكتور هاشا. وتسلمت حكومة جديدة زمام الحكم في براج وقال وزير خارجية هذه الحكومة المهجور "إن الأمور في أوروبا وفي العالم بأسره لا تبشر بأمل في قيام فترة طويلة من الهدوء في المستقبل القريب" وكان هتلر يرى هذا الرأي نفسه، وقد قام اقتسام الغنائم بصفة رسمية بين ألمانيا وبين الطامعين الآخرين في الأول من نوفمبر واحتلم بولندا مقاطعة تيشين دون أن يزعجها أحد. ونال السلوفاكيون الذين استخدموا كمخلب القط من لدن ألمانيا استقلالاً ذاتيًا عجيبًا. ونالت المجر قطعة من لحم الفريسة على حساب سلوفاكيا فلما أثيرت كل هذه المسائل في مجلس العموم أوضح المستر تشمبرلين أن العرض البريطاني والفرنسي بتقديم ضمانة دولية لتشيكوسلوفاكيا وهي تلك الضمانة التي قدمت بعد اتفاق ميونيخ لا تؤثر على حدود الدولة الحالية، وإنما تشير إلى افتراض حدوث عدوان لم يسبق باستفزاز، وقال وكأن الأمر لا يعنيه في كثير أو قليل. إن ما نراه الآن لا يعدو أن يكون تعديلاً للحدود التي وضعتها معاهدة فرساي. ولا أدري إذا كان الذين خطوا هذه الحدود كانوا يظنون أنها ستبقى ثابتة كما هي. وإني لأشك كل الشك في أنهم قد تصوروا ذلك وإنما أعتقد أنني قد قلت ما يكفي في موضوع تشيكوسلوفاكيا ولكن الفرصة الأخرى كانت لا تزال في انتظاره.

وقد تردد كثيرًا السؤال عمن استفاد أكثر من غيره من السنة التي تلت اتفاق ميونيخ في موضوع تدعيم القوة وتأمينها. أحجم الحلفاء وهتلر؟ وقد أحس كثيرون ممن يعتقدون بحاجتنا إلى الحماية الجوية بشعور من الارتياح عندما رأوا تطور قوتنا الجوية من شهر إلى آخر ومصانعنا تكاد تنتج الأنواع الجديدة من طائرات هاريكين ونافثات اللهب. وأخذت أسرابنا الجوية يزداد عددها ومدافعنا المضادة تتضاعف. ولكن هذا التقدم على ما له من أهمية يبدو قليل الأهمية إذا قورن بتسليح ألمانيا، وقد أوضحت فيما سبق أن إنتاج العتاد على نطاق شامل يتطلب أربع سنوات من التخطيط.

ففي السنة الأولى لا يكون ثمة إنتاج على الإطلاق وفي السنة الثانية يكون إنتاج قليل وفي السنة الثالثة إنتاج كثير، أما في السنة الرابعة ففيها فيض من الإنتاج. وكانت ألمانيا الهتلرية قد وصلت إلى السنة الثالثة أو الرابعة من استعدادها الكبير على حالة تشبه تمامًا حالة الحرب. أما بريطانيا فكانت تسير على أساس سلمي مألوف لا أثر فيه للطوارئ. وبحافز أقل ونطاق أضيق. وقد بلغت نفقات بريطانيا الحربية سنة ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩ في مختلف الأنواع نحو ٣٠٤ ملايين من الجنيهات إلى جانب (٢٣٤) مليونًا في العام السابق و٣٦٧ مليونًا للعام الثاني وألف وخمسمائة مليون من الجنيهات لألمانيا. وقد تكون ألمانيا في السنة الأخيرة التي سبقت الحرب أنتجت ضعفين على أقل تقدير أو ثلاثة أضعاف مما لدى بريطانيا وفرنسا من عتاد مجتمعين كما وصلت مصانعها الضخمة التي تنتج الدبابات إلى أقصى مدى إنتاجها. ومن هذا يتبين أن ألمانيا كانت تجد السلاح الذي تريده بسرعة أشد من إنتاجنا.

وقد أدى إخضاع تشيكوسلوفاكيا إلى حرمان الحلفاء من قوة الجيش التشيكي، وهي إحدى وعشرين فرقة نظامية وست عشرة فرقة للخط الثاني تم تعبئتها. وكذلك خطها الدفاعي الحصين الذي يتطلب خرقه أيام ميونيخ ثلاثين فرقة ألمانيا تشل حركتها جميعًا. أو ما يعادل ثلث القوة الرئيسية للجيش الألماني الميكانيكي الكامل التدريب. وقد أدرك الجنرالان يودل

وهولد أن ثلاث عشرة فرقة ألمانية بقيت في الغرب منها خمس فرق عندما وقع اتفاق ميونيخ، ولا شك أن خسارتنا بانهيار تشيكوسلوفاكيا كانت تعادل ضياع خمس وثلاثين فرقة. يضاف إلى ذلك أن مصانع سكودا قد انتقلت بفضل ميونيخ من جانبنا إلى جانب هتلر وهي تعد الثانية في الأهمية بين مصانع أوروبا الوسطى وكان إنتاجها ما بين شهر أغسطس سنة ١٩٣٨ وسبتمبر سنة ١٩٣٩ معادلاً ما أنتجته كل مصانع السلاح البريطاني في هذه الفترة.

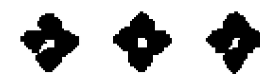
وفي الوقت الذي كانت تعمل فيه ألمانيا تحت ضغوط المجهود الحربي الشديد، كان العمال الفرنسيون قد حققوا منذ سنة ١٩٣٦ ما كانوا يريدون من العمل ستًا وثلاثين ساعة في الأسبوع.

وربما كان أساس الكارثة في التغير الشديد في النسبة بين الجيش الفرنسي والألماني. فمنذ سنة ١٩٣٨ كانت قوة الجيش الألماني في كل شهر تزداد لا في العدد والتشكيلات وتجنيد القوى الاحتياطية، بل في التحسن والكفاية كذلك. وكان السير في التدريب والكفاية العامة يتمشى جنبًا إلى جنب مع العتاد الذي يزداد وينمو على الدوام، ولم يكن ذلك التقدم ليتاح للجيش الفرنسي، وهكذا ظل الجيش الألماني يسابق الجيش الفرنسي في كل ميدان.

وكان في وسع فرنسا وحدها سنة ١٩٣٦ بغير مساعدة حلفائها السابقين أن تغزو ألمانيا وتحتلها دون عناء كبير وبغير معارك جدية، وفي سنة ١٩٣٦ لم يكن هناك شك في تفوقها الكبير على ألمانيا، وقد ظهر لنا الآن بعد انهيار ألمانيا من الأسرار ما يدل على أن التفوق الفرنسي ظل حتى سنة ١٩٣٨. وكان اعتقاد القيادة الألمانية في ضعف جيشها إلى جانبه الجيش الفرنسي هو الذي جعلها تسعى لكبح جماح هتلر ومنعه من تلك الانتصارات التي أحرزها وعظمت بها شهرته حتى رفعته إلى الذروة.

وفي السنة التي تلت ميونيخ وهي موضوع دراستنا الآن أخذ الجيش الألماني على الرغم من ضعفه في موضوع الاحتياطي المدرب يقترب إلى القمة من كفايته. ولما كان هذا الاحتياطي يستند إلى شعب يبلغ مقداره ضعف عدد الشعب الفرنسي، فقد أصبحت المسألة مسألة وقت ليصبح الجيش الألماني متفوقًا على منافسة الجيش الفرنسي من سائر النواحي، على أن الألمان كان لهم التفوق المعنوي أيضًا، لأن تخلي أحد الحلفاء عن الجبهة المتخذة خشية الحرب يبعث الضعف في القوى المعنوية لأي جيش، فضلاً عن الشعور بالحاجة والخضوع وما له من اثر في ضعف معنويات الضباط والجنود.

وكان الجانب الألماني يزداد حماسة كلما رأى النجاح الذي يحالفه والقوة العسكرية التي تنمو وتزداد فتشتد عزيمته وتقوى روحه المعنوية، بينما كان اعتراف فرنسا بضعفها يفت في عضد جنودها على مختلف رتبهم، ويحط من معنوياتهم.



ولكن كان هناك ميدان حيوي واحد بدأنا نلاحق فيه ألمانيا ونحسن مركزنا باطراد. ففي سنة ١٩٣٨ بدأنا نستبدل الطائرات المقاتلة ذوات المحركين من أمثال "الغلاد بيتورز" بأنواع جديدة من طائرات الهاريكين والسبتفاير. وفي سبتمبر سنة ١٩٣٨ لم يكن عندنا إلا خمس أسراب من طائرات هاريكين، وفي أثناء ذلك توقف إنتاج قطع الغيار والاحتياطي من أنواع الطائرات القديمة، بعد أن أصبحت غير صالحة للاستعمال. وكان الألمان قد سبقونا كثيرًا في إنتاج الطائرات المقاتلة الحديثة، وأصبح لديهم عدد كبير من طائرات المسرشميث ١٠٩ التي تقف أمامها طائراتنا القديمة عاجزة عن العمل. وقد تحسن وضعنا سنة ١٩٣٩ إلى حد بعيد بعد أن ألفت أسراب جوية جديدة. وفي يوليه من تلك السنة أصبح لدينا ستة وعشرون سربًا من المقاتلات

الحديثة ذات الثمانية مدافع، مع أن الوقت لم يكن كافيًا لبناء عدد يكفي من الطائرات الاحتياطية وقطع الغيار.

فلما حل شهر يوليه سنة ١٩٤٠ ووقعت معركة بريطانيا كان عندنا سبعة وأربعون سربًا من أحدث المقاتلات.

وكان الألمان كذلك قد وصلوا إلى ما يبغون من التوسع الجوي عددًا وعدة قبل بدء الحرب، وكان مجهودنا متأخرًا عنهم قرابة عامين. ولكنهم لم يحققوا في سنتي ١٩٣٩، ١٩٤٠ إلا زيادة بسيطة تبلغ العشرين في المائة، بينما كانت زيادتنا في الطائرات الحديثة تبلغ ثمانين في المائة. وفي سنة ١٩٣٨ كنا متأخرين عن ألمانيا، وعلى الرغم من أننا قطعنا سنة ١٩٣٩ مرحلة كبيرة في طريق المساواة، إلا أننا كنا أسوأ بكثير من وضعنا سنة ١٩٤٠ عندما جاءت ساعة التجربة.

وكان متوقعًا أن تتعرض مدينة لندن سنة ١٩٣٨ لغارات جوية لم نكن على استعداد لها بصورة مؤلمة. ولكن لم يكن ثمة ما يجعلنا نعتقد أن في الإمكان وقوع معركة حاسمة للسيطرة على بريطانيا قبل أن يتمكن الألمان من احتلال فرنسا والأراضي المنخفضة وتأمين القواعد الجوية، لتكون على المدى الذي يمكنها من إطلاق النار والإغارة على شواطئنا.

ولم يكن في مقدور ألمانيا دون هذه القواعد أن تبعث بطائراتها المقاتلة لتصاحب القاذفات في غاراتها علينا في تلك الأيام، ولم يكن في استطاعة ألمانيا أن تهزم جيش فرنسا في سنتي ١٩٣٨ و ١٩٣٩.

ولم يتح لألمانيا الإنتاج الهائل من الدبابات التي استطاعت بها أن تحطم الجبهة الفرنسية إلا في سنة ١٩٤٠. ومن ثم لم تستطع ألمانيا وأمامها التفوق الفرنسي في الغرب ووراءها بولندا التي لم تخضعها في الشرق، أن تركز كل

قوتها الجوية ضد بريطانيا، كما تم لها ذلك بعد أن أرغمت فرنسا على الإذعان والاستسلام.

ولم يعمل حساب روسيا بالطبع في هذه المقارنة. أو ما يمكن لتشيكوسلوفاكيا أن تقوم به من مقاومة. لذلك فإن سياسة أخذ النفس "التي كثيرًا ما كان يقال أن إنفاق ميونيخ قد أتاحها لنا قد خلفت بريطانيا وفرنسا في وضع أسوأ إذا ما قورن بوضع ألمانيا الهتلرية عند وقوع أزمة ميونيخ".

وأخيرًا فهناك حقيقة أخرى تدعو إلى الدهشة، فقد استطاع هتلر في سنة واحدة وهي ١٩٣٨ أن يضم إلى الرايخ وتحت سيطرته المباشرة ستة ملايين وسبعمائة وخمسين ألف نمساوي وثلاثة ملايين وخمسمائة ألف سوديتي أي عشرة ملايين من الرعايا العمال والجنود، ولا شك أن هذه الحقيقة قد قلبت الميزان إلى صالحه إلى حد كبير.

براغ ـ ألبانيا ـ وضمانة بولندا

ما كاد ينتهي شعور الارتياح الذي تمتع به المستر تشمبرلين وحكومته بعد اتفاق ميونيخ حتى ظهرت مشلك حادة جديدة.

كان رئيس الوزراء قد أعلن رأيه "بأن السلام سيدوم هذا الجيل" لكن أكثر زملائه من أعضاء الحكومة رأوا الإفادة في هذه الفترة للتعجيل بالتسليح. وهنا وقع خلاف في صفوف الحكومة. فقد دعا الفزع الذي أثارته أزمة ميونيخ، وما تبعه من كشف مواضع الضعف في أوضاعنا إلى العمل على التسلح السريع. وقد قوبل هذا بالنقد الشديد من جانب الحكومة الألمانية وصحافتها الموجهة. وعلى الرغم من دوافع السرور التي عمت البلاد لتفادي الحرب بفضل رئيس الوزراء، فإن الشعور بالحاجة إلى السلاح كان شديدًا وقد أخذت وزارات القوات المسلحة تتقدم بمطالبها معلنة عن مظاهر النقص المفزعة التي كشف الأزمة عنها. وقد توصل مجلس الوزراء إلى حل وسط

مقبول لاتخاذ كل ما يمكن من استعداد دون تعريض تجارة البلاد للخطر وبغير استفزاز للألمان والإيطاليين.

وكان المستر تشمبرلين لا يزال يعتقد أن في استطاعته أن يحدث تحسنًا بارزًا في الوضع عن طريق اتصاله بالديكتاتورين، ولم يكن في حسابه أنهما قد حزمًا أمرهما. وقد اقترح أن يقوم هو ولورد هاليفاكس بزراية إيطاليا في أوائل شهر يناير. وقد وصلته الدعوة بعد تريث وتردد من موسوليني فسافر هو ووزيره في الحادي عشر من يناير سنة ١٩٣٩، حيث تم الاجتماع وأن الإنسان ليحمر وجهه خجلاً عندما يقرأ في مذكرات تشيانو ما كان يقال في إيطاليا من خلف الستار عن بلادنا وممثليها، فقد كتب تشيانو يقول: كننا ننظر إلى الزيارة على أنها مسألة ثانوية، ولذا لم تجر أية اتصالات إيجابية، ما أبعدنا عن هؤلاء الناس أننا في عالمين مختلفين. وقد تحدثنا إلى الدوتش في ذلك فقال: إن هؤلاء الناس ليسوا من الطينة التي أنبتت فرنسيس دريك وغيره من المغامرين البارزين الذين أقاموا الإمبراطورية، وإنما هم الذرية المنحطة لسلسلة من الأثرياء المترفين "ومضى شيانو في يومياته يسجل" أن البريطانيين لا يريدون أن يحاربوا. ويحاولون أن يتراجعوا بخطى وئيدة. ولكنهم لا يريدون القتال. وقد انتهت محادثاتنا مع البريطانيين دون أن تصل إلى تحقيق شيء، وقد تحادثت تليفونيًا إلى ريبنتروب لأقول له أن المحادثات كانت فاشلة ولكنها لا خير منها" ويعود تشيانو ويكتب بعد أسبوعين "قدم السفير البريطاني الخطوط العريضة للخطاب الذي سيلقيه المستر تشمبرلين في مجلس العموم للموافقة عليه، وإبداء ما يريد من مقترحات أو تبديلات بشأنه. وقد وافق الدوتشي على الخطاب، وعلق عليه قائلاً: هذه أول مرة يقدم فيها رئيس حكومة بريطانية مسودة خطابه إلى حكومة أخرى وهذه ظاهرة لا تبشر بخير لهم، ولكن تشيانو وموسوليني هما اللذان ذهبا إلى مصيرهما المحتوم. وفي خلال ذلك أي في شهر يناير ١٩٣٩ كان ريبنتروب قد سافر إلى وارسو ليواصل هجومه الدبلوماسي على بولندا. فضم تشيكوسلوفاكيا يجب أن يتبعه الإحاطة ببولندا. وكانت

المرحلة الأولى ترمي إلى عزل بولندا عن البحر بتثبيت سيادة ألمانيا على دانزج والتوسع في إشراف ألمانيا على سواحل البلطيق حتى ميناء ميمل الليتواني. وقد أبدت الحكومة البولندية مقاومة شديدة لهذا الضغط. وكان هتلر في أثناء ذلك يرقب تطور الأمور وينتظر حلول الفصل الصالح للحملات العسكرية.

وانتشرت الأخبار في الأسبوع الثاني من شهر مارس عن تحركات عسكرية واسعة النطاق تقوم بها الجيوش الألمانية في ألمانيا والنمسا لا سيما في منطقة ففينا - سالزبرج. وقيل أن أربعين فرقة ألمانية قد احتشدت وأصبحت متأهبة للمعركة. وكان السلوفاكيون بعد أن تأكدوا من مساعدة ألمانيا يضعون الخطط لفصل بلادهم عن الجمهورية التشيكوسلوفاكية، وقد شعر الكولونيل بيك وزير خارجية بولندا بالارتياح حين رأى الرياح التيوتونية تهب في اتجاه آخر. فأعلن في وارسو أن حكومته تعطف كل العطف على آمال السلوفاكيين واستقبل هتلر في برلين الأب تيسو الزعمي السلوفاكي بالمظاهر التي اعتاد أن يقابل بها رؤساء الوزارات. وعندما سئل المستر تشمبرلين في الثاني من شهر مارس عن الضمانة المعطاة لتشيكوسلوفاكيا وحدودها ذكر المجلس بأن هذه الضمانة مقرونة بشرط العدوان الذي لم يستفز ولم يكن وقع عدوان بعد ولكنه وقع بد وقت قصير.

وانتشرت موجة من التفاؤل المضلل في سائر أنحاء بريطانيا في شهر مارس سنة ١٩٣٩. وعلى الرغم مما كانت تعانيه تشيكوسلوفاكيا من الضغط الألماني الشديد خارج البلاد وداخلها. فإن الصحف البريطانية التي دبرت اتفاق ميونيخ لم تكن قد فقدت ثقتها بالسياسة التي جرت إليها البلاد، وقد ألقى وزير الخارجية في العاشر من شهر مارس خطابًا في دائرته الانتخابية عن أمله في مشروع خمس سنوات لأجل السلم يؤدي في النهاية إلى خلق العصر الذهبي. وكان يجري البحث في ذلك الوقت لعقد معاهدة تجارية مع ألمانيا.

ونشرت صحيفة "بنش" الأسبوعية المشهورة رسمًا كاريكاتوريًا يصور جون بول، وقد أفاق من كابوس مرعب وقد تبددت الشائعات والشكوك والأوهام وطارت من النافذة.

وفي نفس اليوم الذي نشرت فيه هذه الصورة. وجه هتلر إنذاره النهائي إلى الحكومة التشيكوسلوفاكية الهزيلة التي أفقدتها قرارات ميونيخ خطوطها الدفاعية المحصنة. وزحفت الجيوش الألمانية إلى براج وسيطرت على الدولة التي لم تقاوم. وأذكر أنني كنت أجلس في حجرة التدخين مع المستر إيدن عندما أصدرت الصحف المسائية ملاحقها لتسجل هذه الحوادث. وقد كان هذا العدوان السافر بما فيه من عنف ومفاجأة موضع دهشة لدى الجميع، حتى نحن الذين لا نجري وباء الخيال. والذين كنا ننتظر هذه التطورات، ولم يكن يخطر ببال أي إنسان أن حكومة جلالة الملك بكل ما لديها من أجهزة المخابرات ستفاجأ بهذا العمل. وقد شهد اليوم الرابع عشر من شهر مارس انحلال الجمهورية التشيكوسلوفاكية وعبوديتها، وسرعان ما أعلن السلوفاكيون استقلالهم. واجتازت القوات المجرية تشد أزرها بولندا بصورة سرية الحدود إلى المناطق الشرقية من تشيكوسلوفاكيا أو ما يسمى بالكرابات - الأوكرانية التي كانت المجر تطالب بها. ووصل هتلر إلى براج يعلن فرض حماية ألمانيا على تشيكوسلوفاكيا التي ضمت إلى الرايخ. وقد وجد المستر تشمبرلين نفسه مضطرًا إلى التحدث في مجلس العموم في الخامس عشر من شهر مارس فقال: "في الساعة السادسة من صباح هذا اليوم بدأ احتلال القوات العسكرية الألمانية لبوهيميا، وقد أصدرت الحكومة التشيكية أوامرها إلى شعبها بعدم المقاومة. ومضى يوضح للمجلس أن الضمان الذي كان قد قدمه إلى تشيكوسلوفاكيا لم يعد صالحًا، فقد تغير الوضع تمامًا منذ أعلن مجلس الدايت السلوفاكي استقلال سلوفاكيا، وأنهى هذا الإعلان ما اعتزمناه من ضمانة حدودها. لهذا فإن حكومة جلالته لا تجد نفسها بعد ذلك مرتبطة بهذا الالتزام".

وقال في ختام خطابه الحاسم: "ومن الطبيعي أن أجد نفسي آسفًا لما حدث، ولكن هذا الأسف لا يصح أن يحولنا عن طريقنا وعلينا أن نذكر أن العالم أجمع يرغب في السلام".

وكان مقررًا أن يلقى المستر تشمبرلين خطابًا آخر بعد يومين في برمنجهام. وكنت أنتظر منه أن يقبل ما حدث بكثير من التسامح فقد كان يظن أنه قادر على تفهم طبيعة هتلر كل الفهم، وخيل إليه أنه يستطيع بشيء من الدهاء أن يقيس المدى الذي يذهب إليه هتلر، وقد اعتقد أن اجتماع ميونيخ كان لقاء للعقول، وأنه هو وهتلر وموسوليني قد استطاعوا إنقاذ العالم من ويلات الحرب، وواضح أن هذا الاعتقاد وما نشأ عنه من أعمال وأقوال قد تبدد فجأة وكأنه لم يكن. فتبين له أنه خدع نفسه وفرض أخطاءه على زملائه الخاضعين وعلى الرأي العام البريطاني المسكين، وسرعان ما انقلب على ماضيه وتنكر له. وإذا كان تشمبرلين قد أخطأ فهم هتلر، فإن هتلر قد ضعف تقديره لضيفه رئيس الوزراء، فقد أخطأ في مظهره المسالم ورغبته الشديدة في السلام. وعدهما جزءًا بارزًا من شخصيته. وقد جعل من مظلته رمزًا لهذه الشخصية. ولم يخطر لهتلر أن لينفل تشمبرلين إلى جانب هذا طبيعة صلبة قاسية وأنه يمقت من يخدعه.

وقد جاء خطاب برمنجهام يعزف على نغمة جديدة. فوجه اللوم الشديد إلى هتلر واتهمه بالتنكر لوعوده وعهوده التي قطعها في اتفاق ميونيخ. وعدد التأكيدات التي صدرت عن هتلر مثل قوله "هذا آخر مطلب إقليمي لي في أوروبا" أو قوله "لم يعد يعنيني شأن الدولة التشيكوسلوفاكية وأستطيع أن أضمن حدودها. إننا لا نريد في بلادنا تشيكيين" ومضى رئيس الوزراء يقول: "وإني على اقتناع بأن الغالبية العظمى من الشعب البريطاني بعد ميونيخ كانت تشترك معي في الرغبة الصادقة في السير بهذه السياسة نحو الأمام. أما اليوم فأنا أشارك الشعب خيبة أمله وحنقه لتدهور هذه الآمال، فكيف نستطيع أن نوفق بين أحداث هذا الأسبوع وبين التأكيدات التي تلوتها عليكم! ولا أدري

أهذا آخر هجوم على دولة صغيرة أم أن هجمات أخرى ستتبعه؟ وهل هذا الهجوم خطوة لفرض السيطرة على العالم بالقوة"؟

وليس من اليسير علينا أن نتصور من التناقض ما هو أشد من هذا الذي يبدو بين خطاب اليوم وبين موقف رئيس الوزراء وسياسته في الخطاب الذي ألقاه قبل يومين في مجلس العموم. ولا شك أنه في هذين اليومين قد اجتاز فترة من الإجهاد العصبي العنيف. ولم يقف التغير الذي طرأ على تشمبرلين عند حدود الكلمات. وكانت الدولة الصغيرة التالية في حساب هتلر هي بولندا، ولم يضع المستر تشمبرلين وقته سدى في استشارة من يجب عليه استشارتهم، وفي الحادي والثلاثين من شهر مارس أعلن في البرلمان ما يلي:

"إذا وقع أي حادث يهدد استقلال بولندا ويضطرها إلى مقاومته بقواتها الوطنية، فإن حكومة جلالته تجد نفسها مضطرة إلى أن تقدم - في الحال - إلى الحكومة البولندية كل مساعدة تستطيعها. وقد أرسلت حكومة جلالته مثل هذا التأكيد إلى حكومة بولندا".

"وأريد أن أضيف أن الحكومة الفرنسية صرحت لي بأن أوضح أنها تقف نفس الموقف الذي تقفه من هذه المسألة، وقد أعلنت هذا القرار إلى سائر حكومات الدومنيون.

ولم يعد الوقت صالحًا لتبادل التهم فيما يتعلق بالماضي، فقد أيد زعماء الأحزاب جميعها في المجلس الضمان الذي قدمته الحكومة إلى بولندا.

وعلقت أنا بقولي "بعون الله لن يكون ثمة بد من أن نعمل هذا" فقد كان هذا العمل أمرًا لا مفر منه بالنسبة إلى النقطة التي وصلنا إليها. ولكن كل من كان يدرك الموقف لم يكن يشك في أن هذا الضمان يعني حربًا عالمية على كافة الاحتمالات.

وهكذا وصلنا إلى الغاية القصوى في أمر هذه الأحكام الخاطئة التي وقع فيها أناس أكفاء حسنو النية، ولا شك أن وقوعنا في هذا المأزق يجعل المسئولين عنه مهما خلصت نيتهم ملومين أمام التاريخ، ولنعد إلى الخلف لنرى ما قبلناه وما تركناه.

كانت ألمانيا منزوعة السلاح بحكم معاهدة قوية حاسمة. ثم سلحت نفسها متحدية هذه المعاهدة. ثم تخلينا عن تفوقنا الجوي وحتى عن تعادلنا معها. ثم احتلال منطقة الراين بالقوة وإقامة تحصينات سيجفريد، ثم إقامة محور روما - برلين وابتلاع النمسا والتخلي عن تشيكوسلوفاكيا وتحطيمها في اتفاق ميونيخ بوقوع خط دفاعها المحصن في أيدي الألمان وانتقال مصانع سلاحها العظيمة في شكودا إلى الجانب الألماني لتقوم بصنع الذخائر للجيش. وتجاهل المحاولة التي قام بها الرئيس روزفلت لإيجاد الاستقرار في أوروبا أو العمل على إيجاده عن طريق تدخل الولايات المتحدة. وإهمال الرغبة الصادقة للاتحاد السوفييتي للاشتراك مع الدول الغربية والمضي إلى أبعد الحدود لإنقاذ تشيكوسلوفاكيا. وإضاعة خمس وثلاثين فرقة تشيكوسلوفاكية كان من الممكن استخدامها ضد الجيش الألماني الذي لم يستوف نضجه وإعداده. في حين لم يكن في استطاعة بريطانيا العظمى نفسها أن تقدم إلى فرنسا أكثر من فرقتين لتقوية جبهتها، وكل هذه أمور ذهبت مع الرياح.

والآن بعد أن ذهبت هذه المزايا وتبددت تقبل بريطانيا وتتقدم الصفوف وتقود فرنسا من يدها لتقدما معًا الضمان الواجب لحماية حدود بولندا. وهي الدولة نفسها التي كانت لها شهوة الضبع، واشتركت قبل ستة أشهر فقط في تدمير الدولة التشيكوسلوفاكية سنة ١٩٣٨، ولم يكن في وسع الجيش الألماني أن يحشد أكثر من ست فرق مدربة على الجدار الغربي، بينما كان في استطاعة فرنسا أن تحشد ستين أو سبعين فرقة تزحف بها على الراين أو الرور على الأقل. ولكن مثل هذا العمل اعتبر في ذلك الوقت تهورًا وتسرعًا وبعيدًا عن المنطق والتعقل. ونزولاً عن المستوى من ناحيتي الفكر والأخلاق.

ولكن الدولتين الديمقراطيتين جاءتا تعلنان الآن استعدادهما للتضحية دفاعًا عن سيادة بولندا الإقليمية.

ولو بحثنا في بطون التاريخ عن حادث مماثل لهذا التغيير الفجائي لسياسة ظلت تعمل خمس سنوات أو ست للتهدئة المستكينة الخاضعة، ثم تحولت بين يوم وليلة إلى سياسة تقبل الحرب الواضحة التي لا محالة منها، وفي ظروف أسوأ وأشمل، لما وجدنا مثيلاً لهذه السياسة على الإطلاق.

وثمة شيء آخر، إذ كيف نستطيع أن نحمي بولندا. وأن نفي بتعهداتنا. لا سبيل لنا إلى ذلك إلا بإعلان الحرب على ألمانيا ومهاجمة جدار غربي أصبح أقوى مما كان عند تراجعنا في سبتمبر سنة ١٩٣٨ ويدافع عنه جيش ألماني أشد قوة وصلابة أن هناك قائمة كبيرة من حوادث الاستسلام، حين كان كل شيء هينًا وسهلاً. بنمو قوة ألمانيا وتضخمها.

أما الآن فقد جاء دور الانتهاء من سياسة الخنوع التي اتبعها البريطانيون والفرنسيون. واتخذ القرار الواجب ولكن في أسوأ الظروف، وعلى أسس أقل من التي سبقتها وتؤدي ولا شك إلى ذبح عشرات الملايين من الأنفس، وهكذا نرى أن القضية الحقة العادلة قد برزت أخيرًا في معركة مهلكة عن عزم وتصميم سابقين، وبعد تزويق من الفن المقلوب، وبعد أن فقدت هذه القضية الكثير من مزاياها بسبب التفريط وسوء التصرف.

فإذا تخلفت عن القتال في سبيل الحق وكل وسائل النصر في يديك. وكان فوزك مؤكدًا قليل التكاليف. فقد تجد نفسك مرغمًا على القتال وسائر القوى المضادة تتألب عليك، ولا تجد أمامك إلا أملاً ضعيفًا في البقاء.

وما زال هناك وضع أسوأ فقد ترغم على القتال وليس لك أمل في النصر. فمن الخير للإنسان أن يموت كريمًا ولا يعيش عبدًا ذليلاً.

وكان البولنديون قد كسبوا مقاطعة تيش بعد موقفهم المخزي من تصفية الدولة التشيكوسلوفاكية. ولكن ما أسرع أن وجدوا أنفسهم في موقف يحتم عليهم أن يدفعوا العزم، فلما استقبل ريبنتروب في الحادي والعشرين من شهر مارس سفير بولندا في برلين. كانت لهجته أكثر حدة من المرات السابقة فقد أدى احتلال بوهيميا وخلق دولة سلوفاكيا التابعة لألمانيا إلى وصول الجيش الألماني إلى حدود بولندا الجنوبية، وقد أوضح السفير أن رجل الشارع البولوني لا يستطيع أن يدرك لماذا أخذ الرايخ على نفسه أمر حماية سلوفاكيا تلك الحماية التي لا تحمل أي معنى عدائي ضد بولندا.

وطلب السفير معلومات عن المحادثات الأخيرة التي دارت بين ريبنتروب وبين وزير خارجية ليتوانيا. وهل تتناول ميناء ميمل، وقد تلقى الرد على سؤاله بعد يومين أي في الثالث والعشرين من شهر مارس حين احتلت القوات الألمانية ميناء ميمل ولم تتبق هناك وسيلة لوقف العدوان الألماني في أوربا الشرقية فالمجر إلى جانب ألمانيا. وكانت بولندا قد وقفت بمنأى عن تشيكوسلوفاكيا ولم تكن على استعداد للتعاون مع رومانيا. ولم تكن بولندا أو رومانيا ترضيان لروسيا بالتدخل ضد ألمانيا عن طريق أراضيهما. وكان مفتاح التحالف هو الوصول إلى تفاهم مع روسيا، واقترحت الحكومة الروسية في التاسع عشر من مارس تحت عوامل التأثر بما دار ويدور - على الرغم من بقائها بعيدة عن اجتماع ميونيخ - أن يعقد مؤتمر جديد للدول الست. وكانت للمستر تشمبرلين آراؤه الخاصة المقررة في هذا الشأن، فقد ذكر في رسالة شخصية أنه "يعترف في أعماق نفسه بعدم الثقة بروسيا" ومضى يقول "وإني لا أعتقد مطلقاً بأنها تستطيع القيام بهجوم فعال حتى لو أرادت ذلك، فضلاً عن أنني لا أثق بدوافعها. ويظهر لي أنها لا تمت بقليل أو كثير بأفكارنا عن الحرية. وكل ما يستهويها هو أن تمسك بالآخرين من آذانهم. وهي فوق هذا مكروهة من معظم الدول الصغرى، وفي مقدمتها بولندا ورومانيا وفنلندا".

وعلى هذا فقد استقبل الاقتراح السوفياتي الذي يدعو إلى عقد مؤتمر سداسي بفتور أدى إلى فشله.

وأخذت تختفي آمال الدوائر البريطانية الرسمية في احتمال إخراج إيطاليا من المحور. تلك الآمال التي كانت بريطانيا تضعها في حسبانها. وألقى موسوليني في السادس والعشرين من شهر مارس خطابًا شديدًا أكد فيه مطالب إيطاليا من فرنسا في البحر الأبيض المتوسط وفي فجر السابع من شهر إبريل سنة ١٩٣٩ نزلت القوات الإيطالية في ألبانيا وقد سيطرت على سائر البلاد بعد اشتباكات قصيرة. وكما كانت تشيكوسلوفاكيا نقطة ارتكاز للعدوان على بولندا، فقد رؤي أن تكون ألبانيا نقطة لاعتداءات مقبلة على اليونان، وشل يوغوسلافيا ومنعها من الحركة. وكانت بريطانيا قد التزمت بضمان السلام في الشمال الشرقي من أوروبا، فما عسى أن يكون موقفها من الخطر الجديد من الجنوب الشرقي؟ لقد سمح للأسطول البريطاني الذي كان يستطيع أن يقف الإيطاليين عند حدهم في البحر الأبيض المتوسط بالانصراف وبدأت باخرة السلام تتعرض للثقوب من كل ناحية.

وفي الخامس عشر من إبريل. وبعد إعلان الحماية الألمانية على بوهيميا ومورافيا اجتمع جورنج بموسوليني وتشيانو في روما ليشرح لهما التقدم الذي وصلت إليه استعدادات ألمانيا في طريق الحرب.

وفي نفس اليوم بعث الرئيس روزفلت برسالتين شخصيتين إلى هتلر وموسوليني حثهما فيهما على أن يتعهدا بعدم القيام بأي عدوان جديد لمدة عشر سنوات "أو خمس وعشرين سنة إذا كنا نريد أن نتطلع للأمام" وقد رفض موسوليني في البداية أن يطلع على الرسالة، وقد علق عليها بعد الاطلاع "أنها ثمرة شلل الأطفال" ولم يدر بخلده أنه سيساق فيما بعد إلى آلام أشد من شلل الأطفال.

واتخذ رئيس الوزراء في السابع والعشرين من شهر إبريل الخطوة الحاسمة بتقرير الخدمة العسكرية الإلزامية. على الرغم من تأكيداته سابقًا بأنه لا يتخذ مثل هذا الإجراء. ويرجع الفضل في هذه اليقظة المتأخرة إلى المستر هوربليشا وزير الحربية. وقد قامر كما يبدو بحياته السياسية في هذا الشأن، إذ كانت المقابلات العديدة التي تمت بينه وبين رئيسه في هذا الشأن متسمة بالصراحة والعنف. وقد رأيته كثيرًا في خلال هذه الفترة وكان دائم الاعتقاد بأن اليوم الذي كنت أراه فيه هو آخر أيامه في الوزارة.

ولم يكن إدخال التجنيد الإجباري في جيشنا ليؤدي إلى تأمين جيش لنا. فقد طبق هذا القانون على الشبان الذين يبلغون سن العشرين. وكان عليهم أن يجتازوا فترة من التدريب وكان على الحكومة بعد ذلك أن توفر لهم السلاح اللازم. ولكن هذه الإيماءة الرمزية كانت لها الأهمية الكبرى بالنسبة لفرنسا وبولندا وغيرهما من الدول التي أغرقناها بضماناتنا ووعودنا. وقد توانت المعارضة في المناقشة العامة التي دارت في مجلس العموم عن أداء الواجب. وتخوف حزبا العمال والأحرار من مواجهة الكراهية العميقة الشديدة في إنجلترا للخدمة العسكرية الإجبارية.

ووجد زعماؤهما المبررات اللازمة لمعارضة هذه الخطوة. ولا شك أن هؤلاء الزعماء قد ساورهم الألم لاضطراهم إلى الوقوف هذا الموقف الذي أملته عليهم الأهواء الحزبية ولكنهم اتخذوه على كل حال ووجدوا المبررات الحزبية التي تمليه. فلما أجرى الاقتراع في المجلس وجد الانقسام على أسس حزبية وتمكن المحافظون من تأييد سياستهم بأغلبية ٣٨٠ صوتًا إلى ١٤٣، وقد بذلت كل ما أستطيع من محاولات في الخطاب الذي ألقيته لإقناع المعارضة بتأييد هذا الإجراء الذي لا مفر منه، ولكن محاولاتي كلها ذهبت سدى وقد أدركت حرج موقفهم "لا سيما وهم يواجهون حكومة يعارضونها كل المعارضة" ورأيت من واجبي تسجيل هذا الحادث لأنه يحرم أنصار الأحرار والعمل كل حق في لوم الحكومة إذ ذاك، فقد كانوا يقيسون آراءهم بالنسبة

للحوادث بسذاجة وبساطة، ولكن سرعان ما وجدوا أنفسهم في حال تحتم عليهم أن يقيسوا الأمور بمقياس صادق جديد.

واشتركت في مارس مع المستر إيدن ونحو من ثلاثين نائبًا محافظًا في تقديم مشروع قرار إلى المجلس يدعو إلى تأليف حكومة قومية.

وظهرت حركة قومية طوال الصيف تدعو إلى تأييد هذه الفكرة أو إلى إدخالنا أنا والمستر إيدن في الوزارة. وأحس السير ستافورد كريبس في موقفه المستقل عن الأحزاب بالقلق الشديد للأخطار التي تهدد الوطن.

وقد زارني وزار عددًا من الوزراء ليدعو إلى تأليف حكومة "تضم الجميع" ولم أكن أستطيع أن أتحمل شيئًا ولكن المستر ستانلي وزير التجارة. تحمس للفكرة كل التحمس. وكتب إلى رئيس الوزراء يعرض منصبه الوزاري. إذا كان يأمل إعادة تأليف الحكومة على أسس جديدة واكتفى المستر تشمبرلين بإشعاره بتسلم الكتاب بصفة رسمية.

وأخذت سائر الصحف تقريبًا مع مرور الأيام وفي مقدمتها الديلي تلغراف والمانشستر جارديان تنشر هذا الرأي وتطالب به بإلحاح. وقد أدهشني ما رأيته فيها من تكرار يومي للحملة وبدت ألوف اللافتات في أماكن مختلفة من العاصمة تحمل شعار "تشرشل يجب أن يعود" وكل عشرات المتطوعين من الشباب والفتيات يحملون شعارات مماثلة يدورون بها جيئة وذهابًا أمام مجلس العموم. ولم يكن لي شأن بهذه الطرق. ولكن لو طلب مني في ذلك الوقت أن أشترك في الحكم ما ترددت. ويظهر أن حظي الطيب قد أراد أن يكون حليفي في هذه الفترة أيضًا. وظلت الأمور تسير إلى نتائجها الطبيعية والمنطقية المعروفة.

على أبواب الحرب

وصلت العلاقات بين بريطانيا وألمانيا إلى حد يهدد بانقطاعها. ونحن نعرف أن العلاقات بين البلدين لم تكن صادقة منذ تولي هتلر الحكم. وغاية

الأمر أنه حاول أن يلزم بريطانيا بالإقناع أو الإرهاب على أن تطلق يده في أوروبا الشرقية. في حين حاول تشمبرلين تهدئته وإصلاحه والرجوع به إلى النهج السليم. ولكن الوقت قد حان أخيرًا لتعود الحكومة البريطانية إلى نفسها وتصد عن كل أمل لها في هذا الشأن.

وقد اقتنع مجلس الوزراء أخيرًا بأن ألمانيا النازية جادة في سبيل الحرب. فبادر رئيس الوزراء بالضمانات وعقد الأحلاف يلقيها حيث شاء دون دراسة صحيحة للعون الذي نستطيع أن نقدمه لتلك البلاد، فضلاً عن الضمان الذي قدمه لبولندا وجدناه يعطي ضمانًا مماثلاً على اليونان ورومانيا ويعقد حلفًا مع تركيا.

ولنعد بذاكرتنا إلى تلك القصاصة التي دفع المستر تشمبرلين هتلر إلى توقيعها في ميونيخ. والتي عاد يلوح بها للجماهير المحتشدة من الشعب. بعد مغادرة الطائرة التي في مطار هيستون. وكان اعتماده في هذه الورقة على الارتباطين القائمين بينه وبين هتلر وبين بريطانيا وألمانيا وهما اتفاق ميونيخ والمعاهدة البحرية بين بريطانيا وألمانيا. وقد قضى على الارتباط الأول إخضاع هتلر تشيكوسلوفاكيا، أما الثاني فقد تخلص منه في الثامن والعشرين من شهر إبريل. ثم أعلن إلغاء ميثاق عدم الاعتداء الموقع بين ألبانيا وبولندا. متخذًا ضمان بريطانيا لها سببًا لهذا الإلغاء.

وقد أصبح حتمًا على الحكومة البريطانية أن تعجل بدراسة الوسائل العملية لتنفيذ ضماناتها لبولندا ورومانيا. ولم يكن لهاتين الضمانتين قيمة من الناحية العسكرية إلا إذا دخلتا في دائرة اتفاق عام يعقد مع روسيا. ولتحقيق هذه الغاية تقرر أن تبدأ المحادثات في موسكو في الخامس عشر من إبريل بين السفير البريطاني والمسيو لتفينوف.

وإذا نظرنا بعين الاعتبار إلى الطريقة التي اتخذت مع الحكومة السوفياتية في الماضي، اتضح لنا أنه لم يكن ينتظر منها الآن الشيء الكثير،

ومع ذلك فقد عرض الروس بصفة رسمية في السادس عشر من إبريل مشروعًا لم تنشر نصوصه، لإيجاد جبهة متحدة للتعاون المشترك تضم بريطانيا العظمى والاتحاد السوفياتي وفرنسا، على أن تقوم هذه الدول الثلاث وبولندا معها - إذا أمكن - تقديم الضمانات اللازمة لأوروبا الشرقية والوسطى المهددة بخطر العدوان الألماني.

وكانت العقبة في طريق هذا الاتفاق هي خشية هذه الدول نفسها من تلقي العون الروسي في جيوش سوفياتية تزحف نحو أراضيها للدفاع عنها ضد الألمان، ومن ثم تضمها إلى النظام الشيوعي السوفياتي، الذي كانت هذه الدول في المقدمة من معارضيه، ولم تكن بولندا ورومانيا وفنلندا ودول البلطيق تدري أي الناحيتين تتقي: العدوان الألماني أم العون الروسي. ولعل هذا الموقف المخيف للخيار بين الناحيتين هو الذي شل حركة السياسة البريطانية والفرنسية وأقعدها.

ولا ريب - على ضوء ما حدث فيما بعد - أن الأمر كان يحتم على بريطانيا وفرنسا أن تقبلا العرض الروسي، وأن تعلنا تأليف التحالف الثلاثي، وتجعلا طريقة التطبيق في حالة نشوب الحرب. محتملة التعديل بين الحلفاء المتضامنين في الحرب ضد العدو المشترك.

ففي ظروف الحرب تتحكم ظروف وعوامل مختلفة كل الاختلاف، فيميل المتحالفون إلى التساهل فيما يعن لبعضهم من رغبات حتى لا يسيطر على الجبهة إلا صوت المعركة. ويقبل الكل أمورًا كانوا يكرهونها وقت السلم. ولم يكن من السهل في حلف كبير كهذا الحلف الذي كان متوقعًا أن يدخل أي حليف أراضي حليف آخر إذا لم يدع إلى ذلك.

لكن المستر تشمبرلين ووزارة خارجيته وقفا حائرين إزاء هذه المعضلة، التي تشبه لغز أبي الهول، وكان من الحكمة والأحداث تتتابع سراعًا على هذا النحو، أن تتخذ الخطوات واحدة إثر أخرى.

فلو تم إعلان التحالف بين بريطانيا وفرنسا وروسيا في سنة ١٩٣٩ لألقى هذا العمل الفزع في قلوب الألمان. ولكان من المستطاع تجنب الحرب. وكان في مقدور الحلفاء بعد أن يصلوا إلى القوة المتفوقة أن يخطوا الخطوة التالية. حيث يكون موقفهم قد أتاح لهم فرصة المبادرة. وكان على هتلر أن يواجه مشكلة معقدة، فهو لا يستطيع أن يحارب في جبهتين، وقد حمل في كتابه "كفاحي" في شدة وعنف على هذه الناحية. ولا يستطيع من الناحية الأخرى أن يحتمل أثر الكبح وما له من نتائج، وقد أضعنا مع الأسف فرصة وضعه في هذا المأزق الذي كان من المحتمل أن يكلفه غاليًا وربما كلفه حياته.

ليس كل ما يرجى من رجال الدولة أن يبتوا في بسائط الأمور فحسب، لكن فرصتهم الحقة وكفايتهم تبدو في قراراتهم العظيمة التي يقدر لها أن تنقذ العالم حين يكون الميزان متأرجحًا وتكون الأمور المتعادلة مختفية وراء الحجب. ولما كنا قد وصلنا أنفسنا إلى تلك الحال الرهيبة التي وصلنا إليها سنة ١٩٣٩ فقد تحتم علينا أن ننتهز الفرص العظيمة. ولو أجاب المستر تشمبرلين عندما تلقى العوض الروسي وقال: "نعم لنتفق نحن الثلاثة على تحطيم هتلر" أو قال كلمة أخرى من هذا القبيل فإن البرلمان كان سيؤيده في سياسته ولا شك. وكان ستالين سيدرك الغرض المقصود ويسير التاريخ في طريق مخالف لما حدث. ولن تكون النتيجة أسوأ مما وقع.

ومع ذلك طال الصمت. وظلت تعد أنصاف الحلول والتسويات البطيئة. وكانت هذه المماطلات ضربة قاضية للتيفينوف. فقد أدرك أن محاولاته الأخيرة للوصول مع الحلفاء الغربيين إلى قرار حاسم قد فشلت كل الفشل. وتدهورت الثقة بنا عند الروس، الذين بدءوا يحسون بحاجتهم إلى سياسة مخالفة كل المخالفة لتأمين سلامة روسيا.

وصدر في الثالث من شهر مايو بيان رمسي من موسكو بإقصاء لتفينوف عن وزارة الخارجية بناء على طلبه وتولى رئيس الوزراء مولوتوف أعمال الوزارة

بدلاً منه. وهكذا أقصى عن العمل اليهودي البارز الذي كان هدفًا لعداء ألمانيا. وقد ألقى به من مسرح السياسة العالمية إلى زوايا النسيان والرقابة البوليسية. ولم يسمح له بكلمة واحدة يبرر بها موقفه. وقد أصبح مولوتوف الذي لم يكن معروفًا خارج روسيا قوميسارا للشئون الخارجية يعمل بالتعاون الوثيق مع ستالين. وكان هذا متحررًا من سائر القيود التي تمليها البيانات السابقة، وكذلك من محيط عصبة الأمم. وكان في مقدوره أن يتحرك في أي اتجاه يرى فيه سلامة روسيا. ولم يكن أمامه إلا طريق واحد يتجه إليه. إذ كان دائمًا من المؤيدين للوصول إلى تسوية مع هتلر، وقد اقتنعت الحكومة السوفياتية باتفاق ميونيخ وغيره بأن بريطانيا وفرنسا لم تكونا على استعداد لخوض المعركة إلا إذا هوجمتا. مما لا يجعل لحربهما قيمة ما فالعاصمة على وشك الهبوب وعلى روسيا أن تعنى بحالتها الخاصة.

ولا شك أن هذا التحول الشديد غير الطبيعي للسياسة الروسية لا تستطيع أن تقوم به غير الدول الجماعية. ولم يكن قد مضى غير عامين على ذبح قادة الجيش الروسي وآلاف من ضباطه لقبولهم تلك الاتجاهات التي أصبحت الآن مقبولة لدى فئة من القلقين من سادة الكريملين. كانت الميول المؤيدة لألمانيا كفرًا وخيانة. لكنها الآن سرعان ما أصبحت سياسة الدولة، وقد أصبح الويل والشقاء لمن يجرءون على معارضة تلك السياسة أو الذين لا يسرعون إلى تقبل هذا التغير. ولم يكن هناك من هو أجدر من القوميسار الجديد للشئون الخارجية ولا أكفأ منه للقيام بهذه المهمة الجديدة.



إن هذه الشخصية التي وضعها ستالين آنذاك على رأس السياسة الخارجية السوفياتية تستحق شيئًا من الوصف الذي لم يكن متوفرًا في ذلك الحين للحكومتين البريطانية والفرنسية. فقد كان فياشيسلاف مولوتوف رجلاً ذا كفاية ظاهرة يتسم بالقوة والعنف، وقد تصدى للمخاطر والمحن

الرهيبة التي تعرض لها الزعماء البلاشفة إبان انتصار الثورة. وعاش وبزغ نجمه في مجتمع حافل بالدسائس التي تعرض شخصه لخطر التصفية وكان رأسه الذي يشبه في صورته قذيفة المدفع. وشاربه الأسود وعيناه اللتان تتوقدان فهمًا وذكاء، ووجهه المكتظ، ولسانه الذلق، ومظهره الساكن المطمئن كلها ظواهر تدل على ما له من كفايات ومزايا. وكان أصلح من سواه لتنفيذ سياسة جهاز لا تعد قواه ولا تحصى. ولم ألتق به إلا ونحن في وضع واحد متساو. وفي محادثات كان يظهر فيها متأثرًا بطرفة لطيفة أو في مأدبة كان يقترح فيها بعض الأنخاب التقليدية، ولم أر في حياتي رجلاً غيره تتمثل الفكرة العصرية عن الرجل الآلي.

ولكن كانت تختفي خلف هذه الصفات سياسة معقولة في ظاهرها مهذبة إلى درجة كبيرة. ولا أستطيع أن أبدي حكمي على موقفه ممن يعملون تحت رئاسته. أما موقفه من السفير الياباني في السنوات التي تلت مؤتمر طهران عندما وعد ستالين بمهاجمة اليابان بعد هزيمة الجيش الألماني. فنستطيع أن ندركه من محادثاته المسجلة. فقد تمت مقابلات متتالية تتسم جميعها بالرقة والتعمق والغرابة معًا. وكانت تجري وفقًا لغرض عميق متحجب، واتزان تام! وجد رسمي. ولم يثر في هذه المقابلات مشكلة أو يحدث ثغرة، ولكنه كان يمثل بابتسامته الباردة صقيع شتاء سيبريا. مع كلمات متزنة متخيرة ومظهر محبوب، يجعله وكيلاً ممتازًا للسياسة السوفياتية في عالم شديد الاضطراب.

وكانت طريقة التراسل معه في الأمور المختلفة عليها لا تجدي. وإذا مضى هذا التراسل قدمًا فإنه كان ينتهي بالأكاذيب والإهانات التي سيحتوي هذا الكتاب على أمثلة بارزة منها. ولم أر فيه الاستجابة الإنسانية المألوفة إلا مرة واحدة وكان ذلك في ربيع سنة ١٩٤٢ عندما نزل إلى بريطانيا في طريق عودته من الولايات المتحدة إلى بلاده. وكنا في ذلك الوقت قد وقعنا المعاهدة البريطانية السوفياتية وهو على وشك الرحيل في رحلته الجوية الخطرة نحو بلاده.

فلما وقفت معه في مدخل حديقة داوننج ستريت الذي كنا نلوذ به حين نتحدث في أمور سرية، أمسكت بذراعه. وأخذ كل منا ينظر في وجه صاحبه. وفجأة ظهر لي وكأنه تأثر تأثرًا عميقًا. وبدت لي من وراء الصورة حقيقة الإنسان. فاستجاب لقبضتي وأمسك كل منا بيد الآخر بشدة في مودة وفي سكون، ولكننا كنا معًا نخوض معركة الحياة أو الموت بالنسبة لنا أو للكثيرين ممن معنا. إن الخراب والهلاك يحيطان به في كل لحظة أما له أو عليه.

ولا شك أن الآلة السوفياتية قد وجدت فيه ممثلاً ممتازًا في إخلاصه الحربي المذهبي الشيوعي. ومن دواعي غبطتي أنني لم أعان ما عاناه من الشدة فقد كنت أفضل حينئذ أنني لم أولد. ولا شك أن مازاران وتاالليران ومترنيخ يرحبون به في زمرتهم لإدارة السياسة الخارجية لو كان البلاشفة يسمحون لأنفسهم أن يعيشوا في العالم الآخر.

وقد سار مولوتوف على سياسة ترمي إلى عمل تسوية مع ألمانيا على حساب بولندا. وكانت المفاوضات الروسية مع بريطانيا تسير سيرًا وئيدًا. وقد أثير الموضوع كاملاً في مجلس العموم في التاسع عشر من شهر مايو. وقد كانت المناقشات مقصورة على البارزين من رجال السياسة ومن الوزراء السابقين. وقد كنت أنا والمستر لويد جورج والمستر إيدن نستحث الحكومة على الوصول إلى تسوية عاجلة مع روسيا على أن تكون على قدم المساواة وعلى أسس واسعة.

وقد أجاب رئيس الوزراء وكشف عن آرائه في العرض السوفياتي فقد استقبله استقبالاً فاترًا ينطوي على السخرية. ويفتقر إلى التقدير شأنه في رفض الاقتراح الذي أرسله روزفلت قبل عام. وقد تحدث أتلي وسنكلير وإيدن عن الخطر العاجل والحاجة إلى التحالف مع روسيا. ولم يكن هناك أقل شك في فوات الوقت. فقد ارتطمت جهودنا بجمود لا يتحول. فعلى الرغم من قبول

الحكومتين البولندية والرومانية الضمان البريطاني. فإنهما لم يكن لديهما استعداد لقبول تعهد مثل هذا من الحكومة الروسية. وقد ظهر موقف مماثل في منطقة استراتيجية حيوية أخرى هي دول البلطيق. وكانت الحكومة السوفياتية قد أعلنت أنها لن تساهم في ميثاق لتبادل المساعدة إلا إذا شمل فنلندا ودول البلطيق الأخرى. وكانت هذه الدول ترفض هذا الميثاق وترفض قبول هذا الشرط تحت عامل الخوف وقد بالغت فنلندا وأستونيا في هذا الرفض فأعلنتا أن أي ضمان يقدم دون موافقتهما تعدانه عملاً عدائيًا. ووقعت أستونيا ولاتفيا في السابع من شهر يونيه مواثيق عدم الاعتداء مع ألمانيا.

وهكذا استطاع هتلر بسهولة أن ينفذ إلى الخطوط الدفاعية الأخيرة لذلك الحلف المتشكك المتأخر الذي أقيم ضده.

وأخذت تتصرم أيام الصيف، والتأهب للحرب مستمر في سائر أنحاء أوروبا. ولم يعد ثمة تقدير لمواقف الدبلوماسيين وخطب الساسة وآمال الجنس البشري، وبدت النذر الألمانية لتسوية مشكلة النزاع على دانزج مع بولندا بطريق العنف. كمقدمة للهجوم على بولندا، وأعلن المستر تشمبرلين للبرلمان عن قلقه في العاشر من شهر يونيه، وكرر اعتزامه الوقوف إلى جانب بولندا إذا تعرض استقلالها للخطر. وأعلنت الحكومة البلجيكية بطريقة منافية لما تمليه الحقائق. وبتأثير من ملكها في الثالث والعشرين من يونيه معارضتها إجراء محادثات لأركان الحرب مع إنجلترا وفرنسا، وقد أكدت عزمها على التمسك بالحياة الدقيق.

وقد أدى تطاول الأحداث إلى توحيد الصفوف بين بريطانيا وفرنسا وفي داخل بريطانيا نفسها، وتعددت حركات الانتقال بين لندن وباريس خلال شهر يوليه. وكانت احتفالات الرابع عشر من شهر يوليه في فرنسا فرصة سانحة لإعلان الاتحاد بين إنجلترا وفرنسا. وأرسلت الحكومة الفرنسية دعوة إلى الشهود هذه الاحتفالات.

وقد اقترح على الجنرال جملان وأنا أبارح ميدان "ليبورجيه" بعد العرض العسكري أن أزور الجبهة الفرنسية وقال: "أنك لم تر قط قطاع الراين. فتعال في شهر أغسطس لأطلعك على كل شيء" وأعددت الخطة اللازمة لهذه الزيارة. وفي الخامس عشر من شهر أغسطس ذهبت أنا والجنرال سبيرز وقد رحب بنا صديقه الجنرال جورج القائد العام لجيوش الجبهة الشمالية الشرقية والمرشح لتولي القيادة العليا، عند غياب جملان. وقد سررت كثيرًا للقاء هذا الضابط العظيم المهذب، وقضينا الأيام العشرة التالية معه ننظر في شتى المسائل العسكرية ونتصل بجملان، وكان يقوم بتفتيش بعض الأماكن في الجبهة.

بدأنا رحلتنا في ليتربورج عند منعرج الراين ومررنا بسائر القطاع حتى وصلنا إلى الحدود السويسرية. وكان الشعب في إنجلترا كما كان سنة ١٩١٤ يلهو بقضاء إجازاته. واللعب مع أطفاله على الشواطئ، أما هنا في الراين، فقد بدا لي منظر مغاير فقد رفعت جميع الجسور المؤقتة القائمة على النهر من أماكنها إلى أماكن أخرى، أما الجسور الثابتة فقد وضعت تحتها الألغام وأقيمت عليها الحراسة القوية، وعهد إلى ضباط أكفاء بمراقبتها ليلاً ونهارًا. ليضغطوا على الأزرار اللازمة لنسف هذه الجسور في اللحظة الملائمة.

وكان النهر العظيم يسير في فيضان عارم لما علت مياهه من ثلوج الألب الذائبة. وكان المراكز الفرنسية الأمامية تحتل أماكنها بين الشجيرات القصيرة. وكان في استطاعة رجلين أو ثلاثة منا أن يصلوا إلى ضفة الماء ولا يكون منا هدف معرض للإصابة، وكنا نرى الألمان على مسافة ثلاثمائة ياردة منتشرين بين الأدغال في الجانب الآخر، يعملون في يسر واطمئنان في إعداد مراكزهم الدفاعية والفئوس والمجاريف في أيديهم. وقد أجلى المدنيون من الحي الواقع على ضفة النهر في مدينة ستراسبورج. ووقفت لحظة على الجسر أراقب السيارات وهي تمر من فوقه. وكنت أرى أن عملية فحص الجوازات والبطاقات تستغرق وقتًا أكثر من المألوف على الجانبين، ولم يكن الواقع الألماني يبعد عن الفرنسي هنا أكثر من مائة ياردة. وليس مع ذلك بين الموضعين

أي اتصال لكن أوروبا كانت ما تزال تتمتع بالسلام حتى تلك اللحظة. ولم يكن هناك أي صراع بين ألمانيا وفرنسا. وكان نهر الراين لا يزال يجري بسرة ستة أميال أو سبعة في الساعة. ولم أر الراين مرة أخرى إلا بعد خمس سنوات في مارس سنة ١٩٤٥ وأنا أعبره مع المارشال مونتجمري بالقرب من ويسل إلى ناحية الشمال.

ولعل أهم ما لفت نظري في هذه الزيارة هو الروح الدفاعية التي سيطرت على مضيفي من البارزين الفرنسيين، وقد فرضت على فرضًا فتقبلتها راضيًا. وقد اتضح لي من الأحاديث التي دارت بين وبين هؤلاء الضباط الفرنسيين العظماء أنهم جميعًا يشعرون بتفوق القوة الألمانية على قواهم. وأن فرنسا لا تستطيع القيام بهجوم عظيم، ولكنها تحارب دفاعًا عن كيانها فحسب. فهناك خط سيجفريد المحصن بكل ما للأسلحة الحديثة من قوة عظيمة ضاربة، وكنت أشعر برعدة تنساب في جسدي عندما أذكر هجومي السوم وباشينديل، وكان الألمان الآن أقوى مما كانوا عليه أيام ميونيخ، ولم نكن ندرك ما تحسه قيادتهم العليا من القلق. وقد قبلنا هذا الوضع من الناحيتين الواقعية والنفسية. ولم يكن لأي إنسان مسئول ـ ولم أكن مسئولاً حتى تلك الآونة ـ أن يعمل على أساس اقتراحين، أن اثنتين وأربعين فرقة ألمانية فحسب مجهزة نصف تجهيز ومدربة نصف تدريب تتوالى لحراسة هذه الجبهة الطويلة الممتدة من بحر الشمال إلى سويسرا، وكان هذا الرقم لا يتجاوز ثلاث عشرة فرقة أيام ميونيخ.

وأشد ما كنت أخشى في هذه الأسابيع الأخيرة أن تتراجع حكومة جلالته على الرغم من ضمانتها لبولندا عن الحرب ضد ألمانيا إذا حاربتها. ولكن لم يكن هناك شك في أن المستر تشمبرلين كان قد استقر رأيه على الحرب، على الرغم مما في هذا القرار من مضض، ولكني لم أكن أعرفه كما عرفته بعد مضي عام. وكنت أخشى أن يقدم هتلر على أكذوبة جديدة من مبتدعاته فيزعم وجود سلاح جديد يرهب مجلس وزرائنا الذي تراكمت

عليه الأعباء، وكان الأستاذ ليندمان يتحدث إليّ على الدوام عن الطاقة الذرية، فطلبت منه أن يطلعني على معلوماته في هذه الشأن، وبعد حديثي معه بعثت إلى كنجزلي وود وزير الطيران بالرسالة التالية وكانت صلتي به وثيقة.

"ظهرت صحف الأحد منذ أسابيع معلنة عن الطاقة الهائلة التي يمكن استخراجها من اليورانيوم، عن طريق سلسلة من التجارب التي اكتشفت حديثًا والتي تقع عندما ينفلق هذا النوع من الذرة وقد تلقى هذه المكتشفات في روعنا الخوف من وجود متفجرات جديدة لها قوة تدمير هائلة، ولهذا يجب أن نعلم إلا خطر لهذا الاكتشاف على الرغم من قيمته العلمية، إذ لا يمكن أن يؤدي إلى نتائج عملية قبل بضع سنوات".

"وقد بدت أمارات تدل على أن قصصًا ستحاك عندما تشتد الأزمة الدولية عن استخدام هذا الاكتشاف العلمي في متفجرات سرية جديدة ذات أثر بالغ يمكنها أن تمحو مدينة لندن من الوجود، وستبدو محاولات عن طريق رجال الطابور الخامس بتهديدنا ودعوتنا إلى استسلام جديد. لهذا رأيت من واجبي أن أوضح لك الموقف على حقيقته".

فالخوف من أن يكون لدى النازيين سلاح جديد يستطيعون به أن يدمروا أعداءهم لا يستند على أساس علمي سليم. وستظهر ولا شك: "إيماءات سود من هذا النوع، وستنتشر همسات مخيفة من هذا النوع بصور مكبرة، ولكن كل ما آمل ألا يصدق أحد من المسئولين هذه الشائعات".

ومن الواضح أن هذا التنبؤ كان دقيقًا وفي غاية الدقة. ولم يكن الألمان هم الذين عثروا على الطريق الذي يريدون، ولكنهم ولا شك قد سلكوا الطريق الخاطئ، ثم تخلوا فعلاً عن البحث عن القنبلة الذرية، وقد وضعوا كل همهم في صنع الصواريخ الموجهة والطائرات التي تقاد بغير طيارين. في الوقت الذي كنت فيه أنا والرئيس روزفلت نتخذ القرارات ونضع الاتفاقات

الخالدة التي سأشرحها في موضعها من هذا الكتاب لصناعة القنابل الذرية على نطاق واسع.

وفي السابع من شهر يوليه قال موسوليني للسفير البريطاني "قل لتشمبرلين أن إنجلترا إذا كانت مستعدة للقتال دفاعًا عن بولندا فإن إيطاليا ستحمل السلاح مع حليفتها ألمانيا.

لكن موقفه الحقيقي الذي كان يخفيه وراء الستار كان مخالفًا لهذا كل المخالفة، فقد كان لا يريد أكثر من تثبيت أقدامه ورعاية مصالحه في البحر الأبيض المتوسط وشمال إفريقيا، وقد جنى ثمرة تدخله في إسبانيا، ونتائج احتلاله ألبانيا. ولم تكن له رغبة في أن يساق إلى حرب أوروبية بسبب احتلال ألمانيا لبولندا.

وكان على كثرة ما يدعي ويتبجح يعرف أكثر من غيره حقيقة ضعف إيطاليا سياسيًا وعسكريًا. وكان على استعداد للتحدث عن دخول الحرب سنة ١٩٤٢ إذا قدمت ألمانيا له السلاح، أما الإقدام على الحرب سنة ١٩٣٩ فلا.

ولما اشتد على بولندا الضغط في أشهر الصيف عادة موسوليني يكرر دوره الذي مثله في ميونيخ كوسيط واقترح عقد مؤتمر عالمي للسلام. ولكن سرعان ما بدد هتلر هذه الأفكار من ذهنه. وصرح لتشيانو في شهر أغسطس بأنه مصمم على تسوية الوضع مع بولندا وأنه ربما أجبر على الدخول في حرب مع إنجلترا وفرنسا كذلك، وأنه يريد من إيطاليا أن تشترك في الحرب. وقال "إذا كانت إنجلترا ستبقى القوات اللازمة في بلادها فإنها لا تستطيع أن تبعث إلى برلين غير الطائرات القاذفة للقنابل أما المقاتلات فليس في وسعها أن تبعث منها طائرة واحدة إذ أنها ستحتاج إليها في بلادها، إذ أن القوة الجوية الألمانية ستهاجم إنجلترا في الحال. وستكون في حاجة إلى مقاتلاتها للدفاع عن أرضها" وقال متحدثًا عن فرنسا أنه بعد تدمير بولندا الذي لا يستغرق وقتًا طويلاً ستستطيع ألمانيا أن تحشد مئات الفرق على جدارها الغربي. فتصبح فرنسا

مضطرة إلى حشد سائر قواتها على خط ماجينو من أن تنقل ما لديها منها من المستعمرات أو على الحدود الإيطالية. لمعركة هي معركة الحياة والموت بالنسبة لبلادها. وعاد تشيانو آسفًا لينقل إلى مولاه ما ألقى على سمعه فوجده مقتنعًا كل الاقتناع بأن الدول الديمقراطية ستدخل المعركة ووجده مصممًا على البقاء خارجها.



وبذلت الحكومتان البريطانية والفرنسية محاولة جديدة للتفاهم مع روسيا السوفياتية. وتقرر إيفاد مندوب إلى موسكو وقبل المستر إيدن القيام بهذه المهمة، وقد سبقت له اتصالات مجدية مع ستالين قبل بضع سنوات. إلا أن رئيس الوزراء رفض هذا العرض وعهد بهذه المهمة إلى المستر سترانج في الثاني عشر من شهر يونيه وهو موظف كفء من موظفي وزارة الخارجية، ولكن ليست له مكانة سياسية خارج وزارة الخارجية. وكان ذلك خطأ كبيرً إذ أن إيفاد موظف كهذا يعد صغيرًا مهما ارتفع شأنه أساء كثيرًا إلى روسيا. وإني لأشك في أنه استطاع النفاذ من القشرة الخارجية للجهاز السوفياتي. وقد فات الوقت المناسب ووقعت أحداث كثيرة منذ بعث المسيو مايسكي لكي يلتقي بي في شاتويل في سبتمبر سنة ١٩٣٨. وقعت ميونيخ وأتيحت لجيوش هتلر فرصة سنة كاملة لتزداد قوة ونضجًا. وأخذت مصانع الذخيرة الألمانية التي ضمت إليها مصانع شكودا تعمل ليلاً ونهارًا في إنتاجها. وكانت الحكومة السروفياتية قلقة أشد القلق من جراء تشيكوسلوفاكيا، ولكنها قد اندثرت وأرسل بنيش إلى منفاه وقد حل محله حاكم ألماني في براج.

وكانت بولندا تتمثل لروسيا في عدة مشاكل استراتيجية وسياسية طويل أمدها. وكان الاشتباك الأخير بينهما قد وضع في معركة وارسو سنة ١٩٢٠ عندما سد بلودسكي الجيوش البلشفية التي قادها كامينييف بتأييد الجنرال فيجان والبعثة البريطانية التي كان يرأسها اللورد دابيرانون. ثم سرعان

ما ثارت لنفسها وطاردتها بإهراق كثير من الدماء. وظلت بولندا طوال هذه السنوات رأس رمح في جانب البلشفية. وكانت تمد يدها اليسرى لتأييد دول البلطيق المعادية للسوفيات ونصرتها، بينما كانت تمدِ يدها اليمنى في أزمة ميونيخ لتقطيع أوصال تشيكوسلوفاكيا. وكانت الحكومة السوفياتية تعلم علم اليقين أن البولنديين يكرهونها وأنهم لا حول لهم للوقوف في هجوم ألماني. وكان الروس فضلاً عن هذا يعرفون كل المعرفة ما يتعرضون له من الأخطار، ويعرفون الوقت الذي يحتاجونه لإصلاح ما حل بقيادة جيوشهم من أضرار. ولم يكن من المنتظر أن ينجح المستر سترانج في مهمة في مثل هذه الظروف.

ومن ثم بدأت المفاوضات تدور حول تردد بولندا ودول البلطيق في قبول مساعدة السوفيات ضد ألمانيا. ولم تنته إلى نتيجة. وظلت المحادثات تدور في هذا الشأن دون انقطاع طول شهر يوليه. وقد اقترحت الحكومة السوفياتية أخيرًا أن تظل المحادثات قائمة على أسس عسكرية باشتراك ممثلين عن القيادتين البريطانية والفرنسية. ومن ثم أرست الحكومة البريطانية الأميرال داركس على رأس بعثة إلى موسكو في العاشر من شهر أغسطس، ولم يكن لديهم أي تفويض كتابي بحق المفاوضة. ووصلت البعثة الفرنسية برئاسة الجنرال دومانك ومثل الجانب الروسي في المحادثات المارشال فوروشيلوف. وقد وافقت الحكومة السوفياتية على أن يصل إلى موسكو مفاوض ألماني. ولكن سرعان ما اصطدم هذا المؤتمر العسكري برفض بولندا ورومانيا السماح للقوات الروسية بعبور أراضيها وكان شعار البولنديين "إننا سنغامر مع الألمان بفقد حريتنا. أما مع الروس فإننا سنغامر بأرواحنا".

وقد شرح لي ستالين في أغسطس سنة ١٩٤٢ ونحن في الكريملين في الساعات المبكرة صباح يوم من الأيام ناحية من نواحي الموقف السوفياتي فقال: "لقد أيقنا بأن الحكومتين البريطانية والفرنسية لا تعتزمان الاشتراك في الحرب إذا هوجمت بولندا. ولكنهما تتوقعان أن يؤدي إعلان الحلف البريطاني الفرنسي إلى إرهاب هتلر ووقفه عند حده. ولكننا كنا موقنين بأن هذا

الإعلان لا يصد هتلر ويرجعه عن عزمه" وكان يسائل أثناء المفاوضات "كم فرقة تستطيع فرنسا أن تبعث بها إلى الميدان في حالة التعبئة ضد ألمانيا" وكان الرد "حوالي مائة فرقة" وعاد يتسائل "وكم تستطيع إنجلترا أن تبعث" وكان الرد "فرقتين في الحال، ثم فرقتين أخريين فيما بعد!!" ثم مضى يقول "أتعرفون كم عدد الفرق التي سندفعها إلى الجبهة الروسية إذا دخلت روسيا الحرب ضد ألمانيا؟" ولم يجب أحد من المتفاوضين فقال ستالين "أكثر من ثلاثمائة فرقة" ولم يخبرني ستالين عن الرجل الذي أفضى إليه بهذا الحديث ولا في تاريخه. ولكن يجب أن نعترف بصحة ما كان يقول وإن كان هذا لا يوافق المستر سترانج.

وكان ستالين ومولوتوف قد قررا ضرورة إخفاء نواياهما للمساومة إلى اللحظة الأخيرة. وقد أبدى مولوتوف ومساعده حذقًا شديدًا في التزاوج أثناء هذه المفاوضات التي كانت تجري مع الفريقين، وأعلن ستالين مساء التاسع عشر من شهر أغسطس في جلسة عقدها المكتب السياسي للحزب الشيوعي اعتزامه عقد ميثاق مع ألمانيا. ولم يستطع ممثلو الحلفاء أن يعثروا في الثاني والعشرين من شهر أغسطس على المارشال فوروشيلوف حتى ساعة متأخرة من الليل، وقد وصل ريبنتروب إلى موسكو في اليوم التالي، وأعلنت ألمانيا في اتفاق سري عقدته في روسيا أنها لا تهتم سياسيًا بلاتفيا واستونيا وفنلندا. وقد اعتبرت لتوانيا داخلة في حدود منطقة نفوذها. وتم رسم خط للحدود بعد تقسيم بولندا. ولم تطلب ألمانيا من دول البلطيق سوى بعض المصالح الاقتصادية. وقد وقع في ساعة متأخرة من ليلة الثالث والعشرين من شهر أغسطس على ميثاق عدم الاعتداء والاتفاق السري.

وعلى الرغم من جميع الوقائع المحزنة التي أوضحتها في هذا الفصل. لم يكن إلا في مقدار الديكتاتورية الجماعية أن تواجه الكراهية المترتبة على هذا العمل الشاذ. ونستطيع أن نتساءل هل كانت كراهية هتلر لهذا العمل أشد من كراهية ستالين؟ أو كان الأمر على النقيض. ولكن لا شك أن

الرجلين كانا يدركان أن هذه التسوية أمرها موقوت وأنها تسوية أملتها المنفعة المؤقتة. فالعداء بين النظامين والإمبراطوريتين عداء قتال. وربما خطر لستالين أن هتلر سيكون غدًا أضعف قوة بعد سنة من القتال مع الدول الغربية. أما هتلر فقد سار على القاعدة التي اتبعها "عدو واحد في وقت واحد"، ولكن وقوع هذا الاتفاق يدل على مدى ما وصلت إليه السياسة البريطانية الفرنسية من الفشل طوال هذه السنوات.

ويتحتم علينا أن نذكر أن الجانب الروسي كان في حاجة شديدة إلى إبقاء الجيوش الألمانية مشغولة في الغرب إلى أبعد مدى، ليجد الوقت الكافي لتجميع القوى الروسية المنتشرة في سائر أنحاء الإمبراطورية الواسعة الأرجاء. وكانوا قد شغلوا أذهانهم بالتفكير فيما حل بجيوشهم من الكوارث في سنة ١٩١٤ حين اندفعت لمهاجمة الألمان، ولم تكن قد استكملت استعدادها. ولكن حدودهم الآن تقع بعيدًا في الشرق من حدودهم في الحرب العالمية الأولى. وعليهم أن يحتلوا دول البلطيق وجزءًا كبيرًا من بولندا بالقوة أو بالخديعة قبل أن يهاجموا. وإذا كانت السياسة السوفياتية معروفة بالأناة، فإنها كانت في هذه المرة واقعية إلى أبعد مدى.

ويجدر بنا أن نسجل هنا نص الميثاق الذي أشرنا إليه:

"ترى الدولتان المتعاقدتان الساميتان أن واجبهما الامتناع عن أي عمل من أعمال القوة أو العدوان أو الهجوم بعضهما على البعض بصفة فردية أو بالاشتراك مع دول أخرى على حد سواء".

وكان من المقرر أن يبقى هذا الميثاق نافذًا عشر سنوات، ويتجدد تلقائيًا لمدة خمس سنوات أخرى إذا لم يعلن أحد الفريقين المتعاقدين إلغاءه قبل سنة من انتهاء هذه المدة. وقد احتفل بتوقيع هذا الميثاق احتفال كبير. وتبودلت الأنخاب الكثيرة على مائدة المؤتمر واقترح ستالين أن يشرب الحاضرون نخب الفوهرر "بهذه العبارة" أنا أعرف تمامًا كيف يحب الشعب الألماني زعيمه لذلك

فإني أشرب نخب صحته أو نستطيع أن نخرج من كل هذه الوقائع بمغزى واحد في غاية من البساطة. وهو "أن الاستقامة هي السياسة المثلى" وسنرى في صفحات هذا الكتاب أمثلة عديدة تعزز هذه النظرية. فقد يخدع الساسة والدهاة في تقديراتهم التي قضوا زمنًا في وضعها. ولكن هذا المثل يبدو أكثر وضوحًا حينما نرى أنه لم يمض أكثر من اثنين وعشرين شهرًا حتى أرغم ستالين وعشرات الملايين من الشعب الروسي على دفع ثمن باهظ مرعب لما حدث. وقد تصل أية حكومة على فوائد جمة وليست لها قواعد ومثل أخلاقية تحد من حريتها في العمل. ولكن الأمور تتعادل في نهاية اليوم ثم تتعادل أكثر وأكثر في نهاية الأيام.

وهبطت الأنباء المشئومة على العالم كالقنبلة. ولكن مهما تكن العواطف التي اجتاحت الحكومة البريطانية، فإن الخوف لم يكن سبيلها ولم تضع وقتًا حتى أعلنت "أن الحادث لن يؤثر بحال من الأحوال على التزاماتها التي صممت عليها".

وقد عجل باتخاذ الإجراءات الاحتياطية وصدرت الأوامر للدفاع الساحلي ضد الطائرات. وتأمين الدفاع عن الجهات المعرضة للخطر. وأرسلت برقيات الإنذار إلى دول الدومنيون وألغيت الإجازات في القوات المسلحة، وأصدرت الإمبريالية تحذيرها إلى البواخر التجارية، واتخذت السلطات خطوات أخرى. وأعلنت الحكومة البريطانية في الخامس والعشرين من شهر أغسطس توقيع معاهدة رسمية مع بولندا تؤكد الضمانات السابقة، وكان الأمل من وراء هذا الاتفاق، إعطاء الفرصة المثلى لألمانيا وبولندا لتسوية خلافاتهما بالتفاوض. علمًا بأن فشل هذه المفاوضات يعني وقوف بريطانيا إلى جانب بولندا في حالة الحرب، وقد أجل هتلر موعد الغزو النهائي من الخامس والعشرين من أغسطس إلى اليوم الأول من شهر سبتمبر وأخذ في مفاوضات مباشرة مع بولندا، تحقيقًا لرغبة تشمبرلين. ولم يكن هدفه الحقيقي الوصول إلى اتفاق مع بولندا، ولكن إعطاء حكومة جلالته كل فرصة للتهرب من ضماناتها.

ولكن أفكار الحكومة وأفكار البرلمان وأفكار الشعب كانت جميعها تسير في طريق مخالف. ومن الحقائق العجيبة التي تؤثر من سكان هذه الجزر البريطانية الذين يكرهونن التدريب والذين لم تغز بلادهم منذ ألف سنة أن أعصابهم تهدأ شيئًا فشيئًا كلما اقتربوا من الخطر ورأوه ماثلاً أمامهم، ثم سرعان ما ينقلبون إلى حال من القوة المستشرية.. وعندما يصبح الخطر واقعًا يظلون بواسل لا يهابون الموت، وقد نجتهم هذه الشمائل مرات عديدة من أخطار ساحقة وأخرجتهم من كثير من المآزق.

وقد استبان هتلر بعد اتصاله بموسولييني ـ إن لم يكن قد توقع ـ أنه لا يستطيع أن يعول على تدخل إيطاليا المسلح إذا نشبت الحرب. ولعل الدوتشي علم بالخطوات الأخيرة من المصادر الإنجليزية لا من المصادر الألمانية، ويقول تشيانو في يومياته بتاريخ السابع عشر من شهر أغسطس "لقد نقل إلينا الإنجليز نصوص الاقتراحات التي قدمها الألمان إلى لندن. ولم نكن نعرف عنها شيئًا من الألمان"، وكان كل ما يبغي موسوليني هو أن يقبل هتلر حياد إيطاليا وقد قبل هتلر هذا الحياد. وأصدر هتلر في الحادي والثلاثين من أغسطس "دعوته الأولى لإدارة دفة الحرب".

١- "لما كانت سائر الاحتمالات السياسية المأمولة لتسوية الأوضاع على الحدود الشرقية بالطرق السمية قد استنفدت، وهي أوضاع لا يمكن لألمانيا أن تحتملها فقد قررت الوصول إلى حلها بطريق القوة".

٢- "يجب تنفيذ الخطة الموضوعية للهجوم على بولندا، وقد حدد الموعد في صباح اليوم الأول من سبتمبر سنة ١٩٣٩ الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين".

٣- "وفي الغرب يجب أن تقع مسئولية البدء بالأعمال العدوانية من جانب إنجلترا وفرنسا بحالة ظاهرة. وفي حالة وقوع أحداث بسيطة من العدوان على الحدود يجب الاكتفاء بالعمل المحلي البحت".

وبعد عودتي من جبهة الراين، قضيت أيامًا سعيدة أتمتع بالشمس في رحاب السيدة بلسان مع رفقة مؤنسة وإن سيطر عليهم شيء من القلق. وتلك هي الدار نفسها التي قضى فيها هنري ملك النافار ليله الأخيرة قبل معركة ايفري. وكان كل إنسان يحس ذلك الجو المزعج الذي يخيم على الجميع. حتى كان الضوء المألوف في هذا الوادي الجميل في حوض الأور قد فقد بريقه، وقد رأيت أنني لا أستطيع أن أرسم لوحاتي في هذا الجو المليء بالقلق والريب.

وقد قررت في السادس والعشرين من شهر أغسطس أن أعود إلى الوطن، حيث أكون على مقربة من الأحداث، وأستطيع الاتصال بها. وأبلغت زوجتي أنني سأرسل في طلبها في الوقت الملائم. ودعوت وأنا في باريس في طريقي إلى لندن الجنرال جورج ليتناول معي الغداء. فأطلعني على الأرقام الخاصة بجيوش فرنسا وألمانيا وقد وضح أمامي كفايات الفرق ونوعها وعددها، وقد كانت النتيجة ذات تأثير بالغ على نفسي حتى أنني قلت لأول وهلة "إذن فأنتم المتفوقون" ورد بقوله "إن للألمان جيشًا عظيم البأس ولن نستطيع أن نكون البادئين بأية حال، ولكن إذا هوجمنا فإن بلدينا سيقفان في صف واحد للقيام بالواجب".

وأمضيت تلك الليلة في شارتويل، حيث كنت قد طلبت إلى الجنرال ايرونسايد أن يزورني في اليوم التالي. وكان قد عاد لساعته من بولندا وقدم تقارير مرضية عن الجيش البولندي الذي شاهد مناوراته الناجحة بنيران المدافع الحية، وكانت الروح المعنوية عند البولنديين عالية. وقد أمضى الجنرال ثلاثة أيام معي. وحاولنا معًا أن نصل إلى أعماق الأمور ونكشف أسرارها، وعادت زوجتي عن طريق دنكرك في الثلاثين من شهر أغسطس بعد أن تلقت مني إشارة بالعودة.

وكان في إنجلترا نحو عشرين ألف من النازيين الألمان، ومن المنتظر قيامهم بأعمال القتل والتخريب عند نشوب الحرب وفقًا لتقاليدهم. ولم يكن

في نيتي أن أطلب لنفسي حماية إلا أنني أعلم بأن شهرتي وبروز اسمي يحتمان عليّ الاحتياط وكانت معلومات كافية لإقناعي بأن هتلر يعدني في الصف الأول من أعدائه. وكان مفتش الشرطة السابق المستر طومسون من الذين سبق لاسكوتلنديارد أن انتدبتهم لمرافقتي قد أحيل إلى التقاعد فطلبت إليه أن يوافيني في شارتويل ومعه مسدسه وأعددت أنا أسلحتي الخاصة. وكانت على أحسن حال. وكنت أتبادل معه مراقبة المكان فلا نسمح لأحد بالاقتراب من المنزل وكنت أقدر أن الحرب إذا وقعت فسوف يقع عبء ثقيل على كاهلي.

بداية الحرب العالمية الثانية

قامت ألمانيا بالهجوم على بولندا فجر أول سبتمبر وفي صبيحة اليوم نفسه أصدرت حكومتنا أمرها بتعبئة سائر قواتنا ورغب إلى رئيس الوزراء في زيارة بداونتج ستريت بعد ظهر ذلك اليوم، وقد قال لي أنه لا أمل لديه في تجنب الحرب مع ألمانيا ويقترح تأليف وزارة صغيرة للحرب تضم وزراء ليست لهم وزارات خاصة لإدارتها. وذكر أن حزب العمال ليس على استعداد للاشتراك في حكومة ائتلافية، أما الأحرار فإنه يأمل أن يشتركوا معه.

ودعاني أن أكون عضوًا في هذه الوزارة الحربية الصغيرة. ووافقت بغير تعليق. وقد دار بيننا على هذا الوضع حديث طويل حول الشخصيات والإجراءات.

وكان موضع دهشتي أنني لم أسمع شيئًا من المستر تشمبرلين طوال اليوم الثاني من سبتمبر على ما كان في هذا اليوم من أزمات فخطر لي أنه يبذل محاولة أخيرة لإنقاذ السلام. وقد دلت الأيام على صدق ظني. ومع ذلك فقد دارت عند انعقاد البرلمان في المساء مناقشة حادة وإن كانت قصيرة. وقد تلقى المجلس خطاب التهدئة الذي ألقاه رئيس الوزراء إلقاء سيئًا فلما قام المستر جرينود ليتكلم باسم المعارضة صاح المستر ايمري من مقاعد المحافظين قائلاً "دافع عن إنجلترا" وقد استقبلت صرخته بهتاف مدو ولا شك أن المجلس كان

ميالاً إلى الحرب، ولعله كان أكثر عزمًا وتآلفًا في ذلك اليوم، مما كان في الظرف المماثل في الثالث من أغسطس سنة ١٩١٤ وكنت مشاركًا فيه وعلمت أن بريطانيا أرسلت إنذارًا إلى ألمانيا في الساعة التاسعة والنصف من مساء اليوم الأول من شهر سبتمبر، وأن هذا الإنذار سيعقبه إنذار آخر نهائي في الساعة التاسعة من صباح اليوم الثالث من سبتمبر وأعلنت الإذاعة البريطانية في الساعات الأولى من صباح اليوم الثالث من سبتمبر أن رئيس الوزراء سيوجه رسالة إلى الشعب في الحادية عشرة والربع من صباح ذلك اليوم.

وأعلننا رئيس الوزراء في إذاعته بأننا قد أصبحنا في حالة حرب مع ألمانيا. وكان علي أن أذهب إلى مجلس العموم الذي اجتمع في الموعد المعين عند الظهر بصورته المألوفة بعد صلاة قصيرة. وتلقيت في المجلس رسالة من رئيس الوزراء يطلب فيها أن أوافيه في حجرته بعد انتهاء المناقشة. فلما جلست على مقعدي أصغي إلى الخطب استولى على إحساس قوي من الهدوء بعد تلك العواطف الثائرة والصخب الذي سيطر علينا في الأيام القليلة الماضية. وشعرت بصفاء ذهني، وانفصال عن المشاكل الذاتية فأمجاد بريطانيا العجوز المحبة للسلام والقليلة العدد والعدد قد تمثلت أمامي في هذه الشجاعة والجلد عندما دعا داعي الكرامة والشرف، وشعرت بنوع غريب من الحماس استشعرته في هذا السمو بمصيرنا إلى آفاق بعيدة عن الحقائق الأرضية. وحاولت أن أنقل صورة من هذا الإحساس إلى المجلس فتحدثت إليه وقد شعرت بتقبل الأعضاء لما قلت.

وقال لي المستر تشمبرلين ذلك اليوم أنه يستطيع أن يعرض علي وزارة البحرية مع مقعد في وزارة الحرب. وقد سرنا ذلك العرض سرورًا كبيرًا. فعلى الرغم من أنني لم أثر الحديث في هذا فإنني كنت أفضل ولا شك أن يعهد إلي بمهمة معينة بدلاً من الجدل في أعمال وشئون قام بها غيري من الوزراء، وأسهل للإنسان أن يصدر التوجيهات من أن يعطي النصائح ويرضى أن يكون له حق العمل وإن كان محدودًا، عن أن يكون له حق الحديث حتى ولو في

الموضوعات التي يكون المجال فيها واسعًا، ولو خيرني رئيس الوزراء بين عضوية وزارة الحرب ومنصب وزير البحرية لاخترت المنصب، أما الآن فقد عهد إلي بالعملين.

ولم يجر الحديث عن الوقت الذي سأتولى فيه وسام منصبي من الملك، ولم أباشر عملي بالفعل حتى الخامس من شهر سبتمبر، إلا أن ساعات المبادأة في الحرب قد تكون ذات أثر حيوي بالنسبة للأساطيل. ولهذا بعثت بكلمة إلى الأميرالية أقول فيها أنني سأتولى القيادة عاجلاً، وأنني سأصل في الساعة السادسة. وأبرق مجلس الأميرالية إلى الأسطول في سائر وحداته "لقد عاد ونستون" وهكذا عدت إلى الحجرة التي كنت قد فارقتها ونفسي حزينة قبل ربع قرن عندما أدت استقالة اللورد فيشر إلى تنحيتي عن منصب وزارة البحرية، وتحطمت فكرة اقتحام الدردنيل، فلما اتخذت مقعدي وجدت على بعد بضعة أقدام مني إلى الخلف مجموعة الخرائط الخشبية التي أعددتها سنة ١٩١١ وفيها خريطة بحر الشمال التي كنت أطلب إلى دائرة المخابرات البحرية لتركيز الاهتمام بالهدف الأسمى أن تسجل لي عليها حركات الأساطيل الألمانية وطرق توزيعها. وقد مر أكثر من ربع قرن وما زال الخطر المميت يهددنا على أيدي نفس الشعب الذي هددنا من قبل. وها نحن نعود مرغمين إلى حمل السلاح دفاعًا عن دولة صغيرة انتهكت حرمتها وتعرضت للعدوان لغير ما سبب يدعو إلى ذلك، وهكذا أصبح حتمًا علينا أن تجارب دفاعًا عن كياننا وشرفنا ضد غضبة الشعب الألماني وقواته العنيفة البعيدة عن الشفقة. وقد أصبحنا من جديد نخوض غمار الحرب.

وأسرع لورد الأميرالية إلى لقائي، وكنت أعرف "دادلي باوند" بعض المعرفة منذ كنت في الوزارة، وكان أحد أركان حرب اللورد فيشر الذي يثق بهم كل الثقة. وكنت قد حملت حملة عنيفة في البرلمان على طريقة توزيع أسطولنا في البحر الأبيض المتوسط، حيث كان قائدًا له في اللحظة التي غزا فيها الإيطاليون ألبانيا. وقد اجتمعنا الآن كزميلين يعتمد عمل الأميرالية

الضخم على علاقة كل منا بالآخر ويسير سيرته في هدوء ويسر، وإن كان كل منا ينظر إلى الآخر في شيء من الود يمازجه بعض الشك. ولكن صداقتنا والثقة المتبادلة بيننا ظلتا في ازدياد منذ اليوم الأول. وقد قدرت واحترمت الكفايات الشخصية التي يتمتع بها الأميرال باوند وأصبحنا رفيقين وصديقين على مدى الحرب في شدتها ورخائها وسعودها ونحوسها. فلما فارق الحياة بعد أربع سنوات في الوقت الذي حققنا فيه النصر ضد إيطاليا رثيته في كلمة وجهتها إلى الأسطول والأمة جمعاء معلنًا عن الخسارة التي أحسستها بموته.

ولعل القارئ يعرف أنه كان لي إلمام ملحوظ بشئون الأميرالية والأسطول الملكي. وربما كانت أهم أيام حياتي تلك السنوات الأربع التي قضيتها بين سنة ١٩١١، ١٩١٥ في وزارة البحرية وأنا أؤدي واجبي في تهيئة الأسطول للحرب وتوجيهه في الأشهر العشرة الدقيقة في الحرب الماضية. وكنت قد كونت لنفسي معلومات واسعة عن الأسطول وحرب البحار متخذًا من دروس الماضي شتى الصور، وفي تلك الفترة المنقضية بين عملي الماضي وعملي اليوم درست كثيرًا من الشئون، وكتبت كذلك الكثير عن المشاكل الحربية. وكنت أتحدث كثيرًا في مجلس العموم عن الشئون البحرية. وما زلت طوال السنوات الماضية على اتصال وثيق بالأميرالية. وإذا كنت في تلك السنوات من نقادها الشديدين فقد كنت أطلع على كثير من أسرارها، وقد أدى عملي أربع سنوات في لجنة البحوث المتعلقة بالدفاع الجوي إلى معرفتي الوثيقة بآخر التطورات العصرية في شئون الرادار تلك التطورات التي أصبح لها أبلغ الأثر في الأعمال البحرية، وكان اللورد شنفيلد لورد الأميرالية الأول السابق قد مضى معي بنفسه في يونيه سنة ١٩٣٨ في جولة بمدرسة مكافحة الغواصات ببورتلاند ومضيت معه إلى البحر في مدمرة تقوم بالتدريب على كشف الغواصات باستخدام جهاز "اسديك" وكانت علاقاتي الوثيقة بالأميرالاي هندسون الذي كان قبل موته مرافقًا للأسطول حتى سنة ١٩٣٨. والمحادثات التي شجعني وزير البحرية في ذلك الوقت على إجرائها مع اللورد شانفيلد حول

تصميم البوارج الجديدة والطرادات قد أتاحت لي أن أطلع على الوثائق قوة أسطولنا وطرق تأليفه، سواء ما كان منه في حكم الواقع أو ما كان تحت التصميم، وأعرف كيف أقارن بينه وبين أسطول كل من ألمانيا وإيطاليا واليابان.

وما أن تسلمت زمام الأميرالية وأصبحت عضوًا في وزارة الحربية حتى قمت بتأليف دائرة خاصة لي للأرقام واعتمدت في ذلك على الأستاذ ليندمان صديقي الأمين منذ عدة سنوات. وقد استطعنا معًا أن نكون آراءنا وتقديراتنا واستبقيته في الأميرالية مع بضعة من الأخصائيين والاقتصاديين الذين نثق باهتمامهم بالحقائق الواقعة دون غيرها، وقد استطاعت هذه المجموعة بإرشاد ليندمان من الاطلاع على سائر المعلومات الرسمية أن تمدني على الدوام ببيانات ورسوم عن سير الحرب. وكانوا ينظرون نظرات دقيقة في سائر الوثائق الوزارية التي تنشر على وزارة الحرب ويتفحصونها بدقة، ويتابعون البحث عن الأسئلة والاستعلامات التي أطلبها منهم.

ولم تكن هناك آنذاك دائرة حكومية للإحصاء. وكان لكل وزارة إحصاءاتها وحساباتها، فكانت وزارة الطيران مثلاً تتبع نظامًا في الإحصاء غير الذي تتبعه وزارة الحربية. وكانت وزارتا التموين والتجارة تتفاهمان بطرق مختلفة وإن اتفقتا في المغزى، وكثيرًا ما أدى هذا إلى الكثير من الاختلاف وإضاعة الوقت عند مناقشة أي موضوع في وزارة الحرب. أما أنا فقد كانت لي من البداية مصادري الوثيقة في معلوماتي التي تتصل كل منها بالأخرى اتصالاً وثيقًا. وعلى الرغم من أن هذه الأرقام كانت تشمل جزءًا خاصًا من الميدان أول الأمر، ولكنها كانت ذات نفع كبير في استحضار صورة شاملة صحيحة عن سائر الحقائق والأرقام التي تتتابع علينا.

ولم يكن الوضع البحري المزعج الذي واجهناه سنة ١٩١٤ قد تكرر، ففي تلك الأيام كانت بوارجنا الكبيرة تعادل ست عشرة إلى عشر بالنسبة إلى

بوارج العدو. وكانت طراداتنا ضعف قوته، أما الأسطول الألماني فإنه مازال في مرحلته الأولى، ولم يكن في مقدوره أن يخوض معركة بحرية.

فالبارجتان الكبيرتان بسمارك وتيربتز اللتان زادت حمولتهما عن الحد المتفق عليه كانتا ما زالتا في دور الإنشاء ويمضي عام كامل على إكمالهما، أما البارجتان ـ الطرادان شار نهورست وجينزناد ـ اللتان زاد الألمان حمولتهما من عشرة آلاف طن إلى ستة وعشرين ألفاً، فقد تم تشييدهما سنة ١٩٣٨ بالإضافة إلى هذه الوحدات كان لدى الألمان ثلاث بوارج جيب حمولة الواحدة منها عشرة آلاف طن وهي جراف شبي والأميرال شيرودويتشلاند مع طرادين سريعين يحملان مدافع عيار ثماني بوصات وحمولة كل منهما عشرة آلاف طن وستة طرادات خفيفة وستين مدمرة وقطعة صغيرة. وهكذا لم يكن ثمة من خطر يتهدد أسطولنا من القطع الألمانية البحرية العائمة، ويلحق الخطر بسيطرتنا على البحار. ولم يكن هناك أدنى شك في تفوق الأسطول البريطاني على الأسطول الألماني في عدده وعدده وقوته. ولم يكن ثمة ما يجعلنا نفترض احتياج أسطولنا إلى شيء من الناحية العلمية أو التدريبية. وإذا استثنينا حاجتنا إلى بعض المدمرات والطرادات فقد كان الأسطول في مستواه الرفيع الذي نعرفه وكان عليه أن يقوم بواجبات عظيمة.

ولم تكن إيطاليا قد دخلت الحرب بعد، وكان موسوليني كما هو ظاهر يترقب الأحداث، وقد رأينا على سبيل الاحتياط أن نحول سائر ملاحاتنا إلى طريق رأس الرجاء الصالح. وكان معنا فوق تفوقنا البحري العظيم على أسطول ألمانيا وإيطاليا معًا أسطول فرنسا القوي الذي وصل بإدارة الأميرال دارلان إلى حد كبير من القوة لم تتوفر له في يوم من الأيام منذ أيام الملكية، وإذا اشتركت إيطاليا في الحرب فإن ميداننا الأول سيكون في البحر الأبيض المتوسط. وكنت أعارض معارضة كلية، إلا أن يكون إجراء مؤقتًا. كل خطة ترمي إلى التخلي عن المراكز وإغلاق مداخل ذلك البحر، وكانت قواتنا البحرية دون مساعدة الأسطول الفرنسي وموانئه الحصينة، تستطيع أن تطرد

السفن الإيطالية من البحار وتسيطر سيطرة تامة على البحر الأبيض المتوسط في خلال شهرين على أكبر تقدير.

وكان من رأي الصحافة بزعامة صحيفة التيمس أن تقوم وزارة حرب محدودة تضم خمسة وزراء أو ستة على أكثر تقدير يخلون من المسئوليات الوزارية في وزارات أخرى، وقد أشارت تلك الصحف إلى أن هذه هي الطريقة المثلى التي بها يتيسر وضع سياسة حربية قوية على أسس واسعة. ولا سيما في النواحي الخطيرة الكبيرة المدى، وكان القصد كما ذكرت تلك الصحف أن يوضع "خمسة رجال لا عمل لهم إلا إدارة دفة الحرب" إلا أن هذا الإجراء كانت تقف دونه إجراءات عملية فوجود فئة من الساسة بمنأى عن العمل - مهما تكن كفاياتهم - يجعلهم غير قادرين على التعامل مع وزراء يتولون مسئوليات الوزارات الكبيرة التي تهتم بشئون الحرب. وهذا العزل ينطبق بصفة خاصة على وزارات القوات المسلحة. وليس وزراء الحرب بمسئولين عما يقع كل يوم من الأحداث. وإذا كانوا يستطيعون أن يقدموا نصائحهم في كلمات عامة في بادئ الأمر أو ينتقدوا فيما بعد فإنهم لا يستطيعون أن يقفوا أمام وزراء البحرية أو الحربية والطيران وجهًا لوجه ليتعرفوا كل صغيرة وكبيرة ويؤيدهم زملاؤهم من المحترفين في تلك الوزارات ويتحملون المسئوليات العملية. وقد يستطيعون إذا أجمعوا أمرهم أن يقرروا ما يشاءون وإن كانوا كثيرًا ما يختلفون. ولا تنتهي فيما بينهم الحجج والأقوال. والحرب تدور رحاها وتسير في تيارها سيكون أعضاء وزارة الحرب عاجزين عن التصدي للوزراء المختصين المزودين بكل الحقائق والأرقام. وقد يؤنبهم الضمير إذا وجدوا أنهم سيضيفون متاعب جديدة لأولئك الذين يديرون الإدارة التنفيذية. ومن ثم يتحولون إلى مراقبين نظريين يقرءون ركامًا هائلاً من المواد كل يوم ولا يستطيعون أن يستخدموا معارفهم دون أن يلحقوا ضررًا بالمجهودات العامة. وقد لا يستطيعون في غالب الأحيان إلا أن يقدموا بدور الحكم وتسوية ما يقع من خلاف بين الوزارات. ولهذا كان مما لابد منه أن يكون وزراء الخارجية والدوائر الحربية

أعضاء دائمين في وزارة الحرب. وأن يكون من المحتمل أن يختار منهم عدد من الخمسة الكبار لأهميتهم السياسية لا لمعرفتهم بشئون الحرب، وهكذا أخذ العدد يتزايد عن الحد الذي كان مقررًا. فلما توليت رئاسة الوزارة لم أشأ أن أرى حولي وزراء غير مثقلين بالأعباء والأعمال وفضلت التعاون مع رؤساء دوائر ومنظمات على أن أعمل مع مستشارين. فمن الواجب أن يكون لكل منا عمله اليومي ومهامه المحددة، حتى لا يستطيع هؤلاء الذين لا عمل لهم أن يعقدوا المسائل ويخلقوا المشاكل رغبة في خلقها أو رغبة في محو رقم أو إنقاصه.

وقد أدت الأحوال القاهرة إلى التوسع في وزارة الحرب التي وضعها المستر تشمبرلين فأصبحت تضم اللورد هاليفاكس وزير الخارجية والسير صمويل هور حامل أختام الملك والسير جون سيمون وزير المالية واللورد شانفيلد وزير تنظيم شئون الدفاع واللورد هانكي الوزير بلا وزارة، وأضيف إلى هؤلاء وزراء القوات المسلحة، وهم أنا والمستر هوربليشيا وزير الحربية والسير وزير كنجزلي وزير الطيران، فضلاً عن ذلك فقد تقرر أن يحضر اجتماعات وزارة الحرب دون شرط العضوية المستر إيدن بوصفه وزيرًا للممتلكات المستقلة والسير جون اندرسون وزير الداخلية والأمن الداخلي، ومن ثم أصبح عدد الوزراء أحد عشر وزيرًا.

وكان سائر الوزراء قد ساهموا في شئون الدولة عدة سنوات في الفترة الأخيرة أو ارتبطوا بما نواجهه من الارتباطات في ميداني السياسة والحرب. ولم أشترك في الحكم منذ أحد عشر عامًا على وجه التقريب، ولهذا لم أكن مسئولاً عما مضى، ولم أكن في غفلة عن الأعداء بل على العكس كنت طوال السنوات الست أو السبع الأخيرة أتكهن دائمًا بالشرور التي أخذت أراها تنزل بنا. وإذ رأيتني اليوم أتسلح بقوة الأسطول العتيدة التي تكفلت بحمل أعباء القتال، فإن هذا الإحساس يتبدد سريعًا بما أراه من إخلاص رئيس الوزراء وزملائه وولائهم ودعتهم، وكنت أعرف بعضهم معرفة تامة. فقد عمل أكثرنا معًا في وزارة المستر بلدوين خمس سنوات كنا متصلين على الدوام

اتصالاً دوياً أو معارضاً على سنين المناظر المتغيرة للحياة البرلمانية وكنت أنا والمستر جون سيمون نمثل جيلاً سياسياً أقدم من الجيل الذي يشمل الوزراء الحاليين، وكنت أنا وهو قد قطعنا قرابة الخمسة عشر عاماً في مناصب الوزارات قبل أن يصل إليه أحد من الآخرين. وقد قمت بالعمل في وزارتي التموين والبحرية إبان الحرب العالمية الأولى، ورغم أن رئيس الوزراء كان متقدماً عني في السن بضع سنوات فقد كنت الوحيد الذي بقى بعد الطوفان. وإذا كانت الضرورة والطبيعة تحتمان عليّ اللجوء إلى قوة الشباب وإلى الأفكار الحديثة، فقد شعرت أن من واجبي أن أبذل جهدي لكي أكون نداً للجيل الحاكم. وأقف على قدم المساواة مع الجبابرة من الشباب الذين يحتمل ظهورهم على المسرح في أية لحظة.

وقد عولت على معرفتي وما لدي من حماس وعقلية متيقظة حية، ومن ثم عدت إلى طريقة التزمتها مرغماً أيام اشتغالي بالأميرالية عامي ١٩١٤ - ١٩١٥ وقد وجدت أنها تزيد من نشاطي ومقدرتي على العمل. فقد كنت أنام ساعة في الساعة الأولى من وقت الظهيرة وأشتغل إلى أبعد الحدود بهذه مقدرتي عاجلاً على النوم العميق وبهذه الوسيلة كنت أستطيع أن أؤدي عمل يوم ونصف في يوم واحد. ولم تكن الطبيعة لتسمح للإنسان أن يعمل من الثامنة صباحاً حتى منتصف الليل دون الراحة. وقد أسفت لأنني وجدت نفسي مجبراً على النوم كالطفل كل يوم. ولكن كان يخفف عني هذا الأسف أنني كنت أستطيع المضي في العمل حتى الساعة الثانية أو الثالثة أو ما بعدها من الصباح، وأعود فأبدأ يومي في الساعة الثامنة أو التاسعة، وقد سرت على هذا النظام طوال سني الحرب، والتي لأنصح كل من يجد نفسه مضطراً إلى بذل كل ما يمكن من جهد الإنسان وبنيانه أن يسير على هذا المنوال. ولما رأى لورد البحر الأول الأميرال باوند الطريقة التي أتبعها لجأ إليها لكنه كان يختلف عني في أنه لا يذهب إلى فراشه بل يسترخي على مقعده، وقد سار على هذه الطريقة إلى حد المغالاة فيها، فكنا كثيراً ما نراه نائماً في جلسات مجلس الوزراء. إلا

أن كلمة واحدة عن الأسطول كانت كافية لإيقاظه واستعادة حيويته إلى الحد الأقصى، ولم يكن يفوت عقله المتيقظ أي شيء.

وكنا في خلال ذلك نرقب حول مائدة مجلس الوزراء التدمير الآلي الخاطف لدولة ضعيفة. حسب الخطة التي ابتكرها هتلر فقد بعث أكثر من ألف وخمسمائة طائرة إلى أجواء بولندا وأرسل ستا وخمسين فرقة بينها فرقة التسع المدرعة ليتألف منها جيش الغزو. ولم يكن البولنديون في مقدرة مهاجميهم لا من حيث العدد ولا من حيث العتاد الحربي. ولم تكن خطتهم في توزيع قوتهم قائمة على أسس قويمة فقد وزعوا قواتهم على سائر حدود بلادهم، ولم يتركوا داخلها قوة احتياطية مركزية وإذا كانوا يقفون من أعدائهم هذا الموقف فقد كانوا يخافون أن يتهموا بالاستفزاز إذا عبأوا قوتهم في وقت مبكر أمام القوات الهائلة المحتشدة أمامهم، وعندما وقع الهجوم الخاطف الذي وجه ضدهم لم يكن يواجه هذا الهجوم أكثر من اثنين وثلاثين فرقة تمثل ثلث قوتهم الفعلية. وقد أدت الأحداث السريعة وتدخل القوات الألمانية الجوية إلى حجز القوات الباقية لديهم ومنعها من الوصول إلى المواقع الأمامية حتى انهارت الجبهة. ولم تستطع الاشتراك إلا في الأحداث الأخيرة. وهكذا واجه البولنديون الغزو على ضعف قواتهم في جبهة طويلة دون أن يجدوا وراءهم سندًا. ولم يكن ضعفه من خصومهم راجعًا إلى الناحية العددية فحسب، بل كانوا ضعفاء في قوة المدفعية. ولم تكن لديهم إلا كتيبة واحدة مدرعة أمام تسع فرق ألمانية مدرعة. وكانت فرقة الفرسان الاثنى عشرة تهاجم الدبابات والسيارات المدرعة بسيوفها ورماحها ولكنها لم تستطيع أن تلحق بها أي أذى. وقد فوجئت قواتهم الجوية - وتبلغ تسعمائة طائرة للخط الأمامي منها نحو نصفها من النوع الحديث - في مطاراتها ودمر عدد كبير منها قبل أن تطير في الهواء. ولم يمض على الحرب يومان حتى كانت القوة البولندية قد توغلت بعيدًا داخل بولندا، ولقد كانت المقاومة شديدة قوية باسلة، ولكنها لم تجد نفعًا وانهار الجيش البولندي ويبلغ عدده مليونين اسما في مدى أسبوعين.

وجاء دور السوفيات. فقد أخذوا يطبقون ما يسمونه الديمقراطية. وفي السابع عشر من شهر سبتمبر تدفقت الجيوش الروسية على حدود بولندا الشرقية المجردة من الدفاع واتجهت غربًا في جبهة واسعة. وفي الثامن عشر من سبتمبر التقوا بالألمان الذين يتعاونون معهم في بريست لتوفسك. وكان البلاشفة قد نقضوا اتفاقاتهم الرسمية مع حلفائهم الغربيين وعقدوا صلحًا مع جيوش القيصر الألماني خاضعين لشروط الألمان القاسية. أما اليوم فقد وقفوا مع جيش هتلر في بريست ليتوفسك يصافحونها. واستمر تدمير بولندا واستعبادها على حده الأكمل. وكانت مقاومة وارسوا بفضل العزيمة الجبارة التي أبداها أبناؤها عظيمة. ولم تمض أيام طويلة من قصف المدافع من الجو والمدفعية الثقيلة التي نقل أكثرها بصفة سريعة من الطرق الألمانية الرئيسية من الجبهة الغربية وتوقفت إذاعة وارسو عن إذاعة النشيد الوطني البولندي ودخل هتلر إلى أطلال المدينة وهكذا قضي الأمر كله في شهر واحد. ووقع شعب عدده خمسة وثلاثون مليونًا في قبضة لا ترحم لقوم لا يبحثون عن الاحتلال فحسب، بل يريدون استعباد السكان وإهلاكهم.

وقد شاهدنا صورًا صحيحة للغارات الجوية الساحقة والتعاون بين قوات الجو والقوات البرية في ميادين القتال وسحق طرق المواصلات وتسليح الطابور الخامس والاندفاع الذي لا يقاوم لقوات هائلة من الميكاويكيات والمدرعات. وليس البولنديون بآخر من قدر لهم هذا البلاء.

الجبهة الفرنسية

اتجهت القوة البريطانية نحو فرنسا عندما بدأت الحرب وما كدنا نصل إلى منتصف شهر أكتوبر حتى كانت أربع فرق بريطانية من المحترفين قد احتلت مواقعها على الجبهة الفرنسية البلجيكية، ولم يحل شهر مارس سنة ١٩٤٠ حتى كانت ست فرق أخرى قد انضمت إلى هذه الفرق. فأصبح

مجموعها عشر فرق وقد انتظمت جبهتنا بازدياد قواتنا، ولكننا لم نكن على اتصال بالعدو في أي مركز من المراكز.

فلما وصلت الحملة البريطانية إلى مواقعها، وجدت الخنادق معدة للدبابات على طول الخط، وعلى أبعاد حوالي ألف ياردة مواقع من الأسمنت تتيح إطلاق نيران من الخنادق بالمدافع الرشاشة والمضادة للدبابات، وكانت الأسلاك الشائكة مقامة في نطاق متصل. وكانت مهمة جنودنا في فصلي الخريف والشتاء متجهة إلى تحسين مواقع الدفاع التي أقامها الفرنسيون وتنظيمها على صورة من خط سيجفريد.

وكان العمل يسير بخطى واسعة على الرغم من الجليد المتراكم، وقد ظهر من الصور الجوية التي أخذت أن الألمان كانوا يقومون بتوسيع خط سيجفريد باتجاه الشمال عبر الموزيل، وعلى الرغم من المزايا التي يفيد بها الألمان لقرب المواد الأولية وتيسير العمل. فقد كان عملنا يسير بنفس السرعة التي يسيرون بها. وأقيمت المنشآت اللازمة لإقامة قاعدة كبيرة كما تم تحسين الطرق. ومدت سكك حديدية واسعة طولها مائة ميل. وتم إنشاء وتحسين ما يقرب من خمسين مطارًا جديدًا وقاعدة صغيرة، وقد جمعت خلف جبهتنا مقادير كبيرة من المعدات والعتاد على طول طرق مواصلاتنا. وأعدت المئونة الكافية لعشرة أيام بين السين والسوم وسبعة أيام إضافية أخرى إلى الشمال من السوم. مما كان له أثر كبير في إنقاذ جيشنا بعد أن اخترق الألمان الجبهة وكانت فترة الهدوء فرصة سانحة لاستخدام الموانئ الواقعة إلى الشمال من الهافر على التوالي حتى أمكننا في النهاية أن نستخدم نحو ثلاثة عشر ميناء من الموانئ الفرنسية.



وكانت الروح الحماسية في الجيش الفرنسي والشعب سنة ١٩١٤ تلك الروح التي اشتعلت في نفوس الآباء والأبناء منذ سنة ١٨٧٠ روحًا هجومية

شديدة، وكانوا يعتقدون أن الدولة الأقل عددًا في مقدورها أن تواجه الغزو إذا قامت بهجوم مضاد كل نقطة استراتيجية وتكتيكية، ولكن فرنسا اليوم كانت غير فرنسا التي قامت في أغسطس سنة ١٩١٤ تهاجم عدوها القديم، وكانت روح الثأر قد انطفأ لهيبها بالنصر الذي أحرزته، وكان القادة الذين حققوه قد فارقوا الحياة منذ زمن بعيد، وكان الشعب الفرنسي قد أدرك معركة راح ضحيتها نحو مليون ونصف من خيرة رجاله، وكانت الأعمال الهجومية عند الفرنسيين مقترنة بفكرة الفشل الأول الذي أصاب هجومهم سنة ١٩١٤ والفشل الثاني الذي أصاب الجنرال نيفيل سنة ١٩١٧ وما قاسوا من الآلام الطويلة في هجومي السوم وباشنديل، وقد وقع في روعهم أن قوة النار الضاربة للأسلحة الحديثة تكون مدمرة للمهاجم، ولم يكن في فرنسا ولا في بريطانيا فهم واقعي للحقيقة الجديدة، وهي أن السيارات المدرعة تستطيع أن تقف أمام نيران المدفعية وتتقدم مائة ميل في اليوم، ولم يلق الكتاب القيم الذي صدر في هذا الموضوع باسم رجل يسمى القومندان ديجول أي اهتمام، وكانت سلطة المارشال العجوز بيتان في مجلس الحرب الأعلى قد طغت على الفكر العسكري الفرنسي، وسدت الطريق أمام سائر الأفكار الحديثة، ولم تشجع على قبول أية فكرة من الأسلحة الحديثة.

وقد طرقت أسماعنا بعد الحرب حملات ضد سياسة خط ماجينو، ولا شك أن هذه السياسة قد أوجدت عقلية دفاعية لدى الفرنسيين ومن التدابير الوقائية السديدة للدفاع عن حدود تمتد إلى مئات الأميال أن يشاد أكبر عدد من السدود والحصون.



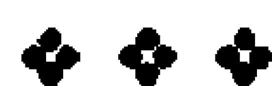
وكان من الممكن إذا استخدم خط ماجينو استخدامًا حسنًا في خطة فرنسا الحربية أن يؤدي خدمة عظيمة لفرنسا.

وإذا نظرنا بعين الاعتبار إلى أنه يكون سلسلة طويلة من نقط الاندفاع ذات الأثر البالغ، وكذلك الجيوب ويقف حاجزًا لأماكن شاسعة م الجبهة ليترك مجالاً لإعداد القوات الاحتياطية والمناورات الواسعة، وإذا نظرنا كذلك إلى عدم التعادل في عدد السكان بين فرنسا وألمانيا استطعنا أن نقرر أن إقامة خط ماجينو كان عملاً في منتهى الحكمة والسداد. ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن هذا الخطر لم يمد على نهر الموز بصورة صحيحة. ولو امتد على طول هذا النهر لكان حصنًا واقيًا ييسر لفرنسا تقوية جيشها الهجومي. ولكن المارشال بيتان عارض هذا الامتداد ورأى ووافقه مجلس الحرب الأعلى على رأيه أن الأردين لا يمكن أن تكون ميدانًا للهجوم لطبيعة أرضها.

ولما زرت ميتز سنة ١٩٣٧ شرح لي الجنرال جيرو الاعتبارات الهجومية لخط ماجينو ولكن آراءه لم تنفذ، ومن ثم كان خط ماجينو سببًا في حجز عدد كبير من الجنود النظاميين المدربين والفنيين، كما أنه خلق نوعًا من التهدئة في نظام الاستراتيجية العسكرية والوعي القومي.

وقد اعتبرت السلاح الجوي سلاحًا قويًا في سائر العمليات الحربية، وإذا نظرنا إلى النقص النسبي في أعداد الطائرات لدى الفريقين في ذلك الوقت، عرفنا أن تأثيرها قد بالغ فيه كثيرًا. وقد اعتبر مجرد عامل في عرقلة تجمع الجيوش الكبيرة وطرق مواصلاتها عند الشروع في الهجوم. وعلى الرغم من أن أعداد الطائرات الألمانية في ذلك الحين كأعداد طائرات الحلفاء لم يكن كافيًا للقيام بمثل هذا العمل، فإن القيادة العليا الفرنسية قد أيقنت بأن فترة التعبئة خطيرة للغاية، لما ينتظر من تدمير مراكز السكك الحديدية بسبب الغارات.

وقد دلت الظروف في السنوات الأخيرة على صحة الآراء التي أعرب عنها قادة السلاح الجوي، حين أصبحت القوة الحربية عشرة أضعاف أو عشرين ضعفًا مما كانت عليه عند بدء الحرب.

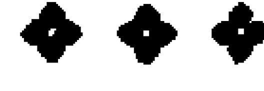


منَ النكات التي تدور على الألسنة في بريطانيا أن وزارة الحربية تستعد اليوم للحرب الماضية. وقد تصح هذه النكتة على بعض الوزارات وبعض البلاد. لكنها كانت صادقة تمامًا بالنسبة للجيش الفرنسي، وكنت أرى ميزة عظمى للإجراءات الدفاعية إذا نفذت تنفيذًا عمليًا. ولم أكن مسئولاً ولم تتوافر لدي المعلومات الكافية لأضع في حسباني فكرة دقيقة جديدة عن كل حال. وكنت أدرك أن مذابح الحرب الماضية قد خلفت في نفوس الفرنسيين أثرًا بالغًا، وقد وجد الألمان فرصة سانحة لبناء خط سيجفريد. وقد كان من الخطر أن نلقى بالبقية من الشبيبة الفرنسية في أتون من النار والأسمنت المسلح لكي تقتحم هذا الحصن. وكانت وجهة نظري في هذه الحرب العالمية الثانية لا تختلف من الوجهة العامة من حيث الدفاع، وكنت أعتقد أن السلاح المكافح للدبابات ومدافع الميدان في مقدورها إذا وزعت بطريقة سديدة وتوفر لها العتاد أن تشل حركة أية دبابات أو تحطمها تحطيمًا، إلا إذا كان الظلام مخيمًا والضباب منتشرًا سواء أكان حقيقيًا أو صناعيًا.

ولا تتكرر المشاكل على حالها فيما تفرضه القدرة الإلهية على عبيدها، وإذا تكررت فإن ما بينها من المفارقات تحول دون تعميم الحكم عليها. وإذا لم يكن العقل البشري موجهًا بعبقرية استثنائية فإنه لا يستطيع أن يقف أمام الحقائق المقدرة التي عاش تحت أعبائها. وقد رأينا هتلر بعد ثمانية أشهر من التبلد بين الجانبين يبدأ هجومًا عنيفًا شاملاً تتقدمه حشود كبيرة من السيارات ذات الفولاذ الذي لا تؤثر فيه المدافع لمتانته فتحطم سائر المقاومات الدفاعية وتجعل من المدفعية لأول مرة في تاريخها منذ اخترع البارود سلاحًا عاجزًا، وقد قدر لنا أن نرى أن ازدياد القوة النارية قد قلل من عدد الضحايا فجعل في الإمكان الاحتفاظ بالأرض اللازمة بأقل عدد من الجنود، مما أبعد العنصر الإنساني عن الهدف.

وعلى أية حالة لم يكن في مقدور الفرنسيين أن يقوموا بأي هجوم قبل انتهاء الأسبوع الثالث من شهر سبتمبر. ولكن قوة المقاومة البولندية كانت قد

انتهت في ذلك الوقت، وفي منتصف شهر أكتوبر كان الألمان قد حشدوا سبعين فرقة في الجبهة الغربية، ومن ثم لم يكن للتفوق العددي الفرنسي أي أثر.



وإذا قام الفرنسيون بهجوم في جبهتهم الشرقية تعرت جبهتهم الشمالية وهي أكثر أهمية وأشد حيوية من الأولى. وحتى إذا أحرزوا نصرًا في البداية فلن ينقضي شهر حتى يجدوا أنفسهم غير قادرين على المحافظة على الأماكن التي احتلوها أضعف مما كان متوقعًا، فإن هذا الخط سيكون مقدمة طيبة للدخول إلى ألمانيا والإشراف على منطقة الروهر الحيوية للإنتاج الألماني الحربي.

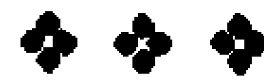
ويقول رؤساء أركان الحرب "أن الخطة الفرنسية التي تدعى خطة "د" قائمة على أن البلجيكيين إذا استطاعوا الاحتفاظ بحوض نهر الموز فإن على الجيوش الفرنسية والبريطانية أن تعجل باحتلال خط جيفيت ـ نامور وتعمل القوات البريطانية في الناحية اليسرى.

وليس من المعقول تنفيذ هذه الخطة ما لم يكن البلجيكيون قد اشتركوا في وضعها في وقت كاف قبل بدء الزحف الألماني. وإذا لم يتغير موقف بلجيكا الحالي وتوضع الخطط اللازمة لاحتلال خط جيفيت ـ نامور الذي يسمى أحيانًا بخط الموز ـ انتويرب في وقت مبكر. فإننا نرى بصفة قاطعة أن علينا أن نواجه الزحف الألماني في مواقع نعدها في وقت مبكر على الحدود الفرنسية نفسها".



وفي السابع عشر من نوفمبر اجتمع مجلس الحلفاء الأعلى، وقد اصطحب المستر تشمبرلين معه اللورد هاليفاكس واللورد شاتفيلد والسير كتجزلي وود. واتخذ القرار على الصورة الآتية: "للأهمية القصوى التي نعلقها على بقاء الألمان

في أقصى نقطة إلى الشرق، ليتحتم بذلك كل محاولة للمحافظة على خط الموز ـ انتويرب إذا تعرضت بلجيكا للغزو الألماني، وقد تمسك المستر تشمبرلين والمسيو دلادبيه في هذا الاجتماع بأهمية هذا القرار، ومن ثم أصبح لهذا القرار التأثير على العمليات الحربية. وهكذا أمضينا فصل الشتاء وأخذنا ننتظر الربيع. وفي خلال الأشهر الستة التي انقضت بين هذا القرار وبين الكارثة الألمانية لم تتخذ أية قرارات ذات أهمية استراتيجية من أركان الحرب البريطانيين والفرنسيين.



وأمضت الحملة البريطانية الربيع والشتاء وهي تعد مواقعها وتقوي خطوطها استعدادًا لحرب هجومية أو دفاعية. وقد اشترك الجميع في هذا الإعداد من أكبر ضابط إلى أصغر جندي. وكان المظهر العظيم الذي ظهرت به الحملة راجعًا إلى حسن استغلال الفرص في الشتاء، وكان الجيش البريطاني في نهاية مرحلة بوادر الحرب أعظم مما كان عليه، إذ سيتعرضون بصفة خاصة للهجوم المضاد الذي يشنه الجيش الألماني مجتمعًا من الشمال.

هذا هو الرد على سؤال كثيرًا ما تردد على الأذهان وهو "لماذا ظللتم ساكنين حتى تم تدمير بولندا؟" لقد تقرر الأمر في هذه المعركة منذ سنوات، وكانت هناك فرصة طيبة للنصر سنة ١٩٣٨ وتشيكوسلوفاكيا قائمة. وفي سنة ١٩٣٦ لم يكن هناك شك في مقاومة فعالة، وكان في استطاعة عصبة الأمم سنة ١٩٣٣ أن تخضع الألمان دون حاجة إلى سفك الدماء. ونحن لا نستطيع أن نلوم الجنرال جملان وحده لأنه في سنة ١٩٣٩ لم يجازف بالحد من هذا الحال التي ازداد خطرها منذ الأزمات السابقة التي تراجعت أمامها الحكومتان البريطانية والفرنسية.

ما عسى أن تكون احتمالات الهجوم العام الذي يشنه الألمان على فرنسا؟ هناك ثلاثة طرق. الأول: أن يقوم الهجوم من جهة سويسرا حول الجناح الجنوبي

لخط ماجينو ولكن عقبات كثيرة جغرافية واستراتيجية تحول دون ذلك. والثاني: أن تغزى فرنسا من الحدود المشتركة بين البلدين. ولم يكن هذا متوقعًا، فإن الجيش الألماني لا يملك المعدات والأسلحة اللازمة لاختراق خط ماجينو. والثالث: غزو فرنسا عن طريق بلجيكا وهولندا. وهجوم مثل هذا يمكن أن يتجنب خط ماجينو ويجنب القيادة الألمانية الخسائر المتوقعة من هجوم على تحصينات منيعة موطدة الأركان. ولم يكن في مقدورنا أن نصد هجوم خاطفًا على الأراضي المنخفضة ونرده عن هولندا، وإن كان من صالح الحلفاء وقفه إذا أمكن عن بلجيكا. وكان أمام الحلفاء خطان إذا سمحت بلجيكا بأن يتقدموا نحوهما بناء على خطة سرية.

الخط الأول هو ما يدعى بخط "الشلدت" ولا يبعد كثيرًا عن الحدود الفرنسية وليس في الوصول إليه مغامرة. وتستطيع الاحتفاظ به "كجبهة مخيلة" على أسوأ احتمال، أما في أحسن الاحتمالات فإننا نستطيع أن نشيده ونبنيه وفق ما تدعو الحال.

أما الخط الثاني فإنه أكثر إغراء فهو يسير مع نهر الموز من جيفيت ودينانت ونامور ولوفين إلى انتويرب. وقد يتوقف الجناح الأيمن للغزو الألماني إذا أمكنت السيطرة على هذا الخطر في معارك عنيفة. وإذا ثبت بعد المعركة أن الجيوش الألمانية عند بدايتها كما كان أكبر عددًا وعدة، ولكن كانت هناك ثغرة نظامنا الذي سبق الحرب وهي أن الحملة البريطانية في فرنسا لم يكن لديها فرقة مدرعة. فبريطانيا أم الدبابات بسائر أنواعها. قصرت في تقدم هذا السلاح في الفترة ما بين الحربين، وهو السلاح الذي كان له أكبر شأن في ميادين القتال. ولم يكن في حوزتنا بعد مرور ثمانية أشهر على إعلان الحرب مع جيشنا الصغير والممتاز - رغم صغره في الساعة الحرجة - إلا كتيبة الدبابات التي تشمل سبع عشرة دبابة خفيفة ومائة دبابة مشاة، يحمل ثلاث وعشرون منها المدفع عيار رطلين.

وتكتفي الباقية بحمل المدافع الرشاشة. وكان هناك سبعة أفواج من الخيالة والفرسان المجهزة بالمدافع المنقولة والدبابات الخفيفة. وهي في طريق إعدادها في صورة لواءين مدرعين.

ولم تكن الأمور على الجبهة الفرنسية أحسن منها عندنا. ففي الجيش القائم على أسس التجنيد القومي، يكون لآراء الشعب أثرها البالغ، لا سيما إذا كان الجيش مقيمًا في أرض الوطن. وكانت الصلة بينه وبين أفراد الشعب وثيقة العرى. ولا نستطيع أن نقول أن فرنسا في سنة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ واجهت الحرب بثقة أو بروح معنوية رفيعة. وكان ما يحيط السياسة الداخلية من قلق وريب في الفترة المنصرمة قد خلق حالة من الفرقة والسخط. فثمة عناصر ذات أهمية اتجهت إلى الفاشية كرد فعل للشيوعية المتفشية، وكانت هذه العناصر تصغى إلى دعاية جوبلز الماهرة. وتحفظها وتنشرها بمختلف الطرق من همسات وشائعات. وهكذا كانت الشيوعية والفاشية كل منهما يقوم بدوره في التأثير على الجيش. وقد أتاحت أشهر الانتظار الطويلة في الشتاء الفرصة لنشر هذه السموم.

وثمة عوامل كثيرة تشترك في رفع بناء القوة المعنوية في أي جيش من الجيوش. وأهم هذه العوامل أن يستخدم الناس بصورة كاملة في أعمال نافعة. والبطالة تربة صالحة خطرة. وكانت في الشتاء أعمال كثيرة تحتاج إلى عناية. وكان التدريب يحتاج إلى اهتمام والوسائل الدفاعية لم تكن بحالة مرضية. حتى خط ماجينو نفسه كان في حاجة إلى بعض أعمال الميدان الإصلاحية لأن الكفاية الجسمانية تحتاج إلى التدريب. وكان كل من يزور الجبهة الفرنسية تعتريه الدهشة لذلك الهدوء المسيطر عليها والصورة السيئة للعمل الذي يجري بها. وفقدان النشاط بكافة أنواعه بين الفريقين. وكان عجيبًا خلو الطرق من وراء الخطوط بالمقارنة بالحركة الدائمة التي تمتد أميالاً وراء القطاع البريطاني.

وما من شك في أن كفاية الجيش الفرنسي قد تأخرت خلال فصل الشتاء، ولو قاتل في الخريف المنصرم لكان قتاله أعظم منه في الربيع، وقد قضى سريعًا على هذا الجيش بالدمار أمام القوات الألمانية المكتسحة الخاطفة. ولم ترتفع روح الجندي الفرنسي وما له من كفاية إلى الظهور إلا في المراحل الأخيرة من تلك الحملة القصيرة، حين أصبح في حاجة ملحة للدفاع عن أرض بلاده ضد عدوه المعروف، ولكن كان الوقت قد فات.

وقد تأكد ما كان يساور نفسي من المخاوف بالنسبة للجبهة الغربية، فقد صدرت الأوامر إلى ضابط من أركان حرب الجيش الألماني من الفرقة الجوية السابعة بأن يحمل وثائق هامة إلى مقر القيادة العامة في كولون، وقد فاته القطار فقرر السفر بالطائرة. وأخطأت طائرته عند خط الحدود الفاصل فنزل اضطرارًا في الأرض البلجيكية فاعتقلته القوات البلجيكية واستولت على أوراقه التي حاول عبثًا أن يبددها. وقد اشتملت هذه الوثائق على الخطة الكاملة لغزو بلجيكا وهولندا وفرنسا وهي الخطة التي وضعها هتلر. وقد أطلق سراح "الميجور" الألماني ليعود إلى رؤسائه ويوضح لهم ما كان، وقد نقلت إلى تفاصيل الحال في وقتها. ولم أكد أصدق أن البلجيكيين يضعون خطة ويشركوننا فيها. وكان ثمة حوار بين البلاد الثلاث في هل تكون هذه الخطة قد وضعت للخداع والتضليل. وهذا الاعتقاد خاطئ إذ لم يكن هناك ما يدعو الألمان لإيهام البلجيكيين بخطة تجعلهم في تمام الأهبة مع الجيوش الفرنسية والبريطانية وقد أيقنت بوقوع هذا الغزو.

وطلبنا إلى البلجيكيين أن يتعاونوا معنا في هذا الأمر، ولكن ملك بلجيكا وقادة جيشه فضلوا الانتظار فربما حدث ما يغير الأمور ويحولها إلى مصلحتهم. وعلى الرغم من الوثائق التي ضبطت مع "الميجور" الألماني فإن قيادة الحلفاء أو الدول المهددة لم تقم بأي عمل، أما هتلر بعد أن تأكد من مصادرة الوثائق هي في الحقيقة وثائق الغزو كاملة، فقد استدعى جورنج، وأمره بإعداد خطة جديدة بعد أن أنبه وغضب عليه غضبًا شديدًا.

ولو كانت السياسة البريطانية والفرنسية في السنوات الخمس السابقة للحرب قد صممت على المحافظة على قداسة المعاهدات وتمسكت بقرارات عصبة الأمم. لوقفت بلجيكا إلى جانب حلفائها الأقدمين، وسمحت بإقامة جبهة مشتركة معهم. ولم تم ذلك لكان حصنًا قويًا على طول الخطوط البلجيكية الممتدة إلى البحر ضد حركة الالتفاف الخطرة التي كادت تطيح بنا سنة ١٩١٤، والتي أطاحت بفرنسا سنة ١٩٤٠، وما كانت بلجيكا ترى مصيرًا كالذي رأته على أسوأ الاحتمالات.

ونحن إذا استعرضنا الأمر ونظرنا إلى انزواء الولايات المتحدة وإلحاح المستر ماكدونالد في حملة نزعه سلاح فرنسا، وما لاقيناه من الإذلال والنكسة من تعدد حوادث خرق الألمان بنود المعاهدة في منطقة الراين وتسليمنا بالاستحواذ على النمسا وميثاقنا في ميونيخ، وقبولنا احتلال الألمان براج. فإننا لا نجد لأي شخص من المسئولين في بريطانيا وفرنسا في تلك الأيام مبررًا للوم بلجيكا. فقد فضل البلجيكيون أن يتبعوا سياسة الحياد في وقت سيطرت عليه سياسة التردد والخذلان وتعلقوا بالأمل الواهن في قدرتهم على أن يقفوا في وجه الألمان الغزاة أمام حدودهم الحصينة، حتى تصل إلى نجدتهم الجيوش البريطانية والفرنسية.

على أهبة الاستعداد ١٩٤٠

في هذه الآونة من صيف ١٩٤٠، أصبحنا منفردين، بعد اندحار فرنسا ولم يكن في مقدور دول (الدومينون) أو الهند أو المستعمرات أن تمدنا بالمساعدات اللازمة التي كنا في أمسّ الحاجة إليها، وكانت الجيوش الألمانية الجرارة المنتصرة المدربة وقد توافر لها السلاح الاحتياطي الضخم، والمستودعات والمصانع التي استولت عليها غنيمة باردة. أخذت هذه الجيوش تستعد للمعركة الفاصلة.

ووقفت إيطاليا بقواتها الكثيفة الجرارة ـ وقد أعلنت الحرب علينا ـ تبحث في لهفة عن سبيل لتدميرنا في البحر المتوسط ومصر.

ووقفت اليابان في الشرق الأقصى تنظر إلينا نظرة غريبة يتعذر علينا تفسيرها وتطالبنا في إلحاح وتهديد بإغلاق طريق بورما في وجه المساعدات إلى الصين، وكانت روسيا السوفيتية ـ المرتبطة مع ألمانيا النازية بميثاقها ـ تقدم إلى هتلر مساعدات هامة من المواد الخام.

أما أسبانيا ـ وقد احتلت منطقة طنجة الدولية ـ فربما تغدر بنا بين أونة وأخرى فتطالبنا بجبل طارق، وقد تستنجد بألمانيا لمساعدتها في احتلاله، أو في إقامة بطاريات المدفعية الهائلة لتعويق أسطولنا عبر المضيق وقد انتقلت الحكومة الفرنسية التي يرأسها بيتان إلى فيشي، وأصبح من المنتظر بين أونة وأخرى. إعلانها الحرب علينا. على أن بقية الأسطول الفرنسي في طولون قد أصبحت في قبضة الألمان. وهكذا رأينا أننا لسنا في حاجة إلى مزيد من الأعداء.

وأيقن العالم ـ بعد وهران ـ أن الحكومة والشعب في بريطانيا مصممان على القتال حتى النهاية.

ومع أنه لم تضعف معنوية بريطانيا، إلا أن السؤال الذي ظل يراودنا هو: كيف يمكن لنا أن نجتاز هذه الصعوبات القائمة؟ لقد كان من المعروف أن جيشنا في الوطن لا يحمل سلاحًا أكثر من البنادق، وستمضي مدة قبل أن تقدر مصانعنا على تعويض ما خسرناه من عتاد في دنكرك.. أليس من العجيب بعد كل هذا ألا يكون العالم بأكمله قد أصبح على يقين من أن ساعتنا الأخيرة قد حانت؟..

وانتشر الرعب في الولايات المتحدة وسائر الدول الحرة الأخرى وأخذ الأمريكيون يتساءلون في اهتمام: هل من واجبهم أن يجازفوا بمواردهم المحدودة الضئيلة إرضاء للمشاعر الطيبة وحدها وإن كانت المخاطرة ميئوسًا منها؟..
أليس من الأجدى أن يبذلوا أي جهد وأن يوفروا كل سلاح لملاقاة ضعف استعدادهم. وكان التغلب على هذه الأسانيد يتطلب منطقًا مستقيمًا وعلى جانب من الثقة، ولا ريب في أن الشعب البريطاني مدين لرئيس الولايات المتحدة وكبار القادة والمستشارين، لأنهم على الرغم من اقتراب موعد انتخابات المرة الثالثة للرئاسة لم يتخلوا عن ثقتهم القوية في تصميم بريطانيا وقدرتها على النضال. وليس من شك في أن تصميم بريطانيا القوي لم ينله الضعف أو وهن - وقد كان لي شرف التعبير عنه - كان عاملاً من عوامل رجحان كفتنا في القتال.

فهذا الشعب الذي ظل في سنوات ما قبل الحرب يسير في طريق المسالمة وعدم التفهم، ويخوض غمار المهازل الحزبية، ويغرق إلى أبعد الحدود في لجة السياسات الأوروبية بلا وجل.. هاهو ذا الآن يلاقي مصير تقصيره في التأهب والاستعداد، وثمرة اتكاله على النوايا الحسنة والحوافز الكريمة ولكن العالم يراه في نفس الوقت مصممًا على أن تصبح بلاده قطعة من الخراب قد تبدو جزيرته ذليلة خانعة.

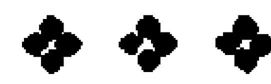
وهذه بلا جدال إحدى صفحات التاريخ الرائعة، ولكنها ليست الصفحة الوحيدة به، فعندما استولى الاسبارطيون على أثينا، أصرت قرطاجنة على الصمود والاستبسال حتى الموت أمام روما، والتاريخ زاخر بصفحات أخرى كثيرة عن شعوب استماتت في النضال، ودول شجاعة تفيض بالكبرياء، آثرت أن تفنى وأن تموت وألا يبقى لها أثر.

ولم يكن هناك في ذلك الحين سوى أقلية معدودة من البريطانيين والأجانب تقف على الأهمية الاستراتيجية لموقعنا الجغرافي المنعزل، ولم يكن كثيرون قد عرفوا في مدى سنوات ما قبل الحرب أننا كنا نحافظ على مقومات دفاعنا البحري والجوي، وقد مضى على الجزر البريطانية ما يقرب من ألف عام لم تشهد أرضها نيران غزو من الجو، وظل كل بريطاني في قمة الكفاح محتفظًا بهدوء أعصابه، راضيًا كل الرضا بالتضحية بحياته في سبيل بلاده وسرعان ما أخذ الأعداء والأصدقاء في سائر بلاد العالم يدركون أن هذه هي طبيعتنا الأصلية.. وماذا يكمن خلفها؟.. إنه الأمر الذي يمكن أن يتجلى في الشدائد.

وكانت هناك ناحية أخرى، فقد تعرضنا خلال شهر يونيو لخطر جسيم.. فقد رأينا آخر ما لدينا من قوات احتياطية تسحب ليقضي عليها في محاولة يائسة في فرنسا، وأن قواتنا الجوية تتضاءل شيئًا فشيئًا في هذه الغارات التي نمضي بها إلى القارة أو في نقلها إلى هناك. ولو كان هتلر موهوبًا أو متمتعًا بحكمة خارقة، لأبطأ في هجومه على الجبهة الفرنسية مدى ثلاثة أسابيع أو أربعة بعد معركة دنكرك على خط عند السين، ليتم استعداداته للهجوم على إنجلترا.. ولو حدث هذا لأصبحنا في وضع رهيب لا خيار لنا فيه، فإما أن نتخلى عن فرنسا وفي هذا تعذيب لنا، وألم لفرنسا، وإما أن ننشر قواتنا وننشرها مع ما في هذه القوات من ضرورة قصوى لمستقبلنا وحياتنا، إذ كلما حفزنا الفرنسيين على الاستمرار في القتال، تحتم علينا أن نغدق العون لهم، وهذا بطبيعة الحال يؤدي إلى اشتداد الصعوبات في طريق إعدادنا للدفاع

عن إنجلترا نفسها، ولا سيما بالنسبة للأسراب الخمسة والعشرين من الطائرات المقاتلة التي يتوقف مصير كل شيء عليها. وبالطبع كان مستحيلاً أن نتخلى عن هذه الأسراب، ولكن رفضنا سيؤدي بالتأكيد إلى إغضاب حليفتنا المستبسلة مما يعكر صفو علاقتنا، وعلى هذا فقد رأينا عددًا من كبار قادتنا ينظرون إلى مشكلاتنا الهينة نوعًا ما - بعد أن أصبحنا وحدنا - بشيء من الراحة، وكأن عبئًا ثقيلاً قد انزاح عن كواهلهم، وأصبح وضعنا كوضع مدرب أحد النوادي العسكرية الذي أخذ يخاطب لاعبًا قد تهاوت معنوياته بقوله:

"أيًا ما كان الأمر فقد بلغنا المعركة الفاصلة، وسيكون نادينا ميدانها".



لم تكن القيادة الألمانية العليا، حتى هذه الفترة قد استهانت بقيمة ما عليه مركزنا من قوة، وقد روى تشيانو أنه قابل هتلر في برلين في ١٧ يوليو ١٩٤٠م، وتحدث هو والجنرال فون كايتل طويلاً، كما تحدث هتلر نفسه عن غزو لإنجلترا، فأكد له أن الرأي لم يستقر نهائيًا على أي شيء وقد ذكر أن عملية النزول إلى البر في إنجلترا غير مستحيلة ولكنها صعبة جدًا ويجب أن تقوم بها ألمانيا وهي في غاية الحذر، إذ أن أخبارنا عن الترتيبات العسكرية في الجزيرة، وطرق الدفاع عن شواطئها قليلة وغامضة ومثبتة في صحتها "وأضاف كايتل أن ما يبدو سهلاً وجوهريًا هو شن هجوم جوي مركز على المطارات والمصانع ومراكز المواصلات الرئيسية في بريطانيا العظمى، ومن المحتم أن يعرف كل إنسان أن السلاح الجوي البريطاني في منتهى القوة، وذكر كايتل أن هذا السلاح يتألف من حوالي ألف وخمسمائة طائرة مستعدة لأعمال الدفاع والهجوم المضاد، واعترف بأن الغارات التي يقوم السلاح الجوي البريطاني قد تزايدت كثيرًا، وأنا من ناحية إصابة الأهداف من الجو في غاية المهارة، وكان عدد الطائرات المغيرة في كل مرة يصل إلى الثمانين، لكن إنجلترا تعاني

نقصًا شديدًا في الطيارين، وليس في وسعها أن تستعيض عن هؤلاء الذين يهاجمون المدن الألمانية الآن بالطيارين الجدد الذين ينقصهم التدريب إلى حد كبير.

وأصر كايتل أيضًا على ضرورة توجيه ضربة إلى جبل طارق لقطع شرايين المواصلات البريطانية وشل حركتها، ولم يشر كايتل أو هتلر إلى مدة الحرب أو أجلها، وكان هتلر وحده هو الذي ذكر عرضًا بأن الحرب يجب أن تنتهي قبل مستهل شهر أكتوبر.

هذا هو التقرير الذي وضعه تشيانو في مذكراته، وقد عرض على هتلر استجابة لطلب الدوتشي العاجل إمداده بحوالي عشر فرق من قواته ووحدة جوية تتكون من ثلاثين سربًا، للمساهمة في الغزو، وقد اعتذر هتلر عن قبول القوات البرية في لباقة ووصلت بعض الأسراب الجوية الإيطالية ولكنها لم تصب نجاحًا في مهمتها كما سوف نذكر.

وقد ألقى هتلر في ١٩ يوليو خطاب القائد المنتصر في اليشتاغ وبعد أن تنبأ بأني سألجأ إلى كندا قدم ما يمكن أن يسمى عرضًا للصلح وقد اعتذر هتلر عن قبول القوات البرية في لباقة، ووصلت عن طريق السويد والولايات المتحدة والفاتيكان.

وبدا من الطبيعي أن هتلر بعد أن خضعت أوروبا كلها لإرادته سيكون في غاية السرور إذا تمكن من الحصول على موافقة بريطانيا على كل ما فعله، ولم يكن العرض في الحقيقة يتناول السلام، وإنما يتناول الاستعداد لتقبل إذعان بريطانيا للتخلي عن كل ما خاضت الحرب من أجله.

وفكرت أول الأمر في إثارة الموضوع بصفة رسمية في البرلمان، ولكن زملائي الوزراء رأوا أن مثل هذا العمل يؤدي إلى التشويش حول موضوع كنا جميعًا متفقين عليه. وتقرر ـ بدلاً من ذلك ـ أن يكلف وزير الخارجية بالرد على

عرض هتلر في إذاعة موجهة في يوم ٢٢ يوليو حديثًا أطرح فيه دعوة هتلر لنا بالاستسلام لمشيئته.

ووازن فيه بين أوروبا الهتلرية وأوروبا التي نقاتل في سبيل حمايتها، وأعلن أننا لن نتوقف عن القتال حتى نضمن وجود الحرية.. وفي خلال ذلك كانت الصحافة البريطانية ودار الإذاعة قد رفضت أي حديث عن الصلح، دون تدخل من حكومة جلالته، وإنما بدافع من نفسها بعد الاستماع إلى خطاب هتلر في الإذاعة.

ويذكر تشيانو في مذكراته أنه "عندما أذيع أول رد بريطاني - وكان متسمًا بالبرودة - على الخطاب في الساعات الأخيرة من ليلة ١٩ يوليو.. ساد بين الألمان شعور بخيبة الأمل بيد أن هتلر متطلع إلى التفاهم مع بريطانيا العظمى فهو يدرك أن الحرب مع البريطانيين ستكون قاسية تفيض بالدماء.. وهو يدرك تمامًا أن الناس في كل مكان يكرهون سفك الدماء، أما موسوليني فيخشى من ناحية أخرى أن يجد الإنجليز في خطاب هتلر الماكر للغاية مبررًا للبدء في المفاوضات، وهذا مما يحز في نفس موسوليني، لأنه يرغب في الحرب الآن أكثر من أي وقت سبق" وأيًا ما كان الأمر فلم يكن موسوليني في حاجة إلى الغضب أو الثورة، فسيتاح له أن يخوض كل أهوال الحرب التي يتمناها.

وقد قدم رؤساء أركان الحرب بواسطة الجنرال ايسمال اقتراحًا في أواخر شهر يونيو لأزور المناطق المهددة في السواحل الجنوبية والشرقية، وتلبية لهذا الاقتراح أفردت يومًا أو يومين من كل أسبوع للقيام بهذه الزيارة المحبوبة، وكنت أنام - عندما تفرض الظروف - في قطاري الخاص الذي تهيأت لي فيه كافة سبل الراحة، ليتاح لي أداء أعمالي العادية بانتظام.. مع العلم بأني كنت أتصل دائمًا بهوايتهول وقمت بزيارة "التاين" و"الهامير" وغيرهما من أماكن الإنزال المحتملة، وشاهدت مناورة للفرقة الكندية في كنت، وقمت بالكشف عن الخطوط الدفاعية الداخلية في هارويتسن ودوفر، وكانت إحدى زياراتي

الأولى للفرقة الثالثة التي يقودها الجنرال مونتجومري وهو ضابط لم أكن قد التقيت به من قبل. وقد صحبتني زوجتي في هذه الزيارات للفرقة المذكورة المرابطة على مقربة من برايتون. وكانت هذه الفرقة قد أعطيت أهمية خاصة من ناحية الإعداد، وكانت على وشك الإبحار إلى فرنسا عندما انتهت المقاومة الفرنسية.

وقد أقام الجنرال مونتجومري مركز قيادته في ستينينج، وأراني مناورة صغيرة، كانت الحركة الرئيسية فيها مناورة. قامت أساسًا على تحركات حاملات مدافع برن الرشاشة التي لم يكن في استطاعته أن يستخدم منها حينذاك سوى سبع أو ثماني حاملات، ومضت بنا السيارة بعد ذلك على الساحل عبر "شورهام" و"هوف" إلى أن وصلنا إلى جبهة برايتون المعروفة ولي فيها كثير من ذكريات الصبا.. وقد طعمنا عشاءنا في فندق البيون الملكي الذي يقع على الناحية المواجهة لرصيف الميناء الداخلي. وكاد الفندق يكون مقفرًا من الناس بسبب عمليات الانسحاب الأخيرة، ومع ذلك فكان هناك من يستنشق الهواء الطلق ويتنزه على الشاطئ وفي الميادين، وقد سرني أن أرى طائفة من "حرس قاذفي القنابل" يمهدون مركزًا لمدفعهم الرشاش في أحد أكشاك الرصيف. فذكرني ذلك بما كنا نفعله في طفولتنا ونحن نعجب بالمخلفات القديمة. وكان الجو رائعًا جميلاً، وتحدثت إلى القائد أحاديث مثمرة.. والحق أني شديد الاغتباط بهذه الزيارة.

وفي أواسط شهر يوليو اقترح على وزير الحربية إحلال الجنرال بروك محل الجنرال ايرونسايد في قيادة جيوش الوطن، وفي ١٩ يوليو حينما كنت أطوف لاستطلاع القطاعات المعرضة للهجوم، زرت القيادة الجنوبية ورأيت تجربة واقعية أسهمت فيها اثنتا عشرة دبابة تقريبًا، ومكثت في السيارة طيلة ما بعد الظهر مع الجنرال بروك الذي كان يتولى قيادة تلك الجبهة، ولاشك أن سجل ماضيه كان رائعًا، فقد قاد المعركة الفاصلة عند أبيرس أثناء عملية الانسحاب إلى دنكرك ثم تمكن بما أوتي من حذق وصلابة، وفي وسط

عوامل في منتهى الصعوبة والقوة، عندما كان يقود القوات الجديدة التي أرسلناها إلى فرنسا خلال الأسابيع الثلاثة الأولى من يونيو - تمكن من إنقاذ حملته، وكانت تربطني به صلة أيضًا عن طريق أخويه البطلين اللذين كانا لي صديقين في بداية حياتي العسكرية.

على أن هذه العلاقات والذكريات لم يكن لها أي تأثير على وجهة نظري في موضوع حيوي كهذا الذي يتصل باختيار القائد العام ولكنها وثقت الصلات بيني وبين آلان برون في غضون الحرب.

وقطعنا ما يقرب من أربع ساعات معًا في السيارة في ذلك اليوم من يوليو ١٩٤٠، وكنا على اتفاق تام بشأن كافة وسائل الدفاع في داخل الوطن، وبعد المشاورات الضرورية مع الآخرين وافقت على اقتراح وزير الحربية بتولي القيادة العامة خلفًا للجنرال ايرونسايد الذي واجه إحالته إلى التقاعد بما اشتهر عنه من اعتزاز في جميع الظروف التي تمت بها أعماله العسكرية.

وظل بروك في القيادة طيلة سنة ونصف تعرضنا فيها لخطر الغزو، فنظم القوات تنظيمًا حسنًا وعندما صار فيما بعد رئيسًا لأركان حرب القوات الإمبراطورية استمر التفاهم بيننا رائعًا حتى انتهينا إلى النصر المؤزر.

وسأورد بعد قليل المكاسب التي حققتها من مشورته في إجراء تغييرات حاسمة في القيادات في مصر بالشرق الأوسط في شهر أغسطس عام ١٩٤٢. وما كان لها من خيبة أمل في موضوع قيادة عملية الغزو عبر القناة (بحر المانش) في عملية السيد الأكبر (أوفر لورد) عام ١٩٤٤، وقد أدى خدمات جليلة في المدة الطويلة التي عمل فيها رئيسًا للجنة رؤساء أركان الحرب في معظم سني الحرب، ورئيسًا لأركان حرب القوات الإمبراطورية، لا للإمبراطورية البريطانية فحسب بل للحلفاء جميعًا، وسأحكي في هذه القصة بعض الاختلاف في وجهات النظر التي وقعت بيننا أحيانًا، وأقص كذلك كثيرًا من المسائل التي اتفقنا فيها وهي تؤكد صداقتنا كل التأكيد.

وفي هذا الشهر نقلت إلينا كميات وافرة من السلاح الأمريكي عبر الأطلنطي من غير أن تمس بسوء، وبينما كانت البواخر تقترب من سواحلنا بما تحمل من عتاد لا يقدر بثمن، كانت هناك قطارات خاصة أعدت لتحملها من الموانئ، وقد مكث الحرس الوطني في كل مقاطعة وكل بلدة وكل قرية متلهفاً على تسلم هذه الأسلحة، وأكب الرجال والنساء على العمل بكل قواهم لتجهيز هذه الأسلحة وجعلها صالحة للاستعمال. وهكذا أصبحنا في نهاية شهر يوليو شعبًا مسلحة على أهبة الاستعداد لمواجهة أي غزو يقوم به المظليون، نعم لقد أصبحت بريطانيا أشبه ما تكون "بخلية النحل" وإذا قدر أن تنهار مقاومتنا - وهو احتمال بعيد - فإن حشدًا من الرجال والنساء سيظل شاكي السلاح، وقد استطعنا بوصول الدفعة الأولى من البنادق الأمريكية إلى حرسنا الوطني، بصرف النظر عن ضآلة كمية الطلقات التي لم تزد عن خمسين طلقة لكل قطعة، استطعنا تزويد الجيش العامل بثلاثمائة ألف بندقية بريطانية.

وبدأ كثير من الخبراء يجهزون بكل سرعة مدافع الخمسة والسبعين ملليمترًا التي وصلت إلينا، ومع كل مدفع منها ألف قذيفة، ولم يكن بحوزتنا معدات لإيصال المدافع بعرباتها، كما أنه لم تتواجد لدينا الوسائل العاجلة لإنتاج عدد أكبر من القذائف. وعلى الرغم من أن المدافع المختلفة الأحجام تعقد العمليات الحربية، إلا أنني صممت منذ البداية على استخدامها وغدت هذه المدافع منذ وصولها إلينا وطيلة عامي ١٩٤٠، ١٩٤١ جزءًا مهمًا في قوتنا العسكرية المدافعة عن الوطن. وقمنا بعمل ترتيبات خاصة تعد مبتكرة دربنا عليها عددًا من الرجال لإدارة هذه المدافع وربطها في سيارات الشحن لنقلها من مكان إلى آخر، وعندما تقاتل دفاعًا عن كيانك فوجود مدفع خير من عدمه، وقد مكث المدفع الفرنسي من طراز خمسة وسبعين ملليمترًا سلاحًا فعالاً بالرغم من قدمه بالنسبة للمدافع البريطانية الحديثة من طراز خمسة وعشرين رطلاً والمدافع الألمانية (هاوتزر).

وعندما مر شهرًا يوليو وأغسطس من غير أن تنزل بنا الكارثة الساحقة، هدأنا بعض الشيء، وازدادت ثقتنا في مقدرتنا على خوض غمار حرب طويلة وقاسية، كنا نشعر بقوتنا تزيد يومًا عن يوم، فكل فرد في المجموع يعمل بكل طاقته ليل نهار، ويمضي إلى نومه بعد ذلك شاعرًا بثمار أعماله، واثقًا بأن الوقت أصبح في صالحنا، وأننا سننتصر في الحرب من غير شك.

وازدحمت الشواطئ الآن بمختلف أنواع الوسائل الدفاعية وتم تنظيم البلاد كلها في مجموعات ووحدات دفاعية وغدا السلاح يتدفق من المصانع، ولم يكتمل شهر أغسطس حتى أصبح في حوزتنا مائتان وخمسون دبابة جديدة. وبدأنا نجني ثمار المساعدة الأمريكية وأخذ رجال الجيش البريطاني العامل وزملاؤهم من رجال الجيش الإقليمي يقومون بتدريباتهم في ساعات الصباح الباكر حتى المساء، وبهم لهفة إلى لقاء العدو، وازداد عدد جنود الحرس الوطني إلى ما فوق المليون، وعندما كان ينقصهم السلاح، كانوا يعمدون إلى استخدام أسلحة الصيد والرياضة والمسدسات الخاصة. وأحيانًا الهراوات والمجارف، ولم يتكون في بريطانيا طابور خامس، وإن صادفت قوات الأمن بعض الجواسيس حققت معهم، أما القلة الشيوعية الموجودة ببلادنا فقد تلاشت أصواتهم، على حين أقدم الشعب كله على بذل كل ما يستطيع من تضحيات عالية.

وعندما زار رينتروب روما في سبتمبر قال لتشيانو: "إن الدفاع الإقليمي عن إنجلترا لا وجود له ولاشك، وأن فرقة ألمانية واحدة يمكنها أن تؤدي إلى انهيار كامل فيها". إن قوله هذا يفضح جهله بنا، وعلى كل فقد كنت أسائل نفسي دائمًا: ماذا يكون لو استطاع مائتا ألف ألماني من جنود العاصفة التجمع على شواطئنا؟ لا ريب أن المذبحة ستكون مروعة وقاسية عند الفريقين، إذ لم يكن هناك مجال لرحمة أو هوادة، فقد كان الألمان على استعداد لاستخدام الإرهاب، وكنا من ناحية على استعداد للاستمرار في المقاومة إلى أقصى حد ممكن، وقد قررت تطبيق المثل السائر: "بوسعك دائمًا أن تمضي بشخص آخر

معك بعيدًا عن هذه الدنيا" وقد قدرت أن أهوال هذا المنظر ستقضي - في النهاية - إلى ترجيح كفة الولايات المتحدة، لكن كل هذه العواطف لم توضع موضع التجربة والاختبار، وفوق مياه المانش ومياه بحر الشمال الزرقاء رفضت عشرات العمارات البحرية المتلهفة على القتال ساهرة الليل بطوله، بينما كان طيارو المقاتلات يحلقون في السماء أو يقفون إلى جانب طائراتهم استعدادًا لتلقي أي إشارة تصدر إليهم..

حقًا لقد كانت تلك الفترات جديرة بالحياة أو الموت. إذا وقفت على حقيقة القوات البحرية فقد وقفت على معرفة لها خطرها وروعتها، فاقتحام جيش لمياه المحيطات والبحار بالرغم من وجود أساطيل قوية وعمارات بحرية هائلة أمامه، عمل حربي معجز. وقد أضاف البخار كثيرًا من القدرات إلى إمكانيات الأسطول في الدفاع عن بريطانيا العظمى. ففي عصر نابليون كانت الرياح تستطيع الدفع بقواربه المسطحة القعر إلى الخلف، لكن ما جد بعد ذلك قد ضاعف من تفوق الأساطيل القوية ومقدرتها على تحطيم الغزاة وهم في الطريق. وأدى كل تعقيد في الأجهزة الحديثة بالنسبة إلى الجيوش إلى أن أصبحت مهمتها أكثر صعوبة ومشقة، وإلى أن صارت المتاعب التي تواجه قيادتها في تزويدها بالعتاد والذخائر بعد إنزالها أمرًا فوق الطاقة، وفي أزمة الحرب السابقة التي اهتز فيها مصيرنا كانت لنا قوة بحرية متفوقة، ولم يستطع العدو كسب معركة بحرية واحدة هامة ضدنا، لقد عجز عن لقاء قوة طراداتنا، وثمة بالطبع فرص أكثر من أن تعد تتصل برداءة الطقس وخاصة في حال تكاثف الضباب، على أنه على فرض قيام هذه الفرص المعادية لنا، واستطاعة العدو النزول إلى برنا في مكان أو أكثر، فإن مشكلة تزويد هذه القوات بما يلزمها وتغذيتها بأية تجمعات أخرى، هذه المشكلة تظل مستعصية الحل. هكذا كان الوضع في الحرب العالمية الأولى. أما الآن فقد دخل عنصر الطيران، فما تأثير هذا التغير الرئيسي على الغزو؟ من البين أن العدو إذا تمكن من السيطرة على مضايق دوفر بقوته الجوية المتفوقة، فإن خسائرنا في

المدمرات ستكون عظيمة للغاية، وقد تكون أيضًا فاصلة بل قاضية علينا. ولن يوجد إنسان ـ إلا في حالات نادرة ـ لديه الرغبة في الإتيان ببوارج ضخمة أو طرادات كبيرة إلى مياه تسيطر عليها القاذفات الألمانية، وبالفعل لم نضع أي بواخر ضخمة إلى الجنوب من فيرث أوف فورث أو إلى الشرق من بلايموث، ولكننا رصدنا في هارويش ونور ودوفر وبورتسماوث وبورتلاند دوريات دائمًا اليقظة تتكون من سفن حربية خفيفة، وقد أخذ عددها يتزايد باستمرار ولم يأت شهر سبتمبر حتى أصبح هذا العدد أكثر من ثمانمائة، لم يكن في المقدور تدميرها إلا عن طريق قوة جوية متفرقة معادية وتمارس العمل على مراحل.

وهنا يرد سؤال: لمن كان التفوق في الجو؟ لقد كنا نقاتل الألمان في معركة فرنسا وهم متفوقون علينا في العدد بضعفين أو ثلاث أضعاف، وبالرغم من ذلك ألحقنا بهم خسائر بما يوازي النسبة السابقة وفي سماء دنكرك وقد فرض علينا الاحتفاظ بدوريات مستمرة لتغطية إنقاذ جيشنا، كنا نحاربهم بكسب وغنم بالرغم من تفوق عددهم بنسبة أربعة أضعاف أو خمسة، وتوقع مارشال الجو الأعلى دوادنج قدرتنا على قتالهم ودفع هجماتهم بنجاح فوق مياهنا وسواحلنا ومقاطعاتنا المكشوفة حتى لو تفوقوا علينا بنسبة سبعة أو ثمانية أضعاف.

وقد كانت قوة السلاح الجوي الألماني في ذلك الحين وفوق معلوماتنا الوثيقة ـ وكانت صادقة باستثناء بعض المجموعات الخاصة ـ تعادل ثلاثة أضعاف ما نملكه.. وبالرغم من أن هذا التفاوت كبير بالنظر للقتال مع أعداء شجعان أقوياء كالألمان. فقد انتهيت إلى النتيجة التي سبق التوصل إليها وهي أن في سمائنا وفوق بلادنا ومياهنا نستطيع الانتصار على السلاح الجوي الألماني وإذا صح هذا فإن بحريتنا هي الأخرى ستدوم لها السيطرة على البحار والمحيطات، وستقوى على إحباط محاولات الأعداء الذين يحاولون شق الطريق إلينا.

وظل هناك عامل ثالث يتمثل في الإمكانيات والاحتمالات، فلو استطاع الألمان ـ بما عرف عنهم من مهارة وبعد نظر ـ إعداد حملة ضخمة في سرية تامة تضم قطعًا خاصة للإنزال لا تحتاج إلى موانئ أو أرصفة وإنما تقوم بإنزال الدبابات والمدافع والسيارات المدرعة في أي مكان على الشاطئ، فهل يتمكنون بعد ذلك من إمداد هذه القوات بالتموين؟.. وقد ذكرت سابقًا كيف طافت بي هذه الخواطر منذ عام ١٩١٧، وانتهت الآن بالقيام بحركة تنفيذ مضادة نتيجة لتوجيهي المباشر. وإن لم يوجد لدينا أي مبرر يحملنا على الاعتقاد بوجود هذه المخترعات لدى الألمان، ولكن قواعد الحساب السليمة تقضي باحتساب الخسائر تمامًا كالأرباح.

واقتضى منا إيجاد المعدات التي احتجنا إليها في عملية غزو نورماندي بذل الجهد الضخم المتواصل والتجارب إلى جانب العون المادي الكبير في الولايات المتحدة طيلة أربع سنوات، وحقيقة لم يكن الألمان في احتياج إلى هذا العدد الهائل من المعدات في مثل ذلك الوقت ولكن ما يملكون من معابر كان قليلاً في هذه اللحظة.

وهكذا أوجب علينا غزو إنجلترا في صيف ١٩٤٠ وخريف نفس العام تفوقًا جويًا هائلاً وسيطرة بحرية إقليمية، وكميات ضخمة من معدات الإنزال ولكن السيطرة على البحر كانت لنا، وكان لنا التفوق الجوي وكنا نؤمن ـ وقد ثبت فيما بعد صحة ما آمنا به ـ بأن الألمان لم يبنوا القطع البحرية الضرورية للإنزال..

هذه هي أسس تفكيري في عام ١٩٤٠ وكان هناك الكثير من الحديث في هذا الموضوع والكثير من القلق في شهر يوليو في الدوائر الحكومية وخارجها في بريطانيا، وعلى الرغم من عمليات استطلاعها المستمرة وعن سفن النقل الألمانية في البلطيق أو في موانئ الراين والشلدات، وقد كنا على يقين كذلك من أن أية بواخر أو صنادل من ذوات المحرك الآلي لم تعبر المضايق إلى

المانش، وبالرغم من كل هذا فقد كان التجهيز والإعداد لمواجهة الغزو وسحقه شغلنا الشاغل جميعًا، وكنا نعتمد اعتمادًا كليًا على هذا التفكير في الدوائر الحربية والقيادات العسكرية.

وكانت الخطة الألمانية التي كشف عنها تعتمد على أن يتم الغزو عبر القناة بسفن متوسطة تتراوح حمولتها ما بين أربعة آلاف وخمسة آلاف طن مع قطع صغيرة أخرى، ونحن نعلم الآن أنهم لم يتطلعوا قط إلى السير بجيوشهم من موانئ البلطيق أو بحر الشمال في بواخر كبيرة، كما لم يدر بخلدهم الغزو من موانئ بسكاي، وهذا لا يعني أنهم كانوا منصفين باختيارهم للساحل الجنوبي هدفًا لهم وإن كان كلانا على خطأ، فغزو الساحل الشرقي كان أكثر قيمة وأكبر أهمية لو استطاع العدو أن يوفر السبل والوسائل لمحاولته، وطبعًا لم يكن هناك مجال لغزو الساحل الجنوبي إلا بعد أن تمر البواخر الضرورية جنوبًا عبر مضيق دوفر، بعد أن تتجمع في الموانئ الفرنسية القائمة على القناة، وطيلة شهر يوليو لم نلمح أثرًا لمثل هذه التحركات.

وبالرغم من كل ذلك فقد وجب علينا أن نستعد لكافة الظروف والاحتمالات، وألا نوزع في الوقت نفسه قواتنا المتحركة، وأن نجمع قواتنا الاحتياطية ونحشدها، وفي المستطاع حل هذه المشكلة الشائكة والشائعة في نفس الوقت، فالأحداث تتوالى من أسبوع لآخر والساحل البريطاني المعروف بكثرة تعاريجه يبلغ طوله أكثر من ألفي ميل، باستثناء أيرلندا، والسبيل الوحيد للدفاع عن محيط متسع كهذا - قد يتعرض أي جزء منه أو جزءان منه في وقت واحد لهجوم ناجح - يحتم علينا إنشاء مراكز للمراقبة والمقاومة حول الساحل أو الحدود، غايتها عرقلة الزحف الأجنبي، مع إيجاد أكبر قوة ممكنة من الاحتياطي في الوقت نفسه تضم الجنود المدربين والعاملين في وحدات متحركة يمكنها الوصول إلى أي مكان يقع عليه هجوم مفاجئ في أقصى مدة ممكنة ثم الشروع في هجوم مضاد.

وحين رأى هتلر نفسه محاطًا ـ في المراحل الأخيرة من الحرب ـ بأعداء، وواجه نفس المشكلة، ارتكب في معالجتها ـ كما سنعرف بعد ـ أخطاء جسيمة، فلقد أقام شبكة من المواصلات تشبه نسيج العنكبوت وأغفل العنكبوت نفسه، ولما كانت قصة تشتيت القوات الفرنسية الخاطئة ـ التي أدت بنا إلى الكارثة واقتضتنا ثمنًا فادحًا ـ لا تزال ماثلة في ذهني، فإنني قد صرفت جهدي كله منذ البداية إلى حشد قوات المناورة، وقد رسخت هذه السياسة في نفسي إلى أقصى حد ممكن تسمح به مواردنا المتضاعفة.

وقد التقت آرائي بوجهات نظر البحرية، وأرسل إلى الأميرال بلوند في ١٢ يوليو بيانًا مفصلاً مكتملاً جهزه بالاشتراك مع رئاسة أركان حربه قائمًا على هذه الأسس النظرية.. وقد فصل البيان بالطبع جميع الصعوبات التي علينا مواجهتها، وقال الأميرال باوند في إجماله للخطة ما يلي:

ربما يصل إلى شواطئنا بما يقرب من مائة ألف جندي دون أن تكون لدينا القوات البحرية الكافية لقطع الطريق عليهم ووقفهم..

ولكن الإبقاء على خط مواصلات ـ لتموين هذه القوات ـ أمر مستحيل عمليًا إذا استطاع السلاح الجوي الألماني التغلب على سلاحنا الجوي وأسطولنا في وقت واحد، وإذا ما قام العدو بعملية كهذه فربما كان التقدم بسرعة إلى لندن، والاعتماد في تموينه على البلاد التي يستولي عليها على حين يرغم الحكومة على الخضوع والاستسلام.

وقد اقتنعت اقتناعًا كاملاً بهذا الاحتمال، وتغير الوضع تغيرًا حاسمًا في شهر أغسطس، فقد استيقنت مخابراتنا الماهرة من أن هتلر قد أصدر تعليماته بالإعداد لعملية "سبع البحر" وأن هذه العملية في دور الإعداد الفعلي في هذه الآونة، وظهر لنا بشكل نهائي أن الرجل سيقدم المغامرة وكانت الجبهة التي سيهجم عليها تختلف تمامًا، وقد تكون ثانوية بالنسبة للساحل الشرقي الذي كنت أنا قد وجهت إليه بالغ العناية مع رؤساء أركان الحرب والأميرالية

وسرعان ما بدأ عدد كبير من الصنادل ذوي المحرك الآلي والزوارق البخارية يعبر أثناء الليل مضايق دوفر، زاحفًا بمقربة من الساحل الفرنسي، ومتجمعًا شيئًا فشيئًا في سائر الموانى الفرنسية الممتدة من كاليه إلى بريست، وكانت الصور الفوتوغرافية التي تصل إلينا يوميًا توضح لنا هذه التنقلات بدقة وعناية، ورأينا أنه من العسير علينا أن نبث ألغامنا على مقربة من الساحل الفرنسي، ومضينا فورًا إلى مهاجمة هذه المراكب المتحركة بوحداتنا الصغيرة، وركزت قيادة قاذفات القنابل هجومًا على موانئ الغزو وسرعان ما انهالت علينا الأنباء عن احتشاد جيش أو جيوش ألمانية هائلة للقيام بهذا الغزو على قطاع الساحل المعادي، وعن تحركات واسعة النطاق على السكك الحديدية واحتشادات ضخمة في خليج كاليه ونورماندي، وخرجت إلى حيز الوجود أعداد وفيرة من بطاريات المدافع القوية البعيدة المدى منتشرة على طول الساحل الفرنسي القائم على القناة، وكان علينا أن نواجه الخطر الجديد وننقل اعتمادنا على هذه القدم إلى القدم الأخرى ونهيئ كافة السبل لتيسير نقل احتياطنا المتحرك الذي يتضاعف عدده إلى الجبهة الجنوبية. ومضى الوقت وقواتنا المتزايدة عددًا المتقدمة الكفاءة وسرعة التحرك تطمئننا إلى قدراتها وفعاليتها ولم ينقض النصف الأخير من شهر سبتمبر، حتى كان في استطاعتنا أن نحشد ست عشرة فرقة من خيرة الفرق نظامًا وأعدادًا على الساحل الجنوبي، بينها ثلاث فرق مدرعة، عدا أجهزة الدفاع الساحلية المحلية، وقد أصبح في مكنتها القيام على الفور بأي عمل عسكري يوكل إليها ضد أية عملية للغزو أو الإنزال: وأصبحت لنا قوة ضاربة أو مجموعة من القوى الضاربة التي كان الجنرال بروك وحده القادر على تحريكها عندما تحين الساعة فهو أكثر سيطرة عليها من كل من عداه.



حدث كل هذا بالرغم من عدم ثقتنا بأن جميع المداخل ومصبات الأنهار المنتشرة من كاليه إلى تيرشيلينج وهليجولاند، وكل ما أمامه من جزر تقع بالقرب من الساحلين الهولندي والدانمركي، لا تخفى قوات معادية هائلة أخرى من نوع صغير متوسط.

وقد خطر ببالنا أن الهجوم سيبدأ من هارديش حول بورتماوث وبورتلاند إلى بليموث، مع تركيز خاص على مقاطعة "كنت" أيضًا، ولم توجد لدينا أية براهين أخرى إيجابية على أن موجة ثالثة من الغزو قد لا تتسق وتتوافق في الزمن مع الموجتين الأوليين، وتشن من موانئ البلطيق خلال مضايق سكاجراك في سفن كبيرة، ولا ريب في أن مثل هذا الغزو جوهري بالنسبة لخطط الألمان لتحقيق النجاح، إذ تعتبر الوسيلة الوحيدة لوصول الأسلحة الثقيلة التي تم إنزالها، أو لإقامة مستودعات تموين كبيرة.

ودخلنا في ذلك الحين فترة من التوتر الشديد، واليقظة الدائمة وكان علينا طيلة الوقت أن نحرص على وجود قوات كبيرة في الشمال من "دوش" حتى "كروماريتي" كما قمنا بعمل الترتيبات اللازمة لسحب جزء منها في حالة وقوع الغزو في الجنوب، وكان في مقدرتنا بفضل الشبكة الرائعة الداخلية من سكك حديدنا، وبفضل استمرار سيطرتنا على الجو في سماء وطننا أن نسحب - بكل ثقة - أربع فرق أو خمسًا من الشمال لتعزيز الدفاع عن الجنوب في حالات الضرورة القصوى - في أيام الرابع والخامس والسادس من بدء تحرك العدو.

وأجرينا دراسة دقيقة لأوضاع القمر والمد والجزر، وتيقنا من أن العدو سيؤثر عبور البحر في الليل والنزول إلى الأرض عند الفجر، وها نحن أولاء الآن نعرف أن ما تيقنا كان على صواب أيضًا، ولم نجد لدينا ذرة من الشك في مقدرتنا على تحطيم كل ما ييسر للعدو النزول في أكمة دوفر البحرية، أو في القطاع الساحلي الممتد من دوفر إلى بورتسماوث إلى بورتلاند، وكانت

أفكارنا جميعًا ـ نحن الذين نتولى القيادة ـ تسير في اتجاه وتوافق تأمين مما يثير الإعجاب لتوجيه ضربة إلى عدونا تخلف دويًا في كافة أنحاء العالم، ولم يكن في استطاعة أي إنسان إلا أن يحس بالحماسة ويشعر بالتأثر من هذا الجو الذي يوحي بعزم هتلر وعتاده.

وكان من بيننا من يتحرق شوقًا إلى قيام هتلر بمحاولته، يحدوهم إلى ذلك العوامل المجردة التي تؤكد لهم مدى تغير مجرى الحرب لو مُنيَ هتلر بتدمير محاولته، وتحطيم أمانيه.

وكنا قد انتهينا خلال شهري يوليو وأغسطس من السيطرة الجوية على سماء بريطانيا، وكانت قوتنا متفوقة تمامًا وبصورة خاصة في سماء القطاعات الواقعة في الجنوب الشرقي لبلادنا، وأخذت المعدات الدفاعية الدقيقة، والمراكز المنيعة، والحصون الشماء، وحواجز مكافحة الدبابات، وحواجز الطرق، إلى غير ذلك تملأ كل مكان وتوهجت سواحلنا بالإجراءات الدفاعية والبطاريات، كما توفر لدينا عدد من المدمرات العامة في الأطلنطي مع ما في هذا الإجراء من ثمن باهظ تكبدته قوافلنا التجارية في الأطلنطي، كما شيدنا عددًا آخر منها، ليزيد استحكام الدفاع عن السواحل، وقد أحضرنا بارجة التدريب (سنتوريون) وإحدى الطرادات إلى بلايموث. وظل أسطولنا في ذروة قوته، وفي قدرته أن يعمل مع تجنب كثير من الأخطار حتى الهامير أو "ووسن".

وبهذا كنا على أتم الاستعداد لمواجهة أي شيء. وأخيرًا.. فقد اقترب موسم الزوابع الاستوائية المعروفة في أكتوبر، وكان سبتمبر هو الشهر الذي يتحتم على هتلر أن يوجه فيه ضربته إذا واتته الجرأة الكافية، حيث تكون في صالحه ظواهر المد والجزر والقمر في أواسط ذلك الشهر.

وأرى الوقت قد حان لننتقل معًا إلى معسكر الأعداء، حتى أطلع القارئ على مدى استعداداته وخططه، كما وقفنا عليها في هذه الآونة.

عملية سبع البحر

لم تكد تنشب الحرب في ٣ سبتمبر عام ١٩٣٩ حتى بدأت البحرية الألمانية - كما تشير الوثائق المصادرة بعد الحرب - عدا الدراسات اللازمة لغزو بريطانيا. وقد رأت نقيض ما ارتأيناه أن السبيل الوحيد هي إتمام الغزو عبر هذه المياه الضيقة لبحر المانش، ولم يقدر الألمانيون أي احتمال آخر، ولو كنا عرفنا هذه الحقيقة آنذاك لاسترحنا كثيرًا، حيث يواجه الغزو عبر المانش أكثر سواحلنا تحصينًا، وهي الجهة البحرية القديمة المواجهة لفرنسا، حيث الموانئ المحصنة وحيث قواعد المدمرات الرئيسية. وأغلب المطارات ومحطات الإشراف الجي للدفاع عن لندن، ولم نكن نعتمد في أي جزء من أجزاء الجزيرة اعتمادنا على هذا الجزء في المسارعة إلى العمل بقوة ضخمة، وبجميع قواتنا المسلحة الثلاث.. وكان الأميرالاي ريد موجهًا كل اهتمامه للإعداد في حالة قيام الأسطول الألماني بغزو بريطانيا، وفي نفس الوقت طلب تركيز الكثير من الأوضاع، وفي مقدمتها الإشراف الكامل على سواحل فرنسا وبلجيكا وهولندا وموانيها ومصبات أنهارها، وهذا هو سبب نوم المشروع طيلة فترة "شفق الحرب" التي مضت.

وفجأة برزت الافتراضات بصورة تثير الاستغراب، وتمكن ريدر بالرغم من بعض وساوسه من التقدم إلى الفوهرر، مساء معركة دنكرك واستسلام فرنسا، بمشروع نال رضاه، وتحدث في ٢١ مايو إلى هتلر في الموضوع، ثم رجع فتحدث إليه في العشرين من يونيو، لا عن اقتراح القيام بالغزو بل بنسبة التأكد من أنه في حالة صدور الأمر بالغزو فإن إعداد التفاصيل المتعلقة بالمشروع لن يتم بطابع العجلة، وكان هتلر بدوره تساوره الظنون في النجاح فعقب قائلاً: إنه يقدر تمامًا الصعوبات المحتومة التي سيواجهها مشروع كهذا، وكان هتلر يتعلق بالأمل الواهي من أن إنجلترا قد تطلب الصلح وتنشده، ولم تنتبه القيادة الألمانية إلى فكرة الغزو إلا في آخر أسبوع من يونيو، وفي الأسبوع الثاني من يوليو صدرت التوجيهات الأولى بتجهيز خطة للغزو كأمر محتمل

الوقوع، وتقضي هذه التوجيهات بأن الفوهرر قد علق غزو إنجلترا على توفر بعض الشروط الخاصة وفي طليعتها السيطرة الجوية.

وأصدر هتلر في ١٦ يوليو توجيهًا منه يقول أنه على الرغم من المأزق العسكري الحرج لإنجلترا، فإنها لم تظهر أية رغبة في التفاهم ومن أجل هذا عزمت على إعداد عملية النزول في إنجلترا، لتنفذ في الوقت المناسب وينبغي أن تتم الترتيبات اللازمة للخطة كلها قبل منتصف شهر أغسطس. وكانت الإجراءات العملية لتنفيذ هذه الإشارة قد بدأت في كل مكان.

كانت خطة الأسطول الألماني ميكانيكية على العموم، فتحت ستار نيران البطاريات الساحلية من كاليه في اتجاه دوفر، وتحت حماية مدفعية قوية على طول الساحل الفرنسي المقابل للمضيق، كانت خطة البحرية تقضي بإقامة نطاق ضيق عبر المانش في أقصر مسافة ممكنة وإحاطته من الجانبين بسياج من الألغام مع قيام الغواصات بحماية خارجية، وكان من المتفق عليه أن ينقل الجيش في صنادل عبر القناة على أن تمونه سلسلة طويلة من الإمدادات. وإلى هنا ينتهي دور الأسطول الألماني وعلى قيادة الجيش معالجة بقية المشكلة.

فإذا قدرنا أنه كان في استطاعتنا بفضل تفوقنا البحري الهائل أن نقضي على حقول الألغام المذكورة بالقطع البحرية الصغيرة تحت ستار قوة جوية ماهرة، وضرب الغواصات المحتشدة من الجانبين لحماية الحقول لاتضح لنا أن هذه الخطة كانت خطة متداعية منذ البداية.

وكان في مقدور أي إنسان يوقن أنه بعد انهيار فرنسا لم يكن هناك مفر من امتداد أجل الحرب وتزايد الأخطار، إلا إذا اضطرت بريطانيا إلى التسليم.

وكان الأسطول الألماني - كما عرفنا سابقًا - قد نالت منه بصورة خطيرة معركة النرويج، ولم يعد في مقدوره بوضعه الراهن أن يقدم إلى

الجيش إلا بمساعدة جزئية ضئيلة، ومع ذلك فقد جهز الأسطول خطة ولم يكن في مستطاع أحد أن يقول أن حسن الحظ قد هبط عليه فجأة.

وكانت القيادة العليا للجيش الألماني قد اعتبرت غزو إنجلترا في بادئ الأمر شيئًا يثير التقزز في النفوس، ولم تكن قد دبرت أية خطط أو إعدادات لتنفيذه، كما لم يتلق جنودنا تدريبًا على العمليات الخاصة به، ولكن بعد أن توالت أسابيع من نشوة الانتصارات الرائعة، وجدت القيادة في نفسها الجرأة والشجاعة للقيام بأية مهمة، ولم يكن اقتحام البحر بأمان مسئولية تتعلق برجال القيادة من الناحية الإدارية، ولكنهم كانوا على ثقة من أن الجيش إذا بلغت قواته الضخمة شاطئ بريطانيا في سلام وأمان، فإن مهمة إحراز النصر على بريطانيا تصبح أمرًا يسيرًا.

وقد أحس الأميرال ريدر في شهر أغسطس بوجوب توجيه أنظارهم إلى ما في عبور القناة من خطورة، وإلى توقع ضياع الجيش في هذه المحاولة.

وعندما تولى الأسطول مهمة نقل الجيش العابر أصبحت البحرية الألمانية تدور في دوامة قلق مستمر، وقابل قادة الأسلحة الثلاثة الفوهرر في ٢١ يوليو فأبلغهم بأن الحرب قد بلغت في مرحلتها الفاصلة، ولكن إنجلترا لا ترغب في الاعتراف بذلك، وما زالت ترجو أن تدور عجلة القدر وتحدث عما يصل إنجلترا من عون الولايات المتحدة كما أشار إلى احتمال تبدل في العلاقات السياسية في ألمانيا وروسيا، واستطرد قائلاً أن تنفيذ عملية "سبع البحر" تعتبر الخطة الأكثر جدوى في التعجيل بنهاية الحرب، وبعد حديث طويل مع الأميرال بدأ هتلر يكشف خطورة ما تخبئه عمليات اجتياز المانش بما فيه من تيارات ومد وجزر، وبما في البحر من غموض وأسرار، ثم وصف عملية "سبع البحر" بأنها في منتهى الجرأة والمقامرة، واستطرد يقول: وبالرغم من قصر المسافة فإن العملية ليست عبور نهر ولكنها اقتحام بحر يسيطر عليه العدو، وليست العملية إجراء فرديًا في العبور كما حدث في النرويج، إذ لم تكن هناك

عناصر للمُفاجأة ولكننا هنا سنواجه عدوًا مستعدًا للدفاع، وقد صمم على القتال، وقد فرض سيطرته على المنطقة البحرية التي يجب علينا استخدامها وستقتضينا عملية الجيش نحوًا من أربعين فرقة، وربما يكون أصعب إجراء في العملية كلها هو نقل الإمدادات والتموين، إذ ليس في مقدورنا أن نعتمد على أي نوع من المؤن يتيسر لنا الحصول عليه داخل إنجلترا، وكان الأساس الأول في نجاح الغزو هو السيطرة الكاملة في الجو واستخدام مدفعية قوية في مضيق دوفر والحماية عن طريق الألغام.. ثم تابع هتلر حديثه قائلاً: والطقس عامل حيوي أيضًا فالطقس في بحر الشمال وفي المانش يعنف في النصف الثاني من شهر سبتمبر، كما يتكاثف الضباب في منتصف أكتوبر، ولهذا يتحتم إنهاء الغزو قبل ١٥ سبتمبر، إذ بعد هذا الوقت يشق علينا أن نتأكد من قيام التعاون بين السلاح الجوي والأسلحة الثقيلة، وهذا التعاون من السلاح الجوي يُعد عاملاً حاسمًا في تحديد الموعد.

وقد ثار نقاش حاد تخلله شيء من الخشونة بين أركان الحرب الألمان حول عرض الجبهة وعدد المراكز التي يتحتم أن تهاجم، وقد طلب الجيش أن تتم سلسلة من عمليات الإنزال على طول الساحل الجنوبي لإنجلترا الممتد من دوفر إلى "لايم ريجيز" إلى الغرب من بورتلاند. وطالب أيضًا بأن تنزل قوات مساعدة في رامسجيت إلى الشمال من دوفر. وقد أعلن أركان البحرية الآن أن آمن مكان للعبور هذا الواقع بين فورلاند الشمالية وجزيرة وايت. وعلى هذا الوضع أجرى إعداد مائة ألف جندي لإنزالهم في هذه المنطقة على أن يتبع ذلك بمائة وستين ألف جندي آخرين في أماكن متفرقة تمتد من دوفر غربًا حتى خليج لايم.

وأعلن الجنرال هولدر رئيس أركان حرب الجيش أن من المحتم إنزال أربع فرق على الأقل في منطقة برايتون، كما طلب إنزال قوات أخرى بين ريل ورامسجيت، وأن توزع ثلاث عشرة فرقة إن أمكن في وقت واحد في أماكن متعددة على طول الجبهة، وطلب السلاح الألماني في ذات الوقت سفنًا كافية

لنقل اثنتين وخمسين بطارية من المدافع المضادة للطائرات مع حملة الإنزال الأولى.

ولكن رئيس أركان البحرية بين استحالة القيام بعمليات واسعة وسريعة كهذه العمليات، وقرر أنه لا يستطيع عمليًا حراسة أسطول الإنزال في هذه المسافة الممتدة من البحر، وأن على الجيش اختيار أفضل نقطة أو مكان ضمن هذه الحدود التي ذكرت، فليس لدى الأسطول قوة تكفي لحماية أكثر من عملية عبور واحدة في وقت واحد، حتى ولو كانت لنا السيادة على الجو. وهو يرى أن أضيق مكان في مضايق دوفر هو أكثرها سهولة من ناحية الحماية بطلب نقل المائة والستين ألف جندي في المرحلة الثانية في عملية واحدة، وذلك يحتاج إلى ألف سفينة حمولتها مليون طن.

وأضاف رئيس أركان البحرية أنه حتى في حالة توفر هذا الرقم الخيالي فإن موانئ الأبحار لا تستطيع استيعاب مثل هذا العدد الضخم، أما ما يمكن عمله فهو القيام بنقل الفصائل الأولى من الفرق الأربع لإقامة رءوس جسور ضيقة على أن تنقل في خلال اليومين التاليين الفصائل الباقية من هذه الفرق فحسب دون ذكر أدنى معلومات عن الفرق الست الباقية المحتم إنزالها لنجاح العملية، وأشار أيضًا إلى أن الإنزال على جبهة واسعة يعني إيجاد فرق في أوقات المد العالي بين مختلف الأماكن المختارة يتراوح بين الثلاث ساعات والخمس ساعات ونصف. وعلى هذا ينبغي أن تختار بين أمرين أما أوضاع المد غير الملائمة في بعض الأماكن، وإما العدول نهائيًا عن إنزال القوات في أماكن متفرقة في آن واحد، وكان الرد على هذا الاعتراض من أشد الصعوبات.

ومر وقت طويل ضاع خلال تبادل هذه المذكرات. وأخيرًا التقى الجنرال هولدر ورئيس أركان البحرية لأول مرة في اجتماع عقد بينهما في ٧ أغسطس قال هولدر في هذا الاجتماع: أنني أرفض مقترحات الأسطول رفضًا باتًا، فمن وجهة نظر الجيش تعتبر العملية بهذا الوضع انتحارية، فإرسال القوات كما

اقترحتم مُعناه إلقاؤها في مفرمة اللحم كما يلقى اللحم. فرد عليه رئيس أركان البحرية قائلاً: إنه ليس في وسعه أيضًا أن يقبل عملية النزول على جبهة واسعة، إذ أن ذلك لا يعني إلا شيئًا واحدًا هو التضحية بالجنود في أثناء عبورهم، وأخيرًا تم الوصول إلى حل وسط تولاه هتلر بنفسه ولم يقنع به الجيش أو البحرية، فقد صدر قرار من القيادة العليا في ٢٧ أغسطس جاء فيه أن على عملية الجيش أن تتسق والحقائق التي توجبها شروط الحمولة المحدودة في البواخر وسلامة العبور والإنزال، وقد تم نبذ فكرة النزول في منطقة ريل رامسجيت، ولكن تقرر أن تمتد الجبهة من فولكستون إلى بوجور، وهكذا لم يتم اتفاق نهائي حتى نهاية شهر أغسطس، فكل شيء بالطبع متوقف على النصر والتفوق في المعركة الجوية الناشئة منذ ستة أشهر تقريبًا.

وتم إعداد الخطة النهائية على هدى طول الجبهة التي جددت في النهاية وعهد بالقيادة العسكرية إلى رونشتادت، لكن النقص في السفن قلل من عدد القوات فأصبحت ثلاث عشرة فرقة أساسية واثنتى عشرة فرقة أخرى احتياطية، وتقرر أن يبحر الجيش السادس عشر من الموانئ الواقعة بين بولون وروتردام وأن تنزل بالقرب من هايث وراي وهيسنجير وايستبورن، وأن يبحر الجيش التاسع من الموانئ الواقعة بين بولون والهافر، وأن يهاجم المناطق بين برايتون دورتيج وقد جهزت الخطة على أساس الاستيلاء على دوفر من ناحية البر، وأن يزحف الجيشان بعد ذلك على الخط الممتد من كانتربوري إلى اشفورد فيفيلد وأورنديل وستنزل إحدى عشرة فرقة في المراحل الأولى، وتمنت القيادة الألمانية أن تتمكن القوات الغازية في الأسبوع الأول من التقدم إلى جريفسن وريفيت وبوزفيلد وبورتسمات وأن يقف الجيش السادس الاحتياطي على أهبة الاستعداد لتعزيز القوات الغازية أو لتوسيع منطقة الهجوم إذا ألحت الظروف إلى ويماوث وليس ريب في أن القيادة الألمانية لم تفتقر إلى الجنود الشجعان المسلحين خير تسليح افتقارها إلى سفن للنقل وسَلامة العبور.

ووقع عبء المرحلة الثقيل في الهجوم على أركان "البحرية" ولم يكن في حوزة ألمانيا ما يزيد على حمولة مليون ومائتي ألف طن من السفن المعدة إعداداً كاملاً، ونقل القوات الغازية يحتاج إلى أكثر من نصف هذه الحمولة، ويؤدي إلى الكثير من المشكلات الاقتصادية، وعندما حل شهر سبتمبر تمكنت القيادة البحرية من أن تعلم أنها استطاعت أن تضع يدها على البواخر التالية ١٦٨ باخرة مجموع حمولتها سبعمائة ألف طن، ١٩١٠ من الصنادل، ٤١٩ من القاطرات وسفن صيد الأسماك، ١٦٠٠ من الزوارق البخارية.

وكان من الممكن نقل هذا الأسطول العتيد بعد تجهيزه بالبحارة إلى موانئ التجمع عن طريق البحر والمانش، وعندما بدأت في اليوم الأول من سبتمبر عملية اندفاع الملاحة الضرورية للغزو جنوبًا كانت قواتنا الجوية تراقبها وترصد تحركاتها وتقصفها بعنف على طول الجبهات من أنتوبرب إلى الهافر وسجلت أركان البحرية الألمانية ما يلي: إن دفاع العدو المستمر من الساحل وتركيز غارات طائراته على موانئ أبحار عملية "سبع البحر" ومواصلة أعمال الاستكشاف توحي جميعًا بأن العدو يتوقع غزوًا قريبًا عاجلاً.

وذكرت تقارير أركان البحرية الألمانية أيضًا، أنه ما زالت الطائرات البريطانية قاذفات القنابل وطائرات بث الألغام تواصل أعمالها بصفة دائمة، وعلينا أن نقرر أن غارات الطائرات البريطانية كانت موفقة وإن لم تكن فاصلة في عرقلة السفن الألمانية إلى الموانئ.

وبالرغم مما حدث من التدمير والتعويق فقد استطاعت البحرية الألمانية إنجاز الجزء الأول من مهمتها الخطيرة ولم تجاوز الخسائر أعلى ما قدرته القيادة العليا للحوادث وهي عشرة في المائة من مجموع قوة الغزو كاملة، أما ما بقي على أهبة الاستعداد فلم يكن بأقل من الحد الأدنى الذي قررت القيادة الألمانية حتمية وجوده للقيام بالمرحلة الأولى من العملية.

وقد ألقى الجيش والأسطول الألماني العبء كله على كاهل السلاح الجوي، وكانت حماية الممر بما يلازمها من بث الألغام التي بمثابة الأسوار موكلة إلى السلاح الجوي الألماني ضد التفوق الظاهر لعمليات المدمرات البريطانية والسفن الصغيرة، أي أن الخطة كانت قائمة على هزيمة السلاح الجوي البريطاني والسيطرة المطلقة لألمانيا على الجو لا فوق المانش وجنوب شرقي آسيا فقط، بل فوق مناطق العبور والإنزال كذلك، وهكذا وكل السلاحان الألمانيان القديمان تنفيذ الخطة إلى مارشال الرايخ جورنج.

ورحب جورنج بقبول هذه المسئولية لثقته بالتفوق العددي للسلاح الجوي الألماني، وأنه لن تمضي أسابيع قليلة من القتال العنيف حتى تنزل الهزيمة بالدفاع البريطاني وتدمير مطاراته في كنت وسكس، وإحكام السيادة التامة على المانش.

واعتقد جورنج أيضًا اعتقادًا لا يقبل الشك أن قصف إنجلترا من الجو وخاصة العاصمة سيدفع بالشعب البريطاني المنحل الذي يؤثر العافية إلى الرضوخ وطلب الصلح، هذا بالإضافة إلى أن نذر الغزو كانت قد بدت في الأفق القريب، ولكن البحرية الألمانية لم تجاره في تفاؤله، وكانت شكوكها عميقة الجذور.

وأن عملية "سبع البحر" لا يمكن إلا أن تكون إجراء أخيرًا فأوصت في شهر يوليو بتأجيلها حتى ربيع عام ١٩٤١، إلا إذا أجبرت الغارات الجوية المستمرة وحرب الغواصات الرهيبة العدو على مفاوضة الفوهرر بالشروط التي يراها، أما الفيلد مارشال كايتل والجنرال يودل فقد كانا مغتبطين من تفاؤل قائد الجو الأعلى جورنج.

لقد عاشت ألمانيا النازية أيامًا مجيدة رائعة انتشى فيها هتلر بخمرة النصر قبل أن تذل له فرنسا في هدنة كومبيين وسار الجيش الألماني الظافر تحت أقواس النصر وعبر الكاب ايليسيه، فهل بقى هناك شيء يعجزون عن

تنفيذه؟ فلم التردد إذن في الإقدام على مجازفة مضمونة؟ وهكذا فإن الأسلحة الثلاثة التي تشترك في إنقاذ خطة "سبع البحر" نظر كل منها إلى الجانب المضيء في الدور الذي سيضطلع به وترك الجانب المظلم إلى السلاحين الآخرين.

وبمرور الأيام تضاعفت الشكوك وقامت العراقيل، وكان قرار هتلر الصادر في ١٦ يوليو قد حدد إنهاء جميع الاستعدادات قبل منتصف شهر أغسطس، ولكن كافة الأسلحة وجدت أن تنفيذ هذه المهمة في الوقت المحدد غير ممكن، وقبل هتلر في نهاية شهر يوليو تحديد موعد ١٥ سبتمبر كموعد مبكر للغزو، بينما أجل قراره الأخير الذي يقضي بتحديد موعد البدء في العمل حتى تستبين نتائج المعركة الجوية التي حمي وطيسها.

وأبلغت البحرية في ٣٠ أغسطس القيادة العليا أن استعدادات أسطول الغزو يستحيل أن تتم في ١٥ سبتمبر بالنسبة للإجراءات المضادة التي أقدمت عليها بريطانيا، وعلى هذا تأجل البدء في الغزو حتى ٢١ سبتمبر مع اشتراط عشرة أيام كإنذار مسبق، وهذا يعني ضرورة صدور الأمر الأول في ١١ سبتمبر وأبلغت البحرية مرة أخرى في ١٠ سبتمبر القيادة مدى الصعوبات الجمة التي تواجهها لرداءة الطقس وأعمال بريطانيا المضادة، وأشار إلى أنه على الرغم من أن التجهيزات البحرية المطلوبة قد تتم فعلاً قبل ١١ سبتمبر، إلا أن الشرط الأساسي الذي يحتم السيطرة المطلقة على جو القناة لم يتحقق بعد/ وقد أدى ذلك إلى أن أصدر هتلر قراره في ١١ سبتمبر بتأجيل صدور الأمر التمهيدي لثلاثة أيام أخرى، وبهذا تأجل الغزو إلى الرابع والعشرين، وتأجل ثانية في الرابع عشر ثلاثة أيام أخرى، وفي يوم ١٧ سبتمبر تأجل إصدار هذا الأمر إلى أجل غير مسمى لأسباب وجيهة في رأيهم ورأينا أيضًا.

وعلمنا من الأنباء التي وصلت إليها في ٧ سبتمبر، أن تحركات الصنادل والسفن الصغيرة ما زالت مستمرة غربًا وجنوبًا في اتجاه الموانئ الواقع بين

أومستند والهافر، ولما كانت هذه الموانئ تحت وطأة الغارات البريطانية القاسية، فقد كان من المعقول ألا تنتقل إليها السفن الكبيرة إلا قبيل الغزو، وتضاعف القوة الضاربة للسلاح الجوي الألماني بين امستردام وبريست حتى بلغت مائة وستين قاذفة قنابل جيء بها من النرويج إلى هذه المنطقة، كما رأينا مجموعات من طائرات الانقضاض ذات المدى القصير في المطارات الأمامية والواقعة في خليج كاليه، وقد قرر أربعة من الجواسيس الألمان تم اعتقالهم قبل مضي بضعة أيام من هبوطهم من أحد زوارق التجديف على الساحل الجنوبي والشرقي من إنجلترا، أنهم بعثوا ليكونوا على استعداد في أية لحظة أثناء الأسبوعين القادمين وإرسال تقارير خاصة عن تحركات الوحدات البريطانية الاحتياطية في قطاع أيبويس - لندن - ريدنج - أكسفورد وكانت أوضاع القمر والمد بين الثامن والعاشر من سبتمبر ملائمة لغزو الساحل الجنوبي الشرقي. ولذلك فقد قرر رؤساء أركان الحرب عندنا أنهم يتوقعون الغزو في أية لحظة، وأن على قوات دفاعنا أن تقف على أهبة الاستعداد لمواجهة أي طارئ عاجل.

ولم يكن ثمة جهاز في القيادة العامة حينذاك يستطيع أن ينقل إعلان حالة الطوارئ المحددة له ثماني ساعات إلى عمل فوري، ومع ذلك فقد صدرت كلمة السر "كرومويل" - التي يقصد بها أن الغزو محتمل في أية لحظة - إلى القوات في الساعة الثامنة مساء ٧ سبتمبر وإلى القيادتين الجنوبية والشرقية للعمل الفوري السريع للفرق الساحلية الأمامية، وجميع الوحدات في منطقة لندن، وإلى الفيلقين الرابع والسابع من قوات الاحتياط التابعة للقيادة.

وكررت الكلمة "للعلم فقط" إلى جميع القيادات الأخرى في المملكة المتحدة، وعندما وصلت هذه الكلمة إلى قادة الحرس الوطني في بعض أنحاء البلاد، قاموا بدافع من أنفسهم باستدعاء قوات الحرس بدق أجراس الكنائس ولم أكن أنا ورؤساء أركان الحرب قد علمنا بأن كلمة "كرومويل" قد استخدمت فعلاً، ولذا فقد صدرت أوامرنا في الصباح التالي بضرورة إيجاد مراحل انتقالية يتضاعف فيها الحذر في المناسبات المقبلة دون

إعلان أن الغزو قد وقع، وفي استطاعة كل إنسان أن يتخيل ما أثاره هذا الحادث من هرج ومرج، وإن لم يشر إليه سواء في الصحف أو في البرلمان.. وعلى كل فقد كان هذا الحادث بعناية تدريبًا لكل من يعنيهم الأمر.



والآن... وبعد أن تتبعنا مراحل إعداد القيادة العليا الألمانية حتى وصلت إلى القمة.. فقد غدا في إمكاننا أن نعرف كيف تغير الموقف من الزهو بالانتصار المبكر إلى قيام حال من الشك، ثم إلى ضياع كل ثقة في النتيجة، وقد شاهدها القائد البحري ويدر في شهري يوليو وأغسطس، وحاول ما استطاع تثقيف زملائه من قادة البحر والجو وتبصيرهم بمتاعب الحرب البرمائية الواسعة النطاق ومشتقاتها، فقد أحس الأميرال بضعفه واحتياجه إلى عامل الوقت لاستكمال المعدات، وإن كان تنفيذ الخطة الواسعة النطاق التي وضعها هولدر هي إنزال قوات ضخمة في وقت واحد في منطقة مترامية الأطراف، وكان جورنج في الوقت نفسه بخياله الجامح مصرًا على إحراز نصر ساحق بقواته الجوية وحدها، وأبى أن يسهم بدور متواضع في الإعداد لخطة مشتركة تهدف إلى تخفيض قوات المقاومة بحرية وجوية في جبهة الغزو.

ويتضح من الوثائق والسجلات أن القيادة الألمانية العليا لم تعمل بانسجام وتعاون في سبيل الهدف المشترك، ولم تواجه مشكلات الأسلحة المختلفة الوعي الناجح السليم.

وكان الاحتكاك بينها واضحًا منذ البداية وطالما كان في مستطاع هولدر أن يلقي بالمسئولية على كاهل ريدر، فإنه لم يحاول أن يوجد الانسجام بين خططه الشخصية وبين الإمكانيات العملية، وكان من المحتم أن يتدخل هتلر. وقد تدخل بالفعل ولكن تدخله لم يعمل على تحسن العلاقات بين القوات المسلحة وكانت سمعة الجيش في ألمانيا قد سمت إلى ما فوق السحاب، وكان القادة العسكريون ينظرون بتعال وكبرياء إلى زملائهم من قادة البحرية.

وقد يكون من الصعب على أي إنسان أن يقاوم الأدلة التي تنهض على تأكيد أن الجيش الألماني لم يكن راضيًا عن وضعه تحت إشراف البحرية في عملية رئيسية كهذه، وعندما سئل الجنرال يودل بعد انتهاء الحرب عن هذه الخطط أجاب وهو نافد البصر: "كانت خططنا تشبه تمامًا الخطة التي وضعها يوليوس قيصر".

وربما يكون في هذا القول الصادر عن جندي ألماني موثوق به بالنسبة لعمليات البحار، ما يلقي الضوء على أن الجندي الألماني لم تتضح في ذهنه المشكلات الخاصة بعمليات الإنزال والأخطار الناجمة من نقل قوات بحرية كبيرة وتوزيعها على ساحل قد أجيد الدفاع عنه.

أما نحن في بريطانيا فضلاً عما كنا نعانيه من نقص فقد خبرنا البحر ووقفنا على مشكلاته فالبحر منذ قرون عديدة جزء من كياننا وتقاليده لا تستثير بحارتنا فحسب، بل الشعب البريطاني بكامله ولعل هذا التفهم هو الذي مكننا من أي عامل آخر من النظر إلى خطر الغزو بكل ثقة وهدوء، وقد خضع التخطيط الذي وضعناه لإشراف رؤساء أركان الحرب الثلاثة برئاسة وزير الدفاع، مما أدى إلى إيجاد نظام متناسق ككتلة واحدة وإلى التعاون التام الذي لم نر مثيلاً له في الماضي، وإلى التعرف المتبادل إلى كافة المصاعب وعندما آن الأوان لنبدأ نحن في عمليات غزو عظيمة وواسعة النطاق من البحر كان عملنا إذ ذاك مرتكزًا على أساس وطيد من الاستعداد الشامل لأداء العمل، ومن الإحاطة الكاملة بكل احتياجات تكميلية للإقدام على مشروعات واسعة لها هذه الدرجة من الخطورة.

ولو كان للألمان في عام ١٩٤٠ قوات برمائية جيدة التدريب مستكملة مختلف المعدات الحربية البرمائية الحديثة لما قدر لمهمتها النجاح أمام قواتنا البحرية والجوية، فما بالنا والألمان لم يكن لديهم شيء من ذلك لا من ناحية المعدات ولا منا ناحية التدريب وهما ضروريان في مثل هذه الحرب، وكلما

زادت رغبة الفوهرر والقيادة العليا في المغامرة وهنت آمالهم فيها، ولم يكن في استطاعتنا أن نصل إلى معرفة أوضاع بعضنا البعض وتقديرات كل منا، ولكن كلما مر أسبوع ابتداء من أواسط يوليو وانتهاء منتصف سبتمبر كان الغموض الذي يكتنف الموقف بالنسبة للبحريتين البريطانية والألمانية وللقيادة العليا الألمانية ورؤساء أركان الحرب البريطانية وبالنسبة للفوهرر ولمؤلف هذا الكتاب ينجلي رويدًا رويدًا ولو قدر لنا الاتفاق على نفس المستوى في القضايا الأخرى لما وجدت ضرورة لقيام حرب، فقد اتفقنا بادئ ذي بدء على أن المصير سيتقرر في الجو، وكان السؤال الذي يعرض لنا ولهم في وقت واحد هو كيف ستنتهي هذه المعركة الدائرة في الجو؟ وكان الألمان يتساءلون هل يصمد الشعب البريطاني لنيران الغارات الجوية التي كان تأثيرها قد بولغ في تقديره في تلك الأيام؟ أو أنه سينهار تحت وطأتها ويفرض على حكومته الاستسلام، وكان مارشال الرايخ ذا أمل عريض وثقة بالنتيجة، بينما كنا نحن لا نهابها.

معركة بريطانيا

ذكرنا من قبل أن مصيرنا أصبح رهنًا بإحراز النصر الجوي، وأن قادة الألمان أدركوا أن غزوهم لبريطانيا يتوقف على السيطرة الجوية في سماء القناة، وفي الأماكن المعينة على الساحل الجنوبي لبلادنا، على أنه لم يكن في مقدور الألمان القيام باستكمال استعداداتهم في موانئ الأبحار، وحشد سفن النقل، وتطهير المعابر من الألغام،ثم القيام ببث ألغام أخرى دون أن تكون لديهم الوقاية من غارات السلاح الجوي البريطاني.

أي أن الأمر الفصل كان للسيادة الجوية في سماء مناطق العبور والإنزال، ومن أجل هذا كان لابد من تدمير السلاح الجوي الملكي، وسائر المطارات الممتدة على طول الطريق بين لندن والبحر، ونحن نعلم الآن من الوثائق التي حصلنا عليها أن هتلر أبلغ الأميرال ريدر في ٣١ يوليو: "إنه إذا لم يستطع سلاحنا الجوي القيام بتدمير معظم طائرات العدو وموانئه وقواته البحرية في

خلال ثمانية أيام فإن عملية الغزو ستتأجل ضرورة حتى مايو من العام القادم". وهذه المعركة التي كان علينا أن نخوض غمارها على أني لم أحس بخوف لحظة واحدة - ولو عن طريق التصور - من التجربة العظمى التي كنا نواجهها وكنت في الرابع من يونيو قد أدليت للبرلمان ببيان هذا نصه:

"إن الجيش الفرنسي العظيم قد أجبر على التراجع واضطرب جل أموره نتيجة الهجوم الذي قامت به بضعة ألوف من السيارات المدرعة، فهلا يدافع عن قضية الحضارة بضعة ألوف من الطيارين بمهاراتهم وإخلاصهم!! وأرسلت إلى سمطس في ٩ يونيو التالي أقول وإني أرى الآن بوضوح أن هتلر بشكل قاطع سيشن هجومًا على هذه البلاد، فيدمر سلاحه الجوي في هذا الهجوم".

وها قد واتت الظروف الآن.

ولا شك أن كتبًا عدة قد صدرت لتوضح مدى الصراع الجوي بين السلاحين البريطاني والألماني، وهو الصراع الذي يكون معركة بريطانيا، وقد استطعنا الآن التعرف إلى آراء القيادة الألمانية العليا، وإلى ردود الفعل لديها في المراحل المتباينة، ويظهر أن خسائر الألمان في بعض المعارك الرئيسية كانت أقل بكثير مما خيل إلينا، وأن تقارير الجانبين في وقتها كانت تتسم بكثير من المغالاة، ولكن لم يكن هناك خلاف على الخطوط الرئيسية لذلك الصراع المعروف الذي كانت تتوقف عليه حياة بريطانيا وحرية العالم قاطبة.

كان السلاح الجوي الألماني قد التحم في معركة فرنسا بكل ما لديه من قوة، وأضحى في احتياج إلى الراحة بعد هذا القتال، تمامًا كما حدث للأسطول الألماني بعد معركة النرويج، وكذلك كان الأمر بالنسبة لنا إذ أن ثلاثة أسراب من مجموع كل أربعة من أسراب طائراتنا المحاربة كانت قد أسهمت في وقت أو آخر في معارك القارة، ولم يكن في مقدور هتلر إلا أن يعتقد أن بريطانيا سترحب بعرض للصلح بعد انهيار فرنسا.

وكان هتلر يشبه في ذلك المارشال بيتان وفيجان وغيرهما من القادة الفرنسيين العسكريين والسياسيين، الذين لم يدركوا ما لدى دولة تقوم في جزيرة من موارد مستقلة ما حبتها به الطبيعة من شمم، لقد كان من شأنه شأن هؤلاء الفرنسيين الذين استهانوا بعزيمتنا وإرادتنا. وقضى هتلر شهر يونيو في تحوير الأوضاع لتتمشى والأحوال التي وجد نفسه فيها تدريجيًا، وفي خلال ذلك كان السلاح الجوي الألماني يقضي فترة من النقاهة وإعادة تنظيماته استعدادًا للمهمة الجديدة، ولم يكن ثمة ريب في خطر هذه المهمة، إذ كان على هتلر أن يختار واحدة من اثنتين، أما أن يغزو إنجلترا أو يحتلها، أو يخوض غمار حرب طويلة الأمد، تنطوي على كثير من الأخطار والمشكلات، على أن احتمال نصر جوي يقضي على المقاومة البريطانية كان ماثلاً في أذهانهم، مما يجعل الغزو الفعلي أمرًا غير محتم، إلا باحتلال بلاد مغلوبة على أمرها. واستطاعت القوى الألمانية الجوية في خلال شهر يونيو ومطلع يوليو أن تنظم نفسها وتبث النشاط والحيوية في صفوفها، وأن تنتشر في جميع المطارات الفرنسية والبلجيكية التي يحتمل بدء الهجوم منها، واستطاعت الغارات الاستطلاعية والتجريبية الوقوف على حقيقة المقاومة التي ستجابهها ومدى طاقتها.

وشرعت في ١٠ يوليو بشن أول هجماتها الضخمة الكبيرة التي تعد بحق بدء معركة بريطانيا، وثمة تاريخان مهمان يرتفعان أيضًا في هذه المعركة أو هما: ١٥ أغسطس، ١٥ سبتمبر، وكانت ثمة مراحل ثلاث متتابعة ومتداخلة في الوقت ذاته حين الغزو الألماني، وقد اتسمت المرحلة الأولى بين ١٠ يوليو، ١٨ أغسطس، بالتركيز على القوافل البريطانية في المانش وعلى الموانئ الجنوبية الواقعة بين دوفر وبلايموت، حيث تقرر عدم عود السلاح الجوي البريطاني وإيقاعه في حبائل المعركة والقضاء عليه، وكذلك تدمير الموانئ التي تقرر النزول فيها.

وفي المرحلة الثانية الواقعة بين ٢٤ أغسطس، ٢٧ سبتمبر كان من المحتم تمهيد الطريق إلى لندن، وذلك بتحطيم السلاح الجوي البريطاني ومنشآته لتأمين الهجمات المتواصلة العنيفة على العاصمة وقطع طرق المواصلات من الشواطئ المهددة بالغزو، أما جورنج فلا شك أنه كان يرى في هذه الغارات غرضًا أكبر وهدفًا أبعد وهو إحداث الاضطراب الكامل في أكبر مدن العالم وشل حركتها. وإيقاع الفزع الأكبر في بريطانيا حكومة وشعبًا، واضطرارهما أخيرًا إلى الخضوع لإرادة ألمانيا، واتجه أمل الجيش الألماني والأسطول إلى الرغبة في أن يكون جونج مصيبًا فيما رآه، ولكن مع مرور الوقت وتغير الأحوال، رأى قادة السلاحين أن السلاح الجوي البريطاني لم يقض عليه، وأن أملهم في عملية "سبع البحر" قد تبدو في سبيل تحقيق ما أراده جورنج من تدمير لندن، وأخيرًا عندما انتابتهم خيبة أمل في كل شيء، وعندما تأجل الغزو إلى أجل غير معلوم لأن الشرط الحيوي الأساسي وهو السيطرة على الجو لم يتحقق بدأت المرحلة الثالثة والأخيرة.

لقد تبدد حلمهم في النصر الذي بدا كسراب خادع والسلاح الجوي البريطاني مازال حيًا راعدا، مما حدا بجورنج في شهر أكتوبر أن يقوم بشن غارات عمياء وعناء على لندن وغيرها من مراكز الإنتاج الصناعي.

ليس هناك وجه للمقارنة بين طائراتنا المقاتلة وطائراتهم، فالطائرات الألمانية أسرع وأقدر على الارتفاع. أما طائراتنا فأقدر على المناورات وأفضل تلسيحًا، وكان طيارو ألمانيا على ثقة من تفوقهم العددي، كما كانت الانتصارات التي أحرزوها في بولندا والنرويج والأراضي المنخفضة وفرنسا تشعرهم بالعزة والكبرياء.

أما طيارونا فكانوا واثقين بتفوقهم الشخصي، وكانوا يتحلون بتلك العزيمة التي تعتبر من صفات الشعب البريطاني وتبدو في وقت الأزمات والعواصف.

وقد كان الألمان متمتعين بمزية استراتيجية هامة، أحسنوا استغلالها، فقد توزعت قواتهم وانتشرت في جبهة واسعة للغاية، وكان في وسعها أن تشن هجمات علينا بأعداد وافرة، مع اتخاذ كافة الوسائل لتشتيت أفكارنا حتى لا يتسنى لنا أن نعرف مواقعهم الحقيقية، وكان السلاح الجوي الألماني قد جمع في شهر أغسطس ٢٦٦٩ طائرة بينها ١٠١٥ من القاذفات، ٣٤٦ من طائرات الانقضاض.

وأصدر الفوهرر أمرًا رقم (١٧) في ٥ أغسطس بتوسيع جبهة الحرب الجوية ضد بريطانيا، ولم يكن جورنج واثقًا من عملية سبع البحر، بل ركز اهتمامه على الحرب الجوية "المطلقة" ولم تكن هذه القيادة تعتبر تحطيم سلاحنا الجوي الهدف الأساسي بل تعتبر تحول الحرب الجوية بعد بلوغها الذروة إلى شن هجوم على بوارجنا وسفننا، وقد عبرت هذه القيادة عما تشعر به من أسف لأن جورنج لا يهتم كثيرًا بتركيز غاراته على الأهداف البحرية، كما أحنقها التسويف المتكرر للغارات الجوية، وفي ٦ أغسطس أبلغت القيادة البحرية القيادة العامة بأن بث حقول الألغام في بحر المانش أصبح من المتعذر القيام به لضغط التهديد البريطاني المتواصل في الجو.

وقد تركز القتال الجوي المتواصل طيلة شهر يوليو ومطلع أغسطس إلى غابة "كنت" البحرية وساحل القناة، وقد تأكد جورنج ومستشاروه من أن غاراتهم قد شغلت كل أسرابنا المقاتلة في ميدان المعركة في الجنوب، فقرروا القيام بغارة في وضح النهار على مدننا الصناعية الواقعة في الشمال، وكانت المسافة تعد طويلة على مقاتلاتهم من الطراز الأول وهي "المسرز شميث رقم ١٠٩" فاضطروا إلى المغامرة بطائراتهم القاذفة على أن تصحبها طائرات المسرز شميث رقم ١١٠، وهذه بصرف النظر عن قدرتها على الطيران إلى مسافات أبعد، فهي غير مجهزة بأسلحة القتال، وهو أمر له أهمية في هذا الوقت، ومع ذلك فقد نجحت المغامرة.

وهكذا قامت في ١٥ أغسطس نحو من مائة "قاذفة قنابل" وأربعون طائرة مسرز شميث رقم ١١٠، بشن هجوم على مدينة تاينيسان، وفي الوقت نفسه كانت أكثر من ثمانمائة طائرة تشن هجومًا على قواتنا الجنوبية لحصدها في منطقتها، إذ خيل إليهم أنها متجمعة في هذه المنطقة لكن التوزيع الذي وضعه لوداودنج لطائراتنا المقاتلة بدأ يظهر أثره. كان داودنج يفكر في مثل هذا الخطر، فسحب سبعة أسراب من "الهاريكين" و"السبتفاير" من معركة الجنوب المحتدمة للاستجمام قليلاً ولحماية الشمال في نفس الوقت، وقد أحس رجال هذه الأسراب ببالغ الأسى لابتعادهم عن ميدان المعركة مضطرين، إذ أكدوا لقيادتهم أن القتال لم يجهدهم، لم ينل من نشاطهم، وها هم أولاء يفاجئون بما لا يخطر على بالهم، فقد أصبح في مقدورهم أن يلتقوا بالمهاجمين بعد اجتيازهم الساحل، واستطاعوا إسقاط أربعين طائرة ألمانية أغلبها من قاذفات القنابل الثقيلة من طراز هينكل ١١١، التي تقل الواحدة منها أربعين رجلاً مدربًا، ولم يصب أحد من طيارينا بأي جرح غير اثنين، وليس هناك مجال للشك في سعة أفق المارشال الجوي داودنج وتفكيره السديد في توجيه الطائرات المحاربة، مما يستحق عليه كل ثناء وتقدير، ولكن عظمة هذا الرجل تتجلى في احتفاظه بهذه القوة من طائراتنا المحاربة في الشمال أثناء الأسابيع الطويلة من اشتعال الحرب في الجنوب، وهذا النوع من القيادة يُعد مثلاً على العبقرية في فن الحرب.

وأعقب هذا اليوم الفاصل أن أضحت مدن الشمال في مأمن من الغارات الجوية. وبعد يوم ١٥ أغسطس اليوم الذي بلغ فيه الصراع الجوي أشده، فقد حدثت خمس معارك رئيسية على جبهة مساحتها خمسمائة ميل، كان حقًا يومًا رائعًا، وقد التحمت جميع أسرابنا الاثنين والعشرين في موقعة في الجنوب، وبعضها عاود المعركة مرتين أو ثلاث، وكانت خسائر الألمان في الجنوب والشمال قد بلغت ستًا وسبعين طائرة، مقابل أربع وثلاثين من جانبنا، ولا شك في أن هذا الرقم يُعد كارثة بالنسبة للسلاح الجوي الألماني.

وليس هنا مجال للشك في أن قادة الجو الألمان قد هالتهم نتائج هذه الهزيمة الساحقة التي انطوت على أسوأ النذر بالنسبة للمستقبل، وكان السلاح الألماني قد ركز اهتمامه في الإغارة على ميناء لندن، ذي الأرصفة الطويلة التي تقف عليها مختلف أنواع البواخر، وإذلال كبرياء المدينة باعتبارها من أكبر مدن العالم وأوسعها على أن تحديد الهدف لا يهم الطيار، مما يجعل مهمته أيسر وأسهل.



وقام اللورد بيفربروك في خلال هذه الأسابيع الطويلة من القتال المستمر والقلق الذي لا نهاية له، بمساعدات واضحة، فمن الضروري إدخال تجديد على أسرابنا المقاتلة، وتزويدها بطائرات مضمونة، وقد حال ضيق الوقت دون الأخذ والرد، والإطالة في البحث والشرح بالرغم من ضرورة ذلك في كل نظام هادئ رتيب، وكانت طباع اللورد مناسبة كل المناسبة للضرورة الملحة، فلقد كانت حيويته ونشاطه من بواعث الإقبال على العمل، وقد اغتبطت لذلك كثيرًا فقد اعتمدت عليه ووثقت في مساعدته فلم تخب هذه الثقة مرة واحدة، وها قد دنت ساعة لإظهار عبقريته واستعداده الشخصي، مع ما يصحبها من قدرة على الإقناع وتمكنه من تذليل شتى الصعاب، وكنا نلقى في أتون المعركة بكل مواردنا، فقد تدفقت علينا الطائرات الجديدة أو ما تم إصلاحه من أسرابنا التي اغتبطت حينما طالعتها هذه الأعداد الكبيرة غير المتوقعة، وأخذت ورش الصيانة والإصلاح تضاعف من جهدها وقوة طاقتها. حينئذ تجلت لي قيمة الرجل وأهميته فدعوته في ٢ أغسطس بعد موافقة الملك للاشتراك في عضوية وزارة الحرب، وفي الوقت نفسه كان ولده الأكبر ماكس اتيكن قد تصدر قيادة الطائرات المقاتلة، وأحرز انتصاره السادس.

وكان ابرنست بيفن وزير العمل والخدمة الوطنية من الوزراء الذين حرصت على الإكثار من لقائهم في تلك الفترة الحرجة، نظرًا للمهمة الحيوية

التي كان يقوم بها من إدارة اليد العاملة في لابلاد وبعث الحيوية والنشاط فيها. وكان جميع العمال في مصانع الذخيرة مستعدين لتلقي توجيهاته، وانضم هو الآخر إلى عضوية وزارة الحرب في شهر أغسطس.

وضحى العمال النقابيون بمكاسبهم وحقوقهم التي أحرزوها بعد جهاد طويل والتي كانوا يولونها أعظم الرعاية، ضحوا بها على مذبح المصلحة الوطنية، وهم يرون قرابين الثروة والامتيازات والممتلكات تسبقهم إلى التضحية، وكنت على وفاق تام مع بيفربروك وبيفن في أسابيع الأزمة التي خضناها، وقد وقع خلاف بين الرجلين فيما بعد، وهذا مما يؤسف له، فقد نتج عن اختلافهما كثير من الصدام، أما في تلك المرحلة من الكفاح الذي بلغ ذروته، فقد كنا جميعًا نعمل يدًا واحدة، وليس في مقدوري إلا أن أثني كل الثناء على ولاء المستر تشمبرلين، وإثبات كافة الزملاء وكفايتهم، فإلى الجميع تحياتي.

ولم يدرك جورنج حتى آخر شهر أغسطس أي أثر سيئ للصراع الدائر في الجو، فقد كان على ثقة هو ورجاله من أن المطارات البريطانية وصناعة الطائرات وقوة السلاح الجوي البريطاني المحاربة قد منيت بكوارث ساحقة، وكانت هناك فترة خلال شهر سبتمبر تحسن فيها الطقس ازداد فيها أمل السلاح الألماني في إحراز نتائج فاضلة، وامتحنت المطارات حول لندن بغارة جوية عاتية، وقامت ثمان وستون طائرة ليلة ٦ سبتمبر بالإغارة على لندن تبعها في الليلة التالية هجوم آخر قامت به ثلاثمائة طائرة في وقت واحد، وفي ذلك اليوم ما حدث فيما تلا ذلك من أيام حيث أتممنا تعزيز البطاريات المضادة للطائرات، في ذلك اليوم دارت معارك شديدة ومتواصلة في سماء العاصفة، وكانت القوة الجوية الألمانية خلال ذلك توقن بالنتيجة بسبب مغالاتها في تقدير خسائرنا.

وكان ميزان القتال الذي وقع بين ٢٤ أغسطس، ٦ سبتمبر قد رجح ضد طائراتنا المحاربة، فقد اتخذ الألمان في تلك الأيام الفاصلة بصورة مستمرة قوات ضخمة لشن الغارة على مطاراتنا في جنوب إنجلترا والجنوب الشرقي، وكانوا يهدفون إلى تدمير الجهاز الدفاعي عن العاصمة في أثناء النهار، التي استبدت بهم اللهفة لمهاجمتها، وكان العمل المتواصل في هذه المطارات ودوام تحركات أسرابنا منها أكثر أهمية لنا من حماية العاصمة التي منيت بحملات من القصف الجوي غرضها الأول نشر الرعب وإثارة الفزع. وكانت هذه المرحلة فاصلة في الصراع بين الحياة والموت بالنسبة لكلا الفريقين المتنازعين، ولم نكن نفكر حينذاك في الدفاع عن لندن أو غيرها من المدن بقدر ما كنا نتساءل لمن سيكون النصر؟ .. وقددهم قيادة الطائرات المحاربة في "ستاجور" إحساس بالقلق وخاصة في مقر قيادة المجموعة الحادية عشرة في أوكسبريجد، إذ منيت خمسة من مطارات المجموعة الأمامية وستة من مراكز الجبهة بأضرار جسيمة، وكذلك محطة قطاع بجين هيل إلى الجنوب من لندن. حتى أن سريا واحدًا هو الذي استطاع العمل وحده مدة أسبوع كامل. ولو استمر العدو في هجماته الثقيلة على القطاعات القريبة وهدم غرف العمليات فيها، وتقطيع أوصالها التليفونية، لأصبحت جميع تنظيماتنا الدقيقة في القيادة الجوية معرضة لأهم الأخطار، ولم يكن دليلاً على مجرد توجيه الإساءة إلى لندن بل على وهن إشرافنا على سمائنا في هذه المنطقة الحيوية الحساسة، وقد فرضت زيادة عدد من هذه المحطات في ٢٨ أغسطس وخصوصًا مانستون وبجين هيل القريبة من بيتي، كانت المحطتان متداعيتين وطرقهما مملوءة بالحفر، وعندما غير الغدو هجومه في ٧ سبتمبر إلى لندن أدركت قيادة الطائرات المحاربة هذا التغيير واستشعرت قيادتنا الكثير من الراحة لذلك، وكان على جورنج أن يستمر في هجماته على مطاراتنا التي تعتمد عليها قوتنا الجوية المحاربة في ذلك الوقت، ولكنه بتخليه عن قواعد الحرب المألوفة، وما تمليه الروح الإنسانية من قواعد مقررة، ارتكب أجسم الخطايا وأبشعها وكانت

هذه الآونة الواقعة بين ٢٤ أغسطس، ٦ سبتمبر من الأيام التي شقت على قيادة طائراتنا المقاتلة إلى أقصى حد، وكانت القيادة قد منيت في هذين الأسبوعين بخسارة ما يقرب من مائة وثلاثة من الطيارين قتلوا، ومائة وثمانية وعشرين أصيبوا بجراح خطرة، كما تحطمت حوالي ٤٦٦ طائرة من طراز الهاريكسين والسبيتفاير أن أصيبت بأضرار جسيمة، وإذا اعتبرنا أن عدد الطيارين في قوتنا المحاربة كان في هذه الآونة ألف طيار، بدا لنا أن سلاحنا الجوي قد فقد ربع رجاله تقريبًا.

ولم يكن بوسعنا ملء الفراغ الذي نشأ عن فقدهم إلا باستحضار مائتين وستين طيارًا جديدًا ينقصهم التدريب، وإن لم تنقصهم الحماسة نقلوا من وحدات التدريب قبل أن يستكملوا مدتهم الدراسية في كثير من الأحيان، وتسببت الهجمات الليلية على لندن خلال عشرة أيام بعد ٧ سبتمبر والتي استهدفت الأرصفة ومراكز السكك الحديدية في قتل عدد كبير من المدنيين، وإصابة الكثير بجراح، ولكنها برغم ذلك اعتبرت بمثابة نعمة هبطت علينا من السماء أرسلت إلينا، على حين كنا في أشد الحاجة إليها لنأخذ أنفاسنا.

وعلينا أن نعتبر الحرب الجوية قد بلغت ذروتها في ١٥ سبتمبر فقد شن السلاح الجوي الألماني - بعد غارتين متواليتين في ١٤ من الشهر نفسه - أكبر هجوم جوي مركز في رائعة النهار على مدينة لندن. لقد صارت إحدى المعارك الفاصلة في الحرب، فقد حدثت في يوم من أيام الأحد كمعركة "واترلو" سواء بسواء، وكنت في تشكيرز في ذلك اليوم، وطالما قمت - قبل ذلك اليوم - بزيارة لمقر المجموعة الحادية عشرة من الطائرات المقاتلة لأشهد بنفسي سير إحدى المعارك الجوية التي لا يحدث فيها الكثير، وأحسست في ذلك اليوم أن الطقس مناسب تمامًا لعدونا، ولذلك فقد ركبت سيارتي إلى أوكسبردج حيث زرت مقر الجمعية التي تتكون من حوالي خمسة وعشرين سربًا تختص بالدفاع عن أيسكس وكنت وساسكس وهمبشاير وجميع المداخل المؤدية إلى

لندن، وكان نائب مارشال الجو بارك يقوم بقيادة هذه المجموعة منذ حوالي ستة أشهر، وكان عليها يتوقف مصيرنا إلى درجة عظيمة، ومنذ أن ابتدأت معركة دنكرك أسند إلى بارك إدارة كافة أعمال الطيران في النهار في جنوب إنجلترا، وقد بلغت استعداداته حد الكمال، وتسللت مع زوجتي إلى غرفة العمليات الحربية المحصنة ضد القنابل، والواقعة على بُعد خمسين قدمًا تحت الأرض، ومن المعلوم أن تفوق طائرات السيتفاير والهاريكين إنما يرجع إلى وجود هذا الجهاز الدقيق من الإشراف، وامتداد شبكة أسلاك التليفون تحت الأرض قبل الحرب بفضل توجيه وزارة الطيران ونصيحة المارشال داودنج، وكانت القيادة العامة تواجه التعليمات والأوامر من مقر القيادة العليا للطائرات المحاربة في ستاجور، لكن القيادة الفعلية لأسراب الطائرات قد عهد بها إلى المجموعة الحادية عشرة التي كانت تتولى الإشراف على سائر الوحدات الموزعة في شتى محطات الطائرات المحاربة في مختلف أنحاء البلاد.

وكانت غرفة عمليات المجموعة تشبه المسرح الصغير وطولها يبغ ستين قدمًا، وتتكون من طابقين واخترنا مقاعدنا في الحلقة الوسطى وأمامنا على المائدة بسطت الخريطة الضخمة، وقد التف حولنا حوالي عشرين شابًا وفتاة تم تدريبهم ومعهم مساعدوهم من موظفي التليفونات، وأمامنا يقع لوح أسود كبير بطول الجدار كله، وقد قسمته المصابيح الكهربائية إلى ستة أعمدة يمثل كل منها محطة من المحطات الست، ولكل منها أيضًا عمود إضافي. مقسمة بخطوط أفقية، وهكذا كانت المصابيح المنخفضة تكشف عن الأسراب "الواقفة على أهبة الاستعداد" والمستعدة للطيران في خلال دقيقتين، ثم تعلوها المصابيح التي توضح الأسراب المتأهبة للعمل في خلال خمس دقائق ثم تعلوها تلك التي يتم استعدادها في عشرين دقيقة، وهكذا بالنسبة إلى تلك التي تقوم بالطيران أو التي شاهدت العدو أو المشتبكة معه في هذه اللحظة أو تلك التي تشبه المقصورة في المسرح يجلس فيها أربعة أو خمسة ضباط من فرقة المراقبة التي كان عددها قد بلغ حينذاك حوالي خمسين ألف رجل وامرأة

وشاب، وقد كان الرادار ـ آنذاك ـ في بدايته، ومع ذلك فقد كان كافيًا لتوجيه الإنذار بالغارات حين تقترب من السواحل، وكان المراقبون من خلال مناظيرهم وتليفوناتهم المتنقلة مصدر كل المعلومات عن الطائرات المغيرة، وهكذا كانت القيادة تنهال عليها ألوف الرسائل والإشارات في غضون وقوع الغارة. وكان يجلس عدد كبير من الرجال المدربين في غرف تمتلئ بهم في مقر القيادة الكائن تحت الأرض، يحلون رموز تلك الرسائل ويلخصونها بأقصى سرعة وينقلون من دقيقة إلى أخرى النتائج التي يصلون إليها إلى الذين يضعون ويخططون للمعركة وهم جالسون حول المائدة الرئيسية، وإلى الضباط المشرفين على سير العملية من مقصورتهم التي أشرنا إليها آنفًا.

وفي الناحية المقابلة "مقصورة" ثانية يحتلها عدد من ضباط الجيش الذين يقومون بنقل أعمال البطاريات المضادة للطائرات، وقد كان لدينا منها تحت إشراف هذه القيادة مائتا بطارية وكان من الضروري جدًا أن تتوقف هذه البطاريات عن العمل بضع ساعات من الليل في بعض المناطق. إذ أن طائراتنا المقاتلة تكون ـ في تلك الآونة ـ قد اشتبكت في القتال مع العدو. وكنت على علم بهذا النظام فقد أطلعني داودنج على عمل الجهاز كله قبل أن تبدأ الحرب بعام عندما زرته في ستاغور، ولقد مر النظام بمراحل من التحسين والإصلاح منذ تلك الزيارة وصار الآن أداة حيوية من أدوات الحرب لا نظير لها في أي بلد من بلاد العالم.

وقال بارك عندما نزلنا إلى المقر في الطابق الأسفل "لا أستطيع التخمين عما يحدث اليوم كل شيء هادئ".

ولم يكد يمضي ربع ساعة على هذا الكلام حتى كان منظمو الخطة قد بدأ تحركهم، إذ أبلغوا أن حوالي أربعين طائرة تحركت للإغارة من المحطات الألمانية في منطقة دييب، وأخذت المصابيح تضيء في الصف الأدنى مشيرة إلى الأسراب التي وقفت على أهبة الاستعداد ثم وافى خبر آخر مؤداه أن

عشرين طائرة مغيرة أخرى تستعد، ولم تمض عشر دقائق أخرى حتى صار من البين أن معركة قاسية في طريق الوقوع، وبدأ الجو يحتشد بطائرات من الجانبين.

وتتابعت الإشارات، أربعون طائرة أخرى، ستون طائرة، وكان اتجاه سير الطائرات المغيرة يبدو أمامنا على الخريطة من وقت إلى آخر. في علامات توضح اتجاهاتها، بينما كانت على اللوحة المواجهة تضيء المصابيح، مشيرة إلى طيران أسرابنا بصورة متتابعة حتى لم يبق منها على الأرض على أهبة الاستعداد أكثر من عدد قليل، وقد ظلت هذه المعارك الجوية - التي يعلق عليها الكثير - أكثر من ساعة بعد وقوعها، وقد كان عدونا ما تزال لديه القوة التي مكنته من إرسال هذه الدفعات المتوالية من الطائرات إلى قلب الهجوم، وكان على أسرابنا التي تم طيرانها كلها لتكون لها السيادة على الجو أن تعود إلى قواعدها بعد سبعين أو ثمانين دقيقة من طيرانها لتتزود بالوقود أو الذخائر، ولو تمكن العدو في أثناء ذلك من حشد طائرات جديدة في حومة القتال لاستطاع تدمير العديد من طائراتنا وهي على الأرض، ولذا فقد كان هدفنا الرئيسي دائمًا أن نوجه أسرابنا بحيث لا يتجمع عدد كبير منها على الأرض في وقت واحد.

وسرعان ما أوضحت الأضواء الحمراء أن معظم أسرابنا ملتحمة مع العدو، وكنت أسمع همسًا متصلاً بين القائمين بالتخطيط وهم ينقلون الإشارات من مكان لآخر ليوضحوا تطور المعركة وتغير الأوضاع، وكان نائب مارشال الجو بارك يصدر التعليمات العامة موجهًا طائراته المقاتلة، التي تترجم فورًا إلى تعليمات تفصيلية يوجهها ضابط شاب يجلس في وسط الغرفة إلى كل محطة من المحطات.

وكنت أجلس بجواره وسألت عن اسمه بعد سنوات، فقيل لي أنه اللورد ويلوبي دي بروك. وقد التقيت به لثاني مرة في عام ١٩٤٧، عندما استجبت

لدعوة من نادي الفرسان، وكان عضوًا بمجلس إدارته لشهود حفلة سباق الدربي، وقد استغرب كثيرًا لأنني لم أنس لقائي الأول به.

وكان في ذلك الحين يصدر التعليمات والأوامر للأسراب الفردية بالتحليق في الجو، والقيام بأعمال الدورة على هدى من النتائج الظاهرة على الخريطة.

وكان مارشال الجو آنذاك يسير في الغرفة جيئة وذهابًا، وهو يلحظ بعين حذرة متنبهة كل حركة وخطوة في اللعبة مراقبًا بنفسه رجال جهازه التنفيذي، ومتدخلاً إذا اقتضى الأمر بكلمة حاسمة لتعزيز نقطة مهددة. ولم تمر لحظات حتى صارت جميع أسرابنا ملتحمة في المعركة. ولم يبق سرب واحد في الاحتياطي، وتحدث بارك في تلك الأثناء تليفونيًا إلى داودنج في ستانمور، فطلب منه أن يضع ثلاثة أسراب من المجموعة الثانية عشرة تحت تصرفه احتياطًا للطوارئ وفيما إذا وقع هجوم رئيسي آخر خلال قيام أسرابه بالتزود بالسلاح والذخائر، وقد تم هذا فعلاً، وكانت الأسراب ألزم ما تكون لحماية لندن ومطارات الطائرات المحاربة. حيث أن المجموعة الحادية عشرة كانت قد استنفذت كل قواها.

واستمر الضابط الشاب الذي اتخذ من هذه الأمور مسألة روتين في إعداد أوامره المنسقة مع تعليمات قائده العام، بلهجة هادئة، وسرعان ما انطلقت الأسراب الإضافية الثلاثة إلى حومة الوغى أيضًا، وشعرت بقلق القائد، الذي كان يصطنع الهدوء في وقفته وراء مقعد مساعده، وكنت حتى هذه الأثناء أشهد التطورات صامتًا، فسألته: "هل تملك قوات أخرى احتياطية؟.." فأجابني نائب المارشال: "كلا.. لم يبق لدينا في الاحتياطي أي شيء". وقد كتب في تقريره فيما بعد أنني ظهرت حينذاك بمظهر المتهجم العبوس، وربما أكون حقًا قد قطبت جبيني، وعبس وجهي، إذ ماذا يكون الأمر لو فاجأت أربعون طائرة جديدة أو خمسون أسرابنا وهي على الأرض تتزود بالوقود لتعود إلى

التحليق من جديد، أن الميزان حينذاك كان في كف القدر، وكانت قدراتنا محدودة والأخطار التي تتعرض لها جد كبيرة.

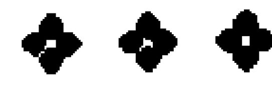
ومرت خمس دقائق أخرى، وأغلب طائراتنا المحاربة تعود إلى الأرض لتتزود بالوقود، ولم يكن في وسع مواردنا الحالية أن تضمن لها الحماية الجوية الكافية، وعرفنا أن طائرات العدو قد أخذت تعود من حيث أتت، وبدأت العلامات على الخريطة تظهر اتجاه الطائرات الألمانية نحو الشرق، ولم يبد أثر لأي هجوم جديد، وبعد عشر دقائق من انتهاء المعركة بدأنا نرتقي السلم نحو سطح الأرض، وحينما وصلنا كانت صفارات الأمان تدوي في الأسماع منبئة بانتهاء الغارة.

وقال بارك: "أسعدنا يا سيدي، إنك رأيت المعركة، حقيقة لقد كنا في الدقائق العشرين الأخيرة تكاد نختنق من المعلومات التي عجزنا أمامها، ولعلك يا سيدي شهدت القيود المفروضة على مواردنا الحالية، وقد تحملت الموارد اليوم أكثر مما نستطيع".

وسألته عما إذا كان شيء من نتائج المعركة قد وصل إليه، وذكرت أن الهجوم قد رد بصورة رائعة وفعالة، فأجاب بارك بأنه غير راض وأن طائراته لم تستطع أن تسقط العدد الذي كان يتوقعه، وكان من البعيد أن العدو قد اجتاح خطوطنا الدفاعية في كل مكان تقريبًا، وقد سرت الأنباء بأن عشرات من القذائف الألمانية قد استطاعت تحت حراسة المحاربات من التسلل إلى لندن، ولكن الصورة الصادقة عن نتائج المعركة لم تتضح تمامًا، كما لم تصل إلينا أية أرقام نهائية عن الخسائر أو الأضرار.

وكانت الساعة قد انتهت بنا إلى الرابعة والنصف بعد الظهر، عندما رجعت إلى تشيكرز، فمضيت أثر ذلك إلى فيلولني، ويبدو أن المسرحية التي عاينتها في مقر قيادة المجموعة الحادية عشرة قد أنهكت قواي، حتى أنني لم أصح من نومي إلا في حدود الثامنة مساء، وحينما دققت الجرس حضر لي جون

مارتن رئيس أمناء سري ومعه موجز أخبار المساء من جميع أنحاء العالم. كانت أخباره مثيرة للقلق فقد سار هذا الأمر سيرًا خاطئًا هنا، وتأخر ذاك هناك، والرد غير مقنع عن آخره أو ابتلع الأطلنطي قطعة بحرية، ومضى جون مارتن يقول: "أننا قد حققنا في الجو ما نهدف إليه فقد أسقطنا مائة وثلاثًا وثمانين طائرة مغيرة مقابل خسائرنا التي لم تبلغ الأربعين".



وبالرغم من أن المعلومات التي بلغتنا من العدو بعد الحرب تشير إلى أن خسائره في هذه المعركة لم تزد عن ست وخمسين طائرة، إلا أن ١٥ سبتمبر كان قمة معركة بريطانيا حقًا، وبدأت قيادة طائراتنا القاذفة في تلك الليلة القيام بهجمات مركزة على كافة موانئ العدو من بولون إلى انتوبرب، وقد أنزلت بالميناء الأخير خسائر بالغة، وها نحن أولاء نعلم الآن أن الفوهرر قد قرر في ١٧ سبتمبر تأجيل عملية سبع البحر إلى أجل غير مسمى، وتم أخيرًا في ١٢ أكتوبر تأجيل هذا الغزو نهائيًا حتى الربيع التالي.

وقرر هتلر في يوليو عام ١٩٤١ تأجيل الغزو ثانية حتى ربيع سنة ١٩٤٢ عندما تكون الإغارة على روسيا قد انتهت. وكان هذا الحلم ضروريًا مع كل ما فيه من عبث واستحالة، وفي ١٣ فبراير ١٩٤٢ اجتمع الأميرال ريدر بهتلر للمرة الأخيرة للبحث ي مسألة عملية "سبع البحر" واضطره أن يقرر العدول عنها نهائيًا، ومن ذلك يتضح أن ١٥ سبتمبر عام ١٩٤٠ كان نقطة تطور هامة. ولا شك في أننا كنا متهاونين في تقدير خسائر العدو وفي الحقيقة نسقط طائرتين للعدو أو ثلاثًا مقابل واحدة تهوي من طائراتنا، وفي هذا ما يكفينا وقد استطاعت قواتنا الجوية أن تحقق النصر، بدلاً من أن يحيق بها الدمار على يد العدو، وكان هناك مدد من الطيارين الجدد لا ينقطع، وبالرغم من الإصابات التي لحقت بمصانع طائراتنا، وهي العامل الفعال في قدرتنا على شن حرب طويلة الأجل، إلا مجرد إمدادنا بحاجاتنا العاجلة فحسب، بالرغم من

ذلك فلم تشل حركتها نهائيًا، وبقى عمالها من فنيين وغير فنيين وراء مخارطهم تزدحم بهم المصانع غير مبالين بالنيران التي تتوهج من حولهم، فكانوا أشبه ما يكونون ببطاريات مدفعية تواصل عملها، وكان هوبرت موريسون في وزارة التموين يشجع الجميع على مواصلة الجهد، كل في حدود عمله، وكان يحفزهم بكلمة: "هيا إلى العمل" فلا ينى أحد عن الإسراع بتلبية ندائه، وقامت قيادة مقاومة الطائرات المغيرة برئاسة الجنرال بايل، ببذل كل عون مستطاع إلى معركة الدفاع الجوي، لكن اشتراكها الرئيسي كان متأخرًا، أم فرقة المراقبة فكانت تواصل عملها ليل نهار لا تعرف التعب وبدون أن يتأثر إخلاصها.

أما قيادة الطائرات المقاتلة التي تعتمد عليها المقاومة كل الاعتماد، فقد أقنعتنا بقدرتها على الصمود المتواصل أشهرًا عديدة أمام الإجهاد المستمر، حقًا لقد أدى كل فريق واجبه أحسن الأداء.

واستمرت أرواح طيارينا وشجاعتهم وهم يخوضون غمار المعركة في منتهى القوة والروعة، وهكذا أنقذت بريطانيا، وأصبح علي أن أقف في مجلس العموم وأقول "لم يسق قط في تاريخ الصراع الإنساني أن أحس مثل هذا العدد الضخم من الناس بما في أعناقهم من دين جسيم نحو عدد قليل من الناس مثلما نحس به جميعًا اليوم نحو طيارينا".

صمود لندن

لا شك في أن الآراء التي تروي عن الهجوم الجوي الألماني على بريطانيا هي آراء متناقضة ذات أهداف متباينة، وخطط مبتورة، ففي خلال هذه الأشهر كلها، كان يقلق راحتنا ليتخذ أسلوبًا جديدًا، ولكن هذه المراحل جميعها متداخلة وليس في المستطاع الفصل بينها بتواريخ دقيقة محددة. فالمرحلة الواحدة منها تسلم إلى المرحلة الثانية، وتتداخل فيها وكانت العمليات الأولى تهدف إلى الالتحام مع قواتنا الجوية في معارك فوق المانش والساحل الجنوبي،

ثم تحول القتال إلى سماء المقاطعات الجنوبية، وخصوصًا في كنت وساسكس حيث أراد العدو أن يحطم تنظيم جهاز قوتنا الجوية، ثم أخذ يتجه نحو لندن قليلاً قليلا حتى أصبح أخيرًا يحلق في قلب سمائها، حيث أضحت المدينة هدفه الرئيسي، وأخيرًا عندما أحرزت لندن النصر انتقل القتال إلى سماء لندن في الأقاليم، وإلى شريان الحياة البريطاني خلال الأطلنطي عن طريق ميرس وكلايد.

وقد شهدنا الهجمات الألمانية العتيقة على مطارات الساحل الجنوبي في الأسبوع الأخير من شهر أغسطس. والأسبوع الأول من شهر سبتمبر، وفي ٧سبتمبر تسلم جورنج علنًا قيادة المعركة الجوية وجعل الغارات ليلية، ونقل مكان المعركة من مطارات "كنت" وساسكس إلى عمارات لندن وأبنيتها، أما الغارات النهارية فلم تنقطع وإن كانت ثانوية، حدث هذا باستثناء غارة نهارية ضخمة أخرى، لكن الطابع العام للهجوم الألماني قد تغير تمامًا، وقصفت لندن بصفة متواصلة لمدة سبع وخمسين ليلة دون انقطاع. مما جعل أكبر مدن العالم تواجه تجربة خطيرة بل محنة قاسية، ولم يكن في مقدور أي إنسان أن يتنبأ بالنتائج، ولم يسبق قط أن تعرضت هذه البلدان لمثل هذا القصف الجوي الراعد، كما لم يسبق أبدًا أن واجه العدد الضخم من الأسر المشكلات والمصاعب التي أحدثها هذا القصف الرهيب ونكباته.

وقد قمنا بغارة على برلين ردًا على هذه الغارات المتواصلة على لندن في نهاية شهر أغسطس، ولكن المسافات الشاسعة ـ التي كان على طائراتنا أن تجتازها ـ تجعل مثل هذه الغارة شيئًا مذكورًا بالنسبة للغارات الألمانية المركزة على لندن من المطارات القريبة الفرنسية والبلجيكية. ولكن وزارة الحرب رأت نفسها في وضع يحتم عليها الثأر، رفعًا للروح المعنوية، وتأكيدًا لتحدينا للعدو، وكنت على ثقة من صحة هذا الرأي وجدواه إذ أني أعلم أن هتلر يثير اضطرابه صمود بريطانيا. وإظهار قوتها وإن كان هتلر في أعماق نفسه يعجب بشعبنا، وبالطبع واتته الفرصة حين قمنا بغارتنا الثأرية على برلين، فأعلن ما

انطوت عليه نفسه من رغبة في تحويل لندن وغيرها من المدن البريطانية إلى أطلال ورسوم، حين صرح في ٤ سبتمبر قائلاً: "إن هجومهم على مدننا سيدفعنا إلى إزالة مدنهم من الوجود". وقد بذل هتلر أقصى ما يستطيع من جهد.

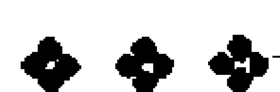
وأسهم في الغارات الليلية المتواصلة على لندن بين ٧ سبتمبر و٣ نوفمبر أكثر من مائتي طائرة في كل غارة، وكانت الهجمات التمهيدية العديدة التي نزلت بمدننا الإقليمية في الأسابيع الثلاثة الماضية قد فرضت علينا أن نوزع مدفعيتنا المضادة للطائرات بصور فعلية، وعندما أصبحت لندن الهدف الرئيسي للمرة الأولى لم تكن تحتوي على أكثر من اثنين وتسعين مدفعًا، ورأينا أن الأجدى ترك الجو حرًا لطائراتنا الليلية المقاتلة تحت قيادة المجموعة الحادية عشرة، وكان من بين تلك الطائرات ستة أسراب من طراز "بلنهايم" وطراز "ديفايانت" وكان الاشتباك الليلي ما يزال في بدايته، ولذلك فإن خسائر العدو كانت طفيفة ومحدودة.

وهكذا استمرت مدافعنا المضادة متوقفة عن العمل في الليالي الثلاث الأوليات، وبالرغم من عدم دقة الوسائل التي تستخدمها المدافع المضادة فقد اضطرنا ضعف طائراتنا الليلية المحاربة ومدى ما تواجهه من مشاكل في حاجة إلى الحل، اضطرنا كل أولئك إلى أن نعطي لمدفعي هذه البطاريات الحرية التامة في إطلاق نيرانها على أهداف غير واضحة متخذين أي أسلوب يختارونه لتحديد الهدف ودقته.

وبعد ثمان وأربعين ساعة استطاع الجنرال بايل المشرف على قيادة المدافع المضادة من زيادة عددها في العاصمة بجلب عدد من مدن الأقاليم، وهكذا أخليت السماء من طائراتنا المقاتلة، وقامت المدافع المضادة بمهمة الدفاع.

ومكث أهل لندن ثلاث ليال متعاقبة ملازمين مساكنهم أو معسكراتهم غير المعدة، محتملين أعنف الغارات حتى كانت ليلة ١٠ سبتمبر فانطلقت مدافعنا المضادة فجأة تضيء لها السبيل المصابيح الكاشفة

المتوهجة، وبالرغم من دويها العظيم فلم تنزل بالعدو أضرارًا جسيمة، إلا أنها أعلت الروح المعنوية بين أبناء العاصمة، وتمشت الحماسة في صدر كل إنسان لمجرد الإحساس بأننا نرد الصاع صاعين، واستمرت المدافع المضادة منذ ذلك الوقت تتابع إطلاق نيرانها بصفة منتظمة ومتواصلة، ومهد التمرين والاختراع وإلحاح الحاجة إلى زيادة التصويب دقة، وأخذ عدد الطائرات المصابة من سلاح العدو يتكاثر ليلة بعد أخرى، وكانت البطاريات تلوذ بالصمت أحيانًا حين تنطلق الطائرات الليلية المقاتلة لتخوض غمار المعركة، بعد أن تحسنت أساليبها، وظلت الغارات الليلية بل النهارية متواصلة إلى الحد الذي كانت تشن فيه هذه الغارات مجموعات صغيرة من الطائرات بل طائرة واحدة أحيانًا، وطالما أطلقت صفارات الإنذار ودوى صوتها فترات متلاحقة طيلة ساعات اليوم بأكمله، ولكن أهل لندن الذين يبلغون في ذلك الوقت سبعة ملايين قد رتبوا حياتهم على وضع يلائم تلك الأحوال الشاذة.



ولتنوير القراء ورغبة مني في الترفيه قليلاً عنهم، والتخفيف من وقع هذه التجربة القاسية على مشاعرهم، أورد هنا بعض ملاحظاتي الشخصية عن غارات لندن، متيقنًا أن لدى الآلاف من أبناء العاصمة كثيرًا من الحكايات التي تبز في إثارتها هذه الملاحظات.

فعندما أخذت طائرات العدو في قصت جو العاصمة كنا نرى أن نواجه هذه الغارات بالتهوين وعدم الاكتراث، فاستمر كل إنسان في حي "الويست أند" يعمل ويلهو، ينام ويأكل كما تعود، دون أن يغير شيئًا من مجرى حياته العادية، فالمسرح مزدحم بالنظارة والشوارع المظلمة تموج بالمارة، ولعل هذا الموقف كان رد فعل صائب للرعب المستطير الذي بدأ في العناصر الانهزامية في باريس، عندما تعرضت المدينة لأول هجوم جوي في شهر مايو، وأذكر أني كنت على مائدة العشاء ذات ليلة، مع صحبة خيرة، عندما حدثت غارات

مستمرة قوية وكانت نوافذ قصر "ستورانواي" - حيث كنا نجلس - نطل على الميدان الأخضر "جرين بارك" الذي أنارته شعل المدافع المضادة وانفجار القذائف المضادة، وهين لي أننا كنا نغامر بأرواحنا، دون ما ضرورة أو مبرر، وبعد أن تناولنا العشاء انتقلنا إلى عمارة شركة الصناعات الكيمائية الإمبراطورية وهي تطل على الجسر، وكان منظر النهر يأخذ بنفوسنا ونحن نطل عليه من الشرفات العالية، ورأينا على الأقل عشر حرائق تشتعل في الجانب الجنوبي، وبينما كنا نقف تساقط عدد من القنابل الثقيلة، انفجرت إحداها بالقرب مني فدفعني صديق إلى ما وراء عمود حجري راسخ القواعد، وأكدت هذه الحادثة الفكرة التي خطرت ببالي وهي أن نكيف حياتنا مع الوضع الجديد، وأن نفرض على متع حياتنا كثيرًا من القيود.

وسقطت القنابل مرات عديدة على مجموعة من الأبنية الحكومية المحيطة بالبيت الأبيض، على أن دور الحكومة في "داوننج ستريت" قام ببنائها قبل مائتين وخمسين عامًا المتعهد الاستغلالي الذي ما زال اسمه محفورًا على أسس ضعيفة واهنة، وخلال أزمة ميونيخ أقيمت المخابئ لسكان رقمي (١٠، ١١) من هذا الشارع، كما دعمت الأسقف بأعمدة جديدة قوية، وأنشئت سقوف داخلية أخرى، وكان الظن أن هذه الأسقف الجديدة تستطيع أن تصمد فيما إذا نسفت الأبنية أو انهارت، لكنها لا تحتمل على أية حال الإصابة المباشرة، وقد تم في الأسبوعين الأخيرين من سبتمبر نقل مقر رئاسة الوزارة إلى مكاتب جديدة أكثر تحملاً وصلابة، مطلة على ميدان "سنت جيمس" وكنا ندعو هذه الأبنية باسم "الملحق" وقد ظللت مع زوجتي خلال الأيام الباقية من الحرب في هذا البناء، ننعم بالهدوء والراحة، وكنا نوقن أن هذه الأبنية القوية المشيدة من الأسمنت في وسعها أن تصد الحديد والفولاذ، وعلقت زوجتي عددًا من صورنا في غرفة الاستقبال التي كنت أقترح عليها أن تظل بلا صور، ولكنها نفذت فكرتها، وتغلبت علي بالطبع وساعدتها الأحداث، وكان منظر لندن رائع الجمال حين نراها من سطح "الملحق" على مقربة من القبة في

الليالي الساجية، وقد هيأوا لي مكانًا على السطح، فوقه سقف متين كي أتمكن في ضوء القمر من مراقبة الغارات الجوية وتحت هذا المكان أقيمت غرفة الحرب حيث زودت ببعض الأثاث الصالح للنوم، وحيث لا تجد القنابل إليها منفذًا، وكانت القنابل في تلك الأيام أصغر بالطبع من القنابل التي طالعتنا في المراحل الأخرى من الحرب، وبالرغم من ذلك كانت حياتنا في داوننج استريت في الفترة التي سبقت بناء هذا المسك الجديد مثيرة للغاية، إذ كان كل منا يحس وكأنه قد دفع به إلى مركز قيادة إحدى الفرق في ميدان القتال.

ولست أنسى مساء يوم ١٧ من أكتوبر حيث كنا نتناول عشاءنا في غرفة الحديقة بداوننج رقم ١٠ عندما انطلقت الغارة الليلية المألوفة. وكان يشاركني العشاء آرشي سنيكلير وأوليفر ليتلتون ومور برابا زون. وكانت النوافذ الفولاذية مغلقة، وحدثت بعض الانفجارات المدوية بالقرب منا. وسقطت قنبلة على مكان استعراض حرس الفرسان وهو لا يبعد عنا بأكثر من مائة ياردة، وكان دويها هائلاً، وعلى حين غرة شعرت بهاتف سماوي ينبهني إلى الخطر الماثل. فالمطبخ عال وكشوف، وبه نافذة زجاجية يبلغ طولها خمسة وعشرين قدمًا، والساقي والفتاة يقدمان لنا العشاء دون تأثر بدوي الانفجارات، وخلف النافذة توجد السيدة لانذيمير الطباخة ومعها مساعدتها دون مبالاة. فنهضت مسرعًا وغادرت المائدة، وأمرت الساقي أن يحمل العشاء إلى غرفة المائدة مباشرة، وطلبت إلى الطباخة وسائر الخدم أن يسرعوا إلى المخبأ، ثم عدت إلى مكاني بالمائدة، فلم تمر ثلاث دقائق حتى فوجئنا بدوي هائل وأصوات دمار جد قريبة وشعرنا بهزة عنيفة مما يؤكد أن البيت نفسه قد أصيب، وجاء مفتش المباحث الملحق بخدمتي ليخبرني بفداحة الخسائر، فقد أصيب المطبخ ومخزن التموين، ومكاتب القسم المالي.

وذهبنا إلى المطبخ لنشاهد ما جرى، فلم نر إلا أنقاضًا فقد أسقطت القنبلة على بعد خمسين ياردة، على القسم المالي، فدمر كل ما في المطبخ

وتحول إلى أنقاض وتهشمت النافذة الزجاجية الكبيرة، وتطايرت شظاياها في كل جوانب المطبخ، ولو ظل به أحد إلى أن حدث الانفجار لغدا أشلاء مبعثرة، ولا شك في أن الهاتف السعيد الذي خطر لي جاء في وقته المناسب. أما مخبأ القسم المالي في الساحة فقد أصابته قذيفة مباشرة فتناثرت أجزاؤه، واستشهد تحت أنقاضه أربعة حراس كانوا يقومون ليلاً بأعمال الخفارة. وعلى أية حال فلم يكن في مقدورنا أن نحدد عدد المفقودين، فقد دفن الجميع تحت ركام الأنقاض.

ولما كانت الغارة متواصلة فقد لبسنا خوذاتنا وارتقينا الدرج إلى سطح الملحق لنشاهد المنظر كاملاً، وقبل ذهابي لم أستطع مقاومة الرغبة في أن أغري الطباخة والخدم بالتوجه إلى المطبخ، وبالطبع أصيبوا بالهلع من رؤية مكانهم وقد استحال إلى ركام.

وصحبت آرشي إلى سطح الملحق، كان المساء ساكنًا والجو صافيًا، وكانت لندن بكاملها تجاهنا، ورأيت معظم حي "بال مال" تأتي عليه النيران. وعلى أية حال كانت ثمة خمس حرائق مضطرمة في الجانب المقابل من المدينة على طول النهر، لكن "البال مال" كان أطعمة للنيران. ثم أخذت الغارة تنزاح غمتها شيئًا فشيئًا إلى أن دوت صفارات الأمان، وأن ظلت الحرائق مشبوبة في المدينة.. ونزلت إلى مسكني الجديد في الطابق الأول من الملحق وقد وجدت الضابط ديفيد فارجيسون رئيس مراقبي مجلس العموم، والذي يقطن في نادي الكارلتون، وقد أخبرنا أن دار النادي قد أصبحت في خبر كان، وكنا قد تخيلنا ذلك بأنفسنا بمجرد أن شاهدنا اندلاع النيران، وكان مارجيسون في النادي عندما دوي الانفجار، وحوالي مائتين وخمسين من الأعضاء والموظفين، وقد أحدث الانفجار قذيفة ضخمة مباشرة أطاحت بواجهة المدخل من جبهة شارع "بال مال" وكان الأعضاء يزحمون قاعة التدخين، فتهاوى السقف عليهم، وعندما شاهدت الأنقاض في اليوم التالي أخذتني الدهشة لأن أحدًا ممن كانوا في القاعة لم يقتل، وإنما نجا الجميع رغم الأنقاض والدخان

وكأنما حدثت معجزة، ولئن أصيب بعضهم بجروح إلا أنهم نجوا من الموت جميعًا. وعندما سعيت بالحقائق مفصلة إلى مجلس العموم عقب زملاؤنا الوزراء من حزب العمال مازحين بقولهم "إن الشيطان لا يمس أنصاره بسوء" (أعضاء نادي الكارتلون من كبار زعماء حزب المحافظين) وقد انتشل المستر كانتان هوغ والده ـ وهو وزير مالية سابق ـ من بين الركام، كما حمل اينياس والده الخيزاس في حرب طروادة، ولم يجد مارغيسون مسكنًا يأوي إليه في تلك الليلة، فأعددنا له سريرًا في الطابق الأرضي من الملحق، لقد كانت هذه الليلة بصورة عامة مثيرة للفزع، وكان من الغريب حقًا بالنظر إلى إصابات المباني ألا يزيد عدد القتلى عن خمسمائة شخص وعدد الجرحى عن ألفين أو ثلاثة آلاف.

ومضيت للمرة الثانية إلى زيارة رامسفيت، وشن علينا الهجوم فمضوا بي إلى النفق الكبير، الذي يقيم فيه عدد كبير من الناس بصفة مستمرة. وعندما غادرنا النفق بعد ربع ساعة تقريبًا، بدأنا نتأمل الخرائب التي ما زال يتصاعد الدخان من جوانبها، وقد تهدم فندق صغير دون أن يصاب أحد من نزلائه بأذى، على الرغم من تحوله إلى تل من الركام والحجارة تتناثر خلالها قطع الأثاث المحطم، وأدوات المطبخ، وراعنا صاحب الفندق وزوجته والطباخون والخدم، وهم يولولون حول فجيعتهم في مصدر رزقهم، ومأوى حياتهم.. وعندئذ قررت بكل ما لي من نفوذ وإمكانيات أن أصدر أمرًا بالتعويض الفوري الكامل، وعندما أبت بالقطار وأمليت على وزير المالية كنغزلي وود الرسالة التي توضح هذا المبدأ الهام وهو أن كافة الخسائر التي تحدثها الغارات يجب أن تكون على مسئولية الدولة، وأن الحكومة تلتزم بتعويضها حتى لا يقع عبؤها على كاهل الذين يصابون في بيوتهم أو أعمالهم بل على كاهل الشعب كله تحقيقًا للعدالة، وقد أثار هذا القرار فزع كنغزلي وود بما ينطوي عليه من التزام لا نهائي، ولكني أكدت له ضرورة القيام بهذا الإجراء، ولم يمر أسبوعان على ذلك حتى كانت وزارة المالية قد جهزت مشروع التأمين الذي قدر له أن يقوم بدور فعال في حياتنا. وقد واجهت وزارة الخزانة مشاعر

مضطربة ومتصادمة إزاء هذا المشروع. فقد ظننت في بادئ الأمر أنه سيستنزف الخزانة حتى الإفلاس، ولكن بعد مايو عام ١٩٤١ حيث توقفت الغارات الجوية أكثر من ثلاث سنين، أخذت المكاسب تنهال على خزائن الوزارة بفضل هذا المشروع الذي اعتبرته أنا في حينه عملاً من أعمال التوفير والبراعة السياسية، وفي أخريات مراحل الحرب عندما أخذنا بغارات الصواريخ والقذائف الموجهة، صعدت الأرقام ثانية إلى جانب الخسارة وتكبدنا ما لا يقل عن ثمانمائة وتسعين مليونًا من الجنيهات في شئون التعويض، وبالرغم من كل ذلك فقد كنت غير مستاء لما يحدث.

وغدًا من المحتم في هذه الآونة الجديدة من الحرب، أن نستفيد بغاية ما نستطيع من العمل، ليس في المصانع فقط بل في الدوائر الحكومية بلندن كذلك، بالنسبة لتعرضها لهجوم جوي مستمر ليل نهار، فكان الموظفون في البداية عندما تدوي صفارات الإنذار يسرعون إلى الطوابق الأرضية حيث تستخدم كملاجئ للوقاية، وكان يثير زهونا أن تتم هذه العملية في هدوء ونجاح، وفي أحوال كثيرة لم تكن الغارة تعني أكثر من هجوم من بضع طائرات أو حتى طائرة واحدة، وطالما عوقت هذه الطائرات فلم تصل إلى العاصمة، وهكذا يتوقف العمل في جميع المصالح الحكومية الإدارية والتنفيذية بسبب غارة صغيرة تافهة.

ولذلك فقد فكرت في أن يستخدم الإنذار على مرحلتين. مرحلة التنبيه المبدئي ومرحلة الخطر الفعلي الذي لا تنطلق صفاراته إلا حين يحل الخطر، ويصبح في حالة مداهمة فعلية، فقبل اقتراحي ونسقت الخطة على أساسه.

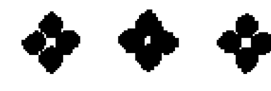
وكان البرلمان أيضًا في أمس الحاجة إلى الإرشاد بالنظر إلى مواصلة عمله في تلك الأيام المليئة بالخطر، وكان أعضاء المجلس يوقنون بأن واجبهم يحتم عليهم أن يكونوا مثلاً للشعب، ولا شك في أن الحق كان بجانبهم في هذا اليقين، ولكن كان عليّ أن أوجه انتباههم إلى ضرورة اتخاذ الحيطة

والحذر، نظرًا إلى الأخطار المحدقة واستطعت إقناعهم في جلسة سرية بوجوب اتخاذ الإجراءات الوقائية الضرورية، فاتفقوا على كتمان مواعيد الجلسات، وإيقاف النقاش حين تدوي صفارات الإنذار، وصاروا يخفون بنظام إلى المخابئ المفعمة، والتي لم تكن معدة كما ينبغي.

ولا شك في أن مواصلة البرلمان البريطاني أداء مهمته، وتصريف الشئون في تلك الآونة صفحة مشرقة في تاريخه وذيوع شهرته، والنواب عادة أكثر الناس حساسية بالنسبة لمهامهم في هذه الظروف، فكان من اليسير على أي إنسان ألا يحسن الحكم على حقيقة تصرفاتهم، فعندما تنزل الأضرار بإحدى القاعات كانوا ينتقلون إلى قاعة أخرى، وكنت أواجه صعوبات جمة في إقناعهم بضرورة الأخذ بوسائل الحكمة والموعظة الحسنة لكن جميع النواب في هذه الفترة قد نهجوا نهجًا ينم عن التعقل ووزن الأمور والحرص على الكرامة. ومن يمن الطالع أن الانفجار الذي حدث بعد عدة شهور وأطاح بقاعة مجلس الشيوخ حدث ليلاً حينما كانت القاعة صفصفا ليس بها أي إنسان، ولقد أعطانا تفوقنا على الغارات النهارية إحساسًا بالراحة والهدوء النفسي، أما في خلال الشهور الأولى فقد سيطر علي الشعور بالقلق الذي يتمتع بحقوق السيادة، والذي انتخب بطريقة عادلة ونزيهة وهي الاقتراع العام، وفي يده - دائمًا - القدرة على إسقاط الحكومة، ولكنه الآن في أقسى الظروف كان يدعمها ويسند مركزها.. وهكذا كتب النصر لبرلماننا.

وإني لا أعتقد أن أي ديكتاتور قد حاز من السلطات الفعلية في بلاده مثل تلك التي خولت لوزارة الحرب البريطانية، وكنا عندما نعبر عما نريده يعطينا نواب الشعب تأييدهم فيطيع الناس رغباتنا بسعة أفق وحرية، وعلى الرغم من ذلك لم نحاول مرة مصادرة الحريات وإن ظل الناقدون بأنفسهم يرجحون المصلحة القومية على أي شيء آخر. وإذا تحدانا النقاد رأينا المجلسين يصوتان ضدهم بأغلبية ساحقة، وإذا ما قورن هذا بأساليب الدول الجماعية، بدا لنا أن برلماننا كان يخولنا هذه السلطة ضد الناقدين بلا أدنى اضطهاد أو كبت أو

إيحاء أو استعمال للشرطة وأجهزة الأمن السرية، ولا شك في أن هذا كان يثير زهونا واعتزازنا، ويؤكد لنا أن الديمقراطية البرلمانية أو على الأصح ما يحق أن نسميه السلوك البريطاني في الحياة العامة قد استطاع الصعود والانتصار والبقاء، بالغم من كل المحن القاسية ولم يستطع التهديد بالإبادة وإفناء أعضاء برلماننا أن يرهب أحدًا، وكان من حسن الحظ أن هذا التهديد لم ينفذ، ولم تحدث الإبادة.



وحل منتصف سبتمبر، ففاجأنا العدو باستعمال نوع جديد ومدمر من وسائل الحرب علينا، فقد بدأت الطائرات تلقي بقذائف تنفجر بعد مرور بعض الوقت، مما وضعنا أمام مشكلة حساسة وغريبة، وكثيرًا ما سارت في وجوهنان مسافات شاسعة من السكك الحديدية فنخترق الطرقات الهامة. والسبل الموصلة للمصانع الحيوية والمطارات والمؤسسات، وحظر علينا دخولها في أوقات احتياجنا إليها، إذ فرض علينا أولاً أن نتعقب هذه القنابل لنفجرها أو نتلفها، وكانت هذه عملية خطيرة وخاصة في بداية الأمر، عندما اضطررنا إلى أن نتعلم الوسائل والأساليب بواسطة عمليات من التجارب الموضحة.

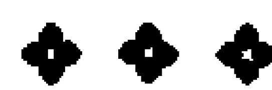
وقد تكلمت آنفًا عن حكاية الألغام الممغنطة، أما هذه القذائف المتفجرة تلقائيًا، فقد أصبحت منتشرة، وصارت مشكلة تحتاج إلى التفكير، وقد وجت اهتمامي إلى القنابل المؤقتة منذ عام ١٩١٨ عندما استعملها الألمان لأول مرة ضدنا بصورة شاملة ليرغمونا على عدم استخدام القطارات في زحفنا على ألمانيا، وكنت قد اقترحت أن نستخدمها في النرويج وقناة كييل ومنطقة الراين، ولا شك في أن هذا السلاح من أكثر أسلحة الحرب فعالية.

بالنسبة إلى ما يشيعه من التوجس والقلق والارتياب وهكذا دار الزمن لنذوق نحن طعم هذا السلاح، فأنشأنا هيئة خاصة للتصرف في شأنه وعهدنا إلى مجموعات خاصة شكلت في كل مدينة وبلدة ومقاطعة بتتبعه، وسارع

المتطوعون يبذلون جهودهم لمكافحة هذه القنابل، وتكونت فرق كان بعض منها حسن الحظ وكان للأخرى سوء المصير، وقد استطاع رجال من هذه الفرق النجاة من العاقبة الوبيلة لهذا السلاح، والسلامة إلى خاتمة الحرب، بينما نجا البعض الآخر من التجربة العاشرة أو العشرين أو الثلاثين أو الأربعين قبل أن يلقوا حتفهم، وكنت حين أشاهد أعضاء هذه الفرق أينما ذهبت في رحلاتي وتجولاتي، أرى وجوههم مغايرة تمامًا لكل الوجوه التي أعرفها أو رأيتها، بالرغم مما يتحلون به من شجاعة وتفان وصبر، فعلى هذه الوجوه تبدو واضحة ظلال الشحوب، ومعالم الإجهاد، وسماته الضخمة والجهد، فضلاً عن بريق العيون وزرقة الوجوه، وجفاف الشفاه، فإذا ما تذكرنا الأيام المضنية التي عشناها، فيجب أن لا نستعمل كثيرًا كلمة "أوقات كئيبة" إذ تكاد الكآبة كلها تخص أفراد هذه الفرق وحدهم.

وواجب على هنا أن أسرد ما حدث لإحدى هذه المجموعات كمثال لما كانت تواجهه سائر المجموعات، كانت هذه المجموعة تضم اللورد سافولك وسكرتيره وسائقه العجوز، وكانوا يسمون أنفسهم "الثالوث المقدس" وقد شاعت أخبار جرأتهم، وذاع الكثير عن شجاعتهم، وقد استطاعوا أن يتخلصوا من أربع وثلاثين قنبلة لم تنفجر بروح مرحة طيبة، لكن القنبلة الخامسة والعشرين قد ثأرت لزميلاتها، فانفجر معها اللورد وثالوثه المقدس، ولكن الإيمان يملأ نفوسنا بأن أرواحهم عرفت مستودعها الأمين في دار الخلود.

وقد توصلنا بفضل إخلاص كل فرد في هذه المجموعات، وبالتضحيات النبيلة التي بذلوها إلى أن نتحكم في هذا الخطر الجديد.



من الشقاق علينا أن نعقد مقارنة بين الاختبار القاسي الذي مر به سكان لندن في شتاء ١٩٤٠ ـ ١٩٤١ وبين الاختبارات التي عاناها الألمان في

سنوات الحرب الثلاث الأخيرة، فقد غدت القنابل أشد هولاً والغارات أكثر قسوة، ولكن من ناحية ثانية، كان الإعداد الطويل وما اشتهر عن الألمان من دقة قد ساعدهم على إنشاء وحدات كاملة من الملاجئ المحصنة ضد القنابل، وكان يفرض على كل ألماني الالتجاء إليها عند قيام الغارات كعمل عادي رتيب، وعندما اجتزنا ألمانيا في النهاية شاهدنا مبانيها قد أصبحت بكاملها خرائب وأطلالاً ولكننا شاهدنا أيضًا عمارات مشيدة ما تزال صامدة على الأرض وملاجئ حصينة كان السكان ينامون فيها كل ليلة، بالرغم من تساقط دورهم وخراب كل ما يملكونه على سطح الأرض، أما في لندن فعلى الرغم من أن الغارات كانت أقل قسوة إلا أن وسائل التأمين والوقاية كانت أبطأ تطورًا، فإذا استثنينا الأقبية لم نجد عندنا أماكن للوقاية والتأمين، حقًا لقد كان معه طوائف أرضية، وطوابق تحت الأرض تستطيع أن تجابه الضربات المباشرة، ولكن عددها كان قليلاً لدرجة ملحوظة وكانت الغالبية من سكان لندن يمضون الليل في الخنادق الخاصة ببيوتهم تحت سيل من قذائف العدو، مستمتعين بما اشتهر عن الإنجليز من حبهم للاسترخاء بعد يوم من العمل المثمر الجاد، ولم تكن ثمة أية وسائل للوقاية إلا من شظايا القذائف، لكن الانهيار النفسي لم يكن شيئًا بجانب الاحتمال البدني، وحقيقة لو كانت قذائف عام ١٩٤٣ قد أسقطت على لندن في عام ١٩٤٠ لانتهينا إلى وضع قد دمر فيه كل تنظيم بشري، ولكن لكل شيء وقته المعين، ونسبه المحدودة، وليس يملك إنسان القول بأن لندن التي لم تجرب الخضوع قط، كانت محصنة دائمًا ضد الاستسلام.

ولم تكن الحكومة قد شيدت قبل الحرب أو في الفترة السلبية الأولى التي مرت في مطلعها أية أماكن محصنة ضد القنابل، تستطيع هيئتها المركزية أن تلجأ إليها لمواصلة الأعمال، فقد درست خطط لتحويل العاصمة عن مدينة لندن، وفعلاً انتقلت فروع بأكملها من جميع الوزارات والدوائر إلى هاروغيث وباث وشيلتيفهام وغيرها واستحوذت السلطات على المساكن

الكافية في مناطق شاسعة لسكنى جميع الوزراء وكبار الموظفين حين الانسحاب من لندن، أما في هذه الآونة وطائرات العدو تواصل عدوانها فقد انعقد عزم الحكومة والبرلمان ورغبتها الأكيدة على البقاء في لندن دون مناقشة وكنت أشاركهما نفس هذه المشاعر، وكنت مثل غيري يخيل لي أن الدمار سيكون عامًا، بحيث يصير الانتقال وتوزيع الأعمال أمرًا محتمًا، ولكن بالنسبة إلى ما حدث بالفعل فقد امتلأ بعكس هذا الإحساس، وظللنا في تلك الأشهر نعقد اجتماعاتنا الوزارية ليلاً في غرفة الحرب في الطابق الأسفل. ولم أكن أتخيل مدى ما يتحمله المستر تشمبرلين من عناء هذا السير بالنظر إلى العملية الجراحية التي أجريت له، ولكن لم يستطع أي شيء أن يقعد به عن هذه الاجتماعات التي كان يتسم فيها بكثير من الهدوء البارد والتصميم الأكيد والتي كانت آخر ما شهده من اجتماعات.

ونظرت ذات مساء في أواخر شهر سبتمبر ١٩٤٠م من باب دوننج ستريت الذي يطل على الطريق فشاهدت العمال يقومون بوضع أكياس من الرمال تجاه النوافذ المنخفضة من بناء وزارة الخارجية المواجهة لنا، وسألتهم عما يقومون به فقيل لي أن المستر نفيل تشمبرلين في أمس الحاجة إلى العلاج من حين لآخر بعد العملية التي قد أجريت له، وكان من غير الميسور أن يقوم بهذا العلاج في ملجا دوننج ستريت رقم ١١ لأن عشرين شخصًا على الأقل يتجمعون أثناء قيام الغارات، ولذلك فقد رؤي تهيئة ملجأ صغير خاص به وظل حريصًا على عاداته اليومية، لابسًا خير ثيابه، باديًا غاية في الأناقة وانسجام الهندام، وكان هذا كله أكثر مما في طوقه ولذلك رأيت أن أستخدم سلطاتي فذهبت إلى الطريق الممتد بين رقمي ١٠، ١١ وحين رأيت السيدة تشمبرلين قلت لها: "ينبغي ألا يوجد هنا في هذه الظروف، ويجب أن تبتعدي به حتى تعاوده الصحة وسأرسل إليه يوميًا بالأنباء" وذهبت السيدة للقاء زوجها، وبعد ساعة أرسلت إلي تقول: "لقد أبدى استعداده لتنفيذ مشيئتك. سنرحل الليلة" ولم ألتق به ثانية،

ولكني على يقين أنه كان يرغب في الموت أثناء قيامه بواجبه، ولكن القدر شاء غير ذلك.



ونتيجة لوفاة المستر تشمبرلين حدثت بعض التغيرات الوزارية الهامة، فقد ظهر المستر هربرت موريسون نشاطًا ملموسًا كوزير للتموين، كما قابل السير جون أندرسون الهجمات على لندن بإدارة في منتهى الصمود والكفاية، وتبين لي في مطلع أكتوبر أن الهجوم المتواصل على أعظم مدن العالم كان من القسوة والعنف بحيث خلف الكثير من المشاكل السياسية والاجتماعية لدى أهل المدينة الذين واجهوا أقسى الظروف، مما يفرض علينا أن نعهد إلى برلماني حازم صاحب خبرة وتجربة شئون وزارة الداخلية التي أصبحت في تلك الآونة وزارة الأمن الداخلي كذلك. فلندن هي التي تعاني قسوة الغارات، وهربرت موريسون واحد من أهلها، وهو عليم بكل جانب من جوانب إدارتها، وكانت له خبرة لا تبارى في حكم مدينة لندن، إذ كان رئيسًا فيما سبق لمجلس مقاطعتها، وكان الشخصية البارزة في كافة أمورها، وكنت في ذات الوقت في احتياج للسير جون أندرسون ليمثل الحكومة في مجلس الملك الخاص ليقوم كما يملي عليه منصبه الجديد بالإشراف على كثير من الأمور الداخلية في مجال أسع باعتباره رئيسًا للجنة الشئون الداخلية التي يعهد إليها بالكثير من المشاكل تخفيفًا لأعباء مجلس الوزراء، وأتاحت لي هذه التغيرات التي خففت العبء عن كاهلي أن أحشد اهتمامي لتصريف الحرب. التي تبين لي أن زملائي يميلون إلى توسيع مسئولياتي بشأنها وزيادة اختصاصاتي، ولذلك فقد رغبت إلى هذين الوزيرين اللامعين أن يحل كل منهما محل الآخر، ولم يكن ما قدمته لهربرت موريسون طريقًا مفروشًا بالورود وليس في مقدور هذه الصفحات بحال ما أن توضح المصاعب الجمة في إدارة لندن وحكومتها. في ذلك الوقت كان يمضي فيه عشرة آلاف مواطن أو عشرون ألفًا كل ليلة بدون

مأوى نتيجة للهجوم الجوي المستمر، وعندما كان حذر السكان وحرصهم وحده بمثابة حرس أولي يقاوم حدوث حرائق على أسطح المنازل قد يتعذر القضاء عليها، وعندما اكتظت المستشفيات بمشوهي القنابل من الرجال والنساء، وعندما ظل مئات الآلاف من البشر المنهكين يكدسون كل ليلة في هذه الخنادق التي تحتاج إلى الأمان والوسائل الصحية، وعندما كانت طرق المواصلات بالقاطرات وغيرها تغلق باستمرار، وعندما كانت المجاري والقوة الكهربائية والغاز تدمر تدميرًا، وعندما يجب أن تظل - بصرف النظر عن كل ذلك - روح لندن المناضلة صامدة عالية، وأن يتيسر نقل حوالي مليون مواطن في كل يوم ليلاً ونهارًا من مساكنهم إلى المصانع وبالعكس، كان يجب علينا كل هذا ولم يكن في مقدورنا أن نعرف مدى هذه المحنة ومتى تنتهي، ولم يكن لدينا ما يشير إلى أنها لن تستمر أو لن تزداد سوءًا، وعندما حدثت مستر موريسون عن رغبتي بالنسبة للمهمة الجديدة كان يدرك جيدًا ما ينطوي عليه هذا العرض من خطورة ومشاكل فاستمهلني بضع ساعات ليفكر، ولم يلبث أن جاءني قائلاً أنه سيكون فخورًا بالقيام بكل هذه المهام، وهزني إعجابًا به هذا القرار الذي يدل على كل صفات الرجولة.

وبعد أن تمت هذه التعديلات الوزارية أدى تغيير العدو لوسائله إلى أن تتأثر سياستنا العامة، فقد كانت الغارات حتى الآن تستخدم القنابل الشديدة الانفجار فحسب، ولكن في ليلة ١٥ أكتوبر وكان القمر بدرًا فنزلت بنا أقسى غارات جوية في ذلك الشهر، وأسقطت الطائرات الألمانية فضلاً عن حمولتها المعروفة من القذائف المتفجرة حوالي سبعين ألف قذيفة حارقة، وكنا حتى في هذه الأثناء نبث الشجاعة في سكان العاصمة ونحثهم على اللجوء للخنادق وقت حدوث الهجوم، وكنا نفتش عن كل وسيلة ممكنة لتأمين وقايتهم، ولكن بعد هذه الليلة اضطررنا أن نطلب إليهم الصعود إلى سطوح المساكن بدلاً من اللجوء إلى الخنادق في أثناء الهجوم وكان على وزير الداخلية الجديد أن ينفذ هذه السياسة فأعد على الفور تشكيلاً هائلاً لمراقبي

الحرائق، ومقاومتها على مدى واسع يكفي مدينة لندن بكاملها، فضلاً عن إجراءات أخرى اتخذت من المدن الإقليمية في أقصر مدة ممكنة، وكانت مراقبة الحرائق عملاً اختياريًا في أول الأمر، ولكن اشتداد الحاجة لمزيد من الأفراد والإحساس بحتمية قيام كل إنسان بواجبه في مثل هذه المحنة القاسية ليشارك في آلامها، فرض علينا أن نلزم المواطنين بالمشاركة في أعمال المكافحة، وقد أدى ذلك إلى مزيد من نشاط كافة المواطنين على جميع ألوانهم ومستوياتهم وصممت النساء على الإسهام بقدر حيوي في هذه الخدمة، واتخذت التدابير على نطاق واسع للقيام بتدريبات عامة ولتعويد مراقبي الحرائق مكافحة كل أنواع القذائف المحرقة التي يسقطها الأعداء، وقد تفوق الكثيرون في أداء هذه الخدمة حتى استطاعوا أن يخمدوا ألوف الحرائق قبل شبوبها، وسرعان ما صارت تجربة الصعود إلى أسطح المنازل ليلة إثر أخرى تحت وطأة النيران المشتعلة، ودون أدنى إجراء وقائي آخر - سوى الخوذة النحاسية - أمرًا عاديًا مألوفًا.

ورأى المستر موريسون أن يجمع الفرق المحلية للإطفاء التي يبلغ عددها حوالي ألف وربعمائة فرقة في تشكيل قومي موحد لمقاومة الحرائق وأن يزود هذا التنظيم بحرس شعبي كبير للحرائق من المدنيين المدربين المتطوعين للعمل في أوقات فراغهم، وكان حرس الحرائق أول الأمر يتألف من المتطوعين أيضًا، ولكن ما لبث أن تقرر بالإجماع تحويله إلى خدمة إلزامية، وقد استطعنا بواسطة الجهاز القومي لمكافحة الحرائق من استخدام النقل الآلي، وأحدث الأجهزة وأدق التدريبات في أعمال رسمية تشرف عليها مجموعة من العسكريين.

أما أسلحة الدفاع المدني الأخرى فقد كانت تضمن وجود مجموعات على استعداد للتوجه إلى أي مكان في خلال دقيقة واحدة، وقد اكتفى باسم سلاح الدفاع المدني عن الاسم القديم الذي عرف قبل الحرب بقوات الاحتياط

من الغارات الجوية، وزود رجال السلاح الجديد بملابس عسكرية خاصة تبث الشعور في نفوسهم بأنهم يؤلفون السلاح الرابع من قوات التاج المسلحة.

وقد اغتبطت لأن لندن قد صمدت أمام الموجات المتتالية من الغارات الجوية على مدننا، إن لندن تشبه فيما أرى حيوانًا هائلاً من حيوانات ما قبل التاريخ في وسعها أن تتحمل الأذى المخيف ثم تظل رغم جراحها النازفة عتية الصمود تموج بالحياة والحركة، وقد كثرت خنادق أندرسون في أحياء الطبقات العاملة المكونة من بيوت ذات طابقين، وقد بذلنا كل ما في وسعنا لتكون هذه الخنادق صالحة للإقامة والحياة، مع الحرص على تخفيفها من الرطوبة أثناء الأمطار.

وقد اغتبطت لأن لندن قد صمدت أمام الموجات المتتالية من مائدة مطبخ ثقيلة من الفولاذ محاطة الأضلاع بالأسلاك القوية، تقدر على أن تقاوم كل ما يتساقط عليها من أنقاض منزل صغيرة بالتحمل نوعًا من الوقاية لأهل ذلك المنزل، ولا شك في أن الكثيرين قد كتبت لهم حياة جديدة بفضل هذا الخندق المبتكر، وكان الشعار الشائع على كل لسان "تستطيع لندن أن تصمد" وقد صمد أهل لندن كثيرًا وكان في طاقتهم أن يصمدوا أكثر وأكثر، وكنا حقيقة في ذلك الوقت ننتظر شيئًا أقل من هدم العاصمة بأكملها، ومع ذلك فقد أوضحت لمجلس العموم في تلك الآونة أن قانون تناقص النتائج يطبق بدقة على المدن الكبيرة التي تجابه الدمار، فسوف تهوي القنابل كثيرًا على مبان دمرت من قبل فلا تصنع شيئًا سوى إثارة الغبار، وسترى الطائرات المهاجمة عما قليل أنه لم يبق الكثير الذي يستأهل قذائفها الحارقة والمدمرة ولكن الناس سكان لندن رغم كل ذلك يعيدون إنشاء منازلهم هنا وهناك، ويمارسون أعمالهم اليومية بإرادة فولاذية وعزم لا يفل.

وللمرة الأولى منذ حوالي شهرين لم تدو في الجَو صفارة الإنذار ليلة ٣نوفمبر في لندن فاستغرب الكثيرون جو الهدوء السائد، وبدءوا يتساءلون ما

الخبر؟ وفي الليلة التالية شنت الغارات على نطاق واسع حتى عمت أكثر الجزر البريطانية وظل هذا بصفة مستمرة إلى بعض الوقت، واتضح أن الألمان قد جددوا وسائلهم الهجومية، وبالرغم من أن لندن استمرت كهدف أساسي إلا أن جهودًا ملحوظة كانت تبذل لتشل العمل في المراكز الصناعية البريطانية، وق أرسل العدو أسرابًا جديدة مدربة على ابتكارات جديدة في الملاحة الجوية لتهاجم مراكز حساسة في الجزيرة، فمثلاً تمرنت فرقة خاصة من الطائرات الألمانية على تحطيم مصانع وآلات الطائرات "رولزرايس" في "هيلتنجتون" قرب غلاسجو، ولا شك في أن هذه الخطة الجديدة لم تكن تعني مجرد التغيير، فقد قرر العدو تأجيل غزو بريطانيا إلى حين، ولم يكن قد انتهى من تدبير هجومه على روسيا بعد، كما لم يفكر فيه أحد غير هتلر وخاصة المقربين، وهكذا كانت أشهر الشتاء الباقية مجرد فترة تمرينات بالنسبة لسلاح الجو الألماني على التكتيكات الجديدة في الهجوم الليلي والإغارة على التجارة البحرية في بريطانيا، أما الغاية من ذلك فهي تدمير إنتاجنا المدني والعسكري، وكان أجدى للألمان لو ظلوا على هجومهم في ناحية واحدة حتى آخر الشوط، فربما وصلوا إلى نتيجة حاسمة، ولكن الحيرة والتردد كانا طابعهم في ذلك الوقت لأن ثقتهم بأنفسهم كانت غير كاملة.

وبدأت هذه الوسائل الجديدة في الهجوم، بغارة جوية عارمة على كوفنتري ليلة ١٤ نوفمبر، وقد اتضح لفورنج أن مدينة لندن شاسعة الأبعاد إلى الدرجة التي لا تتيح له نتائج فاصلة، بينما كان في مقدوره أن يزيل من الوجود مدن الأقاليم ومراكز إنتاج الذخيرة، وقد بدأ الهجوم في الساعات الأولى من الليل، وتواصل حتى الفجر واشترك فيه حوالي خمسمائة طائرة ألمانية أسقطت حوالي ستمائة طن من القذائف الشديدة الانفجار، عدا ألوف القنابل المحرقة وكانت تلك الغارة أقسى ما دهمنا من غارات ثقيلة مدمرة بصورة عامة، فقد تحطم قلب كوفنتري، وأصيبت الحياة بالشلل التام في المدينة، وقد قتل حوالي أربعمائة إنسان، كما أصيب بجراح عدد أضخم من هذا بكثير وأذاعت ألمانيا

أن جميع مدننا ستلقى نفس مصير كوفنتري، ومع هذا فلم يعطل العمل بمصانع الطائرات أو قطع الماكينات الأخرى، كما لم تمت حركة أهل المدينة بالرغم من عدم مجابهتهم قبل ذلك لمثل هذه الغارات، ولم يمر أسبوع حتى كانت لجنة تجديد الأبنية قد قامت بأعمال رائعة تيسر عودة الحياة إلى طبيعتها في المدينة.

وشن العدو ليلة ١٥ نوفمبر هجومًا آخر على لندن استخدم فيه عددًا ضخمًا من الطائرات في ضوء القمر الساطع فأصيبت العاصمة بكثير من الخسائر، وخاصة في كنائسها ونصبها التذكارية، وكانت بيرمنجهام هدف العدو الثالث، فشن عليها هجومه لثلاث ليال متتابعة بين ١٩، ٢٢ نوفمبر فأصيبت المدينة بخسائر فادحة في الأرواح والممتلكات، ووصل عدد القتلى إلى حوالي ثمانية والجرحى إلى أكثر من ألفين، ولكن روح بيرمنجهام وحياتها قاومتا المحنة، وارتفع المليون من أهلها بتنظيمهم ووعيهم وتفهمهم إلى أعلى مما نزل بهم من آلام، وتحولت وجهة الغارات في آخر أسبوع من شهر نوفمبر ومطلع ديسمبر إلى الموانئ، وتعرضت بريستول وسوثهامبتون وليفربول لهجمات قاسية، ومرت بلايموث وشفيلد ومانشستر وليدز وغلاسجو بالمحنة ذاتها بشجاعة نادرة، ولم يعد يعنينا أن يوجه العدو ضربته فإن الشعب كله واجهها بإيمان وصبر وعزيمة.

وصعدت الغارات إلى ذروتها مرة ثانية حين شن العدو هجومه على مدينة لندن يوم الأحد ٢٩ ديسمبر، وقد جمع الألمان فيها كل ما حصلوه من خبرات فكان الهجوم مفعمًا بالقذائف المحرقة، التي ركزت قسوة نيرانها على حي "السيتي" وكانت هذه الغارة مدبرة لتقع حين ينحسر الماء عن النهر بسبب الجزر، وتهدمت سدود المياه في بداية الأمر بسبب ألغام شديدة الانفجار، أسقطتها المظلات، واضطرت فرق المقاومة أن تكافح أكثر من ألف وخمسمائة حريق، وكان الضرر الذي أصيبت به محطات السكة الجديدة والأرصفة فادحًا، وهدمت ثماني كنائس وشبت الحرائق في "غيلدهول" وفي

كاتدرائية القديس بوليس، ولم تنج من الدمار إلى بجهود خارقة تفوق حد الوصف، وأخذنا نرى الخراب يجتاح العالم البريطاني، ولكن عندما زار الملك والملكة هذه الأماكن المصابة فويلا بحماس بالغ أشد مما كان يقابلان به في أية زيارات أخرى.

وظل الملك صامدًا في غضون هذه الأشهر الطويلة من التجربة القاسية والتي لم تنته بعد في قصر بكنجهام، وقد شيدنا خنادق ملائمة في الطابق الأسفل من القصر، ولكن أعمال البناء استلزمت الكثير من الوقت، وكثيرًا ما حضر الملك خلال اشتداد الغارة من قصر بكنجهام، وقد أنقذ جلالته والملكة بأعجوبة من الموت ذات مرة، ففي حديقة قصر بكنجهام أنشئ ميدان خاص للرماية، كان جلالته وغيره من أفراد السرة المالكة، وكبار رجال الحاشية يتدربون على الرماية فيه بالمسدسات ومدافع التومي، وقد قدمت للملك غدارة أمريكية قصيرة المدى، كانت واحدة من مجموعة وصلتني، وكان سلاحًا قيمًا.

وبدل الملك في تلك الأثناء موعد لقائي الرسمي بجلالته من الساعة الخامسة مساء كل يوم ثلاثاء، كما جرت عادته في خلال الشهرين الأولين منذ توليت الحكم، إلى أن أتناول الغذاء معه في نفس اليوم من كل أسبوع. وكنت في هذه الزيارات التي قد تحضرها الملكة أعرض على جلالته شئون الحكم، وكثيرًا ما اضطررنا إلى حمل صحاف الطعام وأقداح الشرب إلى الخندق الذي كان لا يزال في حالة الإعداد فنستكمل طعامنا فيه، وأصبحت هذه الزيارات الأسبوعية عادة رتيبة، وبعد مرور الأشهر الأولى أمر جلالته أن يبعد الخدم جميعًا من هذه الاجتماعات، وأن نمارس نحن خدمة أنفسنا بأنفسنا، وقد تكشف لي خلال السنوات الأربع والنصف التالية من الحرب أن جلالته كان يطلع بكثير من الاهتمام على جميع البرقيات والوثائق الرسمية التي أقدمها إليه، ويقرر العرف الدستوري البريطاني أن من حق الملك أن يطلع على كل شيء يقع ضمن اختصاصات وزرائه، وأن يقدم المشورة لحكومته

بدون قيد ولا شرط، وكنت حريصًا جدًا على أن أطلعه على كل شيء وكثيرًا ما بدا لي خلال اجتماعاتنا الرسمية الأسبوعية أنه قد قام بدراسة كافة الوثائق التي لم أكن قد درست بعضها بعد، وأنني لأقرر أن من يمن الطالع لبريطانيا أن كان على عرشها في مثل هذه السنوات المصيرية ملكان خيران كملكنا ومليكتنا، وإني كواحد من الذين يؤمنون بالملكية الدستورية، ونظرت ببالغ التقدير إلى الشرف الذي أسبغه علي صاحب الجلالة بهذه الصلات التي وثق عراها معي كوزيره الأول، وإنني لا أرى لذلك نظيرًا في تاريخنا إلا في أيام الملكة آن ورئيس حكومتها مارلبورو.

وهكذا بلغ بنا العام إلى نهايته.. وإن كنت قد استطردت - راغبًا - بعيدًا عن شئون القتال الخاصة، وسيرى القارئ أن كل هذا الدوي وتلك الزعازع لم تكن إلا رفيقًا على الطريق يسير مع إجراءاتنا الهادئة التي حرصنا عليها في إدارة جهودنا الحربية، وتوجيه سياستنا ودبلوماسيتنا، وعلى أن أقرر هنا أن هذه الخسائر التي منينا بها، والتي لم تكن مميتة، كانت في اعتبارنا نحن المقيمين في قمة الموقف دافعًا فعالاً للتعبير عن آرائنا، وتوطيد زمالة بارة بيننا وتدعيم أسس أعمالنا الجوهرية الواعية، وربما يكون من غير الحكمة على كل حال أن أفترض بأن الغارات التي شنت علينا لو تزايدت إلى عشرة أو عشرين ضعفًا أو حتى بنسبة ضعفين أو ثلاثة فإن هذه الانطباعات السلمية التي فصلتها، كانت ستوجد بصورة مؤكدة، وعلى النحو الذي أوضحت.

الإعارة والتأجير

أطل علينا الآن فجر جديد، وصليل الأسلحة يملأ الجو لكن مصدره هذه المرة كان مختلفًا عما سبق، فقد دارت الانتخابات الأمريكية للرئاسة في ٥ نوفمبر، وبالرغم مما تتسم به من حيوية وصلابة تلك المصارعة الحادة التي تحدث مرة كل أربع سنوات، وعلى الرغم مما يثار من اختلافات شديدة حول الشئون الداخلية بين الحزبين الرسميين؟ إلا أن كبار الزعماء في كل من

الحزب الديمقراطي والجمهوري كانوا يجمعون على تقدير قضيتنا العظمى، والاهتمام بها، فأعلن المستر روزفلت في ٢ نوفمبر بمدينة كليفلاند: "أن سياسته تؤمن ببذل كل مساعدة فعالة للشعوب التي ما زالت تكافح العدوان عبر المحيطين الأطلنطي والهادي"، كما صرح منافسه المستر ويندل ويلكي في نفس اليوم في خطاب ألقاه بحديقة ماديسون: "بأنهم جميعًا جمهوريين وديمقراطيين ومستقلين، مصممون على مؤازرة المقاومة البريطانية الباسلة وأنهم يتعهدون للشعب البريطاني بأن يستخدم متى شاء ثمار صناعتهم". ولا شك في أن هذا الشعور الوطني النبيل كان الحامي المخلص لحياة الولايات المتحدة وحياتنا نحن أيضًا.

ومع ذلك فقد كنت أحس بالقلق العظيم، وأنا أترقب النتيجة، فليس في مقدور كل من يتولى منصب الرئاسة أن يكون مسلحًا بالخبرة والمعرفة، كما يتمتع بهما فرانكلين روزفلت، وليس في مقدور أي شخص سواه أن يحوز نفس المواهب والكفايات، وكنت قد وثقت علاقتي الشخصية به، وحافظت على تنميتها ورأيت أنها قد بلغت أسمى مراتب الثقة والصداقة، إلى الدرجة التي أصبحت بها ذات أهمية في تفكيري، وكنت لهذا أحس بالقلق إزاء كل ما يهدد هذه الزمالة، وقد تم توطيدها بعناية وعلى مهل، وانفر من فكرة قطع هذا الاتصال في أحاديثنا ومباحثاتنا لأبدأ من جديد مع شخص آخر صاحب عقلية وشخصية مختلفين، ولم أحس منذ أيام بمثل ما أحس به الآن من قلق، ولذلك فقد كانت غبطتي عظيمة عندما علمت أن الرئيس روزفلت قد أعيد انتخابه.



وكنا حتى تلك الساعة نلجأ فيما نحتاجه من الذخيرة للمصانع الأمريكية بحرية وجوية، وإن كان ذلك يتم بعد التفاوض معها.

وأدت زيادة رغباتنا وتعدد مطالبنا إلى التناقض أحيانًا مزاحمة الرغبات الأمريكية ذاتها، مما كان ينذر بحدوث اصطدام على المستويات الخفيضة بالرغم من توافر حسن النية لدى الطرفين، وكتب المستر سيتينيوس يقول: "إن في إمكان سياسة موحدة من أجل تحقيق غايات المقاومة أن تؤدي أغراض هذه المهمة التي تواجهنا الآن".

ومعنى هذا أن لحكومة أمريكا أن توصي وحدها بصنع الأسلحة التي نحتاجها من أمريكا، وخرج الرئيس روزفلت بعد توليه الرئاسة بثلاثة أيام بنظرية جديدة تقرر الأفضلية في توزيع إنتاج الأسلحة الأمريكية، على أن يكون خمسون في المائة من إنتاج أمريكا للأسلحة مخصصًا لاحتياجات أمريكا الدفاعية، وخمسون في المائة للقوات البريطانية والكندية. وأصدر مجلس الأفضلية الأمريكي في نفس اليوم موافقته على رغبة بريطانيا في إعداد اثنى عشر ألف طائرة في الولايات المتحدة، فضلاً عن رغبتنا السابقة في أحد عشر ألف طائرة أخرى، ولكن من أين نأتي بالأموال الضرورية لنغطي ثمن الأسلحة التي نحتاجها من المصانع الأمريكية؟

وأمضى اللورد لوثيان في أواسط نوفمبر يومين في ديتشلي معي، وكان قد ركب الطائرة من مقر عمله في واشنطن إلى الوطن، وكنت قد استمعت إلى نصيحة بأن لا أمضي في تشيكرز جميع نهايات الأسابيع، خصوصًا عندما يكون القمر بدرًا، خشية أن يعطف على العدو بلطفه الخاص، وكان السيد رونالد ترى وزوجته قد استقبلاني أحسن استقبال - أنا وموظفي - في بيتها الكبير الجميل الذي يقع على مقربة من أكسفورد، ولا تزيد المسافة على أربعة أو خمسة أميال بين ديتشلي وبلنهايم، وهكذا التقيت بسفيرنا في واشنطن في هذا الجو الآمن، وكان يعرف شتى جوانب الموقف الأمريكي، ولم يكن قد حصل على شيء سوى النية والثقة من واشنطن، وكان قد اتصل منذ قليل بالرئيس الذي وثقت بينهما أطيب العلاقات، وكان فكره مشغولاً بمسألة الدولار، وهي مسألة كئيبة بلا شك.

فعندما خاضت بريطانيا غمار الحرب كان في حزتها حوالي ٤٥٠٠ مليون دولار، إما على صورة دولار بالفعل أو ذهب أو استثمارات أمريكية من المستطاع أن تتحول إلى دولارات، وكانت الوسيلة الوحيدة المستطاعة لتزيد هذه الموجودات هي التوسع في استخراج الذهب في الإمبراطورية البريطانية وخاصة في جنوب أفريقيا. وبذل كافة السبل لزيادة الصادرات إلى أمريكا وخاصة الكماليات كالويسكي والمنسوجات الصوفية الرائعة والخزف، وقد استطعنا بهذه الوسيلة زيادة حصيلتنا بحوالي ألفي مليون دولار في خلال ستة عشر شهرًا مذ بداية الحرب، وكنا في فترة "شفق الحرب" تتجاذبنا الحيرة بين حاجة ملحة إلى العتاد من أمريكا، وبين فزعنا من نقصان دولاراتنا الموجودة لدى أمريكا، وكان السير جون سيمون وزير المالية في حكومة المستر تشمبرلين يتحدث كثيرًا عن المصير المؤسف لأرصدتنا الدولارية، ويوجه أنظارنا إلى ضرورة الحرص عليها، وكنا على أية حال متفقين على ضرورة الحد من مشترياتنا الأمريكية بقدر المستطاع، وكنا نبدو كما قال مرة المستر بوفير، رئيس لجنة المشتريات للمستر ستيتينوس :وكأننا نحيا في جزيرة منقطة بكمية محدودة من الطعام الذي تحاول الإبقاء عليه أطول مدة ممكنة".

وكان يقصد بهذا إعداد ترتيبات واسعة المدى لزيادة أموالنا، وكنا قبل الحرب نمارس حريتنا في الاستيراد، وندفع بالعملة التي نريد، وعندما قامت الحرب اضطرارنا أن نوجد هيئة لتعبئة الرصيد الخاص من الذهب والدولار والنقد الأجنبي، وأن نقف دون تحقيق رغبات ذوي النوايا المنحرفة في تحويل رأسمالهم إلى البلاد التي يحسون أنها أكثر أمنًا من بلادهم، وأن نقلل من قيمة الواردات غير الضرورية وغير ذلك من وسائل الإنفاق الأخرى، وفضلاً عن عزمنا على الإبقاء على أموالنا، كان علينا أن نضمن استمرار الآخرين في قبول عملتنا، وكانت بلاد الكتلة الإسترلينية معنا فهي تحتم سياسة الإشراف ذاتها على النقد التي تحتمها، وهي تريد التعامل الدائم بالإسترليني، وقمنا

بإبرام عقود خاصة مع الآخرين تلزم بأن ندفع لهم بالأسترليني الذي يقدرون على التعامل به في أي مكان داخل حدود الكتلة الإسترلينية، كما ضمنوا الإبقاء على فائض الإسترليني لديهم، وأن يحرصوا في مبادلاتهم على السعر الرسمي للنقد، وكانت أولى العقود التي أبرمت على هذه الشروط مع السويد والأرجنتين، ثم ما لبثت أن اتسع نطاقها فشملت بلادًا أخرى في القارة وفي جنوب أمريكا، وقد تم تنسيق هذه الخطة بعد ربيع عام ١٩٤٠. ولا شك في أن مما هو جدير بالثناء وبإطراء الإسترليني نفسه أننا استطعنا الإبقاء عليه في مثل هذه الظروف القاسية، وقد قدرنا بهذه الوسيلة على الاستمرار في معاملاتنا التجارية مع غالبية البلاد في العالم بالإسترليني، وأن نبقى على ما لدينا من دولار وذهب ثمين لمعاملاتنا الحيوية مع أمريكا.

وعندما أصبحت الحرب واقعًا مرعبًا في مايو ١٩٤٠ أدركنا على الفور أننا نشهد ميلاد حياة جديدة للعلاقات الإنجليزية الأمريكية، فمنذ أن توليت تأليف الوزارة، وعاد إلى السير كنغزلي بوزارة المالية، بدأنا نسير في طرق أكثر يسرًا، وهي أن توصي باحتياجاتنا ورغباتنا بغض النظر عن المصاعب المالية المقبلة، تاركين للآلهة الخالدة أن تتولاها بعنايتها، ولقد كان من الزيف في شئون الاقتصاد ومن الخداع بالنظر للروية والعقل أن نترك الفرصة للقلق ونحن واجه معركة حياة أو موت، منفردين، لا نصير لنا ولا معين ونقع تحت وطأ هجوم جوي مستمر، ونتعرض لأهوال غزو يذيقنا من ويلاته، أن نترك الفرصة للقلق يستولي عينا من جراء نفاد أرصدتنا الدولارية لدى أمريكا، وكنا قد شعرنا بالتحول الكبير في الرأي العام الأمريكي وشعرنا بالإدراك الجديد الذي سرى لا في واشنطن وحدها بل في جميع أرجاء الولايات المتحدة، بأن مصير أمريكا وثيق الصلة بمصيرنا نحن، وفضلاً عن هذا فقد سرى تيار من العطف والإعجاب ببريطانيا بين صفوف الشعب الأمريكي ووصلتنا برقيات مودة من واشنطن مباشرة، وعن طريق كندا، لمسنا في غضونها التشجيع والمؤازرة، والإحساس بأن شيئًا ما في الأفق سيتحقق عن

قريب، ولقيت قضية الحلفاء في المستر مورغنتا ووزير الخزانة الأمريكية نصيرها وحاميها الذي لا يكل من الذود عنها، وبسبب ورود الطلبات الفرنسية إلينا في شهر يونيو تضاعف معدل إنفاقنا في النقد الأجنبي، زيادة على ذلك أننا رغبنا من جديد في صنع طائرات ودبابات وسفن تجارية من مختلف الأنواع، وحثثنا على إنشاء مصانع ضخمة جديدة في أمريكا وكندا.

وإلى شهر نوفمبر قد قمنا بدفع الثمن لكل ما وصلنا من أمريكا، وكنا قد بعنا ما قيمته (٢٣٥) مليون دولار من السندات والأسهم الأمريكية التي قمنا بمصادرتها من ذويها في لندن مقابل الدفاع بالإسترليني، وكنا قد قمنا أيضًا بدفع ما يزيد على (٤٥٠٠) مليون دولار، وأصبح كل ما لدينا ألفي مليون معظمها في صورة استثمارات غير قابلة للبيع الفوري في الأسواق، وظهر أن ليس في وسعنا أن نسير على هذا المنوال، لأننا أنفقنا كل ما في حوزتنا من الذهب والنقد الأجنبي فلن نستطيع أن ندفع الثمن لنصف احتياجاتنا من المصانع الأمريكية، فكيف يكون الأمر والحقيقة أن امتداد زمن الحرب وشمولها يضطرنا إلى أن نحتاج من المصانع الأمريكية عشرة أضعاف ما احتجنا إليه الآن، وعلينا فضلاً عن كل هذا أن نبقى على شيء في أيدينا لنواجه به مطالبنا اليومية المتجددة.

وكان لوثيان واثقًا من أن الرئيس ومستشاريه يفكرون جديًا في خير الوسائل لمعاونتنا، أما وقد انتهت المعركة الانتخابية، فقد دقت ساعة العمل، وكانت المباحثات دائمة في واشنطن بين ممثل لوزارة حربيتنا هناك ـ السير فريدريك فيلبس ـ وبين المستر مورغنتاو، ورغب إلى سفيرنا في أن أحرر رسالة مفصلة للرئيس توضح كل أوضاعنا، وهكذا كتبت بالمشاورة معه في ذلك اليوم، الأحد في ديتشلي، رسالة خاصة إلى الرئيس روزفلت، ولما كان ينبغي عرض هذه الرسالة على رؤساء أركان الحرب، ووزارة الخزانة لدراستها، ثم توافق عليها وزارة الحرب فإنها لم تكن معدة للإرسال قبل رجوع لوثيان إلى واشنطن، وتمت الرسالة في صورتها الأخيرة، ثم أرسلت بتاريخ ٨ ديسمبر إلى

المستر روزفلت فورًا ، فانتهت - وهي من أهم ما أحرزته في حياتي - إلى صديقنا العظيم وهو يمخر عباب البحر الكاريبي على ظهر البارجة الأمريكية "توسكالوزا" مع أصدقائه وخاصته، وأبلغني هاري هوبكنز بعد ذلك وكنت لم أتعرف به بعد أن الرئيس قرأ الرسالة مرارًا على ظهر البارجة وهو جالس على مقعده، وأنه أمضى يومين في دراستهما ، إلى أن أوضحت أمامه مراميها ، لقد ظل في أحضان تفكير عميق، يتمتم لنفسه في صمت.

ونتج عن كل هذا قرار عظيم، فالقضية لم تكن عم معرفة من الرئيس لحقيقة ما نريد ، وإنما كانت في أي الوسائل يجب أن يسلكها لتؤمن بلاده بالمسير معنا ، وليقتنع الكونجرس بضرورة ما يرى، ويقول ستيتينيوس أن الرئيس كان في أخريات الصيف الماضي قد رأى في إحدى جلسات لجنة الدفاع الاستشارية في موضوع الموارد الملاحية أن ليس من المحتم أن يبذل البريطانيون أموالهم، وليس من المحتم أيضًا أن يستدينوا منا لهذا الغرض، ولكن - مع أنه لا يوجد ما يحول دون تنفيذ كل ذلك - في مقدورنا أن نأخذ الباخرة التي تم صنعها ، وأن نؤجرها لهم أثناء استخدامهم لها".

ويظهر أنه كان هناك قانون صدر في عام ١٨٩٢ يدع لوزير الحربية حرية تأجير ممتلكات الجيش ما دام يرى ذلك مصلحة عامة، بشرط ألا يكون الجيش في احتياج إليها مدة خمس سنوات وكانت هناك حالات طبق الجيش فيها هذا القانون، وأجر بعض ممتلكاته من حين لآخر.

وهكذا انبثقت فكرة "التأجير" في ذهن الرئيس روزفلت لتأمين احتياجات بريطانيا ، بدلاً من تقديم قروض غير محدودة، ربما تتضاعف إلى درجة يصعب معها الدفع والتسديد ، وسرعان ما انتقلت الفكرة من المجال النظري إلى المجال العملي، وظهرت في هذا الزي الخلاب الذي أعلن فورًا وهو الإعارة والتأجير.

وعاد الرئيس من رحلته في البحر الكاريبي في ١٦ ديسمبر، وأدلى بمشروعه العميق في مؤتمر صحفي عقد في اليوم التالي، وقد أوضحه في بساطة عندما قال: "لنفرض أن منزل جاري قد شب فيه حريق، وكنت أملك في حديقتي خرطومًا طويلاً يبلغ أربعمائة قدم أو خمسمائة، وكان في استطاعة جاري إذا منحته خرطومي أن يوصله بصنبور مياهه ويتغلب على النار المشبوبة، فماذا ترون واجبي في ذلك الحين؟ أنني لا أخاطبه قائلاً في مثل هذه الظروف: اسمع يا جاري، لقد كلفني هذا الخرطوم خمسة عشر دولارًا وعليك أن تدفع ثمنه أولاً.. كلا، إنني لن أفعل ذلك، وإنما سأقول له: أنا لا أريد الخمسة عشر دولارًا ولكنني أريد خرطومي بعد أن تخمد الحريق".. واستطرد قائلاً: "لا ريب عند أي أمريكي في أن أفضل سبل الدفاع العاجل عن أمريكا، هي أن تنتصر بريطانيا في الدفاع عن نفسها، ولذلك ـ فضلاً عن مصلحتنا التاريخية والحاضرة في المحافظة على الديمقراطية كشيء جوهري ـ فإن في غاية الأهمية ـ من الناحية الذاتية أيضًا ـ وبالنسبة للدفاع الأمريكي أن نبذل كل ما نستطيع لمعاونة بريطانيا في الدفاع عن نفسها.. ثم ختم كلامه قائلاً: إنني أحاول أن أمحو حاجز الدولار".

وعلى هذه الأضواء، تم إعداد مشروع الإعارة والتأجير عاجلاً ليعرض على الكونجرس، وقد وصفت هذا الجهد فيما بعد أمام البرلمان في أحد البيانات قائلاً: "أكرم عمل قام به أي شعب في التاريخ" وفي الوقت الذي تمت فيه موافقة الكونجرس على هذا القانون، تغير الوضع كاملاً بصورة عاجلة، فقد أعطانا القانون الحرية في أن نبرم الصفقات الضخمة بكافة احتياجاتنا تحت رعاية اتفاق الإعارة والتأجير.

ولم ينص على إعادة الدفع، كما لم يكن ثمة حساب رسمي يسجل بالدولار أو الإسترليني، فكل ما نحتاج إليه يأتينا بالإجارة أو الإعارة، لأن مقاومتنا المتصلة لجبروت هتلر، اعتبرت أعمالاً دفاعية عن مصالح الولايات

المتحدة، فقد قال الرئيس روزفلت أن الدفاع عن أمريكا لا الدولار هو الذي سيعين منذ الآن المكان الذي ستتوجه إليه الأسلحة الأمريكية.



وامتدت يد الموت في تلك الساعة الحاسمة إلى اللورد فيليت لوتيان، فانتزعته من بين جماعتنا، بعد رجوعه إلى واشنطن حيث تسلط عليه المرض بصورة غير متوقعة، ولكنه أدى واجبه حتى النهاية وبدون أدنى توقف وتوفي في ١٢ ديسمبر وهو كدبلوماسي مرموق في قمة نجاحه، فكان موته خسارة لوطنه وللقضية كلها، ودمعت عليه عيون الأصدقاء في جانبي المحيط، أما أنا وكنت قبل أسبوعين وثيق الصلة به، كما ذكرت قبل ذلك بقليل، فقد كانت وفاته صدمة شخصية لي، وقد أبنته بخطاب في مجلس العموم أعظم تأبين ذاكرًا له بثناء جم جهوده ومسيرته.

وكان علي أن أوجه اهتمامي فورًا لمن يخلفه، وأدركت أن علاقاتنا بأمريكا في تلك الفترة في حاجة إلى أن يكون سفيرنا إليها شخصية بارزة متمتعة بسمعة قوية خاصة، فضلاً عن الكفاءات التي ينبغي أن يكون حائزًا لها سياسي مطلع على كافة شئون العالم، وبعد أن ضمنت موافقة الرئيس روزفلت على وجهة نظري رغبت إلى المستر لويد جورج في أن يقوم بمهام هذا المنصب، وكان المستر لويد جورج قد اعتذر عن تولي منصب في وزارة الحرب في يوليو الماضي، كما كانت ظروف سيئة في السياسة البريطانية الداخلية، وكانت آراؤه في الحرب والأحداث التي أدت إليها تخالف ما أراه، وبالرغم من ذلك لم يكن هناك شك في أنه ألمع رجل في وطننا، وفي أن كفاياته وخبراته التي لا نظير لها ستساعده كلها على حمل أعبائه، وقد تحدثت إليه طويلاً في غرفة الحرب في اليوم التالي حول مائدة الغذاء، واستخفه السرور بهذا التكليف فقال:

"إنني سأخبر أصدقائي بأن رئيس الوزراء عرض علي عروضًا مشرفة، ولكنه كان على ثقة من أن رجلاً في السابعة والسبعين مثله، ليس في وسعه القيام بالتبعات الجسام التي يعينها هذا المنصب، وبعد محادثات متواصلة مع اتضح لي أن الرجل قد أوهنته الشيخوخة لا سيما في الأشهر الأخيرة منذ دعوته للاشتراك في وزارة الحرب، لذلك تتحين عن اختياري الأول عن يقين يشوبه كثير من الأسف".

وتنبهت إلى اللورد هاليفاكس، صاحب المقام الرفيع في حزب المحافظين والمكانة التي دعمتها أعماله في وزارة الخارجية، ولا شك في أن توجه وزير الخارجية إلى منصب سفاري يعني أهمية خاصة لهذه البعثة الدبلوماسية التي تحظى برئاسته، وبالإضافة إلى هذا المنزى فإن أعماله في سنوات ما قبل الحرب، والأسلوب الذي سارت به الأحداث في تلك الفترة قد وضعاه موضع عدم الاستلطاف بل العداء أحيانًا من جانب العمال في حكومتنا القومية، وكنت أعرف أن اللورد يدرك هذا جيدًا.

وعندما عرضت الأمر عليه الذي لم يكن بالطبع يعني أي ترقية ذاتية اكتفى بكلمة بسيطة متعالية تعبر عن استعداده للخدمة حيث تكون خدماته نافعة ومحتمة، وتأكيدًا مني لأهمية بعثته وواجباته رتبت الأمور على أن يباشر كعضو في وزارة الحرب عندما يعود في أي أجازة إلى الوطن، وقد نجحت في هذا دون صعوبات بفضل ما تنطوي عليه نفوس الشخصيات التي تناولها هذا الترتيب من ذكاء وخبرة وكفاية.

ومكث اللورد هاليفاكس يعمل في ظل الحكومة القومية الائتلافية وخليفتها الحكومة العمالية الاشتراكية كسفير في واشنطن مدى ست سنوات، في نجاح مستمر لما يقوم به من أعمال، ونفوذ تتضاعف يومًا بعد يوم.

وقد اغتبط الرئيس روزفلت والمستر هل وغيرهما من شخصيات واشنطن البارزة بتعيين اللورد هاليفاكس، وسرعان ما عرفت أن الرئيس قد استحسنه

عن اختيازي الأول، وبذلك صادف التعيين الجديد رضى وترحيبًا في كل من أمريكا وبريطانيا، واعتبر منسجمًا مع روح الأحداث الجارية.

ولم أكن على حيرة من أمري في الشخص الذي سيخلف اللورد هاليفاكس في وزارة الخارجية، فقد ظللت طيلة السنوات الأربع الماضية - كما أوضحت ذلك في الصفحات السابقة - متفقًا اتفاقًا تامًا بالنسبة للقضايا الرئيسية مع انتوني إيدن.

وقد بينت مشاعر القلق في نفسي عندما تنحى عن صحبة المستر تشمبرلين بعد في ربيع عام ١٩٣٨ وكنا قد امتنعنا معًا عن التصويت على اتفاق ميونيخ، ووقفنا معًا نقاوم الضغط الحزبي الذي تعرض له كل منا في دائرته الانتخابية في شتاء تلك السنة المؤسفة، وقد التقينا معًا عقلاً ووجدانًا عند إعلان الحرب وفي خلال مسيرها، كزميلين، وكان إيدن قد خصص الجزء الأكبر من حياته العامة لدراسة الشئون العالمية، وتولى منصب وزير الخارجية المرموق فملأه عن كفاية ومقدرة، واستقال منه وهو في الثانية والأربعين من عمره لأسباب إذا نظرنا إليها الآن بمنظار الحقيقة فسوف تنال تأييد جميع الأحزاب، وقد قام بدور فعال كوزير للحربية في تلك السنة الرهيبة، وكان تصريفه لشئون الجيش قد قرب كلا منا للآخر، فكنا نتشابه في التفكير، حتى بدون استشارة أو عرض لوجهات النظر في كثير من المسائل العملية التي نقابلها يوميًا، وكنت بدوري أطمح في زمالة فياضة بالانسجام والتوافق بين رئيس الوزراء ووزير الخارجية، وقد جنيت ثمار هذه الرغبة في خلال السنوات الأربع والنصف التالية، المليئة بأعمال الحرب والسياسة، وقد أسف إيدن حينما ترك وزارة الحربية التي كان قد دار في دوامة متاعبها واستثاراتها، ولكنه عادة إلى وزارة الخارجية، وكأنه رجل يعود إلى بيته.

اتساع الحرب

توثقت صلتي مع الرئيس روزفلت مع بداية السنة الجديدة، وكنت قد أرسلت إليه تهنئتي بمطلع العام الجديد، وفي ١٠ يناير سنة ١٩٤١م حضر إلى داونج إنسان لطيف ومعه أوراق الاعتماد يرغب في لقائي، وكانت البرقيات من واشنطن قد أخبرتنا أن هذا الرجل يعتبر ممثلاً خاصًا موثوقًا به للرئيس، ومن أجل هذا فقد رغبت في أن يستقبله السيد براندن براكن في المطار، وفي اليوم التالي دعوته لنتناول الغذاء معًا، وكذا التقيت بالرجل، بالتقدير هاري هوبكنز الذي أدى دورًا هامًا في جميع شئون الحرب، وكان روحًا نابضة بالحيوية في جسد نحيل واهن، وكان منارة تكاد أن تهوي ولكنها ترسل ضوءها الساطع الذي يهدي الأساطيل الضخام إلى مرساها الأمين، وكان يتسم بروح من الدعابة الساخرة، وكثيرًا ما رغبت في صحبته وخصوصًا عندما يسوء الموقف، ولقد كان في مقدرته أيضًا أن يتخلى عن الرقة والدماثة وأن ينطلق في كلمات قلبية جارحة، وكانت خبراتي قد هدتني إلى أن أكون واحدًا من هذا النوع عندما تحتم الظروف.

ودام اجتماعنا الأول ثلاث ساعات، وبسرعة توصلت إلى مميزات شخصيته الدينامية، وما يتعلق بها من المهام،ن وكنا في أقسى فترات الهجوم على لندن، بينما تتهال علينا المتاعب من الداخل كذلك، ولكن تبين لي أن هذا الرسول الخاص من الرئيس ذو أهمية عظيمة لحياتنا ومصيرنا، وقال لي وعيناه تتألقان والهدوء والتحفظ يغلف حديثه: "أن الرئيس مصمم على أن نكسب الحرب معًا، فأرجو أن لا تخطئ في تفهم حديثي حين أقول: لقد أرسلني هنا لأخبرك بأنه مهما تفاقم الثمن، وأيًا كانت الوسيلة، فسيظل يؤازركم حتى النصر، وبالرغم من أي مصير شخصي يواجهه فلن يتوانى عن تقديم كل عون في وسع الطاقة البشرية أن تقدمه حتى تبلغوا غايتكم".

ولا شك في أن كل من عرف هاري هوبكنز في مدى سنى الحرب يرسم الصورة التي قدمتها عن شخصيته، ومنذ التقينا بدأت تنمو الصداقة بيننا، وتسمو على كل الانفجارات والزلازل، ولقد كان أضمن وأقرب وسيلة للاتصال بالرئيس، فلقد ظل هذا الرجل لسنوات عديدة موضع السر والثقة للرئيس روزفلت، وباعث الأمل الذي يحفزه ويشجعه، واستطاع هذا الرجلان - وأحدهما مساعد بدون منصب رسمي، والآخر يتولى مهام منصب الرئاسة - اتخاذ القرارات ذات النتائج الخطيرة بالنسبة لكافة البلاد التي تتحدث اللغة الإنجليزية، وكان هوبكنز بكل تأكيد يحتفظ بنفوذه الشخصي على الرئيس، ولذلك لم يكن يتيح الفرصة لظهور أي منافس له في صفوف الأمريكيين، ولقد يصدق عليه قول الشاعر جراي: "إن المقرب لا صديق له"، ولكن هذا لا يهمني، فها هو ذا يبدو أمام عيني نحيلاً هزيلاً واهنًا، ولكنه ينبض بالفهم العميق لمشاكلنا، ومحور هذه المشكلات كما يتفهمها يتلخص في اندحار هتلر وتدميره وذبحه، فضلاً عن عدد آخر من الأماني والأهداف. ولا شك في أن تاريخ أمريكا لم يعرف الكثيرين من طراز هذا الرجل النادر الفياض بالإخلاص.

وكان هاري هوبكنز يستشف دائمًا أعماق القضايا، يصل إلى جذورها، وقد حضرت عددًا من المؤتمرات التي كان يشهدها حوالي عشرين أو أكثر من الشخصيات الكبيرة صاحبة السلطة. وعندما تمتد المحادثات وتتهادى، ويصل الكثيرون إلى طريق الصواب، كنت أجد هوبكنز يسأل الرئيس دائمًا بصراحة وعناد: "حسن يا سيدي الرئيس .. هذه هي المسألة التي تحتاج إلى حلنا وإقرارنا، فهل نحن أولاً على أهبة الاستعداد لمواجهتها؟".

والنتيجة الضرورية لذلك هي مواجهة المشكلة، ومعنى ذلك حلها والسيطرة عليها، لقد كان قائدًا عظيمًا للرجال، ولم يكن أحد في مقدوره التفوق على حماسته وحكمته حين الأزمات، وكان ولاؤه للضعفاء والفقراء

يسير جنبًا إلى جنب مع مقته الشديد للطغيان، ولا سيما عندما يبدو هذا الطغيان في موقف المنتصر.

واستمر الهجوم الجوي المدمر علينا بكل مناورته، مع تغير يسير، فقد تأكد هتلر أنه عاجز عن سحق بريطانيا بغاراته الجوية المباشرة، وكان هذا الفشل هو الهزيمة الأولى التي ذاق مرارتها ولم تنجح هجماته الوحشية في تحويل الشعب وحكومته إلى موقف الخضوع، وأخذ الإعداد لغزو روسيا في مطالع صيف سنة ١٩٤١ يستأثر بالكثير من قوة ألمانيا الجوية، ولم تكن الهجمات الكثيرة القاسية التي شنت علينا حتى أواخر شهر مايو تمثل كل ما لديه من قوات، وبالرغم من أنها سببت لنا الكثير من المتاعب والمآسي فإنها لم تكن على جانب كبير من اهتمام القيادة العليا الألمانية أو الفوهرر، بل كان استمرارها على بريطانيا العظمى في تقدير الفوهرر تمويهًا ضروريًا ومناسبًا ليخفي استعداده ضد روسيا.

وكانت آماله الواسعة تخيل إليه أن السوفييت كالفرنسيين سيتهاوون في خلال ستة أسابيع، وأن كافة القوات الألمانية ستكون محتشدة لتوجيه ضربة قاضية لبريطانيا في خريف ١٩٤١، وفي خلال ذلك سيسأم الشعب من عناده، وتستنفد قواه، بفضل حصار الغواصات والغارات الجوية البعيدة المدى أولاً، ثم من الهجمات الجوية على مدنه ومرافقه ثانيًا، وقد استبدلت عملية "أسد البحر" بالنسبة لبريطانيا بعملية "بربروسا" بالنسبة لروسيا، وهذا بالنظر إلى الجيش الألماني. أما بالنظر إلى الأسطول فقد تلقى تعليمات بأن يركز اهتمامه على طرق مواصلاتنا عبر الأطلنطي، كما أمر السلاح الجوي بالتركيز على موانينا والمداخل الموصلة لها، وكانت هذه الخطة أبعد ضررًا من الهجمات المتفرقة العمياء على لندن وأهلها الآمنين، ومن يمن الطالع بالنسبة لنا أن الألمان لم يستمروا في تنفيذها بكل ما تبقى لديهم من قوات، وبرغبات حازمة، وأفسد سوء الأحوال الجوية في شهري يناير وفبراير خطط العدو، وإذا استثنينا الغارات التي شنها على كارديف وبورتسماوث وسوانس،

فإن قوات دفاعنا المدني قد وجدت الفرصة للراحة المناسبة، ولكنها لم تضعها هباء بل استغلتها كاملة، وعندما تحسنت الأحوال الجوية، شن الهجوم القاسي ثانية، وأخذ السلاح الجوي الألماني في شهر مارس في تنفيذ ما عرف حينئذ "بالتجول على الموانئ" وكانت غاراته فردية أو مزدوجة، ومع خطورتها الشديدة فقد فشلت في إيقاف الحركة بموانئنا، وتعرضت بورتسماوث في ٨مارس مدى ثلاث ليال متوالية لهجوم شديد الوطأة أنزل بأرصفتها خسائر فادحة، وشن هجوم على مانشستر وسالفورم في يوم ١١، وفيما تلا من الليالي حان دور ميرسي سايد، وفي ١٣، ١٤ قامت الطائرات الألمانية بغارة شديدة على "كلايد" للمرة الأولى، فقتلت وجرحت ما يزيد على ألفي شخص. وظلت أحواض السفن متعطلة عن العمل حتى شهر يونيو أو شهر نوفمبر، ولم تنزل أقصى الضربات إلا في شهر إبريل حيث كانت كوفنتري في ٨ منه هدفا لنيران حامية، أما في سائر الأيام فقد نزلت أفدح الخسائر ببورتسماوث، وشنت على لندن هجمات قاسية في ١٦، ١٧ فقتل أكثر من ألفين وثلاثمائة إنسان، وأصيب ما يزيد عن ثلاثة آلاف بجراحات بالغة، واستمر العدو في محاولته التدميرية لموانئنا الهامة بغارات قد تستمر في بعض الأحيان أسبوعًا بأكمله، وتهدمت مدينة بريستول، واستمرت الغارة على بلايموت بين ٢١، ٢٩ إبريل، وبالرغم من أن الحرائق الخادعة قد ساهمت في إنقاذ الأرصفة والأحواض إلا أن إنقاذ ذلك كان على حساب المدينة، وبلغ الهجوم غايته في أول مايو عندما أغير على ليفربول وميرسي سايد سبع ليال متواصلة، فأصبح سبعة وستون ألف إنسا بلا مأوى، وقتل وجرح حوالي ثلاثة آلاف شخص، وتعطل عن العمل تسعة وستون ملاذًا من ملاذات البواخر التي يبلغ مجموعة مائة وأربعًا وأربعين، وأصبحت الحمولة التي يمكن تفريغها منخفضة إلى الربع ولو استمر العدو في هجماته علينا لغدت معركة الأطلنطي بالنسبة لنا شاقة للغاية، ولكنه كان قد عاد أدراجه، وقصف مدينة "هل" لمدة ليلتين متتاليتين بنيرانه الحامية، وقد دمرت قنابله المتفجرة والحارقة مساكن أربعين ألف مواطن، ونسفت مخازن الأغذية،

وأصابت الأعمال الهندسية البحرية بالشلل لمدة شهرين كاملين، وفي هذا الشهر أيضًا شن هجومًا على "بلفاست" التي سبق له الهجوم عليها مرتين قبل ذلك.

وكانت آخر الغارات أسوأ من سابقتها، ففي ١٠ مايو عاد العدو إلى لندن بقذائفه المحرقة التي أضرمت أكثر من ألفي حريق، ودمرت حوالي مائة وخمسين أنبوبًا ضخمًا للمياه، حدث ذلك أثناء المد الأدنى لنهر التايمز فصعب إصلاحها، وفي الساعة السادسة من صباح اليوم التالي كانت نيران مئات الحرائق ما زالت متأججة، وقد عز القضاء عليها، وحتى ليلة ١٣ كانت لا تزال أربع منها مشبوبة النيران، وقد لحق الضرر بخمسة أرصفة وحدثت إحدى وسبعون إصابة كان عدد المصانع من بينها يبلغ النصف على الأقل، وتعطلت لمدة أسابيع محطات السكك الحديدية سوى محطة واحدة رئيسية، وظلت الطرق في حالة غير طبيعية حتى أوائل يونيو، وسقط أكثر من ثلاثة آلاف شخص بين قتيل وجريح، وتعتبر هذه الغارة من زاوية أخرى تاريخية، فقد نسفت مجلس العموم وأحدثت قنبلة واحدة أضرارًا فادحة يحتاج إصلاحها إلى عدد من السنين، وحمدنا حسن الحظ لأن أحدًا من أعضاء المجلس لم يكن بالقاعة، وأسقطت بطارياتنا وطائراتنا المحاربة بدورها ست عشرة طائرة مغيرة، وهو أكبر عدد تكبده العدو أثناء غاراته الليلية.

وكانت هذه الغارة - دون أن ندرك ذلك في حينه - آخر غارات العدو علينا، ففي ٢٢ مايو تحول كيسلرنغ بمقر قيادة أسطوله الجوي إلى بوزن، ولم تأت بداية شهر يونيو حتى كانت قوات العدو الجوية بأكملها قد تحولت إلى الشرق، فمرت ثلاث سنوات قبل أن يتحرك دفاعنا المدني بتنظيماته ليعالج آثار "الهجوم الصغير" الذي شن في فبراير ١٩٤٤، وما تبعه من غارات شديدة الوطأة بالصواريخ والقذائف الطائرة، وكاد عدد ضحايانا من المدنيين في الاثنى عشر شهرًا المنصرمة بين يونيو سنة ١٩٤٠، ويونيو سنة ١٩٤١، يبلغ حوالي ٤٣،٣٨١

إنسانًا قتلوا بينما أصيب بجراح خطرة حوالي ٥٠.٨٥٦ آخرين، مما يصل بالمجموع إلى ٩٤.٢٣٧ شخصًا.

إن التفريق بين الأمور العسكرية والسياسية يصبح متعذرًا في الحروب الكبيرة، فكل المسائل في القمة تصبح واحدة، وطبيعي أن يعتبر الجنود الشئون العسكرية فريدة في نوعها ومتفوقة في أهميتها، وأن ينظروا إلى الاعتبارات السياسية نظرة استهزاء وزراية، ولا ريب في أن كلمة "سياسات" قد لاقت الكثير من الصعوبات، بل صادفت التشويه لاقترانها بالسياسات الحزبية، ولذلك فإن معظم ما كتب عن هذا القرن الفياض بالمآسي تؤثر عليه الفكرة القائلة أنه في زمن الحرب تؤخذ بكل عناية الاعتبارات العسكرية وحدها، وأن الجنود كثيرًا ما تصدم أفكارهم المستنيرة الحرفية تطاولات الساسة، الذين يلعبون بنيران المعارك الفاصلة انسياقًا لمصالحهم الشخصية والحزبية، ولكن العلاقات الدائمة التي شملتها الثقة بين وبين وزارة الحرب ورؤساء الأركان، واختفاء كل أثر في بريطانيا للحزبية في تلك الأثناء، قد قربت وجهات النظر، وقللت من سبل الخلاف إلى أدنى حدوده.

وبينما استمر القتال في شمال أفريقيا الشرقي سائرًا في طريق النصر. وبينما ظل اليونانيون يخترقون لهم طريقًا داخل ألبانيا بكل شجاعة، كانت الأخبار التي نستقيها عن تحركات الألمان ورغباتهم تؤكد يومًا بعد يوم أن هتلر يقترب من التدخل في البلقان والبحر الأبيض على أوسع نطاق، وقد علمت في بداية شهر يناير أن وحدة جوية ألمانية قد نزلت بصقلية، وأدركت ما تعنيه هذه التحركات من خطر على مالطة، ومن تهديد للآمال التي راودتنا بشأن إعادة الملاحة في البحر الأبيض، وأصبت بالذعر من جراء انتقال قوات ألمانية، وغالبًا ما تكون من المدرعات إلى طرابلس، ولم يكن في مقدورنا أن نرتاب في أن خطط الألمان كانت تسعى إلى إيجاد ممر من الشمال إلى الجنوب عبر إيطاليا إلى أفريقيا، كما تريد في الوقت ذاته وبنفس الأساليب مصادرة تحركاتنا عبر البحر المتوسط شرقًا وغربًا.

وكان الخطر الذي يجابه الدول البلقانية ومن بينها اليونان وتركيا يتجسم أمام عيني في صورة إغراء أو إرهاب لتنضم إلى إمبراطورية هتلر، فإن لم ترضخ لهذه الرغبة اجتاح حدودها، وبذلك تشهد ثانية الحركة الخطيرة التي رأيناها في النرويج والدانمارك وهولندا وبلجيكا وفرنسا، فعاد مرة ثانية في جنوب شرقي أوروبا.

أحقًا.. سيحكم على الدول البلقانية بالعبودية واحدة بعد أخرى، ومن بينها اليونان النافحة ثم تعزل تركيا حتى تضطر آخر الأمر إلى فتح أبوابها أمام الجيوش الألمانية الجرارة، فتزحف على فلسطين ومصر والعراق وفارس؟ .. ألا يوجد أمل في تكتيل وحدة بلقانية وجبهة بلقانية تتقاضى حتى من العدو أفدح الأثمان عن هذا العدوان الجديد، أليس في الاحتمال أن تكون للمقارنة البلقانية لألمانيا ردود فعل بالغة الأثر توقظ الأمل في روسيا السوفيتية، لا شك أن في هذا الميدان تتأثر مصالح الدول البلقانية نفسها، وقد تتأثر المشاعر أيضًا إذا سمح البلقانيون لمشاعرهم أن تتأثر على حسابهم، وهل نقدر بمواردنا المستنزفة والمتزايدة في الوقت نفسه أن نعثر على المشاركة الخارجية الإضافية التي تسعى لتوحيد هذه الدول المتماثلة للعمل من أجل هدف واحد، أو أن الواجب علينا من ناحية أخرى أن نركز اهتمامنا على أمورنا، وأن نحرز نصرًا من حملتنا في شمال شرق أفريقيا، وأن ندع اليونان والبلقان وتركيا وغير ذلك من بلاد الشرق الأوسط تنزلق نحو هاويتها المنتظرة؟ لا شك في أن هذا الرأي الأخير يعفي الكثيرين من المتاعب والتفكير، وقد لقي معضدين له في رسائل كل الضباط الذين كانوا يحتلون مراكز ثانية، والذين بعثوا بآرائهم، ولا شك في أن هؤلاء الضباط قد انتهزوا فرصة الحديث عما حل بنا من أضرار ولكن معلوماتهم لم تكن كافية ليعرفوا المصير الذي كان ينتظرنا لو سرنا وفق وجهة النظر هذه، ولو استطاع هتلر دون قتال أن يجبر اليونان على الخضوع، وأن يرغم جميع الدول البلقانية على طاعته، وأن يفرض على تركيا عبور قواته إلى الجنوب والشمال، ألا نتوقع حينئذ أن يتفاهم مع السوفيت على

السيطرة على هذه المناطق الشاسعة وتقسيمها، ثم يقوم بتأجيل موقعته الفاصلة معهم إلى أجل آخر في حسابه؟ ثم ألم يكن في مقدوره إذا دانت له كل هذه الرغبات أن يشن هجومه على روسيا بجيوش أكبر وفي ميعاد أسبق؟ وفي الفصول التالية سأحاول التعمق في بحث سؤال رئيسي وعرضه في صورة سليمة، ويتلخص هذا السؤال فيما إذا كان ما نفذته الحكومة البريطانية بالغ الأثر بصور واضحة على تصرفات هتلر في جنوب شرق أوروبا، وأنه أدى إلى نتائج بعيدة المدى في نظرة روسيا للأمور أولاً، وفي مصيرها ثانيًا؟ وطوال شهري يناير وفبراير كانت تصلنا أخبار طيبة من ميدان الشرق الأوسط فقد أعد الدفاع عن مالطة فاستطاعت الصمود في آخر لحظة لغارة مجتاحة قام بها السلاح الجوي الألماني عليها من صقلية، واقتربت عملية احتلال الإمبراطورية الإيطالية في إريتريا والصومال والحبشة من نهايتها المنتصرة، وفي خلال شهرين استطاع جيش الصحراء أن يستمر في زحفه إلى مسافة خمسمائة ميل، وأن يقضي على جيش إيطالي يربو تعداده على تسع فرق، وسيطر جيش الصحراء على بنغازي ومنطقة برقة بأكملها.

وبالرغم من كل هذا فقد ظلت المسائل المحفوفة بالخطر من دبلوماسية وعسكرية بالغة الأهمية، وكان الجنرال ويفل تتراكم عليه التبعات، مما حدا بلجنة الدفاع أن توفد في ١١ فبراير وزير الخارجية والجنرال ديل رئيس أركان حرب الإمبراطورية إلى القاهرة، وطار إيدن من القاهرة إلى أثينا يرافقه ويفل وغيره من الضباط الكبار لإجراء مشاورات مع ملك اليونان وحكومته.

وقرأ المسيو كوريسس رئيس وزراء اليونان أثناء الاجتماع بيانًا تضمن قرارات كان قد انتهى إليها مجلس وزراء اليونان في اجتماع عقده في اليومين السابقين، ولأن هذا البيان قد أصبح قاعدة لأعمالنا فإني أورد القسم الحيوي منه هنا تامًا! أود أن أؤكد ثانية أن اليونان كحليفة تضمن قرارات كان قد انتهى إليها مجلس اليونان في اجتماع عقده في اليومين السابقين، ولأن هذا البيان قد أصبح قاعدة لأعمالنا مخلصة ستظل ماضية في القتال بإصرار حتى

يتحقق النصر، ولا تقتصر عزيمتها على مناهضة إيطاليا وحدها بل يشمل ذلك أي عدوان ألماني، وأيًا كان الأمر وسواء كان لليونان نصيب في صد الهجوم عن مقدونيا، أم لم يكن فإنها ستظل مدافعة عن أراضيها حتى ولو اضطرت إلى الاعتماد على قوتها وحدها دون عون آخر، وقد أبانت الحكومة اليونانية أنها صممت على هذا القرار قبل أن تتأكد من مقدرتنا على مساعدتها أم عدم استطاعتنا ذلك، فأكد المستر إيدن لهم أن عزم لندن قد انعقد مع كل قادتها في الشرق الأوسط على بذل ك عون لمؤازرة اليونان، واستمرت المؤتمرات العسكرية ومحادثات الأركان طوال الليلة، وفي ثاني يوم أرسل إلينا إيدن في ٢٤ فبراير ببرقية بالغة الأهمية هذا نصها:

"لقد هزتنا صراحة المفاوضين اليونانيين ووضوح آرائهم في سائر الشئون التي أتممنا بحثها، وإني على يقين من إصرارهم على المقاومة لآخر جهد في طاقتهم، وليس أمام حكومة صاحب الجلالة سوى أن تؤازرهم بصرف النظر عن كل النتائج، ونحن على يقين تام بأننا قد آثرنا السبيل السوي، ولما كانت الساعة قد أعلنت الحادية عشرة فإني متأكد أنك لا ترغب في الإطالة، مؤجلاً التفاصيل حتى ألتقي بكم، إن المغامرة ضخمة، ولكن الأمل في النجاح كبير".

وعلى هدى من هذه المكاتبات التي حملت موافقة كل من ديل وويفل أصدرت وزارة الحرب تأييدها للاقتراحات تأييدًا كاملاً.

سافر المستر إيدن بعد ذلك إلى أنقرة، حيث قام بمشاورات طويلة مع الأتراك، ولم يصل إلى نتائج مشجعة، فالأتراك يدركون الصعوبات التي تواجههم كما ندركها نحن، ولكنهم يقررون أن ليس في وسعنا تقديم قوات بالقدر الكافي لتغيير نتيجة أي معركة فاصلة، ولأنه لا توجد لديهم أية قوة هجومية فقد رأوا أن ما يستطيعون أن يقوموا به هو أن تلتزم بلادهم بموقف الحياد إلى أن يستكملوا جوانب النقص التي يحسون بها، وإلى أن تصير

قواتهم علي درجة كافية من التأثير والفعالية، أما إذا شن عليها هجوم فإنها ستخوض غمار الحرب بكل تأكيد، وقد أدركت كاملاً الموقف الذي تواجهه تركيا، وبدأ من الصعب عليها أن تلتزم بالمعاهدة التي أبرمت معها قبل الحرب لتغير الظروف، وعندما بدأت الحرب في عام ١٩٣٩ واستعد جيش تركيا الباسل، ولكن هذا الجيش يعتمد على وسائل الحرب العالمية الأولى والمشاة الأتراك من أفضل الجنود ومدفعيته مقبولة ولا غبار عليها، ولكنهم يفتقرون إلى الأسلحة الحديثة التي أكدت منذ مايو ١٩٤٠ أنها فاصلة في الحرب الدائرة، كما أن الطيران التركي كان في صورة بدائية هزيلة إلى درجة تستدعي الرثاء، وليس في حوزتهم أيضًا دبابات أو سيارات مدرعة، كما لا توجد عندهم المصانع التي تنتجها أو تشرف على صيانتها، وليس في حوزتهم أية مدافع مضادة للطائرات أو الدبابات، أما سلاح الإشارة فساذج، والرادار شيء لا تدري به، كما أن جنودها ليس لديهم التأهيل الكافي لإدراك هذه التطورات الحديثة.

أما بلغاريا فقد قامت ألمانيا بتسليحها بكميات ضخمة من العتاد من شتى الأنواع التي غنمتها من فرنسا والبلاد المنخفضة بعد معارك سنة ١٩٤٠، وبهذا أمكن لألمانيا أن تجد فائضًا من العتاد تسلح به حلفاءها، أما نحن فقد خسرنا كثيرًا في دنكرك، وكان علينا أن ندعم قواتنا لنصد أي هجوم على الوطن ونجابه أقسى الغارات على مدننا، في الوقت الذي نواصل فيه القتال في الشرق الأوسط، وبهذا لم يكن في مقدورنا أن نبذل الكثير ولا أن نضحي مما يلزمنا.

وهكذا نرى أن الجيش التركي في تراقيا، سيكون بالنظر إلى هذه الظروف في حالة سيئة، وربما يائسة تجاه الجيش البلغاري، فإذا ضاعف هذا الخطر أسراب من سلاح الجو الألماني ووحدات من السلاح المدرع، فإن مهام تركيا ستصبح فوق المستطاع.

وفي هذه المرحلة المهددة بخطر امتداد الحرب كان الأمل الوحيد هو خلق كتلة واحدة تضم جيوش يوغوسلافيا واليونان وتركيا، وكان هذا ما نسعى إلى تحقيقه وتمثل عوننا لليونان في إرسال بعض الأسراب الجوية من مصر عندما بدأ موسوليني زحفه عليها، واقتصرت المرحلة التالية على تقديم عرض بإرسال وحدات فنية وقد رفضه اليونانيون، الأسباب أحسبها معقولة جدًا، وها نحن أولاء نقدم على المرحلة الثانية حيث رأينا أن في وسعنا حشد جيش صحراوي قوي في بنغازي وفيما وراءها، لتوفر الجزء الأعظم من قوات المناورة والاحتياط الاستراتيجي لمصر.

وكنا إلى ذلك الوقت لم نقدم على أية خطوة سوى تركيز معظم الاحتياطي الاستراتيجي من قواتنا في الدلتا، ورسم الخطط والاستعداد الملاحي لإرسال قوات إلى اليونان، وإذا تغيرت الظروف بحدوث تغير في وجهة النظر اليونانية أو لأي أسباب أخرى فسنقدر على مواجهة الوضع ومقابلة الطوارئ، وكان من المحتم علينا بعد كل الذي لقيناه من ضغط شديد أن نستطيع إنهاء القتال بنجاح في الحبشة والصومال واريتريا، وأن نضم عددًا من الفرق إلى قواتنا المرابطة في مصر، وفي الوقت الذي صعب فيه معرفة نوايا العدو، أو مدى ردود الفعل ونوعها عند الأصدقاء والمحايدين، اتسع مجال الاختيار أمامنا وظل المستقبل بالنسبة إلينا في غاية الغموض، ولكننا لم نبعث بقواتنا بعد ولم نضيع أي يوم في الإعداد.

معركة الأطلنطي

الشيء الذي أثارني حقًا في غضون الحرب كان هو تهديد الغواصات، فقد كنت متأكدًا من فشل الغزو، وقد مهدت ليقيني هذا نتائج المعركة الجوية فقد أحرزنا النصر الجوي، وبذلك أصبح الغزو شيئًا طيبًا بالنسبة لنا، حيث يخوض الإنسان معاركه برضى بغض النظر عن شناعة الحرب وقسوة ظروفها، ونحن الآن نواجه خطرًا شديدًا، إذ أن شريان حياتنا حتى في غمار

المحيطات، وخصوصًا في مداخل جزرنا يهدد باستمرار، وكان القلق ينتابني من جراء هذه المعركة أكثر مما لقيته وأشد حين خضنا غمار المعركة الجوية المجيدة في سماء بريطانيا.

واستولى هذا القلق أيضًا على الأميرالية الذين كنت دائمًا معهم في ود وتفاهم مستمرين، وكان يتحتم علينا حماية شواطئنا من أي غزو واستمرار خطوط مواصلاتنا مع العالم الخارجي حرة دائمة، وكان هذا العمل واجبًا مقدسًا يقتنع به أسطولنا ويحرص عليه، وهكذا كنا دائمي التفكير والبحث في هذه الأزمة، وليست هذه المعركة قتالاً عنيفًا أو أعمالاً خلابة ولكنها عبارة عن أرقام ومخططات ورسوم بيانية لا يستطيع الشعب ولا الجماهير معرفتها ولا تفهمها.

فإلى أي مدى تستطيع أن تصيب به حرب الغواصات وإرادتنا وملاحتنا، وهل في وسعها أن تصل إلى حد القضاء على مقومات حياتنا، وهنا لا يتسع المجال للحدس ولا للعواطف ولكنه يقتضي التخطيط الهادئ الدقيق ورسم الخرائط التي توضح احتمالات خنق حياتنا، فإذا ما عقدنا مقارنة بين نتائج هذه الحرب ونتائج الحروب الأخرى ظهر لنا أن لا قيمة للجيوش المستعدة للوثب على الغزاة، ولا لما أعد من خطط جيدة لمعركة الصحراء، كما أن لا جدوى من الروح المعنوية العالية التي يتحلى بها شعب في مثل هذا الخضم المظلم، وليس لنا أن نختار فإما أن نحصل على الغذاء والمؤن والسلاح من العالم الجديد ومن الإمبراطورية، وإما أن نحصل على شيء من ذلك، أما الألمان فبعد أن استطاعوا السيطرة على سواحل فرنسا من دنكرك إلى بوردو لم يضيعوا وقتهم عبثًا، بل سارعوا إلى إقامة قواعد لغواصاتهم والطائرات المقاتلة على مدى الساحل المحتل، وبعد شهر يوليو اضطررنا إلى تحويل ملاحتنا من مداخل أيرلندا الجنوبية، حيث لم نستطع حشد طائرات مقاتلة، وفرض علينا أن تدور كل سفننا حول أيرلندا الشمالية، وقد ظلت الستر هنا صامدة بعون الله كحارس لا ينام، فميرس وكلايد هما رئتان بدونهما لا نستطيع استنشاق

الهواء. واستمرت البواخر الصغيرة تمر قرب الشاطئ الشرقي وشواطئ القناة على الرغم من تهديد الغارات الجوية، وهجمات زوارق الطوربيد الألماني. فضلاً عن الألغام المبثوثة في كل مكان، ولكن مرور كل قافلة بين فيرث أوف فورث ولندن وحده قد أصبح عملية يومية في غاية الصعوبة.

وأصبحت الأضرار التي لحقت بملاحتنا التجارية فادحة، في مدة الاثنى عشر شهرًا من يوليو ١٩٤٠ إلى يوليو ١٩٤١، وهو التاريخ الذي كنا نستطيع أن نؤكد فيه أنباء انتصارنا في معركة الأطلنطي، وكان أشد الأسابيع علينا منذ نشب القتال هو الأسبوع الذي ينتهي بيوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٤٠، وفي خلاله منينا بغرق حمولة أكثر من أية حمولة خسرناها في ظروف مشابهة من عام ١٩١٧ وتزايد الضغط علينا باستمرار، بينما الخسائر كانت تربو على أعداد البواخر الجديدة التي نسرع في بنائها بصورة مذهلة، أما موارد الولايات المتحدة الهائلة فقد كانت تقترب من ميدان العمل ببطء وعلى هوادة، ولم يكن احتمالنا أن نرث فجأة عددًا من السفن كتلك التي غنمناها بعد استسلام النرويج والدانمارك والبلاد المنخفضة في ربيع سنة ١٩٤٠، فقد فقدنا سبعًا وعشرين باخرة أغلبها كان في قافلة محروسة، ثم منينا بقافلة أخرى في شهر أكتوبر بالأطلنطي، غرقت منها اثنتان وعشرون من بواخرنا التي يبلغ مجموعها أربعًا وثلاثين، ومع مرور أيام شهري نوفمبر وديسمبر بدأت مداخل ومصبات الأنهار كالميرس وكلايد تمثل خطرًا أشد من أية عوامل أخرى في الحرب، وكنا نستطيع آنذاك أن ننزل على أيرلندا ديفاليرا وأن نعيد إلينا بالقوة السيطرة على الموانئ الجنوبية. ولكني أعلنت سابقًا أنني لن أتخذ خطوة كهذه إلا دفاعًا عن النفس، وعلى أية حال لم تكن مثل هذه الخطوة الجريئة العنيفة لتخفف شيئًا من حدة الموقف وقسوته، وكان الإجراء الوحيد هو أن نضمن حرية الدخول والخروج من نهري الميرس والكلايد وإليهما، وكانت القلة العارفة بحقيقة الموقف عندما تجتمع في كل يوم ينظر كل منهم إلى الآخر، وفي استطاعة الإنسان أن يدرك حالة الغواص تحت سطح البحر وهو

يعتمد من دقيقة إلى الأخرى على الأنبوبة الهوائية الممتدة للخارج، ومدى شعوره حين يرى مجموعة من كلاب البحر تحاول أن تمزق له هذه الأنبوبة، بالإضافة إلى أنه لا يجد فرصة للوصول إلى السطح لأن الواقع أن ليس هناك سطح بالنسبة إلينا، ولم يكن الغواص سوى ستة وأربعين مليونًا من البشر في جزيرة غاصة بالسكان، يستمرون في عمل كبير وشاق هو الحرب في شتى أنحاء العالم، وقد استقر هذا الغواص بحكم الطبيعة والجاذبية في قاع البحر. وماذا يمكن لكلاب البحر أن تصنعه بأنبوبة هوائية، وكيف يستطيع إقصاءها عنه أو تحطيمها؟..

وثمة جانب آخر لحرب الغواصات، فقد كانت الأميرالية في بداية الأمور تركز اهتمامها قبل كل شيء في إيصال البواخر سليمة إلى الميناء ويحدد نجاحها قلة عدد البواخر الغارقة، ولكن هذه التجربة لم تعد الآن ملائمة، فقد أصبحنا نعرف أن حياة هذه البلاد وجهودها الحربية يركزان بصورة ثنائية على حمولة الواردات التي يتم إنزالها على الميناء في سلام، ففي الأسبوع الذي انتهى بيوم ٨ يونيو أي في غمار معركة فرنسا وقصة إنقاذها. استطعنا أن نوصل للبلاد حمولة مليون وربع مليون طن، فضلاً عما نستورده من الزيت، وقد تدرجت الأرقام في الهبوط من هذه الذروة حتى نهاية يوليو إلى أقل من ثلاثة أرباع المليون طن كل أسبوع، وفضلاً عما أصابنا من تحسن في شهر أغسطس فقد كان المعدل الأسبوعي لا يزال في هبوطه، ولم يتعد طيلة الشهور الثلاثة الأخيرة من العام ثمانمائة ألف طن في الأسبوع، وأصابني هذا الهبوط المشئوم في الواردات بقلق شديد وأرسلت إلى لورد البحر الأول في منتصف شهر فبراير سنة ١٩٤١ رسالة بخط يدي أقول فيها "أن الأرقام تشير إلى أن وصول البواخر المحملة في شهر يناير كان أقل من نصف ما وصل إلينا في مثل هذا الشهر من السنة الماضية".

ونظرًا لوسائل التأمين الكثيرة وتقدمها وتسيير السفن، وتحويل الطرق البحرية ومحاولات تطهير البحر من الألغام المبثوثة، وعدم إبحارنا في المتوسط

وامتداد طرق مواصلاتنا في الزمن والمسافة، والتخلف في الموانئ نتيجة للغارات الجوية وعمليات التعتيم، كل ذلك أدى إلى هبوط إنتاج حركتنا الملاحية إلى حد مزعج تفوق خطورته كل ما أصبنا به من أضرار، وازدحمت موانينا يومًا بعد يوم بالبواخر التي يتأخر تفريغ شحناتها ولم يأت شهر مارس حتى غدت البواخر المصابة تبلغ حمولتها حوالي مليونين وستمائة ألف طن، لا يستطيع أكثر من نصفها مباشرة العمل لما يلزمها من استصلاحات.

وفوق خطر الغواصات دهمنا خطر آخر تمثل في الطائرات التي تذهب إلى أعماق المحيط تبحث عما تفترسه من البواخر، وكانت الفوكاوولف ٢٠٠ "المعروفة باسم كوندور" هي أشد هذه الطائرات خطورة، وإن كان عددها قليلاً من بداية الأمن لحسن حظنا، وفي مستطاع هذه الطائرات أن تقلع من بريست أو بوردو لتقوم بجولة على شواطئ الجزر البريطانية ثم تتزود ثانية بالوقود من النرويج لتثوب في اليوم التالي إلى مقرها الأول، وفي وسع هذه الطائرات في الذهاب والعودة أن تبصر قوافلنا الكبيرة تحتها المكونة من أربعين أو خمسين باخرة، أرغمنا على تسييرها في قافلة واحدة بالنظر إلى قلة ما تجده من وحدات الحماية، وهي تقوم برحلاتها من الجزر البريطانية وإليها داخلة وخارجة، وفي مقدور هذه الطائرات أن تسقط على هذه القوافل أو البواخر المنفردة قذائف ماحقة وأن ترسل في ذات الوقت إشارات لاسلكية للغواصات المتحفزة لتوجهها إلى قطع الطريق عليها.

ودب النشاط في الطرادات الألمانية العنيفة، فالأميرال شير تعمل الآن في جنوب الأطلنطي متوجهة إلى المحيط الهندي، وقد استطاعت خلال ثلاثة أشهر إغراق عشر بواخر تبلغ حمولتها ستين ألف طن، ثم تمكنت من الإفلات والرجوع إلى ألمانيا، وكانت "هيبر" لاجئة في ميناء بريست، وفي نهاية شهر يناير تلقت البارجتان - الطرادتان شانهورست وغنيزناد - بعد أن تم قبل قليل إصلاحهما لحق بهما من تعطيل في معركة النرويج، تلقتا أمرًا بالمسير إلى شمال الأطلنطي، بينما تقوم "هيبر" بالإغارة على الطريق البحري الممتد إلى

سيراليون واستطاعت الطرادتان خلال شهرين إغراق أو أسر اثنتين وعشرين باخرة تبلغ حمولتها مائة وخمسة عشر ألف طن، أما "هيبر" فقد أغارت على قافلة في طريقها إلى الوطن بالقرب من جزر الأزور، ولم تكن لحقت بها وحدات للحماية بعد، واستطاعت في إغارتها الوحشية التي استمرت زهاء ساعة كاملة إغراق سبع بواخر من تسع عشرة باخرة تألفت منها القافلة دون أن تحاول قط إنقاذ الناجين من البحر، ثم أتت سالمة بعد يومين إلى بريست، وقد اضطرتنا هذه الطرادات المفزعة إلى أن نحشد كل ما لدينا من بوارج حربية ضخمة في تأمين القوافل، وقد مضى وقت ولم يكن في قاعدة القائد العام لأسطولنا غير بارجة وحيدة.

ولم تكن بسمارك قد انضمت إلى البواخر المستخدمة بعد، ولا شك في أن الأميرالية الألمانية كانت ترقب إتمامها بصبر نافد، وإكمال قرينتها تيربيتز، ولم يكن هناك سبيل يمكن لهتلر أن يستخدم فيه بارجتيه الهائلتين بطريقة أكثر فائدة وجدوى من وجودهما على أهبة الاستعداد دائمًا في الأطلنطي، وإشاعة الامتناع عن خروجهما المحتمل من وقت لآخر، وكان مثل هذا العمل سيفرض علينا أن نركز قواتنا بقدر المستطاع في سكابافلو أو ضواحيها، لنكون كفئًا لاستعداده، بينما يظل هو حرًا تمامًا في اختيار وقت العمل، ولاضطرار البوارج لأن تذهب إلى قواعدها بين الحين والحين بسبب احتياجها إلى بعض الترميمات والإصلاحات، فقد كان يتعذر علينا دائمًا الاحتفاظ بمستوى من التفوق والكفاءة، فأي خطر مفاجئ كان كافيًا لتدمير هذه الكفاءة.

وظللت أفكر ليل نهار في هذه المشكلة المرعبة، وتجمع أملي في نصر مؤكد، في قدرتنا على إثارة حرب طويلة الآن إلى أن يأتي اليوم الذي نملك فيه التفوق الجوي، وتقف دولة كبيرة ـ كما هو المحتمل ـ إلى جانبنا، ولكن هذا الخطر الذي كان يقف بالمرصاد لأسباب حياتنا كان يفعمني ألمًا، وفي بداية شهر مارس نقل الأميرال باوند إلى وزارة الحرب أخبارًا عن ابتلاع البحر

لمجموعة أخرى من البواخر، واستمعت إلى الأرقام، ثم قلت لباوند بعد هذا الاجتماع الذي تم في غرفتي بمجلس العموم: "علينا أن نضع هذه المشكلة في اعتبارانا وأن نهتم قبل أي شيء آخر، وسأعلن بداية حرب الأطلنطي" وأشبه هذا الإعلان بإعلان السابق عن معركة بريطانيا منذ تسعة أشهر، ويعني ذلك الإيعاز إلى كافة الدوائر والوزارات المختصة بتركيز اهتمامها وجهودها على حرب الغواصات.

وأنشأت "لجنة معركة الأطلنطي" لرغبتي في متابعة هذه المشكلة وإعطائها مزيدًا من العناية والاهتمام، ولأستطيع باستخدامها توجيه التعليمات الضرورية لإزالة المصاعب والعقبات وفرض العمل على معظم الدوائر والفروع المختصة، وبدأت هذه اللجنة في اجتماعات أسبوعية يشترك فيها كل الوزراء المنفذين المعنيين من عسكريين ومدنيين، ويمتد الاجتماع الأسبوعي إلى ساعتين ونصف تقريبًا، نستعرض خلاله كل أمر، ونبحث في كل موضوع، بل نقتل المشكلة بحثًا وتمحيصًا، لننتهي إلى قرارات واضحة، وهكذا وجدت هذه اللجنة الجديدة التي كوناها من الدوائر الواسعة لقيادتنا الحربية التي تضم الألوف من الرجال ذوي الخبرة والولاء، والتفت حول هذه اللجنة مئات العيون الفاحصة القلقة.

وفي هذه الآونة أخذت الغواصات تستخدم طرقًا جديدة أصبحت تعرف بأسلوب (جماعات الذئاب) ويعني هذا الأسلوب أن تشترك مجموعة من الغواصات في عمل واحد، وأن تنقض على الفريسة دفعة واحدة من جوانب مختلفة، وكانت هذه الهجمات آنذاك تشن ليلاً، وعلى سطح البحر، وفي غاية السرعة، وكان في مقدرة المدمرات وحدها أن تلحق بهذه الغواصات، بينما لم تكن أجهزة المكافحة ذات جدوى، وكان الحل يتمثل في زيادة عدد الحارسات السريعة كالغواصات، وفي تحسين الرادار بصورة جوهرية، بحيث تقدر شاشته على إنذارنا باقتراب الغواصات قبل وصولها، وأخذ العلماء والبحارة والطيارون يبذلون كل ما في استطاعتهم، وبرغم ذلك كانت النتائج

تمشي علَى مهل، وكنا في احتياج إلى سلاح جوي ينسف الغواصات العائمة، وإلى وقت ندرب خلاله قواتنا على ذلك، فإذا ما توصلنا إلى سد هذين الاحتياجين فإن الغواصات ستمضي إلى الأعماق كوضعها المعتاد، ويصبح في مقدورنا معالجة ذلك بوسائلنا القديمة وخبراتنا التي مهدنا عليها، لكن هذا لم يتحقق إلا بعد مرور عامين.

وفي خلال ذلك كان برايان المعروف وسواه من قادة الغواصات الألمانية يستخدمون في اندفاع أسلوب (جماعات الذئاب) الذي أنتجه الأميرال دونتس قائد سلاح الغواصات، وقبطان الغواصات الذائع الصيت في الحرب العالمية الأولى، ولكن عدالة القصاص لم تمهلهم، فقد غرق برايان مع جميع رجاله على ظهر غواصته (يد ٤٧) في ٨ مارس بواسطة المدمرة وولفيرين، وما مرت تسعة أيام حتى نزل الغرق بالغواصتين (يو ٩٩ ويو ١٠٠) في قتال اشتد أواره عقب مهاجمتها لإحدى القوافل، وكان قائداهما من ألمع الضباط البحريين، فأدى فقدان هؤلاء الثلاثة الممتازين إلى ضعف هجوم الغواصات، وكان القادة الذين تبعوهم إلى العالم الثاني من طراز كفاءة وشجاعة، ففي شهر مارس غرقت خمس غواصات في المداخل الغربية، وبرغم أن هجوم الغواصات قد ألحق بنا أضرارًا بالغة، تمثلت في (٢٤٣) ألف طن، غير (١١٢) ألف طن تكبدناها على أيدي الطائرات، فإن الجولة من معركة الأطلنطي قد انتهت بنتيجة متعادلة بيننا وبين العدو.

ولما رأت الغواصات خسائرها الفادحة في المداخل الغربية، اتجهت إلى الغرب أي إلى المياه التي لا يمكن للمدمرات الكثيرة أن تصل إليها بالنظر إلى حرماننا من موانئ أيرلندا الجنوبية، والتي لا نقدر على حمايتها جويًا بالنظر إلى بعدها، ولم يكن في مقدور مدمراتنا أن تحرس قوافلنا المقلعة من المملكة المتحدة في طريقها إلى هاليفاكس غير مسافة ربع الطريق فقط، وفي بداية شهر أبريل أغارت أرتال من الغواصات بطريقة (جماعات الذئاب) على قافلة بريطانية عند خط الطول ٢٨ درجة غربيًا، قبل أن تلحق بها الوحدات المدافعة

عنها، وقد غرقت عشر بواخر من اثنتين وعشرين مقابل غواصة واحدة، واضطرنا إلى أن نبحث عن وسائل كافية لحمايتنا، وإلا فإن نهايتها ستكون قريبة.

وتقع جزر نيوفوندلند وغرينلند وأيسلندا بين كندا وبريطانيا العظمى، وهذه الجزر جميعها تقع بالقرب من جناح الدائرة الكبرى بين هاليفاكس وسكوتلندا، وفي استطاعة قوات تكمن في (نقطة الوثب) هذه أن تسيطر على الطريق كله بعد توزيعه إلى قطاعات، وكانت غرينلند لا يوجد بها أي مورد، أما الجزيرتان الأخريان فالإفادة منهما مستطاعة، وكان من الأقوال الشائعة "أن من يسيطر على أيسلندا وبيده مسدس يمكنه أن يسدده في ثقة إلى إنجلترا وأمريكا وكندا" وكانت هذه الفكرة هي التي دفعتنا إلى احتلال الجزيرة بعد موافقة الأهالي عندما احتل الألمان الدانمارك في عام ١٩٤٠، وأقمنا فيها قواعد في إبريل عام ١٩٤١ لفرق حراستنا البحرية وطائراتنا، وبهذه الطريقة امتد اتساع حراستنا السطحية إلى خط الطول (٣٥) درجة غربًا، وبالرغم من ذلك فقد بقيت هناك ثغرة مروعة في الغرب، لم يكن في مقدورنا آنذاك سدها، وفي شهر مايو أغير على قافلة آتية من هاليفاكس عند خط الطول (٤١ غربًا) وخسرنا تسع بواخر، قبل أن تلحق النجدة بالقافلة.

وبدا من المحتم علينا فرض الحماية من الطرف إلى الطرف أي من كندا إلى بريطانيا، ولهذا طلبت الأميرالية في ٢٣ مايو من حكومتي كندا ونيوفولاند إعداد ميناء سنت جون في نيوفوندلاند كقاعدة أمامية لوحدات الحراسة المشتركة، وكانت الاستجابة سريعة، فلم تأت نهاية الشهر حتى تحققت الحراسة الدائمة على طول الطريق، ومنذ ذلك الوقت تعهد الأسطول الملكي الكندي بأن يقوم بحماية القوافل في القطاع الغربي من طريق المحيط، بإمكانياته وحدها، وكان في استطاعتنا أن نضمن من أيسلندا ومن بريطانيا العظمى حماية كافية على باقي الطريق، ومع ذلك فقد ظلت القوات التي لدينا قليلة إلى درجة مزعجة، واستمرت خسائرنا في التزايد، وقد

استطاعت الغواصات وحدها في الأشهر الثلاثة المنتهية بآخر مايو إغراق ١٤٢ باخرة تبلغ حمولتها ٨١٨.٠٠٠ طن منها ٩٩ باخرة بريطانية.

وفي غمار هذا التوتر الشديد، قام الرئيس روزفلت ـ بمقتضى السلطات التي خولها له الدستور الأمريكي، ولأنه القائد الأعلى للقوات المسلحة ـ بمد يد المعونة العسكرية لنا، فقد أصدر أمرًا بعدم السماح للغواصات الألمانية والسفن الأخرى المهاجمة بأن تقترب من الساحل الأمريكي، وأن يضمن له وصول الذخائر التي كان يرسلها إلى بريطانيا سالمة حتى منتصف الطريق على الأقل، وتمخض عن الخطط التي كانت قد أعدت منذ زمن طويل مشروع يقتضي بأن تتضامن الدولتان الناطقتان بالإنجليزية في حماية المحيط الأطلنطي، ولإقناعنا بوجوب إقامة قاعدة لنا في أيسلندا، فقد بادر الرئيس روزفلت إلى اتخاذ الخطوات اللازمة لإقامة قاعدة جوية أمريكية في جرينلند، وكان من المسلم به أن الألمان أنشئوا محطات لرصد الأحوال الجوية على الشاطئ الشرقي من الجزيرة في مواجهة أيسلندا، ولهذا أتى عمل الرئيس في وقته المناسب، وأصدر الرئيس أوامره الأخرى التي تقضي بأن تتوجه السفن المصابة في معارك البحر المتوسط أو غيره من البحار لإجراء عمليات إصلاحها في الأحواض الأمريكية، مما يسر الكثير من العبء الملقى على أحواضنا.

وفي مطلع شهر أبريل وصلتنا أنباء رائعة، فقد تلقيت برقية من الرئيس في ١١ أبريل يخبرني فيها أن أمريكا قد قررت توسيع دائرة أمنها التي تجوب فيها دورياتها، وهو الإجراء الذي اتخذته منذ أن نشبت الحرب، إلى خطر يمر بكل مناطق شمال الأطلنطي الواقعة إلى الغرب من خط الطول ٢٦ درجة غربًا، وتحقيقًا لهذه الغاية فهو يقترح أن تستخدم الطائرات والقطع البحرية العاملة من غرينلند ونيوفوندلند ونوفاسكوشيا والولايات المتحدة وبرمودا وجزر الهند الغربية مع توقع امتداد ذلك إلى البرازيل، وحثنا على أن تصله تحركات قوافلنا في طريقة غاية في السرية (لنتمكن بمجموعات دورياتنا من التنقيب عن سفن الأعداء أو طائراتهم التي تعمل إلى الغرب من خط منطقة الأمن

المذكورة) ومن جهة أخرى سيسرع الأمريكيون في الإعلام بالمناطق التي تحدد دورياتهم وجود السفن أو الطائرات المعادية فيها، وقد أرسلت هذه البرقية مباشرة إلى الأميرالية وأنا أشعر بارتياح بالغ.

وأعلنت حكومة أمريكا في ١٨ أبريل خط الحدود الجديد الذي يفصل بين نصف الكرة الأرضية الغربي ونصفها الشرقي، وهو الذي أشار إليه الرئيس في برقيته السابقة، ومنذ ذلك التاريخ أصبح هذا الخط هو الحدود البحرية لأمريكا، وقد شملت الممتلكات البريطانية التي تقع في القارة الأمريكية أو بالقرب منها، وغرينلند وجزر الأزور ثم شملت بعد قليل أيسلندا كذلك، وأكد هذا القرار أيضًا أن السفن الحربية الأمريكية ستقوم بأعمال الدورية في مياه نصف الكرة الغربي، وسترسل إلينا مباشرة عن أي تحركات معادية، لكن أمريكا حرصت على موقف الحياد، ولم يكن في مقدورها آنذاك أن تضفي حمايتها على قوافلنا، فظلت بريطانيا وحدها تضطلع بعبء هذه المشكلة طيلة الطريق.

وكانت سياسة الرئيس الجديدة بعيدة النتائج، واستمر نضالنا، وقد خف عبء كبير من أعبائنا ليقوم به الأسطولان الكندي والأمريكي، وبدأت أمريكا رويدًا رويدًا تقترب من حلبة الصراع، وقد قوى هذا التيار العالمي اختراق البارجة بسمارك الأطلنطي في نهاية شهر مايو، فعلى أثر ذلك أعلن الرئيس في ٢٧ مايو - وهو التاريخ الذي غرقت فيه بسمارك - أن انتظارنا حتى يدهمنا الخطر نوع من الانتحار، ولهذا فقد وسعنا أعمال دورياتنا شمالاً وجنوبًا في مياه الأطلنطي، وما كاد الرئيس ينهي خطابه حتى أعلن في البلاد "حالة الطوارئ لأجل غير مسمى".

وليس هناك أي برهان على أن الألمان قد هزتهم هذه الخطوات من قبل أمريكا، فقد أراد الأميرالان ريدر ودونتس أن يصدر الفوهرر أمرًا بتوسيع المجال للغواصات الألمانية، ويطلق لها حرية العمل في اتجاه الساحل الأمريكي

وضد البواخر الأمريكية إذا سارت في قوافل أو بدون أضواء، ولكن هتلر ظل عنيدًا في موقفه، لأنه كان لا يأمن عاقبة الحرب مع أمريكا، ويصمم على أن تتجنب القوات الألمانية أي استثارة من هذا النوع.

ونتيجة لاتساع نشاط العدو لحقت به خسائر فادحة، ففي شهر يونيو كان للعدو فضلاً عن العدد الموجود تحت التدريب حوالي خمس وثلاثين غواصة في قلب البحر، وكان ما بعده من غواصات جديدة يزيد بكثير عما لديه من بحارة مدربين، ولا سيما القباطنة ذوي الخبرة والتجربة، وهكذا بدأ عدد بحارة غواصاته الجديدة يقل تدريجيًا وأصبحت غالبيتهم من الشبان قليلي الخبرة، ولذلك فقد فاتتهم الدقة والمهارة الكافيتان، وأدى شموال المعركة للأطراف البعيدة من المحيط إلى عدم استمرار التعاون المخيف بين الغواصات والسلاح الجوي، ولم يكن من قديم أعداد الطائرات الألمانية الكافية أو تدرب طياريها على العمل فوق البحر، ومع ذلك فقد استطاعت في خلال مارس وأبريل ومايو أن تغرق (١٧٩) باخرة حمولتها (٥٤٥) ألف طن، غرق معظمها في المناطق الساحلية، ومن بين هذه السفن عدد تصل حمولته إلى أربعين ألف طن غرق بسبب غارتين جويتين في غاية العنف على أرصفة ليفربول في بداية شهر مايو، وقد حمدت الله لأن الألمان لم يستمروا في شن هجماتهم على هذا الجانب الواهن، وفي الوقت نفسه استمر خطر الألغام الممغنطة مسلطًا على سواحلنا غامضًا وخداعًا، ينزل بنا أفدح الخسائر، وإن كانت قد بدأت تقل شيئًا فشيئًا، وقد نهضنا بقواعدنا في أيسلندا وكندا ودعمناها فورًا، ووضعنا مخططات قوافلنا على هدى من هذا الإعداد، وضاعفنا الطاقة الوقودية لمدمراتنا القديمة كما وسعنا مجال تحركاتها، وخاضت القيادة المشتركة التي كونت حديثًا في ليفربول بكل إمكانياتها غمار المعركة، ومع تزايد المدمرات الحارسة بالإضافة إلى خبرة بحارتها استطاع الأميرال نوبل تقسيمها إلى وحدات دائمة، لكل وحدة منها قائد معين، وتقوت روح العمل الجماعي وتعود الرجال الاتحاد والتفاهم على العمل، مع إدراك عميق لوسائل قائدهم،

وهكذا أصبحت وحدات المدمرات تخطو نحو القوة والمنعة، بينما بدأت قوات الغواصات تتحدر إلى هاوية الضعف والوهن.

ولم يأت شهر يونيو حتى كنا قد صعدنا إلى درجة التفوق، وكنا نبذل كل جهد لتطوير أسلوب قوافلنا، وتدعيم الدفاع عنها، وتحسين الأسلحة والاختراعات الحديثة، وكانت احتياجاتنا الضرورية تتمثل في حيازة عدد أكبر وأسرع من سفن الحراسة، بشرط قدرتها على تحمل لوازم الوقود لأطول زمن ممكن وإنشاء أكبر عدد من الطائرات ذات المدى بعيد، ورادار على جانب كبير من الكفاية والصلاحية، ولم تكن الطائرات المقاتلة في القواعد الساحلية تستوفي الشروط المطلوبة، بل ظلت القوافل في احتياج لطائرات تحملها البواخر لتنقض على أية غواصة تبدو على مدى إطلاق النار في وضح النهار، وتضطرها إلى أن تنسحب إلى أعماق المياه فيحال بينها وبين القتال، وأو لتخبر عنها القطع البحرية الأخرى فتصل إلى المكان في وقت مناسب وقد استطاعت في مدى قصير طائراتنا المقاتلة التي تطلقها أجهزة قاذفة أقيمت لهذا الغرض خاصة على ظهر البواخر التجارية العادية أو البواخر التي تحولت إلى بوارج وأمدها السلاح المليك بالرجال، استطاعت أن تواجه خطر طائرات "الفوكاولف" وكان الطيار المقاتل الذي ينطلق كصقر يطارد فريسة يعتمد في بداية الأمر على إحدى سفن الحراسة لإنقاذ حياته، وبهذا أصبحت "الفوكاولف" فريسة مطاردة بعد أن كانت الطائرة المنقض، وفرض غزو هتلر لروسيا على القيادة الألمانية توزيعًا جديدًا لقواتها، وهكذا بعد أن ارتفعت خسائرنا في شهر إبريل إلى القمة حتى بلغت ثلاثمائة ألف طن أسبوعيًا أخذت تهبط إلى خمس هذا الرقم في أشهر الصيف.

وقام الرئيس الآن بخطوة جديدة هامة، فقد رأى إنشاء قاعدة في أيسلندا، أن ترابط بموافقتنا وحدات أمريكية بها، بدلاً من القوات البريطانية. وفي ٧ يوليو وصلت الحامية الأمريكية إلى الجزيرة فأصبحت جزءًا من الدفاع عن النصف الغربي، وأخذت قوافل أمريكا تحت حماية بوارجها

تصل بصفة مستمرة إلى ريكجافيك منذ هذا التاريخ، وبغض النظر عن أن أمريكا لم تكن قد دخلت الحرب إلا أنها قد أصبحت تحمي البواخر الأجنبية مع قوافلها.

وفي قمة هذا الصراع، قمت بإصدار أمر تعيين، أحسبه أهم ما أصدرت من تعيينات وأحسنها حظًا في إدارتنا الحربية، ففي سنة ١٩٣٠ وقد كنت خارج الحكم قبلت لأول مرة ولآخر مرة في حياتي أن أكون عضوًا لمجلس إدارة إحدى الشركات، وكانت مؤسسة فرعية لمنظمة اللورد إنشاب الخاصة بخطوط الملاحة الشرقية والهندية، وظللت مداومًا ثماني سنوات على حضور الاجتماع الشهري الذي يعقده مجلس إدارة الشركة، وحريصًا على تأدية واجباتي نحوها حرصًا تامًا، وخلال الجلسات تعرفت شيئًا فشيئًا برجل من ألمع الشخصيات، كان يرأس حوالي ثلاثين أو أربعين شركة، كانت واحدة منها ولعلها أصغر الجميع الشركة التي كنت أحد أعضاء مجلس إدارتها، وقد عرفت على التو أن فردريك ليثرز هو الرأس المدبر والقوة الموجهة لهذه المنظمة بأكملها، وكان واسع المعرفة، ويمتلك الثقة به امتلاكًا، ومكثت ألاحظه عامًا بعد عام من منصبي المتواضع في الشركة التي يرأسها، وكثيرًا ما حدثت نفسي: "إذا نشبت حرب أخرى فهذا هو الرجل الذي في وسعه أن يقوم بالدور العظيم الذي أداه كبار رجال الأعمال الذين كانوا رهن توجيهي في وزارة الذخائر خلال عامي ١٩١٧، ١٩١٨.

وكان ليثرز قد أبدى استعداده لوزارة الملاحة لدى قيام الحرب في سنة ١٩٣٩م في المساهمة بخدماتها، ولم تقم بيننا صلة وثيقة حينما كنت في الأميرالية لأن المهام التي كان يقوم بعبئها فنية وليست توجيهية، أما الآن في سنة ١٩٤٠م عندما واجهت صعوبات معركة الأطلنطي، وكنا في أمس الحاجة إلى تنسيق الأعمال بين إدارة شئون باخرتنا التجارية وبين تحركات تموينا بالسكك الحديدية والسيارات من موانينا المجهدة، فقد لمع اسمه في ذاكرتي، وتنبهت إليه في مايو، وبعد مشاورة طويلة نظمت من جديد وزارتي

الملاحة والنقل في جهاز واحد متكامل، وعهدت إلى ليثرز رئاسته، ولأعطي له إمكانيات السيطرة اللازمة عليه أوجدت منصب وزارة النقل البحري ووليته عليها، وكنت أحس بحرج شديد أمام مجلس العموم حين أقفز بأشخاص إلى أعلى المناصب الوزارية دون أن يكونوا قد نموا داخل المجلس ومكثوا به بضع سنين، وتستبد الرغبة بالأعضاء المحنكين من غير أعضاء الوزارة لأن يعملوا على مضايقة كل قادم جديد، فيجد نفسه بدون أية مناسبة متضايقاً من إعداد الخطب وإلقائها في المجلس، لذلك رجوت العرش أن يتفضل بمنح الوزير الجديد لقب "لورد".

وأصبح اللورد ليثرز منذ ذلك التاريخ حتى انتهاء الحرب قائماً بالإشراف الكامل على وزارة النقل الحربي، وصار اسمه يصعد رويداً رويداً، وقد استطاع أن يحرز ثقة رؤساء أركان الحرب وجميع أركان الحرب وجميع الوزارات في الوطن، ووثق صلاته بالأمريكيين اللامعين في ذلك الميدان، وكان على صلة طيبة وفي غاية النجاح بالمستر لويس دوفلاس رئيس مجلس الملاحة الأمريكي، الذي غدا بعد ذلك سفير بلاده في لندن، وفي استطاعتي أن أقرر أن ليثرز كان مساعداً هاماً لي على تصريف شئون الحرب، وقل أن عجز هذا الرجل ذو الكفاءة الممتازة عن القيام بأعباء المهمات التي كنت ألقيها على عاتقه.

وحينما كانت تفشل الوسائل الوزارية أو الأركانية في تصريفها لبعض الشئون كنقل فرقة إضافية أو تحويلها من البواخر البريطانية إلى الأمريكية، أو نجاز بعض المهمات العجلة كنت ألتمس عوناً شخصياً، وعلى التواجد هذه التعقيدات قد حلت وكأنما مستها يد ساحرة.

ورابطت البارجتان ـ الطرادتان الألمانيتان شار نهورست وغنيزناو ـ في بريست طيلة هذه الأشهر القاسية، وكان انطلاقها إلى الأطلنطي محتملاً في أية لحظة، وبفضل السلاح الجوي الملكي شل نشاطهما فقد استمرت طائراتنا

تشن الهجوم عليهما وهما في الميناء، منزلة بهما أفدح الأضرار، مما تركهما عاطلتين عن العمل طيلة العام، وقد توجه انتباه العدو إلى إعارتهما لألمانيا ولكنهما عجزا عن تحقيق ذلك أيضًا حتى عام ١٩٢٤، وسنعرف في اللحظة المناسبة مقدار نجاح أسطولنا وقيادة سلاحنا الجوي الساحلي، وكيف أصبحنا مسيطرين على الموقف في المداخل وكيف باتت الغواصات تنهار في نفس البحار التي عملت على تدميرنا فيها، إلى أن استطعنا ثانية بأسلحتنا تطهير مداخل الجزر البريطانية.

نيميسيس آلهة الثأر السوفيتية

تقول الأساطير "أن نيميسيس آلهة غاضبة تنزل النقمة بكل خط يتجاوز الحدود، وتحد من غلواء كل مغرور، وثأر من كل من يقترف جريمة نادرة الوقوع".

وعلينا هنا أن نضوح تمامًا ما ترددت في هالحكومة السوفيتية من أخطاء فاضحة، وغرور مأفون قدرت على أثره الموقف هي وجهازها الشيوعي الضخم، وأن نكشف ما كان يسودها من جهل أبعدها عن إدراك حقيقة موقفها.

وكانت هذه الحكومة قد أبدت عدم اهتمامها بمصير الدول الغربية على الرغم من أن هذا لا يعني سوى تحطيم الجبهة الثانية التي قامت بعد ذلك بقليل للمطالبة الملحة بها، وظهر أن هذه الحكومة لم يدر في خاطرها أن هتلر قد عقد العزم منذ شهور ستة على تدميرها، وإذا كانت مخابراتها قد أوصلت إليها أنباء انتشار القوات الألمانية على مدى واسع في اتجاه الشرق، وقد أخذ يتضاعف يومًا بعد يوم، فإنها تكون قد تغافلت عن اتخاذ إجراءات حاسمة لمواجهته، فها هي ألمانيا تحت رضائها تجتاح البلقان بأكمله، وحكومة السوفييت تنكر الديمقراطيات الغربية وتستهين بها، ولكن كأن في استطاعتها أن تؤازر بريطانيا في تكتيل دول البلقان الأربع، تركيا، ورومانيا،

وبلغاريا ويوغوسلافيا في حلف واحد لمقاومة هتلر بالنسبة لأن هذه الدول تعتبر ذات أهمية خاصة لأمنها وسلامة حدودها، ومع ذلك فقد رضيت بأن تنهار وأن تجتاحها الفوضى والاضطراب، وأن تختفي واحدة بعد واحدة عدا تركيا من الوجود، وقد تكون الحرب في مجملها مجموعة من الأخطاء، ولكني أشك فيما إذا كانت هناك جريمة أخرى تعادل في شناعتها ما ارتكبه ستالين وقادته السوفييت من جرم عندما تغاضوا عن كافة إمكانيات دول البلقان ولبثوا في حالة خمول وتراخ، أو جهل وحاجة لمزيد من الإدراك، ينتظرون الخطر الجامح الذي كان مسلطًا على رقبة روسيا، وكنا آنذاك نعدهم فئة من الأنانيين في تقديراتهم، ولكنهم أكدوا لنا في تلك الفترة أنهم سذج مغفلون كذلك، وكان علينا أن نرى في ميدان المعركة كل ما اشتهر عن "روسيا الأم" من شجاعة وقدرة على الحشد والاحتمال، ولكن بالنظر إلى الاستراتيجية والسياسة وتفهم الأمور، فقد بدا ستالين ورفاقه في هذه الفترة كأغبى الناس في تاريخ الحرب العالمية الثانية.

وكانت عملية "بربروسا" الذي أصدر بها هتلر تعليماته في ١٨ أكتوبر سنة ١٩٤٠ تتضمن الخطة لحشد القوى بصورة عامة كما وضحت التبعات الأولى للجيوش التي حشدها ضد روسيا، وكان كل عدد الوحدات الألمانية الموجودة في ألمانيا عند إصدار هذه التعليمات يزيد عن أربع وثلاثين فرقة، وزيادة هذا العدد إلى أكثر من أضعاف الثلاثة عمل هائل يدل على التخطيط والإعداد، استنفد الأشهر الأولى من سنة ١٩٤١، واحتاجت المغامرة البلقانية، التي رضي هتلر أن يخوض غمارها أن يوجه في شهر يناير وفبراير حوالي خمس فرق، من الشرق إلى الجنوب ثلاث فرق منها مدرعات، ولم يأت شهر مايو حتى كانت القوات الألمانية في الشرق قد وصل تعداد فرقها إلى سبع وثمانين، بينما كان هناك خمس وعشرون فرقة تواجه الموقف في البلقان، وإذا ما نظرنا جيدًا إلى ما ينطوي عليه غزو روسيا من أخطار، وما يلزمه من قوات، فقد كان من خطل الرأي تحويل الحشود لهذا العمل الخطير، وسنعرف بعد قليل كيف

أرغمت أحداث البلقان ومقاومتنا الصامدة هناك، ولاسيما ثورة يوغوسلافيا، أرغم كل ذلك هتلر على أن يؤجل مغامرته الكبيرة خمسة أسابيع أخرى، ولم يكن أحد يعرف مدى أهمية هذا التأخير وآثاره، إلا حين حل الشتاء، وما صبحه من تغيير في أقدار الزحف الألماني على روسيا، ومن الطبيعي أن يرى الإنسان أن الفضل لهذا التأجيل ي تجاه موسكو، وقد تم خلال شهر مايو وبداية يونيو سحب أغلب الفرق الألمانية المدربة تدريبًا جيدًا من البلقان إلى الجبهة الشرقية، وكان الألمان في إبان هجومهم يملكون مائة وعشرين فرقة من بينها سبع عشرة فرقة مدرعة واثنتا عشرة فرقة آلية، وتبعت ست فرق رومانية أخرى مجموعة القوات الجنوبية، وكان هناك ست وعشرون فرقة أخرى تجمعت أو هي على وشك التجمع كقوات احتياطية، ولم يكد يطلع يوليو حتى كان لدى القيادة الألمانية فرصة استخدام مائة وخمسين فرقة على أقل تقدير، تسندها قوة السلاح الجوي الألمانية الضاربة، وتقدر بحوالي ألفين وسبعمائة طائرة.

وكان يخالجني الشك حتى شهر مارس في تصميم هتلر على قتال روسيا، ولم يدر بخاطري أن ذلك سيحدث قريبًا جدًا، وكانت مخابراتنا قد أمدتنا بمعلومات مفصلة عن تحركات الجيوش الألمانية الكبيرة في اتجاه دول البلقان، وهو ما شهدته الشهور الثلاثة الأولى من عام ١٩٤١. وكان في مقدور جواسيسنا الانتقال بحرية في تلك البلاد نصف المحايدة، وأن يواصلوا اطلاعهم الدقيق على تحركات الجيوش الألمانية الهائلة في التحركات كافة لم تكن تقطع الشك بأي محاولة من غزو روسيا، وكان من السهل تفسيرها برغبة ألمانية في المحافظة التامة على مصالحها برومانيا، وبلغاريا، وما تضمره نحو اليابان، وأوضاعها مع يوغوسلافيا والمجر، أما التقريرات عن التحركات الواسعة التي تقع عبر ألمانيا تجاه الجبهة الروسية أساسية وهي التي تمتد من رومانيا حتى البلطيق، فكانت أقل وأصعب تفهمًا مما سبق، وكان في

تفكيري أن فتح ألمانيا لجبهة رئيسية أخرى مع روسيا في هذه الآونة، وقبل أن تستقر الأوضاع في البلقان أمر يثير الدهشة حقاً، لأنه بعيد في غرابته.

ولم يحدث ما يشير إلى انتقاص القوى التي تواجهنا بها ألمانيا عبر المانش، فما يزال الهجوم الجوي الألماني على بلادنا في عنفوانه، وكان مجرد غفلة روسيا السوفيتية ثم قبولها أخيرًا لهذا التدفق الألماني على رومانيا وبلغاريا، والبراهين التي بين أيدينا على مدى العون الضخم الذي تمد روسيا ألمانيا، والاشتراك الواضح في مصلحة الدولتين حين تسحق الإمبراطورية البريطانية ويجتاح الشرق، كل هذا يوحي لنا بأن هتلر وستالين يفكران في صفقة مشتركة على حسابنا، ولن يقف أحدهما موقف العداء من الآخر، وها نحن الآن قد أدركنا أن هذه الصفقة كانت من بين آمال ستالين الواسعة التي طالما طافت بأحلامه.

وكان يتفق معي في هذه المشاعر والتقديرات أفراد لجنة للمخابرات، وقد حملوا إلى في ٧ إبريل أن أخبارًا تجوب الآن أنحاء أوروبا عن خطة ألمانيا في اجتياح روسيا، ولكنهم رأوا أن هذا الاحتمال مستبعد في الظروف الراهنة على الأقل، لأنه بالرغم من تدفق جيوش ألمانية ضخمة على الشرق، واحتمال قتال ألمانيا لروسيا في وقت آخر، فإن الوقت الحاضر غير ملائم لتخوض ألمانيا مع روسيا غمار معركة رئيسية، وقد رأوا أن الاحتمال المعقول أن يظل هدف ألمانيا الجوهري في عام ١٩٤١ هو إنزال هزيمة ببريطانيا، وفي ٢٣ مايو رأى أعضاء هذه اللجنة المشتركة ممن يمثلون القوات المسلحة الثلاثة، أن شائعات الهجوم الألماني على روسيا قد ضعفت قليلاً، وأن الشائع الآن هو اعتزام البلدين توقيع معاهدة جديدة بينهما في أقرب فرصة.

وكان رؤساء أركان حربنا أكثر معرفة من معاونيهم، وأشد تثبتًا، فقد أرسلوا تحذيرًا إلى قيادة الشرق الأوسط العامة في ٣١ مايو جاء فيه: "لدينا البراهين الدالة على أن الألمان يجمعون قوات هائلة وسلاحًا جويًا كبيرًا ضد

روسيا، ومن المحتمل أن يطلبوا منها مهددين لها طلبات تضر بصالحنا، فإذا أبى الروس شنوا عليهم الهجوم".

وفي ٥ يونيو رأت لجنة المخابرات المشتركة أن الإعدادات العسكرية الألمانية في شرق أوروبا واسعة النطاق، وأن شيئًا حاسمًا سيحدث أكبر أهمية من أي اتفاق اقتصادي، وربما تهدف ألمانيا إلى أن تزيل من حدودها الشرقية أي خطر محتمل أن يكون مصدره القوات السوفيتية الهائلة العدد، ولكن اللجنة حائرة تمامًا في تعيين الهدف الحقيقي وهل هو الحرب أم المعاهدة؟".

ولم أقنع بهذا الأسلوب ن التقارير العامة، وملت إلى أن أطلع بنفسي على مصادر هذه التكهنات، فرغبت إلى الرائد "الميجور" ويزموند مورتون، بأن يجهز لي قصاصات مختارة من التقارير منذ بداية الصيف لسنة ١٩٤٠، وأن يستمر في هذا العمل يوميًا، مما استطعت به استنباط وجهة نظر خاصة عن القضية قبل وقوع أحداثها بزمن كاف.

وعندما اطلعت على تقرير المخابرات، أرسله أحد عيوننا الموثوقة جدًا، في يوم من الأيام الأخيرة من شهر مارس سنة ١٩٤١، شعرت بكثير من الارتياح لدى قرائه، وكان عن تحركات المدرعات الألمانية، والتحركات المضادة لها على الخطوط الحديدية والواصلة بين بوخارست وكراكاو، وقد أوضح هذا التقرير أنه عقب توقيع الوزراء اليوغوسلافيين على الميثاق الثلاث، فإن ثلاث فرق مدرعة (بانزر) من بين خمس فرق كانت قد عبرت رومانيا جنوبًا في اتجاه الحدود اليونانية واليوغوسلافية قد اتجهت إلى الشمال نحو كراكاو ثم عادت على التو أدراجها بعد ثورة بلجراد، ورجعت الفرق الثلاث إلى رومانيا وليس من سبيل إلى أن تسير هذه الأعداد الضخمة من القطارات التي تصل إلى ستين قطارًا ثم تنقلب على عقبها فورًا، دون أن يقع على ذلك عملاؤنا اليقظون في المنطقة.

وأضاءت لي هذه المعلومات الطريق لتفهم الموقف، فتوجه هذا العدد الضخم من المدرعات إلى كراكاو وتحوله عن المسرح البلقاني في أشد الأوقات احتياجًا له، يعني بصورة واضحة أن هتلر قد بيت عزمه على الهجوم على روسيا في شهر مايو، وهذا ما وثقت فيه غاية الثقة. أما عودة هذه المدرعات فلا تعني سوى أن تأجيلاً حدث لموعد الهجوم على روسيا من مايو إلى يونيو، واتجه تفكيري إلى تلمس سبيل لاستثارة ستالين وإنذاره بهذا الخطر المحدق، محاولاً أن يكون بيني وبينه من الصلات ما بيني وبين الرئيس روزفلت، وأرسلت إليه رسالة مختصرة يحوطها الغموض، آملاً أن يثير هذا الغموض وكونها أول رسالة أرسلها إليه بعد الرسالة الرسمية التي أبرقت إليه بها في ٢٥ يونيو سنة ١٩٤٠، أوصى فيها بقبول تعيين السير ستافورد كريبس سفيرًا لنا في روسيا، أن يثير هذا وذاك انتباهه للموقف وهذا هو نص رسالتي:

- "من رئيس الوزراء إلى السير ستافورد كريبس، ٣ إبريل ١٩٤١".

- "مع هذا رسالة خاصة إلى المستر ستالين بشرط إبلاغها إليه شخصيًا".

- "لدي براهين وثيقة من مصدر لا يتطرق إليه الشك بأن الألمان عندما يتيقنون من وقوع يوغوسلافيا في قبضتهم - أي بعد ٢٠ مارس - بدأوا يتحولون بثلاث فرق مدرعة من فرقهم الخمس من رومانيا إلى جنوب بولندا، وعندما فاجأتهم ثورة الصرب، عادت الفرق على أعقابها، ولا شك في أن فخامتكم ستقدرون هذه الحقائق الهامة".

ولم يصلني رد من السفير إلا في ١٢ إبريل عندما أخبرني أنه قبيل تسلمه رسالتي كان قد وجه خطابًا خاصًا إلى فيشينسكي، وأوضح فيه تخاذل الحكومة السوفيتية عن مواجهة اجتياح ألمانيا لدول البلقان، وحث الاتحاد السوفيتي بعبارات شديدة من أجل مصالحه الخاصة أن يحول سياسته إلى سياسة متآزرة مع الدول التي لا تزال تحارب المحور في تلك الجبهة، وأضاف السفير قائلاً: "وإذا كنت الآن سأبلغ ستالين عن طريق مولوتوف برقية رئيس

الوزراء، التي يفهم منها نفس الفكرة ولكنها تعرضها بصورة أكثر اختصارًا وحزمًا، فإني أخشى أن يكون تأثيرها الوحيد إضعافًا للأثر الذي أبقته رسالتي في نفس فيشنسكي...".

وقد أحنقني هذا التصرف، والتأخير الذي حدث، وكانت هذه هي الرسالة الوحيدة التي أرسلتها إلى ستالين شخصيًا قبل أن يشن الهجوم، وكان الهدف من إيجازها والظروف الخاصة بها وصدورها عن رئيس حكومة لتبلغ مباشرة وبصفة شخصية عن طريق السفير إلى رئيس الحكومة الروسية، كان الهدف من كل ذلك أن تقع موقعًا خاصًا من نفس ستالين وتثير انتباهه لما حوله، وقد عرفت أخيرًا أن السير ستافورد كريبس قد سلمها إلى فيشنسكي في ١٩ إبريل، وأن هذا بدوره قد أبلغ السفير في يوم ٢٣ أن مضمون الرسالة قد بلغ إلى ستالين.

وليس في استطاعتي أن أقرر جازمًا مدى ما كانت تفعله رسالتي لو سارت في الطريق الذي رسمته لها، وما فيه من اختصار وشكليات في مجرى الحوادث، ولكنه ما زال يحز في نفسي ألا تنفذ تعليماتي كما رسمتها، فلو أتيح لي اتصال شخصي بستالين لاستطعت في الأعم الأغلب أن أحول دون تدمير جزء كبير من سلاحه الجوي على الأرض.

الآن نحن نعرف أن تعليمات هتلر في ١٨ ديسمبر قد عينت يوم ١٥ مايو موعدًا لشن الهجوم على روسيا، وأن الغضب الذي اجتاحه بسبب ثورة يوغوسلافيا قد أجلت هذا الموعد شهرًا، ثم عاد الموعد فتأجل ثانية إلى يوم ٢٢ يونيو، ولم تتطلب طبيعة التحركات الألمانية في شمال الجبهة الشرقية حتى منتصف شهر مارس أية وسائل لإخفائها، وعلى كل فقد اقتضت الأوامر الصادرة من برلين في ١٣ مارس إغلاق البعثات الروسية العاملة في ألمانيا وإرجاعها إلى وطنها، فلم يصبح من المحتمل أن يستمر الروس في ألمانيا بعد يوم ٢٥ مارس، وفي خلال ذلك الوقت كانت مائة وعشرون فرقة ألمانية من أفضل

الجند تنتشر على مدى الجبهة الروسية، وتتوزع في ثلاثة تشكيلات، وكانت المجموعة الجنوبية - تحت قيادة رونشتادت - منهوكة القوى للعوامل التي سبق أن أوردتها، ولم تكن فرقها المدرعة (البانزر) قد قدمت من اليونان ويوغوسلافيا إلا منذ فترة قليلة، وكانت على الرغم من أن الغزو قد تأجل إلى ٢٢ يونيو في أمس الحاجة إلى الراحة والاستصلاحات، بعد ما بذلته من جهد آلي في البلقان.

وفي ١٣ إبريل وصل إلى برلين شولنبرج من موسكو، ولم يستدعه هتلر للقائه إلا في يوم ١٨ من الشهر نفسه، وأشبعه شتائم في روسيا ولكن شولنبرج تمادى في تأكيد الرأي الذي أبداه في كافة رسائله، وذكر أن روسيا قد أكدت لمندوبينا الاقتصاديين استعدادها إذا طلبت وعبر عن ثقته الشديدة في استعداد ستالين للتنازل عن أشياء جديدة في ظروف ملائمة تقدم إلينا خمسة ملايين طن قمح في العام، ورجع شولنبرج من إصرار هتلر على القتال، ويبدو أن تحذير سفير روسيا في برلين إلى موسكو في ٣٠ إبريل مصابًا بخيبة الأمل من هذا اللقاء، فقد أيقن ديكانزوف من الموقف واستمر شولنبرج في موقف الذود عن سياسة التفاهم الروسي - الألماني حتى النهاية.

وكان ديزاكر، الرئيس الرسمي لوزارة الخارجية الألمانية، من نوع الموظفين المهرة الذين تجدهم في دوائر الحكومة في كل الدول، ولم يكن ديزاكر سياسيًا صاحب سلطات تنفيذية، وهو في اعتبار التقاليد البريطانية لا يُعد من بين المسئولين عن سياسة الدول، ومع ذلك أصدرت عليه محاكم الحرب التي أنشأها المنتصرون حكمًا بالسجن لمدة سبع سنوات، وعلى الرغم من معاملته كمجرم حرب إلا أنه قد قام بالنصح الحسن لرؤسائه، ومن يمن طالعنا أنهم لم يستمعوا إليه، فقد لخص رأيه في هذه المقابلة بقوله "بودي أن أوجز رأيي عن العلاقة بين ألمانيا وروسيا، فلو كانت كل مدينة روسية تسعى إلى تدميرها تساوي عندنا إغراق بارجة بريطانية. فإنني كنت حينئذ أؤيد

فكرة الهجوم هذا الصيف على روسيا، ولكنني متأكد أننا سننتصر على روسيا عسكريًا فحسب، أما اقتصاديًا فسنبوء بالخسران.

وقد يكون من المثير حقًا تسديد ضربة قاضية إلى النظام الشيوعي، وقد يقال أيضًا أن المنطق يقتضي تشر سيطرتنا على هذه القارة الأوربية الآسيوية، لنستطيع بعد ذلك حشد قوانا في الصراع ضد العالم الأنجلو - سكسوني وتابعيه، لكن السؤال الذي سيظل يتردد، هل هجومنا على روسيا سيعد خطوة في سبيل القضاء على إنجلترا، وسيمنح غزونا لروسيا طاقة معنوية جديدة لبريطانيا، فسيفهمونه على أن الباعث إليه عدم ثقتنا في الانتصار عليهم، ويعتبر قيامنا بهذا الغزو ليس اعترافًا بأن الحرب ستمتد فحسب بل عملاً فعالاً على امتداد زمنها بدلاً من تقريب نهايته".

وفي ٧ مايو أخبر شولنبرج حكومته بأن ستالين قد تولى بنفسه رئاسة الحكومة السوفيتية (مجلس مفوضي الشعب) بدلاً من مولوتوف وكان هذا بالنسبة إليه يبعث الأمل من جديد، فأضاف إلى ذلك قائلاً "أنني متأكد من أن ستالين بحكم منصبه الجديد سيكون عاملاً فعالاً في استمرار الصلات الطيبة بين روسيا وألمانيا والحرص عليها".

وردد نفس الفكرة ملحق ألمانيا البحري في موسكو، كما جاء في البرقية التي أرسلها "أن ستالين هو مرتكز التعاون الألماني - السوفييتي" وتضاعفت البراهين على رغبة روسيا في خدمة ألمانيا، فاعترفت الحكومة الروسية في ٣ مايو اعترافًا رسميًا بحكومة رشيد غالي في العراق الموالي لألمانيا، وطرد المفوضان الديبلوماسيان لحكومتي بلجيكا والنرويج من موسكو في ٧ مايو، ولقى الوزير اليوغوسلافي نفس المصير للنمسا لرضاء ألمانيا، وفي بداية شهر يونيو أنهت روسيا عمل المفوضية اليونانية في بلادها. وقد سجل الجنرال توماس رئيس قسم الاقتصاد في وزارة الحرب الألمانية في تقرير كتبه فيما بعد عن اقتصاد الرايخ الحربي ما يلي:

"استمر الروس في إرسال عونهم حتى مساء اليوم الذي بدأ منه الغزو، وقد نقلنا بسرعة المطاط من الشرق الأقصى في الأيام الأخيرة باستخدام القطارات السريعة".

ولم تصلنا معلومات كافية عن حقيقة الأوضاع في روسيا، ولكن الغايات الألمانية كانت في غاية الوضوح، وقد أرسلت برقية إلى الجنرال سمطس في ١٦ مايو قلت فيها:

"يبدو أن هتلر يعبئ قواته ضد روسيا، فهناك تحركات مستمرة للحشود والفرق المدرعة وسلاح الطيران من البلقان شمالاً، ومن فرنسا وألمانيا شرقاً".

ولا شك في أن ستالين قد بذل الكثير في سبيل الإبقاء على انطباعه النفسي الخاص نحو هتلر، للدرجة التي استطاع شولنبرج أن يرسل إلى وزارة الخارجية في ١٣ يونيو أي بعد مرور شهر بأكمله على تحركات القوات الألمانية الضخمة وحشدها، يرسل ما يلي: "أبلغني مفوض الشعب مولوتوف منذ قليل محتوى البيان الذي ستذيعه وكالة تاس الليلة، والذي ستنشره صحف موسكو في الغداة، وهذا نصه:

"قبل أن يذهب سفير بريطانيا كريبس إلى لندن، وبعد عودته خاصة، روجت كثير من الشائعات، عن قتال يوشك أن ينشب بين روسيا وألمانيا، وقد روجت هذه الشائعات الصحف الإنجليزية والأجنبية..

وبالرغم مما في هذا من كذب سخيف، فإن المسئولين في موسكو رأوا أن يؤكدوا أن هذه الترهات ليست سوى مناورات سيكولوجية طائشة يشنها أعداء الاتحاد السوفيتي وألمانيا هادفين إلى نشر الحرب واندلاعها".

وبات في مقدور هتلر أن يحس بالرضا لنجاحه في إضفاء السرية التامة على تحركاته، وفي خداع الفريسة التي مازالت تحيا تحت سيطرة الأوهام.

وخليق بنا أن لا ننسى هنا غفلة مولوتوف إلى آخر لحظة، فقد أرسل شولنبرج برقية في الساعة الواحدة والدقيقة السابعة عشرة من صباح ٢٢ يونيو، إلى وزارة الخارجية الألمانية جاء فيها:

"في التاسعة والنصف من هذا المساء استدعاني مولوتوف، وبعد أن حدثني عن حوادث اختراق طائراتنا مرارًا للحدود الروسية قال: "هناك براهين عديدة على عدم رضاء الحكومة الألمانية عن الحكومة الروسية، وقد تضافرت الأنباء على أن القتال أصبح لا محالة منه بيننا وبين ألمانيا، وليس في استطاعتنا أن نجد مبررًا لهذا التغير من جانب ألمانيا.. ولذا سيكون شاكرًا إذا أبلغته العوامل التي طورت الموقف إلى هذا الحد في الصلات بين ألمانيا وروسيا".

وقد أجبته بأني لا أملك التفسيرات للموقف، لأنني محتاج إلى معلومات كافية، كما وعدته بأن أبلغ رسالته إلى برلين".

ولكن الموقف كان قد وصل إلى غايته، وفي الساعة الرابعة من صباح اليوم نفسه أي في يوم ٢٢ يونيو سنة ١٩٤١، كان رينتروب يقدم إعلان الحرب الرسمي إلى سفير روسيا في برلين، ولدى الفجر كان هناك لقاء بين شولنبرج ومولوتوف في الكريملين كذلك، وأنصت جيدًا الأخير إلى الرسالة التي تلاها السفير الألماني ثم قال:

"إذن هو القتال، لقد أغارت طائراتكم منذ هنيهة على عشر قرى مكشوفة، فهل أنت على يقين بأننا نستأهل منكم ذلك؟".

وكان من الصعب علينا بعد البيان الذي أذاعته وكالة تاس، وقد أوردته منذ قليل، أن نقول شيئًا بعد التحذيرات الكثيرة التي وجهها إيدن لسفير روسيا في لندن، أو إلى ما قمت به بنفسي لأثير انتباه ستالين للخطر الذي يدهمه، وكانت حكومة أمريكا قد أطلعت روسيا على تفاصيل دقيقة لتطور الأوضاع، ولكن ما فعلناه ذهب هباء إزاء المصطلحات النهائية التي حال

بها ستالين بينه وبين رؤية الموقف الرهيب، وعلى الرغم من أن التقديرات الألمانية ذكرت أن مائة وستًا وثمانين فرقة روسية قد وقفت على الحدود، ومن بينها مائة وتسع عشرة فرقة في مواجهة القوات الألمانية، فإن الواضح أن الحشود الروسية قد فوجئت تمامًا بالزحف الألماني، ولم يجد الألمان أثرًا لأية استعدادات دفاعية في المناطق المتقدمة، وقد أسرعت إلى الانهيار كل الوحدات الروسية التي حشدت على الحدود، وكان من المحتم أن كارثة كتلك التي حاقت بالسلاح الجوي البولوني في أول سبتمبر سنة ١٩٣٩، ولكن على مدى أوسع، بالمطارات الروسية، وفوجئت مئات الطائرات هناك عند الفجر وهي رابضة في أرض مطاراتها، فتحطمت قبل أن تستطيع التحليق في الجو، وهكذا كان دوي القذائف الألمانية عند الفجر أقوى من صوت الدعاية الروسية التي قامت في أثناء تلك الليلة يشن حملة واسعة ضد بريطانيا وأمريكا، وهكذا نرى أن الشريرين ليسوا دائمًا أذكياء، وأن الطغاة ليسوا دائمًا على صواب.

وليس لي أن أستمر في البحث دون الإشارة إلى الإجراء الفظيع الذي قرر هتلر أن تتبعه السياسة الألمانية ضد أعدائه المحدثين، والذي اتخذ تحت هول القتال المرير في المناطق المجدبة وبين غضب الشتاء، ففي يوم ١٤ يونيو سنة ١٩٤١ عقد اجتماعًا أصدر فيه توجيهات شفوية بشأن معاملة القوات الألمانية لجنود الجيش الروسي وأفراد الشعب السوفييتي في تلك المعاملة التي بلغت غاية القسوة والوحشية، وقد أدلى الجنرال هولدر في محاكمات نورمبرج بالشهادة التالية:

"قبل بدء الهجوم على روسيا دعا الفوهرر إلى اجتماع خاص حضره جميع القادة والأفراد الذين هم على علاقة بالقيادة العليا، ليتناقش معهم بشأن الهجوم المنتظر على روسيا، وقد نسيت موعد الاجتماع بالضبط، ولكني لم أنس ما قاله هتلر من أن القتال الذي سينشب مع روسيا يجب أن يكون مغايرًا تمامًا للقتال الذي شن على الغرب.. وأضاف الفوهرر أن النزاع بين روسيا

وألمانيا هو نزاع روسي، ولما كانت روسيا لم تشترك في معاهدة جنيف فإن أسرى الحرب يجب أن يعاملوا معاملة خاصة غير التي تنص عليها المعاهدة.. وذكر أيضًا أن من يسموا بالمفوضين يجب ألا يعتبروا من أسرى الحرب".

وكتب كايتل ما يلي:

- "كان هتلر يرى أن القتال سيكون حاسمًا بين مبدئين وأنه نظرًا لذلك فلا يجب أن نستخدم مع روسيا في هذا القتال الأساليب التي نقرها نحن الجنود، والتي يقر العرف القانوني الدولي بأنها الأساليب الوحيدة الصائبة".

وفي مساء يوم الجمعة ٢٠ يونيو ذهبت وحيدًا بسيارتي إلى تشيكرز. وكنت أعرف أن الاجتياح الألماني لروسيا قد يبدأ بعد أيام أو بعد ساعات. وكنت قد انتويت توجيه رسالة من الإذاعة في مساء السبت، خاصة بهذا الشأن، فكان علي طبعًا أن أصوغ أفكاري في كلمات دقيقة، اختارها بكل عناية. خصوصًا وقد اعتبرت الحكومة الروسية فيما سبق كل ما يصدر عنا من نصائح أو تحذيرات ـ جهلاً منها أو تكبرًا ـ ليس سوى محاولة يائسة من قوم حاقت بهم الهزيمة لدفع الآخرين إلى نفس المصير، وعلى هدى من هذه الخواطر التي دارت بنفسي في السيارة، رأيت تأجيل الإذاعة إلى مساء الأحد، إذ يزداد الموقف وضوحًا، وهكذا مضى يوم السبت بأعبائه العادية.

وعندما صحوت صباح الأحد ٢٢ يونيو، استمعت إلى أخبار مشروع هتلر في هجومه على روسيا، فانتقل اليقين إلى واقع، ولم يعد لدى أي تردد في اختيار الموقف الذي يجب علينا أن نلتزمه، كما كنت على يقين مما سيذيعه. ولا ينقصني في هذا السبيل إلا إعداده، وطلبت من الإذاعة أن تعلن عن إذاعة لي في تمام التاسعة مساء، ولحق بي الجنرال ديل من لندن، حاملاً لي كل تفاصيل الموقف، لقد كان الهجوم الألماني على منطقة عريضة، وفاجأوا قسمًا كبيرًا من طائرات السلاح الجوي الروسي وهي رابضة في أماكنها، ويبدو أن الألمان يواصلون توغلهم في سرعة كبيرة وبمنتهى الغلظة والعنف، وأضاف

رئيس أركان حرب الإمبراطورية قوله وأنا واثق من أن الجيوش الروسية سيتم حصارها في مجموعات كبيرة".

وأمضيت النهار في إعداد كلمتي، ولم تكن لدى الفرصة لأستطلع آراء وزارة الحرب كما لم أجد ما يحتم هذا، فقد كنت على ثقة من مشاركة الجميع لي بمشاعرهم إزاء هذه المسألة وزادني المستر إيدن واللورد بيفر بروك والسير ستافورد كريبس، الذي كان قد ترك موسكو في ١٠ يونيو، وقد قلت في غضون الخطاب الذي وجهته للإذاعة "لا تكاد النازية تختلف عن أسوأ ملامح الشيوعية، فالنازية مجدبة من كل اعتقاد ومن أية مبدأ. إذا استثنينا نزعة السيطرة العنصرية الغاشمة، أن النظام النازي في عنفه ووحشيته يفوق كل ما يتصور من نظم همجية قاسية، وأنا أشد الناس كرهًا للشيوعية، وأكثرهم عداء لها ومقاومة في مدى الخمسة والعشرين عامًا الماضية، وبكل تأكيد لن أتنازل عن أية كلمة ضدها قلتها سابقًا، ولكن هذا كله يتوارى أمام ما نشهده اليوم، أن الماضي يتوارى في لمحة بصر بكل ما ينطوي عليه من جرائم وحماقات ومآسي وكل الذي أشهده اليوم هو الجنود الروس، وقد وقفوا على عتبات بلادهم، يحرسون الحقول التي قلب آباؤهم تربتها منذ فجر التاريخ، ويذودون عن البيوت التي تصلي فيها أمهاتهم وزوجاتهم، حيث يضرع الجميع في مثل هذه الأوقات إلى الله، أن يحفظ لهن أحباءهن، ومن يتولى أمورهن، ويدافع عنهن، ويحميهن، وإني لأشهد عشرة آلاف قرية روسية، ينتزع فيها القوات انتزاعًا من الأرض ومع ذلك، مع هذه الحياة الجافة فما تزال هذه القرى تموج بأمواج إنسانية أصيلة، حيث تنطلق ضحكات العذارى، ويتمادى الأطفال في لهوهم، وأشهد معدات القتال النازي تغير على هذه القرى في هجومها المجتاح في لباسهم العسكري، والعملاء الماكرون الذين أجادوا وسائل إخضاع الشعوب وتعذيبها، وأشهد كذلك الجموع المنهمرة من جنود الهون بكل ما عرف عنهم من بلادة وخشونة ووحشية وانقياد أعمى وهم ينطلقون في كتل زاحفة كالجراد المنتشر، وأرى القاذفات والطائرات المحاربة

الألمانية وهي تذرع الفضاء جيئة وذهابًا، وعلى ظهورها آثار جراح أحدثتها السياط البريطانية، وقد هزها الفرح لوقوعها على ما ترى أنه فريسة سهلة الاصطياد.

"وخلف كل هذا الرجاء، وكل هذه الرياح الهوجاء، يوجد فريق من الرجال الأوغاد يضعون الخطط، وينظمون، ويثيرون هذه الجبال المتراكمة من الشر والحقد على الإنسانية جمعاء.

وإني لأعلن قرار حكومة جلالته، وإني على يقين كبير بأن دول الدومينونات المستقلة ستجد في هذا القرار ما نوافق عليه ونؤيده في الوقت الملائم، وذلك لأن الظروف تحتم علينا أن نتكلم مباشرة وبدون أرجاء ذلك إلى يوم واحد سأعلن هذا القرار، ولكن هل يخالجكم شك فيما سننهجه من سبل؟".

إن لنا هدفًا واحدًا واضحًا، وأملاً لن نتوانى عن تحقيقه، فنحن نصر ونصمم على ضرورة القضاء على هتلر وتدمير نظامه النازي، ولن يحول بيننا وبين هذه الغاية شيء على الإطلاق، فلن نتحدث أو نتباحث مع هتلر أو مع أي واحد من أفراد عصابته، بل سنقاتله في البر، وسنقاتله في البحر، وسنقاتله في السماء، حتى نستطيع بإذن الله إنقاذ البسيطة منه ومن شبحه، ونحرر الشعوب من قبضة استذلاله، وكل رجل يقاتل هتلر وكل دولة تقاتل النازية سنمد إليها يد العون، وكل من ينحاز إلى جانب هتلر فهو عدونا اللدود.

هذا هو نهجنا، وهذا هو قرارنا، وعلى هدى من ذلك سنبذل لروسيا ولشعبها كل ما نستطيع من مساعدة، وسنناشد كافة أصدقائنا وحلفائنا في شتى أنحاء العالم أن يسيطروا في نفس هذا السبيل، كما ستسير فيه سياستنا بكل إخلاص وإصرار.

"وليست هذه الحرب صراعًا طبقيًا، وإنما هي نضال مشترك بين الإمبراطورية البريطانية وجامعة شعوبها، دون تميز بالعنصر أو الدين أو الحزب، وليس من حقي أن أعبر عن أمريكا، ولكن الذي أستطيع قوله أنه إذا كان هتلر يظن أن زحفه على روسيا سيؤدي إلى خلاف في الرأي أو إضعاف في البذل، في جانب الديمقراطيات العظيمة التي تصر اليوم على محقه والقضاء عليه، فإنه لبالغ الخطأ إذ أن العكس تمامًا هو الذي سيحدث، فهذا الهجوم الجديد لن يؤدي إلا إلى مضاعفة الجهود المبذولة لإنقاذ البشرية من وحشية، وسنضاعف مواردنا وجهودنا وعزيمتنا.

ولا أرى الوقت مناسبًا لتدعيم القيم الأخلاقية ورثاء حماقات الدول التي أعطت العدو كل فرصة لضربها واحدة بعد أخرى، بينما كانت تستطيع بالتكتل والعمل الجماعي أن تنجو بنفسها وبالعالم كله، من هذه الكارثة. ولكن عندما أشرف منذ قليل إلى ظمأ هتلر للدماء، وشهواته البغيضة التي دفعت به إلى مغامرة الهجوم على روسيا، قلت أن هناك هدفًا بعيدًا من كل ذلك العنف، فهو يتطلع بعد أن يحطم القوة الروسية إلى أن يعود بقواته الرئيسية وجيشه الجرار وسلاحه الجوي من الشرق إلى هذه الجزيرة التي يعلم أن عليه أن يسيطر عليها وإلا فسيعاقب على كل ما اقترف من آثام، فهذا الغزو لروسيا ليس إلا تمهيدًا لهجوم كبير على بريطانيا، وهو يتطلع بلا ريب إلى الخلاص من مغامرته قبل هجوم الشتاء، لينطلق إلى بريطانيا فيفرض سيطرته قبل أن يستطيع أسطول أمريكا وقواتها التدخل، أنه يستطلع إلى استخدام تلك الخطة التي انتهجها كثيرًا في تدمير أعدائه واحدًا واحدًا، وقد أصاب نجاحًا إلى اليوم في تنفيذها، حتى تتهيأ له كل الظروف للقيام بعمليته الأخيرة التي بدونها تظل كافة انتصاراته لا معنى لها، وهذه العملية هي محاولة السيطرة على نصف العالم الغربي.

ولذلك فإن ما يواجه روسيا من أخطار يواجهنا نحن أيضًا ويواجه أمريكا أيضًا، كما أن قضية كل روسي يهب للدفاع عن أرضه وبيته هي

قضية كل إنسان حر في سائر أرجاء العالم، وهي قضية الشعوب الحرة جميعًا، وعلينا ألا ننسى عبر هذه المحن التي تقاسيها جميعًا، وأن نبذل جهودًا مضاعفة، وأن نسدد - متحدين - ضربة قاصمة ما دامت فينا إرادة، وإحساس بالحياة.

الحلف الأكبر

من ٧ ديسمبر سنة ١٩٤١ وما يليه

لن أضير أمريكا حين أقول:
أن انضمام أمريكا إلينا في الحرب كان مبعث سرور
لم أحس به في حياتي من قبل.

تشرشل

حلفاؤنا الروس

كان اشتراك روسيا معنا في الحرب أمرًا نحبذه بشدة، بالرغم من أنه لم يكن مجديًا لنا في هذا الوقت، فقد بلغت الجيوش الألمانية من القوة ما يمكنها من تهديد إنجلترا بالغزو عدة شهور، وتوغلها في الوقت نفسه داخل الأراضي الروسية.

وقد أجمع القادة العسكريون على أن الجيوش الروسية ستقهر بسرعة وستباد عن آخرها. ولا شك في أن إغفال الحكومة السوفيتية احتمال مفاجأة سلاحها الجوي في مطاراته، وتوانيها عن إتمام الترتيبات العسكرية، كانا سببًا في البداية السيئة التي لحقت بها، والتي تحملت الجيوش الروسية أضرارها الجسيمة.

وبالرغم من الدفاع الباسل، ومن قيادة المعركة بقوة جبارة، وبالرغم من التغاضي عن قيمة الحياة الإنسانية، والبدء في حرب عصابات طاحنة في مؤخرة الزحف الألماني، بالرغم من ذلك كله حدث تراجع شامل على طول الجبهة

التي تمتد ألفا ومائتي ميل من جنوب لييننجراد إلى مسافة أربعمائة أو خمسمائة ميل عمقاً، ويرجع الفضل في القضاء على القوات النازية إلى عوامل متعددة: سيطرة الحكومة، وقدرة الشعب الروسي على الاحتمال، والعدد الوافر من جنود الاحتياط وسعة رقعة البلاد، وقسوة الشتاء الروسي.

لكن هذه العوامل لم يظهر واحد منها في عام ١٩٤١. وقد اتهم الرئيس روزفلت بالتهور والجرأة حينما أعلن في سبتمبر أن الروس سيصمدون، وأن موسكو لن تسقط في يد هتلر. ولكن حب الشعب الروسي لبلاده وقوته الفائقة أثبتا صحة ما أعلنه الرئيس.

وكان الجنرال بروك - الذي صحبني في سفري إلى موسكو في أغسطس عام ١٩٤٢ لعقد عدة اجتماعات هناك - يرى أن الألمان سيستولون على جبال القوقاز ويصلون إلى بحر قزوين ويسيطرون عليه، ولذلك جهزنا حملة على نطاق واسع للدفاع عن إيران وسورية، وكان رأيي أنا في استطاعة روسيا الصمود والمناضلة يفوق دائمًا رأي مستشاري العسكريين تفاؤلاً، لأنني أيقنت بما أكده لي ستالين في موسكو من أنه سيحمي خط القوقاز وأن الألمان لن يستطيعوا أن يلغوا بحر قزوين بقوات كثيرة، ولكنا كنا نجهل في الواقع الكثير عن موارد الروس وما يضمرونه حتى استعصى علينا تكوين فكرة صحيحة بعيدة عن التخمين.

وفي الواقع أن خوض روسيا الحرب أبعد غارات الألمان الجوية عن بريطانيا العظمى، وخفف من حدة خطر الغزو الذي كان يهولنا، ومنحنا فرصة لأن نستجم ونستريح في البحر المتوسط. ولكن من وجهة أخرى حملنا أعباء مضنية وتضحيات كثيرة، فقد أخذنا نستكمل النقص في أعدادنا، وبدأت مصانع الذخيرة يتدفق إنتاجها من شتى الأصناف والأحجام، وكانت قواتنا في مصر وفي ليبيا تقتحم قتالاً طاحنًا، وتطلب مرات ومرات إمدادها بأحدث الأسلحة، وخاصة من الدبابات والطائرات، وكانت قواتنا هنا تنتظر

هي الأخرى على أحر من الجمر ما كانت قد وعدت به من هذه الأسلحة الحديثة المبتكرة التي أخذت تتدفق عليها، فقد اضطررنا حينئذ إلى تطوير معظم أسلحتنا وإمداداتنا الهامة المتنوعة ومنها المطاط والنفط. وحملنا على كواهلنا تبعات تنسيق القوافل التي تحمل معدات بريطانيا وأمريكا، ونقلها إلى مورمانسك وأركانجل مجتازين المحيط المتجمد الشمالي برغم ما في ذلك من أخطار ومخاوف، ولم ترسل أمريكا إلينا إلا بعض ما كانت تنوي إرساله من الإمدادات عبر المحيط الأطلنطي، واضطررنا بحملتنا في الصحراء الغربية أن نوقف كل الاستعدادات التي فرضتها علينا ضرورة الدفاع عن شبه جزيرة الملايو وغيرها من أجزاء إمبراطوريتنا الشرقية وأملاكنا ضد التهديد الياباني المتزايد.

وليس من شك في أن هناك حقيقة سيسجلها التاريخ حتمًا، وهي أن مقاومة الروس هي التي دمرت قوة الجيش الألماني وأصابتها بأضرار فادحة، ووجهت إلى الطاقة البشرية للشعب الألماني ضربات قاضية، وأن كنت أرى من الصواب إبراز حقيقة أخرى وهي أن روسيا بقيت أكثر من سنة منذ اشتراكها معنا في الحرب تشكل حملاً علينا لا مساعدًا لنا، وبالرغم من ذلك فقد رحبنا بهذا الحمل كل الترحيب، حيث أن شعبًا قويًا سيقف إلى جانبنا في الحرب، وكنا نحس بأن الجيش الروسي سيقاوم حتى ولو اضطر إلى التراجع إلى جبال الأورال، وسيكون أداة فعالة إذا واصل القتال. ولم تكن الحكومة الروسية حتى اللحظة التي أغار فيها هتلر على أراضيها تعني بغيرها من الدول، وقد ظهر هذا واضحًا بعد ذلك. فقد ظلت واقفة وقفة المتفرج، الجامد جمود الصخر تشاهد تحطيم جبهتنا في فرنسا عام ١٩٤٠ ومجهوداتنا الأخيرة في عام ١٩٤١ لتكوين جبهة في البلقان. وقد منحت ألمانيا النازية معونات اقتصادية مهمة وساعدتها في نواح كثيرة وأن تكن بسيطة، والآن تحس بأنها قد خدعت وأخذت على غرة وأصبحت معرضة لسلاح ألمانيا الفتاك، لقد كانت سياستها التقليدية تملي عليها أن تتجه إلى بريطانيا العظمى وإمبراطوريتها لتنال منها

أكبر ما يمكن من معونة. ولم يتوان الروس عن مطالبة بريطانيا المناضلة المنهكة في إلحاح بأن ترسل إليهم الذخيرة التي تحتاج إليها قواتهم، وحثوا أمريكا على أن تنقل إليهم أكبر كمية من الذخيرة التي كنا نعتمد عليها. وبدءوا يطالبون كذلك ـ وهذا هو الأكثر أهمية، حتى صيف عام ١٩٤١ ـ بنزول قوات بريطانية في أوروبا دون اهتمام بالأضرار والثمن، وإنشاء القوة الثانية. وبدأ شيوعيو بريطانيا ـ الذين قدموا حتى الآن أردأ ما عندهم في مصانعنا، ولم يكن كثيرًا، والذين كانوا يصفون معركتنا "بالحرب الرأسمالية والاستعمارية" ـ يتحولون بين عشية وضحاها فيملئون الجدران باللافتات التي تحمل شعارهم "الجبهة الثانية... الآن".

بيد أننا لم ندع على أية صورة هذه الحقائق المؤسفة المخزية تؤثر في اتجاه تفكيرنا، وركزنا نظرتنا على ما يقدمه الشعب الروسي من تضحيات في ظل تلك الكوارث التي جلبتها حكومتهم عليهم، ودفاعهم الباسل عن أرض وطنهم. ولا شك في أن هذه البسالة وذلك النضال طول فترة المعركة يكفيان للتعويض عن كل شيء.

ولم يفكر الروس مطلقًا، ولو إلى حد ضئيل، في طبيعة العمليات العسكرية البرمائية الضرورية لنزول قوات على أرض معادية أحكم الدفاع عنها، وإمدادها بالمعدات والمؤن. وكان الأمريكيون في هذه الفترة على جهل تام بهذه المصاعب، فالحصول على السيطرتين البحرية والجوية في مكان النزول والاستيلاء لابد منه. يضاف إلى هذين عامل ثالث هام هو أن تأمين أسطول ضخم لا يهزم من سفن الإنزال المجهزة خصيصًا لنزول الدبابات في مجموعات كبيرة، هو الأساس لنجاح أي غزو مهما يقابله من دفاع. وكنت قد بذلت أقصى جهدي وما برحت أبذله لتكوين هذا الأسطول، ولكن لم يكن في الاستطاعة تأمين بعضه ولو في دائرة محدودة قبل صيف عام ١٩٤٣. ولم يكن في الوسع أيضًا ـ وهذا ما يدركه الجميع الآن ـ تنمية قوته على نطاق واسع حتى عام ١٩٤٤. وفي هذا الوقت الذي بلغناه من صيف عام ١٩٤١ لم

نكن قد تمكنا من السيطرة الجوية على أي جزء في أوروبا ما عدا خليج كاله، حيث توجد أقوى الحصون الألمانية مناعة.

وكانت سفن الإنزال ما برحت في دور التشييد، ولم يكن قد تكون عندنا حتى في بريطانيا جيش قوي ممرن، أحسن تجهيزه وإعداده مثل القوات التي لابد أن نلتقي بها على أرض فرنسا عند نزولنا. وبالرغم من ذلك انهمرت علينا سيول من الحمق ورديء القول فيما يتعلق بالجبهة الثانية. وبدهي لم يكن عندنا أمل في أن نقنع الحكومة الروسية في هذه اللحظة أو غيرها. وقد رأى ستالين في كلام لاحق معي أنه إذا كان البريطانيون يخافون هذا النزول فهو على استعداد لأن يبعث بثلاثة فيالق روسية أو أربعة إلى بريطانية لتؤدي هي المهمة، ولم يكن في استطاعتي - بسبب احتياجنا إلى السفن ووسائل النقل العملية الأخرى - إلا أن أقيده بكلمته وأدفعه إلى تنفيذها.

ولم يصل إلينا من الحكومة الروسية رد على الرسالة الإذاعية التي وجهتها إلى روسيا والعالم حين بدأ الهجوم الألماني عليها إلا ما روي لنا من أن فقرات من هذه الرسالة قد نشرتها جريدة "البرافدا" وغيرها من الصحف الرسمية، وأن الحكومة الروسية طلبت إلينا أن نستقبل وفدًا عسكريًا نوت إرساله إلينا. وكان السكوت في الدوائر العليا يدعو للدهشة والعجب. فقررت أن أبدد هذا الجمود وأدركت أن القادة السوفييت قد يحسون بخجل من كل ما حدث منذ قامت الحرب من مواقف بين الروس والحلفاء الغربيين. وتذكرت ما حدث بيني وبين الحكومة الثورية البلشفية منذ عشرين عامًا تقريبًا. ولهذا أرسلت رسالة إلى ستالين في السابع من يوليه ذكرت له فيها تصميمنا على تقديم كل مساعدة ممكنة إلى الشعب الروسي. وفي العاشر من يوليه أرسلت مثل هذه الرسالة. ودارت اتصالات رسمية بين وزراء خارجيتنا بيد أنني لم أتسلم رد ستالين الأول إلا في التاسع عشر من يوليه.

استهل ستالين رسالته بشكرى على برقيتي إليه ثم قال: "أرجو إلا أبعد عن الحقيقة أن قلت أن موقف القوات الروسية في الجبهة ما فتئ حرجًا. ولهذا يظهر لي أن موقف الروس وبريطانيا سيتحسن تحسنًا كبيرًا إذا استطاعنا أن تنشئا جبهة ضد هتلر في الغرب وفي شمالي فرنسا وفي شمالي المحيط القطبي الشمالي".

ولا شك في أن إنشاء جبهة في شمال فرنسا سيؤدي إلى تغيير وجهة هتلر عن الشرق ويجعل من الصعب عليه أن يغزو بريطانيا العظمى. ولا شك أيضًا في أن إنشاء مثل هذه الجبهة سيلقي كل ترحيب لدى الجيش البريطاني ولدى جميع سكان المناطق الجنوبية في بريطانيا.

ولا شك في أنني أفهم كل الفهم الصعاب التي تقابل إيجاد مثل هذه الجبهة. ولكنني بالرغم من ذلك مقتنع بضرورة قيامها لا لمصلحة قضيتنا المشتركة وحدها بل لمصلحة بريطانيا كذلك. ولعل هذه الفترة أنسب وقت لإيجادها حيث أن هتلر وجه كل قواه الآن إلى الشرق ولم يكن لديه وقت كاف لتأمين المواقع التي استولى عليها في الغرب.

ولعل من الأيسر إنشاء جبهة في الشمال. ولا تفتقر بريطانيا العظمى هنا إلا إلى عمليات بحرية وجوية دون أن ترغم على إنزال قوات أو مدفعية، لأن قوات روسيا البحرية والجوية ستشترك معها فيها. وسنقبل بكل ارتياح توجيه ما يشكل فرقة خفيفة أو أكثر من متطوعي النرويج إلى هذه الجبهة، حيث يمكن استغلالهم في شمال النرويج للثورة على الألمان".

ويظهر من هذه الرسالة أن ضغط روسيا لإنشاء جبهة ثانية قد بدأ منذ تبادلت الرسائل مع ستالين، وهو ضغط تكرر في كل الاتصالات التالية مع تغاض كلي عن الحقائق العملية الطبيعة، عدا ما يختص بمنها بأقصى الشمال. وقد رأيت فيما احتوته الرسالة الأولى التي بعثت بها إلى ستالين إشارة وحيدة إلى الأسف من مواقف روسيا السالفة. فقد انبرى ستالين لتسويغ أسباب

تغيير روسيا وموقفها وتوقيعها الاتفاق الذي أبرمته مع هتلر قبل الحرب. وصمم كما ذكرت قبل على أن مصلحة روسيا الاستراتيجية تقتضي بقاء القوات الألمانية في أبعد مكان ممكن غربيًا في بولندا اغتنامًا للفرصة وتنفيذًا للخطط التي رسمت للنهوض بروسيا وإعدادها عسكريًا. ولم أهون من شأن دفاعه هذا، ولذلك أمكنني أن أرد عليه ردًا منطويًا على الفهم.

وقد كرست طاقتي منذ الوهلة الأولى لمعاونة روسيا بالمؤن والذخيرة بالاتفاق على توجيه المعونات الأمريكية إليها، أو بالمساعدات المباشرة من بريطانيا. وأرسلنا في أول شهر سبتمبر ما يقرب من سربين من طائرات الهاريكين على متن "أرغوس" إلى ميناء مورمانسك في الشمال، للمساهمة في دعم الدفاع عن هذه القاعدة البحرية ومساعدة الجيش الروسي في تلك المنطقة.

ودخل السربان القتال في الحادي عشر من سبتمبر، وقاتلا ببسالة طيلة الأشهر الثلاثة اللاحقة، وكنت أرى أننا في أول تحالفنا لا يمكننا أن نعمل الكثير. وحاولت أن أشغل الفراغ بحسن المعاملة، وأن أنشئ بوساطة الاتصالات البرقية ما يضاهي تلك العلاقات الطيبة التي أنشأتها مع الرئيس روزفلت. بيد أني في هذه الحلقات الطويلة من الاتصالات قل أن تقليت كلمة طيبة، وإنما كنت أجد الإعراض، وكثيرًا ما بقيت برقياتي بلا رد، أو رد عليها ستالين بعد وقت طويل. ووجد عند الحكومة الروسية انطباع بأنها تسدي إلينا معروفًا كبيرًا، لأنها تحارب في أرضها دفاعًا عن أرواح مواطنيها، وكلما ازدادت الحرب قسوة ازداد هذا المعروف وتضاعف الدين الذي نحمله على عواتقنا، ولم تكن الفكرة طبعًا سليمة أو مضبوطة، وأرغمت مرتين أو ثلاثًا خلال مكاتباتنا الطويلة على أن أحتج بأساليب صريحة وخاصة على المعاملة السيئة لبحارتنا الذين كانوا يقتحمون المخاطر والأهوال لنقل الإمدادات إلى مورمانسك أو أكانجل، وكثيرًا ما أرغمت على الصمت، وعلى سماع التبكيت من الآخرين حينما يقولون: "لا تكترث، فالألم هو الوسام الذي يمنحه كل من يجب عليه أن يتعامل مع الروس". وفعلاً كنت أتجاهل كل

شيء نظير ما يلقاه ستالين والشعب الروسي من ضغط وعنف. وليس في إمكاني هنا أن أوضح للقارئ أكثر من الملامح الظاهرة في هذا الكفاح الجبار الحديث الذي بدأ الآن بين الجيوش والشعوب. وقد استطاع الألمان في الشهر الأول أن يشقوا طريقهم متوغلين داخل روسيا ثلاثمائة ميل. وفي نهاية شهر يوليو حدث تعارض رئيسي في الرأي بين هتلر وبراوختيش القائد العام للقوات الألمانية، وكان من رأي براوختيش أن مجموعة القوات الروسية التي يقودها تيموشنكو تكون القوة الرئيسية للجيش الروسي، وأنه يجب تدميرها ودحرها أولاً.

وكان هذا الرأي صحيحًا وقال براوختيش: إنه إذا نفذ ذلك فسيكون من المستطاع الاستيلاء على موسكو، وهي مركز العصب الحساس لروسيا عسكريًا وسياسيًا وصناعيًا. ولكن هتلر خالفه في رأيه كل المخالفة. فهو يطلب احتلال الأرض وتحطيم القوات الروسية على أكبر نطاق ممكن ويطلب الاستيلاء على لينجراد في الشمال وحوض الدونتر الصناعي في الجنوب، وشبه جزيرة القرم ومداخل القوقاز التي بها موارد غنية بالبترول، ويرى تبعًا لذلك أن تتولى موسكو دورها.

وجرت مناقشات حامية، وأصدر هتلر أوامره معارضًا آراء قادة الجيش، وحملت الإمدادات من الوسط إلى القوات الشمالية التي كلفها أن تضاعف من عملياتها للاستيلاء على لينجراد. وطلب من القوات الوسطى أن تقف موقف الدفاع، وأن ترسل قوة من المدرعات "البانزر" في الجنوب لتطويق جناح الروس الذين كان رونشتادت يقوم بمطاردتهم مجتازين نهر الدنيبر، واستطاع الألمان أن يقوموا بهذا العمل فقبل شهر سبتمبر تجمع عدد كبير من القوات الروسية حول كييف وفي قتال طاحن دام طوال هذا الشهر قتل أو أسر نصف مليون جندي تقريبًا، ولم يتمكن الألمان في الشمال من إحراز مثل هذا النصر. وقد حوصرت لينجراد ولكنها لم تسلم. وبهذا ثبت أن قرار هتلر كان غير سليم. واضطر إلى أن يرجع بكفره وقته وعزمه إلى منطقة الوسط، ووجه الأمر إلى

القوات التي تطوق لينجراد بإرسال قوات متحركة وجزء كبير من قوتها الجوية لدعم هجوم جديد يوجه إلى موسكو ورجعت القوة المدرعة التي كانت قد توجهت لمساندة فون رونشتادت في الجنوب إلى الوسط لتشترك في الهجوم. وفي أواخر شهر سبتمبر كان المسرح قد جهز مرة أخرى للتقدم في الوسط، وهو تقدم كانت الخطة المرسومة له قد عدل عنها قبل وقت وجيز، في حين استمرت القوات الجنوبية في زحفها شرقًا ناحية الحوض الأدنى لنهر الدون، الذي يمهد السبيل أمامها إلى القوقاز.

وبدأ الآن اتجاه آخر للقصة، فبالرغم من الأضرار الفادحة التي أصيب بها الروس استمرت مقاومتهم قوية عنيدة. قواتهم تحارب حتى النهاية وتزداد قوة وبراعة، وراح الأنصار يسرعون خلف خطوط الألمان ويخربون مواصلاتهم في حرب طاحنة قاسية. وثبت أن المواصلات التي استولى عليها الألمان غير صالحة. وبدأت السبل تتداعى تحت حركة النقل الثقيلة، وأصبح المشي في هذه الطرق بعد انهمار الأمطار مستحيلاً، وبدأت سيارات النقل يظهر عليها الجهد والعجز.. وليس أمام حلول الشتاء الروسي المريع إلا شهران تقريبًا، فهل ستسقط موسكو قبل قدوم الشتاء، وإذا سقطت فهل في سقوطها الكفاية؟

هذا هو السؤال المروع. ومع أن هتلر ما برح يحيا على أمجاد انتصاره في كييف فقد بدأ القادة الألمان يحسون أن مخاوفهم السالفة لها ما يسوغها تمامًا، فقد مضت أربعة أسابيع على القوة التي أصبحت الآن القوة الحاسمة. ولم تتم عملية القضاء على قوات العدو في روسيا البيضاء التي كانت مكلفة بها قوات الجبهة الوسطى، ولكن بانقضاء أشهر الخريف واستمرار الموقف الصعب في الجبهة الروسية ازدادت طلبات الروس مناشدة وإلحاحًا ورجع اللورد بيفر بروك من أمريكا بعد أن حفز قواها وضاعف هممها لزيادة الإنتاج بصورة هائلة. وأصبح الآن الداعية الأول في وزارة الحرب إلى ضرورة تقديم المساعدة لروسيا.

وقد قدم في هذا الطريق معونات فعالة نافعة، وحينما ننظر إلى ما تعرضنا له من ضغط للتجهيز لمعركتنا في الصحراء الغربية والقلق الذي كنا نشعر به جهة اليابان التي تهدد كل مصالحنا في الملايو والشرق الأقصى، وإلى أن كل ما نقدمه لروسيا يؤخذ من حاجات بريطانيا الضرورية، ندرك إدراكاً كاملاً الداعي لوجود شخص كاللورد بيفر بروك في ذروة مجهودنا الحربي، ليتولى الدفاع عن حتمية إجابة مطالب روسيا. وقد حاولت أن أحتفظ بالتعاون والتعادل على هدى ما فكرت واشترك معي في تفكيري كل رفاقي، ورأينا احتمال تعريض أمننا الحيوي وخططنا للتدهور من أجل حليفنا الجديد، والذي كان إلى زمن قريب نهازاً للفرص، طماعاً، لا يكترث بوجودنا أو صمودنا.

وشعرت أن على بيفر بروك وافويل هاريمان حينما يرجعان من واشنطن ويضحي في مقدورنا أن نواجه كل احتمالات المؤن والذخيرة، أن يقصدا إلى موسكو ويعرضا كل ما يمكننا أن نستغني عنه، وجرت محادثات طويلة وجادة وشعرت وزارات الدفاع بأن إرسال هذه الإمدادات بمنزلة رمى بعض لحمنا وبتره. وبالرغم من ذلك جمعنا كل ما أمكننا جمعه، وقبلنا تحويل معونات ضخمة كانت سترد إلينا من أمريكا وكنا في غاية الشوق واللهفة إليها لنشترك اشتراكاً إيجابياً في المقاومة الروسية.

وعرضت على رفاقي فكرة إرسال اللورد بيفر بروك إلى موسكو في الثامن والعشرين من شهر أغسطس، ورغبت الوزارة رغبة صادقة في أن يبسط اللورد الفكرة لدى ستالين وشعر الرئيس روزفلت أن هاريمان سيمثله على أحسن وجه في تلك المباحثات. وأوجزت لهذا الوفد الموقف كخطوة أولى في فقرات عامة ضمنتها رسالة أرسلتها إلى ستالين وفي ليلة الرابع من سبتمبر قدم المسيو مايسكي لزيارتي وسلمني رد ستالين. وكانت هذه أول رسالة شخصية أتلقاها منه منذ شهر يوليه، وقد شكرنا على ما عرضناه من تقديم مائتي طائرة مقاتلة أخرى ثم راح يكرر اللهجة القديمة فيقول:

"إن الهدوء النسبي في المنطقة الذي نجحنا في خلقه منذ ثلاثة أسابيع تقريبًا، قد تبدد في الأسبوع الأخير بنقل ما يقرب من ثلاثين إلى أربع وثلاثين فرقة جديدة من المشاة الألمان إلى المنطقة الشرقية مع عدد كبير من الدبابات والطائرات إلى جانب اتساع نشاط الفرقة الفنلندية العشرين والفرقة الرومانية السادسة والعشرين.. ويعد الألمان الخطر في الغرب مجرد خدعة لا غير، ولذلك حولوا كل قواتهم إلى الشرق دون خشية أو رعب، لأنهم مقتنعون بأنه ليست هناك جبهة ثانية في الغرب ولا يمكن أن توجد. ويرى الألمان ضرورة تدمير أعدائهم الواحد تلو الآخر، الروس أولاً ثم الإنجليز من بعدهم. وقد خسرنا بسبب هذا أكثر من نصف أوكرانيا، وأصبح العدو على أعتاب لينجراد..

وأنا أوقن أنه يوجد طريق واحد للنجاة من هذا المأزق، وهو إنشاء جبهة أخرى خلال هذا العام في أي مكان، في البلقان أو فرنسا، تستطيع أن تجتذب ما يقرب من ثلاثين إلى أربعين فرقة من الألمان، وأن تضمنوا لنا في الوقت نفسه ثلاثين ألف طن من الألمونيوم في مستهل شهر أكتوبر المقبل، وأن ترسلوا إلينا معونة شهرية لا تقل عن أربعمائة طائرة وخمسمائة دبابة من الحجمين المتوسط والصغير...".

واستمر السفير الروسي الذي كنت أصاحبه أنا والمستر إيدن يحدثني أكثر من ساعة ونصف ساعة. وفي أسلوب مؤلم أكد أن روسيا تحملت وحدها تقريبًا ضغط الهجوم الألماني الجارف في الأحد عشر أسبوعًا السالفة. وقال: إن القوات الروسية تحمل الآن أثقال هجوم لم يشهد التاريخ مثله. وقال: أنه لا يرغب في استعمال لغة المسرح، ولكن قد يثبت الوقت الحالي أنه بداية تحول في التاريخ. فإذا اندحرت روسيا فكيف يستطيع البريطانيون أن يأملوا في النصر؟ وفي أسلوب مؤلم يدعو للعطف والشفقة أكد المسيو مايسكي أن الموقف حرج للغاية على الجبهة الروسية. وحينما شعرت من خلال هذا الكلام بنغمة مستترة من التهديد انقلب عطفي إلى غضب، وقلت للسفير الذي كنت أعرفه من سنين بعيدة: لتعمل أننا قبل أربعة أشهر لم نكن نعتقد أنكم لن

تخوضوا الحرب مع الألمان ضدنا، بل كنا نعتقد احتمال خوضكم لها. وبالرغم من ذلك كنا نثق في انتصارنا في نهاية الحرب. ولم يتراء لنا أن وجودنا أو عدمه معلقان على الخطة التي ستشتركون بها في القتال أيًا كانت. وليس لكم وحدكم من بين الدول الأخرى حق توجيه اللوم إلينا مهما جرى، ومهما عملتم. ولما أحس السفير الغضب في لهجة حديثي هتف "أرجو أن تسكن يا عزيزي المستر تشرشل". وبعد ذلك غير لهجته كلية.

ثم واصل الحديث على الأسس التي وضحناها فيما تبادلنا من برقيات، ودعانا السفير للنزول فورًا في فرنسا أو في الأراضي المنخفضة. فأبديت له الموانع العسكرية التي تعترض تنفيذ طلبه، والأسباب التي تسلبه النفع للروس مطلقًا، وقلت للسفير أنني أمضيت خمس ساعات يومئذ مع الفنيين في دراسة الطرق اللازمة لمضاعفة طاقة ما تحمله الخطوط الحديدية الإيرانية. وتكلمت عن بعثة بيفر بروك - هاريمان، وعن عزمنا على بذل كل ما يمكننا ادخاره أو شحنه من إمدادات، وقلت له أنا والمستر إيدن في النهاية: إننا من جهتنا مستعدون لأن نبين للفنلنديين أننا سنحاربهم إذا توغلوا داخل روسيا وتخطوا حدودهم الطبيعية التي رسمت عام ١٩١٨. ولم يستطع المسيو مايسكي طبعًا أن يعدل عن رأيه في ضرورة إنشاء جبهة ثانية فورًا، وصار من العبث مواصلة المناقشة في هذا الموضوع.

وأخذت رأي الوزراء فورًا في المسائل التي درسناها في اجتماعنا وفي رسالة ستالين، وأرسلت في المساء ردًا كان أهم ما فيه العبارات الآتية:

"بالرغم من أننا لن نتوانى عن تقديم أي مجهود، فليس هناك أي احتمال لأن تقوم بريطانيا في الغرب بأي عمل غير العمل الجوي، ولا أمل في إنشاء جبهة ثانية في البلقان دون معاونة تركيا. وأتمنى - إن أذنتم لي فخامتكم - أن أبسط كل الدواعي التي دعت رؤساء أركان الحرب إلى الوصول إلى تلك النتائج، وقد درسنا هذه الدواعي مع سفيركم اليوم دراسة مفصلة في اجتماع شمل وزير

الخارجية ورؤساء أركان الحرب أيضًا. فالعمل الذي يؤدي إلى اختلاط باهظ النفقات ـ مهما كان فيه من نيات حسنة ـ لا ينفع غير هتلر.

ونحن متأهبون الآن لأن نرسم معكم خططًا مشتركة، وهناك وقائع غير ممكن مشاهدتها حاليًا، يتوقف عليها احتمال استطاعة القوات البريطانية عام ١٩٤٢ أن تبلغ درجة تمكنها من الاستيلاء على البر الأوروبي، وقد نستطيع أن نعاونكم في أقصى الشمال على أية صورة حينما يسود الظلام تلك المنطقة. ونتمنى أن يزداد تعداد قواتنا العاملة في الشرق الأوسط إلى ثلاثة أرباع المليون قبل أن ينصرم العام الحالي وإلى المليون في صيف سنة ١٩٤٢. وعندما ننتهي من تحطيم القوات الألمانية والإيطالية في ليبيا، تستطيع قواتنا جميعها أن تنضم إلى جناحكم الجنوبي. وأملنا كله معلق على الأقل على إقناع تركيا بأن تبقى محايدة حيادًا كليًا. وفي خلال ذلك سنستمر في ضرب ألمانيا من الجو بقوة فائقة وترك البحار مفتوحة، والإبقاء علينا أحياء...".

وتراءى لي أن المسألة على درجة كبيرة من الأهمية، وأرسلت حينئذ برقية إلى الرئيس روزفلت بسطت فيها الصور التي بقيت حية في ذاكرتي وهذا نص البرقية:

"لقد استعمل السفير الروسي.. لهجة لها أهمية خفية تتحدث عن حرج الموقف، وحقيقة بداية التحول التي هي متعلقة بردنا.

وبالرغم من أنه لم يرد في كلامه ما يثبت هذا الرأي، فليس في مقدورنا أن نتناسى احتمال تفكير روسيا في صلح منفرد... وأوقن أن الفرصة قد أضحت حاسمة. وليس في طاقتنا إلا أن نبذل غاية جهدنا".

وفي الخامس عشر من شهر سبتمبر تسلمت برقية أخرى من ستالين هذا نصها: "لا أشك في أن حكومة بريطانيا تتمنى من أعماق قلبها أن ينتصر الروس، وأنها ترنو إلى ما يحقق هذا النصر من طرق ووسائل. وإذا كانت

بريطانيا ترى استحالة إقامة جبهة ثانية في الغرب حاليًا، فمن الممكن الحصول على وسيلة أخرى لبذل المساعدة العسكرية الإيجابية لروسيا".

"وأنا أوقن أن بريطانيا العظمى تستطيع بلا مخاطرات أو مغامرات إنزال خمس وعشرين أو ثلاثين فرقة في أركانجل، أو نقل مثل هذه القوة إلى المناطق الجنوبية من روسيا مجتازة إيران، وفي هذا الظرف يسهل إقامة تعاون عسكري بين قوات روسيا وبريطانيا على أرض روسيا. وقد قام مثل هذا التعاون في فرنسا في الحرب العالمية الأولى، ومثل هذا الوضع يحقق عونًا كبيرًا، وفي الوقت نفسه يعد ضربة عنيفة تدك عدوان هتلر.....".

ولا أكاد أصدق نفسي حين أشاهد رئيس الحكومة السوفيتية يبدي مثل تلك التفاهات العجيبة، مع أن لديه كثيرًا من القادة العسكريين، وظهر لي أنه من غير المجدي مجادلة رجل تفكيره غير واقعي، ولذلك أرسلت إليه ما أمكنني من رد حسن.

وفي خلال ذلك اختتمت مباحثات بيفر بروك ـ هاريمان في لندن، ورحلت بعثة التموين الإنجليزية الأمريكية في الثاني والعشرين من سبتمبر عن ميناء سكابافلو على متن الطراد "لندن" متجهة إلى أركانجل مجتازة البحر المتجمد الشمالي، وعلى نجاح تلك البعثة يتوقف كثير من المسائل، وقد استقبلت البعثة استقبالاً فاترًا، وكانت المباحثات التي جرت غير مرضية للغاية، لأن الروس يرجحون أن ما يكابدونه إنما هو وليد خطئنا. ولم يقدم القادة والموظفون الروس لرفاقهم البريطانيين والأمريكيين أية بيانات، ولم يودوا أيضًا أن يطلعوهم على الأسس التي قدرت عليها احتياجات روسيا من خاماتنا الحربية الثمينة. ولم يقم أي حفل رسمي احتفاء بالبعثة، سوى دعوة أعضائها لتناول طعام العشاء في الكريملين في آخر ليلة لها بموسكو، وينبغي ألا يتبادر إلى ذهننا أن الأشخاص الذين تشغلهم أهم القضايا، لا تساعد مثل هذه المناسبات لديهم على تحسن سير العمل الروسي، فعلى العكس كثيرًا ما يدفع تبادل

الأشخاص الآراء في مثل هذه الظروف إلى الوصول إلى اتفاقيات رسمية، ولكن لم تبد روسيا حاليًا شيئًا من هذه الحفاوة، وكأننا نحن الذين قدمنا لطلب المعونات منها.

ولعل واقعة صغيرة احتفظ بها الجنرال ايسماى على صورة كتاب حر، تلقى شعاعًا على هذه القصة. فقد قام دليل من مصلحة السياحة في روسيا بمصاحبة جندي من باحارة الأسطول الملكي البريطاني يقوم بخدمة الجنرا ليشاهد روسيا، وقال الروسي: "هذا هو فندق إيدن وكان يسمى في الماضي فندق ريبنتروب، وهذا هو شارع تشرشل وكان يسمى شارع هتلر، وهذه محطة بيفر بروك، وكانت تدعى محطة جورنج. هل ترغب في سيجارة يا صاحبي؟" فرد الجندي البريطاني "لا وشكرًا أيها الرفيق، أو اللئيم سابقًا".

وهذه القصة على ما فيها من تهكم تلقى شعاعًا على ذلك الجو العجيب المحيط بتلك الاجتماعات.

وأخيرًا توصلوا إلى اتفاق ودي، ووقعوا ملحقًا يبين المعونات والمطالب التي تكفلت بريطانيا وأمريكا بإمداد روسيا بها ابتداء من أكتوبر عام ١٩٤١ إلى يونيه عام ١٩٤٢. وقد تضمن الملحق ضرورة إعادة بحث خططنا العسكرية السالفة التي أثر فيها تأثيرًا بالغًا ما حدث لتموينا من نقص بين. وقد تحملنا الحمل كله لأنه وجب علينا أن ننزل عن إنتاجنا إلى جانب ما كان مقررًا أن ترسله إلينا أمريكا من معونات. ولم يكن في وسعنا نحن والأمريكيين أن نبذل الوعود ارتجالاً، بشأن نقل هذه المعونات مجتازة السبل البحرية القطبية الوعرة، المحفوفة بالأخطار. ونظرًا لما سمعناه من ستالين من أسلوب اللوم والتعبير المنكر حينما قلنا أن القوافل لن تتحرك إلا بعد أن تسيح الثلوج، فقد كان ما تكفلنا به هو أن تكون هذه المعونات معدة في مواطن الإنتاج البريطانية والأمريكية. واختتمت ديباجة الملحق بهذه الفقرة:

"ستقدم بريطانيا العظمى وأمريكا كل مساعدة ممكنة لنقل تلك المعونات إلى روسيا والمساهمة في توصيلها".

وبعث إلى اللورد بيفر بروك برقية يقول فيها: "إن فائدة هذا الاتفاق تنحصر في رفع الروح المعنوية في موسكو إلى درجة كبيرة. أما الإبقاء على قوة هذه الروح فإنه يستند إلى وصول المعونات إلى روسيا.. ولست أرى أن الموقف العسكري هنا قد اجتاز مرحلة الخطر مدة أشهر الشتاء، وفي طاقة الروح المعنوية أن تتجيه وتؤمنه".

وبالرغم من أن الجنرال ايسماي كان له الحرية المطلقة في دراسة الموقف العسكري من جوانبه المختلفة وتوضيحه للقادة الروس، فإن بيفر بروك وهاريمان قررا ألا يعقدا مهمتهما بإثارة قضايا يتعذر الاتفاق حولها. ولذلك لم يدرس هذا الجانب حاليًا في موسكو، واستمر الروس يطالبون بصفة غير رسمية بإقامة جبهة ثانية فورًا، ولم يكن لديهم استعداد لسماع ما يبدي حول استحالتها من أدلة وعذرهم في ذلك ما يكابدونه من آلام، واضطر سفيرنا إلى أن يصبر على مضض.

وأوشك الخريف أن ينصرم وعاودت القوات الألمانية الوسطى بقيادة فون بوك وحفها على موسكو، وقد تقدم جيشاها مباشرة نحو العاصمة من الجنوب الغربي مع قوات ضخمة من المدرعات تحاول تطويق الجناح. واستولى الألمان على أوريل في الثامن من أكتوبر، واستولوا بعد أسبوع على كالينين التي هي في طريق موسكو - لينجراد. وأرغم المارشال تيمو شنكو تجاه هذا الخطر الذي بدأ يهدد جناحه، وتحت شدة الهجوم الرئيسي من الوسط، على إرجاع قواته إلى خط يوجد على مسافة أربعين ميلاً غربي موسكو، وهناك قرر الصمود والنضال من جديد. وكان موقف روسيا حينئذ مهددًا كل التهديد. وقد تم انتقال الحكومة الروسية والسلك الدبلوماسي وما أمكن نقله من مصانع من العاصمة إلى مدينة كيوبشيف الواقعة على مسافة خمسمائة

ميل شرقًا. وفي التاسع عشر من أكتوبر أعلن ستالين حالة الطوارئ، وأصدر الأمر الأول التالي: "سنناضل عن موسكو إلى آخر فرد". وقد امتثل لأمره في طاعة ووفاء. وبالرغم من زحف قوة جودريان المدعة من أوريل إلى تولا ، وبالرغم من محاصرة موسكو الآن من جوانبها الثلاثة، وتعرضها للهجوم الجوي، اشتدت المقاومة الروسية في آخر شهر أكتوبر، وأوقف إلى حد ما وبوضوح تقدم الألمان.

وأحست قرينتي بأن الشعب البريطاني بدأ يتضاعف قلقه وألمه بسبب عجزنا عن إمداد روسيا بالمساعدة العسكرية، وخاصة أن الأشهر تمضي، والقوات الألمانية تواصل تقدمها مجتازة سهول روسيا فقلت لها: أن مسألة الجبهة ليست مهمة في الوقت الحالي، وان كل ما نستطيع عمله مدة طويلة هو متابعة إمدادها بمختلف أنواع المؤن والمعدات على أكبر نطاق وشاركني المستر إيدن في تشجيعها على أن تبحث إمكان جمع تبرعات اختيارية للإسعاف، وقد شرع الصليب الأحمر البريطاني وجمعية القديس يوحنا في مثل هذا العمل، ولم يلبث أن أنشئت جمعية مساهمة سميت جمعية "مساعدة روسيا" ودعيت قرينتي لتولي رياستها. وفي آخر شهر أكتوبر وتحت إشراف الجمعية الجديدة وجهت أول نداء لها إلى الشعب البريطاني الذي لباه على الفور تلبية كريمة سخية. وخصصت قرينتي لهذه المهمة السنوات الأربع اللاحقة في حماسة وإحساس فياض بالمسئولية. وجمع من تبرعات الأثرياء والفقراء معًا ما يزيد على ثمانية ملايين من الجنيهات.

وقد دفع بعض الأغنياء مبالغ كبيرة للجمعية، ولكن معظم هذه المبالغ جمعت من التبرعات الأسبوعية التي تبرع بها الشعب. وبالتنظيم الفائق الذي هيأه الصليب الأحمر البريطاني ومنظمة القديس يوحنا، وعلى الرغم من الأضرار الفادحة في قوافل المحيط المتجمد الشمالي، أخذت إمدادات قيمة من المواد الطبية والجراحية، وأصناف متعددة من المرفهات والابتكارات الخاصة

سبيلها في سيل متدفق متواصل مجتازة البحار المتجمدة إلى القوات الروسية الشجاعة والشعب الروسي المكافح.

الاجتماع بروزفلت

في خلال ذلك جرت في البلاد التي تتكلم الإنجليزية أحداث كثيرة مهمة. ففي منتصف يوليه قدم إلى بريطانيا المستر هاري هوبكنز مبعوثًا من الرئيس في مهمة أخرى. وكان موضوع دراستنا الأول هو الموقف الجديد الذي أحدثه هجوم هتلر على روسيا، وأثره على كل الإمدادات التي كنا نستعيرها من أمريكا أو ندفع لها أجرها، والتي كنا نستند إليها استنادًا كليًا. وبعد ذلك انتقل إلى تقرير أعده القائد الأمريكي الذي قدمنا له ما يلزم من تسهيلات للاطلاع على كل شيء، والذي طرح في تقريره ظلالاً من الشك على استطاعتنا الثبات أمام الغزو الألماني مما سبب اضطرابًا واضحًا للرئيس.

وعلى مدى هذا انتقل إلى الموضوع الثالث، وهو ما يساور الرئيس من شكوك في حكمة محاولتنا حماية مصر والشرق الأوسط، فهو يخاف أن نفقد كل شيء بمحاولة حماية كل شيء. وفي النهاية بحث المستر هوبكنز مسألة إعداد اجتماع بيني وبين روزفلت في مكان ما وعلى أية طريقة في أقرب فرصة مستطاعة. وفي هذه المرة لم يكن هوبكنز وحده، فقد كان بلندن عدد من كبار ضباط جيش أمريكا وأسطولها المختصين بشئون الإعارة والتأجير، وفي مقدمتهم الأميرال جورملي الذي كان يعمل مع الأميرالية البريطانية في حل مشكلات الأطلنطي، وفي ليلة الرابع والعشرين من يوليو اجتمعت مع زملاء هوبكنز ورؤساء أركان الحرب في دوانتج ستريت رقم ١٠. وقد أحضر هوبكنز أمير اللواء سيتني وهو مراقب خاص والأمير جولمي، والزعيم لي ملحق أمريكا العسكري، واشترك معنا في الاجتماع أيضًا أفريل هاريمان الذي رجع فورًا من رحلة إلى مصر، حيث ألم بكل شيء بأمر مني. وقال هوبكنز: "إن المسئولين في أمريكا الذين يشغلون مناصب رئيسية،

والذين يصدرون القرارات في القضايا العسكرية يرون أن الذود عن الوضع في الشرق الأوسط غير ممكن، وأن الإمبراطورية البريطانية تبذل تضحيات غير مفيدة لحماية هذا الوضع، ويرون أن موقعة الأطلنطي يتحتم أن تكون الموقعة الفاصلة الأخيرة في الحرب، وأن تركز كل القوى عليها". وقال: "أن الرئيس مع ذلك يرغب في مساندة الدفاع في الشرق الأوسط، نظرًا للمبدأ القائل أن مقاتلة العدو واجبة أينما كان. وبعد ذلك نظم الجنرال سيتني مشكلات الإمبراطورية الأربع على الوضع الآتي: الدفاع عن بريطانيا وعن السبل البحرية في الأطلنطي، والدفاع عن سنغافورة والسبل البحرية إلى أستراليا ونيوزيلندا، والدفاع عن السبل البحرية بوجه عام. والدفاع عن الشرق الأوسط"، وقال الجنرال: "إن كل تلك المعضلات مهمة على هذا الترتيب. وأقر الجنرال لي ما رآه الجنرال سيتني وكان الأميرال جورملي ستمضي إلى هناك في مجال واسع. ولكن ألا يمكن أن يدفع هذا إلى الإضعاف من معركة الأطلنطي؟

وحينئذ طلبت إلى رؤساء أركان حرب بريطانيا أن يوضحوا وجهات نظرهم، فأبدى أمير البحر الأول الدوافع التي تدفعه إلى أن يعتقد ويثق الآن أكثر من العام السابق أن في استطاعة بريطانية تدمير أية قوات تجهز للغزو. وتكلم رئيس أركان السلاح الجوي عن سلاحنا الجوي في حالة مقارنته بالسلاح الجوي الألماني، وفي حالة مقارنته بقوته في سبتمبر الماضي، وأكد استطاعة قواتنا تحطيم مواني الغزو الألمانية. وتكلم رئيس أركان حرب جيوش الإمبراطورية فأكد تقدم قوة الجيش أكثر مما كانت عليه في سبتمبر السابق تقدمًا رائعًا. وتدخلت لأبين ما اتخذناه من احتياطات خاصة لتحصين الدفاع عن مطاراتنا بعدما تلقيناه من دروس في كريت ودعوت ضيوف أمريكا لزيارة أي مطار يريدونه. واستطردت أقول: "وقد يضطر العدو إلى حرب الغازات، ولكنه إذا اضطر إليها فستكون هلاكًا له، لأننا أخذنا الأهبة للانتقام فورًا، وسيكون هدفنا جموعه التي على السواحل. وسنوجه فعلاً حرب الغازات أيضًا إلى أراضيه". ودعوت ديل حينئذ أن يتكلم عن الشرق

الأوسط فقد عرضنا هائلاً مؤيداً بالأدلة والحجج، للدوافع التي تدفعنا إلى أن نبقى هناك كضرورة لا مفر منها.

وفي آخر النقاش ملأني إحساس بأن أصحابنا الأمريكيين قد أقنعهم ما عرضناه من بيانات، وأثر فيهم ما ظهر منا من تكاتف وإجماع.

لكن تلك الثقة التي كنا نتكلم بها عن الدفاع في الداخل لم تمتد لتعم الشرق الأقصى حين تعلن اليابان الحرب علينا. وقد أقضت تلك المخاوف أيضاً السير جون ديل. وكان انطباعي أنه أكثر معرفة بسنغافورة منه بالقاهرة. وكان هذا الحكم طبعاً مدعاة للأسف الشديد والكمد البالغ، فالموقف يضاهي تماماً موقف ذلك الرجل الذي يخير بين قتل ابنه أو ابنته. وكان رأيي أنا أنه مهما يقع في الملايو فإنه لا يشابه في أهميته ما يحتمل وقوعه إذا فقدنا مصر[1] أو قناة السويس أو الشرق الأوسط. ولن أتساهل مطلقاً في فكرة ترك الدفاع عن مصر ولو ضحيت بالملايو كلها. وكان يشاركني في موقفي هذا رفاقي في وزارة الدفاع.

وفي عصر يوم ما قدم إلى هاري هوبكنز، فقعدنا نتكلم في شمس حديقة دواننج ستريت، وفجأة قال لي: أن الرئيس يتمنى أن يجتمع معي في مكان بعيد منعزل. فقلت له: أني أوقن أن مجلس الوزراء سيوافق على إذن بأجازتي وجهزنا كل شيء بسرعة، واختير خليج بلاسنتيا بجزيرة نيوفوندلند، وحدد التاسع من أغسطس ميقاتاً للاجتماع، ووجهت الأوامر بالاستعداد والتأهل إلى أحدث بوارجنا "الأمير ويلز" وكنت في غاية الشوق للاجتماع بالرئيس روزفلت الذي كانت علاقتي معه وطيدة نامية منذ عامين تقريباً، وخاصة أن مثل هذا الاجتماع سيشير إلى تآلف أقوى بين بريطانيا وأمريكا، مما يلقي الانزعاج في نفوس أعدائنا، ويرغم اليابان على أن تطيل النظر، ويشجع حلفاءنا. وكانت ثمة مسائل متعددة يجب دراستها، أهمها تدخل

---

(١) يتحدث تشرشل الاستعماري وكأنما مصر ملك لبريطانيا فما أعجب منطقه! "التحرير".

أمريكا في الأطلنطي، ومعاونة روسيا، ومركز تموينانتا ثم تضاعف التهديد الياباني وصحبت معي السير أليكسندر كادوجان من وزارة الخارجية، واللورد شيرويل والعقيدين هوليس وجيكوب من وزارة الدفاع، وموظفي مكتبي الخاص، إلى جانب عدد من كبار ضباط الأقسام الفنية والإدارية وفرع التخطيط. وقال الرئيس أنه سيحضر معه قادة القوات المسلحة، والمستر سمزويلز من وزارة الخارجية. واستدعى تفرق الغواصات الألمانية في شمال الأطلنطي التزام أبعد ما يستطاع من احتياطات التكتم والسرية، وذهب الرئيس يقضي أجازة في يخته الخاص في عرض البحر، وغادره إلى الطراد أوجسطا، وترك اليخت يمشي خلفه كعملية تغطية.

وفي خلال ذلك نال هاري هوبكنز، بالرغم من مرضه، موافقة الرئيس على السفر إلى موسكو في رحلة جوية مضنية، خطرة، جاب فيها فضاء النرويج والسويد وفنلندا، ليعرف من ستالين رأسًا ماهية مواقف الروس وطلباتهم، وتقرر انضمامه إلى البارجة "الأمير ويلز" في سكابافلو.

وركبت من تشيكرز القطار الخاص الذي يحمل كل هذا العدد من الموظفين ومنهم عدد كبير من كتاب "الرموز" من لندن، وفي سكابافلو انتقلنا إلى البارجة عن طريق مدمرة صغيرة. وفي الرابع من أغسطس قبيل حلول الظلام بدأت البارجة رحلتها في الأطلنطي تحميها المدمرات. ولقيت هاري هوبكنز منهكًا من رحلاته الجوية المتتالية، ومن الاجتماعات التي أقامها في موسكو. وقد وصل قبل يومين إلى سكابافلو في حالة سيئة من المرض والإنهاك، مما دفع الأميرال إلى إجباره على أن يذهب إلى فراشه على الفور. ومع ذلك بقي مرحًا على طبيعته، وقد استرد عافيته بسرعة في أثناء الرحلة، وكلمني عن رحلته الأخيرة.

عندما تثور رياح البحر يكثر اهتزاز الحجرات الواسعة الموجودة فوق حجرات الآلات المريحة عادة، وبذلك تضحى غير صالحة للإقامة، ولهذا انتقلت

إلى غرفة الأمير الموجودة فوق الجسر، واستعملتها للنوم وللمكتب. وقد أحببت قبطاننا "ليشر" حبًا كثيرًا لأنني رأيت فيه كل سمات البحار البريطاني المحبوب، ومع بالغ الأسى غرق هو وأكثر زملائه وبارجته الهائلة تحت عباب المحيط. وفي اليوم اللاحق اشتدت الريح حتى اضطررنا أن نختار بين الإمهال في السير، أو أن نترك مدمراتنا الحارسة. وأصدر الأميرال باوند أمير البحرية الأول القرار، فذهبنا وحدنا في أقصى سرعة ممكنة. وأخبرنا أن هناك عددًا من الغواصات تخترق المحيط، فقمنا بحركات انعطاف وميل لتفاديها، وفضلنا طبعًا الكف عن أي اتصال لاسلكي من جانبنا. وكان في وسعنا أن نستقبل الرسائل دون أن نجيب عليها إلا في أوقات مخصوصة. وبذلك حدث جمود في حياتي اليومية المنظمة، وأحسست بنوع من الراحة لم أحس به منذ قامت الحرب. وكان في وسعي لأول مرة منذ عدة أشهر أن أطالع كتابًا للمتعة والترفيه. وكان أوليفر ليتلتون وزير دولتنا في الشرق الأوسط قد منحني رواية "الكبتن هو رنبلاور" التي ألفها فوريستر، فقرأتها وكانت ممتعة غاية المتعة. وقد أرسلت إليه رسالة حينما بدت لي فرصة قلت فيها "لقيت هورنبلاور رائعة". وقد أوجدت هذه الرسالة القلق في قيادة الشرق الأوسط، إذ تراءى لهم أن هورنبلاور الاسم الرمزي لعملية عسكرية خاصة لم يرد بعد خبرها إليهم.

وفي الساعة التاسعة من صباح يوم السبت التاسع من أغسطس وصلنا إلى المكان المحدود، وبعد تبادل التحيات البحرية المعهودة، ذهبت إلى متن الطراد أوجسطا، وهناك حييت الرئيس روزفلت الذي استقبلني بكل مظاهر التقدير والحفاوة، ووقف مستندًا إلى ذراع ابنه إيليوت، في حين صدحت الموسيقى العسكرية بالسلامين البريطاني والأمريكي، ثم استقبلني بحفاوة وحبة خالصتين، وأعطيته رسالة من الملك، ثم عرفته بمن معي، وفي سرعة بدأت المباحثات بيني وبين الرئيس وحضرها المستر سمزويلز والسير أليكسندر كادوجان، وأفراد القيادتين، واستمرت المباحثات دون توقف طوال الأيام

الباقية من زيارتنا في صورة مؤتمرات عامة أو اجتماعات خاصة لا يشهدها غيرنا نحن الاثنين.

وفي صباح الأحد العاشر من أغسطس قدم الرئيس على متن "الأمير ويلز" وشاهد مع رجاله وضباطه، ومئات من ضباط البحرية الأمريكية على اختلاف رتبهم وجنود الأسطول، حفلاً قداسيًا أقيم على متن البارجة، وقد شعر كل من رأى هذا القداس بما يشير إليه من تصوير لوحدة العقيدة بين شعبينا. ولا يمكن كل من حضره أن ينسى ما شاهده من روعة في ذلك الصباح المشرق على متن البارجة المزدحمة، وقد رفرف العلمان البريطاني والأمريكي فوق المنصة جنبًا إلى جنب، وقام القسان البريطاني والأمريكي يتناوبان القراءة والصلاة، وأمامهما وقف كبار القادة من الدولتين من بحريين وعسكريين وجويين في مجموعة واحدة خلفنا أنا والرئيس، ووراءهم حشود البحارة من الفريقين وقد اندمجوا في مجموعة واحدة يتلون الكتب نفسها، ويقرءون الصلوات نفسها. وقد انتقيت نشيد "إلى هؤلاء، المهددين بالإشراف على الهلاك في البحر" ونشيد "إلى الأمام يا جند المسيحية". واختتمنا بالصلاة المعهودة "يا رب، يا مجيرنا، في الأيام السالفة". وظهر أن كل كلمة كانت تستثير القلوب. وعشنا ساعة رائعة كتب على أكثر من نصف من شهدها الموت بعد وقت وجيز.

وفي أحد اجتماعاتنا الأولى قال لي الرئيس روزفلت: إنه يرى أن في استطاعتنا أن نصدر بيانًا مشتركًا يضع بعض الأسس العريقة الخاصة التي يتحتم أن توجه سياستنا ي السبيل نفسه. ولرغبتي في تتبع هذا الرأي المفيد للغاية، قدمت إليه يوم الأحد موجزًا مدروسًا لمثل هذا البيان، وبعد دراسة طويلة مستأنية واتصالات برقية بوزارة الدفاع في لندن، أصدرنا البيان التالي:

"بيان مشترك من الرئيس ورئيس الوزراء"

١٢ من أغسطس عام ١٩٤١

اجتمع الرئيس الأمريكي، والمستر تشرشل رئيس وزراء بريطانيا ممثلاً للحكومة البريطانية ورأيا من الأوفق إعلان بعض الأسس المشتركة في سياسة بلادهما الوطنية التي يعلقان عليها آمالهما في تحقيق مستقبل أفضل للعالم

أولاً: أن بلادهما لا تتطلع إلى امتداد إقليمي أو غير إقليمي.

ثانيًا: أنها لا تريد أن ترى أية تغيرات إقليمية لا تتفق وإرادة الشعوب المعنية التي يتحتم التعبير عنها في حرية تامة.

ثالثًا: تقدر الدولتان حق كل الشعوب في أن تختار أسلوب الحكم الذي تتمنى أن تحيا في كنفه، وتتمنيان أن تريا حقوق السيادة والحكم الذاتي قد ردت إلى هؤلاء الذين حرموها غصبًا.

رابعًا: ستحاول الدولتان، تقديرًا منهما لواجباتهما القائمة تمكين كل الدول كبيرها وصغيرها، المنتصر منها والمنهزم، من الوصول إلى تجارة العالم وموارده الأولية التي تحتاج إليها لرفاهيتها الاقتصادية.

خامسًا: تريد الدولتان أن تحققا أبعد ما يستطاع من تعاون بين كل الشعوب في المجال الاقتصادي لتأمين مستويات حسنة للعمال، والنهوض الاقتصادي والكفالة الاجتماعية للجميع.

سادسًا: ترجو الدولتان، بعد تدمير العدوان النازي أن تريا سلامًا مستقرًا يكفل لكل الشعوب سبل العيش داخل بلادها في اطمئنان، ويكفل بالتأكيد حياة الرجال في كل البلاد حياة متحررة من الرعب والفقر.

سابعًا: يكفل هذا السلام لكل الناس حرية عبور البحار والمحيطات دون مانع.

ثامنًا: يحتم على كل شعوب العالم في اعتقاد الدولتين التخلي عن استخدام القوة لدوافع واقعية وروحية في وقت واحد.

ولما كان من غير المستطاع صيانة السلام في المستقبل إذا بقيت الشعوب التي تنذر أو التي يحتمل أن تنذر بالعدوان خارج حدودها تستعمل الأسلحة البرية والبحرية والجوية في هذا الغرض، فإنهما توقنان أن نزع السلاح من مثل هذه الشعوب أمر ضروري إلى أن يتم إقامة جهاز أوسع وأكثر دوامًا للأمن العام. وستعاونان وستشجعان أيضًا كل الطرق العملية التي تخفف أثقال التسلح عن عوائق الشعوب المحبة للسلام.

وقد تكشفت الأهمية الكبرى لهذا البيان الذي أصبح يسمى فيما بعد "ميثاق الأطلنطي" والمدهش في هذا البيان أن دولة "مازالت محايدة من الجبهة الفنية" كأمريكان قد اشتركت في إصداره مع دولة محاربة.

ولا مرية في أن اشتمال البيان على تدمير العدوان الثأري عن آخره "وهذه فقرة جاءت في المسودة التي جهزتها" يعد تحديًا ظاهرًا يمكن اعتباره بمنزلة عمل حربي. وأخيرًا برزت ظاهرة أخرى هي ما تجلى في الفقرة الأخيرة من البيان من واقعية وشجاعة، فقد دلت على أن أمريكا ستشترك معنا بعد الحرب في القيام بأعمال البوليس الدولي إلى أن ينتهي العالم من وضع نظام أحسن. وتم الوصول في الاجتماعات الدورية بين قوادنا العسكريين والبحريين إلى اتفاقات كثيرة بينهم. وكنا نرى الخطر في الشرق الأقصى ماثلاً باستمرار. وكانت حكومتا بريطانيا وأمريكا منذ عدة أشهر على وفاق تام نحو البيان. وفي آخر شهر يوليه تم احتلال اليابانيين عسكريًا للهند الصينية. وبهذا الاعتداء السافر أصبحت جيوشهم العسكرية في موقف يمكنها من توجيه الضربة إلينا في الملايو، وإلى الأمريكيين في الفلبين، وإلى الهولنديين في جزر الهند الشرقية.

وفي الرابع والعشرين من شهر يوليه طلب الرئيس روزفلت من حكومة اليابان "كخطوة أولى للوصول إلى تسوية عامة" إعلان حياد الهند الصينية، وجلاء الجيوش اليابانية عنها. ولكي يكتسب هذا الطلب طابع التنفيذ أصدر

الرئيس أمرًا بتجميد كل الأموال اليابانية في أمريكا. ودفع هذا العمل إلى وقف كل الاتصالات التجارية مع اليابان، وقامت حكومة بريطانيا بإجراء مشابه، وقام الهولنديون بعد يومين بالعمل نفسه. وكان اشتراك هولندا في هذه الأعمال معناه قطع كل تموينات البترول عن اليابان بضربة واحدة.

ومرت رحلة العودة إلى أيسلندا بدون حادث، بالرغم من أننا أرغمنا في إحدى المراحل على أن نبذل سبيلنا بسبب ما روى لنا عن وجود غواصات في أماكن قريبة. واحتوت القوات التي قامت بحراستنا على مدمرتين كان بإحداهما ضابط بحري تحت التمرين هو فرانكلين ديلانور وروزفلت الصغير نجل الرئيس.

وفي الخامس عشر واجهنا قافلة مشتركة تتجه إلى الوطن. وتشمل ثلاثًا وسبعين باخرة جميعها على أحسن ما يرام بعد رحلة جميلة عبر الأطلنطي، وكان المشهد مشجعًا للغاية، وقد فرحت البواخر التجارية أعظم الفرح بمشاهدة البارجة "الأمير ويلز" وفي صباح سبت السادس عشر من أغسطس بلغنا الجزيرة ووقفنا في خليج هافال. ثم انتقلنا إلى ريجافيك في مدمرة وقد استقبلني حشود من الجماهير في الميناء استقبالاً حارًا صاخبًا، وكانت الجماهير تكرر تحياتها الودية حينما ترانا طيلة فترة إقامتنا. وحينما تركنا الميناء بعد الظهر بلغت تحياتها ذروتها في صورة بالغة الروعة ارتفع فيها التصفيق والهتاف بصورة لم ترها ريكجافيك كما روى لي بعد. وبعد قيامنا بزيارة قصيرة لالثينفيشوس لتحية الوصي وأعضاء وزارة أيسلندا ذهبت لأرى عرضًا مشتركًا قامت به القوات البريطانية والأمريكية، وكان عرضًا طويلاً مر أمامنا في صفوف ثلاثية، وعزفت الموسيقى خلاله نشيد البحرية الأمريكية فأثر هذا النشيد على مخيلتي حتى أنني لم أتمكن من نزعه من ذاكرتي إلى وقت بعيد. واستطعت أن أدخر الوقت اللازم لزيارة المطارات الحديثة التي كنا نشيدها، ولزيارة العيون الساخنة الهائلة والبيوت الزجاجية المبنية فوقها، وتراءى لي فورًا أن في الوسع استعمال هذه العيون لتدفئة ريكجافيك، وحاولت

أن أزج بالمشروع إلى الأمام في وقت الحرب، ويسعدني أنه قد تحقق الآن. وقد أدت قوات العرض التحية لي، وابن الرئيس واقف بجواري. وقد العرض برهانًا جديدًا واضحًا على التضامن الإنجليزي الأمريكي. وقد زرت القطعة الأمريكية راميليس حينما رجعت إلى خليج هفالز، وخطبت في ممثلين لبحارة البواخر البريطانية والأمريكية الراسية هناك وبينها المدمرتان "هيكلا" و"تشرشل". وعندما خيم الظلام بعد هذا الاختبار المتشعب أبحرنا إلى سكابافلو وبلغناها صباح الثامن عشر دون أي حادث آخر، وفي اليوم التالي وصلت إلى لندن.

ميناء الدر "بيرل هاربور"

كنت أنا والسفير وينانت وافريل هاريمان وحدنا في تشيكرز مساء الأحد السابع من ديسمبر عام ١٩٤١، وحولت مؤشر الراديو لننصت إلى نشرة أنباء الساعة التاسعة التي بدأت قبل لحظات، وكان ثمة بعض الأخبار عن القتال في الجبهة الروسية، وفي الجبهة الليبية، ثم تبع ذلك بعض الأنباء عن هجوم ياباني على السفن الأمريكية في جزر هاواي، وعلى البواخر البريطانية في جزر الهند الشرقية الهولندية. وتبع ذلك أذيع أن المستر "فلان" سيذيع تعليقًا بعد الأنباء، ثم يتبع ذلك برنامج "وحدة الألباب" أو ما ضاهى ذلك. ولم يخطر ببالي شخصيًا أي شيء. بيد أن أفريل هاريمان ذكر أن ثمة شيء عن هجوم ياباني على الأمريكيين، وبالرغم مما كنا نشعر به كلنا من جهد، تجددت كل مشاعرنا. وكان سويزر الساقي قد سمع بما حدث فحضر إلى الحجرة يقول: "هذا صحيح لقد سمعنا أنفسنا ما وقع في الخارج، فقد أغار اليابانيون على الأمريكيين" وعم جونا الوجوم، وكنت قد أذعت في حفلة غداء رسمية أقيمت في الحادي عشر من نوفمبر أن بريطانيا ستعلن الحرب على اليابان بعد ساعة واحدة إذا هاجمت أمريكا. وغادرت مقعدي على المائدة، واجتزت القاعة إلى المكتب الذي يعج بالعمل، وطلبت تسجيل محادثة تليفونية لي مع

الرئيس. وأدركني السفير في الخارج. وقد توهم أنني أنوي القيام بخطوة يعسر إصلاحها، فقال: "ألا ترى من الأحسن أن نتيقن أولاً؟".

وكان الرئيس روزفلت بعد دقيقتين أو ثلاث دقائق على الناحية الأخرى من الخط التليفوني فقلت: "يا سيدي الرئيس.. ما الذي يردد حول اليابان؟" قال: "إنه صحيح. لقد أغاروا علينا في ميناء الدر.. وها نحن أولاء معكم الآن على السفينة نفسها. وناولت وينانت السماعة، وجرى كلام قصير، سمعت خلاله السفير يقول: "حسنًا... حسنًا". ثم ينطق في جد أكثر: "آه". ورجعت أتكلم إلى الرئيس روزفلت فقلت: "إن هذا التطور ييسر الأشياء.. والله معك" ورجعنا إلى القاعة، والتمسنا تهيئة أفكارنا للحدث العالمي الضخم الذي حدث، والذي كان مفاجئًا بطبعه، بحيث جعل أولئك المسئولين يلهثون من الحيرة. وتحمل صاحباي الأمريكيان الصدمة تحملاً يثير الإعجاب، ولم تكن عندنا فكرة إطلاقًا عن أن الأسطول الأمريكي قد أصيب بأضرار بالغة، ولم ينتحبا أو يندبا بسبب دخول بلادهما الحرب. ولم يبديا كلمة واحدة في الإفصاح عن الألم والعتاب. بل في إمكان الإنسان أن يقول أن هذا التطور خلصهما من عذاب ألم طويل. ولم ينعقد البرلمان قبل يوم الثلاثاء، وكان الأعضاء موزعين في نواحي الجزر البريطانية، ومن العسير جمع شملهم لتعسر رق الاتصال بهم. وطلبت من مكتبي أن يتصل حالاً برئيس المجلس ومراقبته للعمل على دعوة البرلمان بمجلسيه إلى الانعقاد في اليوم التالي. وأبرقت إلى وزارة الخارجية أطالبها بأن تجهز حالاً دون أي تخلف إعلانًا بالحرب على اليابان، مع مراعاة كل الخطوات الرسمية الضرورية، وأن يكون كل شيء معدًا في وقت انعقاد البرلمان، وطلبت أيضًا دعوة كل أعضاء وزارة الحرب لإخبارهم، وكذلك رؤساء أركان الحرب ووزراء القوات المسلحة الذين كنت أتوقع وصول الأخبار إليهم.

وربما لا يتضرر أي أمريكي إذ قلت: إن وقوف أمريكا إلى جانبنا في الحرب كان مبعثًا لأعظم سرور لي. ولم يكن في طاقتي أن أتكهن بما تجري

به الأحداث، ولا أقول أنني كنت قد قدرت بصورة دقيقة قوة اليابان الحربية، ولكنني علمت في هذا الوقت أن أمريكا قد غدت غارقة في الحرب حتى رأسها، وستواصلها حتى النهاية. وهكذا فقد كسبنا في النهاية. نعم لقد كسبنا بعد دنكرك، وبعد أن سقطت فرنسا، وبعد حكاية وهران المرعبة، وبعد خطر الغزو، حينما كنا شعبًا غير مسلح، إذا استثنينا الأسطول والطيران، وبعد نضالنا الدامي ضد حرب الغواصات وبعد أن انتصرنا بمشقة في الجولة الأولى من معركة الأطلنطي وبعد سبعة عشر شهرًا من القتال وحدنا/ وتسعة عشر شهرًا من تقلد المسئولية في أحلك الظروف. نعم لقد كسبنا الحرب، فستحيا إنجلترا وتحيا بريطانيا وتحيا جامعة الشعوب البريطانية، والإمبراطورية. أما إلى متى ستستمر الحرب، وعلى أية صورة ستنتهي فلم يكن في طاقة إنسان أن يعلمه، ولم يهمني أن أعلمه في هذا الوقت فسنخرج مرة أخرى في تاريخ جزيرتنا المديد، وبالرغم مما يلاحقنا من ضربات وما يصيبنا من مشقة، فائزين سالمين. وهكذا لن نفنى ولن ينقرض تاريخنا ولن ننتهي كأفراد أيضًا، لقد تقررت نهاية هتلر، وتقررت نهاية موسوليني. أما اليابانيون فسيعركون عركًا كالطحين. وما بقى لا يتجاوز كونه مجر تطبيق سليم للقوة العاتية المتفوقة. فالإمبراطورية البريطانية وروسيا وأمريكا في النهاية كلها تتماسك الآن بكل ما عندها من حياة وقوة، أراها على هدى معلوماتي تصل في قوتها إلى ضعفين أو ثلاثة أضعاف ما عند أعدائها. ولا ريب ثمة في أن القتال سيستمر. وترقبت تدهورًا أو أضرارًا خطيرة في الشرق، ولكن هذا التدهور لن يكون غير مجرد فترة تمر. وفي طاقتنا بوساطة اتحادنا أن نخضع كل قوة معادية في العالم. وقد تحدث خطوب، وقد ندفع أثمانًا غالية، ونجتاز محنًا عنيفة ولكن لا مرية في النهاية ولا شقاق.

وقد التمس بعض السخفاء، وهم كثرة، لا ينحصر وجودهم في بلاد العدو، بخس وزن القوة الأمريكية فقال بعضهم: "إن الأمريكيين مترفون". وقال البعض الآخر: إنهم لن يأتلفوا مطلقًا، وأنهم سيمشون كالرعناء من

بعيد، ولن يجازفوا بأنفسهم في المعركة، فهم لا يطيقون تحمل إراقة الدماء، وستوقف ديمقراطيتهم ونظم انتخاباتهم المتكررة جهدهم الحربي، وسيكونون أدنى إلى وصمة خفية في نواحي الأصدقاء والأعداء على حد سواء. وسنشاهد الآن وهن هؤلاء الناس الوافري العدد، الكثيري الغنى والثرثرة، ولكني كنت قد درست الحرب الأهلية الأمريكية وعلمت أنها قد سارت إلى عاقبتها المحتومة. وسرى الدم الأمريكي في شراييني. ورجعت إلى مخيلتي ملاحظة كان إدوارد جراي قد قالها قبل ثلاثين عامًا تقريبًا، وهي أن أمريكا أكثر شبهًا بمرجل ضخم، وإذا أوقدت النار تحته فليس هناك ما يخفف من القوة التي يولدها. وذهبت إلى فراشي في تلك الليلة وقد امتلأت وأثقلت بالمشاعر والعواطف، فرقدت رقاد الإنسان الذي يحس بالرضا والخلاص. وحينما تنبهت من رقادي قررت السفر للقاء روزفلت. وبسطت الموضوع على وزراء الحرب، حينما اجتمعنا ظهر ذلك اليوم، فوافق كل الرفاق، وبعد ذلك كتبت إلى الملك فوافق جلالته كذلك.

وأعطتني وزارة الحرب حق إعلان الحرب على اليابان فورًا، وقد نفذت كل الأعمال المطلوبة، وحينما شرع إيدن في رحلة إلى موسكو وكنت مسئولاً عن وزارة الخارجية، أرسلت إلى السفير الياباني الرسالة التالية:

وزارة الخارجية: ٨ من ديسمبر

"سيدي.. في الليلة السابعة من شهر ديسمبر عرفت الحكومة البريطانية أن القوات اليابانية دون أي إنذار سابق في صورة إعلان بالحرب أو تحذير أخير بإعلان التمست الهبوط إلى شاطئ الملايو، وضربت سنغافورة وهونج كونج.

ونظرًا لما حدث من عدوان قائم على الاستخفاف، والتحدي المباشر للقانون الدولي، وخاصة للمادة الأولى من ميثاق لاهاي الثالث المرتبط ببدء الأعمال الحربية وهو الميثاق الذي وقعته كل من اليابان وبريطانيا. صدرت

الأوامر إلى السفير البريطاني في طوكيو بأخبار حكومة الإمبراطورية اليابانية باسم حكومته في بريطانيا أن حالة الحرب قد بدأت بين دولتينا.

لي الشرف يا سيدي مع وافر التقدير أن أكون خادمكم المطيع.."

ونستون تشرشل

ولم يرض هذا التعبير المجامل بعض الناس. ولكن ليس ثمة ما يحول دون أن تكون مهذبًا مع من ترغب أن تقتله شخصيًا.

وانعقد البرلمان في الثالثة مساء، وامتلأ بالرغم من قصر الوقت وبنص الدستور البريطاني على إعلان الحرب من حق الملك باستشارة وزرائه، ويواجه البرلمان هذه الحقيقة على أنها أمر قائم، وعلى هذا فقد كنا أكثر وفاء لوعدنا مع أمريكا، إذ أعلنا الحرب فعلاً على اليابان قبل تقرير الكونجرس الأمريكي إعلانها. وكانت الحكومة الملكية الهولندية قد جهزت إعلانها كذلك. واقترع المجلسان على هذا القرار وأجمعا عليه ومر زمن ما قبل أن نسمع ما حدث فعلاً في ميناء الدر تفصيلاً. ولكن الحكاية سجلت الآن بصورة تامة ووافية. لقد كانت الخطة اليابانية إلى أول عام ١٩٤١ تتبنى على اشتباك الأسطول الياباني الرئيسي في موقعة هائلة في مياه الفلبين، على حين يلتمس الأمريكيون كما هو مترقب سلوك سبيلهم مجتازين الباسفيك، لنجدة حاميتهم في هذا الموقع الأمامي، ولكن فكرة الهجوم المباغت على ميناء الدر ثبتت في رأس الأميرال ياماماتو القائد الأعلى الياباني. وكملت التأهبات لهذه الضربة المخاتلة قبل إعلان الحرب، في سرية وتكتم بالغين وفي الثاني والعشرين من نوفمبر نزلت قوة خارقة مكونة من ست حاملات تؤيدها البوارج والطرادات في ميناء لم تتعود القدوم إليه في جزر كوريل، شمالي اليابان مباشرة وعين يوم الأحد السابع من ديسمبر موعدًا للهجوم، في السادس والعشرين من نوفمبر أبحرت القوة الهائلة بقيادة الأميرال ناجومو، واتجهت القوة في سيرها إلى الشمال من هاواي، مجتازة السحاب والزوابع في هذه

المناطق الشمالية، إلى أن دنت من غرضها دون أن يحس بها أحد، وقبل بزوغ شمس اليوم الموقوت شن الهجوم من موقع يبعد مائتين وخمسة وسبعين ميلاً عن شمال ميناء الدر، وأسهمت في الهجوم ثلاثمائة وستون طائرة تشمل قاذفات من شتى الأنواع، تحميها المقاتلات، وفي السابعة والدقيقة الخامسة والخمسين وقعت القنبلة الأولى وكانت البوارج الثماني لأسطول الباسفيك الهدف الرئيسي للهجوم. وكانت ثمة أربع وتسعون بارجة من سفن الأسطول الأمريكي في الميناء. ولحسن الحظ كانت حاملات الطائرات مع قوة كبيرة من المدرعات متخلفة عن الميناء في مهمات خاصة. وانقضت المعركة في العاشرة صباحًا. وتراجع العدو تاركًا خلفه أسطولاً مدمرًا تلتهمه الحرائق والدخان وروح الثأر التي سادت أمريكا. وقد انفجرت البارجة أريزونا، ودمرت البارجة أوكلاهوما، وغرقت البارجتان ويست فرجينيا وكاليفورنيا، وأصيبت كل البوارج الأخرى بأضرار ما عدا بنسلفانيا. وقتل ما يقرب من ألفي أمريكي، وجرح ما يقرب من ألفين آخرين. وانتقلت السيطرة على المحيط الهادي إلى أيد اليابانيين، وتحول الميزان الاستراتيجي العالمي في الوقت الحالي تحولاً كاملاً.

وكان مما قضى به على أصدقائنا الأمريكيين أن يتحملوا سلسلة أخرى من النوازل في الفلبين، حيث يتقلد القيادة الجنرال ماك آرثر. وفي العشرين من نوفمبر استقبلنا إنذارًا يومئ إلى تطور خطير في العلاقات الدبلوماسية وشرع الأمير هارت قائد الأسطول الأمريكي المتواضع في آسيا، مباحثاته مع السلطات البحرية البريطانية والهولندية القريبة، وبدأ تحقيقًا لخطته الحربية، يوزع قواته ناحية الجنوب حيث نوى أن يجمع قوة هائلة في المياه الهولندية بالإسهام مع أصدقاءه المرتقبين، ولم يكن تحت أمرته سوى طراد ثقيل واحد، وطرادين خفيفين إلى جانب اثنتى عشرة مدمرة وعدد من السفن المساعدة. وقد تجمعت قوته في غواصاته التي كان لديه منها ثمان وعشرون، وفي الساعة الثالثة من صباح الثامن من ديسمبر تلقف الأميرال رسالة تتضمن أخبارًا مدهشة عن حدوث هجوم على ميناء الدر، وبادر فورًا دون أن

يترقب تأكيد واشنطن للخبر بتحذير كل من يهمهم الأمر ببدء العمليات الحربية، وعند الفجر قامت طائرات الانقضاض اليابانية بتسديد ضربتها، واستمرت الغارات الجوية طال الأيام اللاحقة على مدى يزداد باستمرار، وفي العاشر من ديسمبر التهمت الحرائق القاعدة البحرية في كافيتي التهامًا كاملاً، وفي صباح اليوم نفسه قام اليابانيون بإنزال أول قوة في شمال جزيرة نوزوان وتولى إنزال القوات بسرعة مذهلة. ودمرت أكثر طائرات أمريكا في المعارك أو على الأرض. ورحل ما بقي منها في العشرين من ديسمبر إلى بورت واروين في استراليا. وكانت سفن الأميرال هارت قد شرعت تتوزع جنوبًا قبل عدة أيام، ولم يبق غير الغواصات لتتنازع العدو السيادة على البحر. وفي الحادي والعشرين من ديسمبر نزلت قوة الغزو اليابانية الرئيسية في خليج لينجابن لتهديد مانيلا نفسها، وبدأت الأحداث منذ هذا التاريخ تتابع على نحو ما يجري في الملايو، ولكن الدفاع بدأ يمتد، وهكذا تفجرت خطط اليابان المرسومة منذ وقت بعيد في شعلة من انتصارات.

وبهت هتلر وأركان حربه، وحكى بودل في محاكمة كيف حضر هتلر إلى حجرة خرائطي في بروسيا الشرقية عند منتصف الليل ليحمل هذه الأخبار إليّ وإلى الماريشال كاتيل. وكان مذهولاً منها فعلاً. ولكنه على أي حال أصدر أوامره صباح الثامن من ديسمبر إلى الأسطول الألماني بمهاجمة السفن الأمريكية أينما كانت. وسبق هذا بثلاثة أيام إعلان ألمانيا الحرب على أمريكا بصورة رسمية.

ودعوت إلى اجتماع في الساعة العاشرة من ليلة التاسع من ديسمبر في جرة الحرب الوزارية، لاستعراض الموقف البحري، وكان أغلب الحاضرين من رجال الأميرالية. وكنا اثنى عشر شخصًا تقريبًا، التمسنا تقويم ما نتج عن هذا التغير الأساسي في موقفنا الحربي ضد اليابان، فقد فقدنا السيادة على كل بحر ما عدا الأطلنطي. وأصبحت أستراليا ونيوزلندا وكل الجزر الهامة الأخرى في منطقتها متصدية للهجوم. ولم يبق لدينا غير سلاح واحد مهم. فقد بلغت

البارجة "الأمير ويلز" والبارجة "ريبالس" سنغافورة وقد أرسلنا هاتين البارجتين إلى هذه المياه لنباشر بوساطتهما ذلك التهديد الخفي، الذي يصاحب البوارج الكبرى ذات القدرة الحربية العالية، حينما تعلن تحركاتها. ولكن كيف نستطيع أن نستخدمها الآن؟ لا شك في أنه يلزمها الذهاب إلى البحر والاختفاء بين الجزر التي لا تعد ولا تحد. واتفق على هذا بالإجماع وتراءى لي أن أحسن طريق لهما هو اجتيازهما المحيط الهادي وانضمامها إلى ما بقي من الأسطول الأمريكي. ولا شك في أن حركة كهذه ستكون ذات دلالة كريمة في مثل هذا الوقف. وتدعم الروابط بين دولتي العالم الناطقتين ـ بالإنجليزية، وكنا قد قبلنا عن طيب خاطر، طلب وزارة البحرية الأمريكية عودة بوارجها الكبرى من الأطلنطي.

وهكذا يستطاع في خلال أشهر قليلة خلق أسطول على ساحل أمريكا الغربي يمكنه أن يخوض معركة حامية حاسمة إذا دعت الضرورة. وسيكون وجود مثل هذا الأسطول، ومثل هذه الحقيقة أفضل درع مستطاع يحفظ أصدقاءنا في أستراليا. وقد استهوتنا كلنا هذه الفكرة ولكننا قررنا إرجاء البت تلك الليلة، وفي الصباح تقرر ما سنعمله بالأمير ويلز وريبالس.

ولم تمر ساعتان حتى أصبحت البارجتان في قاع البحر. وفي الصباح العاشر كنت أفتح عيني حينما رن جرس التليفون على كثب من سريري، وكان المتكلم لورد البحر الأول، وظهر صوته غريبًا لي، وتنحنح أولاً ولم أتمكن في بادئ الأمر أن أسمع قوله جليًا. قال: "يا رئيس الوزراء يحزنني أن أحمل إليك إغراق اليابانيين الأمير ويزل وريبالس، بوساطة الطائرات كما نعتقد. لقد غرق توم فيليب. فقلت صائحًا "هل أنت متيقن مما تقول؟" فأجاب "نعم يا سيدي، تمام اليقين". ووضعت سماعة التليفون، وشكرت الله على أنني كنت وحدي. فلم أتلق قبل طوال الحرب كلها خبرًا صاعقًا مثل هذا الخبر. ولا مرية في أن القارئ رأى ما علقناه على هاتين الباخرتين من أمان وخطط وجهد. وحينما تقلبت في فراشي على الجانب الآخر خيم على فكري ما تحتويه هذه

الكارثة الجديدة من مخاوف، فليس ثمة في المحيطين الهندي أو الهادي أية بوارج بريطانية أو أمريكية كبيرة غير تلك التي نجت من ميناء الدر، والتي بدأ تبادر بالهرب الآن إلى كاليفورنيا وغدت اليابان المهيمنة على هذه الأرجاء الشاسعة من البحار، وغدونا نحن أذلة وعراة في كل مكان.

وعند انعقاد مجلس العموم ي الحادية عشرة من ذلك الصباح، نزلت إليه لأحمل إلى الأعضاء شخصيًا أنباء ما وقع، وفي اليوم اللاحق قدمت إليهم توضيحًا وافيًا عن الموقف الجديد. وسيطر عليّ إحساس شامل من الحيرة، كما عمنا إحساس من الغضب على هذه المعركة الطويلة الجارية في ليبيا، والتي كانت نهايتها في يدر القدر. ولم أحجب عن الأعضاء إمكان تعرضنا لألوان متعددة من النكبات على أيدي اليابانيين. وفي الوقت نفسه كشفت انتصارات روسيا الحجاب عن زلة هتلر المميتة في حملته الشرقية والشتاء على الأبواب. وفي ذلك الحين سيطرنا على حرب الغواصات، ونزلت نسبة أضرارنا إلى حد كبير. وفي النهاية يحارب معنا الآن أربعة أخماس العالم فالفوز الأخير مكفول. وهذه هي خلاصة ما ذكرته ذلك اليوم. وقد استعلمت أبعد ما في فن القصص الواقعي من برود متفاديًا الوعد بالنصر القريب. وساد المجلس الوجوم، وظهر لي أنه يرجئ قراره انتظارًا للأحداث، وكان هذا كل ما رغبت فيه وكل ما ارتقبته.

الاتفاقات الإنجليزية الأمريكية

كان أول مشروع قدمه إلى الرئيس روزفلت عقب قدومي من إنجلترا، وضع بيان عظيم الشأن توقعه كل الدول التي تحارب ألمانيا وإيطاليا أو اليابان، وقد راجعت مع الرئيس التعبيرات التي استخدمناها في صياغة ميثاق الأطلنطي وجهزنا مسودات البيان، ثم أكملنا صياغته معًا، وقد كنا متفقين تمامًا من جهة المبدأ والشعور حتى في الأسلوب كذلك. وسرعان ما فوضت وزارة الحرب وتحيرت من السرعة التي عقدنا فيها الحلف الأكبر. ثم تبودلت

الرسائل، وأثيرت نقاط ومتاعب بشأن الحكومات والسلطات التي لزم أن توقع هذا البيان وتسلسلها، وقد تنازلنا عن طيب خاطر لأمريكا عن مكان الصدارة، وحينما رجعت إلى البيت الأبيض من كندا، كان كل شيء قد أعد لتوقيع ميثاق الأمم المتحدة، وتبودلت البرقيات بين لندن وموسكو، وكان كل شيء قد تقرر الآن. وقد أذاع الرئيس كل ما عنده من مجهود لإقناع لتفينوف السفير الروسي الذي عاود الظهور بعد تغير الأحداث، فتقبل عبارة "الحرية الدينية" وقد دعى لتناول الغذاء معنا في حجرة الرئيس خاصة لهذا الهدف. ولكن كان على هذا الشخص بعد مروره باختبارات متعبة في بلاده، أن يكون يقظًا كل اليقظة، وجرى كلام طويل بينه وبين الرئيس عن الروح وعن عذاب جهنم. ولعل ما قرأه علينا الرئيس في مناسبات متعددة عن وصف لما جرى بينه وبين السفير الروسي كان مؤثرًا حقًا. وفي إحدى هذه المناسبات وعدت الرئيس روزفلت بأني سأوصي بتعيينه رئيسًا لأساقفة كنتربري إذا فشل في انتخابات الرياسة القادمة. لكنني على أية حال لم أقدم مثل هذه التوصية إلى الملك أو مجلس الوزراء لأن الرئيس فاز في معركة الانتخابات في سنة ١٩٤٤، ونقل لتفينوف وهو يرتجف خوفًا مشكلة "الحرية الدينية" إلى ستالين فارتضاها كأمر واقع، وأضافت وزارة الحرب البريطانية عبارة التكافل الاجتماعي. وقد وافقت عليها باعتباري واضع أول قانون ضد البطالة. وبعد أسبوع من تبادله البرقيات مع كل جهات العالم تم الاتفاق على "الحلف الأكبر".

وقد اقترح الرئيس تغيير اسم "الدول المتماسكة" باسم "الأمم المتحدة" واقتنعت بجمال هذه التسمية، وبسطت على صاحبي الأبيات الشعرية التي أتت على لسان اللورد بيرون في قصيدته "شايلد هارولد"

"هنا حيث سل سيف الأمم المتحدة

كان مواطنونا يقاتلون في ذلك اليوم

وهذا عظيم، لأن الأمر لن يمضي رخاء"

وفي صباح الأول من يناير حمل إليّ الرئيس في مقعده المتحرك، وخرجت من الحمام ووافقت على المسودة. وليس في طاقة البيان وحده أن يربح المعارك، ولكنه أبان من نحن، ولماذا نقاتل؟ ووقع روزفلت وأنا ولتفينوف وسونج ممثلاً الصين هذه الوثيقة العظيمة في ساعة متأخرة من ذلك اليوم في مكتبة الرئيس وأوصيت وزارة الخارجية الأمريكية بجمع توقيعات الدول الاثنتين والعشرين الباقية، وأرى أن تسجل هنا الصورة الأخيرة للوثيقة:

"بيان مشترك من أمريكا وبريطانيا العظمى وشمال أيرلندا، واتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية، والصين، وأستراليا، وبلجيكا، وكندا، وكوستاريكا، وكوبا، وتشيكوسوفاكيا، وجمهورية الدومنيكان، والسلفادور، واليونان، وجواتيمالا، وهايتي، وهندوراس، والهند، ولكسمبورج، وهولندا، ونيوزيلندا، ونيكاراجوا، والنرويج، وبنما، وبولندا. وجنوب إفريقيا، ويوغوسلافيا، وتعلن الحكومات الموقعة أدناه والمذكورة أعلاه

أنها باشتراكها في برنامج موحد الأهداف والمبادئ التي احتواها البيان المشترك الصادر عن الرئيس الأمريكي، ورئيس وزراء بريطانيا العظمى وشمال أيرلندا، والمؤرخ في الرابع عشر من أغسطس سنة ١٩٤١ والمعروف بميثاق الأطلنطي، ولاقتناها بأن النصر الأخير على أعدائها ضروري للدفاع عن الحياة والحرية والاستقلال والحرية الدينية، وصيانة حقوق الإنسان والعدالة في بلادها وفي غيرها من البلدان، ولما ترتب على اشتراكها الآن في صراع مشترك ضد قوى الوحشية التي تريد أن تستعبد العالم، تعلن:

(أولاً) تتعهد كل حكومة باستغلال كل مواردها العسكرية والاقتصادية ضد أعضاء المحور الثلاثي، والدول المنضمة إليه، والتي تشتبك هذه الحكومة في حرب معها.

(ثانيًا) تتعهد كل حكومة بالتعاون مع الدول الموقعة على هذه الوثيقة، وبعدم عقد هدنة منفردة أو صلح منفرد مع العدو.

"تستطيع الدول الأخرى أن تنضم إلى هذا البيان بشرط أن تكون هذه الدول مشاركة مادية في النضال للتغلب على الهتلرية".

قد يرى مؤرخو المستقبل أن أهم نتيجة وصل إليها مؤتمرنا الأول في واشنطن الذي أطلق عليه اسم "أركاديا" وأبقاها أثرًا. هي إنشاء لجنة اشتهر اسمها بلجنة رؤساء أركان الحرب المشتركة، وقد تقرر أن يكون مكانها في واشنطن.

ولما كان من الضروري وجود رؤساء أركان حرب بريطانيا على كثب من حكومتهم، فقد رأى أن يمثلهم في واشنطن بعض كبار الضباط ويتخذوا من العاصمة الأمريكية مقرًا لهم. وكان هؤلاء الممثلون يتصلون يوميًا، بل بين كل ساعة وأخرى بلندن، وكان في طاقتهم أن يفحصوا عن آراء رؤساء أركان حرب بريطانيا ويجلوها لرفاقهم الأمريكان، حول أية مشكلة تتعلق بالحرب في كل وقت من أوقات النهار أو الليل. وقد جمعت المؤتمرات المعروفة التي عقدت في أماكن مختلفة من العالم كالدار البيضاء وواشنطن وكويبك وطهران والقاهرة ومالطة والقرم، بين الرؤساء أنفسهم أوقات تمتد أحيانًا إلى أسبوعين. وقد اجتمع خلال هذه المؤتمرات ما يقرب من تسع وثمانين جلسة من مجموع مائتي الجلسة الرسمية التي عقدتها لجنة رؤساء أركان الحرب المشتركة طوال الحرب. وفي هذه الجلسات اتخذت أغلب القرارات الهامة.

وكان الإجراء الطبيعي أن تجتمع كل لجنة من لجان رؤساء أركان الحرب للدولتين منفردة في الصباح. ثم يجتمع الفريقان خلال النهار، ويكونان لجنة واحدة، وقد يرجعان إلى الاجتماع معًا في المساء. ويبحث المجتمعون سير الحرب قاطبة. ويقدمون إلى الرئيس وإلى توصيات متفقًا عليها. وفي خلال ذلك استمرت اتصالاتنا المباشرة نحن الاثنين عادة بوساطة التليفون أو اللاسلكي،

وكنا نحن نتصل مباشرة بأركان حربنا. وفي جلسات تمهيدية كانت تبحث اقتراحات المستشارين المحترفين، وعلى هدى ذلك تصدر الأوامر إلى قادة الميدان. وأيًا كان النزاع حاميًا في وجهات النظر في لجنة رؤساء أركان الحرب المشتركة. كان ينتصر على المصالح الذاتية حتى القومية. وحينما تبلغ القرارات إلى رئيسي الحكومتين ويوافقان عليها، يمضي الجميع في تنفيذها بصدق مطلق، وخاصة أولئك الذين كانت القرارات معارضة لوجهات نظرهم الأولى. ولم تفشل قط في الوصول إلى اتفاق إيجابي للعمل. أو إلى بعث توجيهات بينة إلى القادة في كل ميدان. وكان كل قائد منفذ يعلم أن هذه التعليمات التي يتلقاها تحمل معها آراء الحكومتين المشتركة وتوجيه خبرائهما. ولم يقم قط جهاز حربي عملي كجهازنا بين أي من الحلفاء، وإني ليبهجني استمرار هذا الجهاز فعلاً إن لم يكن صورة حتى يومنا هذا.

ولم يمثل الروس في لجنة رؤساء أركان الحرب المشتركة. لقد كانت جبهتهم قضية وحيدة مستقلة، ولم تكن ثمة حاجة ولا طريق للانضمام إلى أركان الحرب. وكان يكفي أن نعلم الاتجاه العام لحركاتهم وميقاتها، وأن يعلموا هم اتجاه حركاتنا وميقاتها. ومن هذه الجهة حافظنا على أكبر قدر من الاتصال المتين بهم مثل ما سمحوا لنا به. وسأبحث في الظرف السانح في زياراتي الشخصية لموسكو وكان رؤساء أركان حرب الدول الثلاث يجتمعون حول مائدة واحدة في المؤتمرات المشتركة التي أقمناها في طهران وبالتا وبوتسدام.

فيما سلف ذكرت أن الفيلد مارشال ديل، بالرغم من أنه لم يعد رئيسًا لأركان حرب الإمبراطورية، أتى معنا على متن البارجة "الدوق أوف يورك" وقد أدى المارشال دوره كاملاً في كل المباحثات التي جرت على ظهر البارجة، بعد اجتماعنا بالزعماء الأمريكيين. وفي سرعة تبينت أنه يتبوأ منزلة بارزة في رأيهم ويؤثر عليهم تأثيرًا كبيرًا، ولم يسبق أن نال أي ضابط بريطاني أرسلناه عبر الأطلنطي خلال الحرب مثل هذا التقدير، وتلك الثقة من ناحية الأمريكيين،

وقد تمكن من أن يحظى بشخصيته وقوة إدراكه وحذقه، ثقة الرئيس روزفلت، وتمكن في الوقت نفسه من إنشاء رفقة خالصة، وصحبة شخصية مع الجنرال مارسال.

وصدر الأمر بالتوسع الهائل في حقل الإنتاج. وكان بيفر بروك في كل ذلك دافعًا قويًا. ويشهد تاريخ أمريكا الرسمي عن التخطيط الصناعي للحرب. على هذه الحقيقة شهادة كريمة. وقد وضع دونالد نيلسون المدير التنفيذي للإنتاج الحربي الأمريكي خططًا رائعة. وهنا يتحدث التاريخ الأمريكي "ولكن الافتقار إلى الإقدام كان أمرًا أوحى به اللورد بيفربروك إلى نيلسون بصورة مسرحية" ولعل الصورة التي رسمها نيلسون نفسه أحسن وصف للحقيقة التي وقعت.

أثبت اللورد بيفر بروك الحقيقة القائمة بأنه يلزمنا أن ننظر في برامج إنتاجنا إلى أقصى من مدى سنة ١٩٤٢ لنستطيع مواجهة عدو عنيد، جم الموارد وأومأ إلى أننا ما برحنا نحتاج إلى التجارب بالنسبة إلى ما طرأ من خسائر في المواد في حرب من النوع الذي نخوضه الآن، وكانت الفكرة التي يوحى بها اللورد بيفر بروك إلى لبنيلسون، ينشرها في الوقت نفسه في رأس الرئيس. وفي مذكرة قدمها اللورد بيفر بروك إلى الرئيس وضع الأرقام المحتملة لإنتاج سنة ١٩٤٢ في أمريكا وبريطانيا وكندا، بالنسبة إلى ما تفتقر إليه بريطانيا وروسيا وأمريكا. وقد أبانت المقارنة عجزًا كبيرًا في برنامج الإنتاج المقترح لسنة ١٩٤٢ وكان العجز في الدبابات (١٠.٥٠٠) وفي الطائرات (٢٦.٧٣١) وفي المدافع (٢٢.٦٠٠) وفي البنادق (مليونًا وستمائة ألف) وكتب اللورد بيفر بروك أن أرقام الأغراض الإنتاجية يتحتم زيادتها. وركز اعتقاده في تنفيذها على "إمكانيات الصناعة الأمريكية الرائعة" وكانت النتيجة تفوق عدد من الأغراض الإنتاجية في ضخامتها على ما اقترحه نيلسون من أرقام، وقد سلم الرئيس بوجوب التوسع الكلي في مضامين قوتنا الصناعية.. وأصدر توجيهه بضرورة تنفيذ برنامج يدعو إلى إنتاج خمس وأربعين ألف طائرة مقاتلة وخمس

وأربعين ألف دبابة وعشرين ألف مدفع مضاد للطائرات، وأربعة عشر ألف وتسعمائة مدفع مضاد للطائرات ونصف المليون مدفع رشاش سنة ١٩٤٢.

وفي آخر سنة ١٩٤٣ تحققت هذه الأرقام، وتفوق بعضها. ففي الملاحة مثلاً شيدت أمريكا في سنة ١٩٤٢ بواخر حمولتها (٥,٣٣٩,٠٠٠) طن، في حين شيدت في سنة ١٩٤٣ ما حمولتها (١٢,٣٨٤,٠٠٠) طن.

ودفع تركيز الفكر المستمر على الحرب ككل، ومشاوراتي المتواصلة مع الرئيس ومع كبار مستشاريه ومستشاري، وخطبتي في واشنطن وأوتارا - ورحلتي إلى كندا، وتدفق العمل المتواصل الذي يستدعي سرعة البت، وكثرة البرقيات المتبادلة مع رفاقي في الوطن، إلى أن أصبح الوقت الذي أمضيته في واشنطن ليس مجهداً فقط بل منهكاً كذلك. وتراءى لأصحابي الأمريكيين أنني أبدو مجهداً وأنه يلزمني أن أستجم، ووضع المستر ستيتينيوس دارا يملكها في مكان بعيد على الساحل بالقرب من "بالم بيتش" تحت تصرفي، وفي الرابع من يناير طرت إلى هناك. ولقيت الوقت الكافي لعلاج بعض القضايا الصعبة التي أدركتني هناك. وقد سبق لي أن فسرت الطوربيد البشري الإيطالي والغارة التي شنها على الإسكندرية والتي عطلت "الملكة إليزابيث" و"فاليانت" قد أتت هذه الكارثة بعد كل الخسائر البحرية التي أصبنا بها في هذه الفترة مقلقة للنهاية، وفي ظرف غير مناسب وإن وقفت على خطورتها فوراً. وغدا أسطول البحر المتوسط في الظرف الحالي غير موجود، كما غدت طاقتنا البحرية للدفاع عن مصر ضد الغزو البحري المباشرة محفوفة بالخطر. وظهر لي أن من المحتم في مثل هذه الحالة العارضة أن نرسل إلى مصر ما يتوافر عندنا في سواحل إنجلترا الجنوبية من الطائرات وقاذفات الطوربيد. وقد كانت نهاية هذا العمل وبيلة.

وأقلقني جداً ما حمله المستر إيدن حين رجوعه مَن موسكو من تقارير عن مطامع الروس الإقليمية، وخاصة في دول البلطيق. وكان بطرس الأكبر

قد استولى على هذه الدول التي بقيت تحت حكم القياصرة أكثر من مائتي عام. وغدت هذه الدول منذ الثورة الروسية حصن أوروبا الأمامي في وجه البلشفية. وهي من الصنف الذي يسمى الآن "بالديمقراطيات الاشتراكية" ولكنها تنبض بالحيوية وسوء الخلق، وقد رمى بها هتلر أمام الروس في بداية الحرب، كالطعم، فحدثت فيها عمليات تطهير شيوعية وروسية شديدة، وتمت تصفية كل من فيها من عناصر وشخصيات ظاهرة. وانتقلت حياة هذه الشعوب القوية إلى الأعمال البوليسية. وفي سرعة قام هتلر كما سنرى بعملية تطهير نازية مقابلة. وعاد الروس إلى الهيمنة عليها في النهاية حين الفوز الأخير.

وهكذا مضى الصراع الفتاك باستونيا ولاتفيا وليتوانيا غدوًا ورواحًا ولا يوجد أدنى ريب على أي حال في أن يكون الحق، فالدول البلطيقية يتحتم أن تكون مستقلة. وصاحبة سيادة.

وفي ليلة التاسع من يناير عدت بالقطار إلى واشنطن وبلغت البيت الأبيض في الحادي عشر منه، وهناك لقيت لجنة رؤساء أركان الحرب المشتركة قد حققت فوزًا عظيمًا في أعمالها. وأتى ما حققته مؤتلفًا مع آرائي. وفي الثاني عشر من يناير دعا الرئيس إلى اجتماع عام، وتم الاتفاق على الأسس العريضة للحرب وأغراضها، واقتصر الاختلاف على التأكيد والتفضيل. وقد سيطر عليها عامل باغ جبار هو الملاحة. ويتحدث السجل البريطاني ركز الرئيس جهوده الجليلة على ترتيب حملة أمريكية بريطانية مشتركة توجه إلى شمال إفريقيا. وتم وضع برنامج لإعداد حملة قوامها تسعون ألف أمريكيًا وتسعون ألف بريطاني تؤيدهم قوة من الطائرات في حملة إلى شمال إفريقيا. وبالنسبة إلى الاستراتيجية الكبرى اتفق رؤساء الأركان على ألا ينقل من مسرح العمليات ضد ألمانيا إلا أقل ما يستطاع من القوات اللازمة للدفاع عن المصالح الهامة في مسارح الحرب الأخرى. وكان الجنرال مارشال له الفضل الأكبر في الوصول إلى هذا القرار الرئيسي.

وفي الرابع عشر من يناير استأذنت من الرئيس روزفلت في السفر وأظهر لي ما يساوره من مخاوف حول الرحلة، فقد علم العالم كله منذ عشرة أيام بوجودنا في واشنطن، وأبرزت الخرائط وجود أكثر من عشرين غواصة معادية في سبيل رجوعنا إلى الوطن. وفي جو جميل طرنا من نورفولك إلى برمودا، حيث كانت الدوق أوف يورك ومدمرات الحراسة ترتقبنا على شواطئها المرجانية، وطرت في سفينة طائرة كبيرة من طراز بوينج، خلفت أثرًا عميقًا في نفسي. وفي خلال الرحلة التي استوعبت ثلاث ساعات أصبحت صاحبًا للطيار كيلي روجرز الذي ظهر لي رجلاً قوي الشخصية كثير الحنكة، وتقلدت القيادة بعض الوقت لاختبر هذه الآلة الضخمة التي تزن ثلاثين طنًا وأكثر، والتي ترتفع في الجو وأصبحت أكثر تعلقًا بهذه السفينة الطائرة، وسألت القائد: ما رأيك في طيراننا من برمودا إلى إنجلترا؟ وظهر لي شيء من الشجاعة خلف مظهره الوادع وقال: "في طاقتنا طبعًا أن نفعل ذلك. أن قراءة حالة الجو الحالية تومئ إلى أن سرعة سير الريح معنا أربعون ميلاً في الساعة. وفي طاقتنا أن نتم الرحلة في عشرين ساعة وسألته عن المسافة فقال: إنها ثلاثة آلاف وخمسمائة ميل تقريبًا. وهنا بدأت أفكر.

وحينما نزلنا درست الموضوع مع بورتال وباوند. فثمة أحداث كبيرة تحدث في الملايو، ويجب أن نرجع في أسرع وقت مستطاع، وقال رئيس أركان حرب الطيران فورًا: ليس ثمة ما يدعو إلى هذه المجازفة كلها، وأنه لا يمكنه أن يتحمل مسئوليتها. وعضد لورد البحر الأول رأي رفيقه. فثمة "الدوق أوف يورك" بمدمراتها الحارسة وبما فيها من أمن واستجمام، تترقبنا وقلت: "ولكن ما رأيكما في الغواصات التي أومأنا إليها" فأومأ الأميرال باحتقار مما يشير إلى حقيقة رأيه في هذا الخطر بالنسبة إلى بارجة سريعة محروسة خير حراسة. وتراءى لي أن القائدين يوقنان أني سأطير وحدي وأدعهما يرجعان في البارجة ولهذا قلت "سيكون المكان بالطبع فسيحًا لنا كلنا" وهنا تبدل وجهاهما. وبعد تفكير قصير قال بورتل: إن القضية خليقة بالبحث وأنه سيحث الموضوع

تفصيلاً مع قائد السفينة الطائرة. وسيدرس حالة الجو مع سلطان الأرصاد الجوية. وعند هذا الحد تركت الموضوع.

وبعد ساعتين رجع القائدان، وقال بورتال: أنه يوقن أن في وسعنا بأن نقوم بالرحلة، ففي إمكان الطائرة أن تقوم بها في أوقات مناسبة. ويظهر أن حالة الجو سانحة تمامًا. بمساعدة الريح، ولا مرية في أن من المهم الإسراع في الوصول إلى أرض الوطن. وقال باوند: أنه كون لنفسه فكرة جميلة عن الطائرة وقائدها الذي يظهر له متمتعًا بحنكة لا تبارى. ولا شك أن ثمة مغامرة، ولكن في الرحلة البحرية مغامرة كذلك لوجود الغواصات. وهكذا قررنا السفر بالطائرة إلا إذا ساء الجو. وتقرر أن نشرع في الرحلة في الثانية بعد ظهر يوم غد. ورأى أن من اللازم تخفيف المتاع الذي نحمله، والاكتفاء ببعض صناديق من الأوراق اللازمة التي لا غنى عنها، وقد تقرر أن يظل "ديل" في واشنطن كممثل عسكري شخصي لي لدى الرئيس. ولهذا انحصر فريقنا في وفي باوند وبورتال، وماكس بيفر بروك وشارل موردان وهوليس أما الباقون فسيعودون في "الدوق أوف يورك".

وفي ساعة مبكرة من صباح الغد صحوت دون وعي، وقد هيمن عليّ اعتقاد بأنه يجب ألا أرقد. ويتحتم أن أقر بأنني أحسست بشيء من الرعب وتخيلت هذه المسافات الواسعة من الماء، وأننا سنبعد عن البر بمقدار ألف ميل حتى نقترب من الجزر البريطانية، وتراءى لي أنني اقترفت عملاً طائشًا وأننا وضعنا عددًا أكثر من اللازم من البيض في سلة واحدة. وكنت أرنو إلى رحلة جوية عبر الأطلنطي بعين الخوف. ولكن السهم قد نفذ. ومع ذلك فإنني أعترف بأنهم لو قدموا إلي عند الفطور أو قبل الغذاء، وأخبروني أن الجو تبدل وأنه يلزمنا السفر بالبحر، فإنني كنت أوافق قطعًا على المضي في السفينة الرائعة التي قطعت كل هذه المسافات البعيدة لنقلنا. وكان الأمر كما ترقب قائد الطائرة وهو أن المشقة في الارتفاع فوق الماء. وفكرت في أن يلزمنا أن ندفع التلال المنخفضة التي تقفل سبيل الميناء، ولم يكن ثمة خطر فعلاً. فقد كنا

في أيد أمينة وطارت الطائرة الجبارة على علو ربع ميل فوق الجرف، وكان قدامنا مسافة أخرى يمكننا توفيرها في العلو. وليس هناك ريب فيما يحس به المسافر من راحة في هذه السفن الطائرة. وسارت الحركة بسهولة، وقضى علي التردد في يسر، وأمضينا فترة بعد الظهر في حالة رائعة. ثم تناولنا عشاء مرحًا. وتتكون هذه الطائرات من طبقتين، ويصعد الشخص سلمًا ليصل إلى حجرة القيادة، وحل الظلام، وكانت كل التقارير طيبة، فقد كنا نطير على علو سبعة آلاف قدم تقريبًا بين ضباب كثيف. وكان في طاقتنا أن نرى الطرق الأمامي للأجنحة، وقد تتابعت فوقها الشرارات النارية من تفريغ الزيت المحترق. وفي هذه الطائرات أنبوبة كبيرة من المطاط تتمدد وتتكمش أحيانًا لمنع التجمد. وقد أوضح لي قائد الطائرة طريقة عمل هذا الجهاز، وكنت أبصر من حين إلى آخر الجليد وهو يتحلل وذهبت إلى النوم حيث نمت نومًا عميقًا عدة ساعات وتنبهت قبل الفجر، وذهبت فورًا إلى حجرة القيادة، وبدأ نور النهار ينداح شيئًا فشيئًا، وأبصرت من تحتنا أرضًا غير خالية من السحب، وبعد أن أمضيت ساعة تقريبًا وأنا قاعد في مقعد مساعد الطيار، شعرت بإحساس من الانزعاج حولنا، وكان مفروضًا أننا ندنو من إنجلترا من الجنوب الغربي، وكان مفروضًا أن نكون قد عبرنا جزر شيلي، ولكننا لم نتمكن من مشاهدتهما خلال الفتحات التي بين السحب، ولما كنا قد طرنا أكثر من عشر ساعات في سحاب كثيف لا نبصر فيه غير نجم واحد فمن المتوقع أن نكون قد ملنا عن سبيلنا. وكانت الاتصالات اللاسلكية مرتبطة طبعًا بقواعد الحرب العادية. وبان من المناقشات الجارية أننا لم نكن نعلم أين نحن بالضبط. وفورًا تكلم بورتال الذي كان يشرح الوضع لقائد الطائرة وقال لي: سنتجه فورًا إلى الشمال، وفعلاً تم هذا، وبعد نصف ساعة تقريبًا خرجنا من السحب لنبصر إنجلترا أمامنا وفي سرعة بلغنا سماء بلايموث، حيث نزلنا بعد أن تفادينا المناطيد المنيرة بهدوء وراحة.

وحينما غادرت الطائرة قال لي قائدها "لم أحس قط يا سيدي بالراحة في حياتي كما أحسست بها وأنا أنزل بك في الميناء بسلام، ولم أدرك أهمية ملاحظته حينئذ ولكنني عرفت فيما بعد أننا لو استمررنا في السير خمس دقائق أو ستًا أخرى قبل اتجاهنا شمالاً، لصرنا فوق بطاريات الألمان المضادة في بريست. فقد ملنا أكثر من اللازم جهة الجنوب خلال الليل. والأدهى من هذا أن التعديل المضبوط الذي تم في سيرنا قد بلغ بنا إنجلترا لا من الجهة الجنوبية الغربية التي كانوا يترقبون قدومنا منها بل من الجهة الجنوبية الشرقية التي تجيء منها طائرات العدو عادة، وقد أسفر هذا عن وصول الخبر بأن طائراتنا هي قاذفة قنابل معادية آتية من بريست، وصدر الأمر إلى ست طائرات هاريكين من القيادة المحاربة بأن توقعنا. ولكنها لم تفلح في إيقاعنا.

وأرسلت برقية إلى الرئيس روزفلت أقول "لقد وصلنا من برمودا إلى هنا بوثبة واحدة تدفعنا ريح مواتية سرعتها ثلاثون ميلاً".

انتصارات أمريكا البحرية

بحر المرجان وجزيرة ميواي

حدثت الآن في المحيط الهادي حوادث مثيرة، أثرت على سير الحرب كلها.

فلم تأت نهاية شهر مارس حتى كانت المرحلة الأولى من خطة اليابان الهجومية قد حققت فوزًا تامًا ذهل واضعوها أنفسهم. فقد هيمنت اليابان على هونج كونج وسيام والملايو وكل منطقة الجزر الرائعة التي تؤلف جزر الهند الشرقية، وكانت القوات اليابانية تتوغل في بورما توغلاً عميقًا. وما فتئت القوات الأمريكية تحارب في كوريجيدور في الفلبين، ولكن بغير أمل.

وقد وصلت أمجاد اليابان إلى قمتها، فالاعتزاز بالانتصارات العسكرية والثقة في القيادة، عززا الاعتقاد بأن الدول الغربية ليس لديها رغبة في القتال

حتى النهاية. وقد وقفت جيوش الإمبراطورية على الحدود التي اختيرت لها في الخطط التي جهزت قبل الحرب لتكون الذروة النهائية في التقدم. وكان في إمكان اليابانيين في هذه المنطقة الرائعة التي تشمل موارد وثروات لا حد لها ولا حصر، أن يوطدوا أقدامهم ويركزوا فتوحاتهم، ويطوروا هذه القوة التي نالوها حديثًا.

وكانت خطتهم المجهزة منذ وقت طويل، توجب التوقف في هذه المرحلة فترة للاستجمام قليلاً، ومقاومة أي هجوم أمريكي مضاد وترتيب زحف جديد. ولكن تراءى للقادة اليابانيين في هذا النصر المتألق، أن ساعة تحقيق آمالهم قد قربت، وعليهم - والحالة هذه - أن يكونوا ذوي كفاية لها. وقد وجدت هذه الأفكار لا من مجرد إغراء غريزي يتعرض له الناس من الانتصار المذهل فقط، بل من التفكير العسكري السليم، وبان لهم أن مشكلتهم الاستراتيجية المتعادلة تقوم على اختيار أحد أمرين، ترتيب قطاعهم الحديث ترتيبًا كليًا، أو التقدم إلى الأمام والخوض بعمق لتأمين الدفاع عن هذا القطاع.

وبعد مشاورات طوكيو تقرر اللجوء إلى السبيل الأكثر طموحًا، وامتداد قبضتهم لتهيمن على جزر الأليوشان الغربية وجزيرة ميدواي، وجزيرة ساموا، وجزر فيجي، وكاليدونيا الحديثة، وميناء مورني في جنوب غينيا الجديدة. وسيهدد هذا الامتداد ميناء الدر الذي ما فتئ قاعدة أمريكا الرئيسية، كما أنه إذا حوفظ عليه تمامًا سيدفع إلى قطع المواصلات المباشرة بين أمريكا وأستراليا، ويؤمن لليابان قواعد مناسبة لشن هجمات أخرى في المستقبل.

وقد أبدت قيادة اليابان العليا غاية الجرأة والعبقرية في وضع خططها وتنفيذها، وكلنها بدأت على مبادئ لم تقدر فيها القوى الدولية في نسبها السليمة. ولم يمكن هذه القيادة قط أن تدرك القوة الكامنة لأمريكا.

وكانت حتى هذا الوقت توقن أن ألمانيا هتلر ستنتصر في حرب أوروبا. وشعرت في أعماقها برغبة عارمة في قيادة آسيا إلى فتوحات لا حد لها ولا حصر، وفي تحقيق أمجادها.

وهكذا اندفعت خلف مقامرة، لو كتب لها النجاح ما غيرت من حقيقة الأمر شيئًا غير إطالة هيمنتها عامًا آخر، ولكنها لما فشلت أسفرت عن اختصار مدى الهيمنة سنة كاملة. وهكذا دفعت هذه المغامرة في واقعها إلى استبدال موقف قوى نسبيًا، وامتيازات أحكمت قبضتها عليها بهيمنة واسعة، كان من الشاق عليها أن تحتفظ بها، ولهذا فإنها حينما هزمت في هذه المنطقة الخارجية لقيت نفسها ي موقف تحتاج فيه إلى القوى الكافية لخلق دفاع مترابط عن منطقتها الداخلية الأكثر حيوية وأهمية.

وبالرغم من ذلك لم يكن في طاقة أحد في هذه المرحلة من مراحل الصراع العالمي أن يتيقن من أن ألمانيا لن تستطيع تدمير روسيا أو إجبارها على التراجع إلى ما خلف الأورال، وأن تعود أدراجها بعد ذلك فتغزو بريطانيا، أو تتفرق كحل بديل عبر القوقاز وإيران لتلتقي مع طلائع اليابانيين في الهند. ولإرجاع الأمور إلى نصابها الصحيح بالنسبة لدول الحلف الأكبر، كان من الواجب أن تحصل أمريكا على نصر بحري حاسم يضمن لها التفوق في المحيط الهادي، وأن كان لا يضمن لها الإشراف الكامل المباشر العاجل عل هذا المحيط وكتب لنا أن نحرز هذا النصر. وكنت أوقن باستمرار أن الأسطول الأمريكي سيسترد هيمنته على المحيط الهادي في شهر مايو بما يمكننا تقديمه من مساعدات في هذا الشهر. وكنت أبني مثل هذه الآمال على حساب الإنشاءات البحرية الأمريكية والبريطانية الحديثة التي كادت تبلغ حد النضج، والتي تشمل البوارج وحاملات الطائرات وغيرها من السفن الحربية الأخرى. وفي طاقتنا الآن أن نشرح صورة موجزة، كما تقضي الضرورة، للمعركة البحرية المتألقة المذهلة، والتي أكدت هذا الواقع العظيم، في صورة لا يتسرب إليها الريب.

في آخر شهر إبريل عام ١٩٤٢ بدأت القيادة العليا اليابانية سياستها التوسعية الجديدة. وقد شملت هذه الخطة احتلال ميناء مورسبي وتولاجي في جزر سليمان الجنوبية، مقابل جزيرة جواد قنال الكبيرة، وبالاستيلاء على ميناء مورسبي تتم المرحلة الأولى من هيمنتها على غينيا الحديثة، ويكفل ضمانة أخرى لقاعدتها البحرية الألمانية في راباول في جزيرة بريطانيا الحديثة.

وفي إمكانها أن تبدأ من غينيا الحديثة ومن جزر سليمان محاصرة أستراليا.

وفي سرعة علمت المخابرات الأمريكية أن جموعًا يابانية في هذه المياه، فقد شوهدت قوات يابانية كبيرة تحتشد في راباول قادمة من القاعدة الرئيسية في ترول في جزر كاولين. وأصبح التقدم صوب الجنوب أمرًا واقعيًا لا مناص منه. وكان من المستطاع أن يترقب الإنسان بدء العمليات العسكرية في الثالث من مايو.

وكانت حاملات الطائرات الأمريكية متفرقة في هذا الوقت، تؤدي أعمالاً مختلفة، من بينها الهجوم الجريء الرائع الذي شنه الجنرال دوليتل من الجو على مدينة طوكيو نفسها في الثامن عشر من إبريل. ولا مرية في أن هذا الحادث كان عاملاً مهمًا في تقرير السياسة اليابانية الجديدة.

وأحس الأميرال نيمتز بالخطر في الجنوب، فبدأ يحشد أقوى قوة ممكنة في بحر المرجان (كورال). وكان الرير أميرال فليتشر قد قدم إلى هناك ومعه حاملة الطائرات يوركتاون وثلاثة طرادات ثقيلة.

وفي الأول من مايو انضمت إليه قوة مكونة من حاملة الطائرات ليكسينجتون، وطرادين آخرين بقيادة الرير أميرال فيتش، وقد قدمت من ميناء الدر، وسرب آخر يقوده الرير أميرال البريطاني كريس وهو مكون من الطرادين الاستراليين "أستراليا وهوبارت" والطراد الأمريكي "شيكاغو".

وكانت الحاملتان الأخريان المتوافرتان الآن، وهما انتر برايز وهورنيت، تسهمان في غزو طوكيو، وبالرغم من صدور الأوامر إليهما بالتحرك بسرعة جنوبًا للانضمام إلى الأميرال فليتشر، لم يمكنهما إدراكه حتى وسط شهر مايو، وكانت المعركة المرتقبة قد انتهت قبل هذا الوقت.

وفي الثالث من مايو كان الأميرال فليتشر يتزود بالوقود في البحر على مدى أربعمائة ميل تقريبًا جنوب جواد قنال، حينما علم أن العدو نزل إلى البر في تولاجي مستهدفًا إنشاء قاعدة بحرية هناك فورًا، ليراقب منها المداخل الشرقية لبحر المرجان. وقبل يومين تراجعت الحامية الأسترالية الصغير من هذا الموقع الأمامي نظرًا للخطر القائم وقرر فليتشر أن يتحرك بمجموعته الأساسية الخاصة لمهاجمة الجزيرة لأن مجموعة فيتش كانت ما فتئت تتزود بالوقود. وفي صباح اليوم التالي هاجمت الطائرات العاملة من يوركتاون جزيرة تولاجي بقوة. وكانت القوات التي تغطي العدو قد تراجعت، ولم يبق في الجزيرة إلا عدد من المدمرات والسفن الصغيرة. ولهذا أتت النتائج مخيبة للرجاء.

ومضى اليومان التاليان دون حوادث تستحق الذكر، ولكن كان من الواضح أنه سيحدث في القريب صدام مسلح. وكانت مجموعات فليتشر الثلاث قد تزودت بالوقود. وأصبحت تؤلف وحدة واحدة تقف جهة الشمال الغربي من غينيا الحديثة. وكان فليتشر يعلم أن القوة اليابانية التي تستهدف غزو ميناء مورسبي، قد غادرت راباول، وأنها قد تمر عبر مضيق جومارد في أرخبيل لوياد في السابع أو الثامن من الشهر. وكان يعلم أن بالمنطقة ثلاث حاملات معادية، ولكنه لا يدري مواقعها، وكان من بين القوة اليابانية الضاربة حاملتا طائرات هما زويكاكو وشوكاكو، وطرادان ثقيلان، وقد قدمت إلى الجنوب من ترول، شرقي جزر سليمان وهي بعيدة عن متناول طائرات الاستكشاف، وفي مساء الخامس من مايو دخلت بحر المرجان من جهة الشرق. وفي السادس منه كانت تدنو من قوة فليتشر، وفي غضون الليل

غدت على مدى سبعين ميلاً منه، ولكن كلا من الفريقين لم يعلم بوجود الآخر.

وعاد الفريقان فابتعد كل منهما عن الآخر في الليل، وفي السابع قدم فليتشر بوحداته إلى الجنوب من أرخبيل لويزياد، حيث قرر أن يعسكر بها ليضرب قوات العدو، وأصدر أمره إلى مجموعة كريس بالتقدم لمراقبة المدخل الجنوبي لمضيق جومارد، حيث ينتظر وصول العدو في ذلك اليوم. وسرعان ما اكتشف العدو موقع كريس، فأمطره بوابل من قاذفات الطوربيد، وشن عليه من القواعد الساحلية هجمات عنيفة متعاقبة تشبه في ضراوتها تلك التي أغرقت "الأمير ويلز" و"ريبالس". ولم تصب وحدة من وحداتنا التي واصلت السير إلى أن وصلت ميناء مورسبي، بفضل القيادة البارعة وحسن الحظ. ولما علم كريس بتراجع العدو انسحب جهة الجنوب.

وفي خلال ذلك ظلت حاملات الطائرات المعادية التي لم يعرف فليتشر عنها معلومات دقيقة، أهم ما يشغله ويزعجه، وعند الفجر بدأ حركة بحث واسعة النطاق، وفي الساعة الثامنة والربع لقى جزاءه حينما بلغه نبأ يقول أن هناك حاملتين وأربعة طرادات معادية إلى الشمال من جزر لويزياد، ولم تكن هذه القوة التي شوهدت هي قوة العدو الضاربة، بل قوة الحراسة الضعيفة التي تحرس سفن الغزو، وبينها الحاملة الخفيفة "شوهو".

على أي حال صوب فليتشر ضربته بأقصى ما لديه من قوة، وبعد ثلاث ساعات أغرقت "شوهو". وقد افتقدت قوة الغزو بسبب هذا الحادث غطاءها الجوي وأجبرت على التقهقر.

وهكذا لم يكتب لسفن النقل المجهزة للتحرك إلى ميناء مورسبي دخول مضيق جومارد، وظلت واقفة إلى الشمال من جزر لويزياد إلى أن صدر إليها الأمر أخيرًا بالانسحاب.

وهكذا كشف فليتشر موقعه للعدو، فاصبح معرضًا لأخطار فادحة، وكان يجب أن يتوقع هجومًا معاديًا في كل لحظة، في وقت لم يكن في طاقته إعادة تسليح قوته الضاربة وتجهيزها لمعركة أخرى قبل العصر.

ومن حسن طالعه أن الجو كان سيئًا، بل إنه أخذ يزداد سوءًا، ولم يكن لدى العدو أجهزة رادار. وكانت القوة اليابانية الضاربة في الواقع قريبة ومواجهة للمدافع شرقًا. وبدأت هجومها بعد الظهر، ولكن الطائرات لم يمكنها أن تميز أهدافها في هذا الجو السيئ. وفي طريق عودتها إلى حاملاتها دون تحقيق أهدافها، مرت بالقرب من قوة فليتشر فبدت على لوحات رادارها. وبعثت المقاتلات الأمريكية لتقطع عليها سبيلها، وجرت معركة في الظلام ومر فيها عدد من الطائرات اليابانية التي غادرت الحاملات والتي كان مجموعها سبعًا وعشرين قاذفة قنابل. واستطاعت بضع طائرات منها أن تعود سالمة لتشترك في معركة اليوم التالي.

وتخيل كل من الفريقين، إدراكًا منه لقرب الفريق الآخر، أنه يمكنه أن يشن عليه هجومًا في الليل بقوات سطحية. ولكنها قدرا أن مثل هذا الهجوم سيكلفهما كثيرًا. فرجعا وابتعد كل عن الآخر، وحينما طلع صباح الثامن من مايو تغير طالع الطقس، فغدا اليابانيون في حماية السحب المنخفضة، في حين كانت سفن فليتشر تستحم في أشعة الشمس المشرقة. وبدأت عملية "الاستخفاء والاستكشاف" من جديد. وأخيرًا استطاعت طائرة عاملة من "ليكسينجتون" أن تكتشف موقع العدو في الساعة الثامنة والدقيقة الثامنة والثلاثين، وأن تلتقط إشارة لاسلكية معادية تنبئ عن اكتشاف العدو مكان الحاملات الأمريكية. وهكذا أصبحت المعركة الكبرى محتملة بين قوتين متساويتين ومتكافئتين.

وقبيل الساعة التاسعة بقليل، انطلقت قوة أمريكية ضاربة مكونة من اثنتين وثمانين طائرة من عقالها، وفي الوقت نفسه انطلقت تسع وستون طائرة

يابانية، وفي الساعة الحادية عشرة بدأ الهجوم الأمريكي، وبعده بعشرين دقيقة بدأ الهجوم الياباني، وانتهت المعركة في الحادية عشرة والدقيقة الأربعين، وقد صادفت الطائرات الأمريكية بعض المصاعب التي سببتها السحب المنخفضة عند الهدف. وبادرت إحدى الحاملتين بالاختفاء تحت ستار من المطر الشديد، على حين انصبت قوة الهجوم كلها على الحاملة الأخرى شوكاكو، وقد اشتعلت فيها النيران عندما أصابتها ثلاث قنابل، ولكن الأضرار كانت أقل كما بدت في الظاهر، وعلى الرغم من أنها تعطلت عن العمل في الوقت الحالي، إلا أنها تمكنت من أن تصل إلى قاعدتها لإصلاحها، أما الحاملة الأخرى زويكاكو فلم يمسها أي ضرر.

وفي خلال ذلك جرى الهجوم الياباني في جو واضح يستهدف الحاملتين "يوركتاون" و"ليكسنجتون"، واستطاعت الأولى بفضل المناورة البارعة أن تتفادى الإصابات الفتاكة تقريبًا، وإن كانت قد تلقت بعض الضربات، فقد أصابتها قنبلة قضت على عدد كبير من رجالها وأشعلت فيها النيران، التي لم تلبث أن حوصرت وأخمدت بسرعة، واستردت الحاملة قدرتها على القتال بالرغم مما أصابها وأثر فيها قليلاً، أما "ليكسنجتون" فكانت أقل حظًا، إذ أنها تلقت إصابتين بالطوربيد وثلاثًا بالقنابل، ودهمتها النيران عقب انتهاء المعركة، فأسرعت إلى الميناء، وقد غمرت المياه ثلاثة من مراجلها. وبعد محاولات جبارة أخمدت النيران وسيطر على السفينة، وراحت تعدو بسرعة خمس وعشرين عقدة.

وقدرت خسائر الطائرات في هذه المعركة الجوية التي تعد الأولى من نوعها بين حاملات الطائرات، بثلاث وثلاثين طائرة أمريكية وثلاث وأربعين طائرة يابانية. ولو أن حوادث بحر المرجان انتهت عند هذا الحد لكان ميزان النتائج في صالح الأمريكيين قطعًا. فقد أغرقوا حاملة الطائرات شوهو، وأصابوا الحاملة شوكاكو إصابات بالغة، وأجبروا قوة الغزو المتجهة إلى ميناء مورسبي على التقهقر. أما الحاملتان الأمريكيتان فما برحتا في حالة طيبة،

وكانت خسارتهم الوحيدة حتى هذه اللحظة ناقلة زيت تابعة للأسطول، ومدمرة مصاحبة لها. وقد أغرقتهما الحاملات اليابانية في اليوم السابق، وقد كان من المتوقع أن تحدث كارثة الآن، فبعد ساعة من انتهاء المعركة، سمع في ليكسنجتون دوي انفجار عنيف، شوهدت بعده النيران تشتعل في كل مكان، وقد تعذر مكافحتها، ولم تنجح كل الجهود التي بذلت لإنقاذ السفينة، التي هجرت في هذه الليلة تفاديًا لعدم وقوع خسائر أخرى في الأرواح، وقد نسفها طوربيد أمريكي، وانسحب الفريقان من بحر المرجان، وقد زعم كل منهما أنه انتصر، وزعمت الدعاية اليابانية إغراق بارجة وطراد إلى جانب حاملتي طائرات الأميرال فليتشر، ولكن أعمالهم بعد المعركة كانت تتناقض مع هذه الادعاءات فقد أرجأوا زحفهم نحو ميناء مورسبي حتى شهر يوليو على الرغم من انفتاح الطريق لهم الآن. وحينما جاء شهر يوليه كان الوضع قد تبدل تمامًا، وعدلوا عن خطتهم جريًا وراء تقدم من جهة البر، أما القواعد التي كانوا قد استولوا عليها في غينيا الحديثة. وتشير هذه الأيام إلى الحد الأقصى لتقدم اليابانيين بحرًا صوب أستراليا.

وكان من أهم الضرورات الاحتفاظ بقوة حاملات الطائرات بالنسبة إلى الجانب الأمريكي. وأدرك الأميرال نيميتس أن ثمة أحداثًا أكثر أهمية يتوقع حدوثها في الشمال، وهي تستدعي منه جمع قوته وقد اقتنع بوقف زحف اليابانيين في الوقت الحالي جهة بحر المرجان. واستدعى إلى ميناء الدركل حاملات طائراته ومن بينها انتر برايز وهورنيت اللتان كانتا تتجهان في سرعة للانضمام إلى فليتشر، وكانت الحكمة تقضي بتكتم نبأ إغراق حاملة الطائرات لنكسنجتون إلى ما بعد المعركة ميدواي، لأن اليابانيين لم يكونوا على علم بحقيقة الوضع، وكانوا تواقين إلى الإلمام بالمزيد من المعلومات.

وكانت هذه المعركة من حيث الأهمية التكتيكية التي علقت عليها لها تأثيرها لا يتناسب مع هذه الأهمية. ومن حيث الاستراتيجية كانت انتصارًا أمريكيًا مرضيًا، لأنه أول انتصار على اليابان، ولم يشهد التاريخ له مثيلاً قبل

ذلك، فهذه هي أول مرة تتقابل فيها قطع بحرية سطحية ولا تتبادل طلقة واحدة. وقد حولت فرص الحرب ومخاطرها إلى معركة جديدة. وفي سرعة البرق الخاطف طافت الأنباء بكل مكان في العالم، باعثة التشجيع والرضا في أستراليا ونيوزيلندا، إلى جانب أمريكا نفسها. وسرعان ما طبقت الدروس التكتيكية التي تمت دراستها في هذه المعركة، والتي تكلفت ثمنًا باهظًا، وفي معركة جزر ميدواي التي أحرزت فيها انتصارات عظيمة، والتي دنت الآن من بدايتها.

ولم يكن التقدم صوب بحر المرجان إلا المرحلة الأولى في سياسة اليابان الأكثر طموحًا. وفي الوقت الذي كانت تجري فيه أول معركة كان ياماتو - أميرال اليابان الأكبر - يتأهب لتحدي قوة أمريكا في وسط الباسفيك، وبالاستيلاء على جزر ميدواي ومطارها الهائل الذي يمكنه أن يهدد منه ميناء الدر نفسه، الذي يقع على مسافة ألف ميل شرقًا، وأن يحتله حينما تسنح الفرصة. وفي الوقت نفسه قرر إرسال قوات فرعية للاستيلاء على مواقع ذات أهمية في جزر اليوشان الغربية، وقد بعث التوقيت الدقيق لخطوات ياماموتو لديه الأمل في أن يجتذب الأسطول الأمريكي إلى الشمال لمواجهة الخطر الذي يتهدد جزر اليوشان، ويصبح من السهل لديه إرسال قوته الرئيسية إلى جزر ميدواي، وكان يأمل، قبل أن يغدو الأمريكيون قادرين على التدخل هنا بقوة، أن يكون قد سيطر تمامًا على الجزيرة وأصبح متأهبًا لمقابلة أي هجوم معاد بقوات متفوقة.

ولا مرية في أن ميدواي مهمة بالنسبة لأمريكا، لأنها الموقع الأمامي لميناء الدر، وأهميتها هذه كافية لجعل هذه الحركات تؤدي إلى اشتباك رئيسي. وأحس ياماموتو بالثقة في قدرته على فرض المعركة الحاسمة وفقًا للشروط التي يمليها هو، وأنه يمكنه، بتفوقه الهائل وخاصة في البوارج السريعة، أن يهيئ لنفسه الفرصة الممتازة للقضاء على العدو. وهذه هي الخطوط العريضة للخطة التي صرح بها لمساعدة أميرال ناجومو، وكان كل شيء يتوقف على

ووقع الأميرال نيميتز في الفخ، وألا يكون قد دبر هو الآخر مفاجأة ضد اليابانيين.

ولكن القائد الأمريكي كان يقظًا ونشيطًا. وكان يطلع عن طريق مخابراته على كل شيء حتى على ميقات ما سيوجه إليه من ضربات. وبالرغم من أن خطة غزو ميدواي قد تكون ستارًا لإخفاء الضربة الحقيقية التي قد تصوب إلى سلسلة جزر اليوشان للتقدم عن طريقها إلى القارة الأمريكية، فإن ميدواي تمثل بالنسبة إليه الخطر، الأكبر ولم يتوان في تركيز قواته في هذه الناحية. وكان المصدر الرئيسي لقلق القائد الأمريكي، أن حاملات طائراته، وإن كانت في أحسن حالاتها، قد تكون أضعف من حاملات ناجومو الأربع المجربة التي أحرزت انتصارات باهرة، امتدت من معركة ميناء الدر حتى جزيرة سيلان. وقد أرسلت منها اثنتان إلى بحر المرجان، وأصيبت إحداهما إصابة بالغة، ولكن نيميتز خسر بدوره ليكسنجتون، وغدت اليوركتاون مشلولة، ولم تعد ساراتوجا إلى الانضمام إليه بعد أن أبلت بلاء حسنًا في المعركة، ولحقتها أضرار في حين ما فتئت "الواسب" في البحر المتوسط حيث بادرت إلى هناك لحماية جزيرة مالطة ومساندتها، ولا يمكنه أن يجهز للمعركة القادمة سوى انتر برايز وهونيت اللتين تتحفزان الآن للقدوم من جنوب المحيط الهادي، ويوركتاون أن أمكن إصلاحها في الوقت المناسب ليمكنها الإسهام في المعركة. ولم تكن عنده بوارج أقرب من البوارج الموجودة في سان فرنسيسكو، وهي بطيئة في عملها مع حاملات الطائرات. وكانت لدى ياماموتو إحدى عشرة بارجة، بينها ثلاث من أقوى البوارج وأسرعها في العالم. وكانت الفرص غير مواتية للأمريكيين، ولكن كان في إمكان نيميتز الاعتماد على المساعدة القوية العاملة من مطار ميدواي.

وفي الأسبوع الأخير من شهر مايو بدأت القوة الرئيسية من الأسطول الياباني تتحرك. وكانت القوة الأولى التي تحركت هي قوة الأليوشان التي

قصد بها التمويه والخداع، والتي كلفت مهاجمة الميناء الهولندي في الثالث من يونيه لاجتذاب الأسطول الأمريكي إلى هذا الاتجاه.

وكان من المقرر أن تنزل القوات بعد ذلك في جزر آتو وكيسكا واداك الواقعة غربًا. وفي اليوم التالي يقوم ناجومو بقوته المكونة من أربع حاملات بضرب جزيرة ميدواي، وفي الخامس من يونيه تجيء قوة من قوى المظلات وتستولي على الجزيرة. ولم يكن من المرتقب أن تلقى القوة اليابانية مقاومة كبيرة. ثم يعود ياماموتو بأسطوله إلى الغرب متفاديًا مناطق الاكتشاف الجوي ليكون مستعدًا لتصويب ضربته حينما يبدأ الأمريكيون في هجومهم المضاد.

لقد كانت اللحظة الثانية الهائلة بعد ميناء الدر. وفي السادس والعشرين من مايو وصلت الحاملتان انتر برايز وهورنيت من الجنوب.

وفي اليوم التالي قدمت اليوركتاون، وكانت الأضرار التي لحقتها تستدعي إصلاحات تستغرق ثلاثة أشهر، ولما كان الموقف حرجًا فقد أجريت بعض الإصلاحات العاجلة بها في خلال ثمان وأربعين ساعة، وغدت مستعدة للمعركة، بعد أن زودت بمجموعة جوية حديثة.

وفي الثلاثين من مايو أبحرت لتنضم إلى الأميرال سبروانس الذي أبحر قبل يومين مع حاملتين أخريين، وظلت القيادة التكتيكية للقوة المشتركة بيد الأميرال فليتشر. وامتلأ مطار ميدواي بقاذفات القنابل، وصدر الأمر إلى القوات البرية المدافعة عن الجزيرة بأن تكون متحفزة مستعدة. وكان من اللازم التبكير في الحصول على معلومات عن اقتراب العدو، ولذلك استمرت عمليات الرقابة الجوية منذ الثلاثين من مايو. واستمرت الغواصات الأمريكية تراقب الشمال والغرب من ميدواي، وانقضت أربعة أيام في حيرة وقلق. وفي الساعة التاسعة من صباح الثالث من يونيه شاهدت "سفينة طائرة" من طراز كاتالينا وهي تقوم بالمراقبة على بعد سبعمائة ميل غرب ميدواي مجموعة مؤلفة من إحدى عشرة سفينة حربية معادية. ولم يصب الهدف من هذه القنابل

والطوربيدات سوى طوربيد واحد أصاب ناقلة زيت، وبدأت المعركة، وبانت حقيقة ما يرمي إليه العدو. واستطاع الأميرال فليتشر أن يعرف عن طريق مخابراته أن حاملات العدو ستدنو من شمال غربي ميدواي، ولهذا لم يغير ما تلقاه من تقارير أولية عن مشاهدة العدو، خطته الأصلية، فقد قدر، ووفق في تقديره، أن ما شوهد لا يتجاوز مجموعة من سفن النقل. وفي فجر الرابع من يونيه حرك حاملاته إلى مكان انتقاه على مدى مائتي ميل تقريبًا شمال ميدواي، لتكون متأهبة للانقضاض على جناح ناجومو حينما يظهر وحيثما يظهر.

وطلع الرابع من يونيه جليًا مشرقًا، وفي الساعة الخامسة والدقيقة الرابعة والثلاثين صباحًا، أرسلت دورية من ميدواي أخيرًا برقية طال انتظارها، تعلن فيها دنو حاملات الطائرات اليابانية. وأخذت التقارير تتدفق وتنهمر. وشوهدت طائرات كثيرة تتجه إلى ميدواي وشوهدت البوارج تحمي الحاملات وفي الساعة السادسة والنصف صباحًا حدث الهجوم الياباني في قوة وعنف، وقوبل بمقاومة عنيفة، ولم يعد من الطائرات المهاجمة ثلثها تقريبًا، وحدثت أضرار فادحة، وسقط الكثير من الضحايا، ولكن المطار بالرغم من هذا كله ظل صالحًا للاستعمال.

وكانت هناك فرصة لشن هجوم مقابل على أسطول ناجومو. وقد كلف تفوقه الساحق في الطائرات المقاتلة الأمريكيين ثمنًا باهظًا، وأتت الغارة الجريئة التي علقت عليها آمال ضخمة مثبطة للهمم، ولكن الاضطراب الذي أحدثته في صفوف العدو أدهش القائد الياباني، وشتت تفكيره، وخاصة أن طياريه الحفوا عليه بضرورة شن غارة أخرى على ميدواي. وكان قد ادخر عددًا كافيًا من الطائرات للقاء أية حاملات أمريكية قد تظهر فجأة، بعد أن أعياه الحديث عنها.

وقرر أن يقسم التشكيلات التي جهزها لهذه الغاية، وأن يسلحها لتصوب ضربة أخرى إلى ميدواي. على أية حال كان من اللازم أن يخلي سطح حاملاته ليستغرق الطائرات التي ترجع من الهجمة الأولى.

لكن هذا القرار عرضة لخطر قاتل، وقد علم ناجومو بعد فوات الأوان بوجود قوة أمريكية في الشرق تضم إحدى الحاملات. وتحتم عليه أن يواجه ضغط الهجوم الأمريكي وقد امتلأت ظهور حاملاته بقاذفات لا يرجى منها فائدة، تقوم بعملية التزود بالوقود والذخيرة.

وبوساطة التقدير السليم كان الأميرال فليتشر والأميرال سبنسر في مركز قوي يمكنهما من التدخل في هذا الوقت الحاسم الحرج.

وكان قد تنسما الأخبار التي تدفقت في الصباح الباكر، وفي الساعة السابعة صباحًا بدأت الانتر برايز والهورنيت هجومًا اسعملتا فيه كل ما هو متوافر لديهما من طائرات، ما عدا ما قد يحتاجان إليه من الطائرات للدفاع عن نفسيهما. وقد تأخرت طائرات اليوركتاون لأنها كانت تقوم بعمليات الكشف منذ الصباح، ولكنها استعدت بسرعة وحلقت قوتها الضاربة في الساعة التاسعة صباحًا في الوقت الذي كانت الطلائع الأولى من طائرات الحاملتين الأوليين تدنو من صيدها. وقد تعذر على القاذفات أن تحدد هدفها لأن الطقس القريب من العدو كان غائمًا، ولم تحس طائرات الهورنيت قط باستدارة العدو، ولذلك لم تظفر مطلقًا بحاملاته، ولم تسهم في المعركة. ونظرًا لسوء الطالع هذا اقتصر الهجوم الأول على قاذفات الطوربيد من الحاملات الثلاث، وبالرغم مما بذلته من ضغط شديد لم تستطع أن تحرز أي نصر أمام ما لقيته من مقاومة عنيفة. ولم يعد من الطائرات الإحدى والأربعين من قاذفات الطوربيد سوى ست طائرات فقط، ما كاد يراها اليابانيون حتى وجهوا إليها كل الطائرات المقاتلة المتوافرة، ولحسن حظها وصل إلى الميدان في هذا الوقت سبع وثلاثون قاذفة منقضة من الانتربرايز واليوركتاون، وصبت

قنابلها، دون أن تلقى مقاومة، على سفينة ناجومو ـ أكاجي، وشقيقتها كاجا، في حين هاجمت سبع عشرة طائرة أخرى من اليوركتاون، الحاملة سوربو. ولم تمر دقائق حتى تحولت الحاملات الثلاث إلى حطام تأكله النيران، وتنفجر عليه الطائرات، وتلاشت الحاملات الثلاث نهائيًا.

ولم يكن في وسع الأميرال ناجومو إلا أن ينقل رايته إلى طراد، وأن يشهد ثلاثة أرباع أسطوله وهي تحترق.

وقد فقد الأمريكيون ستين طائرة، حينما كانوا يستعيدون طائراتهم، وبالرغم من هذا حصلوا على فرصة عظيمة. ولم يبق من حاملات العدو سوى هيريو التي قررت على الفور أن تسدد ضربة انتقامًا لراية "ابن الشمس" وبينما الطيارون الأمريكيون يروون حكاياتهم على متن اليوركتاون بعد عودتهم وصلتهم أنباء بأن هجومًا عاجلاً سيشن عليهم وقدرت طائرات العدو بأربعين طائرة، هاجمت بعنف وقوة، وعلى الرغم من مقاومة المقاتلات والنيران المضادة أصيبت اليوركتاون بثلاث إصابات، وبالرغم من ذلك أمكن إخماد النيران وواصلت السير إلى أن عاودت هيريو ضربها بالطوربيدات بعد ساعتين وحطمتها، ولكنها بالرغم من ذلك ظلت عائمة يومين حتى أغرقتها غواصة يابانية.

وقبل أن تغرق اليوركتاون ثأر لها الأمريكيون، ففي الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والأربعين حدد موقع الهيريو، وفي الساعة الخامسة هاجمتها الطائرات التي حلقت من الانتربرايز، ولم تتركها إلا حطامًا محترقًا غرق في الصباح التالي.

هكذا دمرت الحاملات الأربع لأسطول ناجومو، وضاع معها كل طياريها المدربين. ولم يكن في الوسع الاستعاضة عنهم. وهكذا انتهت معركة الرابع من يونيه، وهي المعركة التي اعتبرت نقطة التحول في حرب المحيط الهادي.

وهناك أخطار أخرى يجب على القادة الأمريكيين المنتصرين أن يواجهوها، فقد يهاجم أمير البحر الياباني بأسطوله الضخم جزيرة ميدواي، وقد منيت القوات الجوية الأمريكية بخسائر فادحة ولم تكن هناك سفن حربية كبيرة يمكنها أن تشترك في معركة مع ياماموتو، إذا آثر مواصلة التقدم. وقرر الأميرال سبروانس الذي كان يقود مجموعة الحاملات عدم مواصلة مطاردة قوات العدو غربًا، لأنه يجهل حقيقة قوته، ولأنه يحتاج إلى مؤازرة السفن الكبيرة لحاملاته.

ولا مرية في أن قراره كان سليمًا. ولكن الشيء الذي يدعو إلى التساؤل هو لماذا لم يحاول الأميرال ياماموتو الثأر، واسترداد طوالعه فقد قرر في البداية أن يواصل ضغطه، وأصدر أمره إلى أربعة من طراداته القوية بضرب جزيرة ميدواي في الساعات المبكرة من صباح الخامس من يونيه.

وفي الوقت نفسه تقدمت قوة يابانية ضخمة أخرى جهة الشمال الشرقي. ولو أراد سبروانس مطاردة ما تبقى من مجموعة ناجومو لسقط في شرك ليلي، يدفعه إلى كارثة. ولكن الأميرال الياباني غير رأيه في الليل فجأة، وأصدر أمره بالانسحاب الشامل في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والخمسين من صباح الخامس من يونيه.

ولم تكن الأسباب التي دفعته إلى إصدار هذا القرار واضحة، ولكن يبدو أنه تأثر من هزيمة حاملاته النفيسة التي لم يكن يتوقعها. ثم كتب عليه أن يواجه نازلة أخرى، فقد اصطدم طرادان من طراداته الثقيلة، وهما في طريقهما إلى جزيرة ميدواي لضربها حينما حاولا تفادي هجوم شنته غواصة أمريكية، وقد أصيبا إصابات بالغة وتركا وحدهما حين بدأ التراجع الشامل.

وفي السادس من يونيه هاجمهما طيارو سبروانس وأغرقوا أحدهما وخلفوا الآخر وهو يغرق، ولكن هذه السفينة الحربية المدمرة موجتمي استطاعت أن تصل إلى قواعدها.

وقد تراجع اليابانيون في سكون كما جاءوا، بعد أن احتلوا جزيرتي آتو وكيسكا الصغيرتين في المجموعة الغربية من جزر اليوشان.

ولا شك في أن دراسة أوضاع القيادة اليابانية في هذا الوقت مفيدة للغاية. ففي شهر واحد كلفت القوات البحرية والجوية اليابانية مرتين بالقتال، وفقًا لخطط متقنة وبإصرار وعناد.

وفي المرتين كان اليابانيون يتخلون عن هدفهم حينما تمنى قواتهم الجوية بأضرار جسيمة، بالرغم من أنه يكاد يسقط في أيديهم وكان رجال ميدواي، مثل الأميرالات ياماموتو وناجومو وكوندو وهم الذين رسموا ونفذوا خطط العمليات الحربية الجريئة والهائلة، التي دمرت في خلال أربعة أشهر أساطيل الحلفاء في الشرق الأقصى. ودحرت أسطول بريطانيا الشرقي من المحيط الهندي. وقد انسحب ياماموتو من جزيرة ميدواي لأنه اتضح من سير الحرب أن الأسطول بدون الحماية الجوية لا يمكنه إذا كان بعيدًا عن قاعدته آلاف الأميال، أن يغامر ببقائه مع قوة ترافقها حاملات طائرات ظلت طائراتها سليمة. وقد أصدر أمره إلى سفن النقل بالانسحاب، لأن مواصلة الهجوم عمل انتحاري ما لم يعززه السلاح الجوي، وذلك بالنسبة إلى جزيرة تدافع عنها القوات الجوية، ومساحتها صغيرة إلى حد يجعل من الصعب القيام بأية مفاجأة.

ويعزى جمود التخطيط الياباني وتعنته، والرغبة في التخلي عن الهدف حينما تسير العمليات وفق الخطط المرسومة إلى طبيعة لغتهم المفزعة غير الدقيقة، بحيث يصعب اختراع الخطط الحديثة، ونقلها بوساطة المواصلات اللاسلكية.

وثمة درس آخر. فقد أفلح نظام المخابرات الأمريكية في الوصول إلى أعمق أسرار العدو، قبل وقوع ما حدث بوقت طويل. وهكذا استطاع الأميرال نيمتز بالرغم من ضعفه، أن يحشد كل ما لديه من قوات كافية في الوقت والمكان المناسبين. وعندما حان الوقت أثبتت خطته أنها حاسمة.

ولا مرية في أن هاتين المعركتين تلقيان ضوءًا على أهمية السرية، وعلى نتائج تسلل المعلومات في خلال الحرب.

وكان لهذا الظفر الأمريكي الخالد أهمية في غاية الخطورة، لا بالنسبة إلى أمريكا وحدها، بل لقضية الحلفاء كلها. وكان تأثيره المعنوي عظيمًا وسريعًا. فقد انقلب معيار قوة اليابان في المحيط الهادي بضربة واحدة.

وقد قضى إلى الأبد على تفوق العدو المدهش الذي أبطل كل محاولاتنا المشتركة في الشرق الأقصى مدة تربو على ستة أشهر، ومنذ هذه اللحظة تغير اتجاه كل أفكارنا بثقة راسخة إلى الهجوم، ولم نعد نفكر فيما سيوجه إليه اليابانيون ضربتهم القادمة. بل صرنا نفكر في أي مكان أفضل لنا لتصويب الضربة إلى العدو لاسترداد المناطق الواسعة التي اكتسحها في هجومه الأول. وبالطبع سيكون الطريق وعرًا طويلاً، وخاصة أننا ما برحنا نفتقر إلى استعدادات جماعية لإحراز النصر في الشرق، ولكن النتيجة الأخيرة لا ريب فيها، ولم يبق لمطالب المحيط الهادي هذا الاهتمام الذي يحول بين أمريكا وبين ما تتحفز لبذله من مجهود هائل في أوروبا.

وليس في وسع أية قصة من قصص الحرب البحرية أن تقدم صورًا أكثر تأثيرًا وهزًا للنفوس من صورة هاتين المعركتين اللتين أبدى فيهما الأسطول والسلاح الجوي الأمريكيان، والشعب الأمريكي كله روحًا متألقة قوية مجيدة.

ولا مرية في أن التجديد والأوضاع المحتملة التي خلفتها الحرب الجوية قد دفعا عجلة العمل والحظ بسرعة فائقة.

ولكن بسالة الطيارين الأمريكيين وإخلاصهم المتناهي وقوة أعصاب قادتهم وبراعتهم هي أسس كل شيء. وحينما تراجع الأسطول الياباني إلى قواعده القصية في الوطن عرف قادته أن القوة التي كانوا يملكونها من

حاملات الطائرات قد دمرت تدميرًا يتعذر إصلاحه، وفوق هذا عرفوا أنهم يهاجمون عدوًا له من الإرادة والإصرار ما يوازي أقصى ما عرف عن أسلافهم من الساموراي من إرادة وإصرار، وأن خلف هذا العدو قوة ناهضة، متطورة في كمها وعلمها إلى درجة لا يمكن تخيلها.

إخراج إيطاليا من الحرب

لقد أخرتني أسباب مهمة جدًا عن السفر إلى واشنطن بعد أن انتصرنا في إفريقيا، وسألت نفسي، ماذا سنفعل بعد ذلك، وهل سنكتفي بجني ثمار نصرنا في شمال إفريقيا، أو نعمل كل ما في إمكاننا لإخراج إيطاليا من الحرب؟ وإدخال تركيا إلى جانبنا؟ وهذه أسئلة كانت على جانب كبير من الأهمية والخطورة، وعزمت على أن أبحث كل هذه المسائل مع الرئيس روزفلت، مع مسألة تنسيق الخطط في المسرح الهندي، وذلك لحسم الخلافات الخطيرة الخفية لأننا إذا لم نقم بحلها فورًا فستؤدي إلى المتاعب، وإلى إضعاف عملنا في المدة المتبقية من العام، وهذا هو السبب الذي دعاني لأن أعقد مؤتمرًا مع الرئيس.

ولما كنت لا زلت مريضًا، فقد قرر الأطباء أن أسافر بحرًا بدلاً من الطائرة، ولهذا فقد غادرت لندن مع جميع أعضاء الوفد المرافق على البارجة "الملكة ماري" وكانت قد أعدت بصورة وافية لحاجتنا، وهيئت غرف خاصة لجميع الأعضاء على السطح الرئيسي للبارجة مجهزة بالمكاتب والخرائط وبها قاعات فسيحة للاجتماعات، ولذا فقد بدأنا نعمل في الحال ودون توقف، لمدة أسبوعين وتناولنا بالبحث كل ناحية من نواحي الحرب مع رؤساء أركان الحرب وعدد آخر من ضباط أركانهم، بحضور اللورد ليثرز وكبار موظفي وزارة النقل البحري والجنرال ايسماي وموظفي مكتبي كوزير للدفاع، وكذلك قادة الفيالق الهندية وهم الماريشال ويفل والأميرال سومرفيل وماريشال الجو الأعلى بيرس، وكان سبب وجود هؤلاء جميعًا هو تنسيق العمل مع

أصدقائنا الأمريكيين للقيام بعمليات سريعة من الهند، ولمعرفة آرائهم فيما سيطلب إليهم من العمل.

وفي أثناء رحلتنا كانت اللجنة المشتركة لأركان العمليات الحربية والمخابرات تعقد اجتماعات مستمرة، على حين كان رؤساء أركان الحرب يجتمعون مرة أو مرتين في كل يوم، وكنت أنقل آرائي إليهم كل صباح على شكل ملاحظات وتوجيهات مكتوبة، كما كنت أتحدث إليهم دائمًا بعد الظهر أو في المساء، واستمرت هذه الأبحاث والمناقشات طيلة أيام الرحلة، وقد وصلنا إلى قرارات خطيرة مدروسة بعناية، كما اتفقنا اتفاقًا تامًا على العمليات التي يجب أن تتم في أوروبا، ولما كنا قد قررنا في مؤتمر الدار البيضاء الهجوم على صقلية، واتخذت الاستعدادات لتنفيذ هذا القرار، ولما كان رؤساء أركان الحرب البريطانيين يرون الهجوم على البر الإيطالي لاحتلال رأس جسر في مقدمة الحذاء الإيطالي يتبعه هجوم آخر على الكعب كمقدمة للزحف على كل من باري ونابولي، فقد أعدوا مذكرة بذلك لتسليمها إلى رؤساء الحرب الأمريكيين بمجرد وصولنا إلى واشنطن لتكون أساسًا للمحادثات.

هذا وقد خشينا ألا يتم الاتفاق مع أصدقائنا الأمريكيين حول الجبهة الثانية في الهند، وكنا قد أعددنا الكثير من الخطط على الورق، ولكنه لم يتوافر لنا الوقت لإظهارها بصفة عملية.

ولما كان الرئيس روزفلت وأفراد حاشيته يؤملون في القوة العسكرية التي تستطيع الصين إعدادها إذا أتيح لها الحصول على الأسلحة والمعدات الكافية، وكانوا يخشون من انهيارها إذا لم يصلها هذه المعدات، ولما كانت لم ترق لي فكرة إعادة احتلال بورما عن طريق الزحف عن طرق اسام غير المعبدة، وكنت لا أحبذ احتلال الأدغال، وكان تفكيري متجهًا إلى القوات الجوية والبحرية والبرية والمواقع الهامة، ورأيت أنه من الضروري ألا يشعر

أصدقاؤنا بأننا غير راغبين في اقتحام المصاعب، ولكي يقتنعوا أننا على استعداد لتلبية طلباتهم، فقد وافقتهم على آرائهم.

وفي الساعة الثانية والنصف من بعد ظهر اليوم الثاني عشر من مايو اجتمعنا والرئيس وجميع رؤساء الأركان البريطانيين والأمريكيين في مكتب الرئيس لاستعراض الأوضاع بصورة عامة، ووضع أسس العمل لاجتماعاتنا ومؤتمراتنا، وقد طلب إلى الرئيس أن أبدأ الحديث، وكانت خلاصة الأفكار التي سردتها على النحو التالي:

"علينا ألا ننسى أن هناك ١٨٥ فرقة ألمانية في الجبهة الروسية، وقد حطمنا الجيش الألماني في أفريقيا، وعن قريب سنصير غير مشتبكين معهم في أية جبهة أو ميدان، ولا ريب أن المجهود الروسي عظيم، وأننا في وضع المدين لهم، ولعل خير طريقة لتخفيف الضغط على الجبهة الروسية في عام ١٩٤٣ هو أن تخرج إيطاليا سواء بالرضا أو بالإكراه من الحرب، وبذلك نرغم ألمانيا على إرسال قوات ضخمة للمحافظة على البلقان، ويوجد لنا جيش كبير وقوة جوية كبيرة من المقاتلات في بريطانيا، ولدينا أيضًا خيرة الجنود وأحسنهم تدريبًا في البحر الأبيض المتوسط، كما أن للبريطانيين وحدهم ثلاث عشرة فرقة في شمالي إفريقيا، وإذا افترضنا أننا انتهينا من صقلية في شهر أغسطس، فماذا تعمل هذه القوات في الفترة الواقعة بين هذا التاريخ وبين عام ١٩٤٣، والتي قد تمتد سبعة أشهر أو ثمانية لكي نبدأ عملية عبور القناة؟ ليس في وسعنا أن نترك هذه القوات بدون عمل، ولا شك في أن هذه الفترة الطويلة ستترك أثرًا سيئًا تحمل وحدها أعباء لا يمكن تصورها".

وقد وافقني الرئيس روزفلت على أنه يحبذ الاشتباك مع ألمانيا لتخفيف العبء على روسيا، وأعرب عن رأيه في أن خير طريقة لإرغام ألمانيا على القتال هي أن نشرع في عملية عبور القناة، وقد قلت للرئيس بأننا سبق أن اتفقنا على ألا نشرع في مثل هذه العملية قبل عام ١٩٤٤، ولذلك فإنه من اللازم الآن أن

نستخدم جيوشنا في الهجوم على إيطاليا، حتى إذا انهارت فإننا سنحتل الموانى والمطارات الضرورية للقيام بعمليات مقبلة في البلقان وجنوب شرقي أوروبا، ويكون في وسعنا أن نقيم حكومة إيطالية تتولى الإشراف على البلاد، وتحت توجيه وإشراف الحلفاء، وطلبت من أعضاء اللجنة المشتركة لرؤساء أركان الحرب ومستشاريهم أن يدرسوا هذه الخطط دراسة وافية وأن يمحصوها.

وقد ظهر أن هناك اختلافات في وجهات النظر لا يمكن تذليلها بسهولة أو التغلب عليها، وأدى تسرب بعض الأخبار من كبار القادة العسكريين الأمريكيين في هذه الفترة إلى الشيوخ الديموقراطيين والجمهوريين إلى مناقشتها في مجلس الشيوخ، ولكنه مع الصبر والأناة أمكن تذليل هذه الخلافات وحلها تدريجيًا، ومما ساعد على ذلك وجودي مع الرئيس حيث كنت أقيم في البيت الأبيض وكنا نرى بعضنا بعضًا في كل ساعة من ساعات النهار، وكنا دائمين متفقين في الآراء، وهكذا حلت تلك الأزمة المستعصية.

كما أسفرت الاتفاقات التي تمت بين الأركان على غزو صقلية، وقد شعرت بقلق عظيم لأن لجنة الأركان لم تتخذ توصيات محدودة بأن يتبع احتلال صقلية غزو البر الإيطالي، وكنت أعرف أن آراء أركان الحرب الأمريكيين تتجه إلى جزيرة سردينيا، لأنهم كانوا يرون أن هذه الجزيرة يجب أن تكون الهدف الباقي للقوات الكبيرة المحتشدة في البحر الأبيض المتوسط في المدة الباقية من عام ١٩٤٣. وكنت أرى هذا الاتجاه غير سليم لأسباب عسكرية وسياسية، لأن الروس يحاربون في جبهة شاسعة ومهم يسيل أنهارًا في هذه المعركة الجبارة، ولا يصح لنا أن نبقى مليونًا ونصف مليون من خيرة جنودنا بالإضافة إلى القوات الجوية والبحرية الهائلة بدون عمل مدة سنة تقريبًا.

واتضح لي أن الرئيس غير مستعد للضغط على مستشاريه بقبول فكرة غزو إيطاليا بصورة محدودة، ولما كان هذا الهدف الرئيسي هو الذي حملني

على قطع المحيط إلى واشنطن، فقد رأيت نفسي عاجزًا عن الوقوف بهذه القضية عند هذا الحد، وقال لي هوبكنز أنك إذا أردت أن نقبل وجهة نظرك، فعليك أن تستمر مواصلاً الإلحاح لمدة أسبوع آخر، ولما كانت النتيجة غير مضمونة تمامًا فقد أحسست بخيبة أمل، وطلبت إلى الرئيس في الخامس والعشرين من مايو بصفة شخصية أن يسمح للجنرال ماريشال بالمجيء معي إلى الجزائر، بعد أن أوضحت للمؤتمر بأني أشعر ببعض الحرج في بحث هذه القضايا مع الجنرال ايزنهاور دون أن يشترك معنا في الحديث ممثل أمريكي كبير، إذ ربما تفسر موافقة ايزنهاور على رأيي في واشنطن أنها كانت بسبب الضغط عليه، ولما علمت بأن الجنرال ماريشال سيرافقني في رحلتي شعرت بالارتياح.

وفي صباح اليوم التالي غادرت واشنطن بطائرة ركب معي فيها الجنرال ماريشال ورئيس أركان حرب الإمبراطورية وايسماي وبقية أعضاء الوفد البريطاني، وقد دارت بيننا محادثات كثيرة أثناء هذه الرحلة الجوية الطويلة وكانت مثمرة، ولما اقترينا من جبل طارق بحثنا عن طائرات الحراسة فلم نجد لها أثرًا وهبطنا مطار جبل طارق في المساء وكان في استقبالنا الحاكم، وبالنسبة لأن الوقت كان متأخرًا فلم يعد في إمكاننا مواصلة الطيران إلى الجزائر في تلك الليلة، وقد استضافنا الحاكم في الدير الذي يقيم فيه، ولم نترك جبل طارق إلا بعد ظهر اليوم التالي، وقد أتيحت لنا الفرصة للطواف بالجنرال ماريشال في جميع أنحاء الصخرة وزرنا مشروع تقطير المياه الجديد كما زرنا مواقع بعض المدافع وبعض المستشفيات والثكنات، وهبطنا إلى المكان المفضل عند الحاكم، وهو الشرفة الصخرية الجديدة التي حفرت داخل الصخر إلى عمق بعيد، وقد نصبت فيه المدافع التي تسيطر على البرزخ الذي يصل الصخرة بالبر وعلى الأرض الحرام بين بريطانيا وأسبانيا، وقد ثبت لي أنه مهما كانت الأخطار التي قد تتعرض لها صخرة جبل طارق، فإنها لن تخشى أبدًا هجومًا يشن عليها من البر الأسباني.

هذا وقد أحاطت بنا أثناء ركوبنا الطائرة إلى الجزائر، اثنتا عشرة طائرة مقاتلة لحراستنا، ووصلنا في المساء إلى الجزائر، حيث كان الجنرال ايزنهاور وبيدل سميث والأميرال اندرو كاتنجهام والجنرال اليكساندر وعدد من الأصدقاء في انتظارنا، وذهبنا فورًا إلى منزل الأميال كاتنجهام المجاور لمنزل الجنرال ايزنهاور، التي وضعها تحت تصرفي مدة إقامتي في الجزائر، وقد شعرت بالمساعدة طول الثمانية أيام التي قضيتها في الجزائر وتونس، وأبرقت إلى إيدن طالبًا إليه المجيء والانضمام إلينا، ليشرف بنفسه على إعداد الترتيبات اللازمة للمقابلة التي مهدنا لها بين جيرو وديجول وللقيام ببعض المهام الأخرى.

ولما كانت تحدوني الرغبة في الحصول على قرار بغزو إيطاليا، قبل مغادرتي لأفريقيا في حالة الانتهاء من احتلال صقلية، فقد نقلت أنا وبروك آراءنا إلى الجنرال اليكساندر والأميرال اندرو كاتنجهام وماريشال الجو تيدر والجنرال مونتجومري فيما بعد، وقد وافقت جميع هذه الشخصيات على آرائنا، ورأوا في احتلال إيطاليا الثمرة الطبيعية لتلك الانتصارات التي بدأت بمعركة العلمين وكان أملنا أن نحصل على موافقة حليفتنا العظمى، لأني لاحظت من جانب ايزنهاور بعض التحفظ بعد أن استمع إلى جميع حججنا، كما أن ماريشال قد ظل صامتًا حتى اللحظة الأخيرة.

ولما كانت لدينا قوات تبلغ ثلاثة أضعاف القوات الأمريكية، كما كانت لدينا أربعة أضعاف قواتهم البحرية ومثل هذه النسبة من الطائرات، كما كنا قد خسرنا منذ معركة العلمين وحدها دون أية إشارة إلى الخسائر السابقة في البحر الأبيض المتوسط ثمانية أضعاف ما خسرته أمريكا من الرجال وثلاثة أضعاف ما خسرته من السفن، فقد كانت ظروف الاجتماع مواتية للبريطانيين، فضلاً عما لاقته هذه الحقائق الواضحة مما تستحقه من عناية واعتبار لدى القادة الأمريكيين الذين لم يكونوا يجهلون تفوقنا عليهم

في المنطقة في كل شيء، كما كان تقبلنا للجنرال ايزنهاور كقائد أعلى، فقد اقتنع الأمريكيون بصواب رأينا.

وعقدنا أول اجتماع لنا في منزل الجنرال ايزنهاور في الجزائر في مساء التاسع والعشرين من مايو، ورأس الجنرال ايزنهاور الجلسة بوصفه مضيفنا يساعده فيها كل من ماريشال وبيدل سميث، وأخذت مقعدي أمامه ومعي بروك وأليكساندر وكاتنجهام وتيدر وايسماي وآخرين، وقال ماريشال أن رؤساء أركان الحرب الأمريكيين يرون أنه ليس من الحكمة اتخاذ قرار بشأن غزو إيطاليا حتى تتبين نتيجة الهجوم على صقلية، وينجلي الوضع في روسيا تمام الجلاء، والطريقة المنطقية هي أن نعد قوتين منفصلتين في مكانين متفرقين ولكل منهما قيادته الخاصة، وسيجري تدريب إحدى هاتين القوتين على القيام بعملية حربية ضد جزيرتي سردينيا وكورسيكا، بينما تدرب الثانية على القيام بعمل حربي في البر الإيطالي، وهنا قال ايزنهاور أنه إذا انتهت عملية صقلية بسهولة فإنه سيكون راغبًا في مهاجمة إيطاليا نفسها ووافقه أليكساندر على رأيه.

وهنا قال رئيس أركان حرب القوات الإمبراطورية أن معركة هائلة ستنشب عما قريب بين الروس والألمان، وأن علينا أن نبذل كل ما في وسعنا لمساعدة روسيا، وأن نحمل الألمان على تجزئة قواتهم وتوزيعها، بعد أن انتشروا في مساحات شاسعة ولا يمكنهم تخفيضها لا في روسيا ولا في فرنسا، ولعل المكان الصالح لتجزئة هذه القوات هو إيطاليا، وإذا أمكننا أن نخرج إيطاليا من الحرب فستجد ألمانيا نفسها مضطرة إلى استبدال الفرق الإيطالية الست والعشرين الموجودة في البلقان بقوات ألمانية كما ستجبر على تعزيز ممر برنو والريفييرا والحدود الأسبانية والإيطالية، وأن توزيع هذه القوات هو ما نرمي إليه لتأمين عبور القناة.

وأعلن ايزنهاور أنه إذا نجحت عملية صقلية في بحر أسبوع، فإنه سيعبر فورًا مضايق سينا ويقيم رأس جسر له في البر الإيطالي، وأعربت له عن وجهة نظري الشخصية في أن عملية صقلية ستنتهي في الخامس عشر من أغسطس، فإذا تحقق ذلك فستهاجم فورًا إيطاليا، على شرط ألا تكون ألمانيا قد بعثت بعدد كبير من فرقها إلى هناك نظرًا لاحتمال قيام رد فعل تركي في مصلحتنا.

وعندئذ أوضح بروك عدد ما لدينا من قوات في البحر الأبيض المتوسط بعد أن حذف سبع فرق يجب أن تعود إلى بريطانيا لتشترك في عملية اجتياز القناة وفرقتين لتغطية التزامات بريطانيا العسكرية لتركيا، وأن ما سيتبقى في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط سبع وعشرون فرقة حليفة، وقال أن من المؤسف ألا نتمكن بمثل هذه القوات الضخمة من عمل شيء في الفترة ما بين أغسطس وسبتمبر من هذا العام، وعلى ذلك فقد اتضحت لي رغبة جميع القادة العسكريين في أن نمضي سريعًا وبأجرأ ما يكون من خطط.

واجتمعنا ثانية بعد ظهر الحادي والثلاثين من مايو، بعد أن وصل المستر إيدن، وأبديت رأيي في أن نتجه إلى غزو جنوب إيطاليا ولربما تكون طوالع المعركة تقتضينا اتخاذ سبيل معاكس. ولم يخالفني الجنرال ماريشال في هذا الرأي، إلا أنه قال أن من الخير تأجيل القرار إلى ما بعد البدء في عملية صقلية، وأضاف أن من الضروري أن نعرف شيئًا عن رد الفعل الألماني لنستطيع أن نقرر ما إذا كان الألمان سيقاومون مقاومة حقيقية في جنوب إيطاليا، أو سينسحبون إلى نهر البو، وهل في وسعهم أن يعتمدوا على الإيطاليين، وأن نعرف إمداداتهم التي اتخذوها في سردينيا وكورسيكا والبلقان، والتعديلات التي ستطرأ على أوضاعهم في الجبهة الشرقية، وكان هو والجنرال ايزنهاور ورجال رياسة الأركان المشتركة يدركون تمامًا حقيقة مشاعري في صدد غزو إيطاليا، وأيدوا رغبتهم في أن يتركوا اختيار الهدف التالي إلى ما بعد صقلية.

وقد قلت أن رغبتي الوحيدة هي أن أرى إيطاليا قد أزيحت من طريقنا، وأن أشد روما في قبضتنا، وإني لا أحتمل أن أرى هذا الجيش الضخم عاطلاً عن العمل في الوقت الذي نستطيع أن نقحمه في معركة لضرب إيطاليا وإخراجها من الحرب، وأكدت لهم أن برلماننا وشعبنا سيفرغ صبرهما إذا تعطل الجيش عن العمل.

ويجدر بي هنا أن أوضح بعض الأمور التي كانت موضوعًا لسوء التفاهم والخلاف، فقد طلب مني المستر إيدن أن أبين الوضع الذي ستكون عليه تركيا إذا خرجت إيطاليا من الحرب، وهل هذا سيمهد الطريق لإدخالها في الحرب إلى جانبنا عندما تصل قواتنا إلى منطقة البلقان، وعلى الرغم من أنني كنت متفقًا مع إيدن على سياستنا الحربية فقد خشيت أن يؤدي تحوير العبارة إلى تضليل أصدقائنا الأمريكيين، فقد قال أنه ليس من الضروري أن نبعث إلى البلقان الآن بجيش طالما أن الأتراك سيبدءون العمل في اللحظة التي نستطيع فيها أن نشكل تهديدًا مباشرًا للبلقان.

وهنا طلبت إلى الجنرال اليكساندر أن يبدي رأيه، فقال أن تأمين رأس جسر على البر الإيطالي يجب أن يكون جزءًا من خطتنا في الوقت الذي تجري فيه عملية صقلية. ولو أن رأس الجسر في إيطاليا ربما لا يكون منيعًا كل المناعة، مما يتطلب أي تعديل في خطتنا وعملياتنا لاحتلال قبرص، وعلينا أن نواصل الحركة دون توقف بعد أن يبدأ هجومنا على صقلية، وقد يصبح التقدم أكثر صعوبة كلما تحركنا شمالاً في البر الإيطالي، إلا أن هذا لا يمكن أن يحول بيننا وبين المضي إلى أبعد ما نستطيع كجزء من عملية صقلية، وكثيرًا ما تقع في الحروب أمور لا يكاد الإنسان يصدقها، فقبل بضعة أشهر ما كان ليصدق أن ما حدث لرومل وفيلقه الأفريقي بالفعل، قد يحدث مطلقًا، كما كان من الصعب أن يصدق أن ثلاثمائة ألف ألماني سينهارون في أسبوع واحد، وقد تم القضاء على قوات العدو الجوية، حتى أنه

أصبح في وسعنا أن نقيم عرضًا عسكريًا لكل قواتنا العاملة في شمال إفريقيا دون أن نخشى خطرًا من طائرات العدو.

وفي الحال انبرى كاتنجهام لتأييده، وقال أن علينا في حالة نجاح العملية في صقلية، أن نعبر المضايق فورًا دون أي تأخير، واختتم الجنرال ايزنهاور الاجتماع بقوله أن واجبه يدعوه إلى الحصول على المعلومات الكافية في صدد المراحل المبكرة من غزو صقلية، وأن يبعث بها إلى رياسة أركان القيادة المشتركة في وقت مبكر، لتقرير الخطة التي يجب علينا أن نتبعها دون توقف أو انقطاع، وأنه سيشفعها بالتوصيات التي يراها على أساس الأوضاع الراهنة، وأعرب عن أمله في أن يتمكن القادة الثلاثة المسئولون - أي اليكساندر وكاتنجهام وتيدر - من أن يوضحوا له بصفة رسمية آراءهم في جميع هذه الخطط.

وبعد أن أمضينا يومين في بعض الأماكن الجميلة في شمالي أفريقيا، قام الجنرال ماريشال بزيارة قصيرة لبعض القوات الأمريكية، ثم رافقني ومعنا الجنرال اليكساندر في زيارة جميع القادة العسكريين وبعض الوحدات، وقد أحسسنا بشعور النصر يملأ الجو، بعد أن تم تطهير شمال أفريقيا من قوات العدو، وأصبح في حوزتنا ما يربو على ربع المليون أسير.

وقد شعرت بأننا حققنا تقدمًا كبيرًا في محادثاتنا وأن الجميع أصبحوا يؤيدون فكرة الهجوم على إيطاليا، ولهذا فعندما عقدنا اجتماعنا الختامي في الثالث من يونيو لخصت النتائج التي توصلنا إليها وأثنيت بالغ الثناء على الجنرال ايزنهاور.

وبعد انتهاء هذا الاجتماع عدت أنا وإيدن طائرين إلى الوطن في طريق جبل طارق، ولما كانت الصحافة تنقل أنباء وجودي في شمال أفريقيا بصورة كاملة، فقد نبه ذلك الألمان، وقد أدى هذا إلى مأساة سببت لي الكثير من الألم، فعندما كانت الطائرة التجارية العادية على وشك مغادرة مطار لشبونة

تقدم منها رجل ضخم الجثة وفي فمه سيجارًا ، على أنه سيسافر عليها ، ولكن ظهر أنه من الجواسيس الألمان ، حيث أبرق إلى مرجعه يقول أني موجود في تلك الطائرة ، وعلى الرغم من أن هذه الطائرات التجارية كانت تسافر بانتظام في الأشهر الماضية بين إنجلترا والبرتغال دون أن تتعرض لها الطائرات الألمانية ، إلا أن طائرة حربية ألمانية تلقت الأوامر فورًا بقطع الطريق على طائرة الركاب المذكورة ، فهاجمتها وأسقطتها ، وقضى ثلاثة عشر راكبًا نحبهم وبينهم الممثل البريطاني المشهور ليسلي هوارد ، ومن الصعب على الإنسان أن يفهم كيف يمكن أن يتصور عاقل أن رجلاً مثلي ، تحت تصرفه كل ما لدى بريطانيا العظمى من موارد عظيمة ، يمكن أن يحجز مقعدًا في طائرة ركاب عادية غير مسلحة ، ولا حراسة لها ، تطير من لشبونة إلى الوطن في وضح النهار ، ولكننا كنا قد قمنا في الليل بدورة واسعة من جبل طارق فوق المحيط ووصلنا إلى الوطن دون أي حادث ، إلا أنني أصبت بما يشبه الصاعقة عندما علمت بما أوقعه القدر الأعمى بالآخرين.

احتلال انزيو

بعد أن استسلمت إيطاليا في شهر سبتمبر عام ١٩٤٣ تشكلت لجنة من الساسة الذين نحاهم موسوليني عن السلطة والحكم ، ومن ممثلي الهيئات التي تتعارض الحكم الفاشي ، لمقاومة الألمان ولتحرير روما ، وفي هذا الوقت كان موسوليني قد اعتقل في جزيرة بونزا ثم نقل منها فيما بعد إلى لامادالينا الواقعة على مقربة من ساحل سردينيا ، وخوفًا من أن يقوم الألمان بحركة خاطفة أمر بادوليو بنقل موسوليني إلى قرية قبلية صغيرة تقع على قمة عالية في أبروزي في أواسط إيطاليا ، إلا أنه في صباح اليوم الثاني عشر من سبتمبر هبط نحو تسعين من رجال المظلات الألمانيين من طائرة انزلاق على مقربة من الفندق الذي اعتقل فيه موسوليني وأركبوه طائرة ألمانية تولت نقله فورًا إلى ميونيخ ، حيث عقد اجتماعًا مع هتلر ، وبحثا معًا في طريقة إطالة حياة الفاشية الإيطالية

في المناطق التي لا تزال القوات الألمانية تحتلها، وأعلن الدوتشي في الخامس عشر من سبتمبر تأليف حزب فاشي جمهوري جديد ليتولى إقامة حكومة في الشمال الإيطالي، عرفت باسم حكومة جمهورية سالو، وذلك بعد أن اتخذ له مقر قيادة على شواطئ بحيرة جاردا.

وكان من نتائج استسلام إيطاليا المباغت أن وقعت جيوشها في البلقان في كمين بين قوات عصابات المقاومة المحلية وبين الألمان المتعطشين للانتقام، حيث أبيدت الحامية الموجودة في كورنو والبالغ عددها سبعة آلاف تقريبًا، وكذلك أبيدت القوات الموجودة في جزيرة كيبهالوتيا، إلا أن الحاميات الموجودة في بحر ايجه تمكنت من الفرار في مجموعات صغيرة إلى مصر. كما انضمت وحدات من الإيطاليين في ألبانيا وعلى الساحل الدماسي وفي داخل يوغوسلافيا إلى جماعة الأنصار، حيث قام تيتو بتشكيل الجزء الأكبر من فرقتين إيطاليتين من فرق "غاريبالدي" في الجبل الأسود، وكان مجموع ما خسرته الجيوش الإيطالية في البلقان وبحر ايجه ما يقرب من أربعين ألف جندي.

كما غرقت إيطاليا في أهوال الحرب الأهلية. وأخذ ضباط الجيش الإيطالي وجنوده المقيمون في المناطق الشمالية التي يحتلها الألمان ينظمون وحدات من الأنصار للعمل ضد الألمان وضد مواطنيهم الذين ما زالوا على ولائهم للدوتشي، وأخذ هؤلاء الأنصار يتصلون بجيوش الحلفاء في جنوب روما ومع حكومة بادوليو، بغية تنظيم المقاومة الإيطالية للاحتلال الألماني، وكانت المساعدات التي يبذلونها لأسرنا الذين داهمتهم الهدنة وهم في معسكرات الأسر في شمال إيطاليا من جملة الأعمال المهمة التي كانوا يتولونها، وبسبب هذه المساعدة تمكن عشرة آلاف أسير من مجموع الأسرى البالغ عددهم ثمانين ألفًا من الهرب من معسكرات الاعتقال.

ولما رأى موسوليني أن "جمهورية سالو" أخذت تتداعى قدم إلى المحاكمة في القلعة القديمة في فيرونا في نهاية عام ١٩٤٣، جميع قادة العهد الفاشي القديم الذين كانوا قد اقترعوا ضده، والذين أمكن اعتقالهم في المناطق الإيطالية التي يحتلها الألمان، وقد حكم عليهم جميعًا بالإعدام بما فيهم الكونت تشايفو زوج ابنته ايدا، وقد نفذ فيهم حكم الإعدام في شهر يناير عام ١٩٤٤.

أما من ناحيتنا فقد أخذنا نعد العدة لعملية "الحصباء" وهو الاسم الرمزي الذي أطلقناه على عملية "انزيو" وذلك في أوائل يناير، واشتبكت قوات الجيش الخامس في قتال عنيف مع القوات الألمانية لاختراق خط جوستاف الذي كانت كاسينو مركزه الأساسي، وهو خط دفاعي حصين، تتخلله مراكز مراقبة على قمم الجبال، كان العدو يسيطر بنيران مدافعه منها على جميع الوديان وما يقع فيها من حركات، مما أرغم قواتنا على الارتداد.

وفي هذه الأثناء سارت قوافلنا المتجهة إلى انزيو في عرض البحر تحت حماية الطائرات التي قامت بغارات على مطارات العدو، وبالأخص على مطار بيروجيا قاعدة طائرات الاستطلاع الألمانية، وكنت أرقب بقلق بالغ نتيجة هذه العملية المهمة، حتى جاءتني الأنباء بأن الفيلق السادس الذي يتألف من الفرقة الأمريكية الثالثة والفرقة البريطانية الأولى بقيادة الجنرال الأمريكي لوكاس قد نزل إلى البر في شواطئ انزيو في صباح الثاني والعشرين من الشهر، واستغرقت عمليات جس النبض في اتجاه شيشتيرنا وكامبوليوني طيلة يومي ٢٢ و ٢٣ يناير، كما نزل أيضًا جماعتان من الفدائيين البريطانيين والأمريكيين مع حشد هائل من المعدات والأسلحة على الشاطئ، ولكن الفرصة التي بذلنا كل هذه المجهودات الهائلة في سبيل الحصول عليها قد ضاعت بسبب ما قام به الجنرال كيسلرنج من رد سريع وهجوم شامل من قواتنا، وقد وصلتني أنباء خطيرة من الجنرال اليكساندر بأنه هو والجنرال كلارك غير راضيين عن سرعة التقدم، ولكن هجماتنا استمرت على مواقع

الدو في كاسينو، ولم يضعف الخطر الذي يهدد جناح كيسلرنج من عزيمته على مقاومة هجماتنا، وتصميمه على الاحتفاظ بمواقعه تنفيذًا للأمر الصادر إليه من هتلر، والذي قال فيه: "يجب الاحتفاظ بخط جوستاف بأي ثمن، بالنظر إلى النتائج السياسية التي يمكن أن تنجم عنه، وأن الفوهرر يتوقع كفاحًا شديدًا في سبيل كل شبر من الأرض".

ولو أننا حققنا تقدمًا مرضيًا في البداية حيث اجتزنا نهر أبيدو المار ببلدة كاسينو، ثم هجمنا نحو الجنوب في اتجاه جبل الدير، إلا أن الألمان صمدوا صمودًا عنيدًا، ولم يأت أول فبراير حتى كانت قوة هجومنا قد ضعفت وجئنا بفيلق نيوزيلندي يضم ثلاث فرق من جبهة الادرياتيك، وبدأنا في الخامس عشر من فبراير هجومنا الرئيسي الثاني بقصف الدير نفسه، كما عهد إلى الفرقة الهندية الرابعة التي حلت محل الأمريكيين بالهجوم، وقاموا فعلاً بمحاولات يائسة في ليلتين متتاليتين لاحتلال أكمة بين المواقع التي يوجدون فيها وبين الجبل الذي يقوم عليه الدير، ولكنها منيت بالفشل، وفي ليلة الثامن عشر من فبراير قاموا بمحاولة ثالثة ودار بينها وبين العدو قتال عنيف قتل فيه جميع رجالنا الذين توصلوا إلى الألمان وخسرت قواتنا خسائر بالغة مما اضطرها إلى التوقف، وهكذا فشل الهجوم المباشر على كاسكينو.

وقد قال الجنرال ويلسون في تقريره "أغلق المحيط، وأصبحت قواتنا في داخله عاجزة عن التقدم" فعلى الرغم من أن الجنرال لوكاس قد حصل على المباغتة التي كنا نريدها، إلا أنه فشل في استغلالها والاستفادة منها، وكان هذا مثبطًا للعزائم عندنا وفي الولايات المتحدة، وقد كنا في الظاهر لا نزال أقوى من الألمان في قوتنا المحاربة، ولكن السهولة التي كانوا ينقلون بها قطعهم من مكان إلى آخر، والسرعة التي كانوا يسدون فيها الثغرات الخطرة التي في جبهتهم الجنوبية كانتا ظاهرتين مؤثرتين كل التأثير، ووضح أن كل هذا يبين لنا حقائق ليست في مصلحة عملية "السد الأكبر".

كما بدأت المحاولة الرئيسية المنتظرة للقذف بنا إلى البحر، عندما استخدم العدو أكثر من أربع فرق يدعمها نحو أربعمائة وخمسين مدفعًا في هجوم مباشر من كامبوليوني نحو الجنوب تنفيذًا لأمر هتلر بإخلاء الشاطئ في بحر ثلاثة أيام، ولكن الخط الذي كان حتى الآن يفرض العراقيل شاء في اللحظة الأخيرة أن يولينا بعنايته، فقبل أن تنتهي الأيام الثلاثة المقررة توقف الهجوم الألماني، وفي الحال قمنا بهجوم عام تؤيدنا نيران شديدة من مدفعيتنا وغارات طائراتنا ودار قتال عنيف بلغت خسائر الفريقين فيه حدًا هائلاً، ولكننا كسبنا المعركة.

وفي أوائل شهر مارس توقف الفريقان عن الحركة بسبب رداءة الطقس بعد أن فشلنا في اختراق جبهة الألمان الرئيسية في كاسينو، كما فشل الألمان في القذف بنا إلى البحر في انزيو.

ولو أن انزيو لم تعد مصدر قلق لنا، إلا أن الحملة في إيطاليا في مجموعها أبطأت في سيرها، وكنا نأمل أن نتمكن من طرد الألمان إلى الشمال من روما، كما نتمكن من القيام بعملية إنزال قوات ومعدات على شاطئ الريفيرا الفرنسي لتكون عونًا لنا في عملية الغزو عبر القناة، إلا أنه قد تبين أن علينا أن نسير بالحملة في إيطاليا شوطًا بعيدًا قبل أن نبدأ في عملية غزو القناة.

ولما كانت الحاجة ملحة تتطلب إنهاء فترة الجمود التي تسود جبهة كاسترو، فسرعان ما بدأت الاستعدادات لمعركة كاسينو الثالثة، ولكن رداءة الطقس حالت دون بدء الهجوم حتى الخامس عشر من مارس، حيث بدأنا الهجوم بإلقاء أكثر من ألف طن من قنابل الطائرات وألف ومائتي طن من قذائف المدافع حتى يتيسر لمشاتنا التقدم، وعندما هبط الظلام كان الجزء الأكبر من البلدة قد أصبح في أيدينا، ولكن المعركة استمرت في خرائب كاسينو حتى الثالث والعشرين من الشهر، وهي تتردد بين مد وجزر من

الهجمات والهجمات المضادة، ولكننا على كل حال أفلحنا في تثبيت رأس جسر على نهر رابيدو، مما كان له كبير الأهمية في الاندفاع الذي قمنا به في شهر يناير الماضي، عبر الحوض الأدنى لنهر كاريديليانو، وعندما جاء دور المعركة الحاسمة الظافرة فيما بعد، تمكنا من احتلال انزيو، وقد دل هذا العمل الذي قامت به جيوشنا في إيطاليا ولا سيما في ضربة انزيو، على أننا سننجح في عملية "السد الأكبر".

عبور القناة أو عملية السد الأكبر

لما كنت شديد الرغبة في إشراك الولايات المتحدة معنا في هجوم مباشر عبر القناة على جبهة الألمان البحرية في فرنسا، ولما كنت أيضًا غير مقتنع بأن هذه الخطة كانت الوحيدة التي تضمن الفوز في الحرب، وكنت أعرف أنها مغامرة محفوفة بالأخطار وكثيرة المتاعب، وكانت الأثمان الغالية التي دفعناها من الأرواح البشرية الدماء في أثناء الحرب العظمى الأولى، لا تزال منقوشة في ذاكرتي، وكنت لا أزال أعرف أن الحصون المبنية من الأسمنت المسلح والفولاذ والمسلحة بالقوة النارية الحديثة والتي يدافع عنها رجال مدربون أكمل تدريب، لا يمكن التغلب عليها إلا بعنصر المباغتة، فقد ظل الجنرال مورجان وأركان حربه من القوات الحليفة المشتركة يعملون طول أشهر الصيف عام ١٩٤٣ في إعداد الخطة، وكان من رأي الجنرال ايزنهاور والجنرال مونتجمري أن يكون الهجوم بقوة كبيرة وعلى جبهة أوسع ليكسبا بسرعة رأس جسر ذا حجم كاف لتعزيز القوات التي تنزل إلى البر، وكان من المهم أيضًا الاستيلاء على أرصفة شربورج، وطالبا أن يكون الهجوم بخمس فرق بدلاً من ثلاث. وقد تقرر أخذ قطع الإنزال اللازمة لفرقة واحدة من الفرقتين الإضافيتين من عملية "السندان" أما البواخر اللازمة للفرقة الثانية فيمكن إيجادها من تأجيل عملية السد الأكبر حتى فترة القمر في يونيو.

وقد أخذت جميع الفرق تجري تدريباتها النهائية، وبالطبع لم يمر هذا النشاط عرضًا، فقد كان لنا غاية في أن يلاحظ المراقبون الأعداء ذلك من خليج كاليه، كما كنا في هذه الفترة نجري عملية استطلاع جوي مستمرة لنكون على علم بما يدور في القناة، كما كانت تقوم بعض الجماعات برحلات عدة في زوارق صغيرة لسبر بعض الأغوار على الشاطئ ومعرفة العقبات الجديدة واختبار طبيعة الساحل وذلك في جنح الظلام.

ولما كان اختيار يوم الغزو وساعته أمرًا دقيقًا ومعقدًا، كما أن جميع الشروط المرغوب فيها ما كانت لتتوافر إلا ثلاثة أيام في كل شهر قمري، وكانت الأيام الثلاثة التي حددها الجنرال ايزنهاور هي الخامس والسادس والسابع من يونيو، فقد اتفق على أن يكون اليوم الخامس من حزيران هو بدء الغزو، وإذا لم يكن الطقس ملائمًا في أي من هذه الأيام الثلاثة فإن العملية كلها ستتأجل شهرًا كاملاً انتظارًا للقمر.

ولما كان حشد القوات المهاجمة والتي كان يبلغ تعددها (١٧٦) ألف جندي وعشرين ألف سيارة وعدة ألوف من أطنان الذخائر، التي تقرر نقلها في اليومين الأولين مهمة كبيرة للغاية، فقد بدأ نقل الجنود من جميع مراكزهم في أنحاء بريطانيا إلى المقاطعات الجنوبية، كما جمعت فرق الجو الثلاث وهي التي تقرر هبوطها في نورماندي قبل بدء الهجوم البحري في أماكن قريبة من المطارات التي ستستقل الطائرات منها.

ولما كان من غير المعقول أن تظل جميع هذه التحركات في البر والبحر خافي عن عيون العدو واهتمامه، وكانت هناك أهداف مغرية لطائرات العدو فقد اتخذنا الاحتياطات اللازمة كافة لمواجهة ذلك، وأعددنا أكثر من سبعة آلاف مدفع مضاد للطائرات والصواريخ وأكثر من ألف منطاد لحماية هذه الحشود الهائلة من الرجال والسيارات.

وقبل ثلاثة أسابيع من ابتداء الغزو، عقدنا مؤتمرًا ثانيًا في لندن، في مقر قيادة مونتجمري شهده الملك والمارشال سمطس ورؤساء أركان الحرب البريطانيين وقواد الحملة وعدد كبير من أركانهم، وكان قد أعد خريطة كبيرة لنورماندي وشواطئها ومداخلها، ليتمكن كبار الضباط الذين يشرحون خطة العملية والطرق الموصلة للأماكن التي يشيرون إليها، وانتهت الجلسة بعد أن ألقى الملك والجنرال مونتجمري وضباط الأركان خطاباتهم.

هذا وقد لاحظنا أن العدو يعد نجدات من القوات البحرية الخفيفة في شربورج والهافر، كما أبدى نشاطًا كبيرًا في عمليات زرع الألغام في القناة. وعندما حل يوم الغزو وهو الخامس من يونيه منعنا جميع الأشخاص الذين تقرر اشتراكهم في الحملة من مغادرة بواخرهم أو معسكراتهم أو نقاط تجميعه على الساحل، كما احتجز البريد بأنواعه، وأخذنا ندرس التقارير عن حالة الطقس، وقد عرفنا أن الطقس سيكون سيئًا للغاية، وهذا أمر كبير الأهمية بالنسبة لغارات الطائرات التي ستمهد للإنزال،ن وطال أمد التأجيل إلى ما بعد السابع وأصبح من غير الممكن الحصول على الجمع بين القمر والمد قبل مضي نحو أسبوعين، وكانت في هذه الأثناء قد صدرت التعليمات إلى جميع الجنود بالاستعداد، ولكن لما كان من الواضح أنه ليس في وسعنا الاحتفاظ بهم على ظهر هذه البواخر الصغيرة إلى أمد غير محدود، كما أنه كان في مثل هذه الحالة لا يمكن أن تحول دون تسرب الأنباء ووصولها إلى العدو في حالة حدوث تأجيل طويل، وعليه فقد أصدر الجنرال ايزنهاور أمرًا بتأجيل العملية وعادت جميع البواخر والسفن المحملة بالجنود والعتاد إلى مكان تجمعها الأصلي.

ولكن خبراء الأرصاد الجوية عادوا وأكدوا وجود تحسن مؤقت صباح السادس من يونيو ويعود الطقس بعدها إلى السوء، إلى وقت غير محدود. وكان على ايزنهاور أن يواجه الخيار الخطير بين أمرين. إما تقبل الأخطار أو تأجيل الهجوم مدة أسبوعين على الأقل، ولكنه على ضوء نصائح قادته قرر بجرأة وحكمة - كما أثبتت الأيام - أن يمضي قدمًا في العملية وتقرر أن يقع

الغزو في اليوم السادس من يونيو، وبعد أن تتابعت الأحداث تبين لنا أن هذا القرار قد بررته الأحداث وكان سببًا في أن قبضنا على ناصية المباغتة مع ما تنطوي عليه من فوائد، وكان من حسن حظنا أن ضباط الأرصاد الجوية الألمان كانوا قد أبلغوا قيادتهم العليا أن الغزو الخامس والسادس من يونيو في حكم المستحيل بسبب رداءة الطقس التي قد تستمر عدة أيام، وعلى ذلك فقد مضت العملية الكبيرة في طريقها بدقة متناهية. وتقدم أعظم أسطول غزو في التاريخ متجهًا إلى ساحل فرنسا تتقدمه كاسحات الألغام وتحرسه من جميع جهاته القوات البحرية والجوية الحليفة.

وكانت شبكة الدفاع حول جميع شواطئنا محكمة وتعمل في منتهى الدقة والنشاط، كما كان أسطول الوطن يقظًا ومتربصًا لأية حركة قد تقوم بها السفن الحربية الألمانية، وكانت الدوريات الجوية تراقب شواطئ العدو من النرويج حتى القناة، وفوق المداخل الغربية وخليج بسكاي، وفي هذه الأثناء جاءتني أنباء مثيرة عن احتلال قواتنا لروما.

الاستيلاء على روما

لقد توقف زحف الحلفاء في إيطاليا لمدة شهرين بسبب ما لاقته قواتنا من صعاب في جبهتي انزيو وكاسينو، في أثناء القتال الذي دار هناك، وقد تحتم علينا أن نعيد تنظيمها، وأن ننقل الجزء الأكبر من الجيش الثامن، ومن ناحية الادرياتيك لكي يتأهب الجيشان للهجوم القادم. وفي هذه الأثناء كان الجنرال ويلسون يستخدم كل ما لديه من قوات جوية ليعرقل حركات العدو، ويلحق به أفدح الخسائر، كما اشتركت قوات الحلفاء الجوية في مهاجمة مواصلات العدو البرية أملاً في قطعها، لكي ترغم القوات الألمانية على الانسحاب بسبب افتقارها إلى المؤن، وكذلك تحطيم الجسور والقناطر وغيرها من الأماكن الحساسة لتوقف سير القطارات إلى الشمال من روما ولكن العملية فشلت، وتمكن العدو من المحافظة على طرق إمداده، باستخدام الملاحة الداخلية ونقل

شحناته بالسيارات بدلاً من القطارات، ولكنه عجز عن جمع كميات كبيرة من المؤن والذخائر تكفي قواته للاستمرار في القتال لمدة طويلة، وظهر الضعف في صفوفه في أثناء القتال العنيف الذي نشب في الأيام الأخيرة من شهر مايو. مما حقق لنا الاتصال بجيوشنا المنفصلة، كما تحقق لنا الاستيلاء على روما في أسرع مما كنا نتوقع، كما منى سلاح الجو الألماني بخسائر فادحة.

وقد كان الجيش الخامس بقيادة الجنرال كلارك يضم في هذا الوقت سبع فرق بينها أربع فرق فرنسية ويحتل الجبهة الممتدة من البحر إلى نهر ليري، كما كانت جبهة الجيش الثامن الذي يقوده الجنرال ليز مكملة الخط عبر كاسينو إلى الجبال والذي يضم اثنتي عشرة فرقة، وقد تجمع للحلفاء بذلك ثمان وعشرون فرقة، مقابل ثلاث وعشرون فرقة للألمان. وكانت خطواتنا التضليلية تذهل كيسلرنج مما دعاه إلى توزيع قواته على مساحة شاسعة، وبذلك لم يكن لديه في الجبهة الممتدة بين كاسيلو والبحر، حيث تقرر أن توجه ضرباتنا إليها أربع فرق، وقد بدأ الهجوم في مساء اليوم الحادي عشر من مايو، عندما أطلقت مدافعنا البالغ عددها ألفي مدفع قذائفها على العدو وعززها في الصباح قصف جوي شديد قامت به طائراتنا، وبذلك تم لنا في اليوم الثامن عشر من مايو التغلب على العدو وتطهير كاسينو بصورة نهائية.

كما كانت هناك ست فرق يقودها الجنرال الأمريكي تروسكوت قد احتشدت في رأس شاطئ انزيو اندفعت في هجومها مع الجيش الثامن، ولم يمض يومان حتى اتصلت بالفيلق الأمريكي الثاني.

وبذلك تحطمت المقاومة الألمانية في مساء اليوم الثاني من يونيو، وفي اليوم الرابع من يونيو دخلت طلائع الفرقة الثامنة والثمانين إلى ساحة البندقية في قلب العاصمة (روما).

وفي اليوم السادس من حزيران عام ١٩٤٤ أعلنت في مجلس العموم تحرير مدينة روما على أيدي جيوش الحلفاء تحت قيادة الجنرال اليكساندر، كما

بعثت إلى ستالين أعلمه بذلك وبسير عملية "السد الأكبر" نحو غايتها، وقد رد علي يقول:

"تلقيت رسالتك عن النجاح الذي حققتموه في بداية عملية "السد الأكبر" مما بعث السرور إلى نفوسنا والأمل في انتصارات أخرى، هذا وسيبدأ حوالي منتصف هذا الشهر هجوم الصيف بالنسبة للقوات السوفيتية، كما اتفقنا في مؤتمر طهران على أن تتطور العمليات الهجومية خلال شهر يوليو إلى هجوم عام تشنه الجيوش السوفيتية في جميع أنحاء الجبهة".

وبعد أيام أبرق إلى ستالي يقول:

"لقد أصبح واضحًا أن النزول الذي خطط له على نطاق واسع قد نجح نجاحًا كاملاً، ولا أستطيع أنا وزملائي إلا الاعتارف بأن تاريخ الحرب لا يعرف عملية أخرى مماثلة من حيث تطوراتها وتصوراتها الواسعة وتنفيذها العبقري.

ومن المعروف جيدًا أن نابليون قد فشل فشلاً معيبًا في اجتياز القناة بالقوة، وهتلر المجنون الذي ظل يتبجح عامين كاملين بأنه سيعبر المانش، لم يستطع أن يحزم أمره حتى على مجرد الإشارة بأنه سيحاول تنفيذ وعيده، ولم يتمكن سوى حلفائنا من أن يحققوا بشرف الخطة العظيمة في عبور المانش، ولا ريب في أن التاريخ سيسجل هذا العمل على أنه عمل من أعظم الأعمال".

وأبلغنا الجنرال مونتجمري في العاشر من يونيو بأنه قد أصبح ثابت الأقدام على الشاطئ بحيث يستطيع تقبل الزيارات، فقمت ومعي الجنرال سمطس وبروك لزيارته على ظهر إحدى المدمرات كما استقل الجنرال مارشال والأميرال كينج وضباط أركان حربهما مدمرة أخرى ليكونوا معنا في هذه الزيارة، ونزلنا إلى البر وأخذت السيارة تطوف بنا المنطقة المحدودة التي يحتلها في نورماندي وعدنا بعد ذلك على المدمرة "كيلفن".

وبعد عودتي بعثت بالرسالة التالية إلى الرئيس شرحت له فيها جميع القضايا ومن بينها بالطبع الزيارة التي ينوي الجنرال ديجول القيام بها لفرنسا، والتي أعددت لها العدة دون استشارة الرئيس، فقلت له فيها:

"لقد قضيت يومًا ممتعًا على الشاطئ الفرنسي وفي الداخل، وهناك كتلة ضخمة من البواخر تنتشر على مسافة تتعدى الخمسين ميلاً على طول الشاطئ، وتقوم الموانى الاصطناعية بحماية هذه البواخر. وفي وسعي أن أقول أن كل عنصر من هذه الموانى كان ناجحًا في حد ذاته، وسنصبح عما قريب عاملاً مهمًا في تأمين الملاذ الأمين ضد الطقس السيئ، ويبدو أن قوة سلاحنا الجوي وقوة وسائلنا في مقاومة الغواصات قد ضمنت لنا حدًا كبيرًا من الحماية، وبعد أن قمنا بواجبات كثيرة منهكة أطلقنا نيران مدافعنا ن مدمراتنا على الرغم من أننا كنا على بعد ستة آلاف ياردة، ولكن العدو لم يكرمنا برد تحيتنا".

تحرير باريس

ولنبين الآن مما توضح لنا ما كنت عليه أوضاع وخطط العدو، فقد كان الماريشال رونشتادت يتولى قيادة (جدار الأطلنطي) وتحت إمرته ستون فرقة تتولى العمل في القطاع الممتد من الأراضي المنخفضة حتى خليج بسماي، ومن مارسيليا إلى نهاية الساحل الفرنسي الجنوبي، وكان روميل يتولى القطاع الساحلي الممتد من هولندا إلى اللوار وكان جيش الخامس عشر المؤلف من تسع عشرة فرقة على حين كان جيشه السابع المؤلف من تسع فرق مشاه وفرقة مدرعة في نورمانديا نفسها، أما الفرق العشر المدرعة الموجودة في الجبهة الغربية كلها فكانت منتشرة من بلجيكا إلى بوردو، ومن الغريب أن الألمان وقد أصبحوا في مركز المدافع فقد ارتكبوا الأخطاء التي ارتكبها الفرنسيون عام ١٩٤٠ عندما وزعوا أقوى سلاح يمكن لهم الاعتماد في الهجوم المضاد.

ومن الغريب أن هذا الهجوم الضخم جاء مباغتًا للعدو، ففي صباح الخامس من يونيو كان روميل قد غادر مقر قيادته لزيارة هتلر في بحتسجادن عندما حلت الضربة بقطاعه وكان رونشتادت يعتقد بأن ضربتنا الرئيسية ستوجه من مضايق دوفر، لكن يظهر أن هتلر وأركان حربه كانوا قد تلقوا تقارير تشير إلى أن نورماندیا ستكون ميدان المعركة الرئيسي، وظلت تساوره الشكوك حتى بعد نزولنا، وأضاع يومًا كاملاً قبل أن يقرر إرسال أقرب فرقتين مدرعتين إلى الجبهة لتعزيزها، لأنه كان في رأيه أن عملية الإنزال في نورماندیا لم يكن إلا مجرد عملية أولية وفرعية، ولم يرسل القوات الاحتياطية من الجيش الخامس المرابط في خليج كاليه جنوبًا لتشترك في المعركة إلا بعد أن انقضى ستة أسابيع على يوم الغزو.

ومع ذلك فقد قاتلت جيوش العدو بعناد وإصرار، ولم يكن من السهل التغلب عليها، ولكن على الرغم من جميع الصعوبات التي لاقيناها، فقد حققنا تقدمًا طيبًا باستثناء فشلنا في احتلال كاين، التي كانت ذات أهمية عظيمة بالنسبة لنا، ولأن مونتجمري كان قد قرر أن يقيم بوساطة القوات الأمريكية فيها نقطة ارتكاز يسارية ضخمة تدور منها المعارك، ولأن أرضها كانت تصلح لإقامة أماكن لهبوط الطائرات فيها، كما كانت هذه البلدة مهمة أيضًا بالنسبة للألمان، لأن اختراق الجبهة فيها يجبر جيشهم السابع بأكمله على الانسحاب في اتجاه جنوبي شرقي اللوار ويفتح ثغرة بينه وبين الجيش الخامس عشر في الشمال، كما يتفتح الطريق في الوقت نفسه إلى باريس.

وقد تمكن الحلفاء في الحادي عشر من يونيو من إقامة جبهة متصلة واندفع الأمريكيون شرقًا وغربًا تؤيدهم الطائرات المقاتلة، وبعد قتال عنيف توقفوا عند أبواب الخطوط الدفاعية لمدينة شربورج في الثاني والعشرين من يونيو.

وفي هذه الأثناء وقعت أحداث أخرى وراء الميدان أثرت على مستقبل المعركة تأثيرًا حاسمًا، ففي ليلة الثالث عشر من يونيو سقطت على لندن أول القنابل الطائرة، وكانت هذه القنابل تنطلق من سواحل فرنسا الشمالية من أماكن بعيدة عن جيوشنا النازلة إلى البر، ولو كنا احتللنا هذه الأماكن في وقت مبكر لأرحنا السكان المدنيين في لندن من تعرضهم لهذه الغارات الجوية الفظيعة.

وفي اليوم التاسع عشر من يونيو عقد هتلر مؤتمرًا في مارجيفال على مقربة من سواسون، شهده رونشتادت ورومل، وبين له القائدان وجوب سحب الجيش السابع بانتظام قبل أن يتعرض للدمار إلى نهر السين، حيث يستطيع أن يخوض بالاشتراك مع الجيش الخامس عشر معركة حاسمة ومتحركة، ولكن هتلر لم يذعن لرأيهما، وأصر كما سبق أن أصر في روسيا وإيطاليا على وجوب القتال عن كل شبر من الأرض.

هذا وقد تم لنا في الستة أيام الأولى من بدء الهجوم تثبيت أقدامنا وأنزلنا (٣٢٦) ألف رجل و(٥٤) ألف سيارة و (١٠٤) آلاف طن من العتاد والذخائر، كما أقمنا جهازًا هائلاً للتموين، كما أعددنا ميناء "بورت آن باسان" ليكون الميناء الرئيسي للإمداد بالبترول في المنطقة كلها، وفي هذه الأثناء هبت عواصف شديدة استمرت أربعة أيام فحالت دون نزول أية قوات أو معدات جديدة إلى الساحل كما ألحقت أضرارًا كبيرة بحواجز الماء، وأفلتت قطع عائمة كثيرة. فاصطدمت بحواجز المياه وبالسفن الراسية في مرافقها وتحطم الميناء الموجود في المنطقة الأمريكية، وقد تسببت في تعطيل تقدمنا في الميدان، وأقام البريطانيون في الأسبوع الأخير من يونيو رأس جسر لهم في جنوب كان ولكن المحاولات التي بذلت لتوسيعه جنوبًا وشرقًا منيت بالفشل.

وفي السابع عشر من شهر يوليو، وقع حادث مهم للغاية، حيث أصيب روميل بجراح بالغة من جراء هجوم طائراتنا المحاربة من ارتفاع منخفض على

سيارته، ولكنه بعد أن شفي من جراحه لقى حتفه فيما بعد بأمر من هتلر، كما نحى رونشتادت عن قيادة الجبهة الغربية كلها ليخلفه فيها فون كلوجه، وهو قائد أظهر تفوقًا عظيمًا في الجبهة الروسية، كما وقعت في العشرين من يوليو محاولة أخرى فاشلة لاغتيال هتلر، بوساطة قنبلة زمنية وضعها الكولونيل فون شتوفنبرج، وقد قتل عدد من الضباط الذين كانوا حاضرين ولكن الفوهر برغم الصدمة الشديدة والجراح التي أصيب بها نهض هاتفًا "من يقول أن الله لا يرعاني بحمايته".

وفي الثامن عشر من يوليو هجم الجيش البريطاني بثلاثة فيالق تقدمها قصف جوي هائل، حال بين سلاح ألمانيا الجوي وبين التدخل في المعركة وتقدمنا إلى الشرق من كاين، إلى أن حالت الغيوم الملبدة في السماء بين طائراتنا وبين الحركة الفعالة، مما سبب تأخرًا في عملية الاقتحام في القطاع الأمريكي لمدة أسبوع.

وفي هذه الآونة صدرت الأوامر بإلغاء الحظر الذي كانت القيادة العليا الألمانية قد فرضته على جيشها الخامس عشر، والتي كانت محتفظة به وراء نهر السين، كما توجهت فرق جديدة لتعزيز الجيش السابع الذي لحق به الإجهاد، وقد تمكنت طائراتنا من عرقلة نقل هذه الفرق بالسكة الحديد.

وحانت أخيرًا لحظة الهجوم الأمريكي العظيم بقيادة الجنرال برادلي، ففي الخامس والعشرين من يوليو، اندفع الفيلق السابع جنوبًا من سان لو وانضم إليه الفيلق الثامن المرابط إلى ميمنته في اليوم التالي، تؤيدهما قاذفات القنابل الأمريكية، كما اندفعت القوات المدرعة تجرف في طريقها كل شيء مستهدفة نقطة كوتانس، ذات المركز الحساس، فقطعت طريق النجاة بالنسبة للألمان على طول ساحل نورمانديا الغربي، وأصبحت جميع مراكز الألمان الدفاعية إلى الغرب من نهر فير في حالة من الشلل والاضطراب ومضى الزحف مندفعًا للأمام، وتم احتلال افرانسن في الحادي والثلاثين من يوليو،

وتلتها الزاوية البحرية التي فتحت الطريق إلى شبه جزيرة بريتاني، وقام الكنديون في الوقت نفسه بهجوم من كاين جنوبًا في اتجاه طريق ناليز، ولكنه لقى مقاومة فعالة من أربع فرق مدرعة.

وفي هذا الوقت تم تشكيل الجيش الأمريكي الثالث بقيادة الجنرال باتون، وشرع بعمل في ميدان القتال، وقد أوفد هذا الجيش فرقتين مدرعتين وثلاث فرق من المشاة إلى الجنوب والغرب، لتطهير جزية بريتاني، بمساعدة حركة المقاومة الفرنسية التي كانت تضم ثلاثين ألف رجل، وقد تم الاستيلاء على شبه جزيرة بريتاني.

وبعد أن تم تطهير بريتاني شرعت بقية جيش باتون في الزحف شرقًا في الخطاف الطويل "الذي سيصل بها إلى الثغرة الواقعة بين باريس والنوار وهبوطًا مع السين في اتجاه روان" ودخلت قواتنا بلدة لافال في السادس من أغسطس وفي السابع منه بلدة ليمانز، ولكن الصعوبة الكبرى كانت من تموين الأمريكيين الزاحفين في مساحات طويلة شاسعة، وكان من الواجب في هذه اللحظة نقل كل شيء إلى شواطئ الإنزال الأساسية، ومنها إلى الطرف الغربي من نورماندیا عبر افرانش حتى تصل المؤن إلى الجبهة، وهكذا أصبحت افرانش بمثابة عنق الزجاجة، وقد حانت فرصة مغرية للألمان ليشنوا عليها هجومًا مضادًا واستحوذت الفكرة على خيال هتلر، فأصدر أوامره بأن تقوم القوات بالهجوم على مورثان، لتشق طريقها منها إلى افرانشن، ولتقطع بذلك طرق مواصلات باتون، وأجمع القادة الألمان على استنكار هذا الهجوم الجديد، لإدراكهم أن معركة نورماندیا قد انتهت بفقدها، ولكن هتلر أصر على رأيه. وفي السابع من أغسطس شنت خمس فرق مدرعة وفرقتان من المشاة هجومًا عنيفًا على مورثان من ناحية الشرق، فسقطت الضربة على فرقة أمريكية واحدة، ولكنها صمدت للهجوم حتى وصلتها ثلاث فرق أخرى لمساعدتها وصد العدو. ومضت قوات الحلفاء تندفع في طريقها مهاجمة الألمان المكتظين في الجيب الضيق الطويل، وتمكنت بفعل المدافع من أن تنزل بها

خسارة هائلة، وصمد الألمان بعناد وإصرار محاولين إنقاذ ما يمكن إنقاذه بوساطة قواتهم المدرعة، وتحول المنظر إلى مذبحة وانطبق الفكان في العشرين من أغسطس، وقد تمكن شطر كبير من قوات العدو من الخلاص من الطوق والنجاة، إلا أن ما لا يقل عن ثمان فرق ألمانية قد تمت إبادتها في هذه المعركة.

كما تمكن الجيش الأمريكي الثالث من تطهير بريتاني والإسهام في نصر فاليه الرائع، بدفعه ثلاث فيالق في اتجاه الشرق والشمال الشرقي من ليمانز، وقد وصلت في السابع عشر من أغسطس إلى أورليان وشاراد ودرو. ثم اندفعت في اتجاه شمالي غربي للقاء القوات البريطانية الزاحفة على روان.

وكان ايزنهاور الذي تولى القيادة العليا الآن عازمًا على تجنب خوض معركة لاحتلال باريس، ولما كانت ستالنجراد ووارسو قد برهنتا على ما في الهجمات الجيبية من مفازع ومخاوف ومن انتشار روح الوطنية بين المدافعين، فقد قرر تطويق العاصمة وإرغام الحامية التي بها إما على الاستسلام أو الهرب، وحانت في العشرين من أغسطس ساعة العمل، وكان الجنرال باتون قد عبر نهر السين على مقربة من سانت، ووصل جناحه الأيمن إلى فونتبنلو، وأعلنت الحركة السرية الفرنسية الثورة وأضرب رجال الشرطة ووصل أحد ضباط المقاومة الفرنسية إلى مركز قيادة باتون حاملاً تقارير هامة، وقد نقلت هذه التقارير إلى الجنرال ايزنهاور في ليمانز، كما التحقت الفرقة الفرنسية المدرعة الثالثة بقيادة الجنرال ليكليرك والتي كانت قد هبطت إلى البر في نورماندیا في أول أغسطس بجيش الجنرال باتون. وأدت دورًا مهمًا في التقدم ووصل ديجول في اليوم نفسه فأكد له القائد الأعلى للحلفاء، أنه عندما يحين الوقت وطبقًا للاتفاقات السابقة ستكون قوات ليكليرك أول القوات التي تدخل باريس، وما أن وصلت إلى ايزنهاور أنباء عن وقوع قتال في شوارع العاصمة حتى قرر أن يعمل فورًا وأصدر أمره إلى ليكليرك بالزحف على باريس.

وفي الرابع والعشرين من أغسطس تحرك الاندفاع الرئيسي بقيادة العقيد بيلوني من أورليان في اتجاه باريس، ووصلت طليعة الدبابات في تلك الليلة بوابة أورليان، ودخلت إلى الساحة القائمة في مدخل دار الأمانة، وفي صباح اليوم التالي كانت قوات بيلوني المدرعة تحتل ضفتي السين وعند الظهر تم تطويق مقر قيادة الجنرال الألماني فون شوريتز في "قصر موريس" وجيء بفون شوليتز أمام ليكليرك، وكانت هذه خاتمة المطاف من دنكرك إلى بحيرة تشاد فالوطن ثانية، وتم التوقيع على شروط تسليم حامية المدينة، ودخل ديجول في السادس والعشرين من أغسطس العاصمة سيرًا على قدميه إلى الشانزلزيه ومنها إلى ساحة الكونكورد، حيث استقل ورفاقه السيارات صاعدين إلى نوتردام، وبعد فترة قصيرة جرى الاحتفال الرسمي بتحرير باريس وفقًا للخطة الموضوعة.

وفي الثلاثين من أغسطس عبرت قواتنا نهر السين من عدة جهات وكانت خسائر العدو هائلة، فقد بلغت أربعمائة ألف رجل وأكثر من نصفهم وقعوا في الأسر، وألفًا وثلاثمائة دبابة وعشرين ألف سيارة وألفًا وخمسمائة مدفع ميدان، وقد مزق الجيش الألماني السابع وجميع الفرق التي أرسلت لنجدته وكتب الجنرال ايزنهاور في تقريره الرسمي يقول: "لولا التضحيات العظيمة التي قدمتها الجيوش الإنجليزية والكندية في معارك كاين وفاليه الوحشية، لما كان في إمكاننا أن نحقق الزحف الرائع بوساطة قوات الحلفاء الأخرى في المناطق الثانية".

تحرير إيطاليا والنزول في الريفييرا

لما كان تحرير نورمديا من الأحداث العظيمة في الحملة الأوروبية لعام ١٩٤٤، ولكنه لم يكن إلا إحدى الضربات الموجهة إلى ألمانيا النازية، وكان الروس في الشرق يتدفقون على بولندا والبلقان، على حين كانت جيوش اليكساندر في الجنوب "أي في إيطاليا" تضغط في اتجاه نهر البو، فقد كان

من المحتم الآن اتخاذ القرارات في صدد حركتنا المقبلة في البحر الأبيض المتوسط، وأنه لما أسجله مع المزيد من الأسف أن هذه القرارات تسببت في أول خلافات مهمة في الخطط الاستراتيجية العليا بيننا وبين حلفائنا الأمريكيين.

من ذلك أننا كنا قد وعدنا بتنفيذ عملية "السد الأكبر" وكانت مهمتنا الأولى هي إنجاح تلك العملية، ولما كنا لا نزال نحتفظ بقوات قوية في البحر الأبيض المتوسط، فقد صممنا على أن تحتل هذه القوات روما. التي كنا نحتاج إلى مطاراتها لقصف ألمانيا الجنوبية، وأن نتقدم في شبه الجزيرة إلى خط بيزا - ريمين، وأن نرغم هناك أكبر عدد من قوات العدو على البقاء كما كنا قد اتفقنا على عملية ثالثة وهي عملية النزول في جنوب فرنسا، وكان الخلاف يكاد ينشب على هذه العملية بالذات، لأن الأمريكيين كانوا قد أصروا على وجوب القيام بهجوم حقيقي تشنه عشر فرق على الأقل، وقد أيدهم ستالين في هذا الرأي، وقد اضطررت لقبول هذا الرأي لكي أمنع تحويل هذه القوات إلى بورما.

وهكذا فقد كان سقوط روما شرطًا أساسيًا للقيام بعملية "السندان" وأيضًا في الوقت نفسه تبدأ عملية "السد الأكبر" وإلى أن يتحقق ذلك لم يكن في وسع اليكساندر الاستغناء عن أي جزء من قواته.

ومع هذا فقد أخذنا عددًا من أحسن فرقنا في إيطاليا للاشتراك في عملية "السد الأكبر" الرئيسية، قبل انتهاء عام ١٩٤٣، ولهذا فقد لحق الضعف بقوة الجنرال اليكساندر، على حين توى كيسلرنج، حيث بعث الألمان بنجدات إلى إيطاليا فأوقفت احتلال انزيو، كما أخرت دخولنا روما حتى قبيل يوم الغزو في نورماندیا، وأدى هذا القتال غير الحاد إلى إشغال عدد مهم من قوات العدو الاحتياطية كان في الإمكان نقلها إلى فرنسا، مما ساعد عملية السد الأكبر في مراحلها الحرجة المبكرة، ومهما يكن فإن تقدمنا في البحر الأبيض المتوسط قد اضطرب إلى حد كبير، ولهذا فقد بعث الجنرال ولسون

في الحادي والعشرين من مارس يقول: "إن عملية (السندان) لا يمكن القيام بها قبل نهاية يوليو" ثم عاد فأجل الموعد إلى منتصف شهر أغسطس، وأعلن أن خير طريقة لمساعدة عملية "السد الأكبر" تقوم على التخلي عن مهاجمة الريفييرا والتركيز على إيطاليا.

وعندما سقطت روما في الرابع من يونيو تحت علينا إعادة النظر في المشكلة قبل أن تبدأ عملية "السندان".

وكان من رأي الجنرال ايزنهاور تقوية الهجوم على شمال غربي أوروبا بجميع الوسائل والإمكانيات المتيسرة، ووافق رؤساء أركان الحرب الأمريكيون ايزنهاور على خطئه. كما أيدهم الرئيس روزفلت وقال أن التقدم تجاه ممر بوبليانا قد يشغل عددًا من الفرق الألمانية ولكنه لا يؤدي إلى سحب أي منها من فرنسا، وحث على ضرورة القيام بعملية السندان على حساب جيوشنا في إيطاليا، إلا أن رؤساء الأركان البريطانيين اتخذوا موقفًا مغايرًا تمامًا، وكانوا يفضلون أن يرسلوا قوات من إيطاليا بطريق البحر إلى ايزنهاور بدلاً من النزول في الريفييرا، كما أعلنوا أن القيام بعميلة "السندان" ستؤثر على القوات الباقية لدى الجنرال اليكساندر، بحيث لا يمكنه القيام بأي نشاط جديد.

ولما لم يكن في الإمكان التوفيق بين هذه الآراء التي يتمسك بها كل من الفريقين، فقد أبرقت إلى الرئيس في الثامن والعشرين من يونيو أقول: "إن هذه الأزمة بين رؤساء أركان حربنا كفيلة بأن تؤدي إلى أخطر النتائج، وغايتنا الأولى هي مساعدة الجنرال ايزنهاور بأسرع ما يمكن، ولكننا لا نعتقد أن تحقيق هذه الغاية ينطوي بحكم الضرورة على تدمير جميع الجهود العظيمة التي قمنا بها في البحر الأبيض المتوسط تدميرًا كاملاً، وإني لأرجو رجاء حارًا أن تدرس هذه القضية بنفسك دراسة تفصيلية، كما أرجو أن تتذكر حديثك معي في طهران عن موضوع ايستريا".

وكان رد المستر روزفلت مقتضيًا وجافًا، فقد كان مصممًا على استقلال عملية "السد الأكبر" إلى أقصى حدود الاستقلال، وتحقيق تقدم في إيطاليا مع القيام بهجوم مبكر على جنوب فرنسا، وقد أيد ستالين نفسه عملية "السندان" وقال أن العمليات الأخرى في البحر الأبيض المتوسط ليست بذات أهمية، ولذا فقد أعلن روزفلت أنه لا يستطيع أن يتخلى عن هذه العملية، وأضاف يقول:

"إن اهتمامي وأماني يتركزان على هزيمة الألمان أمام ايزنهاور، وأنا واثق بأنه ستتوافر لنا في إيطاليا حتى بعد سحب القوات اللازمة بعملية "السندان" الموارد الكافية لمطاردة كيسلرنج إلى الشمال من خط بيرزا - ريميني، والضغط الشديد على جيشه لإرغامه على الاحتفاظ بقواته الراهنة هناك، كما أنني لا أستطيع أن أقتنع بأن الألمان سيدفعون الثمن بزج عشر فرق إضافية بقصد الاحتفاظ بشمال إيطاليا كما يقدر الجنرال ويلسون".

كما أنه في وسعنا أن نسحب فورًا كما يؤكد الجنرال ويلسون خمس فرق: ثلاث منها أمريكية وفرقتان فرنسيتان من القوات العاملة في إيطاليا حاليًا لتقوم بعملية "السندان"، وستؤيد من الإحدى والعشرين فرقة الباقية بالإضافة إلى عدد من الألوية المتفرقة للجنرال اليكساندر تفوقه البري.

ولكن اعتراضات المستر روزفلت على النزول في شبه جزيرة ايستريا والاندفع نحو فيينا عن طريق ممر بوبليانا، قد أقامت الدليل على تزمت الخطط العسكرية الأمريكية وعدم مرونتها من ناحية وعلى شكوكه فيما سماه بحملة "في البلقان" من ناحية أخرى، وادعى أن اليكساندر وسمطس، اللذان يؤيدان وجهة نظري "لعدة أسباب طبيعية وإنسانية للغاية" يميلان إلى تجاهل اعتبارين حيويين للغاية أولهما أن العملية تمس "الاستراتيجية العظمى" وثانيهما أنها قد تطول إلى حد كبير، وأننا قد لا نستطيع توزيع أكثر من ست فرق من فرقنا، وكتب يقول: "لا أستطيع الموافقة على استخدام القوات

الأمريكيةً ضد ايستريا وفي طريق البلقان، كما لا أستطيع أن أرى الفرنسيين يوافقون على استخدام قواتهم في مثل هذه الخطة، كما لا أستطيع أيضًا أن أصمد لاعتبارات سياسية لأية "صدمة" قد تصيبنا في عملية "السد الأكبر" ولا سيما إذا عرف أننا قد حولنا قوات ضخمة إلى حد ما إلى البلقان.

لكنني على كل حال قررت الإذعان مؤقتًا، وأصدرت أمري في الثاني من يوليو إلى الجنرال ويلسون، بإعداد العدة لشن هجوم على جنوب فرنسا في الخامس عشر من شهر أغسطس، وقد بدأت الإعدادات فورًا، وهنا يجب على القارئ أن يعلم أننا بدلنا اسم عملية "السندان" بعملية "التنين" مخافة أن يكون العدو قد فهم معنى الكلمة الأولى.

وعندما وقع تبدل ملحوظ في ميادين القتال في نورماندیا في أوائل شهر أغسطس، وكانت هناك تطورات كبيرة متوقعة، فقد قمت في السابع من الشهر بزيارة الجنرال ايزنهاور في مقر قيادته على مقربة من بورتسماوث وبسطت له آخر أمل لي في وقف الهجوم على جنوب فرنسا.

لكنني لم أستطع زحزحته عن موقفه أو التأثير عليه، وقد تلقيت في اليوم التالي برقية من الرئيس يقول فيها: "لقد تبينت بعد الدرس أن علينا أن نشن عملية "التنين" طبقًا لمخططنا السابق في أسرع وقت ممكن، ولي كل الثقة في نجاح العملية، لأنها ستكون عونًا كبيرًا لايزنهاور في طرد الألمان من فرنسا.

ولذلك قررت في الحال أن أذهب إلى إيطاليا، لأرى القادة والجنود، كما كنت شديد الرغبة للقاء تيتو، الذي كان في إمكانه أن يأتي بسهولة إلى إيطاليا من جزيرة فيز، التي كنا نتولى حمايته فيها، كما كان في وسع المسيو باباندريو رئيس وزراء اليونان وبعض زملائه الآخرين أن يفدوا من القاهرة، لكي نضع معهم الخطط لمساعدتهم في العودة إلى أثينا، عندما يبارحها الألمان، ولما وصلت إلى نابولي بعد ظهر الحادي عشر من أغسطس

أوضح لي الجنرال ويلسون أن الترتيبات قد اتخذت لعقد مؤتمر في الغد بين تيتو وسوباجيك رئيس وزراء حكومة الملك بطرس الجديدة في لندن، وكان الرجلان قد وصلا إلى نابولي فعلاً.

هذا وقد اجتمعت بالماريشال تيتو في المكان الذي أنزل فيه في غرفة كبيرة تملأ جدرانها خرائط جبهات القتال، وبعد أن تحدثنا طويلاً أشرت إلى شبه جزيرة ايستريا على الخريطة، فأيد الماريشال مشروعنا بمهاجمتها ووعد بتقديم كل عون، واتفقنا على بذل كل جهد ممكن لتقوية يوغوسلافيا حربيًا، وعلى رأب الصدع بينه وبين الملك بطرس.

وبعد ذلك طرت إلى جزيرة كورسيكا في اليوم الرابع عشر من أغسطس، لمشاهدة عملية إنزال القوات في الريفيرا،وأرى لزامًا عليّ أن أدون هذا باختصار كل ما حدث:

فقد تم تأليف الجيش السابع بقيادة الجنرال باتسن للقيام بالهجوم وكان يضم سبعة فرق فرنسية وثلاث فرق أمريكية مع فرقة أخرى من البريطانيين والأمريكيين الذين نقلوا بالطائرات، تؤيدها نحو ست بوارج وواحد وعشرين طرادًا ومائة مدمرة، وكان تفوقنا الجوي كبيرًا، كما كان هناك نحو خمسة وعشرين ألف فرنسي مسلح من قوات المقاومة في جنوب فرنسا على استعداد للثورة، وبدأ الهجوم في صباح الخامس عشر من أغسطس بين كان وهايير، وكانت الخسائر طفيفة نسبيًا، ولم يأت اليوم الثامن والعشرون من أغسطس حتى كان الأمريكيون قد تجاوزوا فالانس وجرينوبل، ولم يبذل العدو أية مقاومة جدية لوقف الزحف، وكانت قوة الحلفاء الجوية تنزل بالألمان أفدح الخسائر وتحطم مواصلاتهم، على حين كانت مطاردة ايزنهاور لهم من نورمانديا مستمرة، ولا سيما بعد أن وصلت قوات الحلفاء إلى نهر السين عند فونتنبلو في العشرين من أغسطس، وبعد خمسة أيام كانت قواتنا قد تجاوزت تروييه، وكانت العناصر الباقية من الجيش الألماني التاسع عشر قد أخذت

تتراجع تاركة وراءها نحو خمسين ألف أسير في أيدينا، كما تم احتلال ليون في اليوم الثالث من سبتمبر، وبيزانسون في الثامن منه، كما حررت قوات المقاومة ديجون، وبذا قد تلاقت قوات "السيد الأكبر" و"التنين" في اليوم الثامن من سبتمبر في بلدة سوميرنون، وقد تم في المثلث الواقع في جنوب فرنسا الغربي عزل بقايا الجيش الألماني الأول وعددها عشرون ألف جندي استسلموا بدون مقاومة، إلا أننا دفعنا في مقابل ذلك ثمنًا باهظًا للغاية.

هذا وقد بعثت إلى الرئيس من نابولي البرقية التالية لأنبئه عن حقيقة الموقف بشكل لا لبس فيه:

"إن أحاديثك إلي في طهران عن ايستريا لا تغيب عن بالي قط، وإني لواثق من أن وصول جيش قوي إلى تريستا وايستريا في مدى أربعة أسابيع أو خمسة سيكون له أثر بالغ الأهمية، ولا ريب في أن جماعة تيتو سيكونون في انتظارنا في ايستريا، وليس في وسعي أن أتصور ماذا سيكون عليه موقف المجر إذ ذاك. ولكننا سنكون على الأقل في وضع يمكننا من استغلال الأوضاع العظيمة".

وبعد عودتي للوطن تلقيت الرد التالي من الرئيس روزفلت:

"إنني أشاطرك الثقة في أن قوات الحلفاء في إيطاليا كافية لأداء المهمة الملقاة عليها، وأن قائد المعركة سيواصل الضغط بقوة وعزم مستهدفًا تحطيم قوات العدو،.. أما بالنسبة إلى استخدام قواتنا الموجودة في إيطاليا في المستقبل فهذه مسألة يمكننا بحثها فورًا، وبالنظر غلى أوضاع الفوضى التي تسود الألمان في جنوب فرنسا، فإن آمل آن تتصل قواتنا في الشمال والجنوب في وقت أسرع مما كان منتظرًا في السابق.

وسنرى أن هذين الأملين لم يتحققا لأن الجيش الذي أنزلناه في الريفييرا والذي كلفنا إنزاله هذا الثمن الباهظ بالنسبة إلى عملياتنا في إيطاليا، وصل متأخرًا للغاية، وبذلك لم يستطع أن يقدم العون لصراع ايزنهاور الرئيسي في

الشمال، وفي الوقت نفسه مني جيش الكساندر بالفشل بعد أن كاد ينجح، مما سبب تأخير تحرير إيطاليا ثمانية أشهر، كما حيل بيننا بين زحف جناحنا الأيمن في اتجه فيينا، وباستثناء ما حققناه في اليونان، فإن قدرتنا العسكرية على تحرير جنوب أوروبا الشرقي قد ضاعت وتلاشت.

ولما كان كيسلرنج قد تلقى نجدات جديدة حتى أصبح عدد القوات الألمانية العاملة تحت إمرته ثمان وعشرين فرقة كما تمكن من تجميع فرقتين جاء بهما من قطاعين هادئين وشرع في هجمات مضادة، إذا أضيفت إلى مشكلات تموينا فوق الممرات الجبلية ووعورة الأرض، فقد أثمرت في وقف زحفنا، إلا أنه على الرغم من الخسائر الفادحة التي منينا بها فقد تحقق لنا بعدها الظفر، وبدأ المستقبل زاهيًا مشرقًا، لأن جيوش الحلفاء في إيطاليا ظلت تواصل الضغط لكي تحول بين العدو وبين وصول المساعدات إليه، ولكنه بعد منتصف شهر نوفمبر استحال علينا القيام بأي هجوم رئيسي، لم تستطع جيوشنا تحقيق النصر الذي تستحقه والذي كادت تحصل عليه في الخريف إلا عندما حل الربيع الجديد.

انتصار الروس في بولندا واحتلالها

كان النضال الروسي يفوق في نطاقه إلى حد كبير جميع العمليات العسكرية التي سردتها في الفصول السابقة، ولما كان العدو قد مني بنكسات متتالية في مطلع شتاء عام ١٩٤٣، فقد صمموا على ألا يتيحوا له فرصة للاستراحة، حتى أنهم في منتصف شهر يناير سنة ١٩٤٤ شنوا عليها هجومًا في جبهة طولها مائة وعشرون ميلاً تمتد من بحيرة ايلمان إلى لينتجراد وتمكنوا من اختراق الخطوط الدفاعية التي أقامها العدو أمام المدينة وإلى الجنوب من هذه الجبهة، كما أنهم صدوه في نهاية شهر فبراير إلى شواطئ بحيرة بيبوس، بعد أن تحررت لينتجراد نهائيًا، وقد أصبح الروس بهذا الانتصار يقفون على حدود دول البلطيق، كما أرغموا الألمان أيضًا على

التراجع من غرب كييف إلى حدود بولندا، كما واصلوا طيلة شهر مارس ضغطهم على طول الجبهة، حتى أرغموا العدو على التراجع من جومر إلى البحر الأسود، ولم يتوقف هجوم الروس حتى تم دحر الألمان وتحطيم الجيش السابع عشر واسترداد ساستبول.

وقد أثارت هذه الانتصارات العظيمة قضايا ذات أهمية بالغة وخصوصًا بعد أن أطل الجيش الأحمر الآن على أواسط أوروبا وشرقها كما أثارت كثيرًا من التساؤلات، عن مصير بولندا والمجر ورومانيا وبلغاريا واليونان أيضًا التي ضحينا من جلها بالكثير وعملنا المستحيل لمساعدتها وهل ستدخل تركيا الحرب إلى جانبنا؟ وهل ستحاط يوغسلافيا بالفيضان الروسي، ولما كانت أوروبا قد بدأت تتطور بعد الحرب، فقد أصبح من الضروري إعداد ترتيب سياسي سريع بالنسبة لها مع السوفييت.

لذلك فقد قام السفير السوفييت في لندن بزيارة وزارة الخارجية في الثامن عشر من مايو للبحث في الاقتراح الذي كان المستر إيدن قدمه للسوفييت، وذكر فيه أن في وسع الاتحاد السوفيتي أن يعتبر المشكلات الرومانية مؤقتًا من القضايا الخاصة به، على أن يترك مشكلات اليونان لنا لنعالجها، ولما كان الروس على استعداد لقبول هذا الاقتراح، فقد أرادوا أن يعرفوا إذا كنا قد استشرنا الولايات المتحدة بخصوصه، فإذا اتضح أننا استشرناها فليس لديهم مانع من الموافقة عليه، ولذلك فقد بعثت في الحادي والثلاثين من مايو ببرقية إلى المستر ورزفلت قلت فيها:

"آمل أن تتمكن من أن تمنح هذا الاقتراح بركتك، ونحن بالطبع لا نريد تقسيم البلقان إلى مناطق نفوذ، وعند الموافقة عليه، يجب أن توضح تمامًا أنه لا ينطبق إلا على أوضاع الحرب، وألا يؤثر على حقوق الدول العظمى الثلاث ومسئولياتها التي ستمارسها فرادى في أية تسوية سلمية بالنسبة إلى أوروبا كلها، كما أن هذا الترتيب لا يؤثر على كل حال على التعاون الراهن القائم

بيننا وبينكم، في تخطيط سياسة الحلفاء تجاه هذه الدول وتنفيذها، ونحن نشعر أن هذا الترتيب المقترح سيكون وسيلة نافعة في الحيلولة دون أي خلاف في السياسة بيننا وبينهم في البلقان".

وقد أثار هذا الاقتراح أعصاب المستر هل وزير الخارجية الأمريكية لأنه كان لا يوافق على إيجاد مناطق نفوذ لأي كان، ولا حتى قبول فكرتها، ولذلك فقد أبرق الرئيس إليّ في الحادي عشر من يونيو يقول:

"نحن نقر باختصار، بأن من حق الحكومة العسكرية المسئولة في أي أرض أن تتخذ القرارات التي تتطلبها التطورات العسكرية، ولكننا على يقين من أن مثل هذا الاتفاق المقترح سيقوي الميل الطبيعي لتوسيع هذه القرارات لتشمل آفاقًا أخرى غير عسكرية، كما أنه سيؤدي حتمًا إلى اشتداد الخلاف بينكم وبين الروس، بسبب تقسيم منطقة البلقان إلى مناطق نفوذ، على الرغم من التصميم المعلن لأن يكون هذا في نطاق المسائل العسكرية فقط، كما أننا نعتقد أن المحاولات يجب أن تبذل عوضًا عن ذلك، لإقامة جهاز استشاري يتولى إزالة سوء التفاهم، والحد من الاتجاه إلى تنمية مناطق النفوذ الخاصة".

وقد أزعجتني هذه الرسالة، فبعثت إلى الرئيس في اليوم نفسه أقول: "إن العمل سيقف تمامًا إذا تحتم على كل إنسان أن يستشير الآخر في كل موضوع أو إجراء قبل اتخاذه، فالأحداث في البلقان ستسبق في سرعتها دائمًا الأوضاع المتغيرة في المنطقة، ويجب أن يكون هناك من يملك سلطة التخطيط والعمل، أما قيام لجنة استشارية فسيكون بمثابة عائق، نتخطاه دائمًا في حالات الطوارئ، عن طريق الاتصال المباشر بيني وبينك أو بين كل منا وبين ستالين.

ولننظر الآن إلى ما وقع في عيد الفصح، لقد تمكنا من السيطرة على الوضع بالنسبة لتمرد القوات اليونانية طبقًا لآرائك الشخصية، لأنني كنت قادرًا على إصدار الأوامر الدائمة إلى القواد العسكريين الذين كانوا في البداية يؤيدون فكرة الصلح والتفاهم، ويعارضون في استخدام القوة، أو حتى

في مجرد التهديد باستخدامها، وقد تحسن الوضع في اليونان تحسنًا كبيرًا، كما أن الروس على استعداد للسماح لنا بتولي الشئون اليونانية، وهذا يعني أن في إمكان جيوش اليونان الوطنية نفسها أن تسيطر على جبهة التحرير الوطنية وعلى كل ما تبينته من النوايا السيئة، وإذا كان من المحتم علينا في مثل هذه المصاعب أن نستشير دولاً أخرى، وأن يجري تبادل البرقيات بشكل ثلاثي أو رباعي، فإن النتيجة الوحيدة لمثل هذه الحالة أن تسود حالة الفوضى والعجز.

ويبدو لي أنه بالنظر إلى اعتزام الروس القيام بغزو رومانيا بقوات كبيرة وإلى رغبتهم في مساعدتها على استعادة جزء من ترانسلفانيا من المجر، على شرط أن يبدي الرومانيون إخلاصًا لمجهودها، وهو ما قد يفعلونه، فإن من الخير أن نحذو حذو السوفييت، ولا سيما، أنه لا يوجد لنا أو لكم أية قوات هناك، وأن في وسعهم تحقيق ما يريدون هناك على أي حال، ولهذا فإني أقترح بأن توافق على تجربة الترتيبات التي حددتها في رسالتي في الحادي والثلاثين من مايو لمدة ثلاثة أشهر، على أن تعود الدول العظمى الثلاث إلى إعادة النظر فيها بعد انتهاء هذه المدة".

وقد وافق الرئيس على هذا الاقتراح في الثالث عشر من يونيو، ولكنه أضاف يقول، أنه يجب علينا أن نحرص أشد الحرص على أن نوضح بكل جلاء أننا لا نقيم في عملنا هذا مناطق للنفوذ، وقد وافقته على رأيه وبعثت إليه بالرد التالي:

"إنني شاكر لكم أجزل الشكر، وقد طلبت إلى وزير الخارجية أن ينقل هذه المعلومات إلى مولوتوف، وأن يوضح له أن السبب الذي حملنا على تحديد فترة الأشهر الثلاثة، هو رغبتنا في ألا يكون هناك أي مجال للتفكير بأننا نعنى إقامة مناطق نفوذ لما بعد الحرب".

وقد أبلغت هذا لوزارة الحرب، واتفق على أن يقوم وزير الخارجية بإبلاغ الحكومة السوفيتية موافقتنا على هذا الاقتسام العام للمسئولية، وتم تنفيذ

ذلك في التاسع عشر من يونيو، لكن الرئيس لم يكن مرتاحًا للطريقة التي عملنا بموجبها، فقد تلقيت منه رسالة يقول فيها: "لقد أزعجنا أن يقوم رجالك بالتحدث إلينا في هذا الموضوع بعد أن تم الاتفاق عليه مع الروس".

ولما كانت رسالته هذه تفيض بالألم وفيها معنى التأنيب فقد أرسلت إليه الرد التالي:

"إن روسيا هي الدولة الوحيدة التي تستطيع أن تفعل شيئًا في رومانيا كما يقع العبء اليوناني من الناحية الأخرى على كاهلنا، وقد حملنا هذا العبء منذ أن خسرنا نحوًا من أربعين ألف رجل في محاولة غير مجدية لمساعدة اليونان في عام ١٩٤١، بالإضافة إلى أنكم قد سمحتم لنا بأن نعمل ما نريد مع تركيا، ومع ذلك فقد كنا نستشيركم دائمًا في القضايا السياسية، وأعتقد أننا كنا على اتفاق بصد الاتجاه الذي نسير فيه، وقد يكون من السهل علي أن أنزلق من ناحية المبادئ العامة إلى اليسار، وهو ما غدا مألوفًا الآن في السياسة الخارجية، وأن أسمح للأمور بأن تسوء، فيجد ملك اليونان نفسه مضطرًا للنزول عن العرش وتفوض جبهة التحرير الوطني حكمًا من الإرهاب في البلاد، مرغمة القرويين وغيرهم من أبناء الطبقات الأخرى على تأليف أفواج للسلامة والأمن تحت إشراف الألمان لمنع البلاد من الوقوع في الفوضى، والطريقة الوحيدة التي تمكنني من الحيلولة دون ذلك هي إقناع الروس بأن يوقفوا دعمهم لجبهة التحرير ودفعهم للأمام بكل ما لديهم من قوة، كما قمت أيضًا بالإجراءات اللازمة لأحقق وحدة يوغوسلافيا، بالجمع بين قوات تيتو وقوات الصربيين مع جميع من يؤيد الحكومة الملكية التي اعترفنا بها معًا، وكنا نطلعك في كل مرحلة على الطريقة التي حملنا بها هذه الأعباء الثقيلة التي نتحملها الآن وحدنا، وليس أسهل هنا أيضًا من القذف بالملك وحكومته إلى الذئاب تنهشهما، ومن السماح للحرب الأهلية بأن تندلع في البلاد، مما يثلج صدور الألمان، وأنني أجاهد لأستخلص النظام من الفوضى في كل من البلدين، ولأركز كل الجهود على مقارعة العدو المشترك، كما

أنني أواصل اطلاعك على كل ما أعمله، وكل أملي في أن أنال ثقتك ومساعدتك في الميادين كلها".

وجاء هذا الرد من الرئيس روزفلت لكي يضع حدًا لهذا الجدل بين الأصدقاء:

"يبدو لي أن كلا منا قام متهاونًا بعمل من جانب واحد في اتجاه نتفق معًا الآن على أنه نافع ومفيد، ومن المهم أن نكون متفقين دائمًا في جميع القضايا التي تتعلق بمجهودنا الحربي".

وقد رددت عليه أقول: "في وسعك أن تثق في أنني سأتطلع دائمًا إلى الاتفاق معك حول جميع الأمور قبل العمل وفي أثناء القيام به وبعده".

ومع ذلك فقد ظلت المتاعب تترى، فعندما أدرك ستالين الشكوك الأمريكية في الموقف، أصر على استشارتهم مباشرة، ولم نتمكن في النهاية من الوصول إلى اتفاق أخير حول تقسيم المسئوليات في البلقان. كما بعث الروس في أوائل شهر أغسطس بطريق التهريب بعثة من إيطاليا إلى جيش التحرير اليوناني (ايلاس) المنبثق من جبهة التحرير الوطني والذي يعمل في شمالي اليونان، وعلى ضوء تردد الحكومة الأمريكية وسوء نية الروس، تخلينا عن محاولتنا للوصول إلى تفاهم كلي، إلى أن التقيت بستالين في موسكو، بعد مضي شهرين، وتمت في أثنائها أمور كثيرة في الجبهة الشرقية.

ففي فنلندا اقتحمت جيوش سوفيتية خط مانرهايم وأعادت فتح السكة الحديدية بين لينتجراد ومورمانسك، وأجبروا الفنلنديين قبل نهاية شهر أغسطس على طلب الهدنة، وبدأ هجومهم الرئيسي على الجبهة الألمانية في الثالث والعشرين من يونيو، ولم تحل نهاية يوليو حتى كانت الجيوش الروسية قد وصلت إلى نهر النيمن بين جوردنو وكوفينو، أما الخسائر الألمانية فكانت ماحقة، إذ زال من الوجود نحو من خمس وعشرين فرقة ألمانية، كما تم

تطويق عدد مماثل في كورلاند، وفي السابع عشر من يوليو، مر في شوارع موسكو سبعة وخمسون ألف أسير ألماني إلى جهة لا يعلمها إلا الله.

كما أنه وقع في الثالث والعشرين من أغسطس انقلاب عسكري في بوخارست أعده الملك الشاب ميخائيل، وقد أخلصت الجيوش الرومانية أشد الإخلاص لملكها، إذ لم تمض ثلاثة أيام حتى كان قد تم نزع سلاح القوات الألمانية التي لم تنسحب في اتجاه الحدود الشمالية وجلال الألمان عن بوخارست في الأول من سبتمبر، ولما دخلت الجيوش الروسية رومانيا اكتسحت البلاد بأكملها واستسلمت الحكومة الرومانية، وكذلك تم إخضاع بلغاريا، كما انتشرت الجيوش الروسية غربًا، فزحفت من وادي الدانوب مخترقة ترانسلفانيا وجبال الألب في اتجاه الحدود المجرية على حين كان جناحها الأيسر قد اصطف على حدود يوغوسلافيا للزحف غربًا في تجاه فيينا.

أما في بولندا فقد وقعت مأساة تتطلب منا شرحًا أوفى: ففي نهاية شهر يوليو، وقفت الجيوش الروسية أمام نهر الفستولا، وكانت جميع الدلائل تشير إلى أنه لن يمضي وقت طويل حتى تكون بولندا بأسرها في أيدي الروس، وتحتم على قادة جيش المقاومة السرية البولندية، وهم الذين يدينون بالولاء لحكومة بولندا التي في لندن، أن يقرروا موعد القيام بثورة عامة ضد الألمان للإسراع في تحرير بلادهم، وقد خولت حكومة لندن القائم العام الجنرال بور-كوموريسكي تحديد موعد الثورة وإعلانها، وبدأت الفرصة مواتية فعلاً عندما حملت الأنباء في العشرين من يوليو قصة المؤامرة على هتلر، وقد تبعها بسرعة اختراق الحلفاء لجبهة نورمانديا، كما عبر الروس نهر الفستولا في اليوم نفسه واندفعت دورياتهم الأمامية في اتجاه وارسو، ولم يبق أي شك في أن الألمان باتوا على وشك الانهيار العام.

ولذلك فقد قرر الجنرال بور تبعًا لذلك القيام بثورة عامة وتحرير العاصمة، وكان لديه أربعون ألف رجل، وتألفت في الوقت نفسه لجنة شيوعية

لتحرير الوطن في شرقي بولندا، وفي التاسع والعشرين من شهر يوليو، وجه الحزب الشيوعي البولندي نداء من إذاعة موسكو إلى أهالي وارسو، يطلب إليهم أن يشتبكوا مع الألمان الآن، وكانت الدبابات الروسية قد اخترقت خطوط الألمان الدفاعية إلى الشرق من العاصمة، كما أصبحت الجيوش الروسية على بعد عشرة أميال من المدينة، فلم يمض أكثر من خمس عشرة دقيقة على نشوب الثورة حتى كانت المدينة كلها قد اشتبكت في معركة ضارية، وهكذا بدأت معركة المدينة.

ولما وصلت الأنباء إلى لندن في اليوم التالي، أخذنا ننظر بلهفة وقلق المزيد منها، وقد سكتت الإذاعة السوفيتية وتوقف النشاط الجوي الروسي عندما شرع الألمان في الرابع من أغسطس يهجمون من المراكز المنيعة داخل العاصمة ومن ضواحيها، وأصبح الثائرون يواجهون الآن خمس فرق ألمانية حشدت في المنطقة بصورة عاجلة، كما جيء بفرقة هيرمان جورنج أيضًا من إيطاليا وبفرقتين من رجال الحرس فيما بعد.

فأبرقت إلى ستالين أقول:

"تلبية لنداء عاجل من الجيش السري البولندي، قررنا أن ننزل - إذا ساعدتنا الأحوال الجوية - نحو ستين طنًا من المعدات والذخائر في الأحياء الغربية الجنوبية من وارسو، حيث يقال: إن الثورة البولندية تشتبك مع الألمان في قتال عنيف، وهم يطلبون في الوقت نفسه المساعدة الروسية التي تبدو قريبة منهم".

وقد تلقيت من ستالين ردًا جافًا يقول فيه:

"تسلمت رسالتك، وأعتقد أن المعلومات التي نقلها إليك البولنديون مبالغ فيها كل المبالغة، ولا توحي بالثقة مطلقًا، لأنه ليس لديهم مدافع ولا دبابات ولا طائرات، ولا أستطيع أن أتصور كيف يمكن هذه الفصائل أن تستولي

على وارسو التي حشد الألمان للدفاع عنها أربع فرق من فرق الدبابات بينها فرقة هيرمان جورنج"؟

هذا وقد استدعى فيشنسكي ليلة السادس عشر من أغسطس سفير الولايات المتحدة في موسكو لزيارته، وأوضح له، أنه رغبة منه في تجنب أي احتمال لسوء الفهم، يود أن يتلو على مسامعه البيان المذهل التالي:

"لا تستطيع الحكومة السوفيتية بالطبع أن تعترض على قيام الطائرات الإنجليزية أو الأمريكية بإلقاء السلاح على مقاطعة وارسو، إذ أن هذا الأمر يهم الإنجليز والأمريكيين وحدهم، ولكن الحكومة السوفيتية تعارض مصرة في هبوط الطائرات الأمريكية أو الإنجليزية بعد إلقائها الأسلحة على وارسو في الأراضي السوفيتية، وذلك لأن الحكومة السوفيتية لا تريد أن ترتبط بصورة مباشرة أو غير مباشرة بمغامرة وارسو".

وبعد مضي أربعة أيام بعث هذا النداء المشترك بالاتفاق مع الرئيس روزفلت إلى ستالين:

"إننا نفكر في الرأي العام العالمي، وما سيلحق به من صدمة، إذا تخلينا عمليًا من المكافحين ضد النازية في وارسو، وأعتقد أن من واجبنا نحن الثلاثة أن نبذل كل ما وسعنا لإنقاذ أكبر عدد ممكن من أرواح الوطنيين فيها ونحن نأمل أنك ستلقى المساعدات والذخائر من الجو على الوطنيين البولنديين في وارسو، أو أنك ستوافق على مساعدة طائراتنا في أداء هذا العمل بكل الطرق الممكنة ولا ريب في أن عامل الوقت مهم للغاية".

وكان هذا هو الرد الذي تلقيناه منه:

"تلقيت رسالتك التي اشتركت فيها مع المستر روزفلت بصدد وارسو، وواجب أن أوضح آرائي تمام الإيضاح:

ستعرف هذه الحقيقة إن عاجلاً أو آجلاً، عن تلك المجموعة من المجرمين الذي شرعوا في مغامرة وارسو، رغبة منهم في اغتصاب السلطة، وقد استغل هؤلاء المجرمون سذاجة أهل وارسو وحسن نواياهم، فقذفوا بالعزل من أهلها أمام دبابات الألمان ومدافعهم وطائراتهم، وقد نشأن وضع لا يخدم البولنديين لتحرير وارسو، بل يخدم الهتلريين الذين يقتلون أهل وارسو بصورة وحشية.

وكان هذا الوضع الناشئ ضارًا بالجيش الأحمر من الناحية العسكرية بقدر ما هو ضار بالبولنديين أنفسهم، لأنه وجه اهتمام الألمان بشكل متزايد نحو وارسو، وقد واجهت القوات السوفيتية هجمات ألمانية مضادة وهي تقوم ببذل كل ما في وسعها لتحطيم هذه الهجمات التي يقوم بها الهتلريون، وليس ثمة شك في أن الجيش الأحمر سيحطم الألمان ويحرر المدينة لأهلها، وسيكون هذا العمل خير مساعدة فعالة يمكن الجيش الأحمر أن يقدمها إلى البولنديين".

وكانت معركة وارسو قد وصلت في هذه الأثناء إلى ذروتها حيث صب رجال الدبابات جام غضبهم وسخطهم ومرارة خيبتهم على الأبنية المجاورة لهم، فأشعلوا فيها النيران كما أشعلوا النار في جثث الموتى التي تملأ الشوارع، كما دفن بعضهم في حدائق البيوت الخلفية والساحات العامة، وصارت المواد الغذائية قليلة، ولكن المدينة لم تصل إلى حد المجاعة، وقد جف الماء في الأنابيب، وضاعف إسقاط المؤن من الجو من رفع الروح المعنوية لدى الأهالي وشد من عزائمهم.

وكنت آمل أن يساعدنا الأمريكيون في اتخاذ عمل جذري، ولكن المستر روزفلت عارض في ذلك.

ولما كانت قضية وارسو من الأهمية بمكان عظيم فقد اجتمع مجلس وزرائنا ليلة الرابع من سبتمبر لبحثها، وكنت أود أن أقول للروس: "إننا نعتزم

إرسال طائراتنا للهبوط في أراضيكم، بعد إلقاء حمولتها في وارسو، فإذا أسأتم معاملتها فسنوقف إرسال قوافلنا إليكم منذ هذه اللحظة".

ولا ريب أننا لو كنا اتخذنا هذه الخطوة لكانت مجدية، فقد كنا نتعامل مع رجال في الكريملين تتحكم الأرقام في أعمالهم دون عواطفهم، وكان وقف القوافل عنهم في هذه اللحظة الحرجة من زحفهم العظيم كفيلاً بأن يترك في عقولهم آثارًا لا تقل عما تتركه اعتبارات الشرف والإنسانية والإيمان الكريم في الناس العاديين الآخرين، ولهذا فقد بعثت وزارة الحرب بالبرقية التالية إلى ستالين، وكانت هذه هي الخطوة المثلى التي رأينا من الحكمة القيام بها:

"تود وزارة الحرب من الحكومة السوفيتية أن تعلم أن الرأي العام في هذه البلاد متأثر أعمق التأثر بالأحداث الجارية في وارسو، وبالآلام المرعبة التي يتحملها البولنديون، ومهما كانت الأخطاء التي ارتكبت في بداية الثورة في وارسو، صحيحة أو غير صحيحة، فإن شعب وارسو نفسه لا يمكن أن يعتبر مسئولاً عن القرار الذي اتخذ، ولا يستطيع شعبنا أن يفهم لماذا ضن بالمساعدة المادية من الخارج على البولنديون في وارسو وأصبح الكل عندنا يعرفون أن مثل هذه المساعدة لا يمكن إرسالها لأن حكومتكم ترفض السماح للطائرات الأمريكية بالهبوط في المطارات التي في أيدي الروس، وإذا قدر للبولنديين في وارسو أن يسحقوا بعد هذا كله على أيدي الألمان، وهو أمر بات متوقعًا خلال يومين أو ثلاثة كما قيل لنا، فإن الهزة التي سيصاب بها الرأي العام عندنا ستكون أكثر مما يحتمل ويطاق.

واحترامًا منا للمارشال ستالين وللشعوب السوفيتية التي نود مخلصين أن نعمل معها في السنوات المقبلة، تود وزارة الحرب مني أن أوجه نداء آخر إلى الحكومة السوفيتية لتقدم كل ما في وسعها من طاقة في هذا الصدد، وأن تؤمن هبوط الطائرات الأمريكية في مطاراتكم تحقيقًا لهذا الغرض.

ولهذا فقد شرع الكريملين في تغيير أسلوبه في العاشر من سبتمبر، كما بدت قذائف المدفعية السوفيتية تتساقط على الضواحي الشرقية من وارسو، وشقت القوات البولندية الشيوعية بأمر من الروس طريقها إلى حدود العاصمة، وأخذت الطائرات السوفيتية تلقي المؤن على العاصمة، ولكن معظم المظلات لم تتفتح فتحطمت الصناديق التي بها المؤن وأخذت المجاعة تسيطر على المدينة.

وقد أدت المحاولات التي بذلتها مع الأمريكيين للحصول على مساعدتهم دورها، فحلقت مائة وأربع قاذفات ثقيلة في الثامن عشر من سبتمبر فوق العاصمة، وألقت فوقها المؤن ولكن النجدة جاءت متأخرة، وجاءني ميكولاجيك في الثاني من أكتوبر ليقول لي: أن القوات البولندية في وارسو على وشك الاستلام للألمان. والتقطنا في لندن آخر إذاعة صدرت عن المدينة الباسلة ونصها الآتي:

"إنها الحقيقة البشعة، لقد عوملنا أسوأ مما عومل به أتباع هتلر، عوملنا أسوأ من إيطاليا ورومانيا وفنلندا، وأننا لنبتهل إلى الله العادل القدير أن ينزل عقابه بأولئك الذين عرضوا الشعب البولندي لظلم مروع، وأن يقتص من جميع المسئولين عما لحق بنا من عذاب".

"مثل هذا الشعب الذي استطاع حشد هذا القدر من البطولات إنما هو الخالدين، ولقد انتصر الذين قضوا نحبهم، أما الذين عاشوا فسيمضون في القتال، وسينتصرون، وسيقيمون الدليل من جديد على أن بولندا ستظل حية طالما أن هناك بولنديين بين الأحياء.

ولا يمكن لإنسان أن ينسى أبدًا هذه الكلمات، فلقد استمر الصراع في وارسو أكثر من ستين يومًا، وسقط في ميدان النضال أكثر من خمسة عشر ألفًا من أربعين ألفًا من الرجال والنساء كانوا يؤلفون جيش المقاومة السرية، وأصيب أكثر من مائتي ألف من سكان العاصمة، كما كلف إخماد الثورة الألمان أكثر من عشرة آلاف قتيل وسبعة آلاف مفقود وتسعة آلاف جريح.

وعندما دخل الروس المدينة بعد ثلاثة أشهر لم يجدوا شيئًا غير الشوارع المحطمة والجثث التي لم تدفن، وهكذا كان تحرير الروس لبولندا التي يحكمونها الآن، ولكنها لن تكون نهاية القصة على كل حال.

تحرير أوروبا الغربية

في الأول من سبتمبر، تسلم الجنرال ايزنهاور القيادة العليا للقوات البرية في شمالي فرنسا، وهي مكونة من مجموعة الجيوش البريطانية الحادية والعشرين بقيادة المارشال مونتجمري، ومجموعة الجيوش الأمريكية الثانية عشرة بقيادة الجنرال برادلي، وبذلك كان يسيطر على أكثر من سبع وثلاثين فرقة تضم أكثر من نصف مليون رجل، وكانت قوات العدو تبلغ سبع عشرة فرقة.

وكانت خطة الجنرال ايزنهاور تستهدف الاندفاع في الاتجاه الشمالي الشرقي بأقصى ما لديه من قوات لاجتياح مراكز إطلاق القنابل الطائرة الألمانية واحتلال انتويرب، لأنه ما لم تحتل قوات الحلفاء هذا الميناء الضخم لم يكن في إمكانها القيام بهجوم عبر الجزء الأدنى من نهر الراين، والاندفاع إلى سهول ألمانيا الشمالية، ولذلك فقد اتجهت جيوش مونتجمري إلى ميناء انتويرب فاحتلت مدينة امبان وأسرت الفرقة المدرعة الحادية عشرة قائد الجيش الألماني السابع في أثناء تناوله الفطور في امبان، وواصلت اندفاعها إلى مدن الحدود وهي أراس ودواي وليل، قد أخلى الألمان بروكسل فدخلتها فرقة الحرس المدرع الثالث في اليوم الثالث من سبتمبر، كما اتجهت فرقة الحرب بعد ذلك شرقًا إلى لوفين.

وقبل التاسع من سبتمبر كانت قواتنا قد تمكنت من تطهير منطقة خليج كاليه، بما فيها من مراكز إطلاق القنابل الطائرة، وكذلك موانئ القتال وهي دبيب وبولون ودنكرك، إلا ميناء الهافر حيث ظلت حاميته المؤلفة من أحد عشر ألف رجل تقاوم بشدة وإصرار على الرغم من قصفها بمدافع

بحرية من عيار خمس عشرة بورصة ومن أكثر من عشرة آلاف طن من القنابل من الجو، حيث استسلمت في الثاني عشر من سبتمبر، كما احتلت الفرقة المدرعة البولندية مدينة جنت التي لا تبعد أكثر من أربعين ميلاً عن انتويرب.

وبقيت أمامنا القفزة الأخيرة نحو أرنهيم، حيث كان الطقس السيئ قد حال دون إيصال الإمدادات والمؤن والذخائر بطريق الجو، وكانت الفرقة الأولى التي نقلت بالطائرات بالجو في وضع يائس، فقد عجزت عن الوصول إلى الجسر، وأصبحت محصورة في قطاع ضيق على الضفة الشمالية، متعرضة لهجمات عنيفة، وقد بذلت كل محاولة ممكنة من الضفة الجنوبية لإنقاذها، ولكن العدو كان قويًا للغاية، وقامت بهذه المحاولات فرقة الحرب والفرقة الثالثة والأربعون ولواء المظليين البولنديين، ولكنها جميعًا منيت بالفشل، حتى اضطر المارشال مونتجمري إلى إصدار أوامره إلى من تبقى من الفرقة بالعودة.

وبعد ذلك اتجهنا لتطهير مصب الشلوت وفتح ميناء انتويرب للملاحة حيث كانت فرقة مدرعة ألمانية ومدربة خير تدريب تتولى الدفاع عن جزيرة بريسكينز وقد أثبتت صلابتها، كما دار قتال عنيف جدًا لعبور قناة ليوبولد واحتلال جنوبي بيفيلاند، وقد تمكنا في نهاية الشهر وبعد جهود عظيمة هائلة من الاستيلاء على البرزخ كله وأسر نحو ١٢٥٠٠ ألماني.

وهكذا أصبحت الطرق ممهدة للهجوم على وولشيرين، ووجه السلاح الجوي الملكي في أوائل أكتوبر الضربة الأولى حتى تمكنت طائراتنا من فتح ثغرة عظيمة، وقد اشترك في هذه العملية ثلاث وحدات من فدائيي البحرية. كما اشترك الأسطول البحري أيضًا في الهجوم.

وعلى الرغم من الإصابات القاسية التي وقعت برجال الأسطول فقد تمكن من مواصلة إطلاق مدافعه حتى تمكنت وحدات الفدائيين من النزول إلى الساحل، كما صبت مدافع الفيلق الكندي الثاني نيرانها القوية عبر الماء من شاطئ بريسكنيز على مدافع العدو القوية المثبتة في دعائم من الأسمنت

المسلح، وقد تمكنت وحدة الفدائيين الثامنة والأربعون من قتل وأسر بقية رجال حامية الجزيرة، ولم تمض بضعة أيام في قتال عنيف حتى كانت الجزيرة كلها في أيدينا.

كما واصل برادلي، وضباطه المتحمسون، اندفاعهم القوي على الجناح الأيمن وراء باريس، على رأس مجموعة الجيوش الأمريكية الثانية عشرة، فسقطت في أيديهم شارلروا، ومونز، ولييج، وتمكنوا خلال أسبوعين من تحرير اللكسمبورج بأسرها وجنوبي بلجيكا، ووصلوا في الثاني عشر من سبتمبر إلى الحدود الألمانية، كما اخترقوا خط سيجفريد على مقربة من آخن.

هذا وقد قامت القوات الجوية الاستراتيجية بدور بارز في زحف الحلفاء إلى حدود فرنسا وبلجيكا، ثم عادت في الخريف إلى دورها الأساسي في قصف ألمانيا مستهدفة مستودعات البترول وأجهزة المواصلات كأهداف محدودة، كما أرغمت هجماتنا المستمرة الألمان على توزيع مصانعهم في نقاط متباعدة، وقد دفعت قواتنا الثمن غاليًا لتحقيق هذا الهدف.

ولما كان الألمان يعتمدون على طرق مواصلاتهم الجيدة، وقد تعطل أكثرها بسبب الغارات فقد تسبب ذلك في تكديس أكوام الفحم في المحطات لعدم وجود عربات الشحن التي تنقلها، كما اضطر أكثر من ألف قطار من قطارات الشحن للتوقف يوميًا بسبب الافتقار إلى الوقود، وكذلك بدأت محطات القوة الكهربية والمصانع ومعامل الغاز تغلق أبوابها وهبط إنتاج البترول واحتياطيه هبوطًا هائلاً مما أثر لا على حركة القوات العسكرية فحسب، بل على النشاط الجوي وتدريب الطيارين.

وقد حذر سيبر في شهر أغسطس الفوهرر من شل الصناعة الكيماوية كلية بسبب الافتقار إلى المنتجات الثانوية من مصانع الزيت الكيماوي، وأخذ الوضع يزداد سوءًا يومًا بعد يوم، وقال سيبر: أنه إذا استمر الوضع في التردي

والتوقف في حركة القارات فإن النتيجة ستؤدي إلى كارثة إنتاجية ذات أهمية حاسمة. ولهذا السبب فقد بدأ هجومنا الجوي يحقق غاياته أخيرًا.

استسلام ألمانيا

انتهت حملاتنا في البحر الأبيض المتوسط، بانتصار مشرف، وقد تولى اليكساندر القيادة العليا في شهر ديسمبر خلفًا لويكسون، كما تولى مارك كلارك قيادة مجموعة الجيوش الخامسة عشرة، وبالنسبة للجهود المضنية التي بذلتها الجيوش في إيطاليا، فقد أصبحت في حاجة إلى التوقف لفترة تعيد فيها تنظيمها وتجديد روحها المعنوية وقوتها الهجومية.

وكانت المقاومة الألمانية الباسلة والطويلة، والتي كانت غير متوقعة على جميع الجهات، قد جعلتنا نحن والأمريكيين مفتقرين إلى العتاد المدفعي، كما أرغمتنا تجاربنا القاسية، في حروب الشتاء في إيطاليا على تأجيل الهجوم العام حتى الربيع، إلا أن قوات الحلفاء الجوية بقيادة الجنرال كانون ظلت تقصف خطوط تموين الجيوش الألمانية حتى تم إغلاق الطريق المهم الممتد من فيرونا إلى ممر برنر، حيث كان هتلر وموسوليني يعقدان اجتماعاتهما في أماكن عدة طوال شهر مارس، وقد تسبب إغلاق هذا الطريق في تأخير نقل الفرقتين الألمانيتين اللتين تقرر إرسالهما إلى روسيا أكثر من شهر.

وكان لدى العدو كميات كافية من العتاد والمؤن، ولكنه كان في حاجة إلى الوقود، وكانت وحداته لا تزال كاملة وروحها المعنوية عالية على الرغم من هزائم هتلر في الراين وعلى نهر الأدور، ويبدو أن القيادة العليا الألمانية ما كانت لتخشى الكثير لولا سيطرتنا الجوية ولولا أننا كنا نتمتع بزمام المبادرة ونستطيع أن نوجه الضربة حيث نشاء، بينما كان الخط الدفاعي الذي اختاره الألمان سيئًا، إذ جعلوا نهر البو الواسع وراء ظهورهم، وكان من الأفضل للألمان لو تخلوا عن شمال إيطاليا كلها وانسحبوا إلى

الخطوط الدفاعية المنيعة في الجبال، حيث كان في استطاعتهم أن يصمدوا أمامنا بقوات قليلة، وأن يبعثوا بما يتوافر لديهم من قوات إلى الجبهات الأخرى.

ولكن الهزيمة التي لحقت بالألمان في جنوبي نهر البو كانت بمثابة كارثة. ولا ريب في أن كيسلرنج قد أدرك ذلك، وهو ما حمله على المفاوضات التي سجلناها في الفصل السابق، ولكن هتلر كان دائمًا العقبة الكأداء، بدليل أنه عندما اقترح فيتينجهوف الذي خلف كيسارنج في الانسحاب التكتيكي، جاءه الرد الصارم من هتلر وقد قال فيه: "أن الفوهرر يتوقع الآن كما توقع دائمًا أن تؤدي بثبات وصلابة مهمتك الراهنة في الدفاع عن كل شبر من أراضي شمال إيطاليا، وهي الأراضي التي أوكل إليك أمر الدفاع عنها".

وقد شرع الجيش الثامن في هجومه مساء التاسع من إبريل بالغارات الجوية ومدافع الميدان، ولم يحل اليوم الرابع عشر من إبريل حتى كانت الأنباء الطيبة قد وصلت من جميع أنحاء الجبهة، وقد تمكن الجيش الخامس بعد قتال عنيف استمر أسبوعًا من الخلاص من المنطقة متحديًا أوامر هتلر، ولكن الفرصة كانت قد ضاعت، حيث استمر شمالاً. وفي اليوم العشرين من إبريل أمر فيتينجهوف قواته بالانسحاب متحديًا أوامر هتلر، ولكن الفرصة كانت قد ضاعت، حيث استمر الجيش الخامس في اندفاعه نحو نهر البو، ومهدت له الطائرات طريق تقدمه، حيث قطع خط الرجعة على ألوف الألمانيين الذين وقعوا في الفخ وانقطعت بهم السبل فوقعوا أسرى، ولم تتمكن هذه البقايا التي خلفت وراءها جميع معداتها الثقيلة قبل عبور النهر من إعادة تنظيمها، فقد طاردتها جيوش الحلفاء إلى سفوح الأريج، في حين كان رجال المقاومة الإيطالية ينزلون المصاعب بالعدو في الجبال والمناطق الخلفية.

وفي الخامس والعشرين من إبريل، صدرت الأوامر لقوات المقاومة بإعلان الثورة العامة، وفي الحال شرعت تشن هجمات واسعة النطاق وتمكنت من

السيطرة على مدن مهمة كميلانو والبندقية وغدت عملية الاستسلام في شمال غربي إيطاليا بالجملة، كما سلمت حامية جنوة المؤلفة من أربعة آلاف جندي نفسها إلى ضابط ارتباط بريطاني وإلى قوات المقاومة.

وفي هذه الأثناء جاء وولف إلى سويسرا ثانية بعد أن منحه فيتينجهوف السلطات الكاملة، كما وصل رسولان آخران مفوضان إلى مقر قيادة اليكساندر، ووقعا في التاسع والعشرين من إبريل وثيقة الاستسلام غير المشروطة بحضور بعض الضباط البريطانيين والأمريكيين والروسيين، كما أنه في الثاني من مايو استسلم نحو من مليون ألماني كأسرى حرب وانتهت - باستسلامهم - الحرب في إيطاليا كلها.

وهكذا انتهت حملتي التي استغرقت عشرين شهرًا، وكانت خسائرنا كبيرة إلا أن خسائر العدو كانت أعظم.

وجاءت النهاية لموسوليني أيضًا، ويبدو أنه ظل كهتلر محتفظًا بأحلامه وخيالاته، حتى اللحظة الأخيرة، فقام في نهاية مايو بآخر زيارة لشريكه الألماني، ثم عاد لمقر قيادته على شاطئ بحيرة جاردا، وقد انتعشت في خاطره أحلام الأسلحة السرية التي ستؤدي إلى النصر، ولكن سرعة زحف الحلفاء من جبال الأبنين قد قضت على هذه الأحلام.

وقرر موسوليني في الخامس والعشرين من إبريل أن يحل ما تبقى من قواته المسلحة وأن يطلب إلى كردينال ميلانو ورئيس أساقفتها أن يرتب اجتماعًا له مع أعضاء اللجنة السرية العسكرية لحركة التحرر الوطني الإيطالية، ودارت المحادثات في قصر الكردينال في ظهر ذلك اليوم، ولكن موسوليني خرج غاضبًا منه، وفي المساء سار موسوليني على رأس قافلة تضم معظم الباقين من زعماء الفاشية إلى دار الشرطة في كومو، بعد أن ارتدى معطفًا وخوذة من التي يرتديها الجنود الألمان، ولكن دوريات رجال المقاومة أوقفت القافلة وتعرف أفرادها على موسوليني فوضعوا أيديهم عليه ونقلوه إلى

السجن، كما اعتقل آخرون من بينهم عشيقته السنيورة بيتاتشي، وحمل الدونشي وعشيقته في اليوم التالي بأمر من الشيوعيين في السيارة إلى خارج البلدة وقتلا، ونقل جثمانهما إلى ميلانو، حيث علقا من الأقدام على خطافات اللحم في محطة بنزين في "بياز إلى لورينو"، وهكذا كانت خاتمة الديكتاتور الإيطالي.

وقد واصلت الجيوش النازية زحفها في ألمانيا بقوة، وأخذت المسافات بينها تضيق يومًا بعد يوم، وكان ايزنهاور في أوائل شهر إبريل قد اجتاز نهر الراين وأخذ يندفع إلى ألمانيا وأواسط أوروبا ضد عدو كان لا يزال يقاوم بضراوة في بعض الجهات، وإن كان عاجزًا عن وقف زحفنا المظفر، وكانت بولندا خارج نطاق إمكاناتنا وكذلك كانت فيينا، التي ضاعت فرصتنا في الوصول إليها قبل الروس، عن طريق زحف سريع من إيطاليا قبل ثمانية أشهر، عندما ضوعفت قوات الجنرال اليكساندر، لتمكين حركة الإنزال في فرنسا من النجاح، وكان الروس قد زحفوا على المدينة من الشرق والجنوب وامتلكوها.

وقد بدا لي أنه ليس هناك ما يحول بين الحلفاء الغربيين وبين احتلال برلين، وكان الروس على بعد خمسة وثلاثين ميلاً منها، وكان الألمان قد تحصنوا في خنادقهم على نهر الأدور، وكان من المتوقع أن تدور معارك شديدة للغاية قبل أن يتمكن الروس من عبور النهر واستئناف الهجوم، وكان الجيش الأمريكي التاسع من الناحية الأخرى قد عبر نهر الألب على مقربة من مجدبورج وغدا على بعد ستين ميلاً من برلين وتوقف هناك. وبعد أربعة أيام شرع الروس في هجومهم وأتموا تطويق برلين في الخامس والعشرين من إبريل، مع أن ستالين كان قد أبلغ ايزنهاور أن ضربته الرئيسية الثانية ضد ألمانيا ستشن حوالي النصف الثاني من شهر مايو، ولكنه تمكن من الزحف قبل شهر من الموعد الذي حدده، ولعل في تقدمنا السريع نحو نهر الألب التفسير الصحيح لزحف الروس بمثل هذه السرعة.

وفي الخامس والعشرين من إبريل عام ١٩٤٥ التقت طلائع قوات الجيش الأول الأمريكي القادمة من ليبزيج بالقوات الروسية على مقربة من تورجاو على نهر الألب، وهكذا تم شطر ألمانيا إلى شطرين، ورأينا الجيش الألماني ينحل أمامنا، وسقط في الأسر أكثر من مليون ألماني في الأسابيع الثلاثة الأولى من شهر إبريل.

ولما كان الجنرال ايزنهاور يعتقد بأن النازيين المتعصبين سيحاولون الدفاع عن جبال بافاريا وغربي النمسا، فقد اتجه بالجيش الأمريكي الثالث جنوبًا، ودخل جناح الجيش الأيسر إلى تشيكوسلوفاكيا، فوصل إلى بوديجوفيك وبيلسين وكارلسباد وأصبحت براج في متناول أيدينا، ولم يكن هناك ما يحول دون احتلالها من الناحية العسكرية، وقد اقترحت على ترومان أن يقوم ايزنهاور باحتلال العاصمة التشيكية، ولكن ترومان عارض الفكرة، وبعد أسبوع أبرقت شخصيًا إلى ايزنهاور بذلك، ولكنه رد عليّ بأنه إذا تطلب الوضع فقد يجتاز الحدود إلى الخط العام الممتد من كارلسباد إلى بيلسين فيوديجوفيك، وقد وافق الروس على ذلك، وبعد أن تحركت قوات ايزنهاور إلى الخط الجديد، عارض الروس بشدة في أن يستمر الجيش الأمريكي الثالث في زحفه حتى نهر فولتافا، الذي يمر عبر مدينة براج، وهكذا توقف الجيش الأمريكي، في حين ظهر الجيش الأحمر على الضفتين الشرقية والغربية لنهر مولداو واحتل مدينة براج، في التاسع من شهر مايو، أي بعد يومين من التوقيع على الاستسلام العام في ريمز.

ولما كان موضوع احتلال الخلفاء الرئيسيين لألمانيا قد درس دراسة عميقة في صيف عام ١٩٤٣ بالاتفاق مع رؤساء أركان الحرب، فقد تقرر أن تحتل ألمانيا بأكملها إذا أريد نزع سلاحها بصورة فعالة، أما إذا أريد التخلص منها بتقسيمها ثلاث مناطق احتلال رئيسية متساوية حجمًا، فيجب أن يحتل البريطانيون الشمال الغربي، والأمريكيون الجنوب والجنوب الغربي، والروس المنطقة الشرقية، كما يجب أن تكون مدينة برلين منطقة مشتركة منفصلة

يحتلها الحلفاء الثلاثة، وقد ووفق على هذه التوصيات وقدمت إلى المجلس الاستشاري الأوروبي، الذي كان يتألف من السفير السوفييت المسيو جوسييف والسفير الأمريكي المستر وينانت والسير ويليام سترانج من وزارة الخارجية البريطانية.

وبدا الموضوع في ذلك الوقت مجرد شيء نظري، فلم يكن في استطاعة أي إنسان أن يتكهن آنذاك كيف ومتى ستنتهي الحرب، وكانت الجيوش الألمانية لا تزال تحتل مناطق واسعة من روسيا، وكان لابد أن يمضي عام واحد على الأقل قبل أن تضع الجيوش البريطانية والأمريكية أقدامها في أوروبا الغربية، وعامان قبل أن تدخل هذه الجيوش ألمانيا، وهكذا ظلت هذه الاقتراحات كغيرها موضوعة على الرف، وكانت الفكرة السائدة في تلك الأيام أن روسيا لن تستمر في الحرب بعد أن تستعيد حدودها السابقة، وكان على الحلفاء الغربيين أن يبذلوا جهوداً ضخمة لإقناع الروس بعدم التراخي في مجهودهم، ولهذا فإن موضوع احتلال الروس لألمانيا لم يتبلور في أفكارنا ولا في المحادثات البريطانية الأمريكية، كما لم يثر في اجتماع الكبار الثلاثة في طهران.

وعندما اجتمعنا في القاهرة في طريق عودتنا إلى الوطن في أكتوبر عام ١٩٤٣، أثار رؤساء أركان الحرب الأمريكيون الموضوع، ولكن لم تكن إثارتهم إياه بناء على طلب من روسيا، وقد ظلت مسألة الاحتلال الروسي لألمانيا لا تعدو أن تكون أمنية أو خيالاً، كما أنه قد قيل لي أن الرئيس روزفلت رغب في أن يغير وضع احتلال المنطقتين البريطانية والأمريكية في ألمانيا، لكي تكون طرق مواصلات القوة الأمريكية في ألمانيا مستندة إلى البحر مباشرة ولا تمر عبر فرنسا، ولم نتوصل إلى قرار، وكان من رأي أركان حرب القيادة البريطانية أن الخطة الأصلية هي الأفضل، كما كان يشاطرهم زملاؤهم الأمريكيون في هذا الرأي، وقد توصلنا في مؤتمر كويبك في سبتمبر عام ١٩٤٤ إلى اتفاق ثابت بيننا.

وعندما اقتنع الرئيس بهذا الرأي العسكري، اشترط أن تتمكن الجيوش الأمريكية من الحصول على منفذ قريب إلى البحر ضمن منطقة الاحتلال البريطاني، واتفقنا على أن بريمن وضاحيتها بريمن هافن، تفيان بهذا الغرض وبمتطلبات أمريكا، وتقرر أن يعهد إلى القوات الأمريكية بالإشراف عليها.

وقد قبلت الخطة التي وضعناها في كويبك في مؤتمر يالتا الذي عقدناه في شهر فبراير عام ١٩٤٥، دون أية دراسة، وتركنا البحث الشامل فيها إلى معاهدة الصلح، كما اقترحنا أيضًا أن نتفق على مناطق الاحتلال في النمسا. ووافق ستالين بعد جهود كبيرة بذلتها لإقناعه، على أن تعطي للفرنسيين منطقة احتلال ضمن المنطقتين البريطانية والأمريكية، وأن نعطي لها مقعدًا في مجلس الإشراف الحليفي، وكان مفهومًا للجميع أن هذا الاتفاق على مناطق الاحتلال يجب ألا يعرقل سير الحركات العملية لجيوش الحلفاء، وأن يكون في وسع أي جيش أن يحتل برلين أو براغ أو فيينا إذا وصل إليها قبل غيره. وعندما افترقنا في شبه جزيرة القرم، لم نفترق كحلفاء فحسب بل كأصدقاء، نواجه عدوًا ما زال قويًا.

وشهد الشهران اللذان تليا ذلك الاجتماع تبدلاً هائلاً نفذ إلى أعماق تفكيرنا، حيث كان قد تقرر مصير ألمانيا الهتلرية، حيث كان الروس يحاربون داخل برلين نفسها كما أضحت فيينا ومعظم أجزاء النمسا في أيديهم، وأصبحت العلاقات بين روسيا وبين الحلفاء الغربيين في حالة سيئة من التوتر، وظلت كل قضية تتعلق بالمستقبل قائمة لا حل لها بيننا، وقد طرح الكريملين المنتصر الظافر جانبًا، كل ما اتفقنا عليه أو تفاهمنا بشأنه في يالتا، وبرزت مخاطر جديدة لا تقل فظاعة عن تلك التي تغلبنا عليها، على العالم الممزق المتعب.

وقد زاد قلقي لهذه التطورات المنذرة بالشر، حتى قبل وفاة الرئيس روزفلت، وكان هو بدوره أيضًا قد أحس بالقلق والاضطراب، وقد سجلت في هذا الكتاب ما أحس به من غضب بسبب اتهامات مولوتوف بشأن اتصالات برن. وعلى الرغم من زحف جيوش ايزنهاور الظافرة، فقد وجد الرئيس ترومان نفسه في النصف الأخير من شهر إبريل يواجه أزمة ضخمة، وكنت أحاول منذ مدة أن أبصر الحكومة الأمريكية بالتبدلات الهائلة التي أخذت تطرأ على المسرحين السياسي والعسكري.

وتشير البرقيات التي نشرتها في مكان آخر، إلى أنني لم أقترح قط النكوص عن تعهداتنا بشأن مناطق الاحتلال المتفق عليها، على شرط أن يحترم الآخرون الاتفاقات التي التزموا بها، وأصبحت مقتنعًا أننا قبل أن نتوقف في زحفنا يجب أن نجتمع بستالين وجهًا إلى وجه، وأن نتوصل معه إلى اتفاق يتناول الجبهة كلها، وكنت أرى من الكوارث الحتمية أن نحافظ نحن بإخلاص وصدق على جميع التزاماتنا في حين يضع السوفييت أيديهم على كل ما يستطيعون الإمساك به، دون أي احترام للالتزامات التي ارتبطوا بها.

وكان الجنرال ايزنهاور قد اقترح، أنه في الوقت الذي تعطى فيه الحرية للجيوش من الشرق والغرب، بالزحف والتقدم دون اعتبار مناطق الاحتلال وأن في وسع هذه الجيوش بعد أن يتم اتصالها في أية منطقة، أن تنسحب إلى ما وراء حدود الاحتلال المقررة، كما تعطى الصلاحيات لتوجيه طلبات الانسحاب ولإصدار الأوامر المتعلقة بها، إلى قواد مجموعات الجيوش، وبذلك تتم عمليات الانسحاب وفقًا لمقتضيات العمليات الحربية، وقد رأيت أن هذا اقتراح سابق لأوانه، وأنه يتجاوز الاحتياجات العسكرية الفورية.

وعلى ضوء هذا الرأي وجهت رسالة في الثاني عشر من إبريل إلى الرئيس الجديد المستر ترومان، ولما كان الرئيس حديث عهد بكل هذه المشكلات التي تواجهنا، فقد كان من الطبيعي بالنسبة له، أن يلجأ إلى مستشاريه،

ولهذا فقد أحرزت الفكرة العسكرية المجردة، تأكيدًا وتأييدًا أكثر مما تستحقه، وقد أبرقت إليه أقول:

"إنني على أتم استعداد للتقيد بمناطق الاحتلال، ولكنني لا أحب أن أرى قوات الحلفاء والقوات الأمريكية، ترغم على الرجوع في أية نقطة، تلبية لطلبات سخيفة من قائد روسي محلي، وأرى أن يتفق على هذا بين الحكومات، بحيث تتوافر لايزنهاور الفرصة ليقرر فورًا وفي المنطقة نفسها، الإجراء الذي يجب أن يتخذ وفقًا لطريقته".

"ولما كان قد اتفق على مناطق الاحتلال بصورة عاجلة في كويبك في شهر سبتمبر عام ١٩٤٤، عندما لم نكن نتوقع أن تتمكن جيوش الجنرال ايزنهاور من إحراز هذا التوغل العميق داخل ألمانيا، وليس في الإمكان تبديل هذه المناطق إلا عن طريق الاتفاق مع الروس، إلا أنه في الوقت الذي يتم فيه النصر النهائي في أوروبا، يجب علينا أن نحاول فورًا وفي اليوم نفسه إقامة مجلس الإشراف الحليف في برلين، وأن نصر على توزيع عادل للمواد الغذائية التي تنتجها ألمانيا على جميع أجزاء البلاد، وقد كانت منطقة الاحتلال الروسي في الوقت الحاضر، تنتج أكبر نسبة من المواد الغذائية في حين أن عدد سكانها كان ضئيلاً، بالنسبة لغيرها من المناطق، كما لا يملك الأمريكيون نسبة كافية من المواد الغذائية في مناطقهم تكفي لأهلها، أما نحن البريطانيين المساكين، فسنأخذ ما تبقى من حطام حوض الروهر والمناطق الصناعية الأخرى التي تعتمد مثلنا في الأوقات العادية على ما تستورده من كميات ضخمة من المواد الغذائية".

ولما كان المستر إيدن في واشنطن، فقد وافق تمامًا على آرائي التي بعثت بها برقيًا إليه، ولكن رد المستر ترومان، لم يتقدم بنا خطوة واحدة إلى الأمام، فقد اقترح أن تنسحب قوات الحلفاء من المناطق المتفق على احتلالها في ألمانيا والنمسا، عندما تسمح الأوضاع العسكرية بهذا الانسحاب.

وكان هتلر يفكر في أثناء ذلك في المكان الذي يجب أن يقف فيه وقفته الأخيرة، وكان حتى العشرين من إبريل لا يزال يفكر في مغادرة برلين "واللجوء" إلى حصنه في الجنوب في جبال الألب البافارية، وقد عقد في ذلك اليوم اجتماع شهده كبار القادة النازيين.

ولما كانت الجبهة الألمانية المزدوجة في الشرق والغرب، قد أصبحت معرضة للانقطاع والانشطار شطرين بسبب اندفاع الحلفاء من الناحيتين، فقد وافق على إقامة قيادتين منفصلتين، وعهد إلى الأميرال دونتس بأن يتولى المسئولية العسكرية والمدنية في الشمال، وأن يكون مكلفاً بإعادة مليوني لاجئ ألماني من الشرق إلى الأراضي الألمانية، أما في الجنوب فقد تقرر أن يتولى المارشال كيسلرنج قيادة ما تبقى من الجيوش الألمانية، كما تقرر أن يشرع في تنفيذ هذه المخططات عقب سقوط برلين.

وفي الثاني والعشرين من إبريل، اتخذ هتلر قراره الأخير والخطير بالبقاء في برلين حتى النهاية، وفي الحال أتم الروس تطويق العاصمة بعد أن فقد الفوهرر كل قدرة على السيطرة على الأحداث، وقد أعلن لمن تبقى من الزعماء النازيين معه بأنه سيموت في برلين، وكان جورنج وهملر قد غادرا برلين بعد مؤتمر العشرين من إبريل، وقد طافت برأسيهما أفكار التفاوض لعقد الصلح واتجه جورنج إلى الجنوب، وافترض أن هتلر قد تنازل عن سلطانه ببقائه في برلين وقد طلب منه تأكيداً رسمياً بأن يكون خليفته، وكان رد هتلر أن طرده من جميع مناصبه، وبعدها وقع أسيراً هو ومائة من كبار قادة السلاح الجوي الألماني في أيدي القوات الأمريكية.

ولم يبق مع هتلر من كبار شخصيات العهد إلى جوبلز وبورمان حتى النهاية، وكانت القوات الروسية قد بدأت تقاتل في شوارع برلين، وفي الساعات الأولى من صباح التاسع والعشرين من إبريل كتب وصيته الأخيرة، واستمر يؤدي أعماله العادية في الملجأ الموجود تحت دار المستشارية إلى أن

وصلته الأنباء عن نهاية موسوليني، وبعد أن تناول غذاءه في اليوم الثلاثين صافح أفراد حاشيته، ثم انسحب إلى غرفته الخاصة، وانتحر بمسدسه، وكانت بجواره إيفا براون ـ التي كان قد تزوجها سرًا ـ بعد أن تناولت السم وتم إحراق الجثتين في باحة المستشارية، وكانت نهاية مؤلمة للرايخ الألماني.

هذا، وقد عقد من تبقى من القادة النازيين مؤتمرًا أخيرًا، وحاولوا التفاوض مع الروس، إلا أن جوكوف طلب الاستسلام بلا قيد ولا شرط، وفي الحال اختفى بورمان دون أن يترك أثرًا، وقتل جوبلز أولاده الستة بالسم، ثم أمر رجال حرسه بإطلاق النار عليه وعلى زوجته، ووقع من تبقى من رجال مركز قيادة هتلر أسرى في أيدي الروس.

وصلت إلى الأميرال دونتيس تلك الليلة البرقية التالية:

"لقد عينك الفوهرر، أيها الأميرال الأكبر خلفًا له، بدلاً من مارشال الرايخ السابق جورنج، وسيصلك الخطاب الرسمي، إذ هو في الطريق إليك، وعليك أن تتخذ فورًا جميع الإجراءات التي يتطلبها الموقف، بورمان".

وكان دونتيس على اتصال بهملر، وقد سيطرت الفوضى، فأخذ يعد العدة لتنظيم أمر الاستسلام.

أما هملر فكان قد ذهب إلى الجبهة الشرقية وأخذ يجري اتصالات شخصية موعزًا بها مع الحلفاء الغربيين، مؤملاً الوصول إلى صلح منفرد منذ عدة أشهر، وقد جدد الآن المحاولة عن طريق الكونت برنادوت رئيس الصليب الأحمر السويدي، لكن عروضه رفضت كلها فاختفى ولم يسمع عنه شيء إلى أن قبض عليه متنكرًا، وعند ذلك تناول قارورة من سم السيانيد فمات لتوه.

أما نهاية المسرحية في الشمال الغربي فكانت أقل إثارة، فقد وصلت أنباء الاستسلام في إيطاليا في الثاني من مايو، وكانت قواتنا قد وصلت إلى

لوبيك الواقعة على البلطيق، واتصلت بالروس، فقطعت خط الرجعة على القوات الألمانية الموجودة في الدانمارك والنرويج، ووصلنا في الثالث من مايو مدينة همبورج دون مقاومة، واستسلمت الحامية دون قيد أو شرط، وبعد ذلك وصل وفد ألماني إلى مقر قيادة مونتجمري في لونبرج هيث، برئاسة الأميرال فريدبرج الذي حاول الوصول إلى اتفاق باستسلام يشمل القوات الألمانية في الشمال التي تواجه الروس أيضًا، وقد وقع وثيقة الاستسلام لجميع القوات الألمانية في شمال غربي ألمانيا وهولندا والجزر وشلزويج هولشتين والدانمارك.

وتوجه فريدبرج إلى مقر قيادة ايزنهاور في ريمز، حيث انضم إليه الجنرال بودول في السادس من مايو، الذي أصر على استسلام كامل، وقد وقع فريدبرج وثيقة الاستسلام الكلي في صباح السابع من مايو، كما وقع عليها اللفتنانت جنرال بيدل سميث والجنرال بودل وشه عليها قائدان "فرنسي وروسي"، وبذلك أوقفت جميع الأعمال الحربية في منتصف ليل الثامن من مايو، وتم التصديق الرسمي من قبل القيادة العليا الألمانية في برلين طبقًا للترتيبات التي وضعها الروس في التاسع من مايو، ووقع الوثيقة قائد عام القوات الجوية بندر بالنيابة عن ايزنهاور والمارشال جوكوف بالنيابة عن الروس، والمارشال كاتيل بالنيابة عن ألمانيا.

وعندما أصدر دونتيس أوامره بالاستسلام كانت هناك تسع وأربعون غواصة في عرض البحر، وقد استسلم نحو من مائة غواصة في الموانئ، في حين قام البحارة الألمان بتخريب نحو من مائتين وعشرين غواصة قبل الاستسلام، ولا ريب أن هذه الأرقام تقوم دليلاً على إصرار ألمانيا في جهودها، وعلى مدى احتمال سلاح الغواصات الألماني، كما خسر الألمان في ثمانية وستين شهرًا من القتال سبعمائة وواحدة وثمانين غواصة.

وقد غرق في الحرب العالمية الأولى عن طريق الغواصات وحدها ما حمولته أحد عشر مليونًا من الأطنان من البواخر، في حين أغرقت الغواصات

في الحرب الكونية الثانية بواخر حمولتها أربعة عشر مليونًا ونصف المليون من الأطنان. وإذا أضفنا الخسائر الناتجة عن أسباب أخرى تبين لنا أن مجموع الخسائر في البواخر بلغت في الحرب الأولى اثنى عشر مليونًا وسبعمائة وخمسين ألفًا من الأطنان، في حين بلغت في الحرب الثانية واحدًا وعشرين مليونًا ونصف المليون من الأطنان، وقد تحمل البريطانيون ستين في المائة من هذه الخسائر في الحرب الأولى، وأكثر من خمسين في المائة في الحرب الثانية.

وبعد استسلام العدو بلا قيد أو شرط، أحس الظافرون والخاسرون على حد سواء، براحة لا توصف، أما بالنسبة إلينا في بريطانيا والإمبراطورية البريطانية، إذ كنا الوحيدين الذي خضنا الحرب من أول يوم فيها حتى آخر يوم، فلقد كان هناك معنى لانتهاء الحرب، يفوق المعنى الذي يحمله بالنسبة لأقوى حلفائنا وأكثرهم بسالة.

وعندما طلب إليّ أن أتحدث إلى الأمة وجهت إليها الكلمة التالية:

"كم كان بودي أن أبلغكم الليلة، أن جميع متاعبنا ومشكلاتنا قد انتهت، ولو كان في استطاعتي إبلاغكم ذلك لكان في إمكاني أن أنهي خدمتي التي استمرت خمس سنوات، ولكن أرى لزامًا عليّ، أن أحذركم كما حذرتكم من قبل عندما تسلمت هذه الأعباء، بأنه ما زال أمامنا الكثير لنفعله، وأن عليكم أن تستعدوا لجهود أخرى بدنية وعقلية ولاحتمال تضحيات ثابتة في سبيل القضايا العظيمة، فعليكم ألا تضعفوا ولا تهنوا بأي شكل من الأشكال، في يقظتكم وحذركم وانتباهكم، ومع أن أفراح الأعياد ضرورية للروح الإنسانية، إلا أنه يجب أن تضفى عليها القوة والمرونة، لكي يعود كل رجل وامرأة إلى العمل الذي يجب أن يعمله.

فما زال علينا في القارة الأوروبية أن نتأكد من أن الأهداف النبيلة والبسيطة التي خضنا غمار الحرب من أجلها لن يكون مصيرها التجاهل في الأشهر التي تلي النصر، وأن كلمات الحرية والديمقراطية والتحرير لن تفقد

معانيها الحقيقية كما فهمناها، ولن يكون كبير جدوى من عقاب الهتلريين على جرائمهم إذا لم يقم حكم القانون والعدالة في أوروبا، وإذا قدر للحكومات الجماعية أو البوليسية أن تحل محل الغزاة الألمان.

إننا لا نطلب غنمًا لأنفسنا، ولكننا نرى لزامًا علينا أن نتأكد من أن المثل التي حاربنا من أجلها ستلقى ما يجب أن تلقاه من اعتراف على مائدة الصلح، عملاً لا قولاً، وعلينا أن نبذل كل جهد لنرى المنظمة العالمية التي تقوم الأمم المتحدة الآن بخلقها في سان فرانسيسكو لن تصبح مجرد اسم لا عمله له، ولن تغدو درعًا للأقوياء، وأضحوكة للضعفاء، وعلى المنتصرين أن يرجعوا إلى قلوبهم، وأن يكونوا جديرين عن طريق شرفهم بتلك القوى الهائلة التي يحملونها في أيديهم.

"وعلينا ألا ننسى أبدًا أن هناك اليابان على الرغم من قوتها المنهارة وضعفها، تمثل مائة مليون من الناس، لا يرى المحاربون منهم في الموت ما يفزع أو يخيف، وليس في وسعي في هذه الليلة أن أحدد لكم الوقت أو الجهود التي ستحتاج إليها لإرغام اليابانيين على إصلاح ما ارتكبوه بغدرهم وفظاعتهم، فنحن مثل الصين التي احتملت ما احتملته من أضرار فظيعة دون أن يطرأ عليها وهن أو ضعف، ونحن ملتزمون بأحكام الشرف وروابط الولاء الأخرى للولايات المتحدة أن نمضي في هذه الحرب العظيمة، في ذلك الطرف النائي من العالم إلى جانبها دون ضعف أو تردد، وعلينا أن نتذكر أن أستراليا ونيوزيلندا وكندا كلها مهددة تهديدًا مباشرًا من هذه القوة الشريرة، وهذه الدول من ممتلكاتنا المستقلة تهب لنجدتنا في أحلك ظروفنا، وعلينا ألا نترك أية مهلة تتعلق بسلامتها ومستقبلها غير ناجزة، وسأكون غير جدير بثقتكم وبكريم عواطفكم إذا لم أواصل النداء لكم قائلاً: إلى الأمام، دون تردد ودون خوف، ودون لين ودون هوادة، إلى أن تكملوا واجبكم كله، وإلى أن يصبح العالم كله آمنًا مطمئنًا وخاليًا من كل شائبة".

بدء الانفصام

كان القلق من المستقبل وغيره من مشاعر الخوف تملأ جوانحي، وأنا أنتقل بين الجماهير المحتفلة بالنصر الذي استحقوه عن جدارة، بعد تلك المصائب التي اجتازوها ومروا بها، وبدا لمعظمهم أن خطر هتلر قد اختفى بعد أن استسلم العدو الهائل، الذي قاتلوه أكثر من خمس سنوات دون قيد أو شرط، وكل ما بقي هناك أمام الدول الظافرة الثلاث هو أن تضع سلامًا عادلاً ودائمًا تحرسه منظمة عالمية، لكي يدخل العالم في عصر ذهبي من الرخاء والازدهار.

ولكن كان هناك جانب آخر من الصورة، فاليابان لم تستسلم بعد والقنبلة الذرية لم تخلق بعد، وكان العالم يعيش في اضطراب وارتباك، فقد اختفت تلك الوشيجة العظيمة من الخطر المشترك، التي كانت تربط بين الحلفاء بين عشية وضحاها.

أما أنا فقد رأيت أن الخطر الشيوعي قد حل محل الخطر النازي، مع فارق واحد، هو عدم وجود روح من التحالف والزمالة ضده، كما اختفت أيضًا من الوطن أسس الوحدة القومية التي قامت عليها الحكومة القومية، في أثناء الحرب قوية ثابتة، ولم يكن في وسعي أن أخلص عقلي من الخوف، لأن جيوش الديمقراطية الظافرة ستتفرق عما قريب، مع أن أقسى التجارب والاختبارات وأكثرها حقيقة ووقعًا ما زالت أمامنا.

وكان همي الأول منصرفًا إلى عقد اجتماع آخر للثلاثة الكبار، وكنت آمل في أن يأتي الرئيس ترومان إلى هذا الاجتماع عن طريق لندن لنلتقي أولاً، وكانت هناك كما سيرى القارئ آراء مخالفة تمامًا، تضغط بها جهات ذات نفوذ في واشنطن على الرئيس الجديد، وكان يقال أن على الولايات المتحدة أن تكون حريصة كل الحرص، فلا تسمح لأحد بأن يجرها إلى خلاف أو عداء مع روسيا السوفييتية، لأن مثل هذا العداء سيحفز المطامع البريطانية على

الظهور، ويخلق هوة جديدة في أوروبا، وعلى السياسة الأمريكية من الناحية الأخرى، أن تقف وسطًا بين بريطانيا وروسيا، كوسيط صديق أو كحكم، وأن تحاول التقليل من خلافاتهما حول بولندا والنمسا، وأن تساعد على تهيئة الأوضاع والوصول بها إلى سلم هادئ سعيد، لتمكين القوات الأمريكية من التركيز ضد اليابان، ويبدو أن ضغط هذه الآراء على ترومان كان قويًا للغاية، ولم يكن في وسعي بطبيعة الحال أن أقدر القوى التي تعمل في الجهاز الحساس لأقرب حلفائنا إلينا، وإن كنت قد شعرت بها، وكان في وسعي فقط أن أحس بالمظاهر الهائلة للاستعمارية الروسية السوفييتية وهي تقتحم طريقها في أراض لا حول لها ولا قوة.

وقد بعثت إلى الرئيس ترومان بالبرقية التالية وأرى أن يحكم القارئ عليّ وعلى آرائي، على ضوء ما ورد فيها:

"إنني أشعر بقلق عميق، من جراء الوضع في أوروبا، وقد علمت أن نصف القوة الجوية الأمريكية في أوروبا قد انسحب إلى مسرح العمليات بالمحيط الهادي، والصحف ملأى بأخبار تحركات الجيوش الأمريكية العظيمة خارجة من أوروبا، ومن المحتمل أن تمر جيوشنا وفقًا لترتيبات سابقة، في مرحلة مماثلة من التخفيض الواضح، وسينسحب الجيش الكندي، أما الجيش الفرنسي فضعيف، ومن الصعب التعامل معه، وفي وسع كل إنسان أن يرى أنه بعد وقت قصير جدًا، ستختفي قواتنا المسلحة من القارة الأوروبية، باستثناء قوات صغيرة سيحتفظ بها للسيطرة على ألمانيا.

ولقد سعيت دائمًا لتوثيق أواصر الصداقة مع روسيا، ولكنني أشعر، كما تشعر أنت، بالقلق العميق من سوء تصويرهم لقرارات يالتا ومن موقفهم تجاه بولندا، ومن نفوذهم الطاغي في البلقان كله باستثناء اليونان، ومن المشكلات التي يخلقونها في فيينا، ومن الدمج بين السيطرة الروسية، وبين البلاد التي تقع تحت احتلالهم أو إشرافهم، ومن الأساليب الشيوعية التي تتبع

في بلاد عدة، وفوق ذلك كله قدرتهم على الاحتفاظ بجيوش ضخمة على هذا النحو في الميدان إلى مثل هذا الأمد الطويل، ويجوز لي أن أتساءل: ماذا سيئول إليه الوضع بعد سنة أو سنتين عندما تذوب الجيوش البريطانية والأمريكية من القارة ولا تكون الجيوش الفرنسية قد نظمت أمرها بعد على نطاق واسع، فلا تبقى لنا سوى بعض فرق معظمها فرنسي، تواجه مائتين، أو ثلاثمائة فرقة آثرت روسيا الإبقاء عليها في الخدمة الفعلية؟..

إن ستارًا حديديًا يسدل الآن على الجبهة الروسية، فنحن نجهل ما يدور وراء هذا الستار، ولا يبدو أن هناك مجالاً للشك في أن جميع المناطق الواسعة إلى الشرق من خط لوبيك - تريستا - كورفر، ستصبح بعد قليل في أيدي الروس، ومن الواجب أن نضيف إلى هذه المنطقة المساحات الشاسعة التي احتلتها الجيوش الأمريكية بين ايزناخ ونهر الألب، والتي ستنسحب منها بعد أسابيع، لتأتي الجيوش الروسية فتحتلها بعد انسحاب الأمريكيين، ولذلك فإنه يجب على الجنرال ايزنهاور أن يتخذ أقصى ما يمكنه من الترتيبات للحيلولة دون فرار جماعي من جانب السكان الألمان في اتجاه الغرب عندما يشرع "الموسكويون" في هذا الزحف الضخم الجديد إلى أواسط أوروبا، وهكذا فإن الستار الحديدي سيعود ليسدل من جديد على مئات الأميال من الأراضي، وهكذا سيقوم حزام عريض يفصل بيننا وبين بولندا.

وفي هذه الأثناء سينحصر تفكير شعبينا في توقيع العقوبات على ألمانيا، التي تحطمت وتدمرت، وسيكون في وسع الروس بعد وقت قصير أن يتقدموا إذا شاءوا إلى مياه بحر الشمال والمحيط الأطلنطي.

وأرى لزامًا علينا، أن نصل فورًا إلى تفاهم مع روسيا، أو نجد لنا معها حلاً، وذلك قبل أن تضعف جيوشنا، أو تنسحب إلى مناطق الاحتلال المتفق عليها سابقًا، ولا يمكن أن يتم هذا إلا عن طريق اجتماع شخصي، وأكون جد ممتن لو بعثت إليّ برأيك ومشورتك.

وبالطبع يمكننا أن نفترض أن روسيا ستسلك سلوكًا منزهًا عن الخطأ، ومثل هذا السلوك سيضمن حتمًا أحسن الحلول المناسبة، وأود أن أختصر رسالتي فأقول: إن قضية تسوية الأمور مع روسيا، قبل أن نخفض قواتنا، هي من الأهمية بحيث تتضاءل أمامها جميع القضايا".

وفي الثاني والعشرين من مايو، أبرق إلي الرئيس يقول: "إنه قد أوفد المستر جوزيف ديفيز، ليقابلني قبل انعقاد المؤتمر الثلاثي، وليبحث معي بعض القضايا التي يؤثر عدم معالجتها عن طريق البرقيات.

وقد كان المستر ديفيز سفيرًا لأمريكا في موسكو قبل الحرب، وكان من المعروف عنه أنه من المؤيدين للنظام القائم، وأعددت الترتيبات لأستقبله فورًا، وقد قضى معي ليلة السادس والعشرين في تشيكرز، ودار بيننا حديث طويل، وكان أهم ما قاله أن على الرئيس أن يجتمع بستالين أولاً في مكان ما في أوروبا، قبل أن يجتمع إلي، وقد أدهشني هذا الاقتراح كل الدهشة حقًا، كما لم يكن تعبير "التكتل" الذي استخدمه الرئيس في رسائله السابقة قد أعجبني عندما كان يصف أي اجتماع أحب أن يعقده معي.

ولقد كانت بريطانيا والولايات المتحدة ترتبطان بوشائج من المبادئ والاتفاق على السياسات في نواح واتجاهات عدة، وكنا معًا على خلاف عميق مع السوفييت في العديد من القضايا المهمة، ولذا فإن عقد أي اجتماع بين الرئيس الأمريكي ورئيس الوزراء البريطانية للبحث والنقاش على ضوء هذه الأسس المشتركة، كما كان يجري دائمًا في أيام الرئيس روزفلت، لم يكن ليستحق تسمية شبيهة بهذه التسمية التي تطلق على "التكتل" لمقاصد الشر وتأليف العصابات، ومن الناحية الثانية، فإن تجاوز الرئيس الأمريكي لبريطانيا العظمى، واجتماعه برئيس الدولة السوفيتية التي كنا نحن والأمريكيون متحدين تجاهها - ولم يكن في وسعي تحت أي ظروف أن أوافق عليه - يمكن اعتباره إساءة مهما كانت غير مقصودة، وعارضت في مجرد

الفكرة القائلة بأن الخلافات القائمة هي بين بريطانيا وروسيا، وأكدت أن الولايات المتحدة يجب أن تكون معنية بهذه القضايا عنايتنا بها، وقد أوضحت هذه النقطة بجلاء للمستر ديفيز في حديثي معه، وتجنبًا لأي سوء فهم أو تفسير في هذا الموضوع، أعددت له وثيقة رسمية تضمنت وقائع الحديث الذي دار بيننا، وقد قرأ الرئيس هذه الوثيقة بروح من الود والتفاهم.

وكان الرئيس في الوقت الذي بعث إليّ فيه بالمستر ديفيز، قد بعث إلى موسكو المستر هاري هوبكنز كموفد خاص، ليقوم بمحاولة أخرى للوصول إلى حل عملي لمشكلة بولندا، وقد استقبل بحفاوة وترحيب بالغين. وتم لأول مرة بالفعل تحقيق بعض التقدم في طريق حل المشكلة، حيث وافق ستالين على دعوة ميكولاجيك واثنين من زملائه في لندن إلى موسكو للتشاور معهما، متمشيًا في ذلك مع اتفاقنا في يالتا، كما وافق أيضًا على دعوة عدد من البولنديين المهمين، من غير رجال حكومة لوبلين من داخل بولندا نفسها.

وقد بعث الرئيس ببرقية قال فيها، إنه يشعر بأن هذه الخطوة تعد مرحلة إيجابية مشجعة في المفاوضات، كما تبين أن معظم التهم الموجهة إلى الزعماء البولنديين المعتقلين هي حيازة أجهزة إرسال لاسلكية غير مشروعة وتشغيلها، وأخذ هوبكنز يواصل الضغط على ستالين لمنحهم العفو، حتى تدور المفاوضات في جو ودي ملائم، وقد طلب إلي أن أحث ميكولاجيك على قبول دعوة ستالين، فأقنعت ميكولاجيك بالذهاب إلى موسكو، وتم في النهاية تشكيل حكومة بولندية مؤقتة، وتم الاعتراف بها من قبل بريطانيا والولايات المتحدة في الخامس من شهر يونيو.

ولما كنا لا نزال اليوم أبعد من أي يوم مضى، عن القيام بأية محاولة حقيقية ونزيهة للحصول على إرادة الشعب البولندي عن طريق انتخابات حرة، وكانت لا تزال هناك بقية من أمل، في أن يؤدي اجتماع الكبار الثلاثة المنتظر الآن في كل لحظة إلى الوصول إلى تسوية كريمة.

ولما أبلغني الرئيس ترومان في الأول من شهر يونيو بأن المارشال ستالين موافق على عقد اجتماع لمن يسميهم "الثلاثة" على أن يتم في برلين حوالي الخامس عشر من يوليو، فقد أجبته فورًا باستعدادي للذهاب على رأس وفد بريطاني إلى برلين، ولكنني أكدت له أن الموعد الذي يقترحه متأخر جدًا بالنسبة للقضايا التي تتطلب سرعة البت، وقلت: أننا سنسيء إلى الآمال التي يعلقها العالم علينا، وإلى الوحدة العالمية، كما أبرقت أيضًا إلى الرئيس أقول:

إنه على الرغم من أنني أخوض معركة انتخابية حامية الوطيس، إلا أنني أرى أن واجباتي في المعركة يمكن أن تقارن بالمهام المترتبة على اجتماع نعقده ثلاثتنا، وإذا لم يكن الخامس عشر من يونيو مناسبًا، فلماذا لا نجتمع في اليوم الأول أو الثاني أو الثالث من يوليو، وقد رد على المستر ترومان يقول: أنه بعد دراسة الأوضاع كلها تبين له أن الخامس عشر من يوليو، هو أقرب موعد يستطيع أن يحضر فيه إلى الاجتماع، كما أن ستالين لم يكن راغبًا في عقد الاجتماع في موعد قريب.

وكان السبب الرئيسي الذي حداني للإسراع في الاجتماع، هو أن يقع قبل انسحاب الجيش الأمريكي من الخط الذي وصل إليه في القتال إلى المنطقة التي خصصت للاحتلال الأمريكي بموجب الاتفاق السابق، وكنت أخشى أن تتخذ واشنطن قرارًا بتسليم هذه المنطقة الهائلة التي تبلغ أربعمائة ميل طولاً ومائة وعشرين ميلاً عرضًا، وتضم عدة ملايين من الألمان والتشيكيين، وأن مجرد التخلي عن الأرض سيوسع الفجوة بيننا وبين بولندا، وسيقضي على كل سلطة أو قدرة لنا على تغيير مصيرها، فالموقف المتبدل الذي تقفه روسيا منا، والخرق المستمر للاتفاق الذي توصلنا إليه في يالتا، ومحاولة القفز على الدانمارك التي أحبطها مونتجمري لحسن الحظ في اللحظة الأخيرة، والزحف في النمسا، وضغط المارشال تيتو المصحوب بالتهديد في تريستا، كلها أمور بدت لي ولمستشاري أنها قد غيرت الأوضاع بالنسبة لتخطيط مناطق الاحتلال التي اتفقنا عليها قبل عامين، وأصبح من الواجب

البحث في جميع هذه القضايا ككل الآن، قبل أن تنسحب القوات البريطانية والأمريكية وقواتهما الجوية بفعل التسريح، ومطالب الحرب اليابانية الشديدة، كما أن الوقت صالح الآن لتسوية عامة.

وكنت أرى أن التخلي عن قلب ألمانيا كلها، بل قلب أوروبا وحجر الزاوية فيها، بمجرد عمل فردي من جانب واحد، قرار يعتبر على جانب كبير من الخطورة والارتجال، وإذا كان لابد من هذا التخلي فيجب أن يكون جزءًا من تسوية عامة ودائمة، وإلا فإننا سنذهب إلى بوتسدام وليست في أيدينا أوراق نساوم عليها، وبذلك تتعرض جميع آمال السلام في أوروبا للخطر، وكان كل ما في وسعي أن أفعله، هو أن أرجو الإسراع في موعد اجتماع الثلاثة، فإذا فشلت في ذلك، فإني أعمل على تأجيل الانسحاب إلى أن يتم بحث جميع المشكلات دفعة واحدة على أسس متكافئة.

ترى كيف أضحت الحالة بعد ثماني سنوات؟ لقد امتد خط الاحتلال الروسي في أوروبا من لوبيك إلى لينز، وأصبحت تشيكوسلوفاكيا كلها ضمن الإطار السوفييتي، كما أصبحت دول البلطيق وبولندا ورومانيا وبلغاريا دويلات تابعة يحكمها نظام شيوعي جماعي، وقد خرجت يوغوسلافيا على هذا النطاق، ولم نتمكن إلا من إنقاذ اليونان وحدها، وهكذا سمحنا في لحظة النصر باختفاء تلك الفرصة التي كانت خير فرصنا بل آخر فرصة لنا للوصول إلى سلام عالمي دائم، وقد أرسلت للرئيس في اليوم الرابع من يونيو البرقية التالية، التي أعتقد أن هناك اليوم من يستطيع مناقشتها أو عدم تأييدها، قلت فيها:

"أعتقد أنك مدرك السبب الذي يحملني على التلهف لعقد اجتماعنا الثلاثي في موعد مبكر، ولنقل أنه الثالث أو الرابع من يوليو، وإنني لأنظر نظرة متشائمة إلى احتمال انسحاب الجيش الأمريكي إلى خط الاحتلال في القطاع الأوسط، بحيث تتقدم القوة السوفييتية إلى قلب أوروبا الغربية، وبحيث

يسدل ستار حديدي بيننا وبين كل ما يقع إلى الشرق من أراضي، وكنت آمل أن أمثل هذا الانسحاب، إذا كان لابد منه يجب أن يصاحب تسوية الكثير من الأمور العظيمة التي يقوم على أساسها السلام العالمي، ولم تتم حتى الآن تسوية أي شيء مهم، وأرى أنني وإياك نتحمل المسئولية الكبرى بالنسبة إلى المستقبل، ولذا فما زلت آمل في تقديم موعد الاجتماع".

وقد رد عليّ المستر ترومان في الثاني عشر من يونيو يقول: إن الاتفاق الثلاثي المتعلق باحتلال ألمانيا والذي أقره الرئيس روزفلت بعد مشاورات تفصيلية ودرس طويل معي، يجعل من المستحيل تأجيل انسحاب القوات الأمريكية من المنطقة السوفيتية حتى تتم تسوية المشكلات الأخرى، وليس في إمكان مجلس إشراف الحلفاء أن يبدأ عمله إلا بعد إتمام هذا الانسحاب، كما أن الحكم العسكري الذي يباشره القائد الأعلى للحلفاء يجب أن ينتهي دون تأخير، وأن توزع مسئولياته بين أيزنهاور ومونتجمري، وأضاف الرئيس يقول: أن مستشاريه قد أفهموه بأن تأجيل الانسحاب إلى ما بعد يوليو، سيضر بعلاقات أمريكا مع السوفييت، ولذلك فهو يقترح إرسال رسالة إلى ستالين، كما اقترح أن نصدر الأمر فورًا إلى جيوشنا بالانسحاب إلى مناطق احتلالها المقررة.

وكان الرئيس على استعداد لإصدار أمره إلى القوات الأمريكية للبدء في الانسحاب من ألمانيا في الحادي والعشرين من يونيو، وأن يعد القادة العسكريون الترتيبات اللازمة لاحتلال المناطق المعينة لهم في برلين، وأن يؤمنوا حرية الاتصال عن طريق السكة الحديد والطرق العادية والجوية من فرانكفورت وبريمن بالنسبة للقوات الأمريكية، كما أنه في الإمكان استكمال الترتيبات في النمسا بصورة أسرع وأكثر سهولة، وذلك بجعل القادة المحليين مسئولين عن تحديد مناطق احتلالهم في البلاد وفي العاصمة، وألا يعودوا إلى حكوماتهم إلا في القضايا التي يعجزون هم عن حلها.

وكانت هذه الرسالة بمثابة نذير شر مستطير لي، ولكن لم يكن في وسعي غير الإذعان.

ويجب ألا ننسى أن المستر ترومان لم يكن له شأن ولم يستشر في خطة تحديد مناطق الاحتلال الأصلية، وكانت القضية بالنسبة إليه بعد تسلمه مدة الرياسة هي هل يجوز له أن ينقض سياسة اتفقت عليها الحكومتان البريطانية والأمريكية في عهد سلفه العظيم؟ وليس لدى شك في أن مستشاريه السياسيين والعسكريين قد أيده في موقفه، وكانت مسئوليته في هذه اللحظة محصورة في أن يقرر ما إذا كانت الأوضاع قد تبدلت بصورة جذرية بحيث يتطلب تبدلها إجراء مغاير كل التغيير يمكن أن يتهم بنقض العهود والمواثيق.

وقد بدأت الجيوش البريطانية والأمريكية في اليوم الأول من شهر يوليو، انسحابها إلى المناطق المخصصة لها، تتبعها جموع حاشدة من اللاجئين الألمان، وبذلك ثبتت روسيا السوفييتية أقدامها في قلب أوروبا، وكان هذا أسوأ تاريخ في مستقبل الجنس البشري.

وبينما كانت جميع هذه الأمور تسير على قدم وساق، كنت مشغولاً إلى قمة رأسي في المعركة الانتخابية التي اشتد وطيسها في الأسبوع الأول من يونيو، وكان هذا الشهر والحالة هذه، من أقسى الفترات التي مرت علي، حيث بدأت الرحلات المجهدة بالسيارة إلى مدن إنجلترا واسكتلندا الكبيرة، مع إلقاء ثلاث خطب أو أربع كل يوم على جماهير كبيرة يبدو عليها الحماس، وإعداد أربع إذاعات حسنة الصيغة والإقناع مما كانت تستنزف كل وقتي وقوتي، وكنت أشعر طيلة الوقت أن ما حاربنا من أجله في أوروبا قد بدأ ينهار، كما أن الآمال في حلول سليمة دائمة ومبكرة، أخذت تنطوي، وكنت أقضي الأيام في وسط الجماهير الصاخبة، وعندما آوي في الليل إلى القطار الذي جعلت منه مركز قيادتي، كان ينتظرني عدد لا بأس به من

الموظفين وسيل لا ينقطع من البرقيات، فاضطر إلى قضاء ساعات طويلة أخرى في أعمال شاقة.

وقد سررت أخيرًا بحلول يوم الاقتراع، حيث تم إغلاق الصناديق وختمها بعد الانتهاء من الاقتراع، وقد وضعت في أماكن أمينة، لكي تفتح بعد ثلاثة أسابيع، بعد جمع الصناديق من جميع أنحاء العالم التي توجد بها قواتنا.

ولهذا فقد قررت أن أقضي أسبوعًا أستمتع فيه بالراحة ودفء الشمس وحرارتها قبل موعد المؤتمر، فسافرت إلى بوردو مع زوجتي وابنتي ماري، ونزلت في فيلا جميلة وضعها تحت تصرفي الجنرال بروتينيل في "هنداي" على مقربة من الحدود الإسبانية، وكنت أقضي معظم ساعات الصباح كل يوم في قراءة قصة رائعة لكاتب فرنسي عن تاريخ هدنة بوردو، ووهران المحزنة، ومن الغريب أنني استعدت ذكرياتي عن سنوات خمس سابقة، وقد تعلمت من هذه القصة أشياء كثيرة لم أكن أعرفها في حينها، كما كنت أخرج بعد الظهر ومعي لوحاتي وأدوات الرسم إلى بعض الأماكن الجذابة على نهر نيف وخليج سان جان دي لوز فأصورها.

وقد اقتصر عملي الرسمي في هذه الفترة على تصريف بعض البرقيات التي تتناول مؤتمرنا المقبل، وقد حاولت ما وسعني من جهد في أن أبعد الخلافات الحزبية عن تفكيري، ومع ذلك يجب أن أعترف أن سر صناديق الاقتراع وما تضمه، كان يطغى على تفكيري، وما كنت لأستطيع إبعاد هذه الأفكار عني، إلا عندما أعد لوحتي وأبدأ الرسم.

وقد اختفى بنا أهل الباسك، احتفاء رائعًا، فلقد عانوا فترة طويلة من الاحتلال الألماني، وكانوا سعداء باستنشاق نسيم الحرية من جديد، ولم أكن في حاجة إلى إعداد أي شيء للمؤتمر، فقد كنت أحمل في رأسي كل شيء، ولما كان الرئيس ترومان قد أبحر على ظهر الطراد الأمريكي أوغسطا، وهو الطراد الذي استقله الرئيس روزفلت عند مجيئه لاجتماعنا في

الأطلنطي عام ١٩٤١، فقد أخذت السيارة في الخامس عشر من يوليو إلى مطار بوردو، حيث أقلتني طائرتي "سيدة الأجواء" إلى برلين.

القنبلة الذرية

وصل الرئيس ترومان إلى برلين في اليوم الذي وصلت فيه إليها، وقد كنت متلهفاً للتعرف عليه، وكانت علاقاتي الودية معه على الرغم من بعض الخلافات، قد أقيمت عن طريق المراسلة، فقمت بزيارته في صباح اليوم التالي لوصولنا، وقد تأثرت بما يبدو عليه من إشراق ودقة في الحديث، وقدرة على الحسم في المواقف.

وقد قام كل منا منفرداً بجولات في المدينة، في اليوم التالي لوصولنا، ولم تكن المدينة إلا حطاماً من الخرائب، ولم يكن قد صدر بيان عن زيارتنا، ولذلك فقد كانت الشوارع خالية إلا من المارة العاديين، إلا أنني رأيت حشداً من الناس في الساحة الواقعة أمام دار المستشارية، وعندما نزلت من السيارة ومشيت بين هؤلاء الناس، هتف لي الجميع، باستثناء رجل عجوز واحد، هز رأسه هزة تنطوي على عدم الموافقة، وكانت كراهيتي لهم قد زالت باستسلام ألمانيا، وقد تاثرت تأثراً بالغاً بمرآهم، وبما يبدو على وجوههم من إنهاك وتعب، وعلى أجسامهم من ملابس رثة مهلهلة، ودخلنا دار المستشارية، وقضينا وقتاً طويلاً نجوب أبهاءها وقاعاتها المحطمة، كما رأينا الملجأ الذي أعده هتلر لنفسه للاحتماء فيه من الغارات الجوية.. كما رأينا الغرفة التي انتحر فيها هو وزوجته.

وكان المسلك الذي اتبعه هتلر، أكثر ملاءمة لنا من المسلك الذي كنت أخشى أن يتبعه، فقد كان في وسعه في أي وقت من الأشهر الأخيرة من الحرب أن يطير إلى إنجلترا وأن يسلم نفسه قائلاً: "افعلوا بي ما تشاءون، ولكن اتركوا شعبي الذي لم يكن له حول أو طول". ولا ريب عندي في أنه في مثل هذه الحالة كان سيشترك مع مجرمي نورمبرج في مصيرهم، لأن المبادئ

الخلقية للحضارة الحديثة تقضي بأن يعدم المنتصرون قادة الدول المنهارة في الحرب، ولا ريب في أن مثل هذه المبادئ ستدفع القادة في أي حرب مقبلة إلى *المضي في القتال إلى النهاية*، فهما ضحوا بأرواحد جديدة فإن مصيرهم واحد، وفي مثل هذه الحالة فإن جماهير الشعب التي لا شأن لها في شن الحروب أو إنهائها هي التي تدفع الثمن الإضافي.

أما الرومان فقد كانوا يتبعون سبيلاً مغايرًا، ولا شك في أن الفضل في انتصاراتهم يعود إلى ما تميزوا به من رأفة بقدر ما تميزوا به من قوة، وفي السابع عشر من يوليو، وصلت أنباء هزت العالم بأسره، فقد قام ستمسون بعد ظهر ذلك اليوم بزيارة مسكني، وبسط أمامي ورقة كتب عليها "ولد الطفل بصورة مرضية" وتبينت من حديثه أن شيئًا بارزًا قد وقع، واستمر يقول: "إن هذه الجملة تعني أن التجربة التي أجريت في صحراء المكسيك قد نجحت، وأن القنبلة الذرية أصبحت أمرًا واقعًا"، وعلى الرغم من أننا كنا نتابع هذا البحث مما يصل إلينا من أنباء متفرقة، إلا أنني لم أعرف من قبل على الأقل بموعد التجربة الحاسمة، كما أنه لم يكن في وسع أي عالم مسئول أن يتكهن بما قد يقع عندما تجري تجربة أول تفجير ذري، هل هي عديمة الجدوى أو أنها مبيدة وقاتلة؟

لقد عرفنا الآن أنه قد تمت "ولادة الأطفال" بشكل مرض، لكن ليس في وسع أي إنسان حتى الآن تقدير النتائج العسكرية الفورية لهذا الاكتشاف، كا لم يقم أي إنسان حتى الآن بتقدير أي شيء عنها.

ووصلت في الصباح التالي، طائرة تحمل وصفًا كاملاً لهذا الحدث العظيم، في التاريخ البشري، وجاء ستمسون بالتقرير إليّ، وأنني أشرح الآن القصة كما أتذكرها.

فقد فجرت القنبلة أو ما يعادلها على قمة "بيلون" ـ عمارة فرعونية ارتفاعها مائة قدم ـ وقد أخليت منطقة دائرة نصف قطرها عشرة أميال من

كل إنسان، ووقف العلماء ومساعدوهم وراء دروع ضخمة من الأسمنت المسلح، وملاجئ تبعد نحواً من هذه المسافة، وكان الانفجار مروعاً، فقد ارتفع عمود هائل من اللهب والدخان إلى مقربة من حدود المنطقة الجوية التي تحيط بأرضنا المسكينة، وكان التخريب داخل دائرة قطرها ميل واحد كامل، وهكذا بدت النهاية السريعة للحرب الكونية ولأشياء أخرى أيضًا.

وقد دعاني الرئيس للتشاور معه بعد ذلك، وكان معه الجنرال مارشال والأميرال ليهي، وكنا قد وضعنا خططنا بالنسبة لليابان، على أساس مهاجمة جزرها الأصلية بقصف جوي مرعب، وبغزو تقوم به جيوش هائلة، وكنا نتوقع مقاومة شديدة من اليابانيين الذين يقاتلون حتى الموت، بتكريس رجال الساموراي، لا في المعارك الحربية الضخمة فحسب، بل في كل كهف وحفرة أيضًا، وتصورت منظر جزيرة أوكيناوا حيث آثر عدة ألوف من اليابانيين بدلاً من الاستسلام، أن يقفوا في صف واحد، وأن يقضوا على أنفسهم بالقنابل اليدوية بعد أن كان قادتهم قد أتموا طقوس الانتحار المعروفة بالهاراكيري.

ويعني القضاء على المقاومة اليابانية رجلاً رجلاص واحتلال بلادهم شبرًا شبرًا، ضياع مليون أمريكي ونصف هذا العدد من البريطانيين أو أكثر منه، هذا إذا تمكنا من إيصال هذه القوات إلى بلادهم، أما الآن فقد اختفى هذا الكابوس المرعب، وطلعت أمامنا صورة بدت لنا جميلة ومشرقة، وهي أن تنتهي الحرب كلها بهزة أو بهزتين عنيفتين، وفكرت لتوي، كيف يمكن لهذا الشعب الياباني الذي كنت دائم الإعجاب بشجاعته، أن يرى في هذا الطيف من السلاح الغيبي أو فوق الطبيعي، ذريعة تحفظ له شرفه وتحرره من التزاماته بالموت حتى آخر رجل محارب.

وكان هناك شيء أهم، وهو أن لن نحتاج إلى الروس، إذ أن نهاية الحرب مع اليابان لم تعد تعتمد على تدفق جيوشهم، لتوجيه الضربة الأخيرة والحاسمة، ولم نعد في حاجة إلى أن نطلب منهم منة أو فضلاً، وأصبح في

وسعنا أن نواجه مشكلات أوروبا على حقيقتها، ووفقًا لمبادئ الأمم المتحدة الواسعة، وبدا أننا أصبحنا فجأة واقعين تحت سيطرة رغبة رحيمة في اختصار المذابح في الشرق، وأمل أكثر إشراقًا وسعادة في أوروبا، وعلى أي حال، لم يكن هناك ما نضيعه في النقاش، في هل تستعمل القنبلة الذرية أو لا تستعمل؟ واتضح لنا أن تجنب مذبحة هائلة لا حدود لها، وأن الوصول بالحرب إلى نهاية، وبالعالم إلى السلام، وأن مد يد الرحمة إلى شعوبه المعذبة عن طريق غرض لقوة طاغية، لا تكلف إلا بعض انفجارات، كلها أمور جاءت بعد هذه الأخطار والمتاعب، كمعجزة من معجزات الإنقاذ.

وكانت موافقة بريطانيا المبدئية على استعمال هذا السلاح، قد صدرت في الرابع من شهر يوليو أي قبل إجراء التجربة، أما القرار النهائي فقد أصبح الآن بين يدي الرئيس ترومان، الذي يملك السلاح، ولم يداخلني الشك قط فيما سيكون عليه هذا القرار، وفي أنه كان على حق في اتخاذه، لكن الحقيقة التاريخية تظل قائمة، ويجب الحكم على ضوئها في مستقبل الأيام، وهي أن القرار الذي اتخذ باستخدام القنبلة الذرية لإرغام اليابان على الاستسلام، لم يكن في يوم ما مصدر خلاف، حيث كان هناك اتفاق إجماعي وأتوماتيكي ودون حاجة إلى سؤال أو نقاش حول المائدة التي كنا نجلس عليها. ولم أسمع أي اعتراض من أية جهة، على أن الواجب يحتم علينا عدم استعمالها.

وكان السؤال الدقيق المعقد، هو ماذا سنقول لستالين، بعد أن أصبحنا في غير حاجة إلى مساعداته في إخضاع اليابان، وكان ستالين قد تعهد في مؤتمري طهران ويالتا، بأن تهاجم روسيا السوفييتية اليابان فور هزيمة الجيش الألماني، وتحقيقًا لهذا الوعد، بدأت منذ أوائل مايو، حركة نقل واسعة ومستمرة للقوات السوفييتية إلى الشرق الأقصى على سكة حديد سيبريا، ورأينا الآن أنا لسنا في حاجة إلى هذه القوات، وبذلك يكون ستالين قد فقد قوة المساومة، التي كان قد استخدمها بنجاح مع الأمريكيين في يالتا، إلا أنه

كان على كل حال حليفاً عظيمًا في الحرب ضد هتلر، وقد شعرت في هذه اللحظة أن من الواجب إبلاغه (الحقيقة الجديدة العظيمة) التي أصبحت تسيطر على الموقف دون أن نعطي له التفاصيل، ولكن كيف ننقل إليه هذا النبأ؟ أيكون النقل كتابة أو شفويًا؟ وهل سيكون الإبلاغ في جلسة رسمية أو خاصة أو في أثناء اجتماعاتنا اليومية أو بعدها؟ وقد اختار الرئيس أخيرًا الوسيلة، فقال أعتقد أن من الخير أن أبلغه النبأ بعد اجتماعاتنا، وأن أقول له أننا توصلنا إلى اختراع طراز جديد من القنابل يختلف عن النوع المألوف، وسيكون ذا أثر حاسم في عدم استمرار اليابانيين في الحرب، وقد وافقت الرئيس على هذا الإجراء.

كما استمرت في هذه الأثناء الهجمات المدمرة على اليابان من الجو والبحر، ولم تحل نهاية شهر يوليو، حتى كان الأسطول الياباني قد اختفى من الوجود تقريبًا، كما سيطرت الفوضى على الوطن، وأخذ الديبلوماسيون المحترفون يميلون إلى الاقتناع بأن الطريقة الوحيدة لإنقاذ اليابان من التفكك الكلي، هي أن يصدر الإمبراطور أمره فورًا بالاستسلام، ولكن السلطة كانت لا تزال في أيدي زمرة من العسكريين الذين صمموا على أن يقودوا البلاد كلها إلى الانتحار الجماعي، بدلاً من قبول الهزيمة، ولم يرهب الدمار الرهيب الذي يواجههم، هذه الزمرة الحاكمة المتعصبة، التي ما فتئت تؤمن بمعجزة من نوع ما، تقلب الوضع إلى صالحهم.

هذا، وقد بحثت مع الرئيس في محادثات طويلة عدة على انفراد أو مع بعض مستشاريه، ما يجب أن نفعله، وأشرت إلى الثمن الباهظ في أرواح الأمريكيين وفي أرواح البريطانيين أيضًا، إذا ما فرضنا على اليابان "الاستسلام بلا قيد ولا شرط" وتركت للرئيس أن يقرر، ما يضمن لنا الحصول على كل ما نراه ضروريًا للسلام والأمن في المستقبل، ويترك لليابانيين في الوقت نفسه بعض المظاهر للحفاظ على كرامتهم العسكرية،

مع التأكيد لهم بوجودهم القومي إذا ما قاموا بتنفيذ جميع الضمانات التي يطلبها المنتصرون، وقد رد الرئيس عليّ باشمئزاز قائلاً:

إنه يعتقد في وجود أي شرف عسكري لليابانيين بعد هجوم ميناء اللؤلؤ "بيرل هاربور".

وقد تقرر أخيرًا أن نوجه إنذارًا نهائيًا إلى اليابان، نطلب فيه استسلام قواتها العسكرية بلا قيد ولا شرط فورًا، ونشرنا هذه الوثيقة في السادس والعشرين من يوليو، ولما رفض حكام اليابان العسكريون هذا الإنذار، أعد سلاح الجو الأمريكي خططه تبعًا لذلك، لإلقاء قنبلة ذرية على هيروشيما، وأخرى على نجازاكي، واتفقنا على أن نعطي للأهلين كل فرصة ممكنة، وتم وضع الإجراء بالتفصيل وللتقليل إلى أكبر حد ممكن من الخسائر في الأرواح، قامت الطائرات الأمريكية في السابع والعشرين من شهر يوليو، بإلقاء نشرات على إحدى عشرة مدينة يابانية، تحذرها فيها أنها سوف تتعرض لقصف جوي هائل، وهوجمت ست من هذه المدن في اليوم التالي، كما حذرت الطائرات اثنتى عشرة مدينة أخرى في اليوم الحادي والثلاثين من يوليو، وقصفت منها في اليوم الأول من أغسطس، ووجه الإنذار الأخير في الخامس من شهر أغسطس.

وفي اليوم السادس من أغسطس ألقيت القنبلة الذرية الأولى على هيروشيما، كما ألقيت في اليوم التاسع من أغسطس القنبلة الذرية الثانية على مدينة ناجازاكي، وفي اليوم التاي وافقت الحكومة اليابانية - على الرغم من فتنة قام بها بعض العسكريين المتطرفين - على قبول الإنذار، على شرط ألا يؤثر ذلك على سلطات الإمبراطور كحاكم مطلق، فدخلت أساطيل الحلفاء خليج طوكيو، وتم في اليوم الثاني من سبتمبر توقيع وثيقة الاستسلام الرسمية على ظهر البارجة الأمريكية "ميسوري"، وكانت روسيا قد أعلنت الحرب على

اليابان في الثامن شهر أغسطس أي قبل أسبوع واحد من انهيارها، ومع ذلك طالبت بجميع حقوق الدولة المحاربة.

ومن الخطأ الافتراض بأن القنبلة الذرية، هي التي قررت مصير اليابان، فقد كان المصير المحتوم بالهزيمة ينتظرها، قبل إلقائها، وقد فرضت هذا المصير قوة الحلفاء البحرية المتفوقة التي مكنت الحلفاء في الوقت نفسه من احتلال القواعد البحرية في المحيط، لتشن منها الهجوم النهائي، ولترغم الجيش الياباني في الوطن على الاستسلام، دون أن توجه إليه أية ضربة، فقد تحطمت بحرية اليابان، حيث دخلت الحرب وهي تملك أسطولاً من البواخر تزيد حمولته على خمسة ملايين ونصف مليون من الأطنان، ثم زاد هذا الرقم من البواخر التي استولت عليها أو بنتها، ولكن نظام القوافل والحراسة الذي وضعته كان غير كاف، وكان مفتقرًا إلى التنظيم، وقد تم إغراق بواخر يابانية تزيد حمولتها على ثمانية ملايين ونصف مليون من الأطنان، ذهب منها نحو خمسة ملايين ضحية للغواصات.

ولما كانت خيبة الأمل، هي الطابع الذي تميز به مؤتمرنا الثلاثي الأخير، فلن أحاول أن أشرح جميع القضايا التي أثيرت في مختلف الجلسات وإن كانت لم تسو ولم تحل، وسأكتفي بالحديث عما أعرفه بخصوص القنبلة الذرية، وبتخطيط قضية الحدود الألمانية ـ البولندية، لأن هذه الأحداث لا زالت تعيش معنا حتى الآن.

فقد تم الاتفاق بيننا في مؤتمر يالتا، على أن تتقدم روسيا بحدودها الغربية مع بولندا إلى خط كرزون، كما كنا قد اعترفنا دائمًا لبولندا في حقها بدورها في الحصول على تعويضات مناسبة من الأرض الألمانية، وكان السؤال هو إلى أي مدى؟ وإلى أية مسافة في ألمانيا يجب أن تمضي بولندا في توسيع حدودها؟ فقد اختلفنا حول ذلك أكبر اختلاف، وكان ستالين قد أراد توسيع حدود بولندا الغربية على طول نهر الأودر حتى نقطة التقائه بنهر

النيبسي الغربي، وكان رؤساء الحكومات الثلاث، قد تعهدوا علنًا في يالتا، باستشارة الحكومة البولندية، ويترك الموضوع للتقرير النهائي في مؤتمر الصلح، وكان هذا خير ما استطعنا عمله، ولكننا واجهنا في يوليو عام ١٩٤٥ وضعًا جديدًا، فقد وسعت روسيا حدودها إلى خط كرزون، وكان هذا يعني كما أدركت أنا وروزفلت، أن الملايين الثلاثة أو الأربعة من البولنديين الذين يعيشون على الجانب الثاني من الخط، يجب أن ينزحوا إلى الغرب، وواجهنا الآن أمرًا أسوأ من هذا، فقد وسعت حكومة بولندا التي يسيطر عليها السوفييت حدودها لا إلى النيسي الشرقي بل إلى الغربي أيضًا، ويسكن الألمان معظم هذه المنطقة، وعلى الرغم من أن عدة ملايين قد فروا غربًا، إلا أن عددًا كبيرًا قد ظل في مكانه، فماذا سنصنع بهؤلاء؟ كما أن نقل أربعة ملايين بولندي أمر سيئ في حد ذاته، فهل يتحتم علينا أن ننقل ثمانية ملايين ألماني أو أكثر أيضًا؟ وحتى لو أمكننا تحقيق ذلك، فليس هناك ما يكفيهم من الطعام في الأقسام المتبقية من ألمانيا لأن معظم القمح الذي تنتجه ألمانيا في الأراضي التي أخذها البولنديون، وإذا حرمنا هذا القمح، فإننا معشر الحلفاء الغربيين سنظل مسيطرين على مناطق صناعية خربة، وشعب متضخم جائع، وهنا يكمن خطر بالنسبة لسلام أوروبا في المستقبل أكبر من الخطأ الذي تمثله الألزاس واللورين، أو ممر دانزيج، وسيأتي يوم يطالب فيه الألمان باسترداد أراضيهم، ولن يكون في وسع البولنديين أن يحولوا بينهم وبين استعادتها.

والآن يجب على أن أتحدث عن الاتصالات الشخصية والاجتماعية التي خففت شيئًا من حدة مناقشاتنا الجدية، وكان على كل وفد من الوفود الكبيرة أن يقيم الولائم للوفدين الآخرين، وقد وقع الدور على الولايات المتحدة أولاً، وعندما جاء دوري، اقترحت أن نشرب نخب "زعيم المعارضة المقبل أيًا كان الزعيم" وقد سر المستر أتلي الذي كنت قد دعوته إلى المؤتمر، تطبيقًا لنظريتي في أن من واجب رئيس كل حكومة في أوقات الأزمات أن يعد نائبًا له

يعرف كل شيء، ويستطيع أن يحافظ على الاستمرار في حالة وقوع أحداث، كما كان العشاء السوفييتي رائعًا أيضًا واشتمل على حفلة موسيقية عزف فيها كبار الفنانين الروس، وقد استمرت الحفلة إلى ساعة متأخرة من الليل، حتى أنني اضطررت إلى التسلل والذهاب.

وعندما انتهى اجتماعنا الرسمي في اليوم التالي، أي في الرابع والعشرين من يوليو، ونهضنا جميعًا، رأيت الرئيس يتجه إلى ستالين فيقف بجانبه، ويأخذ الرجلان في حديث وليس معهما إلى المترجمان، وكنت واقفًا على بعد خمسة ياردات تقريبًا، حيث كنت أرقب باهتمام بالغ الحديث الخطير التاريخي، لأني كنت أعرف ما اعتزم الرئيس أن يقوله وكان يهمني أن أعرف مدى تأثير قوله على ستالين، وإني لأرى الصورة أمامي الآن وكأنها وقعت بالأمس لقد بدا عليه السرور، وقال: قنبلة جديدة! لها قوة خارقة! قد تكون حاسمة في تقرير الحرب كلها مع اليابان! يا له من حظ سعيد! كانت هذه الانطباعات التي حملتها تلك الساعة، وكنت على ثقة من أنه لم يقدر تمامًا أهمية ما قيل له، وبدا لي أن القنبلة الذرية لم تلعب دورًا في متاعبه وجهوده، ولو كانت لديه أي «فكرة ولو ضيلة، عن الثورة التي تحدث الآن في الشئون العالمية بسبب هذا الاختراع لكان رد فعله مغايرًا تمامًا، ولم يكن أسهل عليه من أن يقول "شكرًا لك على إبلاغك إياي نبأ قنبلتك الجديدة، وبالطبع أنا أعرف شيئًا عن الحقائق المتعلقة بها، فهل تسمح لي بأن أبعث بخبرائي في العلوم النووية لمقابلة خبرائك في صباح غد؟"، ولكن وجهه ظل مرحًا وطبيعيًا، ولما انتهى الحديث بين الزعيمين، استفهمت من الرئيس، عن كيفية سير الأمور، فرد علي بقوله: إن ستالين لم يوجه إليه أي سؤال.

وعاد المؤتمر للاجتماع في اليوم الخامس والعشرين من يوليو، وكان هذا آخر اجتماع حضرته، وقد أثرت من جديد موضوع بولندا، وقلت أن حدودها الغربية لا يمكن أن تقرر دون أن نأخذ بعين الاعتبار مشكلة المليون وربع المليون من الألمانيين الذين يعيشون في المنطقة. وهنا أكد الرئيس بأن أية

معاهدة للصلح لا يمكن أن تبرم دون موافقة مجلس الشيوخ الأمريكي ومشورته، وعلينا إذن أن نجد حلاً، يستطيع أن يوصي به معتذرًا للشعب الأمريكي، فقلت إننا إذا سمحنا لبولندا بأن تكون دولة الاحتلال الخامسة دون أن تتخذ الترتيبات لتوزيع المواد الغذائية، التي تنتج في ألمانيا بصورة عادلة على الشعب الألماني كله، ودون أن نتفق على التعويضات وغنائم الحرب، فإن مؤتمرنا يكون فاشلاً، لأن جذور المشكلات لا تزال قائمة أمامنا، ولم نصل حتى الآن إلى اتفاق بشأنها، فقال ستالين: إن الحصول على الفحم والمعادن من الروهر أهم بكثير من المواد الغذائية، وقلت إن هذه المعادن يجب أن تتم مقايضتها بالمؤن من المنطقة الشرقية، وإلا فإن المعدنيين لن يستطيعوا استخراج الفحم والمعادن. وكان رد ستالين: إنهم قد ألغوا في الماضي استيراد المواد الغذائية من الخارج وفي وسعهم أن يواصلوا استيرادها، فسألته: إذن كيف يمكن لهم أن يدفعوا التعويضات؟ فرد قائلاً: "ما زال هناك شحم كثير على جسم ألمانيا". ورفضت أن أقبل فكرة المجاعة في الروهر لأن البولنديين يريدون الاحتفاظ بجميع المناطق التي تنتج القمح في الشرق، وقلت إن بريطانيا نفسها تفتقر إلى الفحم. فقال ستالين: "إذن فليشتغل الأسرى الألمان في مناجمكم، إن هذا ما أفعله أنا الآن". وأضاف قائلاً: وما زال هناك أربعون ألف ألماني في النرويج وفي وسعك أن تأخذهم من هناك، وقلت: إننا نصدر الفحم الذي نحتاج إليه إلى فرنسا وهولندا وبلجيكا، فلماذا يبيع البولنديون الفحم إلى السويد في حين تحرم بريطانيا نفسها الشيء الذي تحتاج إليه لمساعدة البلاد المتحررة؟.. فرد ستالين قائلاً: ولكنها تبيع الفحم الروسي وما زال موقفنا أصعب من موقفكم، فقد خسرنا أكثر من خمسة ملايين رجل في الحرب، ونحن في أشد الحاجة إلى الأيدي العاملة، وعدت إلى نقطتي أثيرها من جديد، سنرسل الفحم من الروهر إلى بولندا أو إلى مكان آخر، بشرط أن نحصل بدلاً منه على المواد الغذائية لعمال المناجم الذين ينتجون الفحم".

وهنا توقف ستالين لحظة ليفكر، وقال: إن القضية كلها تحتاج إلى المزيد من الدرس، فوافقته على ذلك، وقلت إنني لا أريد إلا الإشارة إلى المتاعب التي نواجهها، وهذا بالنسبة إلى هو كل ما يهمني.

وبما أنه لا يمكنني أن أتحمل مسئولية تتجاوز النتائج التي توصلنا إليها في مؤتمر بوتسدام، فقد أثرت في المؤتمر جميع النقاط التي لم نتفق عليها وتركتها معلقة، وهكذا فقد تكدست مجموعة ضخمة من القضايا التي لم نصل إلى اتفاق بصددها، وكنت أعتزم إذا ظهرت نتائج الانتخابات في بلادنا في صالحنا، وعدت إلى الحكم، كما كان متوقعًا، أن أشتبك مع السوفييت في حطام مكشوف لتقرير هذه القضايا، فما كنت لأقبل قط، وما كان للمستر إيدن أن يقبل أيضًا، أن يكون نهر النييسي الغربي حدًا لبولندا، وكنا قد قبلنا بخط الأودر والنييسي الشرقي كتعويض على بولندا مقابل انسحابها إلى خط كرزون، ولكن ما كان لأية حكومة أرأسها، أن تقبل احتياج الجيوش الروسية لجميع المناطق الممتدة حتى النييسي الغربي وإلى ما وراءه أيضًا، ولم تكن القضية تتعلق بالمبدأ فحسب، وإنما كانت تتناول حقيقة هائلة، تؤثر على نحو ثلاثة ملايين آخرين من المشردين الذين سيجلون عن بيوتهم.

وكانت هناك قضايا أخرى، وكان لزامًا علينا أن نصمد بسببها أمام الروس وأمام البولنديين الذين بدوا وكأنهم بعد أن ابتلعوا هذه القطع الكبيرة من الأرض الألمانية قد أصبحوا أشد أنصار السوفييت، ولكن نتائج الانتخابات العامة، قد أدت إلى تجزئة المفاوضات كلها، وإلى وصولها إلى نتائج سابقة لأوانها، وأنا لا أقول هذا لأنحى باللائمة على وزراء الحكومة الاشتراكية التي خلفتنا، والذي أقحموا في المفاوضات دون دراسة جدية سابقة، كما لم يكونوا على اطلاع على آرائي وخططي، بحيث يشتبكون في نزاع في نهاية الأمر، ويحكمون عليه بالفشل إذا اقتضى الأمر، بدلاً من السماح بتجاوز

نهري الأودور والنييسي الشرقي، وإعطاء الأراضي الواقعة وراءهما إلى بولندا، وكان في الإمكان إصلاح الوضع حتى في مؤتمر بوتسدام.

ولكن تحطيم الحكومة القومية البريطانية واختفائي عن المسرح في ذلك الوقت الذي كنت لا أزال أتمتع فيه بنفوذ عظيم وقوة كبيرة، قد جعلا من المستحيل الوصول إلى حلول مرضية.

ولو كانت الظروف عادية، لشعرت بالحرية في أن أقضى بضعة أيام في استكمال القضايا الرسمية بالطريقة المألوفة، وكان في وسعي من الناحية الدستورية، أن أنتظر انعقاد البرلان بعد بضعة أيام، وأن أودع المجلس الجديد، وكان في وسعي عن طريق مثل هذا الترتيب أن أتقدم إلى المجلس وإلى الشعب قبل الاستقالة حاملاً خبر استسلام اليابان، ولكن الحاجة إلى تمثيل بريطانيا فورًا تمثيلاً قويًا يستند إلى صلاحيات صحيحة في المؤتمر الذي غادرناه، والذي كانت القضايا الكبرى التي بحثناها فيه ما زالت معلقة أمامه، جعلت كل تأجيل في الاستقالة، يتنافى مع المصلحة العامة، وقد كان حكم الناخبين من الناحية الأخرى مبرمًا ومعبرًا بشكل طاغ، مما جعلني غير راغب في البقاء ساعة أخرى مسئولاً عن تصريف شئونهم، فطلبت التشرف بالمقابلة الملكية، وتوجهت في الساعة السابعة إلى القصر، حيث رفعت استقالتي إلى الملك، وأشرت على جلالته بأن يعهد بالحكم إلى المستر أتلي، ووجهت إلى الأمة الرسالة التالية التي أرى أن أختم بها هذا الكتاب:

٢٦ يوليو ١٩٤٥

"لقد سجل الشعب البريطاني قراره في الأحداث التي جمعها اليوم، ولهذا فقد أزاح عن عاتقي المسئولية التي اضطلعت بها في أوقات أكثر حلوكة وظلامًا، ويؤسفني أنني لم يسمح لي بإكمال العمل ضد اليابان، ولكن جميع الخطط والإعدادات لإكمال هذا العمل قد تمت، وستظهر النتائج في وقت أقرب بكثير مما كان في استطاعتنا أن نتصوره أو نتخيله، وستقع على عاتق

الحكومة الجديدة مسئوليات ضخمة في الخارج والداخل، ولنتوجه كلنا بالدعاء لها بأن توفق في تحمل هذه المسئوليات.

ليس أمامي الآن إلا أن أعرب للشعب البريطاني، الذي عملت من أجله، طيلة تلك السنوات الخطيرة عن عميق شكري، للتأييد الكامل، الذي لم تشبه أية شائبة من التردد، والذي أولاني إياه في أثناء قيامي بالواجب، كما أعرب عن صادق عرفاني لمظاهر العطف التي غمر بها الشعب خادمه المطيع".

الفهرس

ف: 7326 ت:15/3/2010

MEMOIRS OF
Winston Churchill





الدولية للنشر والتوزيع